تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الرابع

العصر العباسي الثاني
في الشرق ومصر والمغرب والأندلس
(٤٤٧ - ٦٥٦هـ/١٠٥٥ - ١٢٥٨م)

تأليف
الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العالية
جامعة بغداد

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

الطبعة الرابعة عشرة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذا كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي بأجزائه الأربعة للدكتور المرحوم حسن ابراهيم حسن نقدمه للقراء والطلاب في طبعة منقحة وبإخراج جديد مزودة بالفهارس الضرورية التي تسهل على الطالب الرجوع الى مبتغاه بيسر وسهولة .

وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب منذ نصف قرن ونيف ولاقى رواجاً وإقبالاً عند صدوره من كافة مستويات القراء وطلاب المعرفة وهواة المطالعة ، وبصدور الأجزاء التالية ازداد الإقبال عليه وبصورة خاصة من طلاب الدراسات التاريخية وكل قارىء عربي تواق لمعرفة تاريخ أمته ومنجزاتها في شتى ميادين الحضارة منذ أن أضاءت الدنيا بنور الإسلام وعبر العصور .

هذا ولا تقتصر دراسة التاريخ ومطالعته للمعرفة والهواية فقط ولكن لاستخلاص العظات والعبر فالتاريخ هو سياسة الماضي وسياسة الماضي تاريخ المستقبل ، قال تعالى في معرض أخباره عن قرون خلت : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ سورة ق ٣٧ / ٥٠ .

وقال ابن خلدون :

إعلم أن التاريخ فن غزير المذهب شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم ، والملوك في سَيْرهم وسياستهم . حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة . . . !!

قال تعالى : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

فإذا كانت هذه فائدة التاريخ كان على المؤرخ من أجل تحقيق هذا الهدف تحري الحقيقة عند تدوينه للتأريخ أو عند نقله لحادثة ما بعيداً عن الخيال والهوى لأنه بالنتيجة سيحظى بأعمال الانسان وبالتالي حقيقة هذا الانسان .

قال ابن خلدون أيضاً :

. . كثيراً ما وقع للمؤرخين من المغالط في الوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولهـا فضلوا عن الحق وتاهـوا ولا بد من رد الأخبـار الى الأصول وعرضها على القواعد . . . !!

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ صدق الله العظيم

الناشر

الباب الأول

العصر السلجوقي الأول
من ظهور طغرلبك إلى وفاة ملكشاه
٤٢٩ - ٤٨٥/١٠٣٨ - ١٠٩٢

١ - ظهور السلاجقة:

ينتسب السلاجقة إلى سَلجوق (بفتح السين) بن تُقاق (بضم التاء) أحد رؤساء الأتراك. وكانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر في مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخاً[١] وكان عدد السلاجقة، كما يقول ابن خلّكان يجل عن الحَصر والإحصاء، لا يدينون بالطاعة لسلطان، وكانوا إذا قصدهم جَمْع ورأوا أنه لا طاقة لهم به، دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرّمال فلا يصل إليهم أحد[٢]. والسلاجقة نوع من الأتراك الغز ويتصل نسبهم بالجد الأكبر لسلاطين الأتراك العثمانيون الذين أسسوا إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى، ثم في سورية ومصر والبحر الأبيض المتوسط وأوروبا وشمال افريقيا عن طريق سلاجقة الروم.

وقد اتسع سلطان السلاجقة حتى فاق سلطان البيت الغزنوي. وكان عصرهم أكثر ردهاراً وملكهم أعظم رقعة وقوتهم أعز سلطاناً ومنعة. وقد أخذوا في سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م يجتاحون الجزء الشمالي والشرقي من بلاد الفرس حتى أقلقوا بال السلطان محمود الغزنوي. وإلى السلاجقة يرجع الفضل في تجديد قوة الإسلام وإعادة تكوين وحدته السياسية. ولهم أهمية خاصة في التاريخ، لقيام الحروب الصليبية في أيامهم، وظهورهم على مسرح هذه الحروب، وكذلك ظهور التتار الذين قضوا على الدولة الخوارزمية[٣] أولاً ثم على الدولة العباسية.

---

(١) والفرسخ أربعة أميال.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٥.

(٣) بضم الخاء وفتحها وفتح الياء وكسرها وسكون الزاي.

كان تُقاق(١) أبو سلجوق كما وصفه ابن الأثير(٢) شهماً ذا رأي وتدبير. وكان زعيم الأتراك الغز، يرجعون إليه في أمورهم ولا يخالفون له قولاً ولا يعصون له أمراً، وقد اتفق أن جمع ملك التُرك عسكره وأراد المسير إلى البلاد الإسلامية. فنهاهم تُقاق واحتدم النقاش بينهما فأغلظ له الملك القول، فلطمه تُقاق فشج رأسه. وأحاط بتُقاق خدم الملك وأرادوا أخذه، وحال أصحاب تُقاق دون ذلك. ثم تم الصلح بينهما. وقد أنجب تُقاق ابنه سلجوق، ولما شبَّ عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل الذكاء، وعرف بعلو الهمة وسعة العقل والكرم حتى استمال قلوب رجال الدولة إليه، فقرّبه ملك التُرك إليه ولقبه بلقب «سباشي» ومعناه قائد الجيش، ولكن زوجة الملك أوجست خيفة من سلجوق لما رأته من طاعة الناس له وانقيادهم إليه، وحملت الملك إلى قتله.

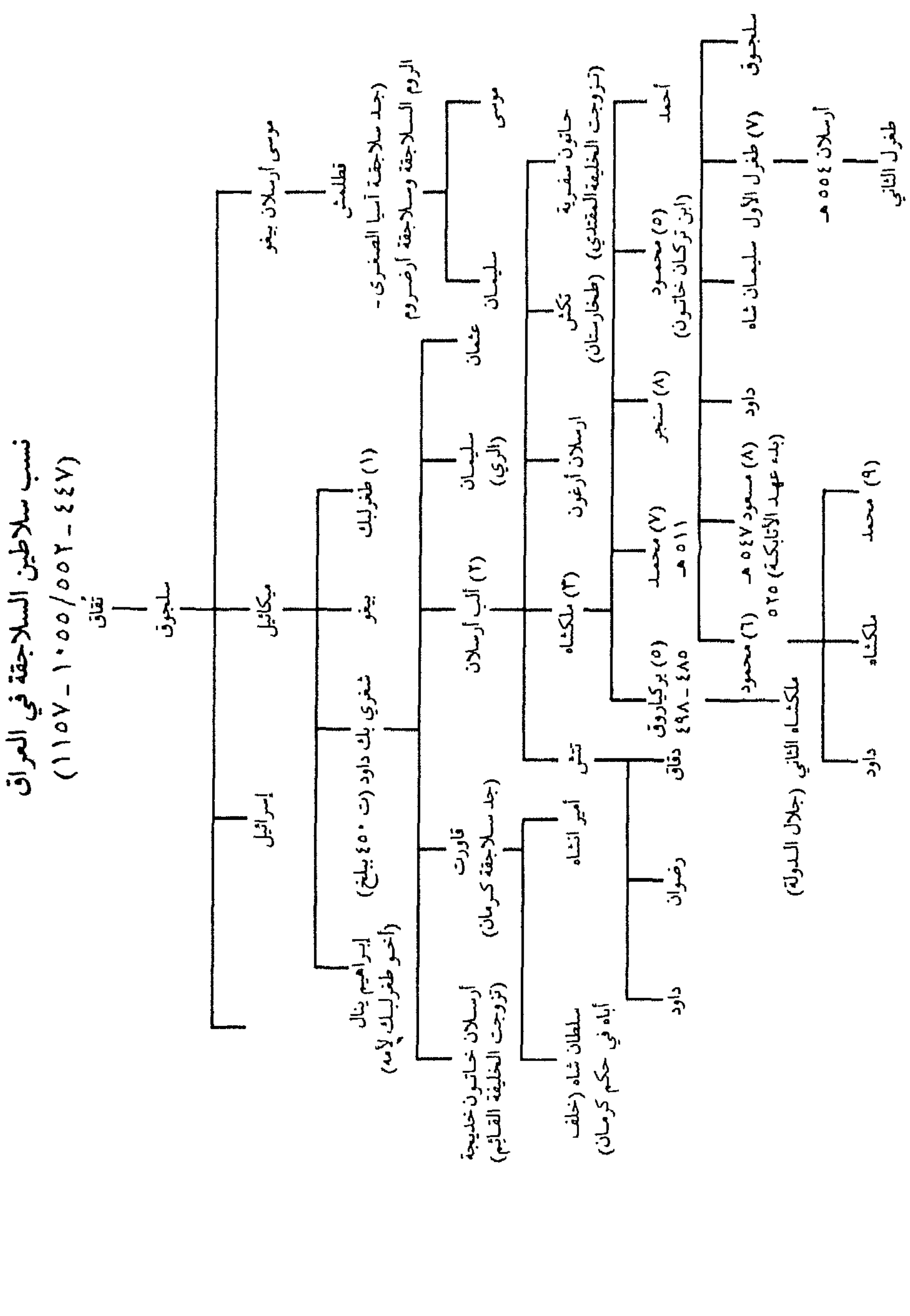
ولما نمي هذا الخبر إلى سلجوق خشي على حياته، فسار على رأس جماعته إلى دار الإسلام وتحول إلى الدين الحنيف وصح إيمانه وأقام هو وعشيرته بنواحي جند(٣)، وأخذ يغير على بلاد الأتراك الذين كانوا ولا يزالون على الكفر. وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين الذين يعيشون في بلاده، وقد طرد سلجوق عمال هذا الملك وضم بلاده إلى البلاد الإسلامية. وقد استنجد السامانيون بسلجوق لمساعدتهم على رد ما أخذه الترك من بلادهم، فأرسل إليهم ابنه أرسلان على رأس جيش استرد هذه البلاد. وكان لسلجوق من الأولاد: أرسلان وميكائيل وموسى.

توفي سلجوق بجَند بعد أن بلغ من العمر مائة وسبع سنين، ثم قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو بلاد الأتراك الكفار، وترك من الأولاد بيغو، وطغرلبك، وشُغْري بك داود، فدانت لهم عشائرهم بالطاعة، ثم يمموا شطر بُخارى، فخشي أميرها خطرهم، فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم، فالتجؤوا إلى «بغراخان» ملك تركستان واحتموا به، واستقر الأمر كما يقول ابن الأثير(٤) بين طغرلبك وأخيه داود على ألّا يجتمعا عند بغراخان حتى لا يحيق مكره السيِّئ بهم.

وقد برهنت الأيام على بعد نظر السلاجقة فقد حال بغراخان دون اجتماع هذين الأخوين عنده، فلم يوفق، فاحتال على أسر طغرلبك وتم له ما أراد. فثارت ثائرة داود وقصد بغراخان في عشائره ليخلص أخاه وأحل الهزيمة بجنده. وأطلق أخاه وعاد إلى جَنْد وبقوا

---

(١) بضم التاء ومعناه القوس الجديد.
(٢) الكامل في التاريخ ج ٩ ص ١٧٦.
(٣) بفتح الجيم وسكون النون.
(٤) الكامل ج ٩ ص ١٧٦.


نسب سلاطين السلاجقة في العراق
(٤٤٧ - ٥٥٢/١٠٥٥ - ١١٥٧)
تقاق
سلجوق
إسرائيل
ميكائيل
موسى أرسلان يغو
إبراهيم ينال (أخو طغرلبك لأمه)
شغري بك داود (ت ٤٥٠ ببلخ)
يغو
(١) طغرلبك
قطلمش (جد سلاجقة آسيا الصغرى - الروم السلاجقة وسلاجقة أرضروم)
سليمان
موسى
أرسلان خاتون خديجة (تزوجت الخليفة القائم)
قاورت (جد سلاجقة كرمان)
(٢) ألب أرسلان
سليمان (الري)
عثمان
سلطان شاه (خلف أباه في حكم كرمان)
أمير انشاه
تتش
(٣) ملكشاه
ارسلان أرغون
تكش (طخارستان)
خاتون سفرية (تزوجت الخليفة المقتدي)
داود
رضوان
دقاق
(٥) بركياروق ٤٨٥ - ٤٩٨
(٧) محمد ٥١١ هـ
(٨) سنجر
(٥) محمود (ابن تركان خاتون)
أحمد
(٦) محمود
ملكشاه الثاني (جلال الدولة)
(٨) مسعود ٥٤٧ هـ ٥٢٥ (بدء عهد الأتابكة)
داود
سليمان شاه
(٧) طغرل الأول
سلجوق
ملكشاه
داود
(٩) محمد
أرسلان ٥٥٤ هـ
طغرل الثاني

هنالك حتى زالت الدولة السامانية. ولما ملك «إيلك خان» بُخارى عظم نفوذ أرسلان بن سلجوق (عم داود وطغرلبك) الذي سار إلى أذربيجان، ولكنه لم يلبث أن أسر وحبس. وقد دارت بين السلاجقة والغزنويين في عهد مسعود (ابن يمين الدولة محمود الغزنوي) معارك طاحنة في عهد مسعود، انتهت بإقطاع دهستان لداود ونسا (بفتح النون) لطغرلبك، وفراوة (بفتح الفاء) لبيغو. ولقب كل منهم بلقب دهقان، وبعث إليهم بالخلع. ولكن هؤلاء الإخوة من عشيرة السلاجقة لم يطمئنوا إلى دعوة السلطان مسعود وأخذوا يخادعونه بإظهار الطاعة له، وطلبوا إليه أن يطلق عمهم أرسلان (بن سلجوق). ولكن هذا الصلح لم يتم وانشغل مسعود ببلاد الهند.

(٢) طغرلبك:

وفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) استولى طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق على مرو حاضرة خراسان وذكر اسمه في خطبة الجمعة بلقب ملك الملوك. وفي شهر شعبان من هذه السنة التقى جيش طغرلبك بجيش الغزنويين عند باب مدينة سرخس وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً وشتت شملهم وطاردهم في كل مكان وغنم أموالهم. فكانت هذه الموقعة كما يقول ابن الأثير «هي التي ملك السلجوقيون بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد» وفي هذا الشهر استولى طغرلبك على نيسابور وأقيمت له الخطبة على منابرها وذكر اسمه مقروناً بلقب السلطان الأعظم[١]. واستقر بدار الإمارة وجلس للمظالم يومين في الأسبوع على ما جرت به العادة في هذه البلاد.

وقد ذكر ابن الأثير بصدد كلامه على فتح نيسابور أن السلاجقة رأوا الكافور فظنوه ملحاً. ويذكر ابن الأثير أن طغرلبك أقام بوابة على الأقاليم المختلفة. ويرجع انتصار السلاجقة في موقعة سرخس الحاسمة إلى أنهم قسموا جيشهم إلى ثلاث فرق كلما تبع الجيش الغزنوي إحداها طوقته الفرقتان الأخريان. وقد صمم السلطان مسعود الغزنوي على ملاقاة السلاجقة بنفسه فجمع جيشاً جراراً. ثم رحل عن غزنة حاضرة سلطنته ميمماً شطر خراسان. وقد ذكر ابن الأثير (٩/ ١٧٩) أن هذا الجيش بلغ مائة ألف سوى الخدم والأتباع.

استمرت الحروب بين السلاحقة والغزنويين ثلاث سنين. ثم وقع الخلاف بين جُنْد مسعود الغزنوي على الماء وازدحموا عليه، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً. وكثر القتل بينهم

---

(١) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٧٠، ١٧١، ١٧٩.

واشتد النهب، وتخلى بعضهم عن السلطان وفارقوه وأتاحوا بذلك الفرصة لجند داود السلجوقي فغنموا غنائم لا تحصى. وسار طغرلبك إلى نيسابور فاستولى عليها في أوائل سنة ٤٣٢ هـ. ولم يلبث أن قتل السلطان مسعود فخلفه أخوه محمد الذي لم يبق في الحكم طويلاً وقبض عليه أخوه داود بن مسعود وقتله هو وأولاده إلّا عبد الرحيم[١].

وفي سنة ٤٣٣ هـ. استولى طغرلبك على جرجان وطبرستان وأقيمت له الخطبة في هذه البلاد وفي السنة التالية استولى على خوارزم وكانت من أملاك الغزنويين وقصد إبراهيم بنال (أخا طغرلبك لأمه) همذان[٢] واستولى عليها.

وفي سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ - ١٠٤٢ م) استولى السلاجقة بقيادة طغرلبك على بلاد الديلم وكرمان[٣]. وانتقل السلاجقة في فتوحهم من نصر إلى نصر حتى جاءت سنة ٤٣٨ هـ التي حاصر فيها طغرلبك مدينة أصبهان وصالحه صاحبها على مال يؤديه إليه وعلى أن يقيم له الخطبة بأصبهان[٤]. وفي السنة التالية عقد الصلح بين أبي كاليجار البويهي والسلطان طغرلبك السلجوقي الذي تزوج بابنة أبي كاليجار، وتزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك[٥].

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٠.

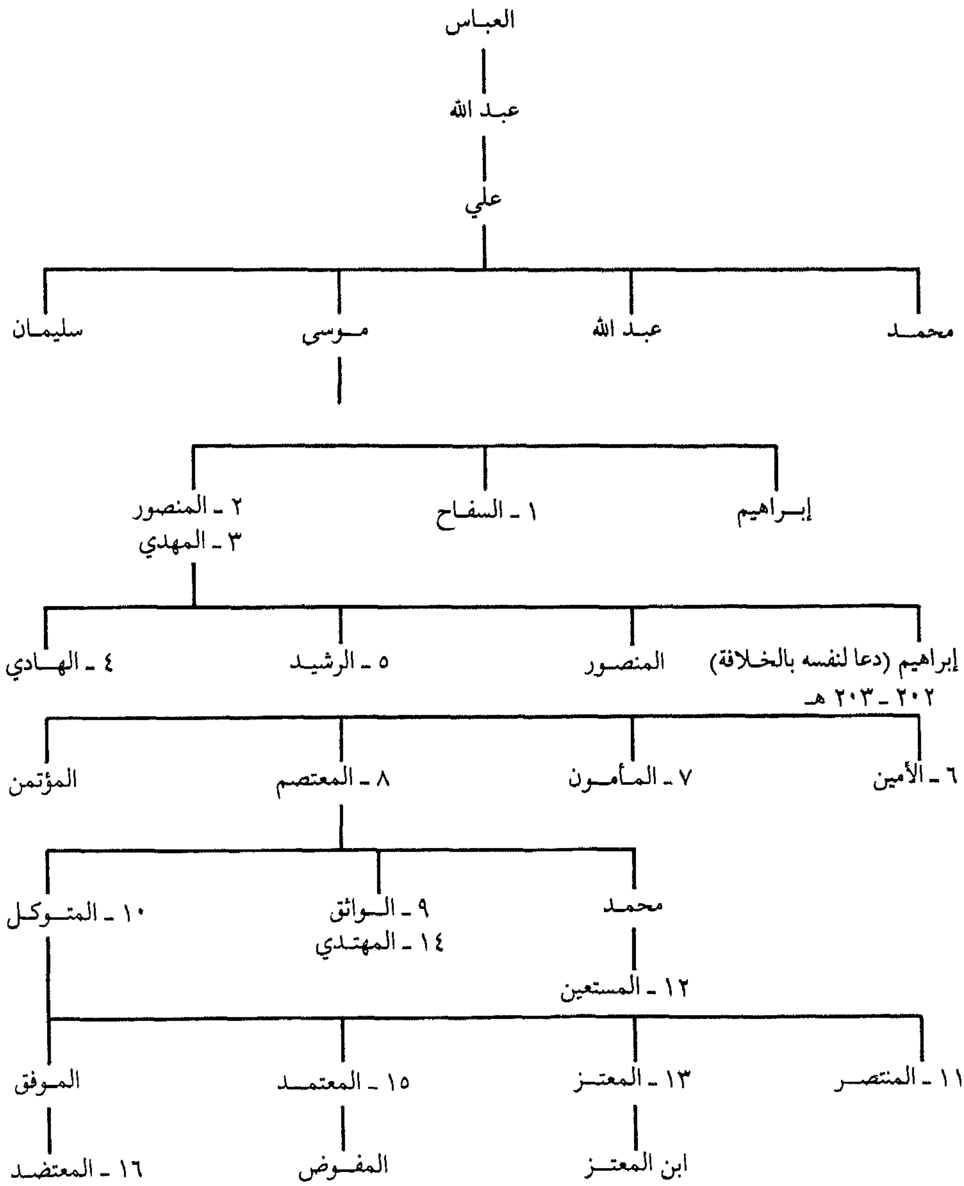
(٢) ذكر ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٥، ١٨٨، ١٩٦، في حوادث سنة ٤٢٥ هـ أن أبا كاليجار البويهي أعاد همذان إلى أملاكه وبنى سور مدينة شيراز الذي بلغ طوله اثني عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع وله أحد عشر باباً. وقد فرغ من بناء هذا السور سنة ٤٤ هـ.

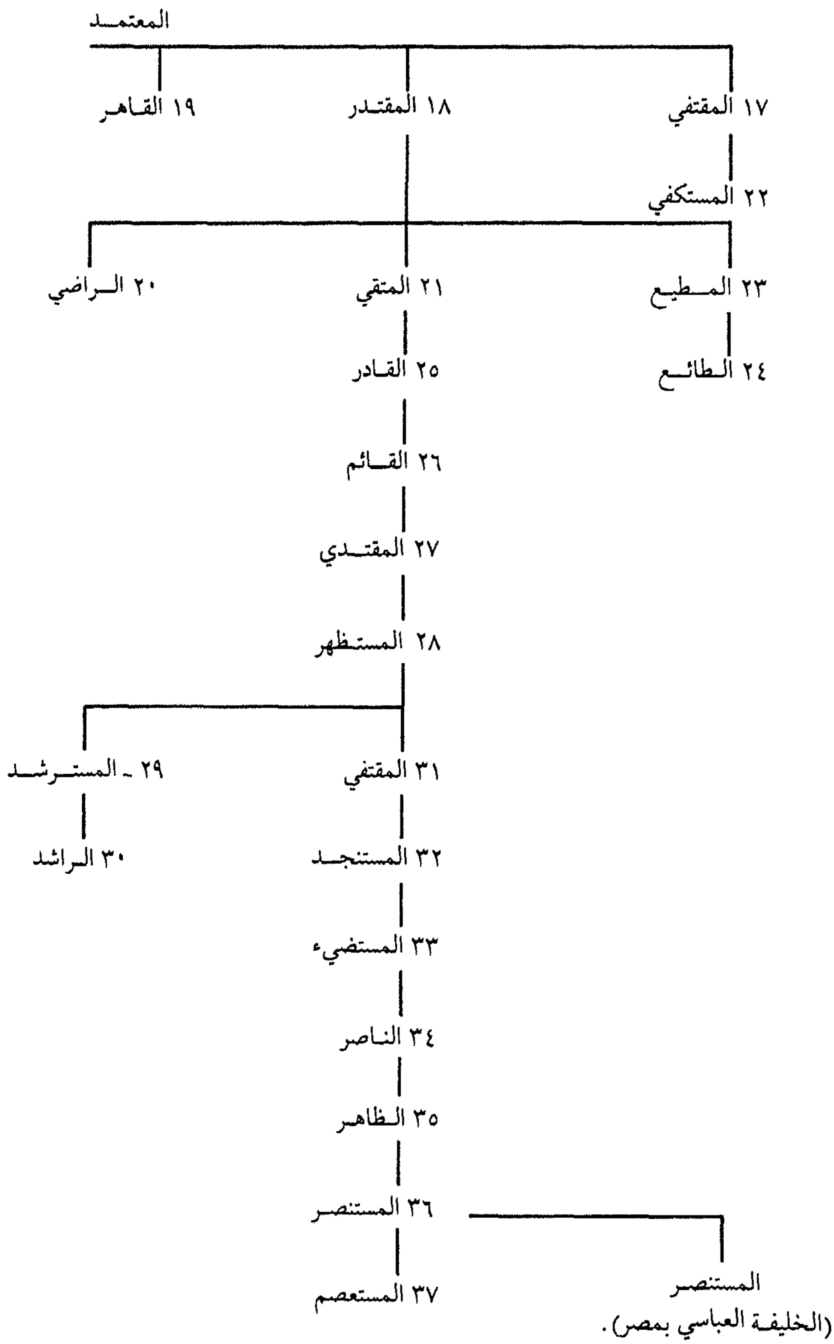
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ١٩٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ١٩٦، ١٩٩ وقد ذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ١٠٧) أن طغرلبك لما ظفر بأخيه إبراهيم بنال أكرمه وأحسن إليه ورد إليه كثيراً مما أخذ منه ولكنه اختار المقام معه.

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٧.

البيت العباسي




المعتمد
١٧ المقتفي
١٨ المقتدر
١٩ القاهر
٢٢ المستكفي
٢٣ المطيع
٢١ المتقي
٢٠ الراضي
٢٤ الطائع
٢٥ القادر
٢٦ القائم
٢٧ المقتدي
٢٨ المستظهر
٣١ المقتفي
٢٩ ـ المسترشد
٣٠ الراشد
٣٢ المستنجد
٣٣ المستضيء
٣٤ الناصر
٣٥ الظاهر
٣٦ المستنصر
٣٧ المستعصم
المستنصر
(الخليفة العباسي بمصر).

تسلسل نسب الخلفاء العباسيين
١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م

١	١٣٢ هـ	السفاح	٧٥٠ م
٢	١٣٦	المنصور	٧٥٤
٣	١٥٨	المهدي	٧٧٥
٤	١٦٩	الهادي	٧٨٥
٥	١٧٠	الرشيد	٧٨٦
٦	١٩٣	الأمين	٨٠٩
٧	١٩٨	المأمون	٨١٣
٨	٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٩	٢٢٧	الواثق	٨٤٢
١٠	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
١١	٢٤٧	المنتصر	٨٦١
١٢	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
١٣	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
١٤	٢٥٥	المهتدي	٨٦٩
١٥	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
١٦	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
١٧	٢٨٩	المكتفي	٩٠٢
١٨	٢٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٩	٣٢٠	القاهر	٩٣٢
٢٠	٣٢٢	الراضي	٩٣٤
٢١	٣٢٩	المتقي	٩٤٠
٢٢	٣٣٣	المستكفي	٩٤٤
٢٣	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
٢٤	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
٢٥	٣٨١	القادر	٩٩١

٢٦	٤٢٢ هـ	القائم	١٠٣١م
٢٧	٤٦٧	المقتدي	١٠٧٥
٢٨	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٩	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٣٠	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٣١	٥٣٠	المقتفي	١١٣٦
٣٢	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٣٣	٥٦٦	المستضيء	١١٧٠
٣٤	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٣٥	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٣٦	٦٢٣	المستنصر	١٢٢٦
٣٧	٦٤٠ ـ ٦٥٦	المستعصم	١٢٤٢ ـ ١٢٥٨

على أن الخلاف قد دب بين أفراد البيت السلجوقي. فقد طلب طغرلبك من أخيه إبراهيم بنال أن يسلم إليه مدينة همذان وما بيده من القلاع التي ببلاد الديلم. فامتنع إبراهيم عن إجابة أخيه إلى ما طلب. ويذكر ابن الأثير أن طغرلبك أمر بأخيه فضرب بين يديه وسلمت إحدى عينيه وقطعت شفتاه، ثم دارت الحرب بينهما، وملك طغرلبك ما كان بيده من القلاع، وتحصن إبراهيم بقلعة حصينة فسار إليه طغرلبك على رأس جيش كثيف يتألف من مائة ألف مقاتل وأوقع الهزيمة بإبراهيم، وأقيمت الخطبة له في سائر ديار بكر، كما أبرمت الهدنة بين طغرلبك وإمبراطور الروم وتبودلت بينهما الهدايا وعمر مسجد القسطنطينية وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرلبك في الخطبة «ودان الناس كلهم له وعظم شأنه وتمكن ملكه وثبت».

هزم السلاجقة مودود بن مسعود الغزنوي في خراسان، ثم رد طغرلبك على كتاب الخليفة العباسي القائم، وضمنه ما حل بالبيت السلجوقي من حيف وظلم على يد البيت الغزنوي، وعبر عن شكره على ما أفاضه عليه الخليفة من خلع وما منحه إياه من ألقاب، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة «عشرة آلاف دينار عيناً وأعلاقاً نفيسة من الجواهر والثياب

والطيب وغير ذلك. وأرسل خمسة آلاف دينار للحاشية وألفي دينار لرئيس الرؤساء»(١)، «وأرسل طغرلبك إلى الخليفة رسولاً يبالغ في إظهار الطاعة والعبودية، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان. . . فأنكر الأتراك ذلك. . . فغولطوا في الجواب. وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه ويختار انقراض الدولة الديلمية»(٢).

ثم أخذ السلاجقة في تقسيم البلاد الشاسعة التي دخلت تحت حوزتهم: فأصبحت بُسْت (بضم الباء وسكون السين) وهَراة (بفتح الهاء) وسِسْتان (بكسر السين الأولى وسكون السين الثانية) في يد موسى بن قُطَلْمِش بن أرسلان بيْغو (بكسر الباء وسكون الياء) ابن سلجوق، وغدت مرو والعراق في يد أبناء أخيه شَغْري (بفتح الشين وسكون الغين) بك داود وطغرل على التوالي. أما أبناء شَغْري فقد أصبحت في يد قاوُرْت (بضم الواو وسكون الراء) كرمان وتون وطَبَس (بفتح الطاء والباء) وياقوتي أذربيجان وأَبْهَر (بفتح الألف مع الهمزة والهاء وسكون الباء) وزَنجان (بفتح الزاي وسكون النون) على حين انتخب الابن الثالث وهو ألب أرسلان، ليكون مع عمه طغرل الذي اتخذ الري حاضرة لدولته، وأعطيت همذان لإبراهيم بنال(٣) بن ميكائيل بن سلجوق، على حين تسلم موسى بن قُطَلْمِش (بضم القاف وفتح الطاء وسكون اللام وكسر الميم) جُرجان (بضم الجيم) ودامغان.

ولما تسلم الخليفة القائم كتاب طغرلبك أرسل إليه كتاباً رقيقاً. وبعد قليل أمر الخليفة بذكر اسم طغرلبك في الخطبة ونقشه على السكة قبل اسم السلطان البويهي الملك الرحيم. فخطب له يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ. ثم أرسل طغرلبك رسولاً من قبله يستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له ودخل بغداد لخمس بقين من هذا الشهر (ديسمبر ١٠٥٥ م) بصحبة الوزير رئيس الرؤساء في موكب فخم يضم القضاة والأشراف والنقباء وأعيان الدولة وأمراء أجناد السلطان البويهي الملك الرحيم(٤).

وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة قدم لطغرلبك فرس فركبها حتى وصل إلى دهليز «قصر السلام». ثم نزل ومشى والأمراء بين يديه حتى وصل إلى إيوان الخليفة، فأسدلت الستارة. ولما ظهر وجه الخليفة القائم، وعلى كتفه بردة الرسول وبيده القضيب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢١٦، ٢٢٨.
(٢) Brownee, Lit Hist. of Persia Vol. 11. P. 172.
(٣) وقد قتله طغرل بعد قليل (٤٤٩/١٠٥٧ - ١٠٥٨) لاتهامه بتدبير مؤامرة للغدر به.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢٢٨.

النبوي، قبل طغرلبك الأرض، فأمره الخليفة بالصعود ومعه محمد بن المنصور الكُنْدُري (بضم الكاف والدال وسكون النون) مفسراً ومترجماً. ثم وضع لطغرلبك كرسي جلس عليه، وفسر له تفويض الخليفة إليه. ثم تُوِّج وطُوِّف وسُوِّر وأفيضت عليه سبع خلع سود من طراز واحد تمثل مملكة الأقاليم السبعة، وعُمِّم بعمامة مذهَّبة، وجمع بين تاجي العرب والعجم، وقلد سيفاً محلّى بالذهب، ثم عاد وجلس على الكرسي وسأل مصافحة الخليفة، فمدّ إليه يده مرتين فقبلها ووضعها على عينه. ثم قلده الخليفة سيفاً آخر كان بين يديه، فتم له بذلك تقليد السيفين، بمعنى أنه تقلد ولاية الدولتين، فخاطبه الخليفة «بملك المشرق والمغرب». ثم أحضر عهده وقال الخليفة: هذا عهدنا يقرؤه عليك محمد بن منصور بن محمد[1] صاحبنا ووديعتنا عندك، فاحفظه وأحرسه فإنه الثقة المأمون، وانهض في دعة الله محفوظاً وبعين الكلأة[2] ملحوظاً[3]، وذلك في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ.

ثورة البساسيري

وبعد دخول طغرلبك بغداد بقليل واجه كثيراً من الاضطرابات التي أثارها الجنود الأتراك في دار الخلافة، والقلاقل التي سادت الموصل وديار بكر وسنجار (بكسر السين) وغيرها، ولم يكن بد من أن يقضي طغرلبك عليها بنفسه. وبعد قليل عاد طغرلبك إلى بغداد لمواجهة الثورة التي قام بها الأتراك بزعامة أبي الحارث البساسيري الذي أقام الدعوة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد وغيرها نحواً من سنة.

وقد تبدلت سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليجار (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ) الذي اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين، كما حال دون تقريب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه. حتى إن أبا كاليجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس، الذي تقلد فيما بعد منصب داعي الدعاة في مصر، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين. وقد دأب الخليفة المستنصر الفاطمي على مناوأة الخلفاء العباسيين. لذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيري في ثورته على الخليفة العباسي القائم، ويمده بالمال والرجال، ويبعث داعيته

(١) لقب عميد الملك وجمع بين السيف والقلم ثم لقب سيد الوزراء. البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦.

(٢) يقال كلأه الله بعين العناية أي حرسه.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٣ - ١٤.

الجريء هبة الله الشيرازي لإثارة حماسة جند البساسيري، وحثهم على إذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي، ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند من بلاد الشام[١].

ولم يكتف الخليفة الفاطمي بذلك، بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيري والعرب بزعامة دبيس بن علي بن مَزْيَد أمير عرب الفرات، ولقبه بألقاب منها الأمير، وسلطان ملوك العرب، وسيف الخلافة، وصفي أمير المؤمنين، ومنحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقي نهر الفرات[٢]. وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمي أن انتصر البساسيري وأنصاره على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ[٣].

ولم يقف نشاط الفاطميين من مناوأة العباسيين عند هذا الحد، فقد قام المؤيد في الدين بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد العراق، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان أبي كاليجار البويهي الذي عرف بميله إلى الفاطميين. أما الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) فقد وجد في المؤيد في الدين خطراً يهدد دولته ومذهبه السني في فارس، فعمل على القضاء على جهوده، وبعث إلى أبي كاليجار يطلب إليه تسليم داعي الفاطميين، ويهدد بدعوة السلاجقة إلى دخول بغداد.

وقد بيّن المؤيد في الدين في سيرته ما بذله من جهود في سبيل نشر الدعوة الفاطمية وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في شيراز، وإحلال اسمه محل اسم الخليفة العباسي، وكيف أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسي الذي طلب من أبي كاليجار تسليم هذا الداعي إليه، فلم يحفل السلطان البويهي بذلك، بل إنه ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة بدل اسم الخليفة العباسي[٤].

ومن هذا ندرك مدى علاقة المودة التي قامت بين أبي كاليجار البويهي وبين الفاطميين وكيف اتخذ من هذه العلاقة سلاحاً يشهره في وجه العباسيين، حتى يحول بينهم وبين التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه في ذلك الحين[٥].

---

(١) السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين، مخطوط بمكتبة القاهرة، ورقة ١٨٤.

(٢) انظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد في كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين، ص ١٩١ و١٩٣.

(٣) ابن منجف الصيرفي، الإشارة الى من نال الوزارة.

(٤) السيرة المؤيدية مخطوط ورقة ٩٥ - ٩٦.

(٥) المصدر نفسه، مخطوط ورقة ٩٢.

وكان من أثر ذلك أن أصبح أبو كاليجار يسمع محاضرات المؤيد في الدين ويدرس كتب الإسماعيلية[١].

وقد نقل هارولد باون[٢] عن كتاب Fārs-nameh أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السبعية، الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت. قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة في فارس على يد ذلك الداعي القدير، الذي نجح في تحويل أبي كاليجار إلى عقائد هذا المذهب.

وفي الحق أن الديلم قد أصبحوا ـ كما يقول المؤيد في الدين[٣] ـ «إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين»، واصبحوا «يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً، واتخذه الكل سراً ومفزعاً في كل شيء[٤]»، وأخذ أكثر ندماء أبي كاليجار البويهي يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي[٥].

وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم بنال على أخيه طغرلبك، فانتهز البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٥ هـ . وقتل الوزير ابن مسلمة، لكن الخليفة «استذم بذمام[٦] قريش فحماه من القتل». ودخل البساسيري بغداد، كما يقول أبو المحاسن بالرايات المستنصرية، فمال إليه أهل الكرخ وأغلبهم من الشيعة، وزيد في الأذان حيّ على خير العمل، وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر بغداد، ثم قبض البساسيري على الخليفة العباسي وحبسه[٧].

كان أبو الحارث البساسيري من قواد بني بويه الأتراك، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره في عهد الملك الرحيم، حتى أصبح الخليفة العباسي والسلطان البويهي معه مسلوبي السلطة ضعيفي الجانب. وسرعان ما استولى البساسيري على البلاد، وانتشر ذكره وطار صيته، وتهيبته أمراء العرب والعجم، ودعي له على كثير من منابر العراق والأهواز ونواحيهما، وجبى

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٥.

(٢) Harold Browen, The Last Buwayhids, J. R. A. (1929), p. 234.

(٣) السيرة المؤيدية ص ٤.

(٤) السيرة المؤيدية ص ١٣.

(٥) المصدر نفسه ص ١٩.

(٦) الذمام: الحرمة يريد أنه تمنع منه بذمة قريش فحماه من القتل. في الأصل واستنزاف بزمام قريش وهو تحريف. والمعنى هنا استعاذ بشرف قريش من شر القتل.

(٧) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦، ١٢.

الأموال، وغدا الخليفة القائم لا يقطع أمراً قبل الرجوع إلى رأيه(١).

وقد عزا ابن الأثير(٢) تبدل العلاقة بين الخليفة القائم والبساسيري إلى تقريب الخليفة أبا الغنائم وأبا سعد صاحبي قريش بن بدران العقيلي اللذين وصلا سراً إلى بغداد ونسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم)، ورماه بأنه خرب البلاد وأطمع الغز (وهم فرع من السلاجقة).

وكان ابن مسلمة الذي يعرف برئيس الرؤساء قد وزر للخليفة القائم. وكان يكره بني بويه لتشيعهم، ويسعى جهده في إحلال السلاجقة السنيين محلهم في حكم بغداد، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين. يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التي بعث بها المؤيد في الدين الشيرازي، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك في العراق، إلى وزير طغرلبك، ليوقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة، ويقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى. وهاك بعض ما جاء في هذه الرسالة: «بسم سيدي الأجل عميد الملك (أبو نصر محمد بن منصور الكندري) إنني كنت خاطبت حضرته وهو يومئذ مقيم بالري، خاطباً لمودته وطالباً لاتشاج الحال(٣) بيني وبينه، لما كان يبلغني من محاسن أوصافه وجميل خلاله وخصاله، ولأن يكون التعارف بيننا سلّماً إلى التعارف بين سلاطيننا، خلّد الله ملكهم، وتأكد سبب المودة بينهم، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى **﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾** [سورة النساء ٤ : ١١٤] واتفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله، حتى عمل سحره ونفذ كيده، وحصل الركاب العالي (السلطان طغرلبك) ببغداد. وانبثت الكتب يميناً وشمالاً بكون قصده لقضاء حق الخليفة (القائم) والسلام عليه والتبلغ بعده إلى مصر»(٤).

أما الخطيب البغدادي فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنده سوء عقيدة البساسيري. وشهد عنده جماعة من الأتراك أنه عرفهم وهو إذ ذاك بواسط، عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة، فكاتب الخليفة طغرلبك يستنهضه على المسير إلى العراق.

وقد ذكر الذهبي(٥) أن الخليفة القائم نمى إليه أن البساسيري كان يكاتب الفاطميين في

---

(١) الخطيب البغدادي: كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٢) ج ٩ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) الاتشاج: الاشتباك أي الائتلاف.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠.

(٥) تاريخ الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، مخطوط مصور رقم ٣٩٦ تاريخ ج ٣ ورقة ٢٢.

مصر، وطلب إلى الملك الرحيم أن يبعد البساسيري. وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى استيلاء طغرلبك على العراق.

وفي الحق أن العداء الذي قام بين الخليفة العباسي والبساسيري كان عَداء بين العباسيين والبويهيين، وبعبارة أخرى بين السنيين والشيعيين. وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بني بويه من الفاطميين على يد المؤيد في الدين الشيرازي، وأدرك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية. وليس من شك في أنه كان بين جند بني بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل، على رأسهم البساسيري، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين. فعمل الخليفة العباسي القائم على الحد من نفوذ البساسيري وأنصاره، وعزم على إبعادهم عن بغداد، وتمهيد السبيل لدخول السلاجقة إليها. ولم يكن استنجاد الخليفة العباسي بالسلاجقة إليها أمراً مستبعداً، فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة، فاستعانوا بالفرس على العرب في تأسيس دولتهم ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم، وراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري وأنصاره حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر، بل إنه أوفد الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة. وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببني بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار.

ومهما يكن من شيء فقد أرسل الخليفة العباسي إلى طغرلبك رسولاً يدعوه إلى دخول بغداد[1]. ويقول ابن الأثير[2] في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرلبك «أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها».

وقد أعد طغرلبك لذلك الأمر الخطير عدته. ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت، وانتثر عقد نظامها، وأجفل الناس إلى غربها، وعسكر الأتراك بظاهرها. وسمع الملك الرحيم بقرب طغرلبك من بغداد، فأصعد من واسط إليها وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه إلى الملك الرحيم، أن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء، يعني المصريين، وأن الخليفة له على الملك (الرحيم) عهود، وله (أي الملك الرحيم) على الخليفة مثلها. فإن آثره (يعني طغرلبك السلجوقي) فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد، تولى الديوان تدبير أمره. فقال الملك الرحيم ومن معه: نحن

---

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ ـ ٩.

(٢) الكامل: ج ٩ ص ٢٢٧.

لأوامر الديوان متبعون وعنه (يعني البساسيري) منفصلون»[١].

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيري أدركوا أن الخليفة إنما قصد إقصاءه ليفسح الطريق لدخول طغرلبك. ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد في منتصف شهر رمضان، وأظهر إخلاصه للخليفة، وقبل وساطته بينه وبين طغرلبك. فكان الملك الرحيم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد العزم على الاستعانة بالسلاجقة وإزالة سلطان بني بويه. وقد أشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يدينوا بالطاعة لطغرلبك الذي دخل بغداد دون كبير عناء[٢].

على أن زعزعة الحالة المالية في مصر، وعودة المؤيد في الدين إليها، وقيام المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري، وعودة طغرلبك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم بنال؛ كل ذلك قد ساعد على القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد نحواً من سنة.

وسرعان ما ردّ طغرلبك الخليفة إلى قصره معززاً مكرماً (٤٥١ هـ) وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد[٣]. ولما رجع الخليفة إلى قصره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه. ولزم الصيام والقيام، ولم يضع رأسه بعدها على مخدة.

وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما سجن الخليفة العباسي أخذ الخليفة يكتب قصته وأنفذها إلى مكة فعلقت في الكعبة. وفيها يشكو إلى الله فعل البساسيري ويطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه، وإليك نص هذا الكتاب عن السيوطي[٤]: «اللهم إنك العالم بالسرائر المطلع على الضمائر. اللّهم إنك غني بعلمك واطلاعك على خلقك عن علامي. هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها وألغى العواقب وما ذكرها. أطغاه حلمك حتى تعدى علينا بغياً وأساء إلينا عُتُوًّا وعدواً[٥]، اللهم قلّ الناصر واعتز الظالم، وأنت المطلع العالم المنصف الحاكم، بك نعتز عليه وإليك نهرب من يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك. وقد حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه إليك ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك، فأحكم بيننا بالحق وأنت أحكم الحاكمين».

---

(١) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٩ ص ٢٢٨. انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤١١ - ٤١٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ - ٣٤٤.

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٥) يعني اعتداء.

كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد ويجمعون كل السلطة في أيديهم. ثم جاء السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة. وكان الخلفاء العباسيون يعيشون في أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت الحال في أيام بني بويه(١). ولم يكن لهؤلاء الخلفاء شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة، كما كانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها(٢).

على أننا إذا دققنا النظر وتتبعنا الحوادث التاريخية فإننا نستطيع أن نهتدي إلى هذه النتيجة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت بصفة عامة أحسن بكثير من معاملة بني بويه لهم. ولعل ذلك كان راجعاً إلى هذه الحقيقة وهي أن السلاجقة كانوا يدينون بعقائد المذهب السني مذهب العباسيين. فقد أصبح السلاجقة كغيرهم من الشعوب التركية يتمسكون بعقائد المذهب السني بمجرد تحولهم إلى الإسلام. وقد عرفوا بشدة تحمسهم لهذا المذهب وتمسكوا كغيرهم من الأتراك بعقائد المذهب الحنفي.

وقد وصف ابن الأثير(٣) الاجتماع الذي عقد بين السلطان طغرلبك عندما عاد إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ على أثر إخضاعه وقضائه على مناوأة دُبَيْس (بضم الدال وفتح الباء وسكون الياء) بن مزيد وقريش بن بدران وبين الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧/١٠٣١ - ١٠٧٥) فقال:

«وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوساً عاماً، وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد، وحضر السلطان في المساء وأصحابه حوله في السميريات(٤). فلما خرج من السميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة، فحضر عند الخليفة، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع، وعليه بردة النبي ﷺ، وبيده القضيب الخيزران؛ فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء: قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك، وقد ولّاك جميع ما ولّاه الله من بلاده وردّ عليك مراعاة عباده. فاتق الله فيما ولّاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكفّ الظلم وإصلاح الرعية، وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه؛ فقام إلى موضع لبسها فيه، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب، وأعطي العهد وخرج. وأرسل إلى الخليفة خدمة (هدايا) كثيرة، منها خمسون

(١) البنداري: زبدة الفكرة ص ١٩٤.

(٢) Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate. p. 327.

(٣) الكامل ج ٩ ص ٢٣٧.

(٤) بضم السين مع التشديد وفتح الميم وسكون الياء: ضرب من السفن.

ألف دينار وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من السلاح وغيرها». كما تظهر هذه العلاقات الحسنة في ارتباط البيتين السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة في كثير من المناسبات.

تقدمت السن بالسلطان طغرلبك إذ بلغ السبعين، وكان عقيماً لم ينجب ولداً. ولكن أطماعه لم تقف عند حد، فملك هذه الدولة الشاسعة الأرجاء، بل إنه بعد وفاة زوجته في سنة ٤٥٤ (١٠٦١ ـ ١٠٦٢ م) خطب ابنة الخليفة القائم (وقيل أخته). ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل، فوصل إلى الري ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة. فمرض في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) بعد أن حكم الدولة العباسية سبع سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً. وكان وزيره الكندري على بعد سبعين فرسخاً من الري، فطوى هذه المسافة في يومين، ولم يكن طغرلبك قد دفن بعد. فتولى الوزير الكندري دفنه، ووزع جميع ما كان يملكه على الجند، وأجلس سليمان بن داود أخا طغرلبك على العرش، وكان عمه ألب أرسلان قد أوصى بأن يخلفه من بعده.

أخلاق طغرلبك وصفاته ـ وفاته

كان طغرلبك، على ما وصفه ابن الأثير، عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره، وكان يحافظ على الصلاة ويصوم يومي الاثنين والخميس. وكان يلبس الثياب البيض، وكان كريماً؛ فقد روى المؤرخون أن أخاه إبراهيم بنال أسر بعض ملوك الروم فافتدى نفسه بأربعمائة ألف دينار، فأبى إبراهيم وحمله إلى السلطان طغرلبك. فأرسل إمبراطور الروم إلى الأمير نصر الدولة بن مروان يطلب وساطته عند طغرلبك في إطلاق سراحه. فأرسل السلطان ذلك الرومي بصحبة أحد رجاله دون أن يأخذ منه فداء: وقد قدر الإمبراطور هذا الصنيع وعبر عن إعجابه به وتقديره إياه، فرد مع رسوله إلى طغرلبك «ما لم يحمل في الزمان المتقدم، وهو ألف ثوب ديباج، وخمسمائة ثوب أصناف[١]، وخمسمائة رأس من الكراع، إلى غير ذلك، وأنفذ مائتي ألف دينار، ومائة لبنة فضة، وثلثمائة شِهري[٢] (بكسر الشين)، وثلثمائة حمار مصرية، وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون. وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمناء مسكاً[٣]، وعمر ملك الروم الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وعمر منارته وعلق فيه القناديل، وفي محرابه قوساً ونشابة، وأشاع المهادنة»[٤].

---

(١) يعني من التحف المتنوعة.

(٢) جاء في القاموس في مادة شهر: الشهرية (بالكسر) ضرب من البراذين وهو يناسب المعنى هنا.

(٣) لعله يقصد الأوعية المحكمة التي يؤمن على ما فيها.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٠.

وقد ذكر البنداري[١] أن أبا الحسن علي الماوردي أقضى القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية الذى يعد أول كتاب وضع في النظم الإسلامية بوجه عام والمتوفى سنة ٤٥٠ هـ لما حمل رسالة الخليفة القائم إلى طغرلبك سنة ٤٣٣ هـ، كتب إلى الخليفة كتاباً ضمنه الطعن في طغرلبك والقدح فيه وذكر مساوئه. ولكن هذا الكتاب وقع من غلام الماوردي وحمل إلى طغرلبك ووقف على ما تضمنه، ولكنه ختمه وكتم ما فيه، واستمر في إكرام الماوردي واحترامه. وكان طغرلبك يداري هفوات الناس بحلمه، كما كان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد كثير التعبد والتهجد، وكان يقول: إني أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني إلى جانبها مسجداً.

وكذلك روى البنداري[٢] عن عميد الملك الوزير الكندري أن طغرلبك لما مرض مرض الموت قال: إنما مثلي في مرضي مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف، فتظن أنها تذبح فتضطرب، حتى إذا أطلقت تفرح؛ ثم تشد قوائمها للذبح، فتظن أنها لجز الصوف وتسكن فتذبح. وهذا المرض شد القوائم للذبح. وتوفي وله من العمر سبعون سنة على ما تقدم.

(٣) ألب أرسلان ٤٥٥ ـ ٤٦٥/١٠٦٣ ـ ١٠٧٢:

خلف طغرلبك ألب أرسلان ابن أخيه شغري داود صاحب خراسان ومعه وزيره نظام الملك برغم نص طغرلبك على تولية سليمان بن داود لأن أمه كانت عنده، فحقق رغبتها في ابنها. وقد جلس على عرش السلطنة بمساعدة الوزير الكندري (بضم الكاف والدال وسكون النون) المعروف بعميد الملك، كما أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلمش ثارا عليه وحلت به الهزيمة، وجلس ألب أرسلان على عرش السلطنة[٣] بمساعدة وزيره نظام الملك. وقد أدت هذه المحاولة إلى قتل الوزير الكندري الذي قبض عليه وأرسل إلى مرو حيث اعتقل نحواً من سنة، ثم قتل بيد غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر السلطان طغرلبك ثماني سنين وشهوراً، وكان عمره إذ ذاك نيفاً وأربعين سنة[٤]. وكان الوزير الكندري فصيحاً بالعربية شاعراً، ولما شعر بدنو أجله قال لمن شهر السيف عليه: قل لنظام الملك: «بئسما عوّدتَ الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر قليبا (بئراً) وقع فيه» ودعا الله أن يُحل لعنته به وبالسلطان وأن يلقى كل منهما نفس المصير[٥].

وقد استجاب الله لدعاء الوزير الكندري، فقد حلت لعنته بالوزير نظام الملك وقتل على أيدي الباطنية، وقتل السلطان ألب أرسلان ببلاد ما وراء النهر كما سيأتي.

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(٤) البنداري ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٢.

وهكذا ظهر هذا الوزير الذي لا يضارعه وزير شرقي آخر، كما يقول «براون»[١]، بهذا العمل الذي ينم عن القسوة وسفك الدماء، وحلت به لعنة سلفه، وختمت حياته بنفس الطريقة التي ختمت بها حياة سلفه. وفي العصر السلجوقي الذي يشمل على خمس وخمسين سنة (٤٣٠ - ٤٨٥ هـ) أُسندت مقاليد الدولة إلى أحد مشهوري الوزراء الذين أنجبتهم بلاد الفرس. وهو نظام الملك الذي اشتهر بحكمته وحزمه.

اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها ألب أرسلان؛ فذكر بعضهم أنه ولد سنة ٤٢٠ هـ[٢] (وقيل سنة ٤٢٤ هـ أو سنة ٤٣١ هـ)، وكان عهده رغم قصره (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) حافلاً بجلائل الأعمال. ففي السنة الأولى من حكمه أخضع خَتْلان (بفتح الخاء وسكون التاء) وهَراة (بفتح الهاء) وصِغانِيان (بكسر الصاد والنون) في الشمال الشرقي، وكان أصحابها قد شقوا عليه عصا الطاعة، ورد البيزنطيين في آسيا الصغرى على أعقابهم بعد أن فتح كثيراً من قلاعهم وغنم غنائم لا تحصى وأسلم كثير من أهالي هذه البلاد. وقد اشترك ملكشاه بن ألب أرسلان والوزير نظام الملك في هذه الحروب سنة ٤٥٦ هـ [٣]: وبعد قليل أخضع ألب أرسلان جَنْد حيث دفن جده الأكبر سلجوق مما جعل لها أهمية خاصة في نظره، وقمع الثورة التي قامت في فارس وكرمان. وفي سنة ٤٥٧ هـ أخذ في بناء المدرسة النظامية ببغداد، وفي السنة التالية ولى عهده ابنه ملكشاه، فبايعه أمراء دولته، وذكر اسمه في الخطبة في جميع البلاد التي دانت لسلطانه، وأقطع بلاده أفراد البيت السلجوقي[٤].

كذلك أقطع ألب أرسلان من بلاد خصومه الفاطميين حلب ومكة والمدينة، وأقيمت الخطبة بحلب للخليفة العباسي القائم وللسلطان ألب أرسلان[٥]، ولعل من أهم الأحداث التي وقعت في عهد السلطان ألب أرسلان ذلك الانتصار الحاسم الذي أحرزه على جيش

---

(١) Lit. Hist. of Persia, vol II p. 175.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣ - ١٥. وقد ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ١٦٢) أن ألب أرسلان ولد سنة ٤٢٤ هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٧.

(٤) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٠ ص ١٩) أنه أقطع مازندران الأمير إيتانج بيغو وبلخ أخاه سليمان بن داود، وخوارزم أخاه أرسلان أرغون، ومرو ابنه الآخر أرسلان شاه، وصغانيان وطخارستان أخاه الياس، وولاية بغشور ونواحيها مسعود بن أرتاش (أحد أقارب السلطان)، وولاية اسفزار مودود بن أرتاش.

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢ - ٢٣ - ٢٤.

البيزنطيين في ملازجرد[١] سنة ٤٦٣ هـ ، وكان هذا الجيش يتكون من مائتي ألف مقاتل[٢] في أقل تقدير (من الروم والروس والغز من جميع العشائر والأكراج والخزر والفرنجة والأرمن)، على حين لم يزد جيش السلاجقة على ١٥,٠٠٠ ، وما تبع هذا الانتصار من أسر إمبراطور الروم.

وقد ذكر جمهرة المؤرخين (كابن الأثير والبنداري وصاحب كتاب راحة الصدور) ما كان من أسر امبراطور الروم ديوجينيس رومانوس (Diogenes Romanus)، ذلك أن أحد غلمان سعد الدولة جوهر ـ آئين (ويسميه ابن الأثير كوهراثين) هو الذيأسر الإمبراطور، فأراد قتله، فقال له خادم مع الملك: لا تقتله فإنه الملك. وكان هذا الغلام قد عرضه جواهر ـ آئين أحد أمراء ألب أرسلان على الوزير نظام الملك فرده استحقاراً له. فأثنى عليه جوهر ـ آئين، فقال نظام الملك مازحاً: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً. ومن أعجب المصادفات أن هذا الغلام هو الذي أسر الإمبراطور، فلما أسره أحضره عند جواهر ـ آئين، فقصد السلطان ألب أرسلان وأخبره بنبأ أسر الإمبراطور، فأمر بإحضاره. فلما أحضر ضربه السلطان ثلاثة مقارع بيده وقال له: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ قال: أفعلُ القبيح، قال السلطان: ما تظن أنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك. قال: ما عزمت على غير هذا. ففداه السلطان بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، وقد استقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل إليه خمسة عشر ألف دينار[٣] يتجهز بها، وأطلق سراح جماعة من أمرائه وقواده، وخلع عليه وسير معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخاً[٤].

---

(١) بكسر الجيم (ويسميها ابن الأثير ملاذ كرد على مقربة من أخلاط غربي آسيا الصغرى.

(٢) نقل براون ج ٢ ص ١٧٧ هامش (١) عن مخطوط راحة الصدور التي صنفها الراوندي سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أن عدد جند الروم بلغ ٦٠٠,٠٠٠. وذكر البنداري ٣٠٠,٠٠٠ وابن الأثير: ٢٠٠,٠٠٠. ويتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة. وكانت نسخته الخطبة الفريدة في حوزة (شيفر) (وهي الآن بالمكتبة الأهلية بباريس في الملحق الفارسي). وقد نشر براون (Vol. II. p. 297) وصفاً لهذه المخطوطة في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بانجلترا (١٩٠٢) ص ٥٦٧ ـ ٦١٠، ٨٤٩ ـ ٨٨٧. وقد طبع محمد إقبال هذه المخطوطة سنة ١٩٢١ في ليدن ضمن سلسلة جب التذكارية. انظر براون: تاريخ الأدب في إيران ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ١٣٥ هامش ٢، ص ٩٠٩ هامش رقم ٢.

(٣) ذكر ابن الأثير عشرة آلاف ونقل براون عن كتابه راحة الصدور أنه خمسة عشر ألفاً.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤، ٢٥. البنداري: تاريخ آل سلجوق ص ٣٧ ـ ٤٢.

وفي هذه السنة فتح إتسز أحد أمراء ملكشاه بن ألب أرسلان مدينة الرملة وحاصر بيت المقدس، وكانت بأيدي الفاطميين، ففتحها واستولى على ما جاورها من البلاد عدا عسقلان[١].

وفاة ألب أرسلان ـ صفاته

وفي أوائل سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) سار ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر على رأس مائتي ألف مقاتل استدعى نقلهم أن يعقد على نهر جيحون جسراً وعبر عليه في أكثر من عشرين يوماً. وقد أتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يسمى يوسف النرزمي (بفتح النون. مع التشديد وسكون الراء وفتح الزاي)[٢]. وقد وقفت هذه القلعة في وجه ألب أرسلان وحمل هذا المستحفظ غلامان حتى قرب من السلطان فأمر بأن تضرب أربعة أوتاد لتشدّ أطرافه الأربعة إليها، ويعذبه ثم يقتله، فقال له المستحفظ: أمثلي يقتل هذه القتلة؟ فغضب ألب أرسلان وأخذ قوسه وجعل فيها سهماً وأمر بحل قيده، ورماه بسهم فأخطأه وكان مدلاً برميه، فنزل عن سريره فعثر ووقع على وجهه، فبادره يوسف بسكين كانت معه، وجرح سعد الدولة آثين، وانتقل السلطان إلى خيمة أخرى، وضرب خادم أرمني يوسف بمرزبة على رأسه فقتله. وحضر الوزير نظام الملك وأوصاه ألب أرسلان بأن يكون ابنه ملكشاه ولي عهده[٣]. ومما يؤثر عن ألب أرسلان أنه قال حين أيقن بدنو أجله: ما من وجه قصدته وعدو أردته إلا استعنت بالله عليه. ولما كان أمس، صعدت على تل عال فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر، فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علي، فعجزني (فأعجزني على الأصح) الله تعالى بأضعف خلقه، وإني أستغفر الله تعالى وأستقيله[٤] من ذلك الخاطر[٥].

وكان ألب أرسلان يطمع في السير بهذا الجيش الجرار إلى أقصى بلاد الصين، فقال: فرأيت عسكري في أجمل حال فقلت: أين مَنْ له قدر مصارعتي وقدرة معارضتي بهذا

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٥.

(٢) أو البرزمي أو الخوارزمي (بضم الخاء وفتح الواو وسكون الزاي). وقد ذكر صاحب كتاب راحة الصدور الاسم الأول وذكر الاسم الثاني صاحب كتاب سلاجقة كرمان (ص ١٢) وذكر الاسم الثالث ابن الأثير والبنداري (ص ٣٧) .Browne, Vol II. p. 179

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢.

(٤) أي أطلب منه أن يقيلني ويعفيني من الذنب الذي ارتكبته باغتراري بقوتي.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٧ ـ ٢٨.

العسكر إلى أقصى الصين «فخرجت على منيتي من الكمين»[١].

وتوفي ألب أرسلان في اليوم العاشر من سنة ٤٦٥ هـ . فحمل جثمانه إلى مرو ودفن بجوار أبيه وله من العمر أربعون سنة وشهوراً. وكانت مدة سلطنته تسع سنين وستة أشهر وأياماً. وقد ترك من الأولاد ملكشاه الذي خلفه في السلطنة وإياز وتكش وأرسلان أرغون وبوري برس (برش؟) ونتش وثلاثاً من البنات منهن سارة وعائشة[٢].

كان ألب أرسلان، كما وصفه ابن الأثير[٣]، كريماً عادلاً عاقلاً، وكان رحيم القلب مقراً بأنعم الله عليه. وكان يتصدق على الفقراء، ولا سيما في شهر رمضان الذي كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار. وقد اشتمل ديوانه على أسماء كثير من الناس في جميع البلاد التي دانت له كانوا ينعمون بصلاته وعطاياه. ولم يعرف عن عهده وقوع جناية أو مصادرة بل كان يكتفي بجمع الخراج مرتين تيسيراً للمزارعين، وكان ألب أرسلان يكره السعايات؛ فقد كتب إليه بعض السعاة ظلامة تركت على مصلاه - وهي خاصة بوزيره نظام الملك ذكر فيها فداحة الرسوم والأموال التي كان يستأثر بها لشخصه - ولما قرأ ألب أرسلان هذه الرسالة سلمها إلى وزيره وقال له: خذ هذا الكتاب فإن صدقوا فيما كتبوه فهذِّب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم وأشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية بالناس. وقد عرف ألب أرسلان بحسن السمعة والمحافظة على العهود، حتى أذعن له الناس بالطاعة ودانوا له بالولاء وقصدوه من كافة أرجاء بلاده الشاسعة الأطراف التي امتدت من أقاصي بلاد ما وراء النهر إلى أقاصي بلاد الشام. ولا عجب فقد «عظمت مملكته (كما يقول ابن خلكان)[٤] ورهبت سطوته، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرلبك مع سعة ملك عمه». وكان ألب أرسلان حريصاً على ردع جنده وكفهم عن أخذ أموال الرعية. وقد بلغه أن بعض خواص مماليكه سلب إزاراً. فأمر بالمملوك فصلب. وكان ذلك رادعاً للناس عن التعرض لمال غيرهم.

٤ - ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥/١٠٧٢ - ١٠٩٢):

أسس طغرلبك وإخوته ملكاً عظيماً، وجاء بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود، فانتصر على الروم وأسر إمبراطورهم مقابل فدية كبيرة، وهادنه خمسين سنة. ولما قتل ألب

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥.
(٢) ابن الأثير: ج ١٠ ص ٢٨. البنداري ص ٤٥.
(٣) ج ١٠ ص ٢٨.
(٤) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦١.

أرسلان سنة ٤٦٥ هـ ، خلفه ابنه ملكشاه الذي اتسع ملكه اتساعاً عظيماً ودعي له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى أقصى بلاد الشام غرباً ومن البلاد الإسلامية في الشمال إلى جنوبي بلاد اليمن، وأدى له أباطرة الروم الجزية.

ولد ملكشاه سنة ٤٤٧ هـ ، وكان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره حين آلت إليه مقاليد هذه السلطنة الشاسعة الأرجاء. وكان مليح الوجه. وأسند الوزارة إلى نظام الملك وزاد أعطيات الجند. وكان ألب أرسلان قد أوصى ابنه ملكشاه أن يعطي عمه قاورت بن داود (وكان بكرمان) أعمال فارس وكرمان وبعض المال الذي عينه، وأن يعطي أخاه أياز بن ألب أرسلان ما كان لداود وهو خمسمائة ألف دينار[1].

وقد بدأ عهد ملكشاه بقيام الاضطرابات في أطراف البلاد التي كانت خاضعة لحكم السلاجقة. فقد استولى أُلتكين (بفتح الألف مع الهمزة وسكون اللام وكسر التاء والكاف) صاحب سمرقند على ترمذ وشتت جيوش أياز أخي ملكشاه، وأسر إبراهيم الغزنوي عمه عثمان ونقله مع خزائنه إلى غزنة، ولكن جموشتكين (بضم الجيم وسكون الشين وكسر التاء) (وكان من أكبر أمراء الدولة السلجوقية) ومعه أنوشتكين[2] جد ملوك الدولة الخوارزمية التي سيأتي الكلام عليها، تتبع آثارهم ونهب بعض بلادهم. ولعل أشد هذه الاضطرابات خطراً تلك التي أثارها قاورت عم السلطان ملكشاه وأول ملوك السلاجقة بكرمان الذي سار إلى الري مطالباً بالسلطنة. وقد التقى الجيشان على مقربة من همذان ودارت بين ملكشاه ومعه وزيره نظام الملك وبين قاورت معركة حامية الوطيس دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال انتهت بهزيمة قاورت وتشتيت شمل جنده الذين ولوا الأدبار وأسره وقتله وسمل عيون ابنيه أمير انشاه وسلطان شاه. أما سلطان شاه فلم يتم سمل عينيه للدرجة التي تحول دون قدرته على أن يخلف أباه في حكم كرمان. وتقديراً للخدمات الجليلة التي أداها الوزير نظام الملك في هذه الأزمة الخطيرة وما ظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته، منحه السلطان ملكشاه لقب أتابك وقال له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد. وحلف له، وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك، ثم لقبه بلقب «أتابك» ومعناه «الأمير الوالد» (أو مربي الأمير)[3].

وفي السنة التالية (٤٦٧ هـ) مات الخليفة القائم (وكان في السابعة والسبعين من

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٨ - ٢٩.
(٢) بفتح الألف مع الهمزة وكسر التاء.
(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٩ - ٣٠.

عمره بعد أن ولي الخلافة أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً[١]. وفي عهده (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) مات ابن سينا الذي يسمونه شيخ الفلاسفة، ومهيار الديلمي الشاعر، وأبو الحسين البصري شيخ المعتزلة، وأبو الحسن الماوردي قاضي القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية، وابن حزم الظاهري صاحب كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. والخطيب البغدادي صاحب كتاب تاريخ بغداد، وابن رشيق صاحب كتاب العمدة، وابن عبد ربه الذي خلف لنا كتابه العقد الفريد المشهور في عالم الأدب والتاريخ.

وعلى الرغم من أن السلطان ملكشاه السلجوقي وجه همته إلى الأعمال الحربية مثل أبيه،شجع العلم ونشر الحضارة، وحفر الترع وأقام الجسور وحصن المدن، كما ولع بالفلك وشجع دراسة العلوم الدينية والعقلية بمعونة وزيره المشهور نظام الملك الذي أسس المدرستين العظيمتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية كما أسس المدرسة الحنفية ببغداد.

وفي سنة ٤٦٧ هـ أسس ملكشاه المرصد وعين فيه جماعة من أعيان المنجمين، نخص بالذكر منهم عمر الخيام (عمر بن ابراهيم الخيامي) وأبا المظفر الأسفزاري وميمون ابن النجيب الواسطي وغيرهم، وقد بطل هذا المرصد بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ويذكر ابن الأثير أن ملكشاه ووزيره نظام الملك جمعا جماعة من المنجمين وجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل.

خلف الخليفة القائم ابنه المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ). وبعد سنة استرد الخليفة المستنصر الفاطمي نفوذه في مكة. على أن ذلك النفوذ لم يدم أكثر من سنة وفقد هذا الخليفة الفاطمي دمشق. وبعد سنتين (٤٧٤ هـ) تزوج الخليفة المقتدي ابنة السلطان ملكشاه الذي مات ابنه داود في السنة نفسها، فجزع عليه جزعاً شديداً وحزن حزناً عميقاً وحال دون غسله. ولما دفن لم يطق السلطان المقام وخرج للصيد وأمر بالنياحة عليه عدة أيام[٢]. وبعد ثلاث سنين ولد له ابن آخر هو سنجر[٣] (بفتح السين والجيم وسكون النون)، فخفف السرور بالمولود الجديد حزنه على ابنه المفقود. وفي سنة ٤٨١ هـ ولد لملكشاه ابن آخر هو بركياروق.

وفي ذلك الوقت استجاب الله لدعوة الوزير الكندري. فقد وردت الأنباء إلى بغداد

---

(١) كانت أمه أم ولد تسمى قطر الندى (وقيل علم) وكانت أرمنية (وقيل رومية) (ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٦ - ٤٥. (٣) إشارة إلى سنجار (بكسر السين) (القريبة من الموصل).

بوفاة جمال الملك ابن الوزير نظام الملك، وكان يتولى بلخ وأعمالها. وقد قيل في سبب قتله أن جَعَفْرك أحد مضحكي السلطان ملكشاه كان يسخر من الوزير نظام الملك في خلواته مع السلطان. ولما بلغ ذلك جمال الملك، طوى المراحل إلى والده وإلى السلطان وهما بأصبهان فاستقبله أخواه فخر الملك ومؤيد الملك، فأغلظ لهما القول، لإغضائهما عما بلغه من سخرية جَعَفْرك بأبيهم. ولما مثل جمال الملك بين يدي السلطان رأى هذا المضحك يساره، فانتهزه فلما خرج جعفرك أمر جمال الملك بإخراج لسانه من قفاه وقطعه فمات، ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خراسان، وأقاموا بنيسابور مدة، ثم أرادوا العودة إلى أصبهان وتقدمهم الوزير نظام الملك، وقد أوعز السلطان إلى أحد خدم جمال الملك بقتله، فدس له السم في إناء مملوء بالفقاع، فشربه فمات، ثم لحق السلطان بوزيره وعزاه في ابنه(١).

زار السلطان ملكشاه بغداد مرتين في عهده. فكانت الزيارة الأولى في سنة ٤٧٩ هـ (مارس ١٠٨٧ م) بعد أن فتح حلب وحمص وغيرهما من البلاد التي تمتد من الرها إلى بلاد الشام. وكان الوزير نظام الملك بصحبة السلطان. وفي الغد خرج السلطان ملكشاه إلى الحلبة ولعب بالجوكان والكرة (البولو)، وزار مشهد موسى الكاظم الإمام السابع عند طائفة الإمامية الاثني عشرية وأضرحة معروف الكرخي المتصوف، وأحمد بن حنبل، وأبي حنيفة وغيرها من المشاهد المعروفة، كما زار مشهد علي بن أبي طالب، ومشهد ابنه الحسين. وهذا يدل على بعد نظر السلطان ونظر وزيره وعدم تحيزهما لمذهب خاص.

وقد أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدي كثيراً من الهدايا النفيسة. ثم مثل بين يدي الخليفة فخلع عليه، ثم خرج، وظل الوزير نظام الملك يقدم الأمراء، كل أمير باسمه وإقطاعه وعدة عساكره، «وفوض الخليفة إلى السلطان أمر البلاد والعباد»، وخلع الخليفة الخلع على الوزير نظام الملك. كما زار الوزير المدرسة النظامية ببغداد وخزانتها، وألقى على الطلاب درساً في الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر. وأقام السلطان ببغداد إلى شهر صفر سنة ٤٨٠ هـ، ثم رحل إلى أصبهان(٢).

وفي ذلك الوقت زوج السلطان ملكشاه أخته زليخة خاتون من محمود بن شرف الدولة وأقطعه الرحبة وحران وسروج والرقة والخابور، كما زوج ابنته من الخليفة العباسي المقتدي، على حين ولدت زوجته تركان خاتون ابناً أسماه محموداً قدر له أن يلعب دوراً قصيراً في الاضطرابات التي سادت البلاد بعد موت أبيه، لأن ابنه الآخر أحمد الذي عزم

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٤٥.
(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٧ ـ ٥٨.

السلطان على أن يخلفه من بعده مات بمرو وهو في الحادية عشرة من عمره بعد مولد أخيه محمود بسنة. وفي الوقت نفسه عقد السلطان ملكشاه مع البيت الغزنوي محالفة كان من أثرها أن تزوجت ابنة السلطان ملكشاه من السلطان مسعود الثاني الغزنوي وكان في مقتبل العمر.

وأما زيارة السلطان ملكشاه الثانية لبغداد فقد كانت في سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر ١٠٩١ م). أي قبل وفاته بسنة. وفي المدة التي تخللت هاتين الزيارتين فتح السلطان ملكشاه بخارى وسمرقند وغيرهما من مدن بلاد ما وراء النهر، وتسلم وهو في كاشغر الجزية من إمبراطور الروم. ولم تكن أحوال الدولة السلجوقية في يوم من الأيام أعظم ازدهاراً منها في ذلك الوقت؛ فقد ذكر «براون» نقلاً عن كتاب راحة الصدور أن الملاحين الذين نقلوا ملكشاه وجيوشه على سفنهم عبْر نهر جيحون قد تسلموا من الوزير نظام الملك حوالات وتسلموا قيمتها النقدية من العامل السلجوقي بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك السلطان. وفي اللاذقية التي تعد ميناء سورية اليوم ركب السلطان ملكشاه جواده على ساحل البحر الأبيض المتوسط وشكر الله سبحانه على ما حباه من سعة الملك، كما منح رجال حاشيته إقطاعات في سورية وآسيا الصغرى، على حين اتجه جيشه النظامي الذي بلغ ٤٦,٠٠٠ مقاتل (دونت أسماؤهم في ديوان الجيش) نحو حدود الصين[1]. كما ملك ملكشاه بلاد اليمن واستولى على عدن[2].

وكان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان «أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل»[3]، وكان يجلس للمظالم بنفسه ويقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أي شخص من أفراد شعبه أن يتصل به في سهولة ويسر لرفع ظلامته أو التعبير عما لحقه من اضطهاد. وكانت السبل في أيامه آمنة، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام في أمن وطمأنينة[4]، كما حفر ملكشاه الآبار في طريق مكة وبنى منارة القرون بالسبيعي في طريق مكة، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر، وأسقط المكوس عن حاج بيت الله، وقد سارت مهارته في الصيد على كل لسان[5].

(١) Browne, Vol 11. pp. 183. 184.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٥.
(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧١، ٣٧٣ - ٣٧٤.
(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧٢.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٩.

الوزير نظام الملك

وفي السنين التي تميزت بازدهار العهد السلجوقي كان نظام الملك ساعد ملكشاه الأيمن ومدبر ملكه ومستشاره الأمين، «فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد» على حد تعبير ابن خلكان(١). وكان نظام الملك هو وأولاده الاثنا عشر يقبضون على زمام الأمور، وقد ذهبوا كما ذهب البرامكة في العصر العباسي الأول من قبلهم ضحية الدسائس والمؤامرات التي دبرها لهم حسادهم المنافسون.

وكان نظام الملك أبو الحسن علي بن إسحاق من أبناء الدهاقين بطوس، وقد توفيت أمه وهو رضيع، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة(٢)، حتى شب وتعلم العربية وعرف بعلو الهمة واشتغل بالعلم فتفوق فيه، وسمع الحديث. وقد أسندت إليه بعض أعمال الدولة، ثم أخذ يترقى في ملكها، وكان يطوف بلاد خراسان ووصل إلى غزنة في صحبة بعض الحكام، ثم اتصل بخدمة أبي علي بن شاذان متولي الأمور ببلخ، من قبل داود أبي السلطان ألب أرسلان، فظهرت كفاية نظام الملك وأمانته، وتقرب إليه وتحسنت أحواله لديه. فلما حضرت أبا علي بن شاذان الوفاة أوصى به ألب أرسلان، وزكاه عنده فأسند إليه أعماله. ثم أصبح وزيراً له ومشيراً حتى ولي السلطنة بعد عمه طغرلبك، فأسند إليه الوزارة، وعهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه وقال له: هذا حسن الطوسي (يعني نظام الملك) فتسلمه واتخذه والداً لا تخالفه.

وكان نظام الملك عالماً ديناً وجواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت. وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، وقد اشتهر ببناء المدارس في البلاد وخصص لها النفقات العظيمة وأملى الحديث ببغداد ونيسابور وغيرهما من مدن خراسان.

وكان نظام الملك منقطعاً للعبادة يؤدي الصلوات في أوقاتها، إذ كان يأمر مؤذنه بالصلاة إذا حان وقتها، وينبهه إذا حان وقت الأذان، كما أسقط المكوس والضرائب وأزال على المنابر لعن الأشعرية(٣) الذي كان من آثار عهد البويهيين الشيعيين. وكان الوزير عماد

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٩٦.

(٢) دون مقابل أي ابتغاء لمرضاة الله.

(٣) كان الأشعرية سنيين مؤولين يلتقون مع الشيعة في كثير من الآراء ويبدو من هذا أن السلاجقة كانوا يسيرون على السنة السلفية، أي على نهج السلف الصالح. وقد اتخذ الأشعرية مذهباً وسطاً بين المعتزلة =

الملك الكندري قد حسن للسلطان طغرلبك لعن الرافضة، فوافقه على ذلك، فأضاف إليهم الأشعرية. وكان يجعل أهل العلم ويجلسهم في المكان اللائق بهم. ومما يؤثر عن نظام الملك أنه تمنى لو كانت له قرية ومسجد ينفرد فيه للعبادة. ثم تمنى بعد ذلك أن تكون له قطعة أرض يتقوت من ريعها ومسجد يعبد الله فيه. وقد تمنى في أواخر أيامه أن يمنحه الله رغيفاً يتبلغ به ومسجداً يعبد الله فيه. ومن هنا ندرك ميل نظام الملك نحو الزهد والتقشف في نهاية حياته وصدوفه عن الدنيا وزخرفها.

وكان من عادة نظام الملك أن يشرك الفقراء معه في الطعام ويقربهم إليه. وقد أثر عنه أنه كان ليلة يتناول الطعام مع عميد خراسان، وجلس إلى جانب العميد شخص فقير قد قطعت يده. ولاحظ نظام الملك أن العميد يتأنف من الأكل مع هذا الفقير، فأمر العميد أن ينقل إلى الجانب الآخر من السماط، وقرب هذا الفقير إليه فأكل معه.

مات نظام الملك في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحواً من ثلاثين سنة. وقد تضاربت أقوال المؤرخين في أسباب قتله:

(١) قيل إنه كان على مقربة من نهاوند، وكان صائماً، وبعد أن غربت الشمس تناول طعام الإفطار ثم خرج إلى خيمة لزيارة أهله. فاعترضه صبي ديلمي من الباطنية يحمل في يده ظلامة، وسأله أن يتناولها، فمد نظام الملك يده ليأخذها، فطعنه الصبي بسكين في قلبه، فسقط الوزير مغشياً عليه وحمل إلى مضربه فمات، وهرب القاتل فأدركه رجال الوزير وقتلوه[1].

(٢) وقيل إن السلطان ملكشاه دس إليه من قتله، لأنه سئم طول حياته واستكثر ما بيده من الإقطاعات وما بيد أولاده وأحفاده من الكور.

(٣) وقيل إن «تركان خاتون» زوجة السلطان ملكشاه المفضلة كانت تطمع في تولية ابنها الصغير محمود العهد بعد أبيه، وكان يعضدها في ذلك وزيرها تاج الملك، على حين كان الوزير نظام الملك يميل إلى تولية ابنه الأكبر بركياروق، وكان إذ ذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره.

(٤) ولعل السبب المباشر الذي أدى إلى هذه النكبة قد جاء عن طريق ذلك المسلك الذي ينم عن الصلف والغطرسة من أحد أحفاد الوزير نظام الملك، وهو عثمان بن جمال

= وبين السلف الصالح. ولذلك أطلق عليهم أهل السنة والجماعة.

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ٣٩٨.

الـدين والي مرو (وكـان السلطان قد أمـر بـدس السم لأبيـه قبـل ذلـك) بسبب قتله مضحـك السلطان. وقد قصد أحد مماليك السلطان (وكان يعد من أعظم أمرائه) دار الخلافة مستغيثاً شاكياً اضطهاد عثمان له وتنكيله به، الأمر الذي أثار استياء السلطان حتى إنه أرسل إلى وزيره نظام الملك مع بعض أرباب دولته رسالة يقـول فيها: إن كنت شـريكي في الملك ويدك مـع يـدي في السلطنة فللذلـك حكم، وإن كنت نـائبي وبحكمي فيجب أن تلزم حـد التبعيـة والنيابة. وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولي ولاية كبيـرة. ولـم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا. وأطال القول وأرسـل معهـم الأمير «يلبرد»، وكان من خواصه وثقاته، وقال له: «تعرفني ما يقول، فـربما كتم هؤلاء شيئاً».

وقد غضب الوزير الشيخ لكلمات التقريع التي تضمنها هذا الكتاب وأجـاب في شيء من عدم الروية قائلاً: «إن ثبات تلك القلنسوة منوط بهـذه الدواة، وإن اتفـاقهما[1] ربـاط كل رغيبـة وسبب كل غنيمـة. ومتى قطعت هـذه زالت تلك[2]. فـإن عـزم على تعييـري فيلتـزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث أمام ظروفه».

ولكن هؤلاء الرسل رأوا أن يكتمـوا ما سمعـوه من الوزيـر رعايـة لحق السلطان، وكان الأمير يلبرد قد أنمى إلى السلطان كل ما فاه به الوزير، فعزل عن منصبـه، وخلفه أبـو الغنائم تاج الملك الذي تمتـع بحمايـة تركـان خاتـون، وأجريت تغييرات كثيرة في منـاصب الدولـة الكبرى. لذلك قتل السلطان وزيره نظام الملك خشية أن يقوم بتنفيذ ما هدده بـه لأن أغلـب الولايات كانت في يد أبنائه وأحفاده وأن له أنصاراً كثيرين.

مات السلطان ملكشاه بعد ذلك بخمسة وثلاثين يـوماً. وقـد رثى نظام الملك كثيـر من الشعراء، فقال شبل الدولة مقاتل بن عطية:

كـان الـوزيـر نـظام الملك لؤلؤة	يتيمـة صـاغهـا الـرحمن عن شـرف
عـزت فلم تعـرف الأيـام قيمتهـا	فـردهـا غيـرة منـه على الصـدف

وبمـوت السلطان ملكشـاه سنـة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) انتهى العصـر السلجـوقي الأول الـذي يمكن أن يسمى العصر الـذهبي للدولة السلجـوقيـة أو عصـر أقـلام الملك، وانجلت الدولة ووقع السيف»[3].

(١) يعني أن عظمة الملك ترجع إلى تضامن الخطباء والملك مع السلطان.

(٢) يعني أن السلطان إذا جحد وفك هذا التضامن زالت قوة الملك.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٥ ـ ٧٦. Browne, Vol. II. p. 185

الباب الثاني

عصر سنجر[1] وإخوته

٤٨٥ ـ ١٠٩٢/٥٥٢ ـ ١١٥٧

(١) مميزات هذا العصر :

يبتدىء هذا العصر الذي يشغل نحو خمس وستين سنة ميلادية من موت السلطان ملكشاه وينتهي بموت ابنه سنجر. مع أن سنجر قبض على زمام الحكم في الدولة السلجوقية مدة إحدى وأربعين سنة فقط (٥١١ ـ ١١١٧/٥٥٢ ـ ١١٥٧) حكم فيها خراسان، فإنه كان في الواقع الشخص المسيطر على البيت السلجوقي من سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م). فقد حكم خراسان وبلاد ما وراء النهر قبل توليته السلطنة حكماً يتميز بالحكمة والحزم، ووقفت بلاده إلى حد كبير بمنأى عن هذه الحروب الدموية التي دارت بين إخوته وعكرت صفو الدولة السلجوقية. على أنه قبل نهاية حكم سنجر قاست الدولة السلجوقية كثيراً من ألوان التخريب والدمار على أيدي الأتراك الغز، ولكن هذا التخريب وذاك الدمار المخيف قد قدر لهما أن يزولا نهائياً عن طريق الفتح المغولي بنحو سبعين سنة، لذلك يمكن أن نطلق على هذا العصر «عصر سنجر» الذي يعتبر موته نهاية لعهد «السلاجقة العظام» في إيران.

وثمة أوجه للشبه بين سنجر وغيره من سلاطين السلاجقة من حيث طول حياته وأعماله المجيدة، بل إنه يفوق ـ على ما ورد في كتاب «راحة الصدور»[2] ـ سائر سلاطين السلاجقة. ومنذ قلده بركياروق ولاية خراسان (٤٩٠ هـ) قام سنجر بتسع عشرة غزوة من الغزوات

---

(١) ولد سنجر بسنجار ببلاد الجزيرة. ولذلك سمي باسم هذه المدينة، وقد ذكر براون (Vol. II, p. 303, note 4. وترجمة ص ٣٧٩ هامش رقم ٢) أنه سمي سنجر (بفتح السين) وسنجر بالتركية من فصيلة الصقر وطائر من طيور الصيد. وكانت تسمية أولاد السلاجقة بأسماء الحيوانات شائعة بينهم وبين غيرهم من الأتراك. من ذلك أرسلان ومعناه الأسد وطغرل ومعناه الصقر أو الباز.

(٢) يتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة. وقد كتب الراوندي هذا الكتاب في سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) كما تقدم في الباب الأول.

المظفرة في مدى أربعين سنة، فقد استطاع أن يستولي على غزنة وأن ينصب عليها بهرامشاه على أن يؤدي له إتاوة مقدارها ألف دينار في اليوم. كذلك أسر سنجر أحمد خان ملك سمرقند الذي ثار على أثر وفاة بركياروق سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م)[1]. كما اخضع سنجر ولايتي سجستان وخوارزم. أما من الناحية السياسية فلم يعد لآل سلجوق ما كان لهم من القوة والنفوذ أيام حكم ألب أرسلان وملكشاه. وإننا لو صرفنا النظر عن الحروب الدموية التي وقعت بين أبناء ملكشاه في بداية هذه الفترة، والغارات المستمرة التي قام بها الأمراء الثائرون، فإننا نجد أنه كانت هناك بيوت ملكية أخرى تنازع «السلاجقة العظام» السيطرة وتعمل على إضعاف نفوذهم. وكان من أشد هذه البيوت خطراً ملوك جبال الغور في الشمال الشرقي من إيران الذين استطاعوا بفضل قوتهم النامية أن يوجهوا الضربة القاضية للبيت الغزنوي. كذلك أصبح ملوك خوارزم أو حكام «خيوة» أكبر خصم للسلاجقة على أثر تولية «أتسز» الخوارزمي الحكم في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧م). وكذلك نرى سلاجقة كرمان يحكمون الولايات الجنوبية الغربية من إيران، كما نجد الإسماعيلية أو «ملاحدة الموت» ينشرون الرعب والفزع في إيران ويرتكبون ألواناً من العنف والقسوة ليس في فارس وحدها بل في بلاد الشام أيضاً.

٤٢٩ ـ ٥٥٢ هـ	السلاجقة العظام	١٠٣٧ ـ ١١٤٧ م
٤٢٩	طغرلبك: ركن الدين أبو طالب	١٠٣٧
٤٥٥	ألب أرسلان: عضد الدين أبو شجاع	١٠٦٣
٤٦٥	ملكشاه: جلال الدين أبو الفتح	١٠٧٣
٤٨٥	محمود: ناصر الدين	١٠٩٢
٤٨٧	بركياروق: ركن الدين أبو المظفر	١٠٩٤
٤٩٨	ملكشاه الثاني	١١٠٤
٤٩٨	محمد: غياث الدين أبو شجاع	١١٠٤
٥١١ ـ ٥٥٢	سنجر معز الدين أبو الحارث	١١١٧ ـ ١١٥٧

(٢) محمود بن ملكشاه (٤٨٥ ـ ٤٨٧ هـ):

وقد ظهر في عهد سنجر كثير من مشهوري العلماء والأدباء. وقد ألف كثير من هؤلاء باللغة العربية أو بالفارسية أو بالفارسية والعربية معاً. وممن ألف بالعربية الفرا البغوي

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٤٠، ٢٤١.

والزمخشري في التفسير واللغة وأصول الدين والإمام أبو حامد الغزالي في علم الكلام، والقشيري في التصوف. وألف في اللغة الزوزني والتبريزي والجواليقي والميداني مؤلف الأمثال. ومن الشعراء الابيوردي والطغرائي صاحب لامية العرب. وممن اشتهر بالنثر الحريري صاحب المقامات. ومن المؤرخين ابن مَنْدة مؤرخ أصبهان، كما ظهر في هذا العصر من الجغرافيين أبو زيد البلخي، وكذلك اشتهر عصر سنجر بظهور كثير من كتاب الفرس الذين اشتهروا بالشعر والنثر، كما ظهر في ذلك العصر كثير من المؤلفات الهامة التي وضعت بالعربية في فارس. ومن مشهوري الشعراء في ذلك العصر الشيخ فريد الدين العطار (ت ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) ونظامي الجَنْحي (ت ١١٤٠) وعمر الخيام (ت ١١٢١/٥١٥ ـ ١١٢٢) والأزرقي (٥٢٦/ ١١٣٠) ومسعود بن سعد (١١٣١/٥٢٦) وأديب صابر (١١٤٣/٥٧٨ ـ ١١٤٤) ومُعِزِّي (١١٤٧/٥٤٢ ـ ١١٤٨) وَعميق (بفتح العين وسكون القاف) والبخاري (١١٤٨/٥٤٣ ـ ١١٤٩)، كما ظهر الصنعائي، ونظامي عروضي السمرقندي، والأنوري، ورشيد الدين وطواط، والسُّوزني شاعر الفكاهة وطائفة أخرى أقل أهمية من المغنين.

أما عن كتب النثر التي ظهرت في هذا العصر فنذكر من بينها على سبيل المثال هذه الموسوعة الطبية «ذخيرت ـ خوارزمشاهي» (٥٠٤/ ١١١٠) وترجمة كليلة ودمنة التي وضعها نصر الله بن عبد الحميد (١١٤٣/٥٣٨ ـ ١١٤٤) ومقامات القاضي حميد الدين أبي بكر البلخي (٥٥٧/ ١١٦٠) وجهار مقاله لنظامي عروضي السمرقندي (حول هذا الوقت تقريباً) وتعد من أهم ما كتب في هذا العصر.

وقد ترك ملكشاه عند وفاته عدة أولاد اشتهر منهم أربعة هم: بركياروق وكان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، ومحمد وكان أصغر من بركياروق بستة أشهر، وسنجر وكان في الثامنة من عمره، ومحمود وكان طفلاً لم يناهز الرابعة من العمر، وكان بركياروق ابن زبيدة التي تنتمي إلى البيت السلجوقي بأصبهان[1].

أما محمود فقد كانت أمه «تُركان خاتون» التي اشتهرت بذكائها ودهائها ونفوذها تقيم مع ابنها الصغير في بغداد. وقد اتخذت من مواهبها وكثرة أعوانها ووجودها إلى جانب الخليفة العباسي في بغداد سبيلاً إلى تولية ابنها محمود السلطنة، إذ كتمت خبر وفاة زوجها ملكشاه وأرسلت إلى أمراء الدولة سراً تطلب إليهم البيعة لابنها الصغير ورغبتهم بالمال،

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٩ ـ ٨٠.

فبايعوه. كما أرسلت إلى الخليفة المقتدي تطلب إليه إقرار ابنها في السلطنة، فامتنع أول الأمر لصغر سنه، ولكنه عاد فلبى طلب تُركان خاتون وأقر محموداً في السلطنة ولقبه «ناصر الدنيا والدين». وقد استعانت تركان خاتون في تحقيق رغبتها بابن الخليفة (جعفر بن ماه ـ مالك أخت ملكشاه) وتدبير وزيرها تاج الملك الذي قام بنوع من الوصاية على ابنها الصغير؛ لأن الشرع لا يجيز ولايته في هذه السن، كما افتى بذلك الإمام الغزالي. وقد ذكر اسم السلطان الجديد في الخطبة على منابر بغداد في يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ٤٨٥ هـ كما خطب له في الحرمين الشريفين[١].

وقد خشيت تركان خاتون أن ينازع بركياروق أكبر أبناء ملكشاه أخاه الصغير محمود في السلطنة، فأرسلت الأمير بُغاإلى أصبهان، فوصل إليها بعد أسبوع من مغادرته بغداد وقبض على بركياروق وأثار بذلك مخاوف أمه زبيدة. ولكن أحد أولاد نظام الملك أخرجه من السجن في جنح الظلام وحمله إلى ساوَة (بفتح الواو) وآبا والري ونصَّبه ملكاً على هذه البلاد. وكان بركياروق دون الثالثة عشرة من عمره حتى إنه لم يكن من السهل أن تحمل رأسه الصغيرة تاجه المثقل بالجواهر.

ويذكرنا هذا بتلك الأسطورة التي أخذها عن ابن هشام براون[٢] في صدد كلامه على عظمة آل ساسان الملكية واعتلائهم العرش حيث يقول: «وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي به تاجه، وكان تاجه من القُنْقل[٣] العظيم فيما يزعمون، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك. وكانت عنقه لا تحمل تاجه، إنما يُستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه في تاجه، فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلاّ سجد هيبة له».

وقد دارت الحروب بين جند السلطان محمود تؤيدهم أمه تركان خاتون والوزير تاج الملك وجند بركياروق تؤيدهم أمه زبيدة وأبناء الوزير نظام الملك وبعض الأمراء الذين انحازوا إلى جيش بركياروق، وخاصة يلبرد وكمشتكين، وحلت الهزيمة بجند محمود فعادوا إلى أصبهان، وسار جند بركياروق في إثرهم وحاصرهم فيها، ثم عاد بركياروق عن

---

(١) كانت زبيدة ابنة ياقوتي بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه.

(٢) Vol. I. p. 128 نقلا عن ابن هشام (طبعة وستنفلد) ج ١ ص ٤٢، انظر تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٦٣١ ـ ٦٣٢.

(٣) بضم القافين وسكون النون: الخوذة العظيمة.

الحصار مقابل خمسمائة ألف دينار وعاد إلى همذان. وقد انتهز أنصار الوزير نظام الملك هذه الفرصة فأخذوا بثأره إذ قتلوا الوزير تاج الملك في المحرم سنة ٤٨٦ هـ، لممالأته على قتل نظام الملك طمعاً في الوزارة، فقلد بركياروق عز الدولة بن نظام الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته[١].

(٣) بركياروق بن ملكشاه (٤٨٧ - ٤٩٨/١٠٩٤ - ١١٠٤)

على أن تركان خاتون (أم محمود) عادت تدبر الدسائس ضد بركياروق، ولكي تصل إلى غايتها أوعزت إلى الملك إسماعيل بمهاجمة ابن أخته بركياروق ووعدته بالزواج منه إذا هو قام بهذا العمل (٤٨٦ - ١٠٩٣). ولكن الهزيمة حلت بإسماعيل. وفي ٣ فبراير سنة ١٠٩٤ (١٤ محرم سنة ٤٨٧ هـ) نودي ببركياروق سلطاناً ببغداد.

وفي اليوم التالي لتولية بركياروق السلطنة توفي الخليفة المقتدي فجأة وخلفه ابنه المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وقد أطرى ابن الأثير[٢] والسيوطي[٣] على المقتدي فذكرا من محاسنه أنه أمر بنفي المغنيات والبنات اللاهيات من بغداد، وأمر الناس ألا يدخلوا الحمام إلا بمئزر، وخرّب أبراج الحمام ومنع اللعب بها منعاً للمقامرة. كما منع جريان ماء الحمامات إلى نهر دجلة محافظة على نقاء ماء هذا النهر وصحة الناس. كما ألزم أصحاب الحمامات بحفر آبار خاصة للمياه المستعملة ومنع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين. وكان المقتدي أحسن خلفاء بني العباس قوة نفس وعُلو همة[٤].

ولكن سرعان ما قام «تُتُش» بثورة أشد خطراً مما تقدمها من الثورات وهزم ابن أخيه بركياروق وحمله إلى أصبهان حيث سجن. ومع أن السلطان محمود استقبل أخاه الأكبر بركياروق بمظاهر العطف والرعاية، فقد حبس الأمير «أنرو - بُلْكا» بركياروق وصمم على أن يجعله غير صالح للحكم بسمل عينيه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٠ - ٨١.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٨٥ - ٨٦.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٠.

(٤) ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ٣٧٥) أن السلطان ملكشاه أوجس خيفة من تدخل الخليفة المقتدي في شئون الحكم، فعمل على إبعاده عن حاضرة الدولة وأمره بالرحيل إلى البصرة، بل إنه لقب نفسه بلقب أمير المؤمنين، ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم، بل إنه حمل الخليفة على أن يخلع أكبر أبنائه وهو المستظهر وأن يعهد لابنه الأصغر جعفر ابن بنت السلطان ألب أرسلان ويسلم إليه البلاد ويخرج هو إلى البصرة. على أن السلطان مرض في تلك الأيام ومات، وكفي الخليفة شر هذا السلطان.

وكان من حسن حظ بركياروق أن مرض أخوه محمود بالجدري ومات في خلال أسبوع قبل أن يقوم الأمير «أنرو ـ بلكا» بتنفيذ خطته القاسية فأجلس بركياروق على كرسي السلطنة من جديد، وانتهت دسائس تركان خاتون أم محمود التي قتلت في خريف سنة ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) وقد ساعد موتها على تهدئة الأحوال. ثم مرض بركياروق بالجدري بعد أخيه ولكنه برىء منه. وقد استمال مؤيد الملك وزير بركياروق أمراء السلاجقة في العراق وخراسان إليه نعظم شأن بركياروق وكثر جنده[١]. وفي السنة الثالثة هزم بركياروق عمه تتش وقتله، كما قتل عمه الآخر أرسلان أرغون الذي ثار عليه بخراسان فقتل على يد أحدغلمانه في مرو (٤٩٠ هـ)، ونجا بركياروق نفسه من الموت بأعجوبة إذ أصابه رجل من الباطنية بطعنة كادت أن تؤدي بحياته، ثم استولى بركياروق وبصحبته أخوه سَنْجر على خراسان بعد موت عمه أرسلان أرغون ونصب أخاه سنجر ملكاً عليها سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م)، وأسند وزارته إلى أبي الفتح علي بن الحسين الطُغرائي الشاعر المشهور. وبينما كان بركياروق بخراسان خرج عليه محمد بن سليمان ويعرف بأمير أميران (وهو ابن عم ملكشاه) وقد توجه إلى بلخ، ولكن سنجر أخا بركياروق أحل به الهزيمة وأسره وحمله إلى خراسان وسمل عينيه. وفي هذه السنة قامت الدولة الخوارزمية على يد قطب الدين محمد بن أنوشتكين[٢].

وبعد أن جعل بركياروق أخاه سنجر ملكاً على خراسان عاد إلى العراق[٣]. ولكن في سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩م) هدد نفوذه أخوه محمد الذي قام في وجهه مطالباً بالسلطنة بتأييد مؤيد الملك بن نظام الملك[٤].

وكان مؤيد الملك من أكفأ أبناء نظام الملك. وقد أصبح للسلطان بركياروق عدواً لا تلين قناته بعد عزله إياه من الوزارة. وبتأثير مؤيد الملك قلد الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ) محمداً بن ملكشاه السلطنة بدل أخيه بركياروق ولقبه «غياث الدنيا والدين» وخطب له على منابر بغداد (١٤ رجب سنة ٤٩٣ هـ). وقد طالت الحروب بين محمد وأخيه بركياروق نحواً من خمس سنين (٤٩٢ ـ ٤٩٧ هـ)، ودارت بينهما خمس معارك طاحنة

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٧. ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٩١، ٩٧.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٨ ـ ٩٩.

وفي هذه السنة دارت الحرب بين رضوان وأخيه دقاق صاحب دمشق ابني تتش بن ألب أرسلان ثم تم بينهما الاتفاق على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وكذلك بأنطاكية.

(٤) كان بركياروق (٤٨٧ ـ ٤٩٨ هـ) قد عزل مؤيد الملك ابن الوزير نظام الملك عن الوزارة وأسندها إلى عز الملك (أخي الوزير المخلوع). وكان بين هذين الأخوين خلاف على ثروة أبيهما وتنافس على الوزارة.

انتهت بانتصار بركياروق على أخيه محمد، وأرسل إليه الخليفة، على ما جرت به العادة في ذلك العصر، خلع السلطنة وأقيمت له الخطبة في بغداد (٤٩٧ هـ)(١).

وفي هذه الفترة بدأ الصليبيون حملاتهم على البلاد الإسلامية، وقد دخل بركياروق بغداد، ومد هو وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس، فخرج عن طاعته صدقة بن مزيد صاحب الحلة وقطع الخطبة له في بلاده وخطب لأخيه محمد. وقيل إن وزير السلطان بركياروق أرسل إلى صدقة يطالبه بأداء مليون دينار كانت مستحقة لبيت المال عدا الإتاوة التي لم تؤد عن السنين السابقة وهدده بأخذ بلاده فلم يأبه صدقة به، فأرسل إليه بركياروق جنداً طرده من بلاده. وفي هذه السنة أمر بركياروق بقتل الباطنية في فارس(٢).

اجتمع محمد بأخيه سنجر (وهما لأم واحدة) في جرجان، والتقى به إيلغازي بن أرتق وأحسن خدمته. ثم سار محمد إلى بغداد واستقر بدار السلطنة، فاستبشر الناس بقدومه وخرجوا للقائه، وعبر الخليفة عن سروره لإساءة بركياروق وجنده إلى أهل بغداد(٣).

على أن الهدوء لم يسد بغداد برحيل بركياروق عنها ودخول أخيه محمد إليها. فقد رحل السلطان محمد وأخوه سنجر عن بغداد مرة أخرى عائدين إلى بلادهما: فقصد الأول همذان ويمم الثاني شطر خراسان. وقد سمع الخليفة أن بركياروق قد تناوله بما يسيئه فاستقدم أخاه محمداً، وكان في واسط، إلى بغداد فلحق أخاه بركياروق ودارت الحرب بينهما، وعانى كل من الجندين كثيراً من شدة البرد وهطول الأمطار وقطع الجسور وهدم القناطر وانتشار الفساد ونهب الأموال وسفك الدماء. وتخربت البلاد، واستولى الملل على النفوس وتطرق الوهن إلى القلوب وتعرضت السلطنة للغزو الخارجي. وقد تدخل العقلاء بين الأخوين وأخذت عليهما العهود والمواثيق بأن يجنحا إلى السلم ويكفا عن الحرب. وبذلك تم الصلح بينهما على أن يكون بركياروق السلطان ومحمد الملك، وأن يضرب لمحمد البوق ثلاث مرات في اليوم وأن يكون له حكم «جَعْبر» وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل، وأن يمده السلطان بركياروق بالجند ليفتح ما يستعصي عليه من البلاد، وتعهد كل منهما باحترام هذه المواثيق، وبذلك انصرف بركياروق قاصداً «ساوَة» وانصرف محمد قاصداً «أسد أباد»، وقصد كل أمير اقطاعه، وأرسل الخليفة العباسي خلع السلطنة إلى بركياروق وأقيمت له الخطبة ببغداد على أن الحرب لم تلبث أن عادت سيرتها

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) انظر ما ذكره ابن الأثير (ج ١٠ ص ١١٦ ـ ١٢٠، ١٢٤) عن الإسماعيلية أو الباطنية في فارس.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١١٣ ـ ١١٥.

الأولى بين بركياروق ومحمد (٤٩٥ هـ ١١٠١ ـ ١١٠٢ م)[١].

طالت الحروب بين بركياروق وأخيه محمد أكثر من خمس سنين دارت بينهما فيها معارك طاحنة قبل أن يتم الصلح بينهما قبل وفاة بركياروق بنحو سنتين. ثم عقد الصلح بينهما من جديد، لأن «الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد، فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين. وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم. وكان السلطان بركياروق حينئذ بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين. وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيه وببلاد أرانية وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت، وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد. وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً. وأما خراسان فإن السلطان كان يخطب له في جميعها، وهي من حدود جرجان إلى بلاد ما وراء النهر ولأخيه السلطان محمد».

واضطر السلطان بركياروق إلى الصلح مع أخيه، ولانعدام المال بخزانته وازدياد طمع جنده فيه، فأرسل الرسل إلى أخيه محمد فأجابه إلى ذلك وتم الصلح بينهما على :

(١) ألا يعترض بركياروق على ضرب الطبول على دار محمد.

(٢) ألا يذكر اسم بركياروق بجانب اسم محمد في الخطبة في البلاد التي يحكمها.

(٣) أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء.

(٤) ألا يعرض أحد العسكرين لعسكر الآخر في داخل حدود كل منهما.

(٥) أن يكون من نصيب محمد البلاد الممتدة من باسبيندروذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والبلاد التي كانت تحت حكم سيف الدولة بالعراق[٢].

ولما وصلت رسل السلطان بركياروق إلى بغداد تحمل إلى الخليفة المستظهر شرط

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) يعني تحت حكم صدقة بن مزيد وكان يملك الحلة ويلقب سيف الدولة. وقد دخل تحت نفوذه الحلة والبصرة وواسط وكان يلقب أيضاً ملك العرب، لأن العرب وغيرهم كانوا يستجيرون به من السلطان أو الخليفة أو غيرهما. وكان صدقة نفسه يقول أنا ملك العرب (ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٥، ١٦٩) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٧.

الصلح بين الأخوين، أقيمت الخطبة لبركياروق ببغداد في ١٩ جمادى الأولى سنة ٤٠٧ هـ [١].

ولم يكد الحظ يبسم لبركياروق حتى اشتد به المرض، ولما أحس بدنو أجله بايع ابنه ملكشاه الثاني ومات في شهر ربيع الثاني سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٤ م) وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن ظل في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر.

ولا ريب أن الحروب التي طالت بين الأخوين واختلاف الأحوال من الرخاء إلى الشدة ومن السلطنة إلى الملك قد أثرت في صحة بركياروق وأنهكت قواه مع حداثة سنه، ولم يغنه استقرار الأحوال بعد إبرام الصلح الأخير مع أخيه محمد وانقياد المخالفين إليه عن ملاقاة الأجل المحتوم؛ فأدركته منيته في بروجرد (بضم الباء وكسر الجيم). وكان بركياروق، كما وصفه ابن خلكان[٢]، «مسعوداً عالي الهمة لم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشراب والإدمان عليه».

(٤) محمد بن ملكشاه ٤٩٨ ـ ١١٠٤/٥١١ ـ ١١١٧

أقيمت الخطبة لملكشاه الثاني ابن بركياروق عقب موت أبيه، ولم يكن قد بلغ الخامسة من عمره، وخطب له على المنابر، ولقبه الخليفة جلال الدولة، وهو لقب جده ملكشاه وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٧ هـ . ولم يكد هذا الطفل يستقر على عرش السلطنة أسابيع أو أشهراً قليلة حتى عزل وسملت عيناه على ما جرت به العادة في ذلك العصر[٣].

وبذلك صفا الجو لمحمد بن ملكشاه، فقلده الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ١٠٩٤/٥١٢ ـ ١١١٨) من جديد، ولقبه غياث الدين، وعظمت هيبته وكثرت جيوشه وأمواله، ولم يبق له منازع، وأصبح الحاكم الفعلي للولايات الفارسية زهاء ثلاث عشرة سنة (٤٩٨ـ١١٠٥/٥١١ ـ ١١١٨) بذل خلالها جهداً كبيراً في القضاء على قوة الباطنية المتزايدة إذ قتل عبد الملك ابن عطاش صاحب قلعة أصبهان[٤] وفيما عدا ذلك لم يقع في عهد السلطان محمد ما يستحق الذكر سوى مناوأته ابن اخيه اياز الذي حاول خلعه وتقلد السلطنة مكانه. وعلى الرغم من إبرام الصلح بينهما، لم يكف إياز عن مناوأة السلطان محمد ودبر مؤامرة لقتله. ولكن أمر هذه المؤامرة قد كشف واغتيل إياز غند دخوله قصر السلطنة[٤]. أضف إلى ذلك هذه الحملة

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٢.
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤.
(٤) ابن الأثير: ج ١٠ ص ١٦١ ـ ١٦٣.

التي شنها السلطان محمد على الأمير صدقة بن مَزْيَد (بفتح الميم والياء وسكون الزاي) صاحب الحلة والبصرة وواسط الذي انضم إلى الأمير إياز. واستولى على البصرة (٤٩٩ هـ)، ثم على قلعة تكريت[١] وزادت الوحشة بين صدقة والسلطان محمد وخشي كل منهما الآخر وامتنع صدقة عن الاجتماع بالسلطان وتوسط الخليفة المستظهر في إصلاح ذات البين بينهما، وسار صدقة بن مزيد من الحلة إلى بغداد على رأس خمسين ألف عربي، فأرسل الخليفة الرسل والكتب إلى أصبهان مستنجداً بالسلطان محمد بن ملكشاه الذي استشار المنجمين، فأشار عليه أحدهم بحرب صدقة[٢]، ونشبت الحرب بين جند صدقة بن مزيد وجند السلطان محمد وحلت الهزيمة بالسلاجقة وأسر كثير من جندهم ووقع الاضطراب في صفوفهم، ولم تغن محاولات الخليفة في إقرار الصلح بينهما، ثم عاد السلاجقة فجمعوا صفوفهم وحملوا على جند صدقة وهزموهم هزيمة منكرة. وقد ضرب أحد جند الأتراك صدقة على وجهه فشوهه وأصابه آخر بسهم في ظهره وتعلق به غلام فجذبه عن فرسه، فسقط إلى الأرض فضربه الغلام بالسيف فقتله، وحمل رأسه إلى السلطان ودفن وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن ظل في الإمارة إحدى وعشرين سنة. وقتل من أصحابه أكثر من ثلاثة آلاف فارس بينهم جماعة من أهل بيته وأسر ابنه دبيس بن صدقة، وهرب ابنه الآخر بذران بن صدقة إلى الحلة وأخذ ما لا يحصى من الأموال، كما استولى على آلاف الكتب، وذلك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م)[٣].

ويقترن هذا النصر بهذه القصة العجيبة الخاصة بمعرفة الطالع على أيدي المنجمين على ما ورد في كتاب «جهار مقاله»[٤] (المقالات الاربع) تأليف النظامي العروضي السمرقندي الذي ترجمه الأستاذ إدوارد براون إلى الإنجليزية وتكلم عنه في الجمعية الأسيوية الملكية بانجلترا سنة ١٩٠٢ م (٦٠٥ هـ)[٥].

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٤٤ - ١٤٥، ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٤.

(٢) النظامي العروضي السمرقندي: جهار مقاله، ترجمة عزام والخشاب (القاهرة ١٣٦٨/١٩٤٩) ص ٧١ - ٧٢.

(٣) ابن الأثير: ج ١٠ ص ١٦٥ - ١٦٩.

(٤) Anecdote XXIX (pp. 102-104). Browne, II, p. 302

(٥) وقد ذكر السمرقندي (ترجمة ص ٧١ - ٧٢) أن هذا المنجم لم يكن واسع العلم وأن الخمر قد لعبت بلبه فيما بعد فقال لأحد ندماء السلطان: «إني علمت أن الأمر لا يعدو واحداً من اثنين إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف، وإن حلت بهذا الجيش الهزيمة فمن ذا يبالي بي؟ ولما علم السلطان بذلك أمر بطرد هذا المنجم الغزنوي.

كان صدقة بن مزيد، على ما وصفه ابن الأثير[1]، «جواداً حليماً صدوقاً، كثير البر والإحسان، ما برح ملجأ لكل ملهوف، يلقى من يقصده بالبر والتفضيل، ويبسط قاصديه ويزورهم. وكان عادلاً، والرعايا معه في أمن ودعة. وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرَّى عليها، فما ظنُّك بغير هذا. ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة. وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزانته، ويُدِلُّون عليه إدلال الولد على الوالد. ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له. وكان متواضعاً. يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله، لقد كان من محاسن الدنيا»[1].

عاد السلطان محمد إلى بغداد سنة ٥٠١ هـ ورفع الضرائب والمكوس وغيرها بعد أن شكا منها أهل بغداد[2]. وبعد خمسة أشهر عزم على الخروج من بغداد والعودة إلى أصبهان. وفي سنة ٥٠٢ هـ استولى السلاجقة بقيادة مودود على مدينة الموصل وكان الجاولي قد استولى عليها قبل ذلك بسنتين. واستمرت الحروب بين السلاجقة بقيادة مودود صاحب الموصل وطغتكين صاحب دمشق وإياز بن إيلغازي وغيرهم وبين بلدوين ملك بيت المقدس، وأسر بلدوين في طبرية بعد معركة طاحنة، ثم سار الأمير آقسنقر البرسقي (والد عماد الدين زنكي) وكان السلطان محمد قد ولاه الموصل بعد قتل مودود[3]، ومعه مسعود بن محمد فعبرا الفرات ودارت بينهما وبين الفرنجة عدة معارك انتهت بانتصار الفرنجة. كما دارت الحروب بين أمراء السلاجقة أنفسهم.

صفات محمد بن ملكشاه وأخلاقه ـ وفاته

وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً، ومما يدل على عدله أن خاتون بيت ماله قتل على أيدي الباطنية، فأمر السلطان بعرض ما في خزانته من مال وجواهر. وكان بهذه الخزانة درج به كثير من نفيس الجواهر، فأقر السلطان بأن الخازن عرض عليه هذا الدرج قبل موته بأيام وأعلمه أن أصحابه وكانوا تجاراً غرباء قد حفظوه عنده، فأمر السلطان أحد غلمانه بأن يحتفظ بهذه الجواهر ويسأل عن أصحابها وقد أيقنوا من ضياعها ويئسوا من الحصول عليها. ولما أحضرهم الخادم سلم السلطان محمد إليهم الجواهر[4].

---

(١) ج ١٠ ص ١٦٩.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤.

(٣) قتل مودود سنة ٥٠٧ هـ على يد أحد الباطنية بعد أن أدى صلاة الجمعة بالجامع الأموي بدمشق وقيل إن طغتكين صاحب دمشق هو الذي دبر مؤامرة لقتل مودود. ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٧.

(٤) ابن الأثير. الكامل ج ١٠ ص ١٩٨.

كان السلطان محمد بن ملكشاه، على ما وصفه ابن خلكان[١]، «رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يعني الباطنية)، والنظر في أمور الرعية».

وقد أورد ابن خلكان[٢] أن الإمام أبا حامد الغزالي نصح السلطان محمد بن ملكشاه بأن يتحلى بحميد الصفات ومكارم الأخلاق وأن يعلم أنه يقدر عناية الإنسان بهذه الحياة الدنيا، ينبغي أن يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه يجب أن يفكر في الوقت نفسه في هذه الحياة الآخرة، لأن الإنسان مهما امتد به الأجل لا بد صائر إلى هذا المصير المحتوم، فيقول «اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة غفلاء (غافلون) نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتذكروا في اليقين الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا اليقين الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم، وما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله».

مرض السلطان محمد بن ملكشاه. ولما اشتد به المرض وشعر بدنو أجله أحضر ابنه محموداً وقبله وبكى كل منهما وأمره أن يجلس على عرش السلطنة وينظر في أمور الناس، وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥١١ هـ مات السلطان محمد بمدينة أصبهان ـ وكان في السابعة والثلاثين من عمره[٣] ـ وخطب لابنه محمود بالسلطنة في اليوم التالي.

(٥) محمود بن محمد بن ملكشاه ٥١١ ـ ٥٢٥ / ١١١٧ ـ ١١٣١

كان محمود في الرابعة عشرة من عمره حين جلس على عرش السلطنة كما تقدم، وخطب له بأصبهان في ٢٥ ذي الحجة سنة ٥١١ وببغداد في ١٣ المحرم سنة ٥١٢ هـ. وفي شهر ربيع الثاني من هذه السنة توفي الخليفة المستظهر بعد أن ولي الخلافة أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً. وكانت أيام هذا الخليفة، كما يقول ابن الأثير، أيام سرور للرعية، فكأنها من حسنها أعياد. وكان غزير العلم حسن الخط، يحب الخير ولا يميل إلى

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٦٤.

(٣) خطب للسلطان محمد بالسلطنة ببغداد أول مرة شهر ذي الحجة سنة ٤٦٢ هـ وقطعت خطبته مرات عديدة.

أذى الناس[١]، وقد خلف المستظهر ابنه المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩/١١١٨ - ١١٣٥).

وفي عهد السلطان محمود شق أخوه طغرل صاحب ساوة وآوة وزنجان عصا الطاعة عليه سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) وزادت الوحشة بينهما. وفي هذه السنة دخل محمود في حرب دامية مع عمه سنجر لأنه خشي أن يغلب على دولته. وكان سنجر كما وصفه البنداري[٢] «السلطان الأعظم عماد آل سلجق، وسلطنته ببلاد خراسان إلى العراق إلى ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم والترك، قد عمت ونمت، ودولته قد علت وسمت، وهو شيخ البيت وعظيمه وحافظ عزه ومديده».

ويظهر أن محموداًهو الذي بدأ بالعدوان، فقد أرسل إلى والي سمرقند كتاباً يقول فيه إنه عزم على المسير بجيوشه ميمماً شطر بلاد عمه سنجر ويطلب إلى هذا الوالي أن يفاجىء عمه سنجر وهو بجيوشه من خلفه، وبذلك تقع جيوش عمه بين طرفي الكماشة. كما طلب مساعدة ملك العرب دبيس بن صدقة وغيره من الأمراء، ولما علم سنجر بما دبره له ابن أخيه عزم على قصد بلاد الجبل والعراق والاستيلاء على ما بيد محمود، لصغر سنه واستئثار وزيره وحاجبه بالحكم. وقد وصل جيش السلطان محمود إلى الري وأصبحت مقدمة جيش سنجر على مقربة منها، وبعث الأمير علي بن عمر إلى سنجر يذكره بوصية أبيه السلطان محمد لابنه محمود بتعظيم عمه سنجر والرجوع إلى رأيه وتنفيذ أمره على أن يحافظ سنجر على السلطنة لولده[٣].

على أن جهود الأمراء الذين تدخلوا في الصلح لم تحل دون احتدام القتال بين الفريقين، واستهان محمود بعسكر عمه واطمأن إلى كثرة خيله وشجاعة عسكره، وحلت الهزيمة بميمنة سنجر وميسرته واضطرب أمر جيشه وارتدوا على أعقابهم. ولكن سنجر صمد على القتال وأطلق ما معه من الفيلة نحو جيش محمود، فتراجعت خيله بأصحابها، وأشفق سنجر على السلطان الصغير وقال لأصحابه: «لا تفزعوا الصبي بحملات الفيلة فكفّوها عنهم». وحلت الهزيمة بالسلطان محمود وقطعت الخطبة له وأقيمت للسلطان سنجر في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ.

سار محمود بعد أن حلت به الهزيمة إلى أصبهان، ويمم سنجر شطر همذان، ورأى قلة عسكره، فراسل ابن أخيه في الصلح. ولم تكن هذه الهزيمة سيئة الأثر بالنسبة إلى السلطان الصغير، لأن سنجر استمع إلى شفاعة أمه، وكانت جدة السلطان محمود، فأشارت

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣.
(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١١١.

عليه بالصلح[1]. فلقي سنجر ابن أخيه بالقول وعفا عن كبوته وجعله ولي عهده وقلده ولاية العراق التي حكمها نحواً من أربع عشرة سنة، وزوجه من ابنته «ماه ـ ملك خاتون» التي ماتت بعد ذلك بقليل (٥٢٣ هـ)، وحزن أبوها على وفاتها حزناً عميقاً حتى إنه بعث في طلب الشاعر البخاري عميق (بفتح العين الأولى والثانية وسكون الميم)، وكان قد تقدمت به السن، لينظم قصيدة في رثائها[2].

وفي سنة ٥١٤ هـ خرج مسعود صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه السلطان محمود. وقد عزا المؤرخون ذلك إلى أن بعض الأفراد وعلى رأسهم دبيس بن صدقة دعوا مسعوداً لطلب السلطنة وحملوه على مناجزة أخيه محمود، وساعدهم على ذلك تفرق جند محمود بعد انهزامه أمام جيوش عمه سنجر، بل إنهم دعوا لمسعود بالسلطنة بأذربيجان والموصل والجزيرة ثمانية وعشرين يوماً، وضربوا له الطبول التي تضرب للسلاطين خمس مرات في اليوم. ولكن محموداً انتصر بمساعدة آقسنقر البرسقي على أخيه مسعود الذي هرب وتفرق أصحابه واختفى عن الأنظار. ولكن محموداً رق لحال أخيه وأرسل آقسنقر للبحث عنه. ولما عثر عليه أخبره بعفو أخيه عنه وأعاده إلى عسكره، وأمر السلطان بحسن استقباله والحفاوة به وأمنه وأحسن إليه[3]. وقد كوفىء الأمير آقسنقر بولاية مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار وغيرها لإخلاصه للسلطان وحسن تدبيره وما أبلاه في حروبه مع أخيه مسعود والفرنجة وما أظهره من حسن السياسة في استمالة مسعود[4]. ثم زوجه أم مسعود وقلده ولاية بغداد وعهد إليه بقتال دبيس بن صدقة بن مَزْيد صاحب الحلة إذا تعرض للبلاد. وقد دارت بين جند السلطان وجند دُبَيْس بن صدقة حروب كثيرة، كما خرج الخليفة المسترشد لحربه بعد أن تسلم منه رسالة يهدده فيها بتخريب بغداد. وعبر الخليفة نهر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحة، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة. وحلت الهزيمة بدبيس بن صدقة، ولكنه عاد فاستولى على البصرة ثم غادرها والتحق بالفرنجة واشترك معهم في حصار حلب وأطمعهم في أخذها فلم يظفروا بها، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد وحسن له الاستيلاء على العراق سنة ٥١٩[5].

---

(١) ماتت خاتون جدة السلطان محمود بمرو سنة ٥١٥ هـ واحتفل بجنازتها وعزائها احتفالاً لم يشهد له مثيل.

(٢) ابن الأثير: ج ١٠ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

ويظهر أن خروج الخليفة المسترشد إلى حرب دبيس بن صدقة وقيادته الجيش بنفسه وما أحرزه من نصر وظفر عليه بسبب التفاف الجند حوله قد أثار مخاوف السلطان محمود حول ازدياد قوة الخليفة، وأشار عليه بعض خاصته بالتوجه إلى بغداد ووضع حد لهذه المخاوف. ولما علم الخليفة بعزم السلطان محمود نصح له بأن يرجيء الذهاب إلى بغداد حتى تهدأ الأحوال بعد ما تعرضت له من ضعف بسبب حرب دبيس، وما أصاب الأهلين من وهن لاشتداد وطأة الغلاء وندرة الأقوات؛ فحمل ذلك السلطان محموداً على الظن بأن نصيحة الخليفة إنما صدرت عن سوء نية، فقوي عزمه على دخول بغداد، وأبى الخليفة إلا أن يرحل عنها مع أولاده وأهل بيته، وبكى الناس لخروجه وأرسل السلطان يستعطفه ويسأله العودة إلى داره. وتشبث الخليفة برأيه وأثار بذلك غضب السلطان، ونشب القتال بين السلطان والخليفة فدارت الدائرة على جند الخليفة ودخل السلطان محمود بغداد في المحرم سنة ٥٢١ هـ ونهب عسكره دار الخلافة ودور بعض الأمراء. عند ذلك عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي من بغداد على رأس ثلاثين ألف مقاتل وبدأ القتال. على أن خروج أبي الهيجاء مع عسكره من جيش الخليفة وانضمامه إلى جيش السلطان محمود، ووصول عماد الدين زنكي صاحب واسط على رأس جيش كثيف وأسطول قوي لنصرة السلطان؛ كل ذلك قد أدخل اليأس إلى قلب الخليفة فجنح إلى السلم، واعتذر له السلطان عما حدث وعفا عن أهل بغداد وأبى أن يحرقها كما أشار عليه بذلك أحد رجاله، وأقام إلى ١٠ ربيع الثاني سنة ٥٢١ هـ وعاد إلى همذان، ثم عاد إلى بغداد سنة ٥٢٣ هـ ، بعد أن التقى بعمه سنجر ومعه دبيس بن صدقة لإصلاح ذات البين بين دبيس بن صدقة والخليفة. ثم عاد السلطان محمود إلى همذان، ولكن «دبيس» عاد فخرج عن طاعة الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي بعث إليه جيشاً يتألف من عشرة آلاف فارس، فغادر البصرة واختفى(١).

وفي سنة ٥٢٤ هـ دعا بعض الأمراء مسعوداً من جرجان وحملوه على مناجزة أخيه السلطان محمود(٢). وقد أثارت هذه الأنباء مخاوف السلطان فسار من بغداد إلى همذان ولما وصل إلى كرمانشاه لقيه أخوه مسعود وتبددت بذلك الأراجيف بخروجه عليه، فندبه السلطان للقيام ببعض المهام في أرانية، وقيل إنه أقطعه مدينة كنجة وأعمالها وسيره إليها، فبقي بها حتى مات السلطان محمود(٣).

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) وقد قيل إن مسعوداً كان عند عمه سنجر بخراسان وإنه حمله على ذلك.
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥٤.

صفات محمود وأخلاقه ـ وفاته

لا ريب أن عهد السلطان محمود يتسم ببعض الأخطاء التي غلا البنداري فسماها مفاسد وهي تتلخص فيما يلي :

(١) أنه أثار في مستهل خلافته هذه الحرب ضد عمه سنجر مع اتساع نفوذه وبسطة سلطانه ووصية أبيه له بطاعته والعمل بمشورته.

(٢) أنه شجع ملك العرب دبيس بن صدقة بن مَزْيد وقربه إليه برغم حروبه المستمرة وتخريبه البلاد وطمعه الذي لا يحد ومناوأته الخليفة واستمالة الأمراء إليه عن طريق الرشوة مما ساعد على نشر الفساد في البلاد.

(٣) أنه أساء معاملة عامله بفارس وطالب الأهالي بالأموال، مما أدى إلى قيام الوحشة بينهما وامتناع هذا العامل في إرسال المال وكان قد أعده لإرساله، مما أدى إلى عصيانه على السلطان، فاختل نظام هذه البلاد.

(٤) أنه أساء معاملة جماعة من أمراء مازندران وغيرهم كانوا بخدمة السلطان. وكانوا ينتسبون إلى الأكراد. وكان أبوه السلطان محمد قد تألفهم بإحسانه. وأثار بذلك سخطهم فعادوا إلى بلادهم المنيعة وشنوا عصا الطاعة وجاهروا بالعصيان.

(٥) استيلاء أمراء السلاجقة على الأموال من الذهب والفضة والحلي والجواهر والأثاث والتحف وغيرها التي خلفها السلطان محمد، حتى أصبحت بيوت الأموال خاوية على عرشها.

(٦) تشتيت شمل مماليك السلطان وإضعاف شأنهم حتى لا يناوئوا حكمه أو يفكروا في الخروج عليه.

(٧) تشتيت وزيره أبي القاسم الأنساباذي الدركزيني الجنود التي كانت على حصار قلعة ألموت بعد أن أشرف هؤلاء الجنود على فتح هذه القلعة وتتبع أهلها جند السلطان وقتلهم عدداً كبيراً منهم.

(٨) تولية الأمير سلجق أخي السلطان بلاد فارس بدل الأمير قيصر الذي هرب إلى خراسان وبث شكواه إلى الأمير سنجر.

(٩) أخذ رجال الحاشية مماليك السلطان الصغار وإخراجهم المغنيات من الجواري والإماء من دار الحرم إلى دورهم، وانقطاعهم إلى سماع غنائهن.

(١٠) تسلط الحاشية على السلطان واجتراؤهم عليه واتخاذهم من صغر سنه وقلة تجاربه سبيلاً للتأثير عليه[1].

على أنه برغم هذه العيوب التي عددها البنداري كان السلطان محمود، على ما وصفه ابن الأثير، حليماً كريماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه، مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافاً لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها[2]. وذكر ابن خلكان[3] أن محموداً كان متوقد الذكاء ملماً بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير. وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها، حتى إنهم عجزوا عن إقامة وظيفة صاحب الشراب، فدفعوا له يوماً بعض صناديق خزانة المال الفارغة، فباعها وأنفق ثمنها.

أما ميل السلطان محمود إلى العفو فيتجلى في موقفه من أخيه طغرل الذي خرج عليه وإرساله الهدايا إليه ووعده بزيادة إقطاعاته برغم عصيانه له وتشبثه برأيه. كذلك نرى محموداً برغم انتصاره على أخيه مسعود يرق لحاله ويطيب له قلباً ويؤمنه، كما يتجلى في موقفه من الخليفة المسترشد الذي عبر عن سخطه حين علم بعزم محمود على دخول بغداد وما كان من نشوب القتال بينهما وإلحاق الهزيمة بجند الخليفة ـ على الرغم من هذا نرى محموداً يستعطف الخليفة ويعتذر إليه ويعفو عن أهل بغداد الذين ناوءوه العداء وقاتلوه ولا يستمع إلى بعض خاصته الذين أشاروا بحرق بغداد حاضرة العباسيين. ثم يعود إلى همذان بعد قليل، ثم يعمل على إصلاح ذات البين بين ملك العرب صدقة بن دبيس وبين الخليفة، ثم يعفو للمرة الثانية عن أخيه مسعود الذي حمله بعض الأمراء على مناجزته طمعاً في السلطنة ثم يندبه للقيام ببعض المهام ويزيد من إقطاعه. ولعل من أبرز محاسن السلطان محمود هذه الحروب التي شنها على الصليبيين وعلى الباطنية وفتحه قلعة أَلَمَوت في فارس وقلعة بانياس في الشام، وكانتا من أمتع معاقل هذه الطائفة التي تفاقم خطرها وتطاير شررها في ذلك العصر.

وفي رأينا أن هذه العيوب التي أخذها بعض المؤرخين على محمود إنما ترجع إلى حداثة سنه وقلة تجاربه مما أدى إلى طمع أمراء دولته في أموال الدولة واشتطاطهم في جمع الضرائب الفادحة التي أثقلت كاهل الناس فكرهوا الحكم السلجوقي وتبرموا به. هذا إلى قيام المنافسة بين هؤلاء الأمراء وتفرق كلمتهم واستبدادهم بالأمر. ولو مد الأجل بالسلطان وحنكته التجارب لكان له شأن آخر بين سلاطين السلاجقة.

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠ ـ ١١٤.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٢٥٥.

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

وفي شهر شوال سنة ٥٢٥ هـ (١١٣١ م) مات السلطان محمود بهمذان، وخلفه ابنه داود وخطب له في بلاد الجبل وأذربيجان. وكان محمود في السابعة والعشرين ومات بعد أن ولي السلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً.

(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه[١] ٥٢٧ ـ ١١٣٢/٥٤٧ ـ ١١٥٢ :

ولد مسعود بن محمد بن ملكشاه من حظية تسمى «نيست». وبعد وفاة السلطان محمد زوجها خلفه وابنه السلطان محمود من الأمير «منكوبرس» والي السلطان محمد بالعراق وعهد بتنشئة ابنه مسعود إلى الأمير «مودود» صاحب الموصل. وقد اشتبك مودود هذا في عدة معارك انتصر فيها على الصليبيين. وفي شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ، خرج مودود إلى المسجد الأموي ويده في يد طُغْتكين صاحب دمشق، وبعد صلاة الجمعة ضرب رجل مودوداً ضربة قاتلة، فحمل إلى دار طغتكين الذي قيل إنه هو الذي دبر هذه المؤامرة لأنه خشي أن ينتزع مودود دمشق منه. ولما اتصل نبأ مقتل مودود بمسامع السلطان محمد عهد بتنشئة ابنه مسعود إلى أتابكه آق سُنْقُر وأقطعه الموصل والجزيرة[٢].

وبعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ خطب لابنه داود بأذربيجان وبلاد الجبل. وقد دخل داود في حرب مع عمه مسعود الذي استولى على تبريز وتم الصلح بينهما في المحرم سنة ٥٢٦ هـ. ثم رحل مسعود إلى بغداد وأوفد وهو في طريقه إليها رسله إلى الخليفة العباسي المسترشد يطلب إليه إقامة الخطبة له. ولكن الخليفة رأى أن يرجع في هذا الأمر إلى سنجر، وكان عميد البيت السلجوقي، وأشار عليه بأن تكون الخطبة له وحده[٣].

وقد ظل أنصار سنجر أكثر من خمسة أشهر حتى وصل إلى الري (ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ) ووصل بعده طغرل بن محمد بن ملكشاه ليلاً، وقابل عمه سنجر في صبيحة اليوم التالي. وكان الخبر قد وصل بأن مسعود بن محمد قد استعد للجلوس على عرش السلطنة، فزهد أخوه طغرل فيها وعزم على الرحيل. ولما أحس سنجر بهذا العزم أرسل الى طغرل وزيره وحاجبه يحملان إليه رسالته بتوليته سلطنة العراق وولاية العهد من بعده.

بعد ذلك سار سنجر إلى نهاوند، والتقى جيشه، وعلى ميمنته طغرل وعلى ميسرته خوارزم شاه، بجيش مسعود الذي حلت به الهزيمة وأسر هو ووزيره وبعض أمرائه. ثم خلع

(١) يفهم من هذا أن محمداً ومسعوداً لم يكونا من أم واحدة.
(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٥٧.

سنجر على ابن أخيه طغرل وزوده بنصائحه وودعه وانصرف إلى الري[١]. بعد ذلك قفل سنجر راجعاً إلى خراسان لأنه بلغه أن نائبه فيها قد عصاه (جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ هـ). أما طغرل فقد انصرف إلى الري وحكم في الحقيقة باسم سنجر، ولكنه لم يحسن علاقته بالسلطان والخليفة معاً[٢]، وقد صحب طغرل وزيره الدركزيني (بفتح الدال مع التشديد وسكون الراء).

أما داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي ولاه أبوه عهده فقد سار إلى همذان وناصره أتابكه ومربيه آقسنقر الأحمديلي، ولكن بعض أمرائه الأتراك انضموا إلى عمه طغرل، ثم التقى الجمعان وحلت الهزيمة بداود وأتابكه آقسنقر[٣].

وقد ذكر البنداري[٤]، أن الدركزيني وزير طغرل انفرد بأمور الدولة وطغى وبغى وبالغ في إيذاء الناس واشتط في مصادرة الأموال. وقد بلغ من ضجر طغرل بسوء تصرفات وزيره أن أرسل إليه يقول: «إنك أسأت سمعتي وأسمعت مساءتي وفضحت أمري وأمرت بفضيحتي. ألم يكفك سلخ جلود العظماء حتى شرعت في استفراغ دماء الضعفاء واستنزاف دماء الفقراء».

ثم سمع طغرل بتحرك جيوش أخيه مسعود وخروجه مع الأمير آقسنقر في جموع كثيرة، فيمم طغرل شطر أذربيجان ودخل تبريز وأقام في قلعتها حتى ينتهي فصل الشتاء وتفتح الطرق. وقصد مسعود بغداد ومر في طريقه على أصبهان ثم اتجه غرباً وأحل الهزيمة بجند أخيه طغرل، ثم عاد إلى همذان[٥]، واستولى على البلاد التي مر بها،[٦] والتف حوله الجند من كل حدب وصوب. وأحلت جيوش مسعود الهزيمة بجيوش داود بن محمود[٧].

دخل داود بغداد. ولما علم بقرب وصول مسعود إليها خرج إليه ولقيه ودخلا معاً بغداد. ونزل مسعود بدار السلطنة (صفر ٥٢٧ هـ) وأقيمت الخطبة له ولداود من بعده، وخلع الخليفة عليهما، واستولى مسعود على بلاد طغرل الذي لم يلبث أن مرض ومات بهمذان ودفن بها في أوائل سنة ٥٢٨ هـ بعد أن ولي السلطنة سنتين وشهراً أو شهرين وكان داود، كما يقول البنداري[٨]، «جامعاً للخلال التي تفتقر إليها السلطنة من الحزم والتحفُّظ والعزم والتيقظ». وقد قامت الوحشة بين الخليفة المسترشد وبين مسعود ودارت الحرب

---

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٢ ـ ١٤٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٦٠.
(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٥) ابن الأثير ١٠ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٦) البنداري ص ١٤٩ ـ ١٥١، ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٧) المصدر نفسه ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٨) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٧.

بينهما، وأسر الخليفة وحبس بقلعة قريبة من همذان. ولما بلغ ذلك أهل بغداد حَثَوا التراب على رؤوسهم وبكوا، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعوا الخطبة والصلاة. قال ابن الجوزي: وتعرضت حاضرة العباسيين عشرين يوماً كانت تقع الزلازل خمساً أو ست مرات في اليوم وأخذ الهلع من قلوب الناس كل مأخذ، حتى إن سنجر عميد البيت السلجوقي بعث الى ابن أخيه مسعود يقول: «ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأله العفو والصفح، ويتنصل غاية التنصل، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل، وتشويش العساكر وانقلاب البلدان. ولقد خفت على نفسي من جانب الله وظهور آياته وامتناع الناس عن الصلاة في الجوامع ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله، فالله الله! تتلافى أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه، وتحمل الغاشية[1] بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا» فنفذ مسعود ما أمر به وقبَّل الأرض بين يدي الخليفة ووقف يسأله العفو. ثم أرسل سنجر رسولاً آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى «مقر عزه». وقد ذكر السيوطي أن جند السلطان سنجر ضم سبعة عشر من الباطنية، قيل إن مسعوداً هو الذي دسهم، وأنهم هجموا على الخليفة وهو في خيمته وقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، ولم يشعر بهم حرس الخليفة إلاّ بعد أن ارتكبوا جريمتهم، فقبضوا عليهم وقتلوهم.

على أن السلطان مسعوداً ظهر بمظهر الحزن، فجلس للعزاء، واشتد بكاء الناس، ونمى هذا النبأ إلى أهل بغداد، فخرجوا حفاة ممزقي الثياب، وخرجت النساء ناشرات الشعور يلطمن ويرثين الخليفة الذي كان محبَّباً إليهن لما عرف عنه من الورع والتقوى والشجاعة وبعد الهمة والعدل والرفق بالناس. ويعزو المؤرخون انهزام الخليفة إلى تخلي جند الأتراك الذين انضووا تحت لواء السلطان مسعود، على الرغم من تفوق جيش الخليفة الذي ضم كثيراً من الفقهاء والصوفية والشعراء والأطباء، وقد وصف السيوطي[2] الخليفة المسترشد فقال إنه كان خطيباً مفوهاً وأديباً لامعاً وشاعراً مجيداً، كما كان محدثاً متفقهاً في الدين، خطب المسترشد يوم عيد أضحى فقال:

---

(١) لعل سنجر يقصد أن مسعوداً يجب أن يقف خاشعاً متضرعاً أمام الخليفة سائلاً إياه العفو والصفح عما بدر منه، ذاكراً أقوال يوم القيامة على ما ورد في سورة الغاشية والغاشية هي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا سلطان ولا جاه إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦.

«الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء (الشمس) وعلت على الأرض السماء. الله أكبر ما همى سحاب ولمع سراب وأنجح طلاب وسرّ قادماً إياب. إلى آخر ما ذكره في خطبته البليغة. ثم جلس ثم قام فخطب وقال: اللهم أصلحني في ذريتي وأعني على ما وليتني وأوزعني شكر نعمتك ووفقني، وانصرني».

كان المسترشد كما يقول السيوطي ذا همة عالية وإقدام ورأي وهيبة، «ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها وباشر الحروب بنفسه».

قتل المسترشد بمدينة مراغة في الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ[١].

مات الخليفة المستظهر سنة ٤٨٧/١١١٨، واغتيل كل من المسترشد وابنه الراشد على أيدي الباطنية: الأول (بتحريض سنجر على ما قيل) والثاني بمراغة حيث كان أسيراً في يد السلطان مسعود في ٢٩ أغسطس سنة ١١٣٥ م (٥٢٩ هـ)، واغتيل الثالث في أصبهان بعد أن عزله السلطان نفسه بسنتين (يونيه ١١٣٨/٥٣٣ هـ). وفي الحق أن خلفاء عصر سنجر لم يكونوا أكثر من ألاعيب في أيدي السلاجقة.

وقد ذكر النظامي العروضي السمرقندي أن الخليفة المسترشد خرج من بغداد على رأس جيش كثيف كامل العدة قاصداً بلاد سنجر في محاولة يائسة كلفته حياته لوضع حد لقوة السلاجقة، وأنه خطب في طريقه خطبة الجمعة التي امتازت بالبلاغة. وقد عبّر فيها عن ضيق صدره وخيبة أمله من السلاجقة وبث شكواه منهم في هذه الكلمات فقال:

«فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾»[٢].

ولي الخلافة بعد المسترشد ابنه الراشد (٥٢٩ ـ ١١٣٥/٥٣٠ ـ ١١٣٦)، فسار على سياسة أبيه. وقد حزن لوفاة أبيه، ودفعه حب الثأر له على إهانة رسول السلطان مسعود وإثارة العامة عليه وتحريضهم على تخريب داره. وكانت خاتمة الخليفة الراشد كخاتمة أبيه. فقد سار مسعود إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب إلى الموصل والاحتماء بزنكي.

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) جهار مقاله ترجمة ص ٣٠ ـ ٣١ Browne, Vol. II, 304-305

بل إننا نـرى السلطان مسعوداً يجمـع القضاة والشهـود ويحملهم على الكتابـة بذم الخليفـة، فكتبوا محضراً بخلعه[١].

وقد ذكر صـاحب الفخري (ص ٢٧١) أن السلطان مسعـوداً استشار الـوزير الـزيني[٢] فيمن يوليه الخلافة فقال له: يا مولانا! هناك رجل يصلح لها، فسـأله عن اسمـه فقال لـه: يا مولانا إن سميته أخاف أن يقتل، ولكن إذا دخلنا بغداد سميته لك. فلما احتاجوا إلى إجلاس خليفة، سمى الزيني له أبا عبد الله محمد المقتفي عم الراشد، فبايع له وأجلسه على سـرير الخلافة[٣]. وقد قتل الـراشد وهـو على باب أصبهـان سنة ٥٣٢ هـ، وقيـل إنه قتـل على يد الباطنية كأبيه من قبل[٤].

ولمـا آلت الخـلافـة إلى المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥/١١٣٦ ـ ١١٦٠) عـول على تـرسم خـطى آبائـه ونجح كثيـراً في هذا السبيـل، ولم تكن جهوده مـوجهـة ضـد السلطان مسعـود مباشرة، وإنمـا كانت مـوجهة ضـد بعض أمراء البيت السلجـوقي، فإن بعض هؤلاء الأمـراء تسلطوا على محمد (بن محمود أخي مسعود) وحرضوه على الخروج على السلطان وأشـاروا عليـه بـالسير معهم إلى بغـداد (٥٤٣ هـ). وقـد استمـع إليهم محمـد هـو وأخـوه ملكشـاه وحاصروا بغداد وقتلوا أكثر من خمسمائة من أهلها وأبوا رفع الحصار إلاّ بعـد أن يدفـع إليهم الخليفة ثلاثين ألف دينار. وهنا ظهرت شجاعة الخليفة الذي رجع إلى رأي يحيى بن محمد ابن هبيرة، وكان يتولى زمام قصره، فأشار عليه بأن يستخدم هـذا المال في جمـع الجند لـرد خطر العدو. ويقول البنداري[٥]: إن هذا العمل أرضى السلطان مسعـوداً وساعـده على جمع جيش قوي استعان به الخليفة في حروبه المقبلة.

أصيب السلطان مسعـود بالحمى ومـات بهمذان في أول شهـر رجب سنـة ٥٤٧ هـ، وكان، كما وصفه ابن الأثير[٦]، «حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس... وكـان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم. (وكان) من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكة، سهل الأخلاق لطيفاً. لقد ماتت مع مسعود سعـادة البيت السلجوقي فلم تقم بعدها راية يعتمد عليها ولا يلتفت إليها».

(١) الفخري ص ٢٧٣.
(٢) هو أبو القاسم علي ويرجع نسبه من جهة أمه إلى زينب بنت سليمان بن عبد الله بن العباس.
(٣) الفخري ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١١ ـ ٢٨.
(٥) زبدة الفكرة ونخبة العصرة ص ١٨١. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٦٠، ٦٦.
(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٥.

ولي السلطنة بعد مسعود ابن أخيه ملكشاه (بن محمود بن محمد) الذي قضى وقته في اللهو واللعب وترك شئون الدولة إلى خاصبك بن بلنكري، فلم ير فيه الرجل الذي يستطيع النهوض بأعباء السلطنة، فاستدعى أخاه محمد بن محمود وولاه السلطنة(١).

(٧) نهاية عصر السلاجقة العظام:

على أن عصر السلاجقة العظام لم ينته في الحقيقة بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، بل امتد حتى وفاة سنجر سنة ٥٥٣ هـ. فقد بدأت المتاعب التي عكرت صفو السلاجقة بهذه الثورة التي قامت على يد أتسز خوارزم شاه الذي أعلن استقلاله سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ ـ ١١٤١). وفي السنة التالية هزم كفار الأتراك سنجر وأسروا زوجته وهزموا مائة ألف من جنده، كما ضاعت مرو وسرخس (بفتح السين والراء وسكون الخاء) ونيسابور وبيهق (بفتح الباء والهاء وسكون الياء).

وفي سنة ٥٤٧ هـ قوي أمر الغور بزعامة علاء الدين الذي حاصر هراة ونهبها ثم ملك بلخ، فقصده سنجر وأحل الهزيمة بالغور وهزم علاء الدين. ولما مثل بين يدي سنجر قال له: يا حسين! لو ظفرت بي ما كنت تفعل؟ فأخرج له قيداً من الفضة وقال له: كنت أقيدك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه (حاضرة الغور)». ولكن سنجر استماله إليه، فخلع عليه ورده إلى حاضرة ملكه.

وفي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) هزم سنجر هزيمة منكرة على أيدي الغز الأتراك الذين ملكوا طوس ونيسابور وقتلوا كثيراً من الأهالي من بينهم طائفة من العلماء عرفوا بزهدهم وورعهم، كما أسر سنجر نفسه، وكان من الناحية العملية سجيناً بأيدي الغز ولو أنه عومل بشيء من الاحترام ظاهراً، ولم يستطع أن يتنقل حيث شاء أو يحمي رعاياه البؤساء حتى خريف ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) حين نجح بعض أنصاره وخدمه في إطلاقه عن طريق إرشاء بعض حراسه وحملوه إلى مرو حاضرة خراسان التي اتخذها حاضرة لدولته(٢). وهنا أخذ سنجر يجمع الجند، ولكن الحزن الذي ملك عليه نفسه لما وصلت إليه بلاده من التخريب والإقفار وتقدم سنه أدى إلى وفاته بعد ذلك بأشهر قليلة (١٤ ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ /١١٥٦ ـ

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) يقول ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص٨٥) إن سنجر أسر في أيدي الغز من ٦ جمادى الأولى سنة ٥٤٨ إلى شهر رمضان سنة ٥٥١ هـ.

١١٥٧ م) ودفن كجده ألب أرسلان في مرو في البناء المعروف بدولت ـ خانه الذي بناه هناك. وقد ذكر ابن الأثير[1] أنه دفن في قبة بناها لنفسه وسماها قبة الآخرة. «وكاد يعود إليه ملكه فأدركه أجله» كما يقول ابن خلكان[2]، ومات سنجر وقد بلغ الثانية والسبعين بعد أن حكم، على ما ذكره البنداري[3]، إحدى وستين سنة حكم فيها خراسان وبلاد ما وراء النهر إحدى وأربعين سنة. وقد تلقب بلقب ملك عشرين سنة، وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية المترامية الأطراف نحو أربعين سنة، «وخطب له بالعراقين والشام وديار بكر وديار ربيعة والحرمين، وقد ضربت الدنانير باسمه في الخافقين، وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين».

(١) الكامل ج ١١ ص ٩٠.

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٤٨.

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥، ٢٣٤، ٢٤٢.

الباب الثالث

الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

أولاً - دول الأتابكة

من هم الأتابكة؟

كان الجيش في عهد السلاجقة يقوده مماليك من الأتراك الذين عرفوا بطول أجسامهم وجمال خلقتهم. وكان هؤلاء المماليك يشترون بالمال ويعتنقون الإسلام وينشئون نشأة إسلامية خالصة في بلاط الخليفة أو السلطان حيث يتصلون اتصالاً وثيقاً بأمراء السلاجقة. وكان هؤلاء الأمراء يجلبون بصفة عامة من بلاد القفجاق[1] شمالي البحر الأسود، وتسند إلى هؤلاء المماليك بعض الوظائف كرياسة الخدم وتنظيم القصور، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة أو السلطان. وإذا ما أدى هؤلاء المماليك خدمات هامة للدولة أو أظهروا كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة وبرهنوا على إخلاصهم وولائهم وصلوا إلى أعلى المناصب في الجيش والبلاط أو أسند إليهم حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف.

على أن هذا النظام كانت له نتائج خطيرة. وكان هؤلاء الأرقاء الذين عُرفوا بالشجاعة والإقدام إذا ما بلغوا سن الرجال وظهرت مواهبهم الممتازة وأسند إليهم حكم إحدى الولايات يتمردون على ساداتهم ويحلون محلهم في حكم الولايات. وهكذا أخذ الضعف يدب في جسم الدولة السلجوقية، فتفككت هذه الإمبراطورية وانقسمت إلى دويلات، وانتقل النفوذ والسلطان إلى هؤلاء المماليك الذين خاضوا المعارك باسم السلاطين وأصبحوا أوصياء أو «أتابكة» على أبناء هؤلاء السلاطين.

وبموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) أفل نجم البيت السلجوقي في العراق، وتقاسم ملك السلاجقة دول كثيرة تعرف بدول الأتابكة (ويعبر عنها بأتابك العسكر).

---

(١) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 159

روى القلقشندي[١] عن السلطان عماد الدين في تاريخه أن أتابك أصله أطابك ومعناه الوالد الأمير. وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقب بألقاب منها «أتابك» ومعناها الأمير المسن، وقيل إن أتابك معناه الأب الأمير، ومعناه الأمير الكبير سنّاً، وهو عادة يكون أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل. وأتابك كلمة تركية معناها مربي الأمير، لأن «أتا» معناها مربي و«بك» معناها الأمير.

وكان السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم. وإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي (المربي) ليعاونه في الحكم ويسدي إليه ما يراه من النصائح. ويمنح هذا الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيش. وسرعان ما أصبح هؤلاء الأتراك أصحاب النفوذ الفعلي في الولايات التي عهد إليهم بالحكم فيها، فيعملون لحسابهم الخاص ويتخذون لأنفسهم الألقاب التي تروق لهم[٢]. وقد ساعد على ضعف الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه نشوب الحروب بين أبنائه وأحفاده، واتخذ الأتابكة من ذلك فرصة لفرض سيطرتهم على البلاد التي تحت حكمهم وتسابقوا إلى توسيع رقعة بلادهم كل على حساب الآخر. وبذلك نشأ الصراع بين أفراد البيت السلجوقي كما نشأ بين الأتابكة، وعمل بعض الخلفاء بعد موت السلطان مسعود على استرداد نفوذهم في العراق[٣].

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك وأورثوه أولادهم من بعدهم ومن ثم أطلق على هذه الأسرات أو الدول فيما بعد اسم دول الأتابكة. وإلى جانب هذه الدول دول أخرى ولاها بعض السلاجقة قوادهم فأورثوها أبناءهم، ويلقبون بلقب شاهات. ومن هؤلاء الشاهات شاهات خوارزم وشاهات أرمينية. ومن دول الأتابكة أتابكية كيفا وماردين، وأتابكية دمشق[٤]، وأتابكية دانشمند[٥]، ثم أتابكيات الموصل والجزيرة وسورية وأذربيجان وفارس. وعلى هذا النحو نرى:

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠٣.

(٤) وتسمى الدولة البورية التي أسسها طغتكين الذي عينه تتش على دمشق.

(٥) وقد أسسها محمد بن جمشتكين في كبادوكيا وشملت سيواس وقيصرية وملطية.
Cambridge Mediaeval History, vol. IV, pp. 313-315

(١) طغتكين مملوك تُتُش (بضم التائين) السلجوقي يعين ابنه ووريثه الصغير داق «أتابك»، ثم يستأثر هذا الأتابك بالملك في دمشق بعد وفاة ابن السلطان فتقوم أتابكية دمشق.

(٢) وكان عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والجزيرة وحلب وغيرها ابن آقسنقر ابن أحد مماليك ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة.

(٣) ويرجع أصل أتابكية أذربيجان إلى رجل من بلاد القفجاق كان مملوكاً للسلطان مسعود السلجوقي في العراق.

(٤) وكان أنوشتكين جد شاهات خوارزم يشغل وظيفة الساقي (حامل الكأس) في بلاط السلطان ملكشاه.

(٥) وكان أرتق (بضم الألف مع الهمزة والتاء وسكون الراء) وسلغر (بفتح السين والغين وسكون اللام) مؤسسا الأثر في ديار بكر وفارس من قواد السلاجقة.

(٦) وكانت خانات البجتجنيين (Begtigimids) والهزاراسبيديين (Hazaràspids) والقُطْلغينيين (Kutlughs) قواداً لمماليك السلاجقة.

(٧) وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كانت أراضي الإمبراطورية السلجوقية عدا بلاد الأناضول في أيدي قواد السلاجقة الذين أدخلوهم في خدمتهم.

هكذا انقسمت الدولة السلجوقية العظيمة إلى دويلات الأتابكة المتعادية المتنافرة مما مهد السبيل لاسترداد بعض الخلفاء العباسيين بعض ما كان لهم من سلطان، وأتاح الفرصة للصليبيين لشن حروبهم على البلاد الإسلامية، كما مهد السبيل للمغول لاجتياح أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق. ولنتكلم في شيء من الإيجاز عن أهم دول الأتابكة.

٤٥٧ - ٥٤٩ هـ	(١) أتابكية دمشق	١١٠٣ - ١١٥٤م
	البوريون أو أسرة بوري	
٤٩٧	سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين	١١٠٣
٥٢٢	تاج الملك بوري	١١٢٨
٥٢٦	شمس الملوك إسماعيل	١١٣٢
٥٢٩	شهاب الدين محمود	١١٣٤

٥٣٣ هـ	جمال الدين محمد	١١٣٨م
٥٣٤ ـ ٥٤٩	مغير الدين أبْق (أو أنَزْ، ت ٥٦٤ هـ)	١١٣٩ ـ ١١٥٤

[آل زنكي]

١ ـ ظهير الدين طغتكين

٥ جمال الدين محمد ٤ شهاب الـدين محمود ٣ شمس الملوك إسمـاعيل ٢ تاج الدين بوري

٦ مغير الدين أبق

تنسب هذه الدولة إلى طغتكين أحد قـواد الجيش السلجوقي، وكـان مملوكاً لتُتُش بن ألب أرسلان، وكان والياً على دمشق عند وفـاة أخيه ملكشـاه[١] وكان يـطمع في السلطنـة بعد وفاته واستطاع أن يمد نفوذه على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ويقيم الخطبة لنفسـه في بغداد[٢]. وقـد قتل تتش سنـة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) في أثناء صـراعـه مـع السلطان بـركياروق، وانفـرد ابنه دقـاق (بضم الدال) بحكمهـا، فاتخـذ طغتكين «أتابـك» له، فحكم البلاد باسمه[٣].

وقد استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى آل حكمهـا إلى أسرة زنكي سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) باستيلاء نور الدين محمود بن زنكي عليها لتقوية جيوشه للوقوف في وجه الصليبيين[٤]، ثم انتقل هذا النفوذ إلى الأيوبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي قاد أمورها إلى الأفضل، ثم انتقل هذا الحكم إلى العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين[٥].

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٩٠.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠٣. Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 161.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٨٨ ـ ١٩٧.

(٥) Lane-Poole. op. cit: pp. 213-215

(٢) بيت زنكي

٥٢١ ـ ٦٣١ هـ	(١) أتابكة الموصل	١١٢٧ ـ ١٢٣٤م
٥٢١	عماد الدين زنكي (مع حلب)	١١٢٧
٥٤١	سيف الدين غازي الأول	١١٤٦
٥٤٤	قطب الدين مودود	١١٤٩
٥٦٥	سيف الدين غازي الثاني	١١٦٩
٥٧٦	عز الدين مسعود الأول	١١٨٠
٥٨٩	نور الدين أرسلان شاه الأول	١١٩٣
٦٠٧	عز الدين مسعود الثاني	١٢١٠
٦١٥	نور الدين أرسلان شاه الثاني	١٢١٨
٦١٦	ناصر الدين محمود	١٢١٩
٦٣١	بدر لؤلؤ	١٢٣٣
٦٥٧ ـ ٦٦٠	إسماعيل بن لؤلؤ	١٢٥٩ ـ ١٢٦٢

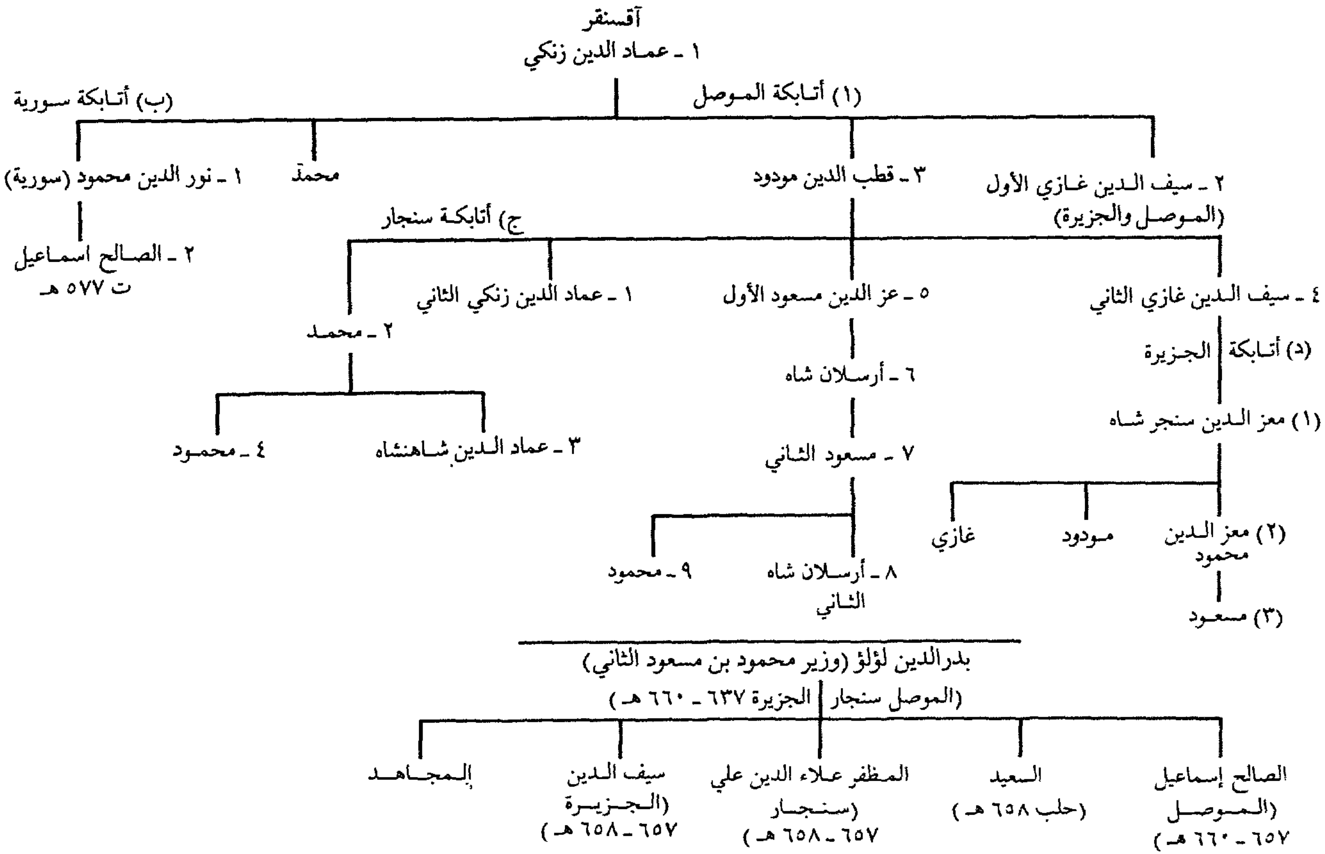
[المغول]

٥٤١ ـ ٥٧٧ هـ	(ب) أتابكة سورية	١١٤٦ ـ ١١٨١ م
٥٤١	نور الدين محمود	١١٤٦
٥٦٩ ـ ٥٧٧	الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود	١١٧٣ ـ ١١٨١

[أتابكة الموصل وسنجار، ٥٧٧ هـ ؛ ثم الأيوبيون ٥٧٩ هـ]

٥٦٦ ـ ٦١٧هـ	(ج) أتابكة سنجار	١١٧٠ ـ ١٢٢٠ م
٥٦٦	عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود	١١٧٠
٥٩٤	قطب الدين محمد	١١٩٧
٦١٦	عماد الدين شاهنشاه	١٢١٩

بيت زنكي


آقسنقر
١ ـ عماد الدين زنكي
(١) أتابكة الموصل
(ب) أتابكة سورية
٢ ـ سيف الدين غازي الأول
(الموصل والجزيرة)
٣ ـ قطب الدين مودود
محمد
١ ـ نور الدين محمود (سورية)
٢ ـ الصالح اسماعيل
ت ٥٧٧ هـ
ج) أتابكة سنجار
٤ ـ سيف الدين غازي الثاني
٥ ـ عز الدين مسعود الأول
١ ـ عماد الدين زنكي الثاني
٢ ـ محمد
(د) أتابكة الجزيرة
(١) معز الدين سنجر شاه
(٢) معز الدين محمود
مودود
غازي
(٣) مسعود
٦ ـ أرسلان شاه
٧ ـ مسعود الثاني
٨ ـ أرسلان شاه الثاني
٩ ـ محمود
٣ ـ عماد الدين شاهنشاه
٤ ـ محمود
بدرالدين لؤلؤ (وزير محمود بن مسعود الثاني)
(الموصل سنجار الجزيرة ٦٣٧ ـ ٦٦٠ هـ)
الصالح إسماعيل
(الموصل
٦٥٧ ـ ٦٦٠ هـ)
السعيد
(حلب ٦٥٨ هـ)
المظفر علاء الدين علي
(سنجار
٦٥٧ ـ ٦٥٨ هـ)
سيف الدين
(الجزيرة
٦٥٧ ـ ٦٥٨ هـ)
المجاهد

٦١٦ ـ ٦١٧هـ	محمود	١٢١٩ ـ ١٢٢٠م

[الأيوبيون]

٥٧٦ ـ ٦٤٨ هـ	(د) أتابكة الجزيرة	١١٨٠ ـ ١٢٥٠ م
٥٧٦	معز الدين سنجر شاه	١١٨٠
٦٠٥	معز الدين محمود بن سنجر	١٢٠٨
٦٣٩ ـ ٦٤٨	مسعود	١٢٤١ ـ ١٢٥٠

[الأيوبيون]

(٢) أتابكية الموصل[١] ٥١٦ ـ ٦٦٠/١١٢٢ ـ ١٢٦٢:

كانت الدولة السلجوقية في عهد سلاطينها الثلاثة الأول قوية الجانب مهيبة السلطان، فلم يجرؤ أحد من الأمراء أو القواد على الاستقلال بولايته. وهذا يرجع إلى اتحاد أفراد البيت السلجوقي وعدم تطلعهم إلى الملك إذ كان جل همهم المحافظة على استقلال دولتهم. ولكن الخلاف أخذ يدب إلى جسم الدولة بعد وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ) إذ قام الصراع بين أفراد البيت المالك رغبة في الاستيلاء على السلطنة مما أنهك قواهم العسكرية وبدد مواردهم المالية وأطمع فيهم القواد، فاستطاع بعضهم أن يؤسسوا إمارات محلية تتمتع بالاستقلال. وكان بعض هؤلاء القواد ينتمون إلى البيت السلجوقي والبعض الآخر من مماليك سلاطين هذا البيت وقواده.

وقد تركز معظم هذه الإمارات في الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية في أواسط وجنوبي آسيا الصغرى والجزيرة والشام وأذربيجان وغيرها. وهي مناطق وعرة المسالك تمتاز بغاباتها الكثيفة ويسكنها التركمان الشجعان. كما تمتاز هذه المناطق بحصونها المنيعة إذ كان بعضها محاطاً بسورين كمدينة آمد.

(١) وتسمى هذه الأتابكية أيضاً «دولة بني زنكي»، وقد ذكر لينبول (pp. 162-163) أن حكم هذه الأسرة بدأ في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) لأن عماد الدين زنكي تقلد في هذه السنة حكم بعض البلاد ومنها الموصل والجزيرة ونصيبين. واعتبر زامباور (ص ٢٢٦) سنة ٥١٦ هـ بداية حكم هذه الأسرة حتى تولى عماد الدين زنكي حكم مدينة واسط.

(١) آقسنقر:

كان آقسنقر (بسكون القاف الأولى وضم السين والقاف الثانية) الحاجب مملوكاً تركياً من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد تربى معه منذ صغره، حتى قيل إنه «لصيقه» ورافقه في طفولته وصباه. فلما تولى ملكشاه السلطنة سنة ٤٦٥ هـ بلغ آقسنقر منزلة رفيعة عنده وأصبح من كبار أمرائه وأخلص أصدقائه حتى إنه كان يعتمد عليه في كثير من أمور دولته، وعلت منزلته فلقبه قسيم الدولة[١] و«الحاجب»[٢].

ويظهر أن إيثار السلطان ملكشاه آقسنقر قد أثار حنق الوزير نظام الملك، فعمل على إبعاده.

وفي سنة ٤٧٧ هـ أمر ملكشاه آقسنقر بالمسير مع عميد الدولة بن فخر الدولة إلى الموصل والاستيلاء عليها من العقيليين[٣]. وفي سنة ٤٧٩ هـ اشترك آقسنقر مع السلطان ملكشاه في الاستيلاء على حلب من نواب العقيليين فيها، ثم قلده السلطان ولايتها[٤].

ولا يبعد أن تكون تولية آقسنقر حلب استجابة لوزيره نظام الملك الذي أراد إبعاد آقسنقر عن بلاط السلطان، فتسلم «قسيم الدولة» حلب وأعمالها كحماه ومنْبج واللاذقية وكفرطاب وفرض طاعته على صاحب شَيْزْر (٤٨١ هـ)[٥]. كما وسع نطاق ولايته فضم إليها حمص (٤٨٣ هـ) وحصن أفامية (٤٨٤ هـ). واشترك مع السلطان ملكشاه في مهاجمة العقيليين وانتصر عليهم على مقربة من الموصل[٦]. وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ضم آقسنقر مدينة تكريت إلى أملاكه[٧].

وفي سنة ٤٧٨ هـ أصبح آقسنقر نائباً لتتش (أخي السلطان ملكشاه) الذي طمع في السلطنة بعد وفاة أخيه (٤٨٥ هـ) وحاول استخلاصها لنفسه من بركياروق بن ملكشاه واستولى على معظم بلاد الجزيرة ثم على الموصل. ثم اتجه تتش إلى أذربيجان لمحاربة السلطان بركياروق، فلما تقارب الجيشان اتفق آقسنقر مع بعض الأمراء على الانضمام إلى

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٤.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٧ ـ ٢١٨.
(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٥.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٥٥.
(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(٦) المصدر نفسه ص ١٢١.
(٧) ابن الأثير: الباهر ص ١١ ـ ١٨.

السلطان بركياروق[١]، وضعفت بذلك قوة تتش فعاد إلى الشام. وقد عزا المؤرخون موقف آقسنقر إلى عدم تولية تتش إياه بعض البلاد التي استولى عليها وتقريبه بعض الأمراء عليه[٢].

أمر السلطان بركياروق آقسنقر بالمسير إلى حلب لوضع حد لمطامع عمه تتش، والتقى الجيشان على مقربة من هذه المدينة، فانتصرت قوات تتش وأسر آقسنقر ثم قتل سنة ٤٨٧ هـ.

وفي سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) حارب تتش السلطان بركياروق على مقربة من الري، ولكن الهزيمة حلت به وقتله أحد مماليك آقسنقر واستتب الأمر لبركياروق[٣].

(ب) عماد الدين زنكي:

كان عماد الدين زنكي عند وفاة أبيه في العاشرة من عمره، وكان يقيم بمدينة حلب، فحاطه السلطان بركياروق برعايته واهتم بتربيته، وأقطع مماليك أبيه الإقطاعات الواسعة في الموصل وعهد إليهم بتربيته[٤].

ولما بلغ عماد الدين زنكي مبلغ الرجال ظهرت مواهبه وشجاعته، واشترك مع ولاة الموصل في جميع المعارك التي نشبت مع الصليبيين في الجزيرة والشام وتل باشر ومعرة النعمان وطبرية وفي الرها وسميساط، وأظهر في هذه المعارك شجاعة نادرة أكسبته شهرة عظيمة بين المسلمين[٥]. ولما توفي السلطان محمد بن ملكشاه (٥١١ هـ) خلفه ابنه محمود في السلطنة. وكان السلطان محمد قد عهد إلى «جيوش بك» بتربية ابنه مسعود وجعله «أتابك» له على الموصل، فلما مات السلطان محمد دفع جيوش بك مسعوداً إلى التوجه إلى بغداد للجلوس على عرش السلطنة فيها، وانضم إليهما عماد الدين زنكي، ولكن هذه المحاولة انتهت بالإخفاق واستتب الأمر للسلطان محمود بن ملكشاه[٦].

وفي سنة ٥١٤ هـ شق جيوش بك عصا الطاعة ثانية على السلطان محمود. ولكن عماد الدين زنكي أبى الانضمام إلى «جيوش بك» الذي حلت به الهزيمة[٧]. وقد قدّ،

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩.
(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٣٠ ـ ٣٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٤٦.
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٩. الباهر ص ١٧ ـ ٢٠.
(٦) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥.
(٧) ابن الأثير: الباهر ص ٢٢ ـ ٢٣.

السلطان محمود لعماد الدين زنكي موقفه. فولى آقسنقر البرسقي[١] ولاية الموصل (٥١٥ هـ) وأمره بتقديم عماد الدين زنكي على سائر الأمراء، والرجوع إلى رأيه ومشورته[٢].

وقد استطاع عماد الدين زنكي أن يكتسب رضا سلاطين السلاجقة وأن يتنقّل في حكم البلاد بفضل ما أوتيه من حزم وشجاعة. ففي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) تقلد ولاية مدينة البصرة[٣] فعمل على حمايتها من هجمات العرب، ولا سيما دُبَيْس بن صدقة أمير بني مزيد بالحلة؛ وقضى على الفوضى التي انتشرت في ربوعها، واستطاع كل من عماد الدين زنكي والبرسقي الذي كان يشغل منصب شحنة بغداد[٤] أن يصدا هجمات دبيس بن صدقة ويشتتا جنده ويأسراه، وعاد الخليفة إلى بغداد[٥].

وفي سنة ٥١٧ هـ عزل البرسقي من شحنكية العراق وأعيد إلى الموصل لجهاد الصليبيين. فاستدعى عماد الدين زنكي، وكان بالبصرة، لموافاته بالموصل، ولكنه آثر البقاء بأصبهان مع السلطان محمود الذي قربه إليه وزوجه من أرملة أحد كبار أمرائه في احتفال فخم شهده السلطان[٦]. وفي السنة التالية أقطع هذا السلطان عماد الدين زنكي البصرة، فقضى على الفوضى التي سادتها، ثم ولاه واسط للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة في إرسال جيش للاستيلاء عليها[٧]، وقد قدر السلطان كفاية زنكي فولاه شحنكية العراق[٨].

وفي سنة ٥١٩ هـ ساءت العلاقة بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي سار إلى العراق لفرض سيطرته عليه، وأرسل الخليفة جيشاً إلى واسط للاستيلاء عليها، ولكن

---

(١) ويلقب أيضاً قسيم الدولة سيف الدين. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ ـ ٢٢٠.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٢٤.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٤٥.

(٤) الشحنة (بكسر الشين مع التشديد وسكون الحاء وفتح النون) في اللغة الجماعة من المحاربين يقيمون في البلد لحمايتها والدفاع عنها من هجوم العدو. وأطلق هذا اللفظ على من يقوم برياسة هؤلاء المحاربين. والشحنكية معناها محافظ المدينة أو الإقليم.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢. الباهر ص ٢٥ ـ ٢٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٦) ابن الأثير: الباهر ص ٢٧ ـ ٢٨ الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧.

(٧) الباهر ص ٢٨.

(٨) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤٤.

الهـزيمة حلت بهـذا الجيش، ثم وصل السلطان إلى بغـداد ولحق به زنكي على رأس قـواته البرية والنهرية، واضطر الخليفة إلى طلب الصلح ،فتم له ما أراد(١). ولم يطل مقام السلطان محمود ببغداد لاعتـلال صحته، فعـاد إلى أصبهان حـاضرة سلطنتـه. وقبل رحيله ولى عماد الدين زنكي شحنكية بغـداد والعراق بـالإضافـة إلى الولايـات التي كان يحكمهـا. وقد ظـل زنكي في هذا المنصب نحواً من أربعة أشهر، ثم صـدر منشور السلطان بـإقطاعـه الموصـل والجزيرة والشام(٢)، وسلمه ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي وجعله أتابك لهما. ومنذ ذلك الحين أطلق على زنكي لقب «أتابك»(٣).

وفي سنة ٥٢٢ هـ استولى عماد الدين زنكي على حلب التي كان الصليبيون يهددونها من حين إلى حين.

(حـ) علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة والسلطنة:

تقلَّبت أحـوال عماد الـدين زنكي من حيث علاقتـه بالسلطان والخليفـة. على أن هذه التقلبات لم تزعزع مركزه في ولاية الموصل والجزيرة والشام، فقد سـار السلطان محمود إلى عمه سنجر شيخ السلاجقـة وصاحب الكلمـة العليا في السلطنـة لتصفية الخـلافات القـديمة بينهما. وكان دُبَيْس بن صدقة أمير الحلة عند سنجر، فطلب من السلطان محمود العمل على تحسين علاقته بالخليفة وتوليته الموصل والجزيرة والشـام بدلاً من عمـاد الدين زنكي، ولـما وصل السلطان محمود إلى بغداد (المحرم سنة ٥٢٣ هـ) عرض على الخليفـة طلب سنجر، وكان عماد الدين زنكي قد علم بما دبر له، فأسـرع السير إلى بغـداد وبذل الأمـوال الضخمة لكل من الخليفة والسلطان لإقراره في منصبه من جديد.

وقد مال الخليفة والسلطان إلى تحقيق رغبة عماد الدين زنكي لعوامل كثيرة ترجـع إلى ما كان يضمره الخليفة من الكراهية والبغضاء لدبيس بن صدقة، لتحديه إياه وموقفـه العدائي منه وشنه الغارات على بغداد ومساعدته الصليبيين على المسلمين. أما السلطان محمـود فقد

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٣٨ ـ ٣١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤ ـ ١٩٦.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٣٥. الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٧. انظر مادة عماد الدين زنكي في ابن خلكان ج ٢ ص ٧٩ ـ ٨٠.

خشي أن يتخذ سنجر من تولية دُبَيْس على الموصل ذريعة لزعزعة نفوذه وتقويض سلطانه في العراق[١].

وفي سنة ٥٢٥ هـ ساءت العلاقة بين عماد الدين زنكي والخليفة المسترشد، فقد طلب الخليفة تسليم دبيس بن صدقة، وكان معتقلاً في دمشق، على أن عماد الدين زنكي أطلق دبيساً وأحسن إليه وأعطاه الأموال. ولعل زنكي أراد بذلك أن يراقب دبيساً ويحدّ من نشاطه إذا سولت له نفسه مناوأته. أما الخليفة فإنه كان يرمي من وراء تسليم دبيس أن يضع حدّاً لمناوأته إياه[٢].

وفي سنة ٥٢٥ هـ سمع عماد الدين زنكي وهو في طريقه إلى حمص نبأ وفاة السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه فطلب إلى الخليفة المسترشد أن يقيم الخطبة لألب أرسلان (وكان هو وأخوه الخفاجي تحت إشراف زنكي). وكان عماد الدين زنكي يرمي إلى الاستئثار بالنفوذ باسم هذا الأمير الصغير إذا آلت إليه السلطنة. لكن الخليفة اعتذر عن إجابة زنكي إلى طلبه بحجة أن ألب أرسلان لا يزال طفلاً غير صالح للحكم، وأن السلطان محمود كان قد عهد بالسلطنة وهو بأصبهان لابنه داود في الوقت الذي أقام عمال الأقاليم الخطبة لهذا السلطان الجديد، وأضاف إلى ما تقدم أنه في انتظار رأس سنجر كبير البيت السلجوقي وسلطان خراسان وما وراء النهر[٣].

وفي سنة ٥٢٦ هـ استمال مسعود (بن محمد بن ملكشاه) حاكم أذربيجان عماد الدين زنكي وطلب مساندته في المطالبة بعرش السلاجقة مقابل تقليده مدينة إربيل التي كانت تابعة له، وتم الاتفاق بينهما على المسير إلى بغداد لمطالبة الخليفة بإقامة الخطبة لمسعود والاعتراف به سلطاناً على العراق[٤]. على أن سلجوقشاه سبق أخاه مسعوداً وسار إلى بغداد على رأس جيش كبير. ولكنه توجّه (وهو في طريقه إلى بغداد) إلى تكريت لإيقاف تقدم زنكي[٥] وعلى مقربة من هذه المدينة دارت بين الفريقين موقعة انتهت بانهزام عماد الدين زنكي، فيمم شطر تكريت حيث أكرم نجم الدين أيوب وفادته وسهل له سبيل عودته إلى الموصل. ومن هنا نشأت العلاقة بين بيت زنكي والبيت الأيوبي، تلك العلاقة التي كان لها

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٩.
(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ - ٢٣٣.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٤٦.
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٧.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٥٧، ج ١١ ص ١٣٨.

أثر بعيد في الأحداث التاريخية التي ظهر فيها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية في عصره[١].

وقد أدرك مسعود وسلجوقشاه أن الصراع بينهما يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر على إحباط هذه الخطة، فاستمال إليه عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة، وطلب إليهما التوجه نحو بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة له فيها ثم لطغرل بن محمد بن محمود بن ملكشاه من بعده، وتعهد سنجر بإضافة منصب شحنكية بغداد الى عماد الدين زنكي[٢]، وبأن يقطع «دبيس» إمارة الحلة[٣] ولكن سنجر انتصر على جيوش مسعود وسلجوقشاه وأجلس طغرل بن محمد على عرش سلطنة العراق، ثم حلت الهزيمة بزنكي ودبيس، واستطاع مسعود أن يجلس على عرش سلطنة العراق وإيران بموافقة عمه سنجر.

وكان من أثر هذه المعارك أن ساءت العلاقة بين عماد الدين زنكي والسلطان مسعود من ناحية وبين الخليفة المسترشد من ناحية أخرى، وفي شهر رمضان سنة ٥٢٧ هـ سار الخليفة إلى الموصل على رأس جيش قيل إنه بلغ ثلاثين ألف مقاتل وحاصرها ثمانين يوماً، واتخذ مسعود من حصار الخليفة الموصل فرصة للاستيلاء على بغداد بمساعدة دبيس بن صدقة. ولذلك اضطر الخليفة إلى العودة إلى بغداد، وعقد الصلح مع زنكي (٥٢٨ هـ) وتبودلت الهدايا بينهما، وأرسل ابنه سيف الدين غازي يؤكد طاعته للخليفة وولاءه له[٤].

ثم طلب الخليفة المسترشد من عماد الدين زنكي رفع الحصار عن دمشق والتوجه إلى بغداد ليشترك في النزاع الذي قام بينه وبين مسعود (٥٢٩ هـ)، ودارت الحرب بين الخليفة والسلطان قبل وصول جيش زنكي، وأسر الخليفة ثم قتل على أيدي الباطنية، وأخذت البيعة للراشد (ذو القعدة سنة ٥٢٩ هـ)[٥]. وكان من أثر انهزام جيش الخليفة المسترشد وزنكي أن ضاعت الفرصة في تولية ألب أرسلان عرش السلطنة، الأمر الذي قد يؤدي إلى سيطرة كل من الخليفة وزنكي على شئون العراق باسم السلطان الصغير. كما كان من أثر هذه الهزيمة أن زاد التوتر بين عماد الدين زنكي والسلطان مسعود الذي حاول اغتيال زنكي ليتخلص من

---

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٤، ج ٦ ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) الشحنكية أو الشحنة معناها منصب محافظ المدينة أو الإقليم كما تقدم.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ٢٦. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٥٧ - ٢٥٨، كتاب الباهر ص ٤٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢، ٦؛ وكتاب الباهر ص ٤٧، ٤٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٠ - ١١؛ وكتاب الباهر ص ٤٩ - ٥٠.

نفوذه، فاستدعاه للتوجه إلى أصبهان. ولكن دبيس بن صدقة أخبر زنكي بنوايا السلطان وحذره من غدره. ولما علم السلطان مسعود بما فعله دبيس أمر به فقتل، وعلم زنكي بذلك فأسف على مقتل دبيس وقال: «فديناه بالمال وفدانا بالروح».

أراد الخليفة الراشد أن يثأر لقتل أبيه، فألب الأمراء على السلطان مسعود الذي رماه بتدبير هذه المؤامرة التي انتهت بقتل أبيه واستعان بعماد الدين زنكي، وأقيمت الخطبة لداود ابن محمود (بن محمد بن ملكشاه) في بغداد. ثم قام النزاع بين الخليفة الراشد والأمراء الذين حثهم على قتال مسعود الذي توجه إلى بغداد. واستطاع عماد الدين زنكي أن يصد قواته أول الأمر، ثم اضطر إلى الخروج من بغداد بصحبة الخليفة متجهاً إلى الموصل. ودخل مسعود بغداد، وخلع الخليفة الراشد وولى المقتفي الخلافة (في ١٨ ذي الحجة سنة ٥٢٩ هـ)[١].

وقد اقتصرت اقامة الخطبة للخليفة الجديد المقتفي على بعض أنحاء العراق، على حين استمرت للخليفة الراشد الذي كان يقيم في الموصل ويتمتع بحماية زنكي. واستطاع أعوان المقتفي أن يقنعوا عماد الدين زنكي بأخذ البيعة للخليفة الجديد، فكافأه بإقطاعه بعض أملاكه الخاصة وزاد في ألقابه (٥٣٠ هـ)[٢]. وأخذ كل من الخليفة الجديد وعماد الدين زنكي العهود والمواثيق كل على الآخر، وأرسل محضر بخلع الراشد وتولية المقتفي، فقرىء على منابر مساجد الموصل وأقر قاضي القضاة والوزير وزنكي. عند ذلك اتجه الراشد إلى مراغة (في أذربيجان) ثم سار إلى أصبهان حيث قتل على أيدي الباطنية كما قتل أبوه من قبل[٣]. وقد عزا ابن الجوزي[٤] موقف زنكي إلى ضعف قواته العسكرية خلال صراعه ضد السلطان مسعود وتعرض إمارته لهجوم جيوشه وخوفه من بطش السلطان سنجر. وكان زنكي يرمي إلى تحقيق سياسته وهي توحيد الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحدة تقف في وجه الصليبيين.

وقد أدى موقف عماد الدين زنكي من السلطان مسعود إلى تحسن العلاقة بينهما. وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٣٢ هـ بعث السلطان مسعود رسوله إلى الموصل يحمل الخلع إلى زنكي.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٥، ١٧. ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٨ ـ ١٩؛ الباهر ص ٥٤.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ١ ص ٧٠.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم: ج ١٠ ص ٦٧.

وقد أدرك عماد الدين زنكي خطورة الأحوال في شمالي الشام وتهديد الصليبيين مدينة حلب. فأرسل قاضيه إلى السلطان مسعود يطلب منه العودة لدرء هذا الخطر، على أن القاضي خشي أن تستخدم قوات السلطان في تهديد إمارة زنكي نفسها فقال: «إنني أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة فيرسل قواته، فإذا وصلوا إمارتنا استولوا عليها». على أن عماد الدين زنكي آثر المصلحة الدينية على المصلحة الشخصية، فرد على قاضيه ردّاً تتمثل فيه هذه الروح الإسلامية العالية فقال: «إن الصليبيين قد طمعوا في البلاد، وإن هم استولوا على حلب لم يبق في الشام إسلام. وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار». وفي شهر رمضان سنة ٥٣٢ هـ وصل رسول السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب مدينة حمص يهنئه على ما أحرزه من نصر على الصليبيين ويخلع عليه الخلع التي أرسلها إليه السلطان ومنحه[١] كثيراً من الألقاب مثل: الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحد عماد الدين... زنكي بن أق سنقر نصير أمير المؤمنين[٢].

أما علاقة عماد الدين زنكي بالسلطان مسعود فقد ساءت في سنة ٥٣٨ هـ حين حاول هذا السلطان الاستيلاء على إمارة زنكي بسبب اتساع رقعة إمارته وضخامة ثروة بلاده وعظم قوته الحربية[٣]. وكان زنكي يرمي من وراء سياسته إلى تأليب أصحاب الأطراف على السلطان مسعود السلجوقي ليشغله عن الالتفات إليه، وبذلك يستطيع أن يوطد نفوذه في بلاد الموصل من جهة، ويوسع رقعة بلاده على حساب البلاد الإسلامية المجاورة من جهة أخرى[٤]، ويحارب الصليبيين من جهة ثالثة. وبهذه السياسة استطاع عماد الدين زنكي أن يستولي على الرها من أيدي الصليبيين (٥٣٩/١١٤٤) الذين عدوا ضياعها نذيراً لزوال نفوذهم في بلاد الشام وفتح الطريق أمامهم إلى العراق. لذلك كانت سياسة السلطان مسعود إزاء عماد الدين زنكي تقوم على المداراة والمهادنة بسبب الدور الخطير الذي كان يقوم به

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٣ - ٢٤؛ الباهر ص ٦٢ - ٦٣.
(٢) ابن القلانسي: ص ٢٨٤.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٨.
(٤) أقام بعض الأمراء إمارات محلية تتمتع بالاستقلال الفعلي. ومن أهم هذه الإمارات من حيث علاقتها بحكم عماد الدين زنكي: إمارة أرتق، وإمارة ديار بكر، وإمارة أرمينية. وهناك أتابكيات أخرى نذكر منها أتابكية كيفا، وشاهات أرمينية، وأتابكية فارس، وأتابكية كرمان. وهناك مدن متفرقة يحكم كلاًّ منها أمير شبه مستقل مثل جزيرة ابن عمر (وكانت تابعة للموصل)، وسنجار، وحران، والرقة، وشهرزور، والحديثة، وعانة.

في دفع الخطر الصليبي، إذ أن إمارته كانت في الواقع تقف سداً منيعاً في وجه ذلك الخطر الذي لا يبعد أن يمتد إلى بلاد السلطان مسعود نفسه.

وقد حاول عماد الدين زنكي أكثر من مرة أن يفرض نفوذه على مدينة دمشق، ولكنه لم يستطع تحقيق سياسته لمساعدة الصليبيين أتابكة هذه المدينة. إذ كانوا يدركون أن استيلاء زنكي على هذه المدينة يهدد بقاءهم في بلاد الشام، لأهمية موقع دمشق الحربي، ووقوعها على الطريق التجاري بين البلاد الواقعة على نهر الفرات ومصر. وقد استرعت دمشق أنظار كل من عماد الدين زنكي وأبنائه من بعده، كما شغلت بال حكام بيت المقدس، حتى تمكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي من الاستيلاء عليها سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، ومهد بذلك السبيل لاستيلائه على مصر.

(٣) أتابكية حلب:

قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) كما ذكرنا، وانقسمت أملاكه بين أبنائه، فتولى نورالدين محمود مدينة حلب وسار على سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، وتولى سيف الدين غازي الموصل وبلاد الجزيرة[1]. وبعد فترة من الزمن زال الفرع السوري وحل محله فرع آخر استقر في سنجار، ثم قامت فيما بعد دويلة أخرى في الجزيرة، وبذلك أخلى فرع سنجار السبيل للأيوبيين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) أما الفروع الأخرى فقد دخلت تحت حكم لؤلؤ مملوك ووزير بيت زنكي في الموصل، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت هذه الدويلات جميعاً تحت حكم المغول.

وقد عمل محمود على توحيد البلاد الشامية تحت سلطانه ليستطيع محاربة الصليبيين، واتخذ الصليبيون من موت عماد الدين زنكي فرصة لاسترداد مدينة الرها، ولكن ابنه نور الدين محمود لم يمكنهم من الاستيلاء عليها[2]. وبلغ من أهمية الرها في نظر الصليبيين بعد استيلاء عماد الدين زنكي عليها وبقائها في أيدي المسلمين أن فكر الصليبيون في إرسال الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام لاسترداد الرها من أيدي المسلمين. وقد وصلت هذه الحملة في عهد نور الدين محمود، غير أن زعماءها انحرفوا عن هدفهم الأصلي واتجهوا صوب دمشق، وبذلك أخطأ الصليبيون باتجاههم إلى هذه المدينة التي كانت الحليف الوحيد للصليبيين ضد نور الدين محمود[3]. وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى إخفاق الحملة الصليبية الثانية.

---

(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ١٥٧ ـ ١٥٩. (٣) Barker. The Crusades, p. 54:

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٥١ ـ ٥٢.

وقد فكر نور الدين محمـود في الاستيلاء على دمشق ليتحصن بهـا ضد الصليبيين وتم لـه ما أراد سنـة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، كما استـطاع أن يستـولي على بعض القـلاع الصليبيـة الأخرى[١]، وأن يمد نفوذه إلى مصر بمسـاعدة أسـد الدين شيركوه وابن أخيـه صلاح الـدين الأيـوبي الـذي أصبـح أكبـر زعيم في الشـرق بعـد وفـاة نـور الـدين محمـود سنـة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م). فقد توجه صلاح الدين إلى حلب بحجة إنقـاذ الصالـح إسماعيـل بن نور الدين محمود الذي لم يـزد عمره على إحـدى عشرة سنـة من أيدي أفـراد حاشيتـه الذين تحالفوا مع «ريمند» صـاحب طرابلس. ولكن صـلاح الدين رفـع الحصار عن هـذه المدينـة حين سارع «ريمند» إلى مساعدة أمير حلب.

وفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) سار سيف الدين غازي الثـاني (ابن قطب الـدين مودود) أتابك الموصل لمساعدة ابن عمه صاحب حلب. والتقت القوتان المتحالفتان بصـلاح الدين عند الموضع المسمى «قرون حماه» حيث انتصر صلاح الدين، كما انتصر على سيف الدين غازي في السنة التالية. وبذلك خضعت بلاد الجزيرة لسلطان صلاح الدين، فاعترف له أمير حلب بالسيادة على كافة البلاد الممتدة من مصر إلى نهر الفرات[٢].

وفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) توفي الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، وكان قـد أوصى قبل وفاته بولاية حلب لابن عز الدين مسعود أمير الموصـل. ولتباعـد هاتين الـولايتين بعضهما عن بعض عرض عمـاد الدين صـاحب سنجار على عز الدين مسعـود أن يأخـذ عماد الدين «حلب» ويأخذ عز الدين «سنجار». وبذلك تصبح أملاك عز الدين متقاربة بعضهـا من بعض. وكانت سياسة عماد الدين زنكي ترمي إلى محاربة لصلاح الدين والحد من سلطانه لهذا لم ير صلاح الدين بدّاً من السيـر إلى مدينـة حلب (١١٨٣/٥٧٩) واضطر عماد الدين إلى تسليمها إليه مقابل إعادته إلى ولايته الأصيلة سنجار[٣]. وبذلك آلت ولاية حلب إلى صلاح الدين ثم إلى ابنه الطاهر من بعده[٤] واستمرت في أيدي الأيوبيين حتى استولى عليها هولاكو التتاري وفر الناصر صاحب حلب إلى الكرك (بفتح الكاف والراء) حيث تحصن ضد المغول[٥].

---

(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص. . . .

(٢) Lane-Poole. Hist, of Egypt in the Middle Ages, pp. 199-200

(٣) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٣١ ـ ٢٣٤ الكامل ج ١١ ص ٢٢.

(٤) لينبول A. Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 213.

(٥) Raschid-El din, Histoire des Mongols de la Perse, p. 341.

(٤) أتابكية سنجار ٥٦٦ ـ ٦١٧/ ١١٧٠ ـ ١٢٢٠:

أسس هذه الأتابكية عماد الدين زنكي (الثالث) ابن قطب الدين مودود صاحب الموصل الذي كان قد أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني، ثم عدل عن وصيته لابنه الأصغر سيف الدين غازي الأول بإيعاز أحد خواصه[١] ويدعى فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين لمسايرته عمه نور الدين محمود صاحب حلب. كما كان يضمر له العداء، فلما توفي قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ، وعلم نور الدين محمود باستبداد فخر الدين عبد المسيح بابن أخيه سيف الدين وسوء سياسته قال: «أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم». ثم سار نور الدين محمود إلى الموصل واستولى (وهو في طريقه إليها) على مدينة سنجار، ولما حاصر نور الدين الموصل أسرع فخر الدين عبد المسيح إلى تسليمها إليه، فولاها ابن أخيه سيف الدين غازي[٢]، كما ولى سنجار وأعمالها عماد الدين زنكي الثاني (٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م)[٣].

وقد أدى هذا التقسيم إلى قيام الخلاف بين الأخوين لتولي عماد الدين زنكي مدينة الموصل وأعمالها على حين تولى أخوه الأكبر إمارة سنجار التي تقل عنها أهمية[٤].

وقد تجلى هذا الخلاف بين هذين الأخوين حين استنجد الصالح إسماعيل (بن نور الدين محمود) أمير حلب بسيف الدين غازي صاحب الموصل (٥٧٥ هـ) لمساعدته ضد صلاح الدين. فقد طلب سيف الدين من أخيه عماد الدين أن يمده بالجند ليسير بهم إلى بلاد الشام، فرفض أن يجيبه إلى طلبه، وكان ذلك بإيعاز من صلاح الدين الذي أطمعه في الملك بحجة أنه أكبر من أخيه سيف الدين غازي. وقد انتهى هذا الخلاف بحصار سيف الدين غازي مدينة سنجار، ولكنه عاد فرفع هذا الحصار خوفاً من أن يسرع صلاح الدين بعد انتصاره في بلاد الشام إلى نجدة خليفة عماد الدين[٥].

وصفوة القول أن أسرة زنكي حكمت إمارة سنجار إلى أن استولى عليها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ثم خرب المغول معظم بلاد هذه الإمارة وما جاورها سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م)[٦].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٣) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٦٣.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٣٢.

(٥) أتابكية الجزيرة ٥٧٦ ـ ٦٤٨/ ١١٨٠ ـ ١٢٥٠:

ذكرنا من قبل أنه بعد وفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ انقسمت أملاكه بين ولديه نور الدين محمود الذي قبض على زمام الحكم في سورية، وسيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة، ثم استقر فرع آخر في سنجار، ثم قامت دويلة أخرى في الجزيرة.

ذلك أنه لما حضرت سيف الدين غازي صاحب الموصل الوفاة سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) أراد أن يوصي بأن يخلفه ابنه معز الدين سنجر شاه، وكان في الثانية عشرة من عمره. على أن أمراء دولته ذكروا له ما كان من تفاقم خطر صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام، وأشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود لما عرف به من الشجاعة ورجاحة العقل. فنزل سيف الدين غازي على رأيهم وولى أخاه حكم الموصل من بعده؛ وولى ابنه سنجر شاه مدينة الجزيرة وقلاعها(١). ولذلك قامت هناك أتابكية صغيرة مستقلة.

على أن سنجر شاه كان سيِّئ السيرة مدمناً الشراب، محبّاً لمجالس النساء مولعاً بالطرب. وقد اتصف عهده بالعسف والظلم واستحلال دماء الأبرياء والأشرار على السواء. وبلغ من تعسفه أنه كان يعاقب بقطع الألسنة والآذان والأنوف، وامتد شره إلى أبنائه فأقصاهم عن قصره، وقد روى المؤرخون أن ابنه معز الدين محمود قتله سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) وقد لعبت الخمر بلبه وهو في أحد مجالس النساء، وتولى حكم بلاد الجزيرة من بعده ابنه وقاتله معز الدين محمود.

وقد خضع أمراء الجزيرة لصلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يوحد أمراء شمالي العراق وهي الموصل وسنجار والجزيرة وإربل وغيرها، وأن يوجهها لحرب الصليبيين(٢)، وكانت هذه البلاد من نصيب العادل وأولاده من بعده حتى غزاها المغول.

(٦) أتابكية إربل ٥٣٩ ـ ٦٣٠/ ١١٤٤ ـ ١٢٣٢:

في سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عين عماد الدين زنكي أحد قواده الأتراك، وهو زين الدين علي بن بكتكين نائباً عنه في الموصل. وفي سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ضم زين الدين سنجار وتكريت وإربل(٣) وغيرها تحت نفوذه. وعند وفاة زين الدين علي في إربل (٥٦٣ هـ /١١٦٧ م) هرب ابنه الأكبر مظفر الدين كوكبُري إلى حران، وانتقل حكم إربل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) Lane-Poole, A. History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

(٣) هي قلعة حصينة من أعمال الموصل وأهلها أكراد استعربوا.

إلى ابنه الأكبر زين الدين يوسف تحت وصاية الأمير مجاهد الدين قيماز. وعند وفاة يوسف سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) عين صلاح الدين الأيوبي صاحب النفوذ في سورية وبلاد الجزيرة، مظفر الدين كوكبري خلفاً لأخيه في إربل وشهرزار، وأعطى البلاد التي كان يحكمها من قبل، وهي حران والرها وسُمَيْساط إلى ابن أخيه تقي الدين عمر. وقد مات كوكبري سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م). ولما لم يكن له أولاد ذكور أوصى بأن يكون حكم إربل إلى الخليفة العباسي، فظلت تحت حكمه حتى استولى عليها المغول أثناء غزوهم البلاد الإسلامية[١].

بيت بكتجين أتابكة إربل وغيرها

هجرية		ميلادية
٥٣٩	زين الدين علي كوجك بن بكتجين	١١٤٤
٥٦٣	زين الدين يوسف بن علي (في إربل) ت ٥٨٦ هـ	١١٦٧
٥٦٣	مظفر الدين كوكبُري بن علي (في حران)	١١٦٧
٥٨٦ - ٦٣٠	مظفر الدين كوكبري بن علي (في إربل)	١١٩٠ - ١٢٣٢
	[العباسيون - المغول]	

(٧) أتابكية ديار بكر[٢]:

كان أرتق (بن أكْسب) مؤسس هذه الأسرة قائداً تركياً من قواد الدولة السلجوقية. وقد تقلد ولاية بيت المقدس بعد أن فتحها تُتُش السلجوقي صاحب دمشق، وقد تولى سُكْمان وإيلغازي (ابنا أرتق) اللذان اشتهرا في حروبهما مع الصليبيين بفلسطين حكم ديار بكر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) إلى أن ضم الفاطميون هذه المدينة سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م)، ثم عادا إلى الرها والعراق على التوالي. وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١) عين السلطان محمد السلجوقي إيلغازي والياً على بغداد، وفي السنة نفسها قلد أخاه سُكمان حصن كَيْفا بديار بكر، فضم إليها ماردين؛ ولكن حكمها انتقل في سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) إلى أخيه إيلغازي، ومن ثم أَصبح هناك فرعان من بيت أرتق يتوليان الحكم في كَيْفَا وماردين.

وبعد هذه الأعمال الحربية التي قام بها آل أرتق في كيفا على يد سكمان الذي حارب «بولدوين» وجوكلين Jocelin من الفرنجة عاش هذا الفرع في اطمئنان، يدين حكامه بالطاعة

---

(١) op. cit. p. 165

(٢) تعرف هذه الأتابكية بالدولة الأرتقية نسبة إلى مؤسسها أرتق بن أكسب، وقد شملت هذه الأتابكية ماردين وميافارقين وبعض الحصون المجاورة كحصن كيفا.

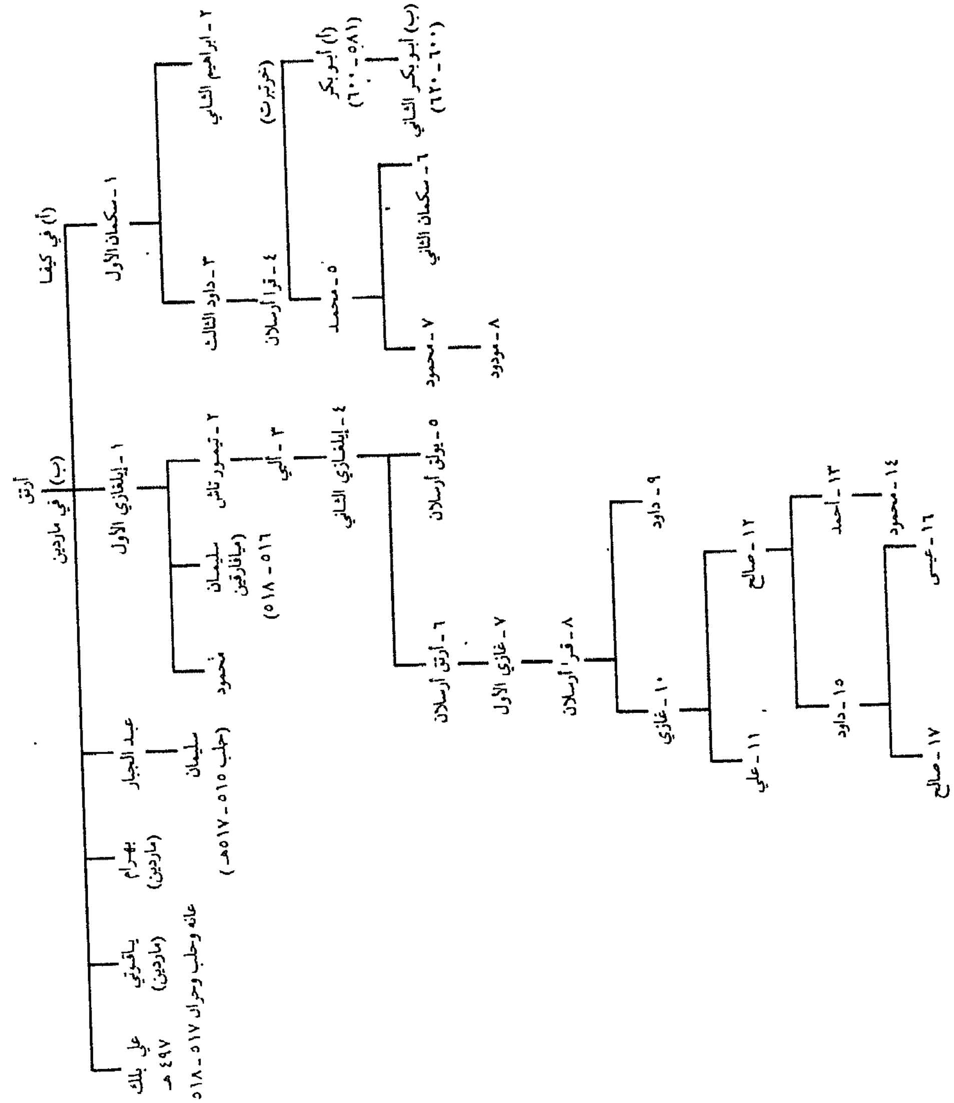
لصلاح الدين الأيوبي الذي كافأهم بضم آمد إلى بلادهم (٥٧٩ هـ /١١٨٣ م)، وظل هذا الفرع حتى انقرض على يد السلطان الكامل الأيوبي (٦٢٩ هـ /١٢٣١ م). وقد حكم فرع صغير من بيت أرتق في كيفا الذين كانوا يحكمون خَرْتَبِرْت بديار بكر من سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) إلى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م). أما بنو أرتق بماردين فقد كوفىء إيلغازي (مؤسس بني أرتق بماردين الذي يعد من أبطال المسلمين في جهاد الصليبيين) بولاية حلب سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م)، ثم قلده السلطان محمود السلجوقي ولاية ميافارقين (بديار بكر)، واستمر أبناؤه يحكمون ماردين وميافارقين حتى سنة ٥٨٠ هـ(١١٨٤ م).

على أن موقع هذه الدولة كان من العوامل التي أضعفت وحدة المسلمين بسبب المنازعات التي قامت بينهم. ثم غزا المغول معظم مدن هذه الأتابكية سنة ٦٢٨ هـ وعاثوا فيها فساداً في أثناء مطاردتهم جلال الدين المنكبرتي آخر شاهات الدولة الخوارزمية، وقد استسلمت الدولة الأرتقية لتيمورلنك ودخلت في دولة قَراقيونلي Karâ-Kuyunli المغولية سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م). على أن أهمية أمراء ماردين قد زالت بعد أن استقر نفوذ الأيوبيين في سورية وبلاد الجزيرة، ولكن حلب قد سقطت سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) على يد بَلَك بن إبراهيم أحد زعماء بيت أرتق الذي استولى على «عانة» (٤٩٧ هـ) وخرتَبِرْت (٥١٥ هـ). وكان بلك بن إبراهيم من القواد الذين اشتهروا بحروبهم مع الصليبيين[١].

(٨) بيت أرتق في كيفا:

هجرية		ميلادية
٤٩٥	معين الدولة سُكمان الأول	١١٠١
٤٩٨	إبراهيم	١١٠٤
٥٠٢	ركن الدولة داود	١١٠٨
٥٤٣	فخر الدين قرا أرسلان	١١٤٨
٥٧٠	نور الدين محمد	١١٧٤
٥٨١	قطب الدين سُكمان الثاني	١١٨٥
٥٩٧	ناصر الدين محمود	١٢٠٠
٦١٩ ـ ٦٢٩	ركن الدين موعود	١٢٢٢ ـ ١٢٣١

(١) زامباور: الأسرات الإسلامية ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ , لينبول: The Muhammadan Dynasties, pp. 166-169.


أرتق
(أ) في كيفا
(ب) في ماردين
١ ـ سكمان الأول
٢ ـ ابراهيم الثاني
٣ ـ داود الثالث
٤ ـ قرا أرسلان
٥ ـ محمد
٦ ـ سكمان الثاني
٧ ـ محمود
٨ ـ مودود
(خرتبرت)
(أ) أبو بكر (٥٨١ ـ ٦٠٠)
(ب) أبو بكر الثاني (٦٠٠ ـ ٦٢٠)
١ ـ إيلغازي الأول
٢ ـ تيمور تاش
٣ ـ ألبي
٤ ـ إيلغازي الثاني
٥ ـ يولق أرسلان
٦ ـ أرتق أرسلان
٧ ـ غازي الأول
٨ ـ قرا أرسلان
٩ ـ داود
١٠ ـ غازي
١١ ـ علي
١٢ ـ صالح
١٣ ـ أحمد
١٤ ـ محمود
١٥ ـ داود
١٦ ـ عيسى
١٧ ـ صالح
سليمان (بميافارقين) (٥١٦ ـ ٥١٨)
محمود
عبد الجبار
سليمان (حلب ٥١٥ ـ ٥١٧هـ)
بهرام (ماردين)
ياقوتي (ماردين)
علي بك ٤٩٧ هـ
عانه وحلب وحران ٥١٧ ـ ٥١٨

[الأيوبيون]

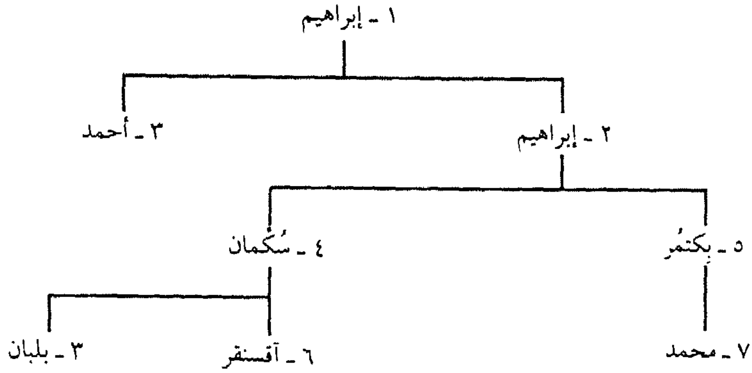
٥٠٢ ـ ٨٠١ هـ	(ب) بيت أرتق في ماردين	١١٠٨ ـ ١٤٠٨ م
٥٠٢	نجم الدين إيلغازي	١١٠٨
٥١٦	حسام الدين تُمُرتاش	١١٢٢
٥٤٧	نجم الدين ألبي	١١٥٢
٥٧٢	قطب الدين إيلغازي	١١٧٦
٥٨٠	حسام الدين يولُقْ ـ أرسلان	١١٨٤
٥٩٧	ناصر الدين أُرتق ـ أرسلان المنصور	١٢٠٠
٦٣٧	نجم الدين غازي الأول السعيد	١٢٣٩
٦٥٨	قرا ـ أرسلان المظفر	١٢٦٠
٦٩١	شمس الدين داود	١٢٩٢
٦٩٣	نجم الدين غازي الثاني المنصور	١٢٩٤
٧١٢	عماد الدين علي ألبي العادل	١٣١٢
٧١٢	شمس الدين صالح	١٣١٢
٧٦٥	أحمد المنصور	١٣٦٣
٧٦٩	محمود الصالح	١٣٦٧
٧٦٩	داود المُظَفَّر	١٣٦٧
٧٧٨	مجد الدين عيسى الطاهر	١٣٧٦
٨٠٩ ـ ٨١١	صالح	١٤٠٦ ـ ١٤٠٨

[قَرَاقُيُونْلي]

(٩) شاهات أرمينية:

هجرية		ميلادية
٤٩٣	سُكْمان القُطبي	١١٠٠
٥٠٦	ظاهر الدين إبراهيم شاه أرمان	١١١٢
٥٢١	أحمد	١١٢٧
٥٢٢	ناصر الدين سكمان الثاني	١١٢٨
٥٧٩	سيف الدين بكتمُر	١١٨٣
٥٨٩	بدر الدين آقْسُنْقُر	١١٩٣

٥٩٤	المنصور محمد	١١٩٨
٦٠٣ ـ ٦٠٤	عز الدين بَلْبَان	١٢٠٦ ـ ١٢٠٧



[الأيوبيون]

تطلعت أنظار العرب منذ أيام عثمان بن عفان إلى حكم أرمينية[1] وكان يتنازعها البيزنطيون والعرب. ولما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) دعا أهل أرمينية إلى الطاعة مع دفع الجزية فجنح أهلها إلى الطاعة وظلت خاضعة للحكم العربي. وعلى الرغم من الحروب المريرة التي قامت بين العرب الأوائل والأرمن نهضت البلاد في عهدهم. ثم حكمها العباسيون. ولكن ظهور القومية الأرمنية أطاح بالحكم العربي واستولى عليها البيزنطيون وظلت على ذلك حتى استردها قواد السلاجقة الذين أخذوا يشنون الغارات عليها من سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م).

على أن السلاجقة نهضوا في عهد ألب أرسلان الذي وجه حملاته إلى أرمينية من الري. فأخضع أران والكرج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي أرمينية. وسار الإمبراطور رومانوس الرابع (٤٦٣/١٠٧١ م) على رأس جيش جرار بلغ مائة ألف مقاتل لصد التقدم السلجوقي، واسترد حصن «ملاذجَرْد» أمنع القلاع الواقعة على الحدود. غير أن السلاجقة أرغموا الجيش البيزنطي على الارتداد إلى بلاد «بين النهرين» وأسر ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي. وكانت هذه الهزيمة إيذاناً بانتهاء حكم الدولة البيزنطية، واقترنت بسقوط بلاد الأناضول العربية وأرمينية وكبادوكيا وهجرة جماعات كبيرة من الأرمن نحو الغرب فراراً من

(١) بفتح وكسر الهمزة.

الغزاة، وأسسوا في كيليكيا دولة أرمينية مستقلة استمرت حتى زالت على أيدي المغول في آسيا الصغرى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

وقد انقسمت أرمينية في عهد الحكم السلجوقي إلى مناطق إدارية تختلف مساحتها، ويحكم كلاً منها أمير يتمتع بقسط كبير من الاستقلال. وكانت دولة أخلاط الواقعة في الجنوب الغربي والتي أسسها سُكْمان القطبي سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م)(١) أقوى الدويلات إذا قورنت بالدويلات السلجوقية التي قامت في أرمينية، على الرغم من أن هذه الإمارة التي كان أغلب سكانها من الأرمن لا تمثل إلا خمس بلاد أرمينية؛ ولما انقرضت أسرة بني سُكْمان (٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) انتقل الحكم إلى «مملوك بك تيمور» (١١٨٥ ـ ١١٩٧ م) ثم استولى الأيوبيون على هذه البلاد (٦٠٤/١٢٥٧)، وأقام السلطان الملك العادل (الذي أعاد توحيد دولة أخيه صلاح الدين) ابنه الأوحد أميراً على خلاط، ثم خلفه أخوه الأشرف(٢). ولما مات العادل استقل الأشرف بحكم هذه البلاد ووسع رقعة بلاده حتى بلغت بلاد الأكراد(٣). وفي سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) سقطت مملكة خلاط التي كان يحكمها المظفّر غازي آخر ملوك الأيوبيين، باستيلاء هولاكو التتاري عليها، كما فتح أرمينية(٤) وكردستان والعراق وبلاد ما بين النهرين.

(١٠) أتابكية أذربيجان(٥):

هجرية		ميلادية
٥٣١	شمس الدين إيْلدجِز	١١٣٦
٥٦٨	محمد البهلوان جاهان	١١٧٢
٥٨١	قِزِل ـ أرسلان عثمان	١١٨٥
٥٨٧	أبو بكر	١١٩١
٦٠٧ ـ ٦٢٢	مُظفَّر الدين أوزْبك	١٢١٠ ـ ١١٢٥

(١) Lane-poole, Muhammadan Dynasties, p. 170

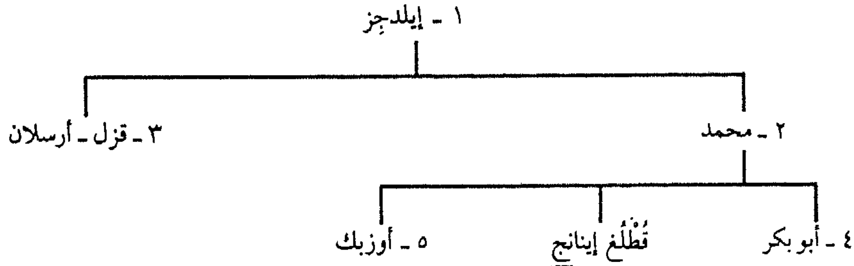
(٢) وكانا يحكمان تحت إشراف أبيهما العادل.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٢٦.

انظر مادة أرمينية في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٥) لينبول: الأسرات الإسلامية ص ٧١.



[شاه خوارزم]

أسس هذه الدولة إيْلدجز وهو مملوك تركي كان من المقربين في بلاط السلطان مسعود السلجوقي في بلاد العراق، وقد اشتراه من بلاد القفجاق[١]، فاشتغل في أول أمره في مطبخ السلطان مسعود، ثم أخذ يترقى في سلك البلاط في العراق، وأخيراً تقلد إقليم أران في شمالي أذربيجان. وقد تزوج من أخت زوجة السلطان وكانت أرملة، وقد أخذ ايلدجز يوسع نفوذه فاستولى على معظم بلاد أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وأصبهان والري وامتد نفوذه من تفليس إلى مكران[٢]. وكان ابنه محمد الحاكم الفعلي للعراق بالإضافة إلى ولاية أذربيجان، وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ٥٦٨/١١٧٢. على أن هذه البلاد الشاسعة الأطراف انكمشت إلى أذربيجان في عهد الأتابك أبي بكر محمد الذي اتخذ مدينة تبريز حاضرة له. وظلت هذه البلاد تحت حكم هذه الأسرة حتى استولى جلال الدين المنكبرتي آخر شاهات خوارزم عليها من أوزبك البهلوان آخر أمرائها سنة ٦٢٢/١٢٢٧ وتزوج من أرملته وهي ابنة طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة في العراق[٣] ثم استولى المغول على هذه البلاد سنة ٦٢٨/١٢٣١.

وقد روى المؤرخون أن هولاكو اتخذ من أذربيجان مكاناً لحفظ الأسلاب والغنائم التي استولى عليها في حروبه لبعدها ومناعتها. وبذلك أصبحت أذربيجان ذات أهمية خاصة في العصر المغولي.

(١١) سلاجقة كرمان:

هجرية		ميلادية
٤٣٣	قاورت بك: عماد الدين قرا أرسلان	١٠٤١
٤٦٥	كرمان شاه	١٠٧٢
٤٦٧	حسين	١٠٧٤

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٧٤.
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٩٨ ـ ٢٠١.
(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٣٤.

٤٦٧ هـ.	سلطان شاه: ركن الدين	١٠٧٤ م
٤٧٧	تُوران شاه	١٠٨٤
٤٩٠	إميران شاه	١٠٩٧
٤٩٤	أرْسْلان شاه	١١٠٠
٥٣٦	محمد الأول(*): مغيث الدين	١١٤١
٥٥١	طُغْرل شاه: محيي الدين	١١٥٦
منافسون	بهرام شاه أرسلان شاه الثاني تركان شاه	١١٦٧
٥٨٣	محمد الثاني +	١١٨٧

[التركمان الغزّ]

* كان محمد في حروب متصلة قبل وفاة بركياروق بسنوات كثيرة.

+ كان سنجر والياً على خراسان عشرين سنة قبل أن يجلس على عرش السلطنة.

(١٢) سلاجقة سورية:

هجرية		ميلادية
٤٨٧	تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤
٤٨٨	رضوان بن تتش (في حلب)	١٠٩٥
	(دقاق بن تتش في دمشق ٤٨٨ ـ ٤٩٧)	
٥٠٧	ألب أرسلان الأخرس بن رضوان	١١١٣
٥٠٨ ـ ٥١١	سلطان شاه بن رضوان	١١١٤ ـ ١١١٧

[الأرتقيون، البوريون]

(١٣) سلاجقة العراق وكردستان:

٥١١ هـ.	محمود: مغيث الدين	١١١٧ م.
٥٢٥	داود: غياث الدين	١١٣١
٥٢٦	طغرل الأول	١١٣٢
٥٢٧	مسعود: غياث الدين	١١٣٣
٥٤٧	ملكشاه: معين الدين	١١٥٢
٥٤٨	محمد	١١٥٣

٥٥٤	سليمان شاه	١١٥٩
٥٥٦	أرسلان شاه	١١٦١
٥٧٣ - ٥٩٠	طغرل الثاني	١١٧٧ - ١١٠٤

[شاهات خوارزم]

(١٤) سلاجقة الروم:

(آسيا الصغرى)

هجرية		ميلادية
٤٧٠	سليمان الأول بن قطلمش	١٠٧٧
٤٧٩	فترة	١٠٨٦
٤٨٥	قليج أرسلان داود	١٠٩٢
٥٠٠	ملك شاه الأول	١١٠٦
٥١٠	مسعود الأول	١١١٦
٥٥١[١]	عز الدين قليج أرسلان الأول	١١٥٦
٥٨٤	قطب الدين ملك شاه الثاني	١١٨٨
٥٨٨	غياث الدين كيخُسْرو الأول	١١٩٢
٥٩٧	ركن الدين سليمان الثاني	١٢٠٠
٦٠٠	قليج أرسلان الثاني	١٢٠٣
٦٠١	كيخسْرو الأول أعيد إلى الحكم	١٢٠٤
٦٠٧	عز الدين كيكاوُس الأول	١٢١٠
٦١٦	علاء الدين كيقباد الأول	١٢١٩
٦٣٤	غياث الدين كَيخُسْرو الثاني	١٢٣٦
٦٤٣[٢]	عز الدين كيقاوس الثاني	١٢٤٥
٦٥٥	ركن الدين قليج أرسلان الرابع	١٢٥٧
٦٦٦	غياث الدين كيخسرو الثالث	١٢٦٧

(١) عاش قليج أرسلان إلى سنة ٥٨٠ هـ لكنه قسم بلاده بين أولاده قبل وفاته ببضع سنين.

(٢) حكم بالاشتراك مع أخيه قليج أرسلان الثالث.

٦٨٢[1]	غياث الدين مسعود الثاني	١٢٨٣
٦٩٦ ـ ٧٠٠	علاء الدين كَيْقُبَاد الثاني	١٢٩٦ ـ ١٣٠٠

[المغول: الأتراك العثمانيون الخ]

(١٥) السلاجقة الدانسمندية:

في سيواس وقيصرية ومَلَطية

محمد الأول بن جُمُشْتكين بن تلو دانشمنْد

هجرية		ميلادية
٤٩٩	غازي بن جمشتكين	١١٠٥
٥٢٩	محمد الثاني بن غازي	١١٣٤
٥٣٧	ذو النون بن محمد الثاني	١١٤٢
	يعي (أو يعقوب) أرسلان بن غازي	
٥٦٠	إبراهيم بن محمد الثاني	١١٦٥

[سلاجقة الروم]

بينما كان السلاجقة يوسعون رقعة إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى، وطد رئيس تركي آخر هو جمشتكين بن دانشمند قوته في كادوكيا في مدن سيواس وقيصرية وملطية. وفي المدينة الأخيرة هزم الفرنجة، وقد قام خلفاء جمشتكين بدور رائع في الحروب الصليبية، على أن هذه الأسرة سرعان ما اندمجت في جارتها السلجوقية العظيمة وهي سلاجقة الروم.

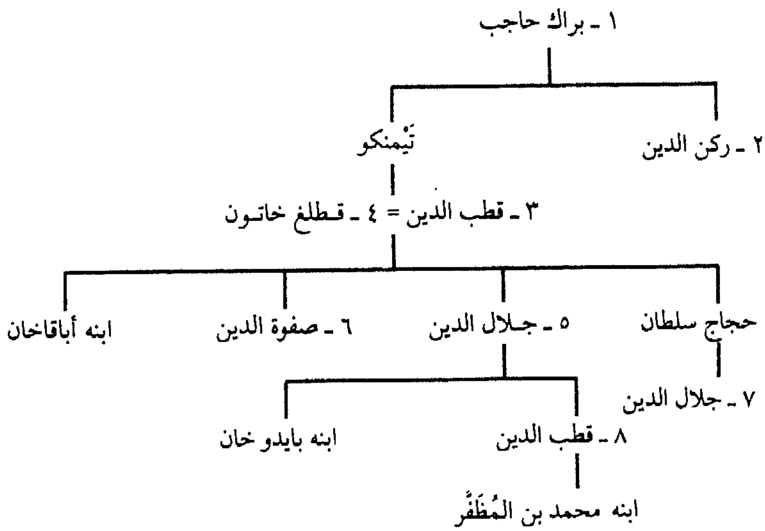
(١٦) أتابكية كرمان:

٦١٩ ـ ٧٠٣ هـ	(خانات قُطْلُغ)	١٢٢٢ ـ ١٣٠٣ م
٦١٩	بُرَاك حاجب قطلغ خان	١٢٢٢
٦٣٢	ركن الدين خوجة الحق	١٢٣٤
٦٥٠	قطب الدين محمد	١٢٥٢

(١) سمح أباقاجين المغولي لمسعود بحكم سيواس وأرضروم بعد وفاة أبيه كيدوس سنة ٦٧٧ هـ خلال حكم ابن عمه كيخسرو الثالث الاسمي الذي خلفه سنة ٦٨٢هـ ويظهر أن مسعود أعيد إلى مملكته على أثر عزل ابن أخيه كيقباد في سنة ٧٠٠ هـ وانه حكم أربع سنين. لكن الأربعة السلاجقة الأخيرين لم يحكموا إلا تحت سيطرة ايلخانات الغور في فارس.

٦٥٥	قطلغ خاتون (أرملة قطب الدين محمد، كان ابنها حجاج الحاكم الرسمي بين سنتي ٦٥٥ و٦٦٠ هـ)	١٢٥٧
٦٨١		١٢٨٢
٦٩٣		١٢٩٣
٦٩٤		١٢٩٤
٧٠١ - ٧٠٣		١٣٠١ - ١٣٠٣

[ولاة من المغول حتى سنة ٧٤١ هـ ثم المُظَفَّريون]



نجح بُراك حاجب، وهو أحد القواد في دولة الخطا الذين دخلوا في خدمة خوارزم شاه محمد[1] في كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م). على أن هذه البلاد ظلت خاضعة اسميّاً للخوارزميين في عهد جلال الدين منكبرتي الذي كان براك حاجب نائباً له. وقد أراد براك أن يستقل بهذه البلاد عن الخوارزميين سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م)، فأرسل إلى المغول يحثهم على محاربته، فلما علم جلال الدين خوارزمشاه بذلك سار على رأس جيش كبير لحرب براك الذي تحصن في إحدى قلاعه وأبى أن يقابله وأرسل إليه رسالة يقول فيها:

«إنني أنا العبد المملوك، ولماسمعت بمسيرك إلى هذه البلاد، أخليتها لك، ولو علمتُ

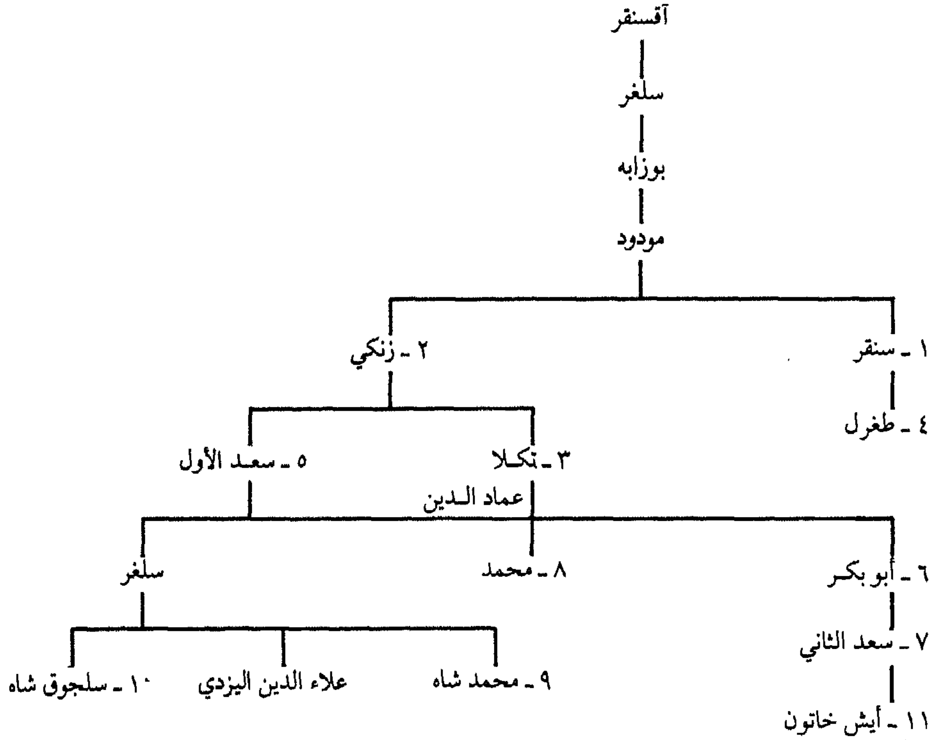
(١) راجع ما كتبه حافظ أحمد محمود عن دولة الخطا في كتابه «الدولة الخوارزمية والمغول» ص ٤٦ ـ ٦٦.

أنَّك تُبقي علي لحضرت بابك، ولكنني أخاف هذا جميعه»[١].

وقـد أدرك جلال الـدين منكبرتي أن الـدخول في حـرب مع بـراك حاجب يصـرفه عن الاستمرار في حرب المغول، فرأى أن يهادنه، وأرسل إليه الخلع وأقره على هذه البلاد.

وقد بقيت هذه الأسرة في حكم كرمـان ثم خضعت للمغول حيث أقـر «أغُطاي» بـراك حاجب على حكم بلاده، ومنحه لقب«قُطْلغ خان»،واستمرت هذه الأسرة في حكم كـرمان مع ولائها لإيلخانات المغول في فارس، وقـد تزوج اثنـان من هؤلاء المغول من بنـات هؤلاء الحكام[٢].

(١٧) أتابكية فارس [٣] ٥٤٣ ـ ٦٨٦/١١٤٨ ـ ١٢٨٧



هجرية		ميلادية
٥٤٣	مظفر الدين سنقر بن مودود	١١٤٨
٥٥٦	مظفر الدين زنكي بن مودود[٤]	١١٦٠

(١) ابن الأثير: ج ١٢ ص ٢٠٩.

(٢) لينبول. The Muhammadan Dynasties, pp. 179 - 180.

(٣) وتعرف هذه الأتابكية أيضاً بالدولة السلغرية.

(٤) كان نائباً لأرسلان بن طغرل السلطان السلجوقي.

هجرية		ميلادية
٥٧٠	تكلا بن زنكي	١١٧٤
٥٩٠	طغرل بن سنقر	١١٩٣
٥٩٩	سعد الأول بن زنكي	١٢٠٢
٦٢٣	أبو بكر بن سعد	١٢٢٥
٦٥٨[١]	سعد الثاني بن أبي بكر	(١٢٥٩)
٦٥٨	محمد بن سعد الأول	١٢٥٩
٦٦٠	محمد شاه بن سلغر شاه	١٢٦٢
٦٦١	سلجوق شاه بن سلغر شاه	١٢٦٢
٦٦٣ - ٦٨٦	أيش خاتون بنت سعد الثاني	١٢٦٤ - ١٢٨٧

[حكم المغول]

تنسب هذه الأتابكية إلى سلغر قائد إحدى قبائل التركمان التي هاجمت خراسان وانضمت إلى السلطان طغرلبك السلجوقي الذي عينه في بلاطه. وقد استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة ٥٤٣/١١٤٨ حيث أسس دولة حكمت قرناً ونصف قرن. وقد مد سنقر نفوذه على كرمان، واتخذ شيراز حاضرة لملكه. واستولى سعد ابن زنكي (٥٩٩ ـ ٦٢٣ هـ) على أصبهان ثم مد نفوذه على العراق العجمي (٦١٤ هـ)، والتقى بجيوش خوارزم شاه علاء الدين محمد في مدينة الري، ولكن الهزيمة حلت به. ومع ذلك أكرمه خوارزم شاه وأعاده إلى بلاده وأخذ جزءاً منها واكتفى بإقامة الخطبة له على المنابر[٢].

ولما توفي سعد بن زنكي سنة ٦٢٣/١٢٢٥ م تولى بعده ابنه أبو بكر (٦٢٥ ـ ٦٥٨ هـ) الذي استطاع أن يوسع رقعة بلاده إلى بلاد البحرين، وأن يخضع جميع جزر الخليج العربي. ولما أغار جنكيز خان على البلاد الإسلامية رأى من الحكمة أن لا يقف في سبيله، فأرسل إليه الهدايا الثمينة، فلما دخل جنكيز خان بلاده لم يتعرض لسوء. ثم خضعت هذه البلاد لهولاكو[٣].

(١) توفي بعد اثني عشر يوماً من وفاة أبيه.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٤٦.

(٣) Rashid - Eldin, Histoire des Mongols de la perse, p. 323.

(١٨) أتابكية لورستان ٥٤٣ ـ ١١٤٨/٨٢٧ ـ ١٤٢٣:

أسس هذه الأتابكية أبو طاهر بن محمد أحد قواد أتابكية فارس. وقد قامت هذه الدولة في أقليم جبلي حصين تسكنه قبائل بربرية منذ زمن بعيد وخضع حكامها لحكم دولة إيلخانات المغول في فارس، وظلت في حكم لورستان حتى سقطت على يد إبراهيم بن شاه رُخْ.

ثانياً: دولة خُوارزم ٤٧٠ ـ ١١٧٧/٦٢٨ ـ ١٢٣١:

انقسمت الدولة الإسلامية في ذلك العصر إلى دويلات متعادية متنافرة من بينها دولة خوارزم[١]. وقد جرت عادة السلاجقة أن يكافئوا أتباعهم من السقاة والحجاب وحراس الملابس الخاصة، بإقطاعات من الأرض. وقد بدأ أنوشتكين[٢] ملكه سنة ١٠٧٧/٤٧٠، ثم استطاع خلفاؤه بعد ذلك التخلص من كل صلة لهم بالسلاجقة، وظلوا يحكمون هذه الدولة حتى زالت في عهد آخر ملوكهم جلال الدين منكبرتي الذي كانت له مواقف رائعة من البطولة أمام المغول من سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) إلى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م).

كان أنوشتكين يشغل وظيفة «الساقي» في بلاط ملكشاه السلجوقي. وكانت هذه الوظيفة من أهم وظائف البلاط: فهو الذي يشرف على الأسمطة التي تقام في الأعياد والمواسم وعند استقبال سفراء الملوك، كما يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده[٣]. وثمة وظيفة أخرى هي وظيفة «الجاشنكير» الذي يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل تقديمها إلى السلطان[٤].

خلف أنوشتكين ابنه قطب الدين محمد، وقد نشأ نشأة عالية، وعرف بالأدب وتوفر عليه وانصرف إلى العلم. وكان عالي الهمة، فعينه السلطان بركياروق بن ملكشاه السلجوقي حاكماً على بلاد خوارزم، ولقبه خوارزم شاه أي ملك خوارزم. ولما ملك السلطان سنجر

---

(١) أو خوارزميا وهي كيفا الحالية. وكان يطلق على كل من الحي والحاضرة اسم خوارزم، ويطلق على حكامها لقب خوارزمشاه أو ملك خيوه. وهم من أتراك بلاد ما وراء النهر الذين جاءوا من خيوه ونشروا سلطانهم بين نهري الكنج ودجلة، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند.

(٢) يسميه النسوي في كتابه «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي» (ص ٣٤) «نوشتكين». وهذا المؤرخ يعد حجة في تاريخ فترة من فترات حكم الدولة الخوارزمية فوق أنه انخرط في سلك الوظائف في دولتهم في عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص، وكان من أبرز رجال هذه الدولة.

(٣) انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩.

(٤) المصدر نفسه ج ٥، ص ٤٧٠.

خراسان سنة ٥١٢ هـ ، أقر قطب الدين محمد خوارزم شاه على خوارزم وأعمالها. فظل محبباً إلى السلطان إلى أن مات سنة ٥٢١ هـ فخلفه ابنه أتسز، فسار سيرة أبيه واكتسب محبة السلطان، وكان أتسز أول من طمع في الاستقلال من أفراد هذا البيت. ولكن سنجر آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء في فارس عزله إثر ثورته عليه سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م). ثم عاد أتسز إلى ولايته بعد قليل وتمتع هو ومن خلفه من شاهات خوارزم بما يتمتع به الملوك المستقلون، وبلغ نفوذه جَنْد (بفتح الجيم وسكون النون) على نهر سيحون.

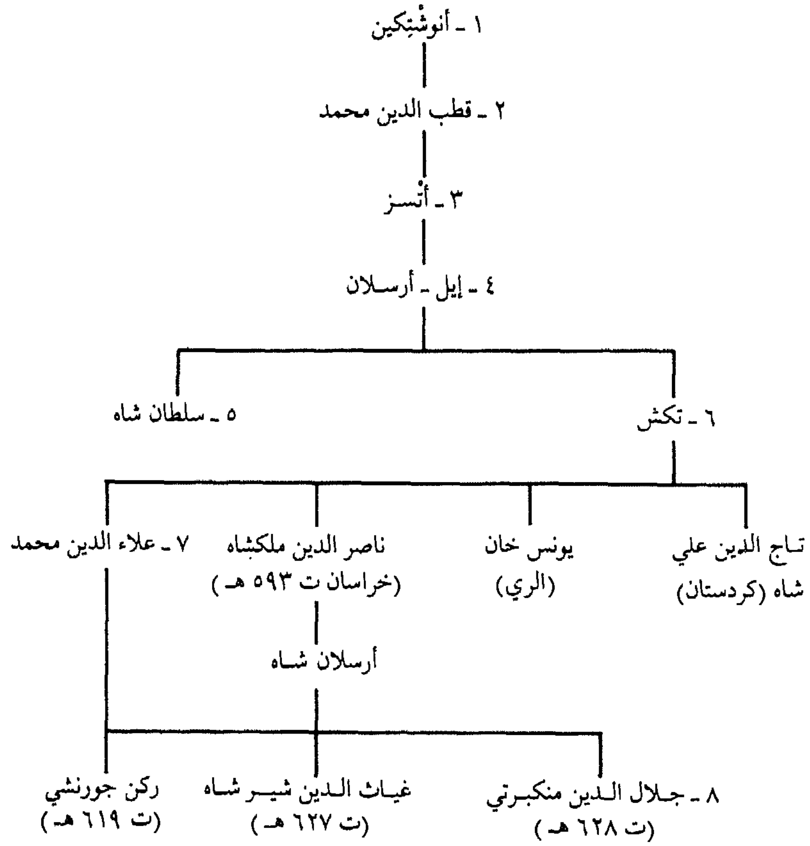
وفي سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) سار أتسز إلى مدينة مرو، فهزمه سنجر هزيمة منكرة، وقتل ابنه في هذه الموقعة. وكان من أثر انتصار سنجر في هذه الموقعة أن استولى على خوارزم وأقطعها ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه، ولما عاد سنجر إلى مرو استرد أتسز حاضرة ملكه، ثم فكر في الثأر لمقتل ابنه، فحرض الكفار من الخطا الأتراك فهاجموا بلاد سنجر وهزموه هزيمة منكرة في صيف سنة ٥٣٦ هـ وقتلوا مائة ألف من جنده وأسروا زوجته واضطروه إلى الهرب إلى ترمذ وبلخ[١].

وفي هذه الأثناء أعلن أتسز استقلاله، ثم تقدم إلى مرو فاحتلها. ويذكر ابن الأثير[٢] في حوادث سنة ٥٣٦ هـ أن آتسز لم يكن ينوي التعرض لمدينة مرو كما فعل بمدينة سرخس، ولكنه اضطر إلى مهاجمتها حين علم بقتل جماعة من أتباعه[٣]. وكانت هذه الموقعة أول موقعة خسرها سنجر، كما كانت فاتحة لسلسلة أخرى من الهزائم التي حلت به فيما بعد. ثم فتح أتسز مدينة نيسابور وأمر بحذف اسم سنجر من الخطبة (١١٤٢/٥٣٧). وفي السنة التالية حاول سنجر محاصرة خوارزم، ولكنه عجز عن ذلك، فقبل الصلح مع آتسز الذي مات في ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٥١ (١١٥٦ م) قبل موت سنجر في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ بقليل.

وهكذا تربع أتسز على عرش امبراطورية شاسعة الأرجاء تنافس إمبراطورية السلاجقة في أبهى أيامها، وتمتد من جبال أورال إلى الخليج العربي ومن جبال السند إلى حدود الفرات وتضم جميع ولايات إيران عدا ولايتي فارس وخوزستان. وقد استطاعت الدولة الخوارزمية أن تمد رقعتها وتثبت أقدامها أكثر من قرن، ولم تسقط إلا بسبب كارثة عامة لم تكن في الحسبان، غيرت من وجه التاريخ وأنزلت المصائب والويلات بالجنس البشري، ونعني بهذه الكارثة غزوات المغول.

(١) الكامل ج ١١ ص ٣٣ - ٣٦. (٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٦ - ٣٧.
(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٣٨٢ هامش رقم (٣).

٤٧٠ - ٦٢٨ هـ	**شاهات خوارزم**[1]	١٠٧٧ - ١٢٣١ م
٤٧٠	أنوشتكين	١٠٧٧
٤٩٠	قطب الدين محمد	١٠٩٧
٥٢١	أتْسز	١١٢٧
٥٥١	إيل أرسلان	١١٥٦
٥٦٨	سلطان شاه محمود ت ٥٨٩ هـ	١١٧٢
٥٦٨	تُكُش	١١٧٢
٥٩٦	علاء الدين محمد	١١٩٩
٦١٧ - ٦٢٨	جلال الدين منكبرتي	١٢٢٠ - ١٢٣١



(١) Lane - Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 176 - 177.

وفي عهد الخليفة المستضيء العباسي (٥٦٦ ـ ٥٧٥/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠) توفي خوارزم شاه إيل أرسلان بن أتسز (٥٦٨ هـ)، فملك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمد تحت وصاية أمه. وقد خرج عليه أخوه الأكبر علاء الدين تكش (بضم التاء والكاف) (٥٦٨ ـ ١١٧٢/٥٩٦ ـ ١١٩٩) الذي استولى على بلاد خوارزم واستقبل بها وقضى على ملك السلاجقة في العراق (٥٩٠ هـ) بقتل طغرل بن ألب أرسلان السلجوقي. وقد اتسع ملك علاء الدين في الشرق على حساب دولة الخطا، وبذلك امتد نفوذه من بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي استولى عليها وقضى على السلاجقة. ولكن ملكه الري لم يكن ثابتاً؛ فقد عول الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢/١١٨٠ ـ ١٢٢٥) على أن تكون له سيادة الري بعد رحيل خوارزم شاه تكش عنها، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامله، فعاد إلى الري واستردها من جند الخليفة.

خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ ـ ٦١٧/١١٩٩ ـ ١٢٢٠:

بقي علاء الدين تكش في الحكم حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ، فخلفه ابنه علاء الدين محمد (٥٩٦ ـ ٦١٧/١١٩٩ ـ ١٢٢٠) الذي امتدت الدولة الخوارزمية في عهده من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن شمالي بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً.

وفي سنة ٦٠٤ هـ طلب سلطان سمرقند مساعدة خوارزمشاه علاء الدين محمد مساعدته على قتال الخطا الذين اشتدت وطأتهم وعم شرهم في تركستان وبلاد ما وراء النهر، فولى خوارزمشاه أخاه علي شاه طبرستان بالإضافة إلى جرجان وقلد نواباً عنه في حكم أقاليم خراسان وأبرم الصلح مع غياث الدين محمود الغوري واعترف بما كان تحت يده من بلاد الغور. ثم عبر خوارزمشاه نهر جيحون ودارت المعارك بين جيوشه وجيوش سلطان سمرقند وبين ملك الخطا. وقد دارت الدائرة على جيش المسلمين وقتل الخطا كثيراً منهم وأسروا خوارزمشاه علاء الدين محمد وأميراً كبيراً من أمراء دولته يقال له شهاب الدين مسعود، وعادت الفالة إلى خوارزم. وقد احتال هذا الأمير في إطلاق سراح مولاه، فعرض عليه أن يتظاهر بخدمته عله يتمكن من خلاصه. فقام خوارزمشاه بخدمة شهاب الدين مسعود، وكان يعظمه ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخُفَّه، فقال الخطائي الذي أسرهما لابن مسعود: أرى هذا الرجل يعظمك فمن أنت؟ فقال: أنا فلان وهذا غلامي، فقام إليه (الخطائي) وأكرمه وقال: لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندي لأطلقتك، ثم تركه أياماً، فقال له ابن مسعود: إني أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يراني أهلي معهم فيظنون أني قُتلت

فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالي فأهلك. وأحب أن تقرّر عليّ شيئاً من المال حتى أحمله إليك، فقرر عليه مالاً وقال له: أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتابي إلى أهلي ويخبرهم بعاقبتي ويحضر معه من يحمل المال ثم قال: إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا، ولكن هذا غلامي أثق به ويصدقه أهلي، فأذن له الخطائي بإنفاذه، فسيره وأرسل معه الخطائي فرساً وعدة من الفرسان يحمونه، فساروا حتى قاربوا خوارزم، وعاد الفرسان عن خوارزمشاه، ووصل خوارزمشاه، فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كذلك بنيسابور وبما صنع أخوه علي شاه بطبرستان»[1].

ولما علم علي شاه صاحب طبرستان وجرجان بفقد أخيه خوارزمشاه علاء الدين محمد بايع لنفسه[2]. ثم عاد خوارزمشاه إلى بلاده واحتال في القبض على ابن خرميل صاحب هراة. وقد ذكر ابن الأثير[3] أن قائد خوارزمشاه لما قرب من هراة خرج ابن خرميل مع كبار رجال إمارته للقائه، فأمر هذا القائد أصحابه فقبضوا عليه، ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ هراة[4] وأبى الوزير ابن خرميل تسليم المدينة، فأمر القائد الخوارزمي بقتل ابن خرميل وطلب النجدة من خوارزمشاه، فبعث إليه عشرة آلاف فارس حاصروا هذه المدينة ومنعوا وصول المؤن إليها ثم استولوا عليها (سنة ٦٠٥ هـ). ثم أمر خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله «أمير ملك» وكان قد أنابه عنه في حكم هراة بالمسير إلى «فيروزكوه» قصبة بلاد الغور والاستيلاء عليها، فسلم إليه غياث الدين محمود الغوري وطلب منه الأمان. وقد أرسل أمير ملك بهذا النبأ إلى خوارزمشاه واستطلع رأيه في شأن غياث الدين محمود فأمر بقتله (٦٠٥ هـ)[5].

وبذلك استقرت أقدام خوارزمشاه علاء الدين محمد في خراسان، ثم سار إلى بلاد ما وراء النهر فملكها وهزم الخطا هزيمة منكرة، ثم عاد إلى خوارزم. وهنا زوج ابنته من سلطان سمرقند وأعاده إلى بلده فملكها من جديد. على أن هذا السلطان قابل هذا بالإساءة، فغدر بالخوارزميين في بلاده وهمّ بقتل زوجته ابنة خوارزمشاه علاء الدين محمد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٠٨ ـ ١١٠.

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٩.

(٤) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١٠٩) قد حصنها وعمل لها أربعة أسوار محكمة البناء وحفر حولها خندقاً.

(٥) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ ـ ١١١.

وهنا ثارت ثائرة خوارزمشاه وسار إلى سمرقند واستباحها بجنده ثلاثة أيام أمضوا فيها في قتل الأهلين حتى قيل إنهم قتلوا نحو مائتي ألف. ثم سلم إليه صاحب سمرقند وطلب الأمان، فأمر به خوارزمشاه فقتل[١].

وفي سنة ٦١١ هـ استولى خوارزمشاه علاء الدين محمد على كرمان ومكران والسند[٢] وفي السنة التالية عظمت قوة خوارزمشاه علاء الدين محمد باستيلائه على كافة أقاليم خراسان، وملك «باميان» واشتدت قوته وعظم سلطانه وهابه الملوك والأمراء. وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة. فأرسل إلى صاحبها تاج الدين الدز يطلب إليه أن يقيم الخطبة له ويضرب السكة باسمه. فأشار عليه كبار أمراء دولته بإجابة خوارزمشاه إلى طلبه درءاً لخطره وتلافياً لشره، فنزل على رأيهم. وأسرع علاء الدين خوارزمشاه السير إلى غزنة ودخلها واستولى على قلعتها وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك. ثم ترك خوارزمشاه غزنة وخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرتي. ولما علم «الدز» بهذا النبأ، وكان غائباً عن غزنة[٣]، هرب هو ومن معه من الجند إلى لاهور، فلحقته جيوش أتباع شهاب الدين محمود الغوري وأحلت به الهزيمة وقتلته[٤].

وبين سنتي ٦٠٧ و ٦١٤ هـ بسط خوارزمشاه علاء الدين محمد نفوذه على بلاد ما

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١١٢ - ١١٣) أن طائفة عظيمة ببلاد الصين بينهم وبين الخطا عداوة قديمة وحروب طويلة، فلما سمعوا بما حل بالخطا من الهزيمة على يد خوارزمشاه علاء الدين محمد خرجوا من بلادهم وقصدوا بلاد الخطا. عند ذلك أرسل ملك الخطا إلى خوارزمشاه يطلب إليه أن يتناسى كل منهما ما كان بينهما من حروب ويطلب مساعدته ضد التتر ويخوفه من الأخطار التي تحدق ببلاده، إذا ما انتصروا عليه وأرسل التتر في الوقت نفسه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد يخوفونه من الخطا ويطلبون منه العون ويعدونه بعدم التعرض لبلاده إذا تم لهما النصر على عدوهما المشترك. وقد أجاب خوارزمشاه كلاً من الخطا والتتر بالمساعدة وسار بجنده حتى أصبح على مقربة من المكان الذي عسكر فيه الفريقان المتنازعان، وتظاهر بأنه مع كل فريق. ثم نشب القتال بين الخطا والتتر وانهزم الخطا هزيمة منكرة. وهنا سنحت الفرصة لخوارزمشاه علاء الدين محمد فجعل يقتل الخطا ويأسرهم ويطاردهم. ودعا منهم فئة قليلة ساروا مع ملكهم حتى بلغوا مكاناً جبلياً تحصنوا فيه. وبذلك طمع كل من التتر وخوارزمشاه في بلاد الخطا، واخذ خوارزمشاه يشن الغارات على البلاد الإسلامية القريبة من بلاد التتر ويخربها خوفاً من امتلاكهم لها. ثم انشغل ملك التتر بحرب عسكر جنكيز خان وخلفائه الذين قضوا على هؤلاء التتر وعلى الدولة الخوارزمية جميعاً.

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٢٥.

(٣) كان الدز يقيم بغزنة أربعة أشهر الصيف.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٢٨.

وراء النهر وأحل الهزيمة بالخطا وملك إيران بعد حروب طاحنة مع الغور في خراسان. واستولى على بلاد الجبل وفارس، وتمكن من السيطرة على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي جنوباً بما في ذلك كرمان ومكران؛ وأخيراً استطاع الاستيلاء على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد استيلائه على غزنة حاضرة الغور (٦١٢/١٢١٥).

ومما يلاحظ في حياة خوارزمشاه علاء الدين محمد أنه انتحل عقائد المذهب الشيعي (٦١٤ هـ) ومهد السبيل للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد. وقد حاول الاستيلاء على مدينة بغداد ليستأثر بالسلطة التي كان يتمتع بها بنو بويه والسلاجقة من بعدهم فطلب من الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) أن يأمر بذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة فأبى الخليفة واشتدت العداوة والبغضاء بينهما حتى حذف خوارزمشاه علاء الدين محمد اسم الخليفة العباسي من الخطبة على منابر بلاده ونصب أحد الأشراف من سلالة علي بن أبي طالب خليفة. ولعل عدم إجابة الخليفة خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى ذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة راجع إلى تحوله إلى عقائد المذهب الشيعي.

وهكذا ترى خوارزمشاه علاء الدين محمد بدلاً من أن يجمع قوته لصد الكارثة التي تهدد بلاده من الناحية الشمالية الشرقية، يزج بنفسه في خصومة حامية مع الخليفة العباسي ثم يزداد الأمر سوءاً بوقوع كارثة أخرى كان سببها اشتداد البرد وقسوة الشتاء في هذه الديار بصورة لم تعهدها البلاد من قبل[١] وكان من المحتمل أن يؤجل وقوع الكارثة إلى حين لو أن علاء الدين محمد لم يقم بهذه الفعلة الطائشة بتحريض عامل مدينة «أوترار» على قتل التجار الذين أرسلهم جنكيز خان بأن أدخل في روعه أنهم ليسوا تجاراً في الحقيقة وإنما هم جواسيس للمغول حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن هذه الكارثة كانت السبب المباشر في غزوات المغول بل إن علاء الدين محمد تمادى في سياسته التي تدل على قصر النظر بقتله رسول جنكيز خان التركي وإعادة الرسولين المغوليين الآخرين إلى مولاهما بعد أن أمر بحلق لحاهما.

لذلك ثار جنكيز خان لقتل تجاره وإهانة رسله، فعقد جمعية عامة من المغول «قوريلتاي» وقرر مهاجمة «خوارزم». ولم يقو علاء الدين محمد على صد تيار المغول وأخذ يتقهقر أمام جحافلهم التي دخلت خراسان وانطلقت تتبعه وتطارده من بلد إلى بلد، فأسرع إلى ناحية الغرب صوب بحر قزوين، وتركه أتباعه ثم مرض بالبرص واشتدت عليه علته

(١) براون: تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ج ٢ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧.

ومات شريداً طريداً بعد أن استبد به اليأس وانتابه المرض في جزيرة من جزر بحر قزوين، تاركاً ملكه لابنه الشجاع جلال الدين منكبرتي، ووقعت أمه «تركان خاتون» مع زوجاته وأولاده وجواهره في أيدي المغول، وهيأ بذلك الفرصة لسقوط دولة خوارزم العظيمة[١].

وقد وصف ابن الأثير[٢] مصير علاء الدين محمد في هذه العبارة فقال: «ومن أعظم الأمور أن سلطانهم خوارزمشاه محمدا قد عدم لا تعرف حقيقة خبره: فتارة يقال مات عند همذان وأخفي موته، وتارة يقال دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفي موته لئلا يقصدها التتر في إثره، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر فتوفي في جزيرة هناك. وبالجملة فقد عدم ثم صح موته ببحر طبرستان (أي بحر قزوين أو بحر الخزر)».

جلال الدين منكبرتي

وقد هام أولاد علاء الدين محمد خوارزمشاه الثلاثة على وجوههم في الولايات الفارسية، بل إن آخرهم، وهو جلال الدين منكبرتي (بفتح الميم والكاف والباء وسكون النون) قد هرب إلى الهند حيث عضده سلطان دلهي الذي تزوج ابنته، وبعد سنتين عاد جلال الدين إلى بلاده التي ورثها عن أبيه. يقول براون[٣]: «وفي هذه الأيام الحالكة التي وقعت فيها غزوة المغول.. نجد أن جلال الدين خوارزم شاه بما حباه الله من شخصية لامعة يسطع حظه كالشهاب الثاقب والبرق الخاطف، ثم تخمد ناره وينطفىء أنواره دون أن ينتج أثراً أو يجدي نفعاً. ولربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله امتاز بجرأته وإقدامه... في هذه الأحوال المضطربة تجد أن جلال الدين يستجمع قوته ويتمنطق بسيفه، ثم يمضي أمام الصاعقة على عجل فيحتمي بالحدود الهندية. فإنه عندما بلغ جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه وقد أحاطت به جموع كبيرة من المغول، فقاومها وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد الشيء الكثير، ولكنه أدرك في النهاية أنه قد خسر الموقعة، فهجم على أعدائه هجوم اليائس، ثم يمم بوجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده، ثم امتطى صهوة جواده وعبر النهر، وتبعه قوم من أتباعه، ففعلوا مثل ما فعل. ولكن أكثرهم غرقوا أو أغرقتهم سهام المغول الذين كانوا يجدون في أثرهم، وغرقت أم جلال الدين وبعض نساء حرمه»[٤].

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٥٨ - ٥٥٩.

(٢) الكامل ج ١٢ ص ٢٤٦.

(٣) تاريخ الأدب في إيران، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٦٩.

(٤) وقد قيل إنهن سألن جلال الدين أن يأمر باغراقهن خشية أن يقعن في أيدي المغول، ورأى جلال استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن. D'Hossou, Histoire des Mongols, tome I, pp. 258, 306 et esq.

وقد سجل شهاب الدين النسوي[1] كاتب جلال الدين منكبرتي أن جلال الدين حارب في عدة ميادين: حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه، وحارب أخاه غياث الدين الذي خانه، وحارب حاكم كرمان، كما حارب الخليفة في بغداد، وحارب التركمان والحشاشين، وفتح ولاية جورجيا.

وفي سنة ١٢٢٩/٦٢٧ أخذ جلال الدين منكبرتي يدعو أمراء المسلمين للتحالف معه على محاربة المغول، وكاد أن ينجح في تأسيس هذا الحلف، ولكن جيشاً من المغول قوامه ثلاثون ألف مقاتل حمل عليه فجأة واضطره إلى الهرب شمالاً حيث استطاع أن يستولي على مدينة كنجة[2]، وانقلب حظ جلال الدين وخمد نشاطه وأدمن الشراب وبدت عليه الهموم فأصبح كسير القلب سريع البكاء، وما زال يهرب أمام جحافل المغول من بلد إلى بلد حتى انتهى به المطاف إلى قرية كردية، فقتله أحد الفلاحين (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١/٦٢٨ هـ)[3]، قبل أن يعرف شيئاً عن وصول المغول، وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم وهو القضاء على الدولة الخوارزمية. وقد أحاط كثير من الشك نهاية جلال الدين منكبرتي، وحامت الإشاعات حول مصيره، فظن بعض أنه ما زال حياً، وانه قد خرج ثانية من مخبأه[4].

يقول براون: ونهاية جلال الدين هذه وما أحاطها من شك في مصيره تمثل لنا حال أي بطل تتعلق به الآمال في ساعات اليأس العصيبة... حيث نجد الأوهام الشعبية تنتهي بالبطل إلى حياة الزهد والتقشف ثم الموت في سن الشيخوخة ميتة الأولياء والصالحين[5].

ثالثاً ـ الدولة الأيوبية

(٥٦٧ ـ ٦٤٨/١١٧١ ـ ١٢٥٠)

صلاح الدين الأيوبي

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٦ م) بقلعة تكريت (بفتح التاء)، وهي بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. وكان أبوه نجم الدين أيوب والياً عليها. ثم

---

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، وقد كتبها النسوي بالعربية وترجمها «هوداس» إلى الفرنسية، ونشرت دار الفكر العربي بالقاهرة سيرة السلطان جلال الدين سنة ١٩٥٣. انظر براون.

(٢) وهي المعروفة باسم إليزافتبول Elizavetpol

(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران ترجمة ص ٧٢.

(٤) الكامل ج ٢١ ص ٢٤٦.

(٥) براون: تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ص ٥٧٢.

انتقل صلاح الدين مع أسرته إلى الموصل، فأقطعه صاحبها عماد الدين زنكي كثيراً من الأراضي، وكان نجم الدين من أتباعه المخلصين.

ولما فتح عماد الدين زنكي بعلبك ولى نجم الدين أيوب قلعتها، فبقي والياً عليها حتى توفي عماد الدين. فلما حاصر مجد الدين أُرْتُق صاحب دمشق قلعة بعلبك، أرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي يطلب منه النجدة. فلم يلب طلبه لانشغاله بإصلاح أمور الموصل، حتى إذا ما ضاق الأمير نجم الدين ذرعاً نزل عن قلعة بعلبك لصاحب دمشق، ثم سارع مع أخيه أسد الدين شيركوه إلى دمشق، ورافقه في سفره ابنه صلاح الدين يوسف، وكان إذ ذاك في مقتبل الشباب[١].

وقد اتصل أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وأصبح من أكابر أمراء دولته، فأقطعه حمص والرحبة وأسند إليه قيادة جنده. ولما عزم نور الدين على ضم دمشق إلى حوزته طلب من أسد الدين شيركوه أن يكتب إلى أخيه نجم الدين، وبذلك تمكن نور الدين من الاستيلاء على دمشق. وأصبح أسد الدين ونجم الدين من كبار أمراء جيش نور الدين محمود[٢]. ولما لجأ شاور وزير العاضد الفاطمي إلى نور الدين طالباً منه العون على العودة إلى الوزارة، أرسل معه حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذي ظهر على مسرح السياسة منذ ذلك الحين[٣].

وقد خلف شيركوه شاور في الوزارة (١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤/١٨ يناير سنة ١١٦٩)، وخلع عليه الخليفة[٤]. على أن شيركوه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب، إذ وافته منيته بعد ثلاثة أشهر، فتقلد الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. وقد رأى صلاح الدين أن مركزه قد أصبح شديد الحرج بعد أن آلت الوزارة إليه، لأنه أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي ونائباً عن نور الدين محمود صاحب دمشق، السني. فاضطر إلى الدعاء لهما في الخطبة، ثم أخذ يقوي مركزه في مصر ويعمل على اكتساب محبة أهلها ليشتد بهم أزره ويستقل بهذه البلاد.

وكان النصر الذي أحرزه صلاح الدين على الفرنجة في دمياط بدء طور جديد في

---

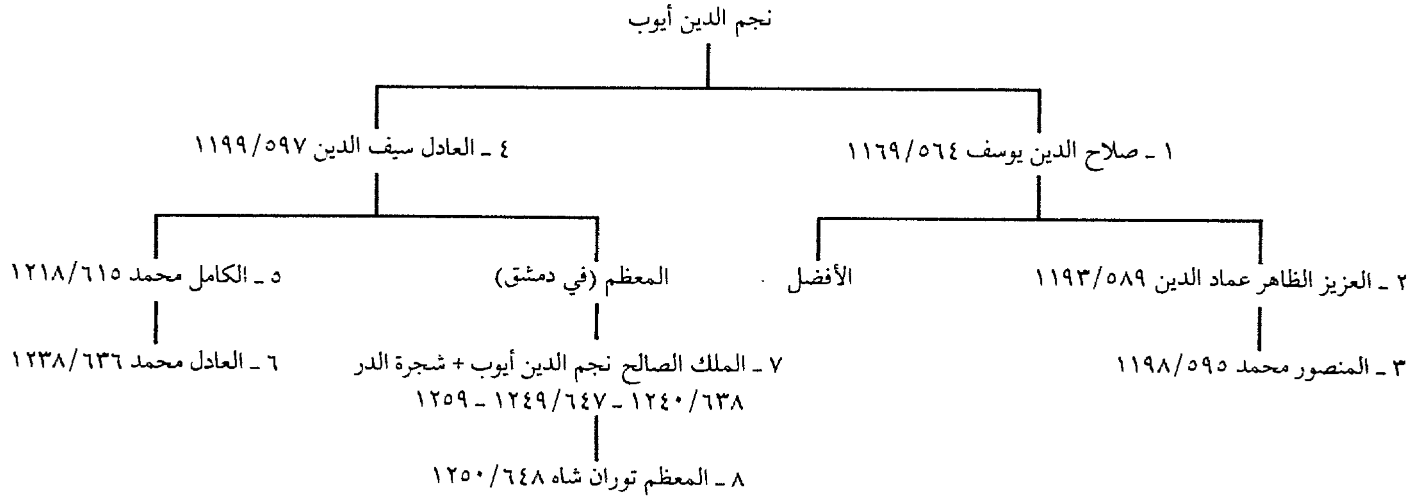
(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٤٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٢١. ابن خلكان ج ٦ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٣٦ ـ ١٣٧. ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٧ ـ ٤٨.

تسلسل نسب الأيوبيين



تاريخ النزاع بين مصر والصليبيين. فبعد أن كانوا يوالون الغارات على مصر في عهد الفاطميين قصروا جهودهم على الدفاع عن إمارة بيت المقدس.

ولما خرج صلاح الدين لاستقبال أبيه نجم الدين أيوب قال له: «هذا أمر لك (يعني الوزارة) وهي السلطنة الآن وتدبير ملك مصر، ونحن بين يديك»، فقال له أبوه: «يا بني! ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له»، وأبى قبول الوزارة، فأسند إليه ابنه صلاح الدين إدارة بيت المال، وأقطع أقاربه بعض الإقطاعات.

وعلى الرغم من أن صلاح الدين أصبح صاحب النفوذ المطلق في مصر بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي، ظل يخشى منافسة نور الدين له، فأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر اسم الخليفة العباسي، وضرب النقود باسمه، وأرسل إليه الهدايا حتى لا يرتاب في ولائه. كذلك حرص على الاحتفاظ بمكان يأوي إليه إذا غضب عليه نور الدين، فوجه أخاه شمس الدولة قدران شاه بن نجم الدين أيوب إلى السودان ليقف على أحوال هذه البلاد التي قد يلجأ إليها صلاح الدين إذا ما دعت الضرورة، ثم عهد إلى أخيه بغزو بلاد اليمن، فاستولى عليها وأقام الخطبة للخليفة العباسي.

ويمكن تقسيم عهد صلاح الدين الأيوبي منذ تولى زمام مصر إلى ثلاثة أدوار: الأول في مصر، والثاني في الشام، والثالث في فلسطين. فالأول هو طور الدفاع، والثاني طور إعداد العدة والتأهب، والثالث طور الهجوم. وفي هذه الأدوار الثلاثة كان صلاح الدين يوجه كل جهوده للدفاع عن رغبته الصادقة في إخراج الصليبيين من بلاد الشام وإنشاء امبراطورية إسلامية متحدة تستطيع أن تقذف بالفرنجة إلى ساحل البحر بل إلى أبعد من ذلك.

ففي الدور المصري (١١٦٩ ـ ١١٧٤ م) وقف صلاح الدين موقف الدفاع أمام الصليبيين وأنصار الفاطميين وأمام نور الدين صاحب دمشق الذي حكم صلاح الدين هذه البلاد باسمه، ومن ثم كانت سياسته في هذا الدور تنطوي على صد الاعتداء في الداخل والخارج وتقوية سلطانه من الناحيتين السياسية والحربية.

أما في الدور الثاني أو الدور الشامي (١١٧٤ ـ ١١٨٦ م) الذي يبتدىء بوفاة نور الدين، فقد ظهر صلاح الدين بمظهر أكبر حاكم إسلامي في الشرق الأدنى ونشر نفوذه في الشام والجزيرة، وأعد العدة لجمع القوات الإسلامية للصراع النهائي مع الصليبيين.

وفي الدور الثالث أو الدور الفلسطيني (١١٨٦ ـ ١١٩٣م) وجه صلاح الدين كل جهوده إلى الحرب المقدسة مع الصليبيين، تلك الحرب التي انتهت بصلح الرملة الذي

أعقبه بعد شهور موت بطل الإسلام[١].

ذلك أنه لما توطدت قدم صلاح الدين في مصر، خشي السلطان نور الدين صاحب دمشق ازدياد نفوذه وفكر في خلعه. بيد أن الحظ بسم لصلاح الدين بوفاة نور الدين سنة ٥٩٦ هـ (١١٧٤م) وعلى الرغم من أن الفرصة قد سنحت لصلاح الدين بأن يبسط سلطانه على البلاد الإسلامية في الشرق ظل يرقب الحوادث خشية أن يعرقل أهل الشام أعماله، فأظهر احترامه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وظل يضرب النقود باسمه ويخطب له على المنابر. غير أن هذا الملك لم يلبث أن وقع تحت نفوذ وزرائه وبطانته، وقام الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذي بعث إلى هؤلاء الوزراء كتاباً شديد اللهجة يهددهم فيه بالمسير إلى دمشق وإنزال العقاب بهم على سوء تصرفهم. وبعد قليل استدعى أحد أمراء دمشق صلاح الدين لاحتلال المدينة، فأسرع صلاح الدين بالمسير إليها دون أن يكترث بوجود الصليبيين في طريقه، وتمكن من الاستيلاء على دمشق (١١٧٥/٥٧٠) ثم أرسل إلى أتابك الشام كتاباً يؤكد له فيه أنه إنما جاء إلى هذه البلاد ليقدم فروض الطاعة لذلك الصالح إسماعيل الذي رد عليه رداً شديداً اتهمه فيه بالتمرد ونكران الجميل وأثار بذلك استياء صلاح الدين الذي زحف إلى حلب وأوقع بأهلها، ثم فك الحصار واتجه إلى حمص لمحاربة الصليبيين[٢].

ثم حاول صلاح الدين التفاهم مع الملك الصالح، فأرسل إليه كتاباً يعرض فيه استعداده للتخلي عن حماة وحمص وبعلبك على أن يقره على ولاية دمشق ومصر. وقد أبى الملك الصالح إجابة هذا الطلب، فلم ير صلاح الدين بدآ من محاربته، فاشتبك مع جيش إسماعيل في معركة بالقرب من حماه وانتصر عليهم ثم حاصرهم في حلب وأرغمهم على طلب الصلح. ولكي يستدروا عطف صلاح الدين أرسلوا إليه ابنة نور الدين، وكانت لا تزال في دور الطفولة، فتلقاها بالحفاوة وأحسن وفادتها وقدم إليها الهدايا. ثم سألها عما تطلبه لقومها، فقالت إنهم يريدون بلدة «إعزاز»، فوهبها هذه البلدة. ونزل لأخيها الملك الصالح إسماعيل عن جميع المدن التي استولى عليها من إمارة حلب. وأصبح صلاح الدين بهذا الصلح صاحب الأمر في دمشق وحمص وحماه.

ولما عاد صلاح الدين إلى مصر بعد سنتين أخذ ينظم أمورها ووجه همته إلى تحصينها ليأمن شر غارات الأعداء. فعهد إلى وزيره بهاء الدين قراقوش في بناء قلعة منيعة على قمة

(١) Lane-Poole, Hist of Egypte in the Middle Ages, p. 203.

(٢) ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

جبل المقطم غرباً لتكون مركزاً لحكومته ومعقلاً لجنده وليتقي بها خطر الفاطميين وأشياعهم في الداخل إذا حدثتهم أنفسهم بإذكاء نار الثورة والخروج على سلطانه. ثم أخذ صلاح الدين في بناء سور عظيم يضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة (٥٧٢ هـ)[١].

وقد ظل صلاح الدين يعمل على توحيد كلمة المسلمين حتى توفي الملك الصالح إسماعيل (٥٧٧ هـ)، فبسط سلطانه على حلب (٥٧٩ هـ) والموصل، وأصبح بذلك الحاكم المسيطر على غربي آسيا، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين المتحدة في الشمال والجنوب والشرق[٢].

وكان صلاح الدين منذ تولى زمام الحكم في مصر يبذل قصارى جهده لإخراج الصليبيين من المشرق، فلما اتصل به نبأ إغارة «رينولد» صاحب حصن الكَرَك (بفتح الكاف والراء) على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج وأخذه بعض قوافل المسلمين وهم في طريقهم إلى بيت الله، أغار صلاح الدين على الولايات الصليبية وهزم الصليبيين هزيمة منكرة في موقعة حطين (بكسر الحاء والطاء مع التشديد) القريبة من طبرية سنة ٥٧٩هـ (١١٨٧ م)، ثم أخذ يطاردهم حتى استولى على حصن طبرية بعد قليل، ويصف العماد الأصفهاني ما أحرزه صلاح الدين من نصر في قصيدة ننقل منها هذا البيت:

حَطَطْتَ على حطين قَدْرَ ملوكهم ... ولم تُبق من أجناس كفرهم جِنْسا

ونظم ابن الساعاتي قصيدة أخرى في هذا الفتح استهلها بهذا البيت:

جَلَتْ عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرّت عيونُ المؤمنينا

ولما فرغ صلاح الدين من طبرية واصل زحفه حتى بلغ عكاء فحاصرها واستولى عليها، ثم وقعت في يده نابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت، كما سقطت في يده صور وطرابلس وعسقلان، وبذلك أخذ صلاح الدين يعد العدة لاسترداد بيت المقدس، فسار إليها على رأس جيش كبير، ولما اقترب منها بعث في طلب أشرافها وخاطبهم بقوله إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب في انتهاك حرمتها بإراقة الدماء، ولذلك ينصح لهم بترك استحكاماتهم وتسليم مدينتهم من غير حرب على أن يعوّضهم عن أملاكهم بالأموال

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٣٩ - ١٤٠. ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٢. ابن خلكان: ج ٦ ص ١٦٨.

(٢) ابن خلكان: ج ٦ ص ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١.

والأراضي، لكن الصليبيين رفضوا إجابة هذا الطلب، فلم يرَ صلاح الدين بدأ من محاصرة بيت المقدس[١].

ولما رأى الصليبيون أنهم أصبحوا عاجزين عن المقاومة وأشرفوا على الهلاك، طلبوا الصلح وتعهدوا أن يسلموا بيت المقدس إلى صلاح الدين وأن يخرجوا منها بأموالهم وأولادهم مقابل فدية يدفعها كل منهم. فكان يؤخذ من الرجل عشرون ديناراً ومن المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ديناران[٢]، وضمن لهم صلاح الدين سلامة الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس.

ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ. وكان جميع الفرنجة قد غادروها، ثم أمر صلاح الدين بترميم ما دمرته الحروب من مبانيها وإعادة تشييد المساجد والمدارس التي هدمها الصليبيون، كما وضع نظاماً خاصاً لإدارتها.

ولما وصل إلى أهل أوروبا نبأ سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين أخذ رجال الدين يدعون الشعوب المسيحية وملوك أوروبا لإعداد حرب صليبية أخرى، ولم تلبث أن تدفقت النجدات على صور، واشترك في هذه الحرب ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا شأناً وهم: فريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وكان على رأس مائة ألف جندي، وفيليب الثاني ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا!. وبينما كان الألمان يزحفون على أنطاكية غرق ملكهم في الطريق ولم يصل من جنده إلى بلاد الشام إلا القليل، أما جيوش ريتشارد وفيليب فقد وصلت إلى عكا واستولت عليها.

على أن هذه الحملة الصليبية قد قضي عليها لوقوع النزاع بين فيليب وريتشارد، فعاد فيليب إلى بلاده وانفرد ريتشارد بمحاربة المسلمين، وأظهر من الشجاعة والفروسية ما أثار إعجاب أعدائه فلقبوه «قلب الأسد»، وقد انتصر ريتشارد أولاً على جيش صلاح الدين في أرسوف ثم تابع زحفه على عسقلان، غير أنه لما شاهد بنفسه خرائب قلعتها أدرك أنه أمام خصم عنيد، فشرع في بدء المفاوضات معه وانتهت بإبرام صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ. (١١٩٢ م). ومن أهم شروطه: وقف الحرب بين الفريقين ثلاث سنين، وأن يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة وأداء مناسك الحج، وأن يقوم الصليبيون بحماية ساحل الشام من صور إلى يافا، وأن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين[٣].

---

(١) ابن خلكان: ج ٦ ص ١٧٤ وما يليها. (٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٨٧.

(٣) Lane-Poole, Hist. of Egypte in the Middle Ages, p. 211

ولم تمض سنة واحدة على إبرام هذا الصلح حتى حقق صلاح الدين أهم أغراضه في الحياة، وهو إخراج الصليبيين من بيت المقدس وإعادة وحدة المسلمين، وقد أنهكت هذه الحروب الطويلة قواه وأضعفت صحته، وأصيب بالحمى وتوفي بدمشق في شهر مارس سنة ١١٩٢م ودفن بها. وقد حزن المسلمون لوفاة هذا الزعيم العظيم الذي أعاد إلى الإسلام قوته، وصد تيار الصليبيين الذي كاد يجتاح بلادهم. فقد رثاه الشعراء بمرثيات خالدة تعرفها كتب الأدب، فمن ذلك قول بعضهم:

أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولةً ولربه طاعاته
أين الذي شَرُف الزمان بفضله ... وسمتْ على الفضلاء تشريفاته
ملك على الإسلام كان محامياً ... أبداً لماذا أسلمتْه حُماته
يا راعياً للدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوانُ ربِّ العرش بل وصلواته[١]

لم يكن للمسلمين قبل انتصارهم الحاسم في موقعة حطين غير واحد في أرض فلسطين غربي نهر الأردن، لكن هذه الأرض قد أصبحت بعد صلح الرملة أرضاً إسلامية، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى يافا، وقد خرج صلاح الدين من هذه الحروب بقوة لا تقهر، وانتشر أتباعه في كافة البلاد الواقعة بين جبال كردستان وصحراء ليبيا، وسارعوا إلى تلبية دعوته إذا ما دعاهم للجهاد، وعمل على محالفته ملك چورچيا وملك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية[٢].

وكان صلاح الدين مثلاً للآداب العالية والصفات الحميدة، وكان كما وصفه ابن خلكان[٣]، كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس، رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، ويستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه.

ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس وقع في يده كثير من الأسرى، فوفد عليه رهط من النساء وناشدنه أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن، وقلن له إنهن إذا رحلن عن هذه البلاد فقدن أزواجهن، ولو ردهم إليهن لأزال بؤسهن وعشن سعيدات بفيض كرمه وواسع

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٠.
(٢) Ibid. p. 211
(٣) انظر ترجمة يوسف بن أيوب الملقب الملك الناصر صلاح الدين في ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩ - ٢١٩.

رحمته، فتأثر صلاح الدين بتوسلاتهن وأمر برد الأسرى إلى أقاربهم، ووزع الصدقات على اليتامى والأرامل، وعمل على إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى بحجاج المسيحيين.

وهناك كثير من القصص التي تدل على حسن السياسة التي سار عليها صلاح الدين مع أهالي المدن المفتوحة، وهي سياسة تنطوي على كثير من حسن المعاملة والعطف والرعاية وإغداق الهبات وتحقيق الرغبات، مما تفيض به الكتب التي عني مؤلفوها بتدوين سيرة صلاح الدين الحافلة بضروب الشجاعة والفروسية.

وكان صلاح الدين محباً لمجالس العلم ميالاً لمناقشة رجال الفقة وأصول الدين[١]، وقد وصفه عبد اللطيف البغدادي طبيب بغداد في هذه العبارة فقال: وجدته أميراً جليلاً مهيب الطلعة جديراً بالاحترام والتقدير، وديعاً متواضعاً ذكياً سمح النفس واسع الإدراك. ثم قال: وجدته في ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم، ورأيته وهو يحسن الإنصات ثم يشترك في الحديث، وكان صلاح الدين - «مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة - كثير التواضع واللطف قريباً من الناس، رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم... وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه»[٢] ويقول لينبول[٣]: ويكفي صلاح الدين فخراً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية في القاهرة... وكان تطبيقه في القاهرة مما جعلها في مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة.

خلفاء صلاح الدين

وقد ترسم خلفاء صلاح الدين خطاه، ففي عهد أخيه العادل جمع جان دي بريين (Jean de Brienne) جيشاً من الجرمان واستولى على دمياط سنة ١٢١٨ م. ويقال إن العادل مات في شهر أغسطس من هذه السنة حزناً على ضياع دمياط، وأوصى قبل وفاته ابنه الكامل بإخراج الصليبيين منها؛ فبنى الاستحكامات جنوبي دمياط وفي المنصورة، وحسم النزاع الذي قام بينه وبين أقاربه، وجاءته الإمدادات من حلب وحمص وحماه وغيرها. ثم التقى بالصليبيين عند المنصورة، وأغرق السفن فحجزت ماء النيل وحال بذلك دون تقدمهم، وحلت الخسائر بالصليبيين بسبب فيضان النيل وإحاطة المسلمين بهم من كل ناحية وتفشي الحمى في جندهم، واضطر الصليبيون إلى طلب الصلح (١٢٢١ م)، فرأى السلطان

(١) لينبول Saladin, p. 20

(٢) ابن خلكان: ج ٦ ص ٢٠٧.

(٣) ترجمة ص ١٧٢ , Hist, of Egypt in the Middle Ages

الكامل من حسن السياسة وبعد النظر في أن يجيبهم إليه، حتى لا تقوم حرب صليبية أخرى للأخذ بثأرهم، وسمح للصليبيين بالجلاء عن دمياط، وعقدت بين الفريقين هدنة أمدها ثماني سنين. ورحل الصليبيون عن مصر بعد أن أقاموا فيها أربعين شهراً[١].

على أن هذا الصلح الذي عقد بين السلطان الكامل والصليبيين لم يحل دون وقوع حرب صليبية أخرى، فقد خرج الإمبراطور فردريك الثاني بحملته إلى فلسطين، وتزوج من ابنة الملك جان بريين وارثة عرش أورشليم. واضطر الملك الكامل ـ بسبب قيام النزع بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق ـ إلى عقد صلح مع فردريك سنة ١٢٢٩ م على أن ينزل السلطان الكامل عن بيت المقدس، وأن يظل مسجد عمر وما حوله في حوزة المسلمين، وأن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين. وتعهد الإمبراطور بأن يدافع عن السلطان الكامل أمام أعدائه حتى المسيحيين منهم. ومما ساعد على عقد هذا الصلح ما عرف به فريدريك من حرية الرأي، وميله إلى المسلمين. وقد حامت الشكوك في صدق إخلاصه للمسيحية، حتى إن البابا قال إنه تابع من أتباع محمد لا جندي من جند المسيح.

عاش السلطان الكامل بعد إبرام هذا الصلح تسع سنين. وتقدمت مصر في عهده تقدماً عظيماً، فقد عمل على تحسين الري، وأتم تحصين قلعة القاهرة، وأسس كثيراً من معاهد العلم. وكان الكامل ـ كما وصفه ابن خلكان[٢] ـ «سلطاناً عظيم القدر جليل الذكر محباً للعلماء، متمسكاً بالسيرة النبوية، حسن الاعتقاد، معاشراً لأرباب الفضائل، حازماً في أموره، لا يضع الشيء إلا في موضعه في غير إسراف ولا إقتار»[٣].

ولما توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م)، ولى أمراء مصر الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك، فساء ذلك الصالح أيوب بن الكامل، وكان أبوه قد أبعده عن حصن كيفا (الضفة الغربية لنهر دجلة)، وهمّ بمغادرة الشام ليستولي على مصر، فاعتقله الناصر صاحب الكرك، ولكنه ما لبث أن أطلق سراحه، وتحالف معه على أن تكون مصر له، وبلاد الشام للناصر، وتآمر مماليك الكامل على خلع العادل، واستدعوا الصالح أيوب، وولوه السلطنة سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م)[٤].

وفي عهد الملك الصالح أيوب (١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م) جرد لويس التاسع ملك فرنسا حملة

---

(١) Lane-Poole. pp. 218-224

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٦.

(٣) هكذا ورد في الأصل ولعله يريد من غير إسراف ولا تقتير.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٢٦٧ ـ ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

على مصر، واستولى على دمياط، ثم عسكر بالقرب من البحر الصغير بالمنصورة، وانتصر أول الأمر، وكاد يقتحم قصر السلطان، لولا أن رده المماليك بقيادة بيبرس، الذي انقض بجيشه على الصليبيين وقلب نصرهم هزيمة[١]. ولما أخذ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة، توفي الملك الصالح (نوفمبر ١٢٤٩ م). وكان ابنه وولي عهده الملك المعظم «توران شاه» بحصن كيفا، وقد أخفت زوجته شجرة الدر موته، حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين. ثم قدم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب مصر، ونزل بقصر السلطنة بالمنصورة، ونقل أسطولاً من المراكب على ظهور الجمال إلى مكان بعيد عن مرسى الأسطول الفرنسي، حيث ركبت أجزاء السفن، واستولى على اثنتين وثلاثين سفينة فرنسية، ومنع وصول المؤن والذخائر إلى جيش لويس في المنصورة، ودارت الدائرة على الفرنسيين[٢]، واضطر لويس إلى التقهقر نحو دمياط، فطارده المسلمون حتى فارسكور. وقضوا على جيشه سنة ١٢٥٠ م. ومرض لويس بالحمى، وأسر هو وكثير من رجاله، ولم يفك أسره إلا بعد أن تعهد الفرنسيون بإخلاء دمياط[٣]. وهكذا أخفق الصليبيون في كل حملاتهم على مصر.

بعد ذلك انتشرت سطوة المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح أيوب. واشتد أزرهم بهذ النصر الذي أحرزه بيبرس المملوكي في موقعة فارسكور، وأضمروا السوء لتوران شاه، الذي أثار غضبهم لسوء معاملته إياهم فقتلوه وولوا شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب سلطانة عليهم. وبقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية في مصر وقامت دولة المماليك البحرية، التي حكمت هذه البلاد من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ م.

رابعاً ـ الدولة المرابطية

(٤٤٨ ـ ٥٤١/١٠٥٦ ـ ١١٤٧)

(١) قيام الدولة المرابطية

أجمع المؤرخون على أن المرابطين[٤] أو الملثمين[٥] من قبيلة لمتونة (بفتح اللام

(١) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, pp. 38-39.

(٢) Ibid, p. 46.

(٣) Ibid, p. 51-57

(٤) سموا المرابطين لأنهم تتلمذوا على عبد الله بن ياسين في الرباط الذي أنشأه للدرس والعبادة في صحراء المغرب حيث قبيلة لمتونة.

(٥) سموا الملثمين لأنهم كانوا يضعون على وجوههم لثاماً يقيهم هاجرة الصحراء وبردها كما يفعل العرب، =

وسكون الميم) البربرية الصنهاجية ويكادون يتفقون على أن صنهاجة من القبائل العربية الحميرية، وأنهم ساروا من اليمن إلى الشام ومنها إلى الساحل الأفريقي حيث اتجهوا نحو المحيط الأطلسي واستوطنوا صحراء المغرب لمشابهتها لصحراء العرب. وكانوا بقيادة عقبة ابن نافع، ثم كثر عددهم في عهد موسى بن نصير[1]. وعلى الرغم من أن ابن خلدون وكتامة من بين تلك القبائل البربرية[2]، يغلب الرأي القائل بيمنية صنهاجة لا بمضريتها[3].

٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ المرابطون ١٠٥٦ ـ ١١٤٧

[المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس]

هجرية		ميلادية
٤٤٨	أبو بكر	١٠٥٦
٤٨٠	يوسف	١٠٨٧
٥٠٠	علي	١١٠٦
٥٣٧	تاشفين	١١٤٣
٥٤١	إبراهيم	١١٤٦
٥٤١	إسحاق	١١٤٧

= وقيل في سبب هذه التسمية إن طائفة من قبيلة لمتونة أغارت على عدو لهم، فسار العدو إلى بيوتهم، ولم يكن فيها إلا الشيوخ والنساء والصبيان، فأمر الشيوخ النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقن ثيابهن حتى لا يميزهن العدو، ويحملن السلاح، وسار الشيوخ والصبيان أمام النساء اللاتي طوقن البيوت، فلما أشرف العدو هاله هذا الجمع العظيم وظنه رجالاً يقاتلون قتال المستميت دفاعاً عن حرمهم، فاحتال العدو على استدراجهم للخروج من بيوتهم، حتى إذا تبعوهم قاتلوهم خارج بيوتهم، فبينا العدو منشغل بجمع الأنعام من المراعي، أقبل رجال لمتونة، وأصبح العدو بينهم وبين النساء، فقتل عدد كبير من العدو. ومن ثم جعل اللمتونيون اللثام سنّة وغدوا لا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢٣٣).

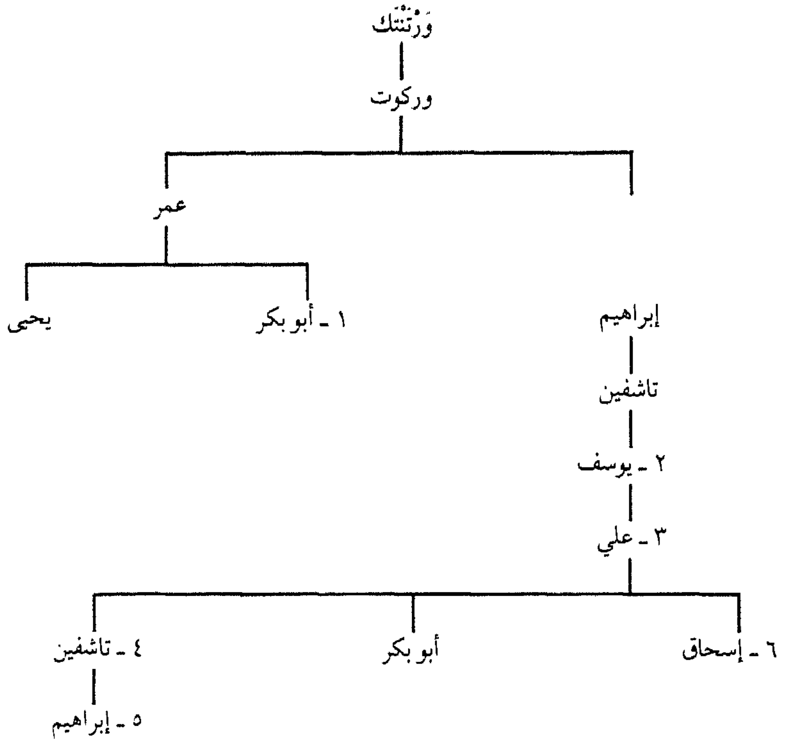
قال ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٢): «كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم... وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة... وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أي على الدين) فدانوا له واستوثق لهم (أي للملثمين) الملك، ثم افترقوا، وكانت رياسة كل بيت منهم في بيت مخصوص» انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٨ (٣)».

(١) ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٢.

(٢) العبر ج ٦ ص ١٦٥.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس (طبعة الرباط ١٩٢٦) ج ٢ ص ٥.

تسلسل نسب المرابطين



ويذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجـة (بفتح الصـاد والجيم وسكون النـون) فخذ من هوارة (بفتح الهاء والراء والواو مع التشديد) وهذا لا يعارض الـرأى القائـل بأن صنهـاجة حميرية الأصل، لأن هوارة فخذ من حمير[1].

وكانت قبيلة لمتونة التي أنجبت تلك الدولة العظيمة تقيم بصحراء المغـرب التي تمتد جنوباً حتى بلاد السودان[2]، وتتجول أحياناً في تلك القفار الشـاسعة، شـأنها في ذلـك شأن العـرب الرحَّـل، وكانت تـدين بالإسـلام الذي لم تكن تعـرف أحكامـه إلا لمامـا، ولم تكن القبائل الصنهاجية التي تقيم في ربوع الصحراء، مثـل جدالـة (بضم الجيم) ومسوفـة (بكسر الميم وضم السين مع التشديد) ولمطة (بفتـح اللام والـطاء وسكون الميم) ومسـراتة (بكسـر الميم وسكون السين وفتح التـاء) وتكلاتـة (بكسر التـاء الأولى وفتح التـاء الثانيـة) ومنداسـة (بفتح الميم وسكون النون) وبني وارث وبني مسفير (بفتح الميم وسكون السين) وبني ذخير

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن خلدون: العبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ١٨٢.

(بفتح الذال وسكون الراء) وبني زياد وبني موسى وغيرها[١] خيراً من لمتونة من الناحية الدينية، غير أن اللمتونيين كانوا متعصبين للإسلام متحمسين له عاملين على نشره في بلاد السودان بقيادة أميرهم أبي عبد الله بن يتفاوت اللمتوني[٢].

(٢) يوسف بن تاشفين

ولما توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر ابن عمر، وقلده أمر الحرب والجهاد، ثم ندب المرابطين لغزو بلاد السوس والمصامدة، فزحف إليها في جيش عظيم، وجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني، ثم سار أبو بكر بن عمر إلى بلاد السوس، فغزا قبيلة جزولة، وفتح مدينة ماسة وتارودانت عنوة، وكانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الشيعة البجلية الذين ينتمون إلى عبد الله البجلي الذي سار إلى بلاد السوس في أيام عبيد الله المهدي، ونشر فيها المذهب الشيعي، فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر وانتصرا عليهم، فعادوا إلى مذهب السنة والجماعة[٣].

وفي سنة ٤٥٣ هـ عاد أبو بكر بن عمر من مهمته في الصحراء التي استغرقت نحو سنتين. وقد هاله ما رأى من ضخامة جيوش يوسف بن تاشفين، وأدرك أنه لا قبل له بمناوأته؛ فنزل له عن السلطة وسلم إليه أمر المغرب أمام شيوخ لمتونة وأعيان الدولة المرابطية وأمراء المصامدة والكتاب والشهود[٤]. وقد جرت عادة المرابطين أن تعقد البيعة للأمير حسب هذا الترتيب: أفراد الأسرة المالكة، فالأمراء، فرؤساء القبائل، وعمال الدولة. ثم يرسل إلى عمال الدولة في المغرب والأندلس منشور يتضمن هذه البيعة ويقرأ في المساجد، فيتقدم الناس لبيعة الأمير الجديد، كما جرت عادة المرابطين بتبادل الكتب مع الخليفة العباسي الذي يقرّ هذه البيعة ويباركها[٥]. وكان يوسف بن تاشفين، كما وصفه ابن الأثير: «رجلاً ديّناً خيّراً حازماً داهية مجرباً»، وأنه أحسن السيرة في الرعية ولم يأخذ منهم سوى الزكاة «وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة واتباع الشريعة، فاستغاث به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً وبلداً بلداً بأيسر سعي، فأحبه الرعايا وصلحت

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦

(٣) السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ١٢.

(٤) الحلل الموشية (لمؤلف مجهول) ص ١٦.

(٥) راجع كتاب الخليفة المستظهر العباسي إلى يوسف بن تاشفين بإقراره على ما بيده في كتاب الحلل الموشية ص ٧٦. ابن أبي زرع. روض القرطاس ج ٦ ص ٨٠.

أحوالهم . . وملك البلاد المتصلة بالحجاز، مثل سبتة وطنجة وسلا وغيرها»[١].

قامت الدولة المرابطية على أساس ديني، ومع ذلك فإن تلك الفترة التي بدأت بحكم يوسف بن تاشفين يمكن أن تعتبر فترة سياسية أكثر منها دينية، إذ كانت السيادة فيها لقبيلة صنهاجة الصحراوية على قبيبة زناتة صاحبة الأمر في المغرب قبل قيام الدولة المرابطية، ولكي يضمن يوسف بن تاشفين بقاء السيادة لقبيلته، تراه يصانع قبائل المصامدة الجبلية، فيبدأ بها عبد الله بن ياسين في توزيع خمس الغنائم التي استولى عليها في حرب درعة وسجلماسة على فقهاء المصامدة[٢]. ويعد يوسف بن تاشفين أول ملك بربري حكم المغرب وكوّن جيشاً قوياً تتمثل فيه جميع القبائل المغربية بصفة عامة.

(٣) موقعة الزلاقة:

ولم يقف طموح يوسف بن تاشفين عند بسط سلطانه على المغرب الأقصى، بل إنه كون أعظم دولة مغربية للمرة الأولى في التاريخ وهي الدولة المرابطية، إذ امتد سلطانه من السودان جنوباً إلى جبال البرانس شمالاً، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود تونس شرقاً، بل لقد اعتبر بعض المؤرخين يوسف بن تاشفين أعظم حكام المسلمين في عصره، إذ كانت الدولة العباسية في المشرق قد تطرق إليها الضعف والانحلال، وأخذت الدولة الفاطمية في الأفول، واتخذ الصليبيون من هذا الضعف فرصة للاستيلاء على المدن المقدسة بفلسطين وغيرها من البلاد التي امتد إليها ظل الإسلام، وشدد نصارى الأندلس بصفة خاصة الخناق على ملوك الطوائف، وكاد حكم هذه البلاد يخرج من أيدي المسلمين، لولا أن قيَّض الله لهم يوسف بن تاشفين الذي لبى نداء ملوك الطوائف ورد جيوش الفونس السادس على أعقابهم.

ويذكر عبد الواحد المراكشي[٣] أن أبا عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ولي أمور إشبيلية وأعمالها سنة ٤٣٩ هـ، وتلقب «المعتضد بالله». وقد قيل إن هشاماً المؤيد الأموي كان يقيم بقصر المعتضد العبادي وأنّه ولاه الحجابة. وفي سنة ٤٥٥ هـ أعلن المعتضد موت هشام المؤيد وأظهر أنه ولاه عهده ليكون أميراً على بلاد الأندلس من بعده.

وفي سنة ٤٦٣ هـ نزلت قبيلتا لمتونة ومِسُوفة من البربر رحبة مراكش واتخذوها داراً لملكهم لوقوعها في مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى.

---

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢.

(٢) ابن أبي زرع روض القرطاس ج ٢ ص ٨٥. (٣) المعجب ص ٩٥.

وقد ولي المعتمد على الله حكم إشبيلية، ويشبهه المؤرخون بالخليفة الواثق العباسي في سعة اطلاعه وغزارة أدبه، وكان شعره ـ كما وصفه المراكشي[١] ـ «كأنه الحلل المنَشَّرة»، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس».

تغلب المعتمد على قرطبة سنة ٤٧١ هـ من بني جهور (بفتح الجيم والواو وسكون الهاء). وكان المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة قد استولى عليها، فاستنجد عبد الملك ابن جهور بالمعتمد بن عباد الذي استولى على قرطبة فأصبحت تابعة لإشبيلية، ولكن أهلها ثاروا على الظافر بن المعتمد وقتلوه لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم لبني أمية، غير أن المعتمد بن عباد قضى على هذه الفتنة وولى ابنه الآخر المأمون أمور قرطبة، فظل بها إلى أن قتله المرابطون.

وقد وجد المعتمد بن عباد أمير إشبيلية في أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب الرجل الذي يستطيع أن يعتمد عليه في الصمود أمام أعدائه المسيحيين، وفي سنة ٤٧٩ هـ عبر المعتمد البحر قاصداً مدينة مراكش حاضرة الدولة المرابطية مستنجداً بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[٢]، وكان إذ ذاك بمدينة سبتة، وطلب إليه الحضور لنجدة المسلمين والجهاد ضد المسيحيين في الأندلس، فلبى ابن تاشفين نداء المعتمد وقال له: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي» وأقبل من بقي من جند ابن تاشفين في مدينة مراكش حتى تكامل عددهم، ثم عبر البحر من سبتة في أسطول يتألف من مائة سفينة تحمل سبعة آلاف فارس وعدداً كبيراً من الرجال ميمماً شطر مدينة الجزيرة الخضراء، وتلقاه المعتمد بن عباد في وجوه من دولته، وقدم إليه الهدايا والتحف.

ثم اتجه ابن تاشفين نحو شرق الأندلس وطلب إليه المعتمد أن يدخل إشبيلية حاضرة ملكه ليستريح فيها أياماً من وعثاء السفر ومشقة الطريق قبل أن يلتقي بعدوه، فأبى ابن تاشفين وقال: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو، فحيثما كان العدو توجهت وجهه. . . . هلمّ (إلى) ما جئنا له من الجهاد». وقصد حصن ألفونس السادس ملك قشتالة[٣]، وقد بلغ جيش يوسف بن تاشفين زهاء عشرين ألفاً عدا المتطوعين من المسلمين الذين جاءوا من سائر بلاد

(١) المعجب ص ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠.
(٣) المراكشي: المعجب ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

الأندلس، وجمع ألفونس من أقاصي مملكته جيشاً جراراً كامل العدة والسلاح والخيل[١]. وفي سهل الزلاقة على مقربة من بطليوس وقف جيش المعتمد في المقدمة وعسكر جيش ابن تاشفين خلف أكمة عالية من الجبل.

ويصف لنا عبد الواحد المراكشي ما ابتكره ألفونس السادس من ضروب الحيل والخداع لمنازلة المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم، واختلفت الرسل بين الفريقين المتحاربين في تحديد يوم القتال، وبعث قائد المسيحيين يقول للمسلمين: «الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان ما نريده من الزحف». ثم جاء يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة، وأوجس المعتمد بن عباد خيفة من ناحية المسيحيين وظل في جنده شاكي السلاح، وحمل المسيحيون على المسلمين، ففاجأهم جند المعتمد وحمل المرابطون السلاح واستووا على ظهور خيلهم، واختلط الفريقان. وأظهر المرابطون من ضروب البسالة ما كفل لهم النصر، وأخذ المسلمون يطاردون أعداءهم ويقتلونهم في كل مكان، حتى قيل إنهم أفنوهم عن آخرهم، وذلك في منتصف شهر رجب (وقيل في أوائل رمضان) سنة ٤٧٩ هـ، واستولى المسلمون على ما كان معهم من مال وسلاح ودواب وغيرها، وقد آثر بها يوسف بن تاشفين ملوك الأندلس، فأحبوه.

وهكذا لبى يوسف بن تاشفين نداء الجهاد وأحرز هذا النصر المؤزّر في موقعة الزّلاقة التي تعد من المواقع الحاسمة في التاريخ. وضمن للإسلام قوته وعزته في بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى.

كان انتصار المسلمين في الزلاقة فاتحة يمن وبركة، ولا غرو فقد أثار هذا النصر إعجاب المسلمين بيوسف بن تاشفين ولهجت الألسنة بإطرائه والثناء عليه ودعوا له على منابرهم، وقد عبر يوسف عن رغبته في زيارة الأندلس ومشاهدة معالمها، وكان في خلال زياراته يظهر إعجابه بمواهب المعتمد العبادي ويشيد بكرم ضيافته، وكان يظهر الحنين إلى مراكش حاضرة ملكه ويصغّر من شأن الأندلس، وهو كما يقول المراكشي[٢] «يُسرّ حسواً في ارتغاء»[٣].

---

(١) ذكر ابن الأثير: (الكامل ج ١٠ ص ٥٧) أن جيش ألفونس كان يتألف من خمسين ألف مقاتل.

(٢) المعجب ص ١٣٥.

(٣) مثل يضرب لمن يريد أن يعينك وإنما يقصد النفع لنفسه، كمن يؤتى بوعاء من اللبن ويظهر أنه يريد الرغوة خاصة لا يريد غيرها، وهو في أثناء ارتغائه يحسو اللبن جرعة جرعة.

وقد علق أشاخ[1] على هذه الموقعة فقال: إن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يستغل نتائج انتصاره في موقعة الزلاقة، لكانت أوروبا الآن تدين بالإسلام، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس.

(٤) بعد موقعة الزلاقة

لقد أثارت هزيمة ألفوس السادس في موقعة الزَّلاَّقة التي جرح فيها وقتل معظم جنده عوامل الحقد والضغينة على المعتمد بن عباد، لأنه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين إلى قتال نصارى الأندلس، لذلك عوَّل ألفونس على أخذ الثأر من المعتمد، فأخذ يجمع الجند ويستعد لمهاجمة إشبيلية. وركّز غاراته على مملكة ابن عباد، وأخذ يوجه ضرباته إلى حصن «لييط» فضاق ابن عباد بذلك ذرعاً وجاز البحر إلى بر المغرب والتقى بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين واستغاث به. وقد عاد ابن عباد إلى بلاده وجاز ابن تاشفين البحر إلى الجزيرة الخضراء حيث تلقاه ابن عباد، وقد رأى ابن تاشفين أن يوحد جهود المسلمين في جهاد النصارى، فكتب إلى ملوك الأندلس يدعوهم إلى منازلة النصارى، وطلب أن يكون اجتماع الجيوش المشتركة في حصن لييط[2].

ولما وصلت جيوش يوسف بن تاشفين إلى هذا الحصن ساءه عدم استجابة أمراء الأندلس إلى دعوته، إذ لم يستجب لها سوى ابن عبد العزيز صاحب مرسية والمعتمد بن عباد، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة أمير المسلمين، إذ ضيق على هذا الحصن وأخذ يشن الغارات على بلاد النصارى. على أن قيام النزاع بين المعتمد بن عباد وابن عبد العزيز الذي قُبض عليه بأمر يوسف بن تاشفين، قد أضعف جند المسلمين. واضطر أمير المسلمين أن يولي وجهه شطر ليورقة فثغر المرية، حيث جاز منه البحر إلى عدوة المغرب، وقد تغيَّر (ابن تاشفين) على أمراء الأندلس لكونه لم يأته منهم أحد إلى نزول حصن «لييط». وبذلك خلا الجو لألفونس السادس، فنزل على الحصن وأطلق من بقي به من النصارى، ثم يمم شطر طليطلة، واسترد المعتمد بن عباد هذا الحصن.

وقد أقام يوسف بن تاشفين ببلاد المغرب إلى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م)، حيث جاز البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة للجهاد في سبيل الله والاستيلاء على الأندلس من أمراء المسلمين. وقد سار يوسف حتى بلغ طليطلة وحاصر ألفونس بها. . . . وقطع ثمارها وضرب أحوازها (أحياءها) وقتل وسبى كثيراً من أهلها. ولم يأت لمساعدة يوسف أحد من أمراء

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٧. وانظر أيضاً عبد الله كنون: المدخل ص٤٨. المراكشي: المعجب ص ١٧٨. ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦٣. السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٤١.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦٦ ـ ٦٧.

الأندلس الأمر الذي أثار حنقه عليهم، فلما رجع من غزو طليطلة سار نحو غرناطة، فنازل صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس لأنه صالح ألفونس السادس وظاهره عليه. فلما اشتد الحصار على غرناطة لم يجد صاحبها بداً من طلب الأمان، فأمنه يوسف بن تاشفين على أن يسلم إليه بلاده، ثم رحل عبد الله بن بلكين وأخوه تميم صاحب مالقه إلى مراكش(١).

جاز يوسف بن تاشفين البحر إلى المغرب في شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ، وأناب عنه الأمير سيري بن أبي بكر اللمتوني في حكم هذه البلاد، وأمره أن يتتبع آثار ألفونس السادس صاحب طليطلة، وأن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين ويلحق أمراءها بالمغرب، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة، وألا يتعرض للمعتمد بن عباد حتى يستولي على سائر الإمارات ويولي عليها أمراء جنده.

وقد استولى سيري على جيَّان في أوائل سنة ٤٨٤ هـ، ثم سار نحو قرطبة، فاستولى عليها من صاحبها المأمون بن المعتمد (صفر سنة ٤٨٤ هـ)، ثم يمم شطر قرمونة فدخلها عنوة (ربيع الأول ٤٨٤ هـ)، فلم يجد المعتمد بن عباد بداً من الاستنجاد بألفونس السادس الذي أمده بعشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل، فوجه الأمير سيري إليه جيشاً، والتقى الجمعان على مقربة من حصن المدور وانتصر عليه. ولم يزل الأمير سيري يضيق الخناق على المعتمد حتى سقطت إشبيلية (٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ)، وأرغم على طلب الأمان في نفسه وولده وأهله، فبعث بهم سيري إلى أمير المسلمين، فأنزلهم أغمات القريبة من مراكش. وفي شهر شوال من هذه السنة دخل المرابطون بقيادة يوسف بن داود ابن عائشة مدينة مُرْسية وأعمالها. ثم دخل المرية فهرب صاحبها معز الدولة بن صُمادح بحراً إلى إفريقية بأمواله وعياله. وفي سنة ٤٨٥ هـ أمر يوسف بن تاشفين قائده ابن عائشة بالمسير إلى دانية فاستولى عليها، كما استولى على شاطبة من صاحبها ابن منقذ، ثم سار ابن عائشة إلى بلنسية فاستولى عليها من القادر بن ذي النون، وكان يخضع لألفونس السادس ويدفع إليه الجزية، «فملك يوسف مملكة خمسة أمراء في سنة ونصف. وهم: ابن عباد، وابن حبوس (غرناطة) وابن الأحوص، وابن عبد العزيز، وعبد الله بن بكر (جيَّان)»(٢).

كان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيِّراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم، ويسند إليهم مناصب الدولة، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالي لما سمع ما اتصف به يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٧ ـ ٦٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦٩ ـ ٧٧. المقرى: نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٤ ـ ١١٠.

إليه، فوصل إلى الإسكندرية وأخذ في الاستعداد للرحيل، ولكنه علم بنبأ وفاته فعدل عن رأيه، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب، ويستمع إلى الموعظة في خشوع، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ.

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والأندلس مدة خمسين سنة، وقد أجمع المؤرخون على أن عهد يوسف بن تاشفين كان عصر المرابطين الذهبي، فقد أخذت الدولة المرابطية في الضعف بعد موته، وخلفه أمراء كانوا أقل منه حنكة وأضعف قوة، وصادفتهم ظروف سيئة في الداخل والخارج عجلت بسقوط دولتهم ولا سيما بعد ظهور الدعوة الموحدية على يد المهدي محمد بن تومرت.

(٥) علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٥٧/١١٠٦ ـ ١١٤٣:

عرفت الملكية في المغرب لأول مرة في الإسلام بعد قيام دولة الأدارسة الذين أخذوا نظرية الإمامة عن أسلافهم العلويين الذين اقتبسوا نظرية الحق الملكي التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد الساسانيين، أضف إلى ذلك اعتقادهم بأحقيتهم بالخلافة بعد الرسول. وقد رحّبت قبيلة أوربة (بفتح الألف والراء والباء وسكون الواو) بإدريس الأول وسلمت إليه مقاليد الحكم وساعدته على ضم جزء كبير من المغرب، في الوقت الذي استولى بنو مدرار على زمام الحكم في سجلماسة، واحتل البرغواطيون سهول المحيط الأطلسي، واحتل بوصالح مدينة نكور (بفتح النون) في الشمال. وقد ساعد البربر الأدارسة على إقامة حكم وراثي في المغرب لأنهم من بيت الرسول الكريم، ولما كان من اضطهاد العباسيين لهم، ثم لشدة تمسكهم بالإسلام، واستمرت الحال على ذلك حتى انقضى عهد الأدارسة سنة ٣٧٥ هـ.

وكان المرابطون أول من أسس ملكية وراثية من أبناء المغرب أنفسهم، وكانت دولتهم أول دولة وحدت المغربين الأقصى والأوسط، وقامت بدور خطير في نشر الإسلام في المغرب والسنغال. وقد جمعوا بين الجهاد والثقافة الإسلامية معاً، وقضوا على بدع البرغواطيين، وفلوا شوكة الزناتيين المتنازعين المتنافرين، وأنقذوا بلاد الأندلس من الضياع.

وقد أدرك يوسف بن تاشفين كل هذه الأمور حين فكر في أخذ البيعة لابنه علي، إذ كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده، وأن تنفصم عرى هذه الوحدة وتنتهي هذه الرسالة

التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن، لـذلك رأى يـوسف بن تاشفين أن يستخلف من ينوب عنه في مباشرة هذه التبعات الخطيرة. ولو أنه ترك الأمر شورى للمرابـطين ليختاروا من بعـده من أحبوا، لأصبـح من العسير أن يجتمـع الناس على شخص معين، لأنـه لم يكن ثمة نظام مستقر للانتخاب في وقت أصبحت بلاد الأندلس مهددة بغـارات نصارى الشمـال، لذلك فكر يوسف في البيعة لابنه، إذ أنه رأى أن هذا الأمر يدخل في نطاق سلطته، كما يتبين ذلك من عهده له الذي جاء فيه.

«. . . فلأنه (يعني يوسف بن تاشفين) بمـا لزمـه من هذه الـوظيفة وخصّـه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة، فقد أعز الله رماحه، وأحد سـلاحه، فـوجد ابنـه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً»[١].

وقد تمت هذه البيعة بمدينة قرطبة سنة ٤٩٦ هـ، فبايعه جميع أمـراء لمتونة وفقهـاؤها وأشياخها. وكان علي بسبتة التي ولد فيها[٢]. ولم يكن علي بن يوسف أكبر إخوته.

وكان يوسف بن تـاشفين يخشى معارضـة المصامـدة حين أوصى ابنه عليـاً قبل وفـاته بوصايا ثلاث تتلخص فيما يلي:

(١) ألا ينال سكان الأطلس ومن وراءه من المصامدة بسوء.

(٢) أن يهـادن بني هود أمـراء سرقسـطة من ملوك الطوائف التي أسسهـا سليمـان بـن محمد بن هود بن الجذامي أحد قادة الثغر الأعلى[٣].

(٣) أن يحسن إلى أهـل قرطبـة ويتجـاوز عن مسيئهم. وقـد اشتهـروا بثـوراتهم على الـدول التي تعاقبت على حكم الأنـدلس، لأن عدداً كبيـراً من أهلهـا كـانـوا من المـولـدين والفقهاء الذين تزعموا هذه الثورات[٤].

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٤.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٧٧.

(٣) استولى سليمان بن هود على لاردة سنة ٤٣١ هـ. ولقب نفسه المستعين، وضم سرقسطة التي بقيت في أيـدي أولاده إلى أن سقطت في يـد أحد أبنـاء روذميـر سنـة ٥١٢ هـ. وتقـرب عبـد الملك بن هـود إلى النصارى سنة ٥٠٣ هـ. وقد خرج عبد الله ابن فاطمة قائـد المرابـطين في الأندلس على علي بن يـوسف ابن تاشفين وحاول الاستيـلاء على سرقسـطة. ولكن الهزيمـة حلت بجيشه أمـام جيش ابن روذمير الـذي استنجد به عبد الملك بن هود.

(٤) وقد أدت هذه الفتن إلى طرد الثوار، فلجأ بعض إلى طليطلة وقصد آخر المغـرب والإسكندريـة ثم ثارت قرطبة على المرابطين بزعامة القاضي ابن حمدين سنة ٥٣٩هـ، وطرده أهلها واستنجـدوا بيحيى بـن غانيـة =

ولد أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين بمدينة سبتة سنة ٤٧٧ هـ ونشأ في بيت أبيه كما ينشأ أبناء الأشراف. وكان أبو الطاهر تميم أول من بايع أخاه علياً على الرغم من أنه أكبر منه سناً ونادى في المرابطين: «قوموا فبايعوا أمير المسلمين»(١). فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وشيوخ القبائل. ولم يتخلف عن بيعة علي إلا ابن أخيه يحيى الأكبر أبي بكر، وكان يلي مدينة فاس، وله مواقف مشهورة في أيام جده يوسف بن تاشفين، كما كان أبو بكر نائباً عن أبيه يوسف قبل انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة في الأندلس. لذلك تطلع يحيى بن أبي بكر إلى الحكم بعد جده يوسف لأنه ابن الأخ الأكبر من أبناء يوسف، وامتنع عن مبايعة عمه علي الذي سار إلى مدينة فاس لتأديب ابن أخيه وإدخاله في طاعته. ولكن يحيى قد فر أمام جيوش عمه الذي استولى على فاس، وتمت له بذلك البيعة في جميع أنحاء الدولة المرابطية التي امتد نفوذها على المغرب والجزائر والأندلس. وتلقب بلقب أمير المسلمين كما كان أبوه من قبل. وسار على نهج أبيه في الجهاد في سبيل الله وحماية البلاد من خطر النصارى. وكان علي بن يوسف يكره الظلم ويميل إلى حياة الزهد والتقشف ويعظم الفقهاء ويقربهم إليه ولا يقطع أمراً دون الرجوع إلى رأيهم(٢).

وقد وضع علي بن يوسف نصب عينيه القضاء على مقاومة النصارى بزعامة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذي اشتد طمعه وأخذ يشن الغارات على أطراف الولايات الإسلامية في الأندلس بعد موت يوسف بن تاشفين بطل الزلاقة. كذلك عمل علي بن يوسف على القضاء على الدعوى الموحدية التي قام بها المهدي بن تومرت في مستهل سنة ٥١٥ هـ، وأخذ يهدد الدولة المرابطية ويعمل على زوالها. لذلك لم يكن بد من أن يعمل علي بن يوسف على القضاء على هذين الخطرين في وقت واحد.

فأما نصارى الأندلس فقد ولى علي بن يوسف أخاه «تميم بن يوسف» غرناطة، وأسند إليه قيادة الجيش المرابطي في الاندلس. وقد استطاع تميم أن يحل الهزيمة بالنصارى في موقعة «إقليش» التي تعد من أكبر المعارك التي دارت بعد موقعة الزلاقة بين المرابطين والنصارى. ففي سنة ٥٠٢ هـ حاصر تميم حصن إقليش، فاستنجدت حاميته بألفونس السادس وكان مريضاً، فأشارت عليه زوجته بأن يرسل ابنه على رأس جيش كبير يفوق جيش

= آخر ولاة المرابطين. وقد قيل إن يوسف بن تاشفين أوصى ابنه علياً بأن يحسن إلى أهل قرطبة لأنها كانت مركزاً علمياً.

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٧٨.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٧١.

المسلمين عدداً وعدة. وانتهت هذه المعركة بهزيمة النصارى هزيمة منكرة وقتل ابن ألفونس السادس ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من زهرة جنده[١]. ولما اتصل نبأ هذا الانتصار بعلي بن يوسف امتلأ حماساً وقرر أن يجتاز البحر إلى الأندلس لاستئصال شأفة النصارى فيها.

وفي السنة التالية (١١٠٨/٥٠٣) جاز علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للجهاد في مائة ألف جندي. وبعد أن قضى شهراً بقرطبة خرج إلى مدينة «طلايوت» ففتحها عنوة. كما فتح سبعة وعشرين حصناً من أعمال طليطلة، من بينها حصن مجريط (وهي مدريد الحالية) ووادي الحجارة. ثم يمم شطر طليطلة حاضرة أسبانيا النصرانية إذ ذاك، وحاصرها شهراً، ثم سار نحو قرطبة.

وفي سنة ٥٠٤ هـ فتح المرابطون شريش وبطليوس والبرتغال ويابرة وأشبونة (لشبونة). وقد ذكر ابن الأثير أن عليّ بن يوسف هزم الفرنجة هزيمة منكرة وأسر عدداً كبيراً منهم وغنم غنائم لا تحصى[٢]. ولكن النصارى استطاعوا في سنة ٥١٣ هـ أن يستولوا على مدينة سرقسطة، كما استولوا على قلعة أيوب شرقي بلاد الأندلس، وكانت تعد من أمنع قلاع الأندلس. وكانت هذه الهزائم من بوادر ضعف الحكم المرابطي في هذه البلاد.

وفي سنة ٥١٣ هـ (وقيل سنة ٥١٤ هـ) قامت فتنة عظيمة بين أهل قرطبة وجند المرابطين. ويرجع ذلك إلى تعدي أحد عبيد الوالي المرابطي على امرأة، فاستغاثت بالمسلمين وقامت الحرب بين العبيد وأهل قرطبة. ويذكر ابن الأثير أن الفقهاء طلبوا من الوالي أن يأمر بقتل أحد العبيد الذين أثاروا هذه الفتنة ليكون ذلك رادعاً لمن تحدثه نفسه بأن يعبث بالتقاليد الإسلامية. ولكن الوالي لم يستمع إلى طلبهم، وقامت الحرب بين أهل قرطبة وجند المرابطين، وحاصر الأهالي دار الوالي ونهبوه وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من بلدهم، واضطر الوالي إلى الهرب. ولما اتصل ذلك بمسامع أمير المسلمين علي بن يوسف أنكر ذلك وجمع الجند من صنهاجة وزناتة وسائر البربر وغيرهم، وعبر البحر إلى الاندلس سنة ٥١٥ هـ، وحاصر قرطبة، فقاتله أهلها لحماية حرمهم وأموالهم وتدخل الوسطاء في الصلح فعدل عليّ عن قتالهم[٣].

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٤.
(٢) الكامل ١٠ ص ١٨٥.
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١١.

(٦) نهاية الدولة المرابطية:

وفي سنة ٥١٦ هـ بدأ ابن تومرت يناوىء سلطان المرابطين الأمر الذي أضعف قوتهم في الأندلس. ووقعت بين الفريقين معركة البحيرة، وكان جيش الموحدين بقيادة محمد البشير الونشريشي الذي قتل في هذه المعركة، وفقد ابن تومرت أكثر أصحابه العشرة وآلافاً من زهرة جنده، واشتد به المرض فمات في سنة ٥٢٤ هـ[١].

خلف ابن تومرت عبد المؤمن بن علي، وكان سياسياً محنكاً وقائداً ماهراً، استطاع أن يعيد إلى الموحدين قوتهم ويرد إليهم هيبتهم، فاستولى على كثير من بلاد السوس في حياة علي بن يوسف بن تاشفين. ولما مات علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ، ولي من بعده ابنه تاشفين. وقد استخلف على مراكش ابنه إبراهيم؛ وأخذ يحارب عبد المؤمن ويتعقبه في كل مكان يحل به رغبة في القضاء على قوة الموحدين التي أخذت تنمو وتشتد. وقد سار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها. ثم أتى عبد المؤمن بن علي؛ فخرج تاشفين إلى قتاله، واتخذ الجيش المرابطي مواقعه في السهل وربض الجيش الموحدي في الجبال المحاذية له. وكان تاشفين قد فر إلى مدينة وهران (في الجزائر الآن) ليتخذها حاضرة لدولته فحاصره الموحدون.

ولما اشتد الحصار على تاشفين وتكاثرت عليه الخيل والرجال، صعد تاشفين إلى ربوة تشرف على البحر في ظاهر مدينة وهران، وفي أعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وعلم أبو حفص بن عمر بن يحيى صاحب المهدي بن تومرت بانفراد تاشفين في ذلك الرباط، فقصده الموحدون وأحاطوا به وأحرقوا باب الرباط، فخرج تاشفين راكباً فرسه فأسرع الفرس لينجو من النار طالباً النجاة، فصادفته صخرة فهوى تاشفين من فوقها بفرسه، فقتل وقتل من كان معه من خاصته، واحتز الموحدون رأسه وحملوه إلى تينمل (مركز الدعوة الموحدية). وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ - ١١٤٥)[٢]، فولى المرابطون بعده أخاه إسحق بن علي بن يوسف.

---

(١) الحلل الموشية.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ٦ ص ١١١.

الباب الرابع

غزوات المغول ـ سقوط بغداد

(١) معنى تتر ومغول:

تختلف كلمة تتر بالمعنى العام باختلاف العصور. فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر ورد ذكرهما في نقوش الأرخون (بضم الألف مع الهمزة وضم الخاء) التركية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة.

وفي جميع الفتوحات المغولية التي وقعت في القرن السابع الهجري كان الفاتحون يسمون التتر في كل مكان نزلوا فيه، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم في بلاد الروسيا وغربي أوروبا. ويسمي ابن الأثير أسلاف جنكيز خان باسم التتر، وهم التتر الأوائل، وكانوا يعرفون عند قدماء اليونان باسم سكيثيا Scythia أو سكوتيا.

ولم يظهر اسم المغول على صفحات التاريخ حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم كان يحمل ذلك الاسم. ثم بسط ذلك الزعيم سلطانه على سائر العشائر المتحالفة؛ ومن ثم أطلق عليهم اسم المغول من باب إطلاق اسم البعض على الكل[١].

وقد نزحت طائفة حربية من هؤلاء المغول إلى بعض بلاد آسيا الصغرى؛ وكان أعقابهم (الذين صاروا أتراكاً بلا شك) يسمون بالتتر السود (قَرَاتَتر). وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك على البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا وقيصرية، وكانوا نحو ثلاثين أو أربعين ألف أسرة. وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا، فأنزلهم بايزيد الثاني العثماني بعض الأماكن في بلاد كاشغر وخُوارَزْم، ثم عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمورلنك إلى آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد. كذلك نرى في الروسيا وشرقي أوروبا اسم تتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية ما عدا العثمانيين.

---

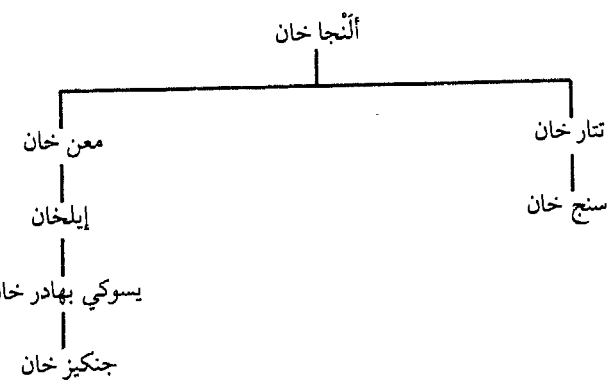
(١) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp 228-229.

ويرى بعض مؤرخي المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها، وهو مرادف للترك عند الفرنجة، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تتراً، ومنهم العثمانيون والتركمان. وقد أطلق لفظ تتر من باب التوسع فشمل جميع المغول، وبخاصة المنكوس Manchos كما كانت الحال في بلاد الصين.

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فإنها لا تطلق إلا على شعب بعينه وهم سكان حوض نهر الفلجا الذي يعيشون في تلك البقعة من الأرض التي تمتد من بلاد قازان إلى أستراخان، وكذلك على سكان شبه جزيرة القرم، وجزء من سيبريا، ويتكلمون اللغة التركية القديمة. وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل (بضم الميم والغين)، ولا يزال هذا اللقب مستعملاً إلى اليوم في بلاد الأفغان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون يحتفظون بلغتهم حتى الآن.

وقد أدخل جنكيز خان تلك التسمية رسمياً في بلاده، على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية.

ويقول مؤرخو الترك ونسابوهم إن ألنجا خان (بفتح الألف مع الهمزة واللام وسكون النون) أحد ملوك التتر في الأزمنة الغابرة ولد له توأمان هما «تتار خان» و«مُغل خان» كما هو الحال في ربيعة ومضر عند العرب. وقد استمر أبناء ألنجا خان على صفاء إلى أن وقع النزاع بينهما في عهد «إيلخان» ملك المغل و«سُنج خان» ملك التتار، وأدى هذا النزاع إلى حروب انتهت بانتصار التتار وقتل إيلخان ملك المغل. ومن ثم أصبحت السيادة للتتار، فاستذلوا المغول مدة طويلة حتى جمع هؤلاء جموعهم واتحدوا وحاربوا التتار وفلوا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم؛ فعادت بذلك سيادتهم، وأصبح الملك متوارثاً فيهم إلى زمن «يسوكي بهادر خان» والد جنكيز خان.



وسواء أصح التفسير الأول أم التفسير الثاني فإن هناك قرابة ملحوظة بين المغول والتتر الذين اندمج بعضهم في بعض على مر العصور، حتى إنه ليبدو عدم استطاعة المؤرخين والجغرافيين التمييز بين هذين الشعبين.

(٢) حالة المغول قبل ظهور جنكيز خان

ظهر المغول في عالم التاريخ حول نهاية القرن الثاني عشر الميلادي من وراء ذلك الغموض الذي كان يكتنف تاريخهم قبل ذلك الوقت. ويبدأ تاريخهم بالفاتح العظيم جنكيز خان الذي نقل لنا مؤرخو حياته أقوالاً مختلفة عن أسلافه. وإن سلسلة نسبه مسألة يحوطها الشك كما هي الحال عند غيره من الملوك والأمراء الذين ظهرت عظمتهم مرة واحدة. وليست هناك مصادر تاريخية نستطيع أن نقف منها على أصل المغول، اللهم إلا ذلك القصص الذي هو بالأساطير أشبه. وكل ما نستطيع أن نذكره عن تاريخ المغول الأول أنهم ظهروا في الجهات الشمالية من بلاد الصين في الأراضي التي نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك الذين كانت صلة النسب بينهم واضحة جلية.

وكانوا قبائل من البدو الرّحل تطوف في ذلك الصقع الواقع شمالي صحراء جوبي كما تقدم. وكان المغول في القرن الثاني عشر الميلادي إحدى القبائل الخاضعة لسلطان «كين» الذي فتح الشمال الشرقي من بلاد الصين. وهم قبائل الفرسان الرحالة الذين يعيشون في الخيام، غذاؤهم الرئيسي لحوم الخيل ومنتجات ألبانها، كما كانوا يحترفون رعي الأغنام والصيد في وقت السلم، وحمل السلاح في زمن الحرب، كما هو الشأن في حياة الأمم البادية. وكانوا ينزحون إلى الجهات الشمالية ابتغاء مراعي الصيف إذا ما ذابت الثلوج، ويبرحون إلى الجنوب سعياً وراء الشتاء كما هي عادة الرحل من سكان السهول الفسيحة. وكانوا يسعون وراء الربح من تبادل الجلود والدواب مع أقربائهم الخطا Khitâns أو مع الترك والصينيين.

وقد احتفظ المغول بديانتهم وعاداتهم الأولى التي هي من أهم مميزاتهم البارزة. فقد كانت حياتهم رعوية ونظامهم قبلياً، مع طاعة لرؤسائهم وحب للحرب والسلب والنهب، وكانت ديانتهم عبادة الكواكب يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرّمون شيئاً، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير. وكانوا حتى الحين لا يعرف الولد منهم أباه وكانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة للمغول الذين كانوا، برغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلاة، ولا يلقون إليه بالمودة، يعبدون عدداً من الآلهة المنحطة، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم. كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا

يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم. وكان المغول يلجئون إلى القسيسين، وهم الشامان والسحرة، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز في الدنيا والآخرة، على حد اعتقاد قدماء المصريين في كهنة المعابد. ولم تكن ديانة المغول معدودة ضمن تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم جهود الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوّة الإقناع وسدّ حاجات العقل وذات الهيئات المنظمة للمعلّمين الدينيين[١]، تلك التي كانت تحيط بالمغول من اليهودية والمسيحية والإسلام.

ولنتناول الآن الكلام في إيجاز عن حالة بلاد الصين موطن المغول والبلاد الإسلامية قبل ظهور جنكيزخان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلغت أسرة تانج (بسكون النون) العظيمة أقصى غايات الانحلال والضعف وانقسمت بلاد الصين إلى عشر دويلات متفرقة متعادية، ثم قامت أسرة جديدة حكمت هذه البلاد هي أسرة سُنْج (بضم السين وسكون النون والجيم) التي وحدت هذه الولايات نوعاً ما تحت سلطانها، واستمرت في الحكم من سنة ٩٦٠ إلى سنة ١١٢٧م برغم ما كان يكتنف عهدها من كفاح مستمر مع أمم الهون الشمالية التي كانت غير على الساحل الشرقي لتلك البلاد.

وفي ذلك الوقت ظهر أحد أهل بلاد الخطا الذي آلت إليه السيادة ردحاً من الزمن، ثم انتهى الأمر بإخضاعهم، وتحوّلت السلطة في الشمال إلى إمبراطورية أخرى من الهون هي إمبراطورية «كين» التي اتخذت «بكين» حاضرة لها؛ ومن ثم انكمشت أسرة سنج نحو الجنوب وعرفت بين سنتي ١١٢٧ و١٢٩٥م باسم مملكة سُنج الجنوبية. وفي الشرق أيضاً كان جل الطوائف الآسيوية تحت إمرة حكام مختلفي الجنسيات والأهواء، وأصبحت تلك الطوائف تتطلع إلى فاتح جديد يلم شملها ويوحد كلمتها.

وفي مستهل القرن السابع الهجري كانت أرجاء الهند الشمالية التي كانت في بادىء الأمر جزءاً من إمبراطورية خوارزم من البلاد التي امتدت إليها تلك الغارات. فقد فتحها في سنة ٦٠٣ هـ (١١٠٦ م) شخص يدعى قطب الدين، آلت إليه الولاية على بلاد الهند بعد أن كان عبداً رقيقاً، وأقام ولاية إسلامية منفصلة في دلهي. وقضت البرهمية على الديانة البوذية في بلاد الهند منذ زمن بعيد، ولم يكن المسلمون في ذلك الوقت إلا أقلية في هذه البلاد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٢٣٥.

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p.20

(٣) حالة البلاد الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري:

هكذا كانت الحال في شرقي آسيا في البلاد التي نبتت فيها أصول المغول.

أما في البلاد الإسلامية، في أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، فقد كانت الدولة العباسية التي لا تزال قائمة في بغداد تشمل جزءا من بلاد العراق يمتد من تكريت إلى الفاوومن حلوان إلى عانة، واقتصرت سلطة الخليفة في خارج رقعة بلاده الضيقة على المظهر الديني.

وكان العالم الإسلامي منقسماً إلى دويلات كثيرة انشغل حكامها بالتوسع كل على حساب الآخر، ولم يدرك هؤلاء الحكام خطر الغزو المغولي إلا بعد أن أغارت جيوش المغول الجرارة على الدولة الخوارزمية. ثم لم تلبث هذه الغارات أن امتدت إلى بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند وإيران وآسيا الصغرى وأوروبا الشرقية. ولم يفكر حكام المسلمين المتنازعون في إقامة حلف إسلامي يصدّ التيار المغولي الجارف قبل أن يستفحل خطره.

وفي بغداد نفسها قام النزاع بين القواد الذين طالبوا بزيادة أرزاقهم، وتفاقمت العداوة والبغضاء بين الشيعيين والسنيين، واشتد خطر فيضان نهر دجلة، فاختل الأمن وتدهورت الحالة الاقتصادية، حتى إن نصف أراضي العراق قد أصبح خراباً كما يقول رشيد الدين(١).

أضف إلى ذلك إهمال نظام الري منذ بداية العصر العباسي الثاني (٢٣٢ هـ) حتى تحولت أجزاء كثيرة من جنوبي العراق إلى مستنقعات بعد أن كانت أراضيها عماد ثروة الدولة العباسية وازدهار حضارتها. كما قامت في الشرق إمبراطورية خوارزم العظيمة التي كانت في أول الأمر تحمي الخلافة العباسية من الشرق والشمال الشرقي بقوة جيوشها وضخامة أموالها. على أن علاء الدين محمد خوارزمشاه طمع في الاستيلاء على بغداد وانتزاع السلطة من الخليفة العباسي كما فعل بنو بويه والسلاجقة من قبله. ولكنه اضطر إلى التراجع بسبب هبوب عاصفة ثلجية عارمة، وبسبب تقدم المغول نحو بلاده وإحلالهم الهزيمة بجيوشه حتى إنه اضطر إلى الهرب إلى جهات بحر قزوين حيث مات في إحدى جزره (٦٢٠ هـ).

وبعد هذه الحرب الخاطفة أو الاستطلاعية بعبارة أدق عاد المغول إلى بلادهم، على أن جلال الدين منكبرتي الذي عاد من الهند (٦٢٢ هـ) بعد أن فر إليها أمام جيوش

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٢.

جنكيز خان، بدلاً من توجيه اهتمامه وأخذه الحيطة لدرء خطر المغول، نراه يجمع فلول جيش أبيه علاء الدين خوارزمشاه محمد، ويعيد سيطرته على العراقين العربي والعجمي ويحارب أمراءهما ويخرب أرضهما وينهب أموالهما[1]؛ بل يهدد بغداد نفسها،حتى اضطر أمراء المسلمين إلى محاربته في السنة نفسها، فنرى الملك الأشرف ابن الملك العادل الأيوبي يتفق مع كيفان بن كيخسرو صاحب سلطنة الروم على محاربة جلال الدين منكبرتي ويحلان به الهزيمة، وفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١/١٢٣٢ م) أغار المغول على جلال الدين منكبرتي وهزموه هزيمة منكرة، ففر إلى الجبال حيث قتل على يد أحد الأكراد كما تقدم[2].

هذا في المشرق الإسلامي. أما في الولايات الإسلامية الأخرى فقد كانت الجزيرة ومصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي. ولكن انقسام الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل أخي صلاح الدين سنة٦١٥ هـ بين أولاده الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب، وتهديد الدويلات الصليبية التي كانت لا تزال قائمة في سوريا وفلسطين لسوريا ومصر، كل ذلك حال دون إقامة حلف إسلامي يستطيع الوقوف في وجه المغول؛ لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حدثاً مفاجئاً، وإنما كان نتيجة حتمية لضعف العالم الإسلامي وإتاحة الفرصة للمغول لشن غاراتهم وغزو البلاد الإسلامية الذي بدأ في سنة ٦١٧ هـ.

(٤) جنكيز خان:

(أ) الياسا

لما مات يسوجاي سنة ١١٧٥ م آلت السلطة إلى ولده الصغير «تيموجين» (Timûjin) ولم يكن قد ناهز الثالثة عشرة من عمره كما لم يكن قد تلقب بعد بذلك اللقب الرفيع وهو «جنكيز خان». ولقد صرف «تيموجين» السنين الأولى من عهده في ترقية آلاته الحربية وضم المغول والقبائل المتصلة بهم في جيش واحد منظم.

قضى تيموجين ثلاثين سنة في نزاع متصل مع أعدائه في الداخل، استطاع فيها أن يفرض سلطانه على قبيلته وعلى القبائل المجاورة لها، ثم وجد الطريق مهيأة والظروف مواتية لكي يحقق مطامعه في توسيع رقعة إمبراطوريته على حساب البلاد الإسلامية.

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٤٣ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٥٣.

وفي سنة ١٢٠٦ م أقام تيموجين وليمة لرؤساء القبائل، وأعلن الشامان أو القسيس الأعظم في هذا الحفل العظيم الذي جمع أمراء البلاد ونبلاءها أن السماء قد خلعت على تيموجين لقباً أرفع من اللقب الذي كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح من الآن «جنكيز خان» أي الملك صاحب القدرة والبطش. وبذلك بدأ جنكيز خان في سن الثالثة والأربعين يحكم البلاد دون منازع[١].

ولما أمن جنكيز خان شر أعدائه فكر في ترقية حالة بلاده الاجتماعية والخلقية بوضع قانون يكون أشبه بكتاب ديني يسيرون على هديه في معاملاتهم وأحكامهم، فوضع لهم «اليساق» أو «الياسة». وقد روى المقريزي[٢] خلاصة هذا اليساق نقلاً عن أحمد بن البرهان الذي اطلع على نسخة منه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. وكذلك ذكر القلقشندي[٣] أن السياسة كلمة مغولية أصلها «ياسة»، فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سيناً فقالوا سياسة، وأدخلوا عليها الألف واللام؛ فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها إلا ما قلت لك، واسمع إذن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام، وذلك أن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق لما غلب «أونك خان» وصارت له دولة، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه «ياسة»[٤]، ومن الناس من يسميه «يسق» والأصل في اسمه «ياسة». وياسة كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعي[٥].

ومما شرعه جنكيز خان في هذا اليساق؛ «قتل الزاني، ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد، أو دخل بين شخصين يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر. ومن بال في الماء أو على الرماد قتل، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها قتل بعد المرة الثالثة، ومن أطعم

---

(١) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 203-206

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٢٠.

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢٠.

(٤) وقد قيل إنه لما تم وضع هذا الكتاب أمر جنكيز خان بكتابته ونقشه في صفيح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده.

(٥) ومن ألفاظ ياسة: سهياسة ومعناها القوانين الثلاثة، سه: معناها ثلاثة، وياسة بالتركية معناها القانون الاجتماعي، وسهيسق وسهياق كلمة واحدة لمعنى واحد. ومما يؤكد أن كلمة سياسة ليست عربية الأصل عدم ذكرها في القرآن الكريم ولا في اللغة المنقولة عن الاعراب.

أسيرقوم أو كساه بغير إذن قومه قتل. ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل».

ومما شرعه جنكيز خان أيضاً «أن تكتف قوائم الحيوان ويمرس (أي يدلك قلبه) إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه» ومن ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح، ومن وقع ثوبه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد وجب عليه أن ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله إياه كان جزاءه القتل، ومن أحكام اليساق الأساسية تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة ما. كما شرط ألا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب مؤنة ولا كلفة، وألاّ يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء والأطباء ومن عداهم من أرباب العلوم وأهل التقشف والزهد والتعبد والمؤذنين ومغسلي الأموات شيء من ذلك. وألزم الناس ألا يأكل أحد من طعام غيره حتى يأكل منه أولاً ولو كان أميراً ومن يناوله أسيراً، وألا ينفرد أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يجب أن يشركه في طعامه. وألا يتميز أحد بالشبع على أصحابه. وإن مر أحد بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم أن يمنعه الطعام، وألزمهم ألا يدخل أحد يده في الماء بل يتناوله بشيء، ومنعهم من غسل ثيابهم حتى تبلى، كما منعهم أن يفرقوا بين الطاهر والنجس. وحرم تفخيم الألفاظ ومنح الألقاب، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه باسمه المجرد. كما ألزم جنكيز خان قواده بعرض العساكر والأسلحة إذا أرادوا الخروج للقتال، وأن يعرض كل واحد ما معه حتى الإبرة والخيط، فمن وجد أنه قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه عوقب. وألزم نساء العسكر بالقيام بما على الرجال من الواجبات عند غيبتهم كلفة يقومون بها للسلطان. وألزمهم عند رأس كل سنة أن يعرضوا بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن من يشاء لنفسه أو لأولاده. واتخذ أمراء العسكر وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات.

ومما شرعه جنكيز خان في اليساق أنه إذا أذنب أحد الأمراء ولو كان كبيراً وبعث إليه السلطان رسولاً لينزل به عقابه، وجب عليه أن يسرع إلى تنفيذ طلب الرسول وهو خاضع ذليل حتى ينفذ فيه العقوبة التي أمر بها الملك، ولو كانت العقوبة تقضي بإزهاق روحه. كما ألزم الأمراء ألا يترددوا على غير الملك، ومن تردد منهم على غيره قتل. وأقام جنكيز خان البريد حتى يقف على أخبار بلاده أولاً فأولاً، وعهد إلى ابنه جغطاي بالإشراف على تنفيذ ما جاء في اليساق، ويقول المقريزي[1] في ذلك: «فلما مات جنكيزخان التزم من بعده من أولاده

(١) خطط ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١.

وأتباعهم حكم الياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه».

ولا شك أن هذه الشريعة التي وضعها جنكيز خان قد ساعدت على تقدم المغول من النواحي العسكرية والاجتماعية، كما حرمت التعرض للأديان والملل وحالت بذلك دون قيام الاختلافات الدينية أو المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من المصائب والويلات. هذا إلى أن هذه الشريعة قد ساعدت على وجود جند قوي مزود بكامل العدد والعدة، وقواد لا يعرفون غير طاعة السلطان وحب الوطن. وجعلت من النساء عنصراً يعتمد عليه في وقت الحاجة، كما جعلت المغول شعباً بصيراً بعواقب الأمور يربأ بنفسه عن عيوب المجتمع وشروره، نشأ على المبادىء الديمقراطية السليمة التي لا تعنى بالألقاب ولا تميز بين الناس مهما اختلفت طبقاتهم وتباينت صفاتهم.

أما عن تحريم اليساق التمييز بين النجاسة والطهارة، فلعل من نتائجه عدم غسل الثياب إلى أن تبلى، ولعله يرمي من وراء ذلك إلى تعويد شعبه التقشف في المعيشة وتركه الترف الذي يجر إلى الضعف فيفسد الروح العسكرية، وأما رفع المؤن عن أولاد علي بن أبي طالب وتعظيمه لأهل الدين من المسلمين، فلعل جنكيز خان كان متأثراً بالشيعيين الذين كانت بلاده تحيط بهم في كثير من جهات إمبراطوريته، ثم إنه أراد بذلك آخر الأمر أن يتودد إلى المسلمين بتعظيم آل نبيهم ورجال الدين عندهم، في الوقت الذي كان يعمل على الاستيلاء على بلادهم، مؤملاً أن يلقى تأييد رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في ذلك العصر.

وعلى الرغم مما نأخذه على «اليساق» في بعض النواحي، فلا شك أنه يعتبر أساساً صالحاً لبناء النظم الإدارية والاجتماعية عند المغول، كما أنه يعد خطوة تطورية في ديانتهم، ويعتبر كذلك متأثراً في بعض النواحي بالديانات السماوية، كتحريم الزنا والقتل والغدر والكذب ونحو ذلك إذا عرفنا أن ديانتهم القديمة كانت لا تحرم شيئاً؛ لذلك استطاع جنكيز خان بأحكام اليساق أن ينشر نفوذه في البلاد الصينية والإسلامية.

(ب) غزوات جنكيز خان:

(١) رأي المؤرخين في غزوات جنكيز خان

كانت الغارات التي شنها المغول آخر الغارات التي شنتها القبائل الرحالة على مدنيات الشرق والغرب، تلك المدنيات التي كانت تختنق تحت أدران الترف والعبودية، على حين كانت الشعوب الرحالة تتقدم من حيث التفكير وتعبئة الجيوش واستعمال آلات الحرب، وتنساب من بلادها كالسيل يغمر تلك المدنية البالية ويسير بالعالم نحو عهد جديد.

وبينما كان جنكيز خان مشتغلاً بمحاربة إمبراطورية كين في بلاد الصين قَتَلَ خوارزمشاه سفراءه فحوّل إمبراطور المغول وجهه شطر بلاد خوارزم الإسلامية، وانسابت فرسانه فيها مزودين بأحسن أنواع السلاح، كما كان لديهم البنادق والبارود وآلات الحصار التي أخذوها عن الصينيين، ومن ثمَّ نزلت بالمسلمين وأمم الغرب الطامة الكبرى والمصيبة العظمى.

وقد وصف سير توماس أرنولد(١) ما قام به المغول من ضروب الوحشية في غزواتهم للبلاد الإسلامية في هذه الكلمات «لا يَعْرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول؛ فلقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قُنَن الجبال، واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء، فبعد أن تحوَّل جيش المغول عن مدينة هَراة خرج أربعون ألفاً من أهليها من مخبئهم، فراراً من الموت، وكان هؤلاء التعساء هم البقية الباقية من سكانها الذين كان يربو عددهم على المائة ألف، ووقفوا مُهْطعين مُقْنعي رؤوسهم يبكون أطلال مدينتهم، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ. وفي مدينة بخارى التي اشتهرت برجال العلم والورع اتخذ المغول إصطبلاً لخيولهم ومزقوا المصاحف واتخذوا منها وطاءً لدوابهم. كما نفوا من نجا من الأهلين من القتل وجعلوا مدينتهم أثراً بعد عين. وهكذا كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى التي كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية وموطن الأولياء وكعبة العلوم، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد التي ظلت قروناً عدة حاضرة الخلافة».

يقول «دوسون»(٢): إن تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ووحشيتهم لا تترك إلا صوراً بغيضة. وإن حكمهم كان انتصاراً للفساد والفوضى». ويختلف رأي سير هنري هاوارت عن رأي دوسون، فيقول: إن المغول جنس من الأجناس التي درجت تحت ظلال الفقر وشظف العيش، يجري في دمائهم مزيج قوي من الحديد، ينبعث في فترات منظمة ليقضي على الترف والثراء اللذين سادا في ذلك العصر، ويحطم الفن والثقافة التي لا تترعرع إلا في ظل الرخاء وبسطة العيش والأمن، ويُحوّل هذه الجنان التي جهد الإنسان في غرسها وتعهدها إلى صحراء جرداء مقفرة، فهم أشبه بالوباء والقحط، وأشبه بآلة تدمير وتخريب أتت على شعوب كانت غارقة في بحار الترف والنعيم، ثم ذهبت ضحية غارات

---

(١) The Preaching of Islam, pp. 218-219. ترجمة المؤلف الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) Dr. D'Hosson, Histoire des Mongols Amesterdam, 1834 rome I, pp. 7-8

المغول، كما قال «دوسون» إن الفتوحات المغولية أدت إلى اتصال أمم الشرق والغرب، وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوروبا بتأثير هذه الغارات.

كما يرى «دوسون» أن قصة المغول وإن كانت تثير الأسى والحنق، فهي مع ذلك ضرورية لتفهم مدى التقدم البشري.

ويعجب «ليون كاهون»[١] بنظام المغول الإداري الدقيق وانعدام روح التعصب الديني فيهم، ويطري صفاتهم الحربية التي هي من صفات كل الشعوب التركية.

ومن العقبات التي قامت في سبيل نشر سيادة المغول في كافة أرجاء العالم، تلك المملكة التي كانت تسمى قديماً قَرَة خِطاي أي بلاد الخطا السوداء، وكانت إلى حدود بلاد تركستان الشرقية الحديثة تقريباً، وكان يحكمها جماعة من الأمراء يسمون خانات الغور. وقد فرضت هذه المملكة احترامها على فارس وبلاد ما وراء النهر. على أن جنكيز خان وجنده سرعان ما انقضوا على بلادهم وأصبحت لهم السيادة على أهل كاشغر وبقية إقليم غور خان[٢].

(٥) غزو التتار بلاد خوارزم:

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسي وعلاء الدين خوارزمشاه محمد، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة العباسي الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزمشاه. ولا يبعد أن يكون لذلك ظل من الحقيقة، فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة من قبل، فراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حين أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر، بل لقد أوفد أحدهم الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة. وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببني بويه والسلاجقة وخوارزمشاه هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الفارق بين هؤلاء وأولئك: فقد كان هؤلاء مسلمين على حين كان التتار وثنيين، بيد أن هذا العامل الديني لا يضعف من صحة هذه الرواية، إذا لاحظنا أن الخليفة لم يبال بما فعل لتخليص ملكه، وأنه كان يرمي من وراء عمله إلى شغل خوارزمشاه بالتتار ليكفي شره، ولم يكن يتوقع أن هؤلاء التتار يستطيعون

---

(١) Introduction à L'Histoire d'Asie Turks et Mongols, des origines à 1405, pp. 79, 111-118.

(٢) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 203-204

الوصول إلى بلاده، لبعد الشقة ووقوف جند خوارزمشاه القوي في سبيلهم.

ولكن ابن الأثير[١] يذكر أن غزو التتار بلاد خوارزم وتوجيه أنظارهم للبلاد الإسلامية يرجع إلى سوء التفاهم الذي وقع بسبب قتل تجار المغول الذين ترددوا على بلاد خوارزم.

وقد توجس خوارزمشاه خيفة من تهديد التتار فأرسل رسله إلى بلاد جنكيز خان ليتفقدوا جيشه ويقفوا على مدى قدرته، فعادوا بعد مدة وأخبروه بكثرة جند التتار، ووصفوا له شدة صبرهم على القتال، وعملهم بأيديهم ما يحتاجون إليه من السلاح. فندم خوارزمشاه على ما فعل، وزاد قلقه من ناحية التتار. ثم جاءته الأخبار بأن التتار قد ساروا لقتاله، فاستشار أحد فقهاء دولته ـ وكان يثق به ويرجع إليه في مهام أموره ـ فأشار عليه بأن يعسكر بجيوشه على ضفة نهر سيحون الذي كان يفصل بين المملكة الخوارزمية وبلاد الترك، وبذلك يستطيع أن يقضي على قوات جنكيز خان بعد أن يكون التعب قد أنهك قواهم لبعد الشقة ووعورة الطريق. ثم عقد خوارزمشاه مجلساً لوزرائه وذوي الرأي في دولته، فأشاروا عليه بأن يترك التتار حتى يعبروا نهر سيحون ويسلكوا ما وراءه من الجبال والوهاد والمفاوز؛ وبذلك يستطيع القضاء على قواتهم.

وكان من أثر إرسال جنكيز خان رسوله إلى خوارزمشاه يتهدده بالحرب، أن قتل خوارزمشاه هذا الرسول وحلق لحى من كان معه من التتار، وجمع عساكره وقصد تخوم تركستان وانقض على بلاد التتار بعد مسيرة أربعة أشهر، فلم يلق إلا جموعاً قليلة تخلّفت مع النساء والصبيان والأطفال لاشتغال الجند بمحاربة أحد ملوك التتار، فأوقع بهم وغنم ما معهم. ولما علم التتار بما فعل خوارزمشاه أدركته طائفة منهم تحت قيادة أحد أولاد جنكيز خان قبل أن يخرج من بلادهم، واقتتل الفريقان ثلاثة أيام كاملة، «واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته»[٢]. على أن هذه الحرب لم تنجل عن انتصار أحد الفريقين، فعاد التتار إلى بلادهم، وعاد المسلمون إلى بخارى، وأخذ خوارزمشاه يعد العدة لقتال التتار، وعسكر بالقرب من مدينة بلخ.

أما التتار فقد يمموا شطر بلاد ما وراء النهر حتى وصلوا إلى مدينة بخارى بعد وصول خوارزمشاه بخمسة أشهر، وكان بها عشرون ألفاً من جند خوارزمشاه، ففارقوا المدينة، فدخلها جنكيز خان في ٤ ذي الحجة سنة ٦١٦ هـ وقتل الجند الذين اعتصموا بالقلعة عن

(١) الكامل ج ١٢ ص ٢٣٦.
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٣٨.

آخرهم وأخرج الأهالي لا يملكون سوى ثيابهم التي عليهم. ثم نهب جنده المدينة وأسروا من بقي بها من الأهالي واقتسموهم، وقد آثَرَ كثير منهم القتل حتى لا يرى ما نزل بإخوانه من كرب وبلاء. ثم ألقى التتار المنابر والمصاحف في الخندق، وأشعلوا النار في المدارس والمساجد وغيرها من المباني حتى أصبحت بخارى كأن لم تَغْن بالأمس[١].

رحل التتار بعد ذلك نحو سمرقند قصبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء والأدباء ومعين الثروة والرخاء، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى مشاةً على أقبح صورة، وقتلوا منهم من أعياه المشي. وكان بسمرقند خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه، ارتجفت قلوبهم وخارت قواهم لما علموه من فظائع التتار الذين قدّموا فرسانهم، ومن بينهم الرجالة والأسرى والأثقال، ومع كل عشرة من الأسرى علم، فزاد هذا في مخاوف أهل المدينة، وكانوا في عدد كبير ذكر ابن الأثير أنه بلغ سبعين ألفاً، واشتبكوا مع رجالة التتار، فارتد هؤلاء، فتبعهم أهل المدينة، ولم يدروا أن الأعداء قد وضعوا لهم كميناً، حتى إذا ما جاوزوه خرج عليهم هذا الكمين من مخبأه، فحال بينهم وبين المدينة، ورجع الباقون الذين قاتلوهم أولاً، وحاصرهم التتار من كل ناحية وقتلوهم عن آخرهم.

وقد تفاقمت مخاوف الجند الخوارزميين لهذا الانكسار الذي حل بأهل سمرقند، وطلبوا الأمان من التتار ظناً منهم أنهم يبقون عليهم لأنهم كانوا أتراكاً مثلهم. ومن ثم خرجوا في أهلهم وأموالهم، فطلب منهم التتار أن يسلموا سلاحهم وأموالهم ثمناً لأمانهم. ثم وضع التتار السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً؛ فأحرقوا الجامع، واستولوا على الأموال وسبوا الأهلين، وقتلوا الشيوخ والعجزة، وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧ هـ.

وقد بلغ من خوف جند الخوارزميين من التتار أن أصبحوا بحيث لا يستطيعون مواجهتهم، ويحدثنا ابن الأثير أن خوارزمشاه علاء الدين محمد أسل مرة عشرة آلاف من الجند ومرة عشرين ألفاً فلم يجرؤوا على مواجهة التتار وعادوا أدراجهم.

ولما تم للتتار فتح بخارى وسمرقند عولوا على القبض على خوارزمشاه، فبعث جنكيز خان عشرين ألفاً من خيرة جنده وقال لهم: «اطلبوه ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه»، فسار هؤلاء الجند ميممين غربي خراسان، ومن ثم أُطلق عليهم اسم التتار المغرِّبة تمييزاً لهم عن سائر طوائف التتار، فوصلوا إلى مدينة قِنْج آب (أي الخمس مياه)،

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

فلم يجدوا هناك سفناً يعبرون عليها، فعملوا صناديق كبيرة من الخشب ألبسوها جلود البقر حتى لا ينفذ إليها الماء ووضعوا فيها الأسلحة والأمتعة، ثم سيروا الخيل في الماء وأمسكوا بأذنابها وشدوا تلك الصناديق إليهم، فكانت الخيل تجذب الرجل والرجل يجذب هذه الصناديق، وبذلك أمكنهم العبور دفعة واحدة.

نيسابور ومازندران:

ولما علم المسلمون بذلك تفرقوا أمام التتار، وهرب خوارزم شاه في بعض خاصته إلى نيسابور، فقصده التتار ولم يتعرضوا بشيء لأهالي البلاد التي مروا بها، إذ كان همهم اللحاق به. فلما أحس خوارزم شاه بقربهم هرب إلى مازندران، فاقتفى التتار أثره من غير أن يعرجوا على نيسابور. وهكذا أصبح خوارزمشاه يتنقل من بلد إلى بلد والتتار المُغَرِّبون في إثره، حتى وصل أخيراً إلى الري ثم إلى همذان ثم إلى حدود العراق، فلما جاء التتار ملكوها بسهولة لم تكن منتظرة وأعملوا السيف في رقاب أهلها وسلبوا أموالهم[١].

ولما تم للتتار فتح مازندران استأنفوا سيرهم قاصدين بلاد الري في طلب خوارزمشاه وقد فر إليها من مازندران، وقبضوا على أمه، وكانت في طريقها إلى بلاد الجبل هرباً من التتار ومعها من الأموال والجواهر والأمتعة ما لا يدخل تحت حصر وأرسلوها إلى جنكيز خان في قرَه قورم حاضرة ملكه (٦٢٠/١٢٢٣).

ثم دخل التتار بلاد الري على حين غفلة من أهلها فأذاقوهم كل صنوف العذاب وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال، ثم مضوا قُدُماً في طلب خوارزمشاه فنهبوا ما صادفوه في طريقهم من القرى والمدن ومثلوا بأهلها.

ثم وصل التتار إلى همذان، وكان خوارزم شاه قد وصل إليها، فغادرها وخرج والي المدينة إلى التتار، فقدم إليهم الأموال والثياب والدواب وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى طلبه. ثم ساروا إلى زنجان ثم إلى قزوين فدخلوها عنوة وتقاتلوا مع الأهالي بالسكاكين وقتلوا منهم زهاء أربعين ألفاً.

وقد قصد التتار بعد ذلك أذربيجان فصالحهم صاحبها على مال ودواب، وكان منصرفاً إلى اللهو وإدمان الشراب ليلاً ونهاراً. وكانت أذربيجان في عهد العباسيين من الأقاليم القليلة الأهمية، ولم تقم لها قائمة سياسية إلا عندما هبت ريح المغول. ذهب التتار إلى أذربيجان فراراً من البرد والثلوج والأمطار، فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان

(١) ابن الأثير: ج ١٢ ص ٢٤٣.

فصالحهم، ثم يمموا ناحية البحر لقضاء الشتاء لقلة البرد وكثرة المراعي، فوصلوا وهم في طريقهم إلى بلاد الكرج وأوقعوا بأهلها وقتلوا أكثر جندها، فأرسل الكرج إلى صاحب أذربيجان في طلب الصلح والاتفاق على قتال التتار، كما تعاهدوا مع صاحب بلاد الجزيرة ويدعى الملك الأشرف ابن الملك العادل وأعدوا العدة لقتال العدو المشترك إذا ما انصرم الشتاء وحل الربيع. ولكن التتار لم يلبثوا أن تحركوا من مشتاهم قبل حلول الربيع قاصدين بلاد الكرج، وانضم إليهم كثير من التركمان والأكراد لمشاركتهم إياهم في الجنس.. وتقدم التتار نحو بلاد الكرج، فنهبوا أهلها وقتلوهم، ثم واصلوا السير نحو تفليس (حيث أدركهم التتار)، فهزموا أهل هذه البلاد هزيمة منكرة وقتلوا منهم عدداً لا يحصى (ذو القعدة سنة ٦١٧ هـ). وفي ذلك يقول ابن الأثير[1]:

«ولقد جرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه؛ طائفة تخرج من حدود بلاد الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان، وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة، ينكرها ويستبعدها والحق بيده، فمن استبعد ذلك، فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في زماننا في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة واستوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها... يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم... ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت مثلما دفعوا إليه الآن. وتعدّت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك. هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها ثم إلى الري وبلد الجبل وأذربيجان [كذا]. وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال، ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها. وباقي ديار مصر على خطر، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

كان ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) معاصراً لغارة المغول، وكان صديقاً لابن الأثير، وقد استطاع أن ينجو بنفسه من غاراتهم، وأن يخلف لنا صورة واضحة لما كانوا يلقونه في النفوس من رعب وفزع، كما يتضح ذلك من إشاراته المتفرقة في كتابه «معجم البلدان» وفي خطاب أورده ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان، وقد وجهه ياقوت[2] إلى القاضي الأكرم

(١) الكامل ج ١٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) دون القفطي صورة هذا الخطاب في كتابه الذي سماه «إنباء الرواة على أنباء النحاة» ونقله ابن خلكان =

جمال الدين أبي الحسن علي الشيباني القفطي وزير صاحب حلب في كتابه الذي أرسله إليه من الموصل في سنة ٦١٧ هـ على أثر وصوله إليها من خوارزم هارباً من التتار يصف فيها ما حل بخراسان من التخريب والتدمير ولأهلها من الخطوب والويلات وما تعرض له من الأخطار حتى وصل إلى الموصل، كما عبر ياقوت عن أسفه العميق وحزنه الدفين لتركه مدينة مرو الزاهرة العامرة بمكتباتها، وقال إن ما اشتملت عليه من الكتب النادرة قد أنساه الأهل والأحباب والوطن والأصحاب. ثم وصف الرخاء والعمران اللذين كانت تنعم بهما خراسان حتى أصبحت شبيهة بجنة المأوى ورياض الخلد. ومما قاله ياقوت:

«فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر، وتفت في العضد، وتشيب الوليد وتنخب لب الجليد، وتسود القلب وتذهل اللب، فحينئذ تقهقر المملوك[١] على عقبه ناكصاً ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً . . . فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار. إلخ»[٢].

(٥) وفاة جنكيز خان:

وفي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٣ م) مات جنكيز خان وكان في الستين من عمره بعد حياة حافلة بالنصر والظفر. وكان، كما يقول لينبول: قد أسس في مدى عشرين عاماً أوسع إمبراطورية شاهدها العالم وأقامها مقتفياً في ذلك السياسة التي رسمها له أبوه من قبل[٣]. وكانت إمبراطورية المغول إمبراطورية حربية إدارية كما هو الشأن في جميع الدول التي أسسها أقوام من الرُحل. وكانت كافة السلطات تتركز في شخص الملك، كما كانت علاقة الدولة برعاياها تقوم على أساس فرض الضرائب للإنفاق على الجيش. ويكفي أن نقول إنه بعد الثلاثين سنة التي قضاها «جنكيز خان» في ذلك الصراع العنيف ضد أعدائه في الداخل، والتي استطاع خلالها أن يثبت دعائم سلطانه على عشائره وعلى العشائر المجاورة على الرغم مما قام في سبيله من الصعاب وما دبر له من المؤامرات؛ على الرغم من هذا كله وجد جنكيز خان نفسه قادراً على تكريس العشرين سنة الباقية من حياته في سبيل تحقيق أغراضه الواسعة وأطماعه الكبيرة[٤].

في كتابه وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨٧ - ١٨٨ في ترجمة ياقوت الحموي.

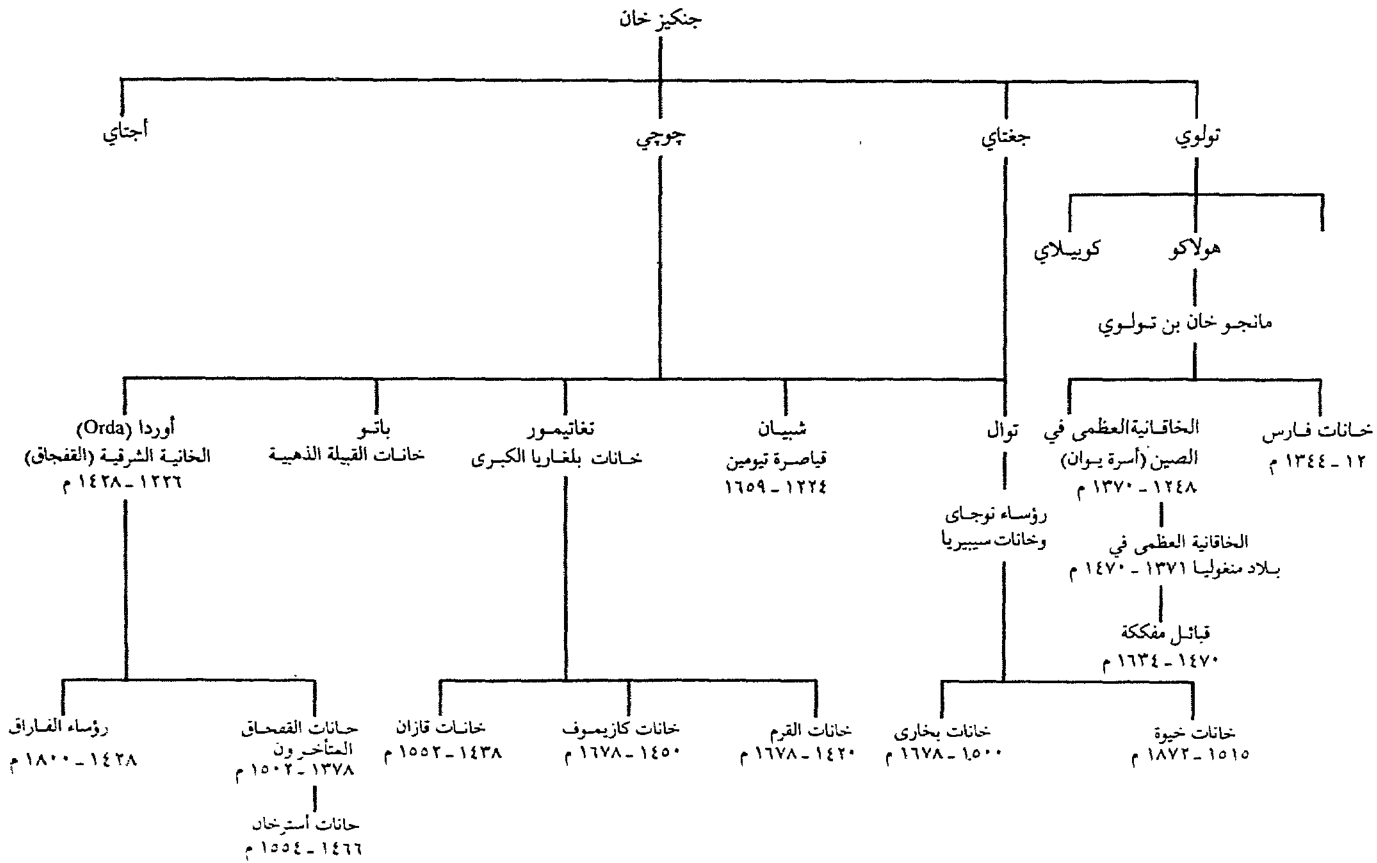
(١) يتكلم ياقوت عن نفسه ويصف حاله وما صادفه من أخطار.

(٢) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٥٢ - ٥٥٣.

(٣) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p.202.

(٤) Lane-Poole, Op. Cit, p. 206

القبائل المغولية وبطونها



وقد استعان جنكيز خان في إدارة إمبراطوريته الواسعة برجل من إمبراطورية كين ذي كفاءة نادرة وهو Yeliu Chuisei، وكان ملماً بالتقاليد والعلوم الصينية جديراً بالاضطلاع بمهام دولة المغول بعد وفاة جنكيز خان، كما كان بلا ريب أحد أبطال السياسة الذين عرفهم التاريخ. وكان ليليوشتسي أكبر الأثر في تحسين العلاقة بين خانات المغول وبين رعاياهم، كما أنقذ كثيراً من المدن والآثار الفنية من الدمار، وجمع السجلات والنقوش مما ينهض دليلاً على ولعه بالعلوم والفنون، حتى إن منافسيه حين اتهموه بالرشوة لم يجدوا عنده إلا بعض الآلات الموسيقية والوثائق التاريخية الهامة.

وإلى يليوشتسي وإلى جنكيز خان يرجع الفضل في ترقية الآلات الحربية وبلوغها حد الكمال، هذا إلى ما امتاز به عهد جنكيز خان من ذلك التسامح الديني الذي ساد كل أرجاء آسيا.

خاقانات المغول

	هجرية/ميلادية
جنكيز خان	٦٠٣/١٢٠٦
أجتاي	٦٢٤/١٢٢٧
توراكينا (فترة بين موت أجتاي، وكيوك)	٦٣٩/١٢٤١
كيوك	٦٤٤/١٢٤٦
مانجو	٦٤٦/١٢٤٨

أسرة يِنْ Yuen

كوبيلاي	٦٥٥/١٢٥٧
أولجايتو	٦٩٣/١٢٩٤
كويوك	٧٠٦/١٣٠٧
بُيانتو	٧١١/١٣١١
جِجِن إلى توغان تيمور	٧٢٠ - ٧٣٢/١٣٢٠ - ١٣٣٢

الإمبراطورية المنحلة

بليكتو Bilictu	٧٧١/١٣٧٠
أسّو خال إلى دَيان	٧٨٠ - ٨٧٥/١٣٧٨ - ١٤٧٠

قبائل منقسمة

	هجرية/ميلادية
بودي	١٥٤٤/٩٥١
كودانج إلى لنجدان	٩٥٥ـ١٠٤٣/١٥٤٨ـ١٦٣٤(١)

إمبراطورية المغول بعد جنكيز خان

(٦) أجتاي : فتوحه في آسيا وأوروبا:

ظلت حاضرة المغول بعد وفاة جنكيز خان في مدينة «قره قورم» في منغوليا، حيث خلفه ثالث أولاده أجتاي (٦٢٤ ـ ٦٣٩/١٢٢٧ ـ ١٢٤١) فأصبح خاقان إمبراطورية المغول. وقد استاء أتباع جغطاي من تعيين أجتاي خليفة لجنكيز خان، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضي بأن يعين أكبر الأبناء سناً، وعند جلوس أجتاي على العرش وزَّع الهدايا على كبار رجاله، وذبح أربعين فتاة وكثيراً من الخيل على روح أبيه، وفقاً للتقاليد والعادات المرعية عند المغول.

وكان أول ما قام به المغول في عهد إمبراطورهم الجديد أن تعقبوا البقية الباقية من إمبراطورية كين (أو الأسرة الذهبية) حتى دانت كلها لسلطانهم في سنة ١٢٣٤م، بعد أن حكمت البلاد الشمالية من بلاد الصين أكثر من قرن. وقد ساعدت المغول في تلك الحروب أسرة سُنج التي كانت على عرش الإمبراطورية في الجنوب، وبذلك سعت تلك الأسرة إلى حتفها بظلفها بانضمامها إلى المغول ضد إمبراطورية كين إذ وهنَتْ قوتها أمام ذلك العدو الغاشم، ولم ينس أجتاي أن فتوحات أبيه في غربي آسيا تضطره للاحتفاظ بسيادته على مملكة خوارزم، برغم عنايته أول الأمر بتوسيع إمبراطوريته في أخصب بقاع الصين وأغناها، وأصبح يشعر بهذا الواجب ويجعله نصب عينيه منذ رجوع جلال الدين منكبرتي من الهند واسترداده البلاد التي ورثها عن أبيه وتقدمه غرباً حتى وصل إلى تفليس وكيلات.

حينئذ أرسل أجتاي إلى جلال الدين قوة مكوّنة من ثلثمائة ألف مقاتل، وتعقب هذا الجيش المغولي عدوه في سرعة عجيبة، ولكن جلال الدين كان قد هرب إلى جبال الأكراد حيث قتله أحد الفلاحين؛ وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم. وقد جعل المغول هذا الفتح خطوة لغيره من الفتوح، فاندفعوا نحو الغرب وأغذوا السير، فاحتلوا ديار

(١) Lane - Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 215 - 216.

بكر وإربل وكيلات، ثم تقدموا إلى أذربيجان، وفي العام التالي (١٢٣٦ م) غزوا جورجان وأرمينية الكبرى مرتكبين أقصى الفظائع وأشدها هولاً. ومن المدن التي فتحوها تفليس.

وكان أجتاي قد وجّه في سنة ١٢٣٥ م ثلاثة جيوش في نواح مختلفة: أحدها إلى كوريا، وثانيها ضد أسرة سونج وكانت تحكم ما يلي نهر يانج تسي كيانج، وأرسل ثالثها غرباً نحو شرقي أوروبا، وعلى رأس هذا الجيش الأخير القائد «باتو بن جوجي» أكبر إخوة أجتاي، وقد اتخذ سابوتاي Sebutai مستشاراً له، فسقطت بلغاريا أمام القوة التي على رأسها سابوتاي، على حين تقدم باتو نحو نهر الفلجا. واخترق جند المغول الغابات التي في طريقهم حتى ظهروا أمام ريازان Ryazan أو المدينة الجميلة، وصوّبوا سهامهم إليها، وهدموا أسوارها وخربوا حصونها، ثم استولوا عليها في ٢١ ديسمبر سنة ١٢٣٧ م. وانتقم المغول لمن مات من جندهم في هذه المعارك، فذبحوا الأمير وأمه وزوجه وأولاده وحاشيته وجميع سكان المدينة دون أي اعتبار للجنس أو السن، فمات البعض بالخوازيق والبعض الآخر قتل بالسهام لمجرد التسلية، وسلخ الآخرون أو وضعت تحت أظافرهم المسامير أو شظايا الخشب، وحرق القسيسون في النار أحياء، واختطفت العذارى والراهبات من الكنيسة أمام أقربائهن «حتى لم تبق عين لتبكي على الأموات».

ثم سقطت موسكو في يد الغزاة، وانتقم المغول من أهالي إحدى المدن أخذاً بثأر قوة من جيوشهم أحل بها أهلها الهزيمة، فأحل بهم أتباع «باتو» كل أنواع التعذيب، وأتوا من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان، حتى عرفت هذه المدينة باسم فاتحها Mobalig كما عرفت أيضاً باسم مدينة الويل والثبور.

وعلى أثر هذا الانتصار تقدم المغول نحو كييف Kief أم المدائن الروسية واستولوا عليها عنوة وسحقوا المدينة حتى أصبحت أثراً بعد عين.

ولقد دمر المغول في تلك الحروب الجزء الأعظم من بلاد الروسيا، وانقسم جيشهم إلى فريقين: فريق أغار على بلاد المجر بقيادة «باتو» وأغار فريق آخر على بولندة بقيادة «بيدار Beidar» وكيدو Kaidu. وقد تقدم باتو نحو بست Pest ببلاد المجر دون أن يلقى أية مقاومة في طريقه. فاحتشدت هناك جميع القوى المجرية لمقاومته في تلك المروج الواسعة، فانقض عليهم «باتو» بجيشه في سباتهم وأوقع بهم، وأتى عليهم جميعاً ذبحاً وقتلاً حتى امتلأ الطريق بأشلاء القتلى على مسيرة يومين، ولم يُنقذ الملك بيلا الرابع (Bela) من الموت إلا خفة حصانه وسرعة عَدْوه، فاتبعه نفر من المغول واقتفوا أثره حتى ساحل الأدرياتيك مخربين مدمرين كل ما وجدوه في طريقهم، ومن ثم استولى باتو على بست وعبر

نهر الطونة على الثلج في عيد الميلاد من سنة ١٢٤١ م.

وبينما كان باتو ينعم بانتصاره كانت القوة التي تحت قيادة بيدار وكيدو تشعل النار في بولندة، وقد اتصل بهم نبأ موت أجتاي، واستدعاء باتو للرجوع إلى بلاد المغول في الوقت الذي كان يعمل فيه قواده وجنوده السيف في كل الجهات.

وكان أجتاي مسرفاً في شرب الخمر كما هي عادة الكثيرين من المغول حتى مات بسبب ذلك في ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ م.

(٧) كيوك:

ثم خلف أجتاي ابنه كيوك (٦٤٤ - ٦٤٦/١٢٤٦ - ١٢٤٨)؛ ولا يحفظ لنا التاريخ إلا القليل عن أخباره وأخلاقه، فقد ألقى بزمام الدولة إلى وزيرين من المسيحيين - كما امتلأ بلاطه بالرهبان والعلماء من المسيحيين أيضاً، وشيد كنيسة أمام خيمته.

أما عن معاملة كيوك لفقهاء المسلمين في بلاطه فقد روى الجوزجاني عن بعض الثقات أن البوذيين طالما أوغروا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم. وكان في هذه البلاد أحد الأئمة الذين اشتهروا بالعلم والورع بين المسلمين، وهو نور الدين الخوارزمي. وقد التمس من كيوك بعض القسس من المسيحيين وفريق من قسيسي عُبّاد الأوثان من البوذيين أن يستدعى ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه طالبين منه إقامة الحجة على تفوق الدين الإسلامي وإثبات رسالة محمد (ﷺ) وإلا كان مصيره القتل إن هو أعيته الحجة. وقد أجابهم الخان الأعظم إلى طلبهم وأرسل في طلب الإمام؛ وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد للنبوة وسلوكه في حياته، مع موازنته بسلوك غيره من الرسل. ولما كانت أدلة هؤلاء ضعيفة وخالية من كل وسائل الإقناع؛ نفضوا أيديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ولجأوا إلى طرق العنف، وسألوا كيوك أن يسأل هذا الإمام أن يسجد سجدتين وفق الأحكام الإسلامية والتعاليم المحمدية حتى تتبين أمامهم وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة (في نظرهم). فأمر كيوك ذلك الإمام ومن معه بالصلاة، فخروا على الأرض سجداً، فقام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك وأهانوهم وأخذوا يضربون الأرض برءوسهم، كما اقترفوا معهم بعض الأعمال المخزية. على أن الإمام ومن معه لم يأبهوا لكل هذا واستمروا في صلاتهم من غير أن يقطعوها. ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم، رفع رأسه نحو السماء قائلاً: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية﴾(سورة الأعراف ٧: ٢٠٥).

ثم طلب كيوك أن يؤذن له بالانصراف وعاد إلى داره هو ومن معه[1].

(١) Raverty, p. 1160 et seq.

يقول سير توماس أرنولد(١): «ولكن على الرغم من هذه المصاعب، أذعن المغول(٢) والقبائل المتبربرة التي دانت بدين هذه الشعوب الإسلامية التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم. ولا بد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين في طي الخفاء لجذب هؤلاء الكفار إلى حظيرة الإسلام».

(٨) مانجو خان:

وكان من حسن حظ أوروبا أن قامت الاضطرابات والفتن في بلاط قره قورم سنين عدة، ومن ثم ظهرت على تلك الإمبراطورية مظاهر التفكك وعوامل الانحلال. ففي سنة ١٢٥١م أصبح مانجوخان بن تولوي (٦٤٦ ـ ٦٥٥/١٢٤٨ ـ ١٢٥٧) خاقاناً على بلاد المغول.

وبعد سنتين من توليته على العرش زار بلاطه وليام روبرك (William of Rubruk) وغيره من الرهبان المسيحيين، حيث استقبلوا بمظاهر الإكرام والحفاوة. وقد وصف روبرك هذا قصر مانجو خان في «قرة قورم»، ومن هذا الوصف نقف على البون الشاسع بين حياة القصور وبين الحياة الرعوية التي كان يعيشها أسلافه. فكان قصره محاطاً بأسوار مبنية بالآجر، وبطرفه الجنوبي ثلاثة أبواب، والقاعة الوسطى تماثل الكنيسة. ويحتوي هذا القصر على ما يشبه صحن الكنيسة، ويفصل جناحي القصر ردهة فسيحة، تتوسطها عمد مرفوعة كان يجلس فيها رجال البلاط. وأمام العرش شجرة من الفضة على حافتها السفلى أربعة أسود يخرج من أفواهها الخمر والنبيذ، فتنصب في أربعة أحواض من الفضة، وفي أعلى الشجرة تمثال من الفضة يضرب البوق لملء خزانات تلك الينابيع الأربعة إذا ما نضب خمرها.

وقد عين مانجو خان أخاه كوبيلاي خان حاكماً عاماً على بلاد الصين. وفي عهده أخضعت كافة بلاد إمبراطورية سنج (بضم السين وسكون النون)، وبإخضاعها غدا المغول في البلاد الشرقية صينيين من حيث ثقافتهم ونظمهم، كذلك غزا مانجو خان بلاد التبت وخربها، كما ولى أخاه هولاكو قيادة حملة لغزو بلاد فارس وسورية.

---

(١) The Preaching of Islam, pp. 226-227

(٢) كانت ثلاثة أرباع الجيوش المغولية أتراكاً في القرن الثالث عشر للميلاد.

(٩) كوبيلاي خان :

خلف مانجو خان أخوه كوبيلاي (٦٥٥ - ١٢٥٧/٦٩٣ ـ ١٢٩٤) بعد سنة من وفاته قضاها زعماء المغول في العودة من أطراف تلك الإمبراطورية النائية : من بلاد المجر وسورية والصين إلى حاضرة الإمبراطورية، حيث انعقدت جمعية الأعيان لانتخاب خلف لمانجو خان، وأصبح كوبيلاي خان الخان الأعظم. وكان قبل اعتلائه العرش شديد الاهتمام بشئون بلاد الصين، فاتخذ بكين حاضرة لملكه بدلاً من قرة قورم، واستقل هولاكو ببلاد الفرس وسورية وآسيا الصغرى، على حين توزعت جيوش المغول في بلاد الروسيا وما يليها من بلاد آسيا، وكذا بعض الكتائب الصغيرة في بلاد تركستان. وفي عهد كوبيلاي سقطت مدينة بغداد على يد هولاكو.

(١٠) سقوط بغداد :

وبعد أن أتم هولاكو إعداد حملته، سار ميمماً نحو الغرب. ولم يكد يصل إلى بلاد تركستان وما وراء النهر حتى قدم إليه أمراؤها فروض الطاعة والولاء، ثم وجه همه إلى القضاء على طائفة الباطنية في فارس، فأرسل إلى ملوك إيران كتباً يدعوهم فيها إلى مساعدته. ومما جاء في هذه الكتب: «جئنا بأمر الخان الأعظم لتخريب حصون الإسماعيلية وقتل هذه الفئة ومحوها من الوجود، فإذا أتيتم إلينا ووافقتم على مشروعنا بتقديم المساعدة من الرجال والذخائر وآلات الحرب، فإني أعدكم بالبقاء في بلادكم آمنين تتمتعون بقصوركم وجيوشكم، أما إذا أظهرتم العكس سرت إليكم بعد إتمام مشروعي بعون الله وخربت بلادكم دون الالتفات إلى ما تقدمونه من الأعذار»(١).

وعلى أثر وصول هذه الكتب إلى الملوك خرجوا لمقابلة هولاكو محملين بالهدايا، وأتت إليه الرسل من العراق وخراسان وأذربيجان وجورجيا، فرحب بقدومهم. ثم عبر هولاكو نهر جيحون ونزل بحدائق طوس، ومنها سار إلى قلاع طائفة الإسماعيلية. وهناك دارت بينه وبينهم معركة انتهت بهزيمتهم وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله.

انتصر هولاكو على الإسماعيلية ووصل إلى مدينة همذان التي اتخذها مركزاً لقيادته، ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله كتاباً يعاتبه فيه على عدم إمداده بالجند في أثناء محاربته طائفة الإسماعيلية، .وطلب إليه :

(١) أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه.

---

(١) D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome III, pp. 137-138

(٢) أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدويدار يحملان رسالته إليه.

وختم هولاكو كتابه بقوله إنه اذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقده عليه، وإلا عرض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التي قهرت جيوش خوارزم وإيران(١).

وقد أوفد الخليفة المستعصم شرف الدين بن الجوزي يحمل كتابه إلى هولاكو يدعوه فيه إلى الأقلاع عن غروره والعودة إلى بلاده. ومما في هذا الكتاب: «لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع؛ وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء، كيف تطلب مني طلباً لا تستطيع تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم؟» ثم أخذ الخليفة يذكره بمجد الخلافة فقال: «إن ملايين من الفرسان والرجالة على استعداد للقتال، وهم رهن إشارتي، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر»(٢). ثم ختم الخليفة كتابه بقوله: «فما بالك بخنادق رعيتي وحصونهم؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان. وإن كنت تريد الحرب فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا عزمت، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب»(٣).

وقد حمل شرف الدين بن الجوزي ومن معه من الرسل مع هذه الرسالة بعض التحف والهدايا، فلم يهتم بها هولاكو، وأبدى امتعاضه من العبارات التي تضمنها كتاب الخليفة إليه وقال: «لقد ألقى الله في روع هؤلاء القوم مثل هذه الأوهام»(٤)، ورد على الخليفة برسالة يهدده فيها ويتوعده، ومما جاء فيها: «إنك تركت نهج آبائك، فاستعد للحرب وانتظر جيشاً قوياً، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه بعون الله»(٥).

ولما عاد رسل الخليفة وأدرك ما ينطوي عليه رد هولاكو من تهديد ووعيد، استطلع رأى وزيره ابن العلقمي، فأشار عليه بأن يتألفه ببذل الأموال والنفائس وقال: «ينبغي أن تدفعه ببذل المال، لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس، فيجب إعداد ألف حمل من النفائس وألفاً من نجائب الإبل وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات، وينبغي إرسال التحف والهدايا في صحبة الرسل الكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو وجعل الخطبة والسكة باسمه»(٦).

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٨.

(٢) Quatremère, Histoire des Mongols, p. 335

(٣) جامع التواريخ: المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٤) ابن الأثير: ج ١١ ص ٦٥، جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٧١.

(٥) كترمير ص ٣٣٩.

(٦) جامع التواريخ، المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٧١.

وقد مال الخليفة إلى قبول هذا الرأي أول الأمر، ولكن مجاهد الدين أيبك، وكان يلقب الدويدار الصغير، الذي كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير ابن العلقمي، استمال بعض الأمراء إليه، وبعثوا إلى الخليفة برسالة يقولون فيها إن الوزير إنما رأى هذا الرأي مدفوعاً في ذلك بمصلحته الخاصة، وإنه يعرضهم بذلك إلى البلاء على أيدي المغول، وتعهدوا للخليفة بأخذ الحيطة لدرء خطر هولاكو والقبض على رسله وأخذ ما معهم من الأموال وتعذيبهم بكل ألوان العذاب[١].

وهكذا لم يكن لتبادل المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها. وقد رأى هولاكو الاستيلاء على البلاد التي في طريقه إلى بغداد. ولما تأكد أنه قد أصبح في استطاعته السير إلى هذه المدينة دون تعرضه للمصاعب استطلع رأي الفلكيين، على ما جرت به عادة المغول إذا أقدموا على غزو بلد من البلاد؛ وقد حاول حسام الدين الفلكي، وكان سنياً يعطف على الخليفة، أن يثني هولاكو عن عزمه، وقال له: «إن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على معاداة أبناء العباس والتعرض لمدينة بغداد، زال عرشه وانتهت حياته؛ وإذا أبى الأمير أن يستمع لنصائحي وتمسك برأيه، كان ذلك سبباً في حلول ست مصائب وهي: موت الخيل، وإصابة الجند بأمراض مختلفة، وعدم طلوع الشمس، وانعدام سقوط المطر، وحدوث هزات أرضية يعاني منها العالم، وإقفار الأرض»[٢].

أما نصير الدين الطوسي الذي اشتهر بمؤلفاته في الدين والأخلاق ونظم الحكم والفلك، فقد انضم إلى جانب أمراء المغول الذين تمسكوا بضرورة غزو بغداد، كما استبعد وقوع الكوارث بحاضرة الخلافة على أثر سقوطها. ومما قاله لهولاكو: «إن كثيرين من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ماتوا دفاعاً عن الدين، ومع ذلك لم تقع كارثة من الكوارث، وإن كثيرين من الناس خرجوا على بني العباس ولم يلحقهم أذى. وضرب لذلك مثلاً بطاهر بن الحسين الذي قتل الخليفة الأمين»[٣].

ولما أيقن هولاكو أن في استطاعة قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها في أثناء إقامته بهمذان، وتنحصر في حصار هذه المدينة بجيوشه من جميع النواحي، فأنفذ حملة بقيادة أحد قواده «باجو» لمهاجمة بغداد من ناحية الغرب، وسار هو على رأس فريق من الجيش لمحاصرتها من ناحية الشرق (٦٥٦/١٢٥٧) وبصحبته

---

(١) المصدر نفسه المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٧٢.

(٢) D'Hosson, Tome III, pp. 224-225

(٣) Ibid, Vol III. p. 226.

كثير من من أمراء المسلمين من أمثال أبي بكر سعد زَنْكي أتابك Atabeck شيراز، ونصير السعدي الكاتب والشاعر الفارسي المشهور، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، وسكرتيره الخاص عطا مَلك الجويني صاحب التاريخ المشهور بتاريخ جهان جشا Jahân Gusha ونصير الدين الطوسي الفلكي والحكيم المشهور(١).

ولم يكد هولاكو يبلغ مدينة «دينور» على بعد عشرين فرسخاً من همذان حتى لقيه شرف الدين بن الجوزي رسول الخليفة العباسي ومعه رسالة يهدئه فيها ويعده بدفع جزية سنوية إذا عاد إلى بلاده، غير أن هولاكو لم يعبأ بما جاء في كتاب الخليفة وقال لسفيره ساخراً:

«لقد قطعنا طريقاً طويلاً، فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة؟ إننا بعد أن نتشرف بالمثول بين يديه وبعد أن نتحدث معه، سنسمع أوامره ونعود مباشرة». ثم تابع هولاكو المسير، وأمر «باجو» بأن يسرع إلى عبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب. ولما تمكنت قوات باجو من عبور هذا النهر دارت الحرب بين الفريقين، وحلت الهزيمة بالجيش العباسي في العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ هـ. واستولى باجو وجنده على الجانب الغربي من بغداد ونزلوا في أحياء المدينة على شاطىء نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها.

وكان من أثر انشغال الجيش العباسي بمقاومة المغول الذين هاجموا بغداد من ناحية الغرب أن خلا الجو لهولاكو، فترك معسكره في «خانقين» وتابع سيره إلى بغداد وعسكر من جهة بغداد الشرقية بجند لا يحصى عدده حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه كالجراد المنتشر. وقال ابن كثير(٢) إن هذاالجيش المغولي بلغ مائتي ألف مقاتل. وقد تدفق على بغداد الشرقية كثير من أهالي بغداد الغربية خشية أن ينكل بهم المغول بقيادة باجو. يقول ابن طباطبا(٣):

«وسار الناس من دُجَيل والإسحاق ونهر ملك (بفتح الميم) ونهر عيسى ودخلوا المدينة بنسائهم وأولادهم، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء. وكان الملاح إذا عبر أحد في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زركش أو عدة من الدنانير. فلما وصل العسكر السلطاني (أي جند هولاكو) إلى دُجَيل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس، خرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيش مجاهد الدين أيبك الدويدار، وكان عسكراً في غاية القلة، فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد، فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة، ثم كانت الكرة للعسكر السلطاني فأبادوهم قتلًا

(١) براون، ترجمة ج ٢ ص ٢٨٣.
(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠.
(٣) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨.

ـوأسراً، وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل، فكثرت الوحول في طريق المنهزمين، فلم ينج منهم إلا من رمى بنفسه في الماء أو من دخل البـرية ومضى على وجهـه إلى الشام، ونجا الدويدار في جمعية من عسكره ووصل إلى بغـداد، وسار «بـاجو» حتى دخـل البلد من جانبه الغربي، ووقف بعساكره محاذي التاج، وجاست عساكره خلال الديـار، وأقام محـاذي التاج أياماً .وأما حال العسكر السلطاني فإنه في يوم الخميس رابع المحرم من سنة ٦٥٦ هـ ثارت غـبرة عظيمـة شرقي بغـداد على درب بعقوبـا بحيث عمت البلد. فانـزعج النـاس من ذلـك وصعدوا إلى أعالي السطوح والمنابر يتشوفون، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيولـه ولفيفـه وكراعـه، وقد طبق وجـه الأرض وأحاط ببغـداد من جميع جهـاتهـا. ثم شرعـوا في استعمال أسباب الحصار، وشرع العسكر الخليفي في المدافعة والمقاومـة إلى اليوم التـاسع عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ، فلم يشعر الناس إلا ورايـات المغول ظـاهرة على سـور بغداد من برج يسمى «برج العجمي» من ناحية باب من أبواب بغداد يقـال له «بـاب كلواذي» (بفتح الكاف والذال وسكون الـلام). وكان هـذا البرج أقصـر أبراج السـور، وتقحم (اقتحم على الأصح) العسكر السلطاني هجـوماً ودخـولاً، فجرى من القتـل الذريـع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله؟».

وكـان مـا كـان ممـا لست أذكـره فـظن ظنـاً ولا تسـأل عـن الـخـبـر

هذا ما ذكره «صاحب الفخري» بعد أربع وأربعين سنة من وقوع هذه الكارثة (أي قبـل أن ينتهي من وضع كتابه سنة ٧٠١/١٢٠١)، ولم يكن الفخري ـ كما يقول براون[1] ـ يكتب ما يشاء ويسجل ما يريد، ولكنه كان يكتب مـا يكتب وهو يعلم أنـه يعيش تحت حكم مغولي أيام غازان حفيد هولاكو.

ولمـا رأى الخليفة المستعصم أنـه لا مفر من دخـول المغول مـدينة بغـداد عـول على التسليم، فأرسل رسوله شرف الدين بن الجوزي ثانية إلى هولاكو يحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة معلناً رضاه بالتسليم ووقف القتال. ولـم تمض على ذلك بضعـة أيام حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة. وقد ذكر ابن كثير[2] أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم اشار على الخليفـة بالخـروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتقع المصـالحة على أن يكـون نصف الخراج لهـولاكو والنصف الآخر للخليفة.

وفي يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) خرج الخليفـة لملاقـاة

(١) تاريخ الآداب في إيران. ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٨٧.
(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١.

هولاكو، وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم : ولده الاكبر أبو العباس أحمد، وولده الأوسط أبو الفضائل عبد الرحمن، وولده الأصغر أبو المناقب مبارك، وثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء وأعيان المدينة، ولما اقترب هذا الركب من دار هولاكو حجبوا عن الخليفة ولم يبق معه إلا سبعة عشر شخصاً منهم. ولما أحضر الخليفة بين يدي هولاكو كان الاضطراب يبدو عليه، فقال له هولاكو: «أنت المضيف ونحن الضيوف فأحضر ما يليق بنا».
وقد بلغ من اضطراب الخليفة أنه لم يعد يعرف المكان الذي أودع فيه مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر عدة أقفال، وأحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار وكثيراً من الجواهر والنفائس، فلم يلتفت هولاكو إليها ومنحها كلها للأمراء، ثم قال للخليفة: إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة، وهي ملك عبيدنا، ولكن اذكر ما تملكه من الدفائن، وما هي؟ وأين توجد؟ فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر. فحفروا الأرض، فكان الحوض مليئاً بالذهب الأحمر، وكان كله من سبائك تزن الواحدة مائة مثقال. وقد أحصي نساء القصر فكن سبعمائة بين زوجة وسرية وخادمة(١).

ثم طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بحجة عمل تعداد لهم. فانفذ الخليفة رسولاً من قبله ينادي الناس في طرقات المدينة بأن يلقوا السلاح ويخرجوا من الأسوار. غير أنهم لم يكادوا يلبون طلبه حتى أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتلة. ولما استقر هولاكو بقصر المأمونية شرقي بغداد سمح لجنده بدخول المدينة فعاثوا فيها أسبوعاً كاملاً، وهدموا مساجدها ليحصلوا على ذهب قبابها، وجردوا القصور مما بها من التحف النادرة، وأتلفوا عدداً كثيراً من الكتب القيمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيرا من رجال العلم فيها(٢).

وقد أعمل جند المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم وأهلكوا كثيرين من رجال العلم، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس والربط، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان، وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال. ولما نودي بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى قد نبشت قبورهم، وقد أنكر بعضهم البعض، فلم يعرف الأب ابنه ولا الأخ أخاه، ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصداً ذريعاً، وفسد الهواء وعم الوباء(٣).

(١) جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٢) أنظر Browne, Lit. of Persia, Vol. II, p. 463, seq.، الترجمة ص ٥٨٦.
(٣) ابن القوطي : الحوادث الجامعة في أعيان المائة السابعة ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

وقد انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم.

وقد اختلف المؤرخون في عدد الأنفس التي أزهقتها المغول على أثر دخولهم بغداد، فذهب بعضهم إلى أنها بلغت ثمانمائة ألف، وقدرها السبكي[١] بتسعمائة ألف، وذهب ابن كثير[٢] إلى أنها بلغت مليوناً وثمانمائة ألف، عدا من غرق أو هرب. على أنه لا شك في أن هذه المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة وضاعت الثروة الأدبية والفنية التي عني الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو جعفر المنصور بغداد واتخذها حاضرة لدولته.

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية وزالت الخلافة التي عاش في ظلها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون. ولم تعد بغداد مركز الإسلام ومعين الثروة والرخاء وكعبة العلماء، ولم يحدثنا التاريخ أن حضارة زاهرة كالحضارة الإسلامية في بغداد قد اختفت في مثل هذه السرعة، وأصبحت حاضرة العباسيين طعمة تلتهمها النيران المستعرة وتغرقها الدماء المهرقة.

وقد أمر هولاكو قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم[٣].

وقد أسهب في وصف هذا التخريب عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ١٣٣٨/٧٣٩) في كتابه «مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع» لياقوت الحموي (ت ١٢٢٩/٦٢٩). وقد جمع عبد المؤمن هذا الكتاب حول سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) وزاد عليه وأخرجه في أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣ م)، فأشار في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٦٣) إلى التخريب الذي قامت به الجيوش الفاسية والتركية والمغولية التي كان يخرب كل منها ما بناه من سبقه من السلاطين.

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الدور الذي قام به مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة المستعصم في تسليم بغداد، فبعضهم يرى أن هذا الوزير أثار مخاوف الخليفة من خطر المغول ونصح له بالاستعداد لحربهم، وأخذ الحيطة لدرء خطرهم، وكان هذا الوزير، كما وصفه صاحب الفخري «من أعيان الناس وعقلاء الرجال». إلا أن بعض خاصة الخليقة قللوا من شأن المغول وأدخلوا في روع الخليفة أن وزيره يبالغ في تصوير هذا الخطر

(١) طبقات الشافعية الكبرى ص ١١٥.

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٢.

(٣) انظر Le strange Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 343.

ليفيد من الأموال التي تخصص لتجنيد الجند وتزويدهم بالسلاح. ويتهم الجوزجاني في كتابه طبقات ناصري هذا الوزير بأنه قلل من عدد الجند الذين أسندت إليهم مهمة حماية المدينة وزين للخليفة التسليم إرضاء لأطماعه وانتقاماً للاضطهادات التي تعرض لها الشيعيون على يد ابن الخليفة الأكبر. ولذلك اتفق ابن العلقمي مع نصير الدين الطوسي الذي اتخذه هولاكو وزيراً له والذي كان يدين بعقائد المذهب الشيعي كابن العلقمي على تسليم بغداد للمغول، بل لقد ذهب ابن كثير إلى القول بأن الوزير ابن العلقمي وبني جلدته من الشيعيين قد أشاروا على هولاكو بألا يدخل في صلح مع الخليفة بحجة أن مثل هذا الصلح لن يدوم، بل إنهم حسنوا له قتل الخليفة. كما ذهب هذا المؤرخ[١] إلى القول بأن ذلك كان راجعاً إلى العداء المستحكم بين السنيين وبين الشيعيين الذين نهبت دورهم قبل فتح بغداد على أيدي المغول، فاشتد حنق الوزير ابن العلقمي، كما ذكر السيوطي[٢]، فراسل التتار وأطمعهم بالمسير إلى العراق وفتح بغداد وإزالة الدولة العباسية وإقامة خلافة علوية على أنقاض الخلافة العباسية[٣].

على أن هذه الآراء لا تتفق مع هذه الحقيقة التاريخية وهي أن فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسي يهدف إلى اتساع رقعة إمبراطورية المغول بعد أن تم لهم فتح إمبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وجورجيا والقوقاز والروسيا وبولندة وغيرها. أضف إلى ذلك أن قتل المغول أهل بغداد قد شمل السنيين كما شمل الشيعيين الذين نهبت دورهم في الكرخ وهي محلة الشيعة ببغداد. وإذا كان المغول قد قربوا إليهم ابن العلقمي فإنهم مع ذلك قد تخلصوا منه، إذ أن حياته لم تمتد بعد مقتل الخليفة المستعصم أكثر من ثلاثة أشهر. ومما هو جدير بالملاحظة أن الجوزجاني يغلو في سنيته أكثر مما يغلو ابن طباطبا في تشيعه. هذا إلى ما عرف به الوزير ابن العلقمي من شغفه بالكتب وتقريب العلماء والأدباء، حتى لقد اشتملت مكتبته على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب، وأهداه كثير من الشعراء دواوينهم[٤]. وكان كما يقول ابن طباطبا[٥] «عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً».

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ وما يليها.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠.

(٤) براون: تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ج ٢ ص ٥٨٩.

(٥) انظر كتاب الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

البَاب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة
غير التابعة لحكم العباسيين
أولاً ـ الغوريون والغزنويون

١ ـ ظهور الغوريين:

آذن نجم البيت الغزنوي بالأفول وشهد عصر سنجر زوال هذه الأسرة النهائي على أيدي ملوك الغور الجبليين وهم أفغانيو «فيروزكوه» الأشداء، وكان ظهير الدولة إبراهيم (٤٥١ ـ ١٠٥٩/٤٩٢ ـ ١٠٩٩) جلس على عرش السلطنة حين بدأ الغوريون في الظهور. وقد اتصف هذا السلطان بقوة الشكيمة: فقد حدث نقص شديد في الخبز في غزنة، وأغلق الخبازون حوانيتهم وشعر الفقراء بالعسر والضيق واستغاثوا بالسلطان الذي بعث في طلب الخبازين وسألهم عن سبب ندرة القمح، فأجابوا بأن صاحب المخبز السلطاني احتكر الدقيق لرفع سعره، فأمر السلطان بوضعه تحت حوافر الفيل حتى يموت، وبعد موت صاحب المخبز أمر السلطان بأن يعلق جسمه بين أنياب الفيل ويطاف به في طرقات المدينة. وصدر منشور يعلن للناس أن ذلك هو مصير كل خباز يغلق حانوته. وقد زاد نظام الملك[١] أنه لم يأت مساء ذلك اليوم حتى وضع عند باب كل حانوت من حوانيت بائعي الخبز خمسون مقطفاً (والمقطف يحتوي على مائة رطل من الخبز)، وبلغ الخبز من الوفرة بحيث زهد الناس في شراء أكثره.

مات السلطان ظهير الدولة إبراهيم الغزنوي سنة ٤٩٢ هـ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٢ ـ ١٠٩٩/٥٠٨ ـ ١١١٤). ثم خلفه أبناؤه الثلاثة: شيرزاد (ت ١١١٥/٥٠٩)، وسلطان الدولة أرسلان شاه (٥٠٩ ـ ١١١٥/٥١٢ ـ ١١١٨)، ويمين الدولة بهرام شاه الذي حكم الدولة الغزنوية المتداعية حتى نهاية ١١٥٢/٥٤٧.

---

(١) سياسة نامه (نشرة شيفير) ص ٤٢ نقلاً عن Browne, II. p. 305.

وقد انتهى حكم بهرام شاه بنكبة حلت به، ذلك أنه في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ ارتاب سنجر في ولائه وعدم إخلاصه في الوفاء بوعوده، كما نمى إليه أنه ظلم الناس واغتصب أموالهم، فسار سنجر إلى غزنة[١] وقد أدركه الشتاء واشتد البرد به وبجنده وكثر هطول الأمطار وتعذر وصول القوت للجند والعلوفة للماشية. وما زال سنجر كذلك حتى قرب من غزنة وأرسل إليه بهرام شاه يستعطفه ويسأله الصفح عما بدر منه، فأرسل إليه سنجر يعده بالعفو عنه إذا حضر عنده وعاد إلى طاعته. فأذعن بهرام شاه لأمر سنجر، ولكنه لما قرب من معسكره تملكه الخوف وولى هارباً ولم يعرج على غزنة، فسار سنجر إليها ودخلها وجبى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه يلومه ويحلف له أنه ما أراد به شراً ولا ببلده مطمعاً، وإنما قصده لإصلاحه ورده إلى طاعته. فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتثقل ويقول إن الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع إلى السلطان أن يعفو عنه وأن يسبغ عليه عطفه، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده إليه، وترك غزنة وقفل راجعاً إلى بلده، فوصل إلى بلخ في شهر شوال سنة ٥٣٠ هـ «وعاد بهرام شاه إلى غزنة»[٢].

وبعد اثنتي عشرة سنة دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري وقد ثأر أخواه سيف الدين سوزي وعلاء الدين حسين لمقتل أخيهما هذا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) بطرد بهرام شاه من غزنة وهربه إلى الهند، وتقلد سيف الدين سوزي ولايتها نيابة عن أخيه علاء الدين. على أنه قد دبرت مؤامرة ضد سيف الدين في الشتاء التالي، ولما امتلأت الطرق بالثلوج دعي بهرام شاه للعودة إلى بلاده، فقبض على سيف الدين سوزي على حين غفلة وشهر به في المدينة وقد جلل وجهه بالسواد وهو ممتط بقرة، ثم شنق أو صلب[٣]. وقد ذكر ابن الأثير[٤] أن علاء الدين حسين الغوري (٥٤٤ ـ ٥٥١ هـ) عاد إلى غزنة وخربها، وتعد هذه السنة (٥٤٣ هـ) ابتداء الدولة الغورية حيث قوي الغور وعلا شأنهم وتركوا بلادهم الجبلية.

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٩٠ ـ ١٩١) أن غزنة كانت قد دخلت في حكم سنجر سنة ٥١٠ هـ، وكان بهرام شاه بن ألب أرسلان الغزنوي قد استنجد به وطلب منه الحضور إلى غزنة. وقد تغلب جيش سنجر على جيش أرسلان شاه وجلس بهرام شاه على سرير جده محمود الغزنوي صاحب الفتوحات الإسلامية في الهند.

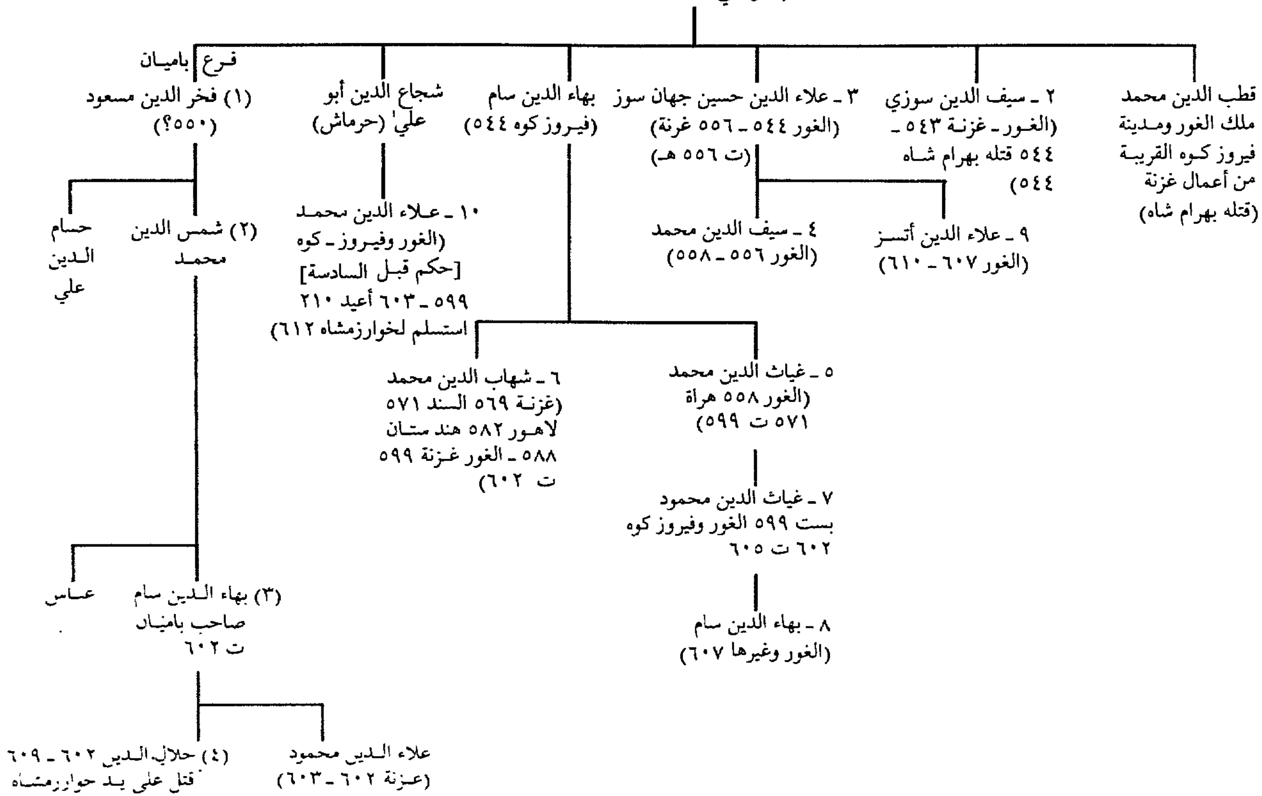
(٢) ابن الأثير: الكامل المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢.

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧.

(٤) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٦ ـ ٦٧.

٥٤٣ هـ ـ ٦١٢ (١) الغوريون ١١٤٨ ـ ١٢١٥

١ ـ عز الدين حسن
(الغور في الأفغان والهند)



٢ ـ علاء الدين حسين الغوري :

وقد قابل علاء الدين حسين الغوري إساءة بهرام شاه بإنزال العقاب الصارم بأهل غزنة (٥٥٠/١١٥٥)، وذلك بعد موت بهرام شاه بثلاث سنين واستخلاف ابنه خسروشاه. وإن لقب «السلطان المعظم»[١] أو ملك الدنيا والدين (جهان سوز) الذي تلقب به، ونهب مدينة غزنة وتخريب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم الغزنويين، ليدل دلالة واضحة على مدى الويلات التي حلت بهذه المدينة العتيدة في خلال الأيام الثلاثة التي تعرضت فيها لنقمة الغور. وعلى الرغم من هذه المآسي التي حلت بغزنة على أيدي الغور لم يصب الأدب بسوء، بل على العكس من ذلك كان محل تقديرهم، فقد ذكر نظامي عروضي السمرقندي[٢] أن علاء الدين الغوري حين أمر بنهب غزنة وتخريب عماراتها «اشترى مدائح محمود ومسعود وإبراهيم (الغزنويين) بالذهب وخبأها في خزانة كتبه»، ولم يجرؤ أحد في عسكر علاء الدين في هذه المدينة أن يسمي أحد ملوك الغور سلطاناً، حين كان الملك نفسه يقرأ في الشاهنامة ما قاله مؤلفها الفردوسي :

«أول ما ينطق به الطفل الرضيع في مهده «محمود» (الغزنوي) تتمثل في جسمه صولة الفيل، وفي روحه علم جبريل، وفي كفه مطر الربيع، وفي قلبه نهر النيل[٣].

ملك العالم محمود، ذو العزة القعساء الذي جمع بين الذئب والحمل[٤] على مورد الماء».

ولما قوي أمر علاء الدين الغوري واتسع سلطانه نصَّب العمال على بلاد الغور الواسعة. ومن هؤلاء العمال ابنا أخيه بهاء الدين سام وهما: غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد. وقد استمالا إليهما الأهلين بالعدل وحسن السيرة، فأحبهما الناس وانتشر ذكرهما في الآفاق، فأضمر لهما بعض أمراء الدولة الحسد وأوغروا عليهما صدر عمهما علاء الدين حسين ورموهما بتدبير قتله والاستيلاء على ملكه. ولما بعث علاء الدين

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧.

(٢) Browne, II, p. 306 نظامي عروضي: جهار مقاله (ترجمه إلى الإنجليزية براون) ترجمة عربية ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) كثيراً ما كان يطلق على أنهار وبحار الشرق الأوسط كلمة «النيل» تشبيهاً بنيل مصر. كما يطلق المغاربة على نهري السنغال والنيجر كلمة النيل على سبيل التشبيه.

(٤) أي أنه لقوته وضراوته أذل الأشرار حتى أصبح الضعاف لا يخشون بأسهم. وقد شبه هذا بقوله إن السلطان استطاع أن يسير الحمل بجانب الذئب.

في طلب ابن أخيه امتنعا عن الحضور، إذ نمى إليهما الخبر بما دبره لهما عمال السوء، فسير إليهما عمهما علاء الدين جيشاً حلت به الهزيمة. وأظهر غياث الدين وشهاب الدين العصيان لعمهما وقطعا الخطبة له على منابر البلاد. ولم يجد علاء الدين بداً من المسير إليهما بنفسه. ولكن الهزيمة حلت به وأسر. على أن ابني أخيه أحسنا معاملته وأجلساه على العرش ووقفا في خدمته واستدرا بذلك عطفه، حتى إنه بادر إلى زواج غياث الدين من إحدى بناته واتخذه ولياً لعهده.

٣ ـ غياث الدين محمد ـ زوال الدولة الغزنوية

توفي علاء الدين حسين سنة ٥٥٦ هـ. وكان كما وصفه ابن الأثير(١)، من أحسن الملوك سيرة في رعيته، ثم خلفه ابنه سيف الدين محمد (٥٥٦ ـ ٥٥٨ هـ). وفي عهده نشط دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم، فطردهم هذا السلطان من بلاده. وقد تبادل المراسلات والهدايا مع الملوك والأمراء.. ولم يعمر سيف الدين محمد في سلطنة الغور، وذلك أنه سار من جبال الغور على رأس جيش لحرب الغز ببلخ. وقد اتفق أن خرج سيف الدين محمد من معسكره في جماعة من خاصته، وسمع بذلك أمراء الغز، فألحوا في طلبه وأوقعوا به، فقاتلهم، فقتل مع بعض خاصته، وذلك في شهر رجب سنة ٥٥٨ هـ، وأسر بعض آخر وهرب الباقون، ولحق عسكره ببلادهم. وكان سيف الدين محمد في العشرين من عمره(٢).

ولما قتل سيف الدين محمد جلس غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام على العرش وخطب له على منابر الغور. ولما قوي أمره جمع جيشاً جراراً سار بقيادة أخيه شهاب الدين، فاستولى على غزنة من الغز، وكانوا قد حكموها خمس عشرة سنة أذاقوا فيها الأهلين ألوان التعذيب وعاملوهم معاملة قوامها الظلم والجور. ثم سار شهاب الدين الذي عرف بحسن سيرته وعدله إلى كرمان وعبر نهر السند واستولى على بعض بلادها الجبلية، ثم عاد الغز فملكوا غزنة من جديد(٣).

وفي سنة ٥٥٩ هـ، سار شهاب الدين على رأس جيش كثيف من الخراسانيين والغور، فعبر نهر السند وحاصر لاهور واستولى عليها من يد صاحبها الغزنوي خسروشاه (٥٥٥ ـ ٥٨٢/ ١١٦٠ ـ ١١٨٦) وأحسن معاملته، ثم طلب أخوه غياث الدين محمد إرسال خسروشاه إليه، فأمر به فقتل في إحدى القلاع. وبذلك زالت الدولة الغزنوية على يد

---

(١) الكامل ج ١١ ص ١٠٩.
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢٤

شهاب الدين الغوري سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، وتداعى سلطان الغزنويين في الهند، وانقسمت دولتهم إلى دويلات إسلامية مستقلة[١]. وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر ابن الأثير[٢] «من أحسن الملوك سيرة، ولا سيما جدهم محمود (الغزنوي)، فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة».

استقر سلطان غياث الدين الغوري وقوي أمره واتسعت رقعة مملكته وكثر عدد جنده، وأصبح بحيث يستطيع أن يعلن نفسه سلطاناً على البلاد؛ لذلك نراه يبعث إلى أخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له بالسلطنة على منابر الهند حيث استقر سلطان الغور في لاهور، وبعد أن كان لقب غياث الدين محمد «شمس الدين» أصبح الآن يلقب بألقاب «غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين»، كما تلقب أخوه شهاب الدين بلقب عز الدين[٣].

وفي سنة ٥٩٧ هـ عول غياث الدين على استرداد خراسان من خوارزمشاه محمد، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب إليه المسير إلى هذه البلاد وفتح حاضرتها مرو[٤]. ثم استولى على سرخس وطوس وهراة، ثم لحق به أخوه شهاب الدين وساعده على فتح نيسابور وحاصر بعض قلاع الإسماعيلية وطهر البلاد منهم ونشر الإسلام في ربوعها. ثم قامت الجفوة بين غياث الدين وأخيه شهاب الدين، وقد عزا ابن الأثير[٥] ذلك إلى أنَّ صاحب قهستان شكا غياث الدين أخاه وقال إنه حاصر بلده وخرج على العهد الذي أبرم بينهما. وبينما كان شهاب الدين مشغولاً بحصار حصن الإسماعيلية أتاه رسول أخيه يطلب إليه الرحيل من قهستان، فأبى، فانفذ الرسول أمر أخيه، فسل سيفه وقطع أطباب سرادق (حبال) شهاب الدين، فرحل مع عسكره غاضباً وأبى المقام بغزنة ورحل إلى بلاد الهند[٦]. وقد ذكر ابن الأثير[٧] في حوادث ٥٩٥ هـ أن خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش استرد ما أخذه الغور من خراسان.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٢٤.
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٩. حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ١٠٢.
(٣) ابن الأثير: ج ١١ ص ٩٦.
(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٨ - ٦٩.
(٥) الكامل ج ١٢ ص ٧٠.
(٦) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٩ - ٧٠.
(٧) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٢.

وفاة غياث الدين محمد ـ صفاته

توفي غياث الدين الغوري سنة ٥٩٩ هـ. وقد اتسع ملكه. وكان كما وصفه ابن الأثير[١]، مظفراً منصوراً في حروبه، لم تنهزم له راية قط. وكان جواداً حسن الاعتقاد كثير الصدقات، وقد شيد الخانقاهات في الطريق، وأسقط المكوس، ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس. ومن مات ببلده أودع ماله ليوزعه القضاة على مستحقيه طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية. وإذا وصل إلى بلد من البلاد عم إحسانه الفقهاء وأهل الورع والدين وخلع عليهم وفرض لهم العطايا في كل سنة من خزانته، كما وزع الأموال على الفقراء. وكان يشمل عطفه ورعايته كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم. وقد أولع بالأدب والبلاغة وعرف بحسن الخط حتى كان ينسخ المصاحف بخطه ويقفها على المدارس التي بناها. وعلى الرغم من ميل غياث الدين محمد إلى عقائد المذهب الشافعي وبنائه المساجد لأصحاب هذا المذهب، لم يؤثر أصحاب مذهب على مذهب، بل كان يسوي بينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى، كما أثر عنه أنه تحول إلى هذا المذهب على يد محمد بن محمود المروروزي، وكان من فقهاء الشافعية. وكان غياث الدين يقول: التعصب في المذاهب من الملك قبيح[٢].

شهاب الدين محمد ـ حروبه مع الخوارزميين والخطا:

ولما مات غياث الدين (٥٩٩ ـ ٦٠٢ هـ) حال أخوه شهاب الدين دون تولية ابنه محمود، وجلس على العرش، ولكنه ولى محموداً بست. وكان لغياث الدين مغنية كلف بها فتزوجها. فلما مات لم ينس شهاب الدين ما لحق به من إساءة أخيه حين حاصر إحدى قرى قهستان وطهر الإسماعيلية منها، فقبض على زوجة أخيه وضربها هي وابنها ضرباً مبرحاً واستولى على ما كان لها ولأهلها من مال وممتلكات وسيرهم إلى بلاد الهند في أقبح صورة ونبش قبور موتاهم.

وفي شهر رجب سنة ٦٠٠ هـ استرد خوارزمشاه محمد مدينة هراة من ابن أخت شهاب الدين الغوري. وفي هذه السنة ترك شهاب الدين الغوري غزنة حاضرة ملكه قاصداً لاهور لغزو بلاد الهند، ولما علم خوارزمشاه محمد بذلك حاصر مدينة هراة، فلم ير شهاب الدين بداً من العودة إلى خراسان. ثم أغذ السير حتى بلغ ظاهر مدينة مرو حاضرة

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥.
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥ ـ ٧٦.

خراسان، ودار القتال بين جند شهاب الدين وجند خوارزمشاه الذي استنجد بالخطا من أتراك بلاد ما وراء النهر، وساروا إلى بلاد الغور. ولما علم شهاب الدين الغوري بذلك عدل عن الاستمرار في القتال مع خوارزمشاه محمد وعاد إلى بلاده والتقى بمقدمة جيش الخطا (صفر سنة ٦٠١ هـ) وأحل بهم الهزيمة. ثم دهمه جيش كثيف من الخطا أحل الهزيمة بشهاب الدين وأسره وكثرت الأراجيف بقتله. ثم صالحه الخطا وأطلقوا سراحه بعد أن قتل أكثر جنده ونهب جميع خزائنه، ثم سار شهاب الدين إلى غزنة ولحق به أحد مماليكه إلى الهند ودخل المولتان وقتل نائبه فيها، واستولى على البلاد وأساء السيرة في الرعية وظلمهم وأخذ أموالهم وادعى السلطنة لنفسه. ولما نمى خبره إلى شهاب الدين سار إلى الهند وقبض عليه وقتله (جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ)(١).

ولم ينس شهاب الدين هزيمته على أيدي الخطا الأتراك وعول على أخذ الثأر منهم وغزو بلادهم. وقد ذكر المؤرخون أنه سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف مقاتل قاصداً الخطا. ولما وصل إلى بلادهم فرق عسكره في مفازة قليلة الماء وكان الخطا قد نزلوا بطرفها، وكلما خرجت طائفة من الغور فاجأهم الخطا وفتكوا بهم قتلاً وأسراً، ومن سلم منهم قفل هارباً إلى بلاده. وقد وصل شهاب الدين وقد أعياه التعب والإرهاق هو وجنده دون أن يعلم بما حل بجنده الذين تعرضوا للهلاك، فقاتل الغور الذين بلغ عددهم أضعاف عدد جنده وحصروه في «أندخوه» وكادت الهزيمة تحل بجيشه. وهنا فكر شهاب الدين في خدعة حربية تكللت بالنجاح، فقد أمر طائفة من جنده بأن تسير ليلاً وتعود إليه في الصباح، وظن الخطا أن المدد قد أتى من بلاد الغور وأخذ الخوف يدب إلى قلوبهم، وكان صاحب سمرقند يدين بالطاعة للخطا، وقد خشي أن يظفروا بالمسلمين؛ لذلك نراه يثير مخاوف الخطا من تدفق الأمداد على شهاب الدين، وأشار عليهم بأن يجنحوا للسلم ويطلبوا الصلح، فوافقوا على رأيه، وأرسل صاحب سمرقند إلى شهاب الدين سراً ليشير عليه بأن يتظاهر بالامتناع عن إجابة الغور إلى الصلح أولاً ثم يجيبهم إليه قبل فوات الفرصة. فلما أتت رسل الخطا تظاهر شهاب الدين بقوته وأبى قبول الصلح، ثم عاد فأجابهم إليه، وأبرم الصلح بين الفريقين على ألا يغير أحدهما على الآخر. وبذلك عاد شهاب الدين محمد بن سام الغوري إلى بلاده وتخلص من هزيمة محققة على أيدي الخطا(٢).

ولما ذاع نبأ مقتل شهاب الدين على أيدي الخطا وأن أصحابه لم يقفوا له على أثر، تنافس أمراء دولته على الحكم وقامت الثورات في أطراف بلاده. ومن هؤلاء الثائرين

---

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) ابن الأثير: ج ١٢ ص ٧٨.

«دانيال» صاحب جبل الجودي(١)، وكان قد أسلم، فلما بلغه مقتل شهاب الدين ارتد عن الإسلام. كما ثار «بنو كوكر» وأدخلوا صاحب جبل الجودي في طاعتهم وقطعوا الطريق بين لاهور وغزنة.

وقد أرسل شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك قائده في الهند والمولتان يأمره بأن يدعو بني كوكر إلى الطاعة ويتهددهم بالحرب إذا لم يجنحوا للسلم، فلم يثق زعيمهم بقوله وهدد بتخريب البلاد وكثرت جموعه وقويت شوكته وجبى الأموال باسمه. ولما نمى ذلك إلى شهاب الدين أمر مملوكه قطب الدين بالعودة إلى بلاده وقتال بني كوكر، فعاد إلى دهلي واستعد للحرب. وأقام شهاب الدين في «فرشابور» مهد الغور إلى منتصف شهر شعبان سنة ٦٠١ هـ، ثم عاد إلى غزنة واستعد لحرب الخطا. وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ سار على رأس جيش كبير، وانقطعت أخباره من غزنة وفرشابور وانتشرت الأراجيف بهزيمته، ولكنه كان قد أغذ السير إلى بني كوكر، فدهمهم ونشب بينهما القتال وأقبل قائده قطب الدين في عسكره ونادوا بشعار الإسلام وأحلوا الهزيمة ببني كوكر وطاردوهم في كل مكان حتى بلغوا أكمة احتمى بها الكوكرية، فأضرم جند شهاب الدين النار فيها وغنم المسلمون «ما لم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار. وهرب زعيم الكوكرية بعد أن قتل إخوته وأهله». أما ابن دانيال فقد استجار بقطب الدين أيبك، فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فأجابه إلى طلبه واستولى على قلعته وعاد إلى لاهور، وأخذ يستعد لحرب الخطا، ثم عاد إلى غزنة، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب «باميان» يأمره بالاستعداد للمسير إلى سمرقند(٢).

كذلك خرج على شهاب الدين الغوري «النبراهية»، وكانوا يسكنون البلاد الجبلية المحيطة بولاية «فرشابور». وكانوا على الوثنية، إذا ولد لهم بنت وقف أبوها على باب داره ونادى: من يتزوج هذه؟ من يقبلها؟ فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها. وكان للمرأة عدة أزواج. وطالما أغاروا على حدود بلاد الغور وأوقعوا بالمسلمين. وإذا وقع في أيديهم أسير من المسلمين أمعنوا في تعذيبه.

---

(١) لعل هذا الجبل هو المذكور في القرآن في سورة هود (١١ : ٤٤) التي تنص على أن سفينة نوح عليه السلام قد رست على جبل الجودي حين أمر الله سبحانه وتعالى الماء أن يكف قائلاً ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ وكان دانيال وأصحابه يقطنون البلاد الجبلية المنيعة بين لاهور والمولتان.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٣ ص ٨٦ - ٨٧.

وقد قيل إنهم أسروا رجلاً من فرشابور فأمعنوا في تعذيبه أياماً، وقد سأل زعيم النبراهية هذا الأسير عن حالة البلاد الإسلامية وقال له: لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني؟ فقال له: «يعطيك الأموال والإقطاع ويرد إليك حكم هذه البلاد التي لكم» فأعاد هذا الزعيم الأسير إلى شهاب الدين يعرض عليه قبوله الإسلام، فعاد ومعه رسول «بالخلع والمنشور بالإقطاع». وسار هذا الزعيم مع جماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلموا على يديه، ثم عادوا إلى بلادهم واستراح الناس من شرهم[1].

وفاة شهاب الدين محمد ـ صفاته:

امتد ملك شهاب الدين محمد الغوري على غزنة وبعض بلاد خراسان، وقتل وهو يصلي العشاء على أيدي بعض الكوكرية من الهنود أخذاً بالثأر لما ألحقه بأهلهم من قتل وتشريد، وكان شهاب الدين قد عاد من لاهور يحمل ما لا يحصى من الأموال التي اشتملت على ألف ومائتي حمل. وكان شهاب الدين قد أمر جنده في الهند باللحاق به كما أمر جنده بخراسان بالاستعداد والتأهب حتى يصل إليهم ليغزو بلاد الخطا الجبلية.

ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين وطلبوا منه الاحتفاظ بالأموال والملك إلى أن يتفقوا على من يخلفه في الحكم من البيت الغوري، ثم أخفوا جراحه وأظهروه بمظهر الحي ووضعوه على المحفة. وسار الوزير والأمراء والمماليك أمامه حتى وصلوا إلى غزنة حيث دفن شهاب الدين في ٢٨ من شعبان سنة ٦٠٢ هـ.

وكان شهاب الدين كثير الغزو في بلاد الهند. وكان حسن السيرة، عادلاً يحكم بين الناس بما يوجبه الشرع، فيحضر القاضي إلى قصره في أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء فإذا أصدر القاضي أحكامه أخذ كبار رجال الدولة في تنفيذها لا فرق بين صغير وكبير وشريف ووضيع. وكان شهاب الدين يدين بعقائد المذهب الشافعي (وقيل بعقائد المذهب الحنفي)، ولكنه كان لا يفرق بين مذهب ومذهب، وكان العلماء يجتمعون بحضرته فيتناولون المسائل الفقهية وغيرها. ومن هؤلاء الفقهاء فخر الدين الرازي الذي كان يقوم بالوعظ في قصر الأمير، وقد أثر عنه أنه وعظ يوماً فختم وعظه بقوله مخاطباً شهاب الدين: يا سلطان! لا سلطان يبقى... وإن مرده إلى الله. فبكى شهاب الدين وأكثر من البكاء.

وكان شهاب الدين رقيق القلب لين الطبع، لقيه صبي علوي وهو راكب فدعا له وقال

---

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٨٧ ـ ٨٨.

إنه ما أكل شيئاً منذ خمسة أيام، فعاد شهاب الدين لساعته ومعه الصبي وأمر فقدم له أشهى الطعام أمامه، ثم بعث في طلب أبيه وسلمه إليه. ووزع كثيراً من المال على العلويين[١].

غياث الدين محمود :

لم ينجب شهاب الدين محمد ولداً ذكراً يخلفه في الحكم، ومال وزيره مؤيد الملك ومعه الأتراك إلى تولية غياث الدين محمود (ابن أخيه غياث الدين محمد) صاحب بست وأسفراين، ومال العلويون إلى تولية بهاء الدين سام صاحب باميان وابن أخت شهاب الدين[٢]، وسار بعض أمراء الغور إلى بهاء الدين سام ونقلوا إليه نبأ مقتل خاله وحثوه على المسير إلى غزنة ليجلس على عرش السلطنة. فكتب بهاء الدين إلى أمراء الغور بغزنة يعلمهم بمسيره إليهم، كما كتب إلى أحد الأمراء وهو علاء الدين محمد (بن شجاع الدين أبي علي) صاحب «فيروز كوه» يستدعيه إليه ويعده الجميل، وإلى غياث الدين محمد بن غياث الدين محمد، وإلى ابن خرميل والي هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له، ولم يكن يظن أن أحداً منهما يخالفه.

سار بهاء الدين إلى غزنة في عسكره ومعه ابناه علاء الدين محمود وجلال الدين، ولم يكد يسير مرحلتين حتى شعر بصداع أخذ يتزايد وأيقن بالموت، فعهد إلى ابنه علاء الدين بالملك من بعده وأمره بأن يسير مع أخيه إلى غزنة وأن يرفقا بالرعية ويبذلا الأموال لكسب محبة الناس، وأن يصالحا غياث الدين محمود على أن تكون له خراسان وبلاد الغور، وأن يحتفظا بغزنة والهند. ثم توفي بهاء الدين سام وبلغ ابناه علاء الدين وجلال الدين غزنة ونزلا بدار السلطنة في مستهل شهر رمضان سنة ٦٠٢ هـ، وتلقاهما أمراء الغور وأهل البلاد، كما تلقاهما الأتراك على كره منهم.

أما غياث الدين محمود فقد كان مشغولاً بحرب علاء الدين محمد بن شجاع الدين

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) ذكر ابن الأثير: (الكامل ج ١٢ ص ٩٠) أن غياث الدين محمد أخا شهاب الدين محمد لما أدخل في حوزته باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود، وزوجه أخته، فولدت له ولداً سماه سام. فلما مات شمس الدين خلفه ابنه الأكبر عباس، وكان من أم تركية، فغضب غياث الدين محمد وأخوه ونصبا ابن أختهما «سام» عليها ولقباه بهاء الدين. وقد عظم شأن سام وأخذ يجمع الأموال، وتطلع إلى الجلوس على عرش الغور. وذكر ابن الأثير (المصدر نفسه ج ١٢ ص ٩٣) أن غياث الدين محمود (بن غياث الدين محمد) وبهاء الدين سام كانا قد تعاهدا في عهد شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لهما.

أبي علي صاحب «فيروز كوه». وكان غياث الدين يشعر بقوة منافسه بهاء الدين، لهذا رأى التريث حتى تنكشف الأمور، فلما انتشر خبر وفاة بهاء الدين بايع الأمراء غياث الدين وجلس على العرش، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد، وأقيمت الخطبة له بسلطنة الغور (١٠ رمضان سنة ٦٠٢). وقد أمر غياث الدين محمود الأمير تاج الدين الدز (بضم الدال مع التشديد مع تشديد الزاي) بأن يخرج ابني بهاء الدين سام منها، وقد لبى الدز طلب غياث الدين. وكان في الواقع يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة لامتلاك غزنة، وأرغم علاء الدين محمود على الخروج من غزنة، ونهب الأتراك ما كان معه وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه ولم يتركوا له غير سراويله، ولما علم الدز بذلك اعتذر إلى علاء الدين وبعث إليه بدواب وثياب ومال، فأخذ ما لبسه منها وترك الباقي. فلما وصل إلى «باميان» ركب حماراً ولبس السواد وقال: أريد أن يرى الناس ما صنع بي أهل غزنة حتى إذا ما عدت إليها وخربتها ونهبتها فإنه لا يلومني أحد. ثم دخل دار الإمارة وأخذ يجمع الجند. أما الدز فقد عمل على استخلاص الملك لنفسه، فعرض الوزارة على مؤيد الملك وزير شهاب الدين محمد، فأجابه على كره منه كما طلب الدز من غياث الدين محمود أن يخاطبه بالملك ويعتقه من الرق ويزوج ابنه من ابنته (أي من ابنة الدز) فلم يجبه غياث الدين إلى طلبه لوجود الفارق الاجتماعي في الكفاية الزوجية(١).

وأما علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي علي، فقد ولاه السلطان شهاب الدين بلاد الغور وما يليها. ولما بلغه قتل شهاب الدين سار إلى «فيروز كوه» خوفاً من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملكها ويستولي على خزائنها، كما حاول «الدز» استمالة كبار الأمراء إليه ودعاهم إلى مساعدته على حرب خوارزمشاه علاء الدين محمد وبهاء الدين صاحب باميان، ولم يهتم بشأن غياث الدين محمود استخفافاً به واستهتاراً لشأنه، فبايعوه وبايعوا ابنه من قبله. ولما بلغ غياث الدين محمود خبر موت بهاء الدين سام كما تقدم أمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة(٢).

وقد استتب الأمر لغياث الدين محمود فدخل في طاعته «ابن خرميل» والي هراة، وكان قد عزم على الدخول في طاعة خوارزمشاه. ثم عاد والي هراة فخلع طاعة غياث الدين محمود وانضم إلى خوارزمشاه حين علم بأن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد سارا نحو غزنة لاستردادها من يد الدز (٦٠٣ هـ). وانتهز خوارزمشاه هذه الفرصة فاسترد بلخ

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٩٣ ـ ٩٤.

وكانت تابعة لغياث الدين. أما الدز الذي خان عهد مولاه غياث الدين واستولى على غزنة وطرد علاء الدين وأخاه جلال الدين صاحبي باميان منها، فقد دهمته جيوش علاء الدين الغوري، فخرج لقتالهما فطارداه إلى كرمان، فاستولى عليها، ثم عاد إلى غزنة واستردها من جديد، واختلف مع أخيه جلال الدين في اقتسام الغنائم، وظهر بخلهما فكرههما أهل غزنة ومالا إلى حكم غياث الدين محمود لكرمه وإحسانه. ثم افترق الأخوان، فأقام علاء الدين بغزنة، وذهب جلال الدين إلى باميان، مما أطمع «الدز» في السير إلى غزنة وإعادتها إلى حوزته من جديد، ولما تحقق أمله في الاستيلاء على غزنة طمع في استرداد كرمان التي استولى عليها وأحسن إلى أهلها[1].

ولم تقف المتاعب التي أثارها الدز في وجه الغور عند هذا الحد، فقد قتل علاء الدين محمود صاحب باميان؛ ثم يمم شطر باميان فأسر أخاه جلال الدين وعاد به إلى غزنة، وفي سنة ٦٠٣ هـ عاد عباس (عم علاء الدين وجلال الدين) إلى ملك باميان[2].

ولنعد إلى الكلام على علاقة غياث الدين محمود بالدز، فقد طلب من الدز أن يقيم الخطبة له، ولكنه استمر في تمرده حيث أمر الخطيب بأن يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين وتلقبه بتاج الدين الدز، الأمر الذي أثار حنق أهل غزنة، إذ كانوا يعاونونه ظناً منهم أنه يحتفظ بولائه لغياث الدين محمود ويعترف بسلطنته. فلما أرسل غياث الدين محمود يعاتب الدز على تمرده أصر هذا على طلب عتقه، فلم يجد غياث الدين بدّاً من إجابته إلى طلبه وبعث إليه بالهدايا والخلع، وبذلك صفا الجوبين الدز وغياث الدين محمود ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلاً، إذ طلب «ابن خرميل» صاحب هراة الدخول في طاعة غياث الدين وأبدى استعداده لإخراج «الدز» من غزنة بالقوة، فإذا تم له ذلك قسم مال غزنة ثلاثة أقسام: قسم للسلطان غياث الدين محمود، وقسم لخوارزمشاه، وقسم للعسكر، وكان خوارز مشاه قد أرسل إلى غياث الدين يعرب عن رغبته في مصاهرته. وقد وافق غياث الدين على طلب ابن خرميل، ولما اتصل هذا النبأ بمسامع الدز عاد إلى تمرده وقطعه الخطبة لغياث الدين[3]، واستولى على بست وغيرها، كما أمر صاحب سجستان بقطع الخطبة لخوارزمشاه علاء الدين محمد، وهدد ابن خرميل بالإغارة على بلاده، وأطلق علاء الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس لإعادته إلى ملكه وزوجه

---

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ - ١١٢.

ابنته. ثم استولى قائد خوارزمشاه على مدينة هراة من ابن خرميل وقتله (٦٠٥هـ)[٣]، ثم أمد خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله «أمير ملك» بالمسير إلى فيروز كوه قصبة بلاد الغور، فاستولى عليها غياث الدين الغوري (٦٠٥هـ).

ولم يلبث علاء الدين محمد أن استولى على كافة أرجاء خراسان وملك باميان، وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك. وهرب الدز (وكان غائباً من باميان) إلى لاهور، فلحقت به جيوش أتباع شهاب الدين محمود وأحلت به الهزيمة وقتلته. وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين بعد أن أنهكت قواها فيما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين وعلى بلاد ما وراء النهر والهند وخراسان وغيرها.

ثانياً ـ الدولة الفاطمية

١ ـ المستنصر والمستعلي:

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الخليفة الظاهر الفاطمي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ) لم تدم خلافته طويلاً وأن ابنه المستنصر بويع له في شهر شعبان سنة ٤٢٧ هـ، وهو في السابعة من عمره، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. غير أن مصر لم تتمتع في هذه المدة بالرخاء والطمأنينة سوى فترة قصيرة، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وتطرق إليها الضعف والوهن.

وفي الشطر الأول من عهد المستنصر امتد سلطان الفاطميين على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي أفريقيا. وكان اسمه يذاع في الخطبة على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، وفي صقلية واليمن والحجاز والموصل، بل وفي بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة. ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج عن سلطان الفاطميين، كما رفض أهل شمالي إفريقيا عقائد المذهب الفاطمي نهائياً (٤٧٥ هـ) وزال سلطانهم من بلاد المغرب الأقصى الذي استولى عليه الفاطميون وانتزعوه من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ، وأبطلت الخطبة للفاطميين في اليمن على يد نواب صلاح الدين الأيوبي في هذه البلاد.

جدول الخلفاء الفاطميين

		هجرية	ميلادية
١	المهدي أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩
٢	القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤
٣	المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥
٤	المعز أبو تميم معد	٣٤١	٩٥٢
٥	العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥
٦	الحاكم أبو علي المنصور	٣٨٦	٩٩٦
٧	الظاهر أبو الحسن علي	٤١١	١٠٢٠
٨	المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٩	المستعلي أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
١٠	الآمر أبو علي المنصور	٤٩٥	١١٠١
١١	الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
١٢	الظافر أبو المنصور إسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
١٣	الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
١٤	العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
		٥٦٧	١١٧١

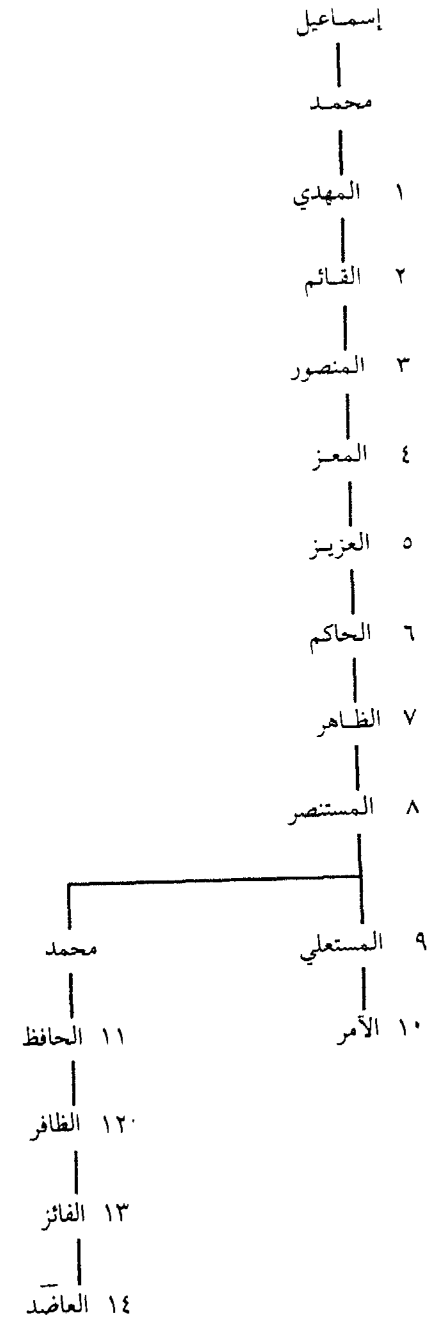
واستولى روجر النرمندي على صقلية التي كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجري وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم سنة ٤٦٢ هـ.

وعلى الرغم من النزاع الذي قام في عهد المستنصر بين التستري والفلاحي، وبتدخل أم الخليفة في إدارة شئون الدولة، تمتعت مصر بشيء من الطمأنينة والرخاء، فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمي وأبهته، وما كانت تتمتع به القاهرة في ذلك الوقت من يسر ورخاء[١].

غير أن هذا الرخاء الذي كانت تتمتع به مصر في ذلك الحين لم يدم طويلاً، فقد حلت بالقاهرة الأيام السيئة، وعاودتها المصائب التي لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها. فقد عم الوباء والقحط مصر في سنة ٤٤٦ هـ، وانقطع ماء النيل، فأهملت الزراعة، وانتشرت

(١) Nasiri Khusraw: Safar Namah Ed. Charles Schefer, Paris, 1881 p. 127 et seq.

تسلسل نسب الخلفاء الفاطميين



المجاعة، وعم الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، وامتد ثماني سنين (٤٤٦ ـ ٤٥٤ هـ)، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند، ودونت عنه قصص مروعة، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس. وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط، ثم أكل بعضهم بعضاً. وليس أدل على الفوضى التي سادت مصر في ذلك العهد من تقلد أربعين وزيراً في تسع سنوات بعد قتل الوزير اليازوري في سنة ٤٥٠ هـ. ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩ هـ، وظلت الحال كذلك حتى سنة ٤٦٤ هـ. واقترنت هذه الشدة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها «الشدة العظمى» بقيام الفتن والحروب الأهلية، حتى تدارك مصر بدر الجمالي والي عكا، الذي استدعاه الخليفة المستنصر في سنة ٤٦٦ هـ. فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين[1].

ولما مات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ، بويع ابنه المستعلي دون أخيه الأكبر نزار الذي ولاه أبوه عهده، وشرع في أخذ البيعة له أثناء مرضه، غير أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أخذ يماطل الخليفة حتى توفي. ويرجع ذلك على ما ترويه بعض المراجع العربية إلى أن الأفضل دخل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة، فلما رآه نزار قال له: انزل يا أرمني يا نجس، فحقد عليه الأفضل، وانتهز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة؛ فاجتمع بالأمراء وكبار رجال الدولة، وأثار مخاوفهم من نزار، وأشار عليهم بتولية أخيه الصغير أبي القاسم أحمد، ثم بايعه ولقبه المستعلي بالله، وأخذ قاضي القضاة البيعة له من كبار رجال الدولة وأعيانها، ودعا الأفضل إسماعيل وعبد الله ابني المستنصر لمبايعة أبي القاسم، فبايعاه.

ولما رأى نزار أن الخلافة أفلتت من يده، سار إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله، وابن مصال اللكي، فتقبله واليها ناصر الدين أفتكين التركي قبولاً حسناً وبايعه هو وأهل الإسكندرية بالخلافة ولقبوه «المصطفى لدين الله». فلما علم الوزير الأفضل بذلك، خرج لقتال نزار على رأس جيش كثيف، فدارت الدائرة على الأفضل أولاً وعاد إلى القاهرة، وأخذ يعد العدة لقتال نزار، واستمال بعض أتباع من العربان، ثم خرج إليه على رأس جيش كبير حاصره حصاراً شديداً. ولما رأى ابن مصال أن الدائرة ستدور عليهم، جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب، ثم اضطر نزار وأفتكين إلى طلب الأمان، فأمنهما الأفضل، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبنى عليه، فمات، كما قتل أفتكين نائب الإسكندرية.

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ١٣ ـ ٢٣، ٣٤.

وفي عهد المستعلي(١) بدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام، فاستولوا على نيقيا، ودخلت أنطاكية في حوزتهم، ووصلوا إلى بيت المقدس. فلما علم الوزير الأفضل بذلك خرج إليهم في عشرين ألف مصري واشتبك معهم في معركة قتل فيها كثير من أتباعه، واضطر إلى الاتجاه إلى عسقلان، ثم عاد إلى مصر في سنة ٤٩٣ هـ، وأعد جيشاً كبيراً تحت قيادة سعد الدولة النواسي، الذي التقى بالفرنجة في عسقلان، ودارت بين الفريقين معركة حامية قتل فيها سعد الدولة، وواصل الفرنجة فتوحاتهم حتى استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين(٢).

٢ ـ الآمر والحافظ:

وبعد وفاة المستعلي ١٠ صفر سنة ٤٩٥ هـ، ولي ابنه الآمر الخلافة، وقبض الأفضل على زمام الأمور في البلاد.

وقد عني الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى في أيام انحلال دولتهم حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة. وإن مقتل الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي لأظهر مثال لتلك العناية، لأن الأفضل يميل ميل السنيين، فألغى الاحتفال بمولد النبي ﷺ، ومولد فاطمة وعلي رضي الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالأمر. وقد كان ذلك كافياً لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأييد دعواهم التي تقوم على أنهم من سلالة علي كرم الله وجهه.

وقد شرح لنا ابن القلانسي(٣) (ت ٥٥٥ هـ) الأحوال التي أحاطت بمقتل الأفضل شرحاً وافياً. وابن القلانسي هذا توفي بعد الأفضل بنحو أربعين سنة، وقد اعتمد فيما ذكره على الاعتقاد بأن مقتل الوزير كان بتدبير الخليفة الفاطمي وأنصاره لبواعث سياسية وحزبية. وقد نسب ابن ميسر مقتل الأفضل إلى عداء جماعة الباطنية.

أما عن أخلاق الوزير الأفضل، فيقول ابن ميسر(٤): «كان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة، يجاوز ما سمع به قديماً وشوهد أخيراً. ولم يعرف أحد صودر في زمانه. وبما حضر الإسكندرية، كان بها يهودي يبالغ في سب الأفضل وشتمه ولعنه. فلما دخل الأفضل قبض عليه وأراد قتله... فقال: إن معي خمسة آلاف دينار،

---

(١) وكان ابن أخت الأفضل بن بدر الجمالي.
(٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ١٤٦ ـ ١٤٨.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٤) تاريخ مصر ص ٥٨.

خذها مني وأعتقني واعف عني. فقال لليهودي: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً. ومحاسن الأفضل كثيرة: وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلق في الحال».

وقد أعاد الخليفة الآمر دار العلم بعد أن أغلقها الأفضل، عندما نمى إليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة: وهي الشافعي والحنفي والمالكي، يترددان على هذا المكان، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب.

ولي الحافظ الخلافة بعد مقتل ابن عمه الآمر على يد فريق من الباطنية. وقد قويت شوكة الوزير أبي علي بن الأفضل، وتلقب الأكمل، فقبض على الخلافة فحبسه واستولى على ما في القصر من الذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان بسبب أن هذا الوزير إمامي، فدعا للإمام الثاني عشر ودعا لنفسه على المنابر بهذه الدعوة: ناصر إمام الحق هادي العصاة إلى اتباع الحق مولى الأمم ومالك فضيلتي السيف والقلم. كما أزال عبارة «حي على خير العمل، ومحمد وعلي خير البشر» من الأذان. وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة[١].

وكان من أثر السياسة التي اتبعها أبو علي بن الأفضل أن كرهه الشيعيون المصريون وصمموا على قتله، فكمن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه.

ثم قدم بهرام الأرمني والي الغربية إلى القاهرة (جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ) وحاصرها، فلم ير الخليفة الحافظ بدأ من توليته الوزارة على الرغم من أنه نصراني، وعلى الرغم من أنه كان يتحتم على الوزير بحكم منصبه أن يصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) التي تحجبه عن الناس، ولأن القضاة كانوا ينوبون عن الوزراء منذ أيام بدر الجمالي. وكانت هذه النيابة تذكر في الوثائق الرسمية وتدون في وثائق الزواج.

وقد تقلد بهرام الوزارة على الرغم مما أظهره الناس من سخط عليه، وسرعان ما تزايد نفوذه وأحضر إخوته وأهله من تل باشر وأرمينية، وسمح لبني جلدته من الأرمن بالإقامة في مصر، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً.

---

(١) ابن ميسر تاريخ مصر ص ٧٥.

وقد صادر هؤلاء الأرمن أموال المسلمين وبنوا الكنائس والأديرة لدرجة أقلقت بال المسلمين، فرفعوا شكاياتهم إلى الخليفة، وبعث الأمراء إلى رضوان بن الولخشي والي الغربية يطلبون منه المسير إليهم؛ فلبى رضوان طلبهم، وجمع ثلاثين ألف رجل وتوجه بهم إلى القاهرة، وانضم تحت لوائه عسكر المسلمين في جيش بهرام، الذي اضطر إلى الرحيل والذهاب إلى أخيه الباساك وإلي قوص.

وهكذا خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة (جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ) وتلقب بالأفضل، واستولى على ممتلكات أعوان بهرام وقتل كثيراً منهم، على أن ذلك لم يرض الخليفة الحافظ بل أغضبه، فأحضر بهرام وأسكنه في قصره واضطر رضوان إلى الخروج إلى والي صرخد[١]، حيث جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى القاهرة وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح. غير أنه أرغم على المسير إلى الصعيد حيث طارده الأمير أبو الفضل بن مصال وانتهى الأمر بحبسه في القصر. ولم ينته النزاع إلا بعد وفاة بهرام سنة ٥٣٥ هـ.

ولما تولى أبو علي الأفضل (الملقب بالأكمل) وزارة الحافظ، عزله وشل يده عن التصرف في أمور الدولة (٥٢٤ هـ) ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه، ثم استولى على ما في القصر، ومنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة[٢] ودخلت مصر في طور السقوط.

٣ ـ سقوط الدولة الفاطمية:

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) إلى تدبير مؤامرات سرية وأحزاب سياسية، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التي مزقها الانقسام ووقعت في أيدي المغيرين عليها.

وكان النزاع المتصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية في الجيش سبباً في وقوع القلاقل في أيام الوزير بهرام الأرمني المسيحي[٣].

قد خلف بهرام في الوزارة رضوان بن الولخشي، وكان شاعراً فذاً وجندياً مقداماً، تلقب لأول مرة في العهد الفاطمي بلقب «ملك»، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده. غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة، ففر إلى الشام. وهناك طلب إلى زنكي أتابك الموصل مساعدته. على أن أسامة بن منقذ الذي أوفده الخليفة الحافظ إليه

---

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق.

(٢) ابن ميسر ص ٧٥.

(٣) أبو صالح ص ٨٤، أسامة بن منقذ ص ٢٢ و٢٣.

استرضاه بالمال وأمنه على حياته. ولكن الخليفة لم يف بعهده، فقد حبسه عشر سنوات تمكن في آخرها من الفرار، ثم جمع أنصاراً واستقر في الجامع الأقمر أمام القصر، غير أن جنود الخليفة السودانيين هزموا أنصاره وشتتوا شملهم وقتلوه[١].

وبعد يومين من مقتل رضوان توفي الخليفة الحافظ، فنشب النزاع بين الجند السودانيين والجنود الأتراك. وولي ابنه الظافر ـ وسنه ست عشرة سنة ـ الخلافة وعادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين سيرتها الأولى.

وقد ابتدأ هذا الخليفة الشاب حكمه بطرد الوزير ابن السلار، وكان يلقب بالملك العادل، وقلد الوزارة نجم الدين بن مصال، وكان مكروهاً من الأهلين. وسرعان ما جمع ابن السلار فرقة من أعوانه وسار بهم إلى الجيزة (١٤ رمضان سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٥٠ م). وفي اليوم التالي حل محل منافسه في الوزارة ـ وكان ذلك أمراً مألوفاً في ذلك الحين ـ وقد فر ابن مصال حين رأى تقدم ابن السلار، ولم يكن قد مضى عليه في الوزارة أكثر من خمسين يوماً[٢].

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الحوف حيث تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة، ثم استقر في الصعيد فاتبعه العباس، ربيب ابن السلار. وفي مدينة دلاص جنوبي الواسطي التقى الجندان، فدارت الدائرة على ابن مصال، وقتل وحمل رأسه إلى القاهرة. وبهذا استراح ابن السلار من منافسه، وقلده الخليفة الوزارة، لكنه أخذ يكيد له وعمل على طرده من الوزارة[٣].

وقد طلب ابن السلار العون من نور الدين في غزو مدينة طبرية ليمنع غزو الصليبيين لمصر على أن يسير هو بنفسه إلى غزة وعسقلان[٤]. وقد أدرك نور الدين من هذا الرجاء أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها في وجه الصليبيين مما أتاح له الفرصة في الإمارة عليها. ومن هنا طمع نور الدين في غزو مصر، كما أصبح الصليبيون على علم تام بحال هذه البلاد.

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤.

(٢) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦). أما الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد)، مخطوطات .Land القسم الشرقي رقم ٣٠٤، ورقة (١٠٥ أ) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٢٣) فقد ذكر أنه لم يمكث في الوزارة إلا أربعين يوماً.

(٣) أسامة بن منقذ ص ٥ و٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٧.

وقد أبى نور الدين امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين، ورأى أنه يغرر بنفسه إذا دخل في حرب معهم أو مع أهل دمشق، إذ كان هؤلاء وأولئك أعداءه على السواء.

لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر.

أما عن أحوال مصر الداخلية إذ ذاك، فقد كان ابن السلار الذي تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك اللقب الذي يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمي) سنياً مغالياً. وربما كان ذلك سبباً في تدبير الخليفة المكائد له حتى يتخلص من شره. غير أن أنصار ابن السلار الكثيرين قد حالوا دون استقرار سلطة الفاطميين الدينية. أضف إلى ذلك النزاع الذي قام بين ابن السلار السني وبين ابن مصال المغربي الأصل، ذلك النزاع الذي كان في الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعيين. وكان ابن السلار يسمح في مساعدة نور الدين، لنشر المذهب السني في مصر وإحلاله محل المذهب الشيعي.

وكان ابن السلار ـ كما يقول ابن خلكان ـ من أصل كردي، ومن قبيلة الزرزرى[1]، نشأ في قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة في الصعيد، وتدرج في هذه المناصب حتى تقلد الوزارة في عهد الخليفة الظافر في رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر ١١٤٨م).

وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه للمذهب السني، وصار شافعي المذهب (وهو المذهب الذي كان يتبعه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين). ولما ولي الإسكندرية بعد وصول الحافظ السلفي الفقيه الشافعي في ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م)، عامله بكل تجلة وإكرام، وأنشأ في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إدارتها[2]. وبهذا هيأ ابن السلار السبيل إلى رجوع المذهب السني إلى مصر. وقد اعتمد الخليفة الظاهر في الكيد لابن السلار واغتياله على يد نصر بن عباس، وهو شاب في سن الخليفة ومن أخص خواصه. وكان من أمره أخيراً أن قتل الخليفة الظافر والوزير ابن السلار.

وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة وخلع عليه الخليفة[3]. ولقد صدق لينبول في قوله «إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر، وما تبعه من قتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر». ويقص علينا ذلك أسامة

---

(١) بفتح الزاي الأولى مع التشديد وفتح الراء الثانية وسكون الراء الأولى، قبيلة قريبة من برقة. انظر Quatremère, Notices Sur les Curdes in «Notices et Extraits» Vol. XIII, p. 315

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧، ٤٦٧، ٤٦٨.

(٣) تاريخ أسامة بن منقذ ص ١٣ ـ ١٤.

ابن منقذ، ذلك الرجل العظيم الذي اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة وكان صديقاً حميماً وضيفاً لابن السلار، كما كان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله.

وقد وضع الخليفة الذي تملكه الفرح لمقتل ابن السلار، رأس القتيل في بيت المال، ونفح قاتله بعشرين صحفة فيها ٢٠,٠٠٠ دينار، وحرضه على قتل أبيه بعد ذلك. لكن عباساً استشعر الخطر، فأعد العدة ليسم ابنه، وكان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر في إصلاح ذات بينهما، إذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره في داره.

وفي اليوم التالي، بينما كان أسامة جالساً في الدهليز، إذ سمع صليل السيوف، وقد أثار قتل الخليفة أهالي القاهرة؛ فنشبت المعارك في طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجمون أتباع الوزير عباس بالحجارة من نوافذ دورهم. ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه. ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الأهلين وثورة انتقامهم، ففر هو وابنه نصر إلى سورية[١]. غير أنه لقي حتفه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر في إثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩/١١٥٤). أما ابنه نصر فقد أرسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠)، فعذبه نساء البلاط وطيف به في المدينة، وصلب حياً على باب زويلة، وترك معلقاً هناك شهوراً كثيرة[٢]؛ ثم أحرقت جثته (١٠ المحرم سنة ٥٥١/١١٥٦ م)[٣].

وقد ترك الخليفة المقتول طفلاً في الرابعة من عمره؛ فدعي له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ. وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حداداً عليه، ثم أرسلوا هذه الشعور إلى الأمير طلائع بن رزيك والي الأشمونين، وتضرعن إليه أن يجيء لتخليصهن[٤]. ثم سار ابن رزيك إلى القاهرة واستولى على دار المأمون (قصر عباس)[٥].

وقد أخذ ابن رزيك في إعادة الأمن إلى نصابه وأعاد عصر سيادة القانون[٦].

وكان ابن رزيك - الذي تلقب بالملك الصالح - الذي تحتاج إليه مصر في ذلك

---

(١) أسامة بن منقذ ص ١٩ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩ و٢٠.

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٠.

(٤) Lane-Poole, History of Egypt in The Middle Ages, p. 173.

(٥) هذا القصر بناه الوزير المأمون البطائحي، وتحول فيما بعد على يد صلاح الدين إلى مدرسة للأحناف، تعرف بالمدرسة السيوفية.

(٦) ابن ميسر: ص ٩٤. ابن خلكان: ج ١ ص ٢٩٨ وما يتبعها.

الحين. أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر معاقلهم في فلسطين، وقد استولى عليها الصليبيون(١).

أما الصليبيون فإنهم لم يستمروا في سيرهم إلى مصر، إذ فت في عضدهم وزعزع قوتهم في بيت المقدس نماء قوى البلاد المتاخمة لها، وإخفاق الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كنراد Conrad ولويس السابع، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره في حلب شمالاً ودمشق شرقاً، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوي أمره بضم دمشق إليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤ م)، وكان في حلف دفاعي مع الصليبيين(٢).

وقد قتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ١١٦١/٥٥٦) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد، الذي زالت الخلافة الفاطمية في أيامه، وانتقص هذا الوزير سلطته. ويجمل هنا أن نأتي بما أمدنا به عمارة اليمني، وكان شاهد عيان لما حدث في مصر في عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين.

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاور ويتجنب خلعه من منصبه. وكان شاور عربي الأصل، اتصل بابن رزيك ونال حظوة لديه فولاه الصعيد، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه. فلما توفي ابن رزيك خلفه ابنه العادل في الوزارة؛ غير أنه لم يلبث أن خلع وحل محله شاور في الوزارة، ثم قتل طي بن شاور ابن رزيك في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير ١١٦٣ م).

وقد أثار شاور بذلك سخط الأهلين، وأجمع أنصار العادل بن رزيك على خلع شاور من الوزارة(٣). ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور الذي فر إلى سورية، وقتل ابنيه طي وضرغام وحل محل شاور في الوزارة (رمضان ١١٦٢/٥٥٨م)(٤).

وقد تدخل نور الدين والفرنجة تدخلاً جدياً في شئون مصر منذ ذلك الحين. وكان من أثر إغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة، وإسراف ضرغام في قتل قواد

(١) ابن ميسر: ص ٨٦. Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 36

(٢) ابن الأثير: ج ١١ ص ٤٦.

(٣) عمارة اليمنى: النكت العصرية ص ٨٨.

(٤) أبو شامة: مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ج ٤ ص ١٦٥.

Receuil des Histoires des Croisades, Historiens orientaux, tome IV, p 165.

النكت العصرية ص ٦٧ و٧٨: ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧.

مصر ـ كان من أثر هذه العوامل مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية[١].

طلب شاور النجدة من نور الدين بدمشق، وأظهر له أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له إذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية[٢]. وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسي الخاص، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد، كما كان يعلم أنها معين خصب للخراج.

ويمكن تلخيص الأسباب التي من أجلها عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر فيما يلي:

أولاً ـ رغبته في إجابة شاور الذي تضرع إليه وطلب الاستعانة به.

ثانياً ـ شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال في مصر، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جداً، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد.

٤ ـ حملات شيركوه على مصر:

هكذا عجلت الحوادث تدخل نور الدين. ذلك أن ضرغام اختلف مع عموري ملك بيت المقدس الجديد في الجزية السنوية التي كان يدفعها إليه، فسار عموري إلى مصر سنة ١١٦٣/٥٥٩ ليفرض عليها الجزية كرهاً، وحلت الهزيمة بضرغام في بلبيس، فأراد أن يتجنب الهزيمة النهائية، فأوحى له قصر نظره فتح سدود النيل ـ وكان في إبان فيضانه ـ فأغرق البلاد، وتم له ما أراد من رجوع عموري إلى فلسطين.

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي صارت بين شاور ونور الدين؛ فسارع إلى عقد حلف مع عموري، وزاد مقدار الجزية. وسرعان ما ظهر نور الدين على مسرح القتال. وقبل أن يتمكن عموري من المسير إلى مصر (جمادى الثانية ٥٥٩/ إبريل سنة ١٠٦٤ م)، سار شاور إليها مع جند قوي من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه، وعلى مقدمته صلاح الدين الأيوبي. والتقى الفريقان في بلبيس؛ فانهزم المصريون، غير أنهم لموا شعثهم واجتمعوا تحت أسوار القاهرة[٣].

---

(١) عمارة: النكت ص ٨٨. ابن الأثير: ج ١١ ص ١١٧.

(٢) ابن الأثير: ج ١١ ص ١٢١.

(٣) عمارة، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و١٢١).

Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, p. 117

واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين عدة أيام، تمكن شاور في أثنائها من الاستيلاء على الفسطاط، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة. وأراد ضرغام أن يجمع الأموال؛ فوضع يده على أموال الأوقاف، فأخذ الناس ينفضون من حوله، وامتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته، وسار في طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة، فلم يلق منهم إلا صياح الاستهزاء حتى جفل حصانه من صياح الناس، فألقاه على الأرض وقطع رأسه وطيف به في الطرقات[١].

وقد أدرك شاور غرضه، فتقلد الوزارة وتوطدت أقدامه. ولوثوقه بقوته، خان عهده مع أسد الدين شيركوه، وأبى أن يدفع الجزية المتفق عليها بينهما، ومد له الفرنجة يد المساعدة، فحاصروا شيركوه في بلبيس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام (ذو الحجة سنة ٥٥٩/١١٦٤). وانتهز نور الدين مسير عموري إلى مصر فهزم قواته في فلسطين، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده[٢].

ولكن شيركوه لم يخفق تماماً في حملته على مصر، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى، فأطمعه ذلك في امتلاكها. لذلك بقي في الشام مدة يعد العدة في تجهيز حملة ثانية أملاً في تأسيس إمبراطورية لنفسه، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين[٣].

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية في وزارته الثانية، ولم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر في مركزه. وفي اليوم التالي من وصوله إلى القاهرة، سار شيركوه إلى بلبيس وهزم الجيوش المصرية.

على أن نجم شاور أخذ في الأفول، فجرح أخوه جرحاً بليغاً وحاصر الفرنجة ببلبيس، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام، ولم يلبثوا أن عادوا هم أيضاً إلى فلسطين.

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطراباً من حالتها الخارجية، فلم يجد شاور بداً من قمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك[٤] (عمارة ص ٦٧)، الذي طلب الوزارة

(١) النكت العصرية ص ٧٣.

(٢) ابن شداد ص ٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) قتله شجاع بن شاور. حياة عمارة ص ٣٤٨.

لنفسه، وتلا ذلك الاضطرابات التي أثارها بنو لواتة، وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى(١).

لذلك طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطناً ثابتاً في مصر، فأرسل نور الدين إلى هذه البلاد جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، ورأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة يكسبهم قوة في مصر ويهدد مركزه في الشام. وغادر جيش شيركوه الشام في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر - يناير ١١٦٦ - ١١٦٧ م)، ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة(٢).

وقد سار الجيشان بحذاء شاطىء النيل حتى وصلا إلى القاهرة، فضرب عموري سرادقه قريباً من الفسطاط. والتقى الفريقان ثانياً في موقعة البابين، على بعد عشرة أميال جنوبي مدينة المينا؛ فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصراً مبيناً. وبذلك توطدت أقدامه في الصعيد. غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة؛ فاختار أهون الأمرين، وسار في الصحراء شمالاً حتى وصل إلى الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة.

أقام أسد الدين شيركوه صلاح الدين والياً على الإسكندرية، وجعل معه نصف الجيش وعاد النصف الآخر إلى الجنوب، وأخذ يجبي الأموال في الصعيد. أما قوى الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الإسكندرية براً، على حين كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً. ولم يكن مع صلاح الدين إلا ألف من أنصاره؛ فأغذ شيركوه السير إليه، واصطلح الفريقان على أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار، ثم عاد شيركوه إلى الشام، لأن جيشه قد ضعف كثيراً في حربه مع الفرنجة والمصريين. هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار(٣). إلا أنه قد أصبح ملماً بأحوال مصر الداخلية، وعقد العزم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة.

وهكذا انتهت حملة الفرنجة والغز على مصر. وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرون إلى الشام؛ وبذلك زالت مخاوف شاور، ولكن إلى حين؛ فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد(٤).

وترجع حملة شيركوه الثالثة على مصر إلى زحف الفرنجة عليها من جديد، وكانت

---

(١) عمارة ص ٦٧ و٧٥ - ٧٨.

(٢) أبو شامة: Receuil, tome IV. p. 168

(٣) ابن شداد ص ٤٤ و٤٥.

(٤) النكت العصرية ص ٨١.

هذه الحملة بقيادة شيركوه يصحبه أخواه، وابن أخيه صلاح الدين وغيرهم من ذوي قرباه وجيوشه[١].

وهنا تجلت سياسة شاور المنقلبة ثانياً، فقد أرسل إلى شيركوه كتاباً يطلب فيه المساعدة. وصادف هذا الرجاء قبولاً من نفس شيركوه، لأن اتجاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة وتخلصه من شاور من جهة أخرى.

وقد سار الفرنجة نحو مصر، ووصلوا إلى بلبيس (صفر ٥٦٤ نوفمبر ١١٦٨) ولم يبقوا - كما يقول المؤرخ اللاتيني وليم الصوري William of Tyre - على أحد من الناس على اختلافهم شباناً وشيباً، ذكوراً وإناثاً[٢]. وقد أسخط عموري بعمله جميع المصريين فانحازوا إلى شيركوه، وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون استيلاء الفرنجة عليها. وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوماً، ولا تزال آثار هذا الحريق بادية بأطلال الفسطاط حتى اليوم في التلال الرملية التي تغطي القمامة المدفونة في الفضاء الممتد عدة أميال جنوبي القاهرة. وأسرع الناس بعد هذا لائذين بالقاهرة التي ساد أهلها الحماس استعداداً لصد هجوم الصليبيين[٣].

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة، فقد دخل شاور معهم في مفاوضات تعهد فيها بدفع مقدار من المال لعموري. لكن سياسة شيركوه لم يكن يسودها الإخلاص، فقد كتب إلى نور الدين في دمشق يطلب منه المعونة، على حين كتب الخليفة العاضد نفسه بذلك إلى نور الدين، ووضع في رسالته خصلاً من شعور النساء إمعاناً في الضراعة، حتى لا يرد توسله بعد ذلك[٤]. وقد بلغ من تأثر نور الدين أنه بعث أسد الدين شيركوه إلى مصر في جيش بلغ سبعين ألفاً[٥].

وكان نور الدين قد صمم على غزو مصر، إذ كان يود أن يذهب بنفسه، لولا أنه كان مشغول البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة، فأرسل في الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه، يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن

---

(١) ابن شداد ص ٤٥ و٤٦.

(٢) ذكر أبو شامة (ص ١٢٧) أن عموري قتل عدداً كبيراً من الأهلين وأتلف معظم المدينة وأحرق أكثر مبانيها وجعل الناس فيها فريقين، قتل أحدهما بحد السيف، واستبقى الآخرين شكراً لله على ما أتاه من نصر.

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦. أبو شامة ص ١١٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة، القاهرة: ١٩٦٠) ص ١٩٣ - ١٩٤.

أقاربه، وكذا صلاح الدين، وكان يد عمِّه اليمنى[١].

وصل شيركوه إلى القاهرة في السابع من شهر جمادى الثانية، وكان عموري لا يزال أمام أسوارها وحال دون تقدمه. ورأى عموري الذي خدعه شاور تفوق شيركوه عليه في الحرب، فعاد إلى فلسطين من غير حرب. ودخل شيركوه القاهرة، فقابله الناس بالترحاب، واستقبله الخليفة الذي قدر صنيعه وخلع عليه[٢].

وكان شيركوه يعتقد أن الفرصة لن تتاح له بامتلاك مصر ما بقي شاور فيها. لذلك قرر أن يقبض عليه في إحدى زياراته له، واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيدة، وقتل شاور بأمر الخليفة الذي ولى شيركوه الوزارة في ١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤ الموافق ١٨ يناير ١١٦٩؛ وخلع عليه، فظل فيها حتى مات في ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩)[٣].

(٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية:

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلي صلاح الدين الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه. وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية، لما مُنيت به من التطاحن الحزبي ومنافسات الوزراء المصريين.

وقد بدأت مواهب صلاح الدين تظهر بعد تقلده الوزارة بعد عمه فوطد العزم على تأسيس دولة واسعة الأرجاء. ولكي يصل إلى غرضه، خصص كل جهوده لطرد الصليبيين من البلاد[٤].

وقد عمل صلاح الدين على تقوية مركزه في مصر تدريجياً، لكي لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين. فبدأ يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة فكسب ثقة

---

(١) ابن الأثير: ج ١١ ص ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٦ و١٣٧.

(٣) ابن شداد ص ٤٧ و٤٨. ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ و٥٠٢.
ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) ان صلاح الدين نفسه هو الذي قتل شاور. وذكر الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد. مخطوطات Laud، القسم الشرقي رقم ٣٠٤، ورقة ١٣٥ ا) أن شيركوه ولي الوزارة قبل مقتل شاور.

(٤) ابن شداد ص ٤٨ و٤٩.

الأهلين واستمال قلوبهم بكرمه، وأخذ الناس يسارعون إلى طاعته[١] وأسند مهام الدولة إلى رجال من أنصاره.

وكان الخليفة العاضد ورجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداءهم لصلاح الدين، لذلك قامت المكائد بزعامة «نجاح» كبير الخصيان السود للقضاء على صلاح الدين، فعملوا على إصلاح ذات البين بينهم وبين الصليبيين لغزو مصر، فإذا ما خرج لهم صلاح الدين، هاجمه المتآمرون من مؤخرته، ووقع بين نارين، وقضوا عليه وعلى جنده من التركمان.

ولما علم صلاح الدين بما دبره له أعداؤه قبض على كبير الخصيان، وقُطعت رأسه (ذو القعدة ٥٦٤ يوليو ١١٦٩) وقتل كثير من بني جلدته. فأثار ذلك حنق جند الخليفة، وكان أكثرهم من السودانيين، فثار منهم خمسون ألفاً للأخذ بثأر نجاح واشتبكوا مع جند صلاح الدين في معركة عنيفة في المكان المعروف ببين القصرين، أحرق فيها كثيراً من الدور والحوانيت. ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين، وأحرق حيهم المعروف بالمنصورية، وطوردت فلولهم إلى الجيزة عن طريق النيل، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا في ثورتهم عدة سنين؛ إلى أن قضي عليهم نهائياً سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)[٢].

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر، أخذ في إرسال الحملات ضد الصليبيين، فغزوا ولايتي الكَرَك والشوبك بذهاب سلطانهم في فلسطين.

وكان من أثر ذلك أن اتحد الصليبيون مع البيزنطيين وساروا بحراً إلى مصر، فنزلوا أولاً على مقربة من دمياط، واستولى جماعة منهم على قصر عكاء (ربيع الثاني ٥٦٥ هـ ١١٦٩ - ١١٧٠). ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط، بادر إلى نجدة صلاح الدين فحاصر الكرك (شعبان ٥٦٥/ ١١٧٠)[٣].

وقد أعد صلاح الدين الذي آلت إليه السلطة المطلقة جيوشه وملأ دمياط بالذخائر والجند، ووعد بإرسال المدد إلى المدينة، ووزع عليهم الهدايا والهبات.

وقد نجح نور الدين في احتلال جزء من مملكة النصارى بفلسطين، وأرسل الأمداد إلى صلاح الدين الذي كان يعضده الخليفة العاضد طوال مدة الحصار الذي استمر خمسين يوماً، وأمده بنحو مليون دينار. وقد جعلت هذه الأمور إغارات الفرنجة عديمة الجدوى؛

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٩.

(٢) ابن شداد (ص ٥٢)، وابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و١٤٠).

(٣) ابن شداد ص ٥٠.

فاضطروا لرفع الحصار[١] بعد أن أحرقت مراكبهم، واستولى المصريون على آلاتهم الحربية وقتلوا عدداً عظيماً من جندهم[٢].

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فوصلت أسرته (جمادى الثانية ٥٦٥/ ١١٧٠)، فقلد أباه بيت المال، وأخلص له إخوته[٣].

وقد شجع إخفاق الفرنجة في غزوهم دمياط ـ ذلك الإخفاق الذي يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو: «خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين» ـ صلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزو الصليبيين في بلاد الشام؛ وبذلك بدأت سلسلة الإغارات التي لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة.

وقد اعتبر المصريون الشيعيون والتركمان السنيون صلاح الدين حامياً لهم، فاتفقوا معه على محاربة الصليبيين أعدائهم جميعاً؛ وشجعهم على ذلك ما شاهدوه في القاهرة من الأسلاب التي غنمها صلاح الدين من الفرنجة[٤]، ولما استقرت قدم صلاح الدين في مصر أسند المناصب الدينية إلى الفقهاء المتضلعين في عقائد المذهب السني، وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وأزال صلاح الدين من الجيش بعض العناصر التي كان يشك في إخلاصها. ولما أيقن نور الدين محمود أن صلاح الدين استأثر بالنفوذ دون الخليفة الفاطمي في مصر، وأن رجالات الدولة قد انضووا تحت لوائه، أرسل إليه كتاباً يطلب إليه فيه أن يحل اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي.

غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ هذه الرغبة، إذ كان يخشى أن يثير هذا العمل أهالي مصر، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين، بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين، ولم يكن بد من أن يقوم صلاح الدين بتنفيذ أمره.

وكان الخليفة الفاطمي العاضد مريضاً في ذلك الوقت، فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل اسم الخليفة الفاطمي، فوافقه بعضهم وأخذوا على عاتقهم تعضيده، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح[٥].

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمير، حل بمصر أخيراً. ولما رأى

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٢. (٣) ابن شداد ص ٥٢.
(٢) ابن شداد ص ٥٢. (٤) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٧. (٥) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

ترددهم عرض أن يتولى تنفيذ رغبة صلاح الدين ، فصعد المنبـر قبل الخـطيب في أول جمعة من المحرم ودعا للمستضيء العبـاسي . وفي الجمعة التـالية أمـر صلاح الـدين الخطبـاء أن يقيموا الخطبة للخليفة العبـاسي . وهكذا تم ذلـك التغيير من غيـر أن يلقى أية مقـاومة . ولـم ينتطح فيها عنزان ولم يختلف فيها اثنان(١) .

ولـم يخبر العاضد أحداً من أسرته بذلك الحدث وقالـوا «إن عوفي فهـو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته» . وتوفي هذا الخليفة في العاشر من المحرم ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من غير أن يعلم بهذا الحدث التاريخي العـظيم، فجلس صلاح الـدين للعزاء، واستولى على القصر .

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الفاطمي، الطواشي بهاء الدين قراقوش على القصر، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته في جناح منه، وأخرج الموالي من الذكور والإناث، وأعتق بعضهم .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد، بعد أن حكمت مصر عصراً طويلاً كـان عصر يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة، وإن زوال الدولة الفاطميـة الشيعية على يـد الأيوبيين السنيين وإعـادة الخطبـة إلى الخليفة العبـاسي ، بعد أن قـطعت في مصر كسـائـر الـولايـات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثماني سنين، كان في الواقع انتصاراً للسنة على الشيعة(٢) .

ثالثاً : الدولة الصليحية في اليمن :

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب بفضل جهود دعاة اليمن من أمثـال ابن حوشب وابن فضـل وغيرهما من اليمنيين الذين كـان لهم أثر بعيـد في نشر الـدعوة الإسمـاعيلية في اليمن والبحرين واليمامة وفي السند والهند ومصر والمغرب .

وقد تعرضت الإسماعيلية في اليمن لخـطر جسيم، بسبب قيام النـزاع بين ابن حوشب (منصور اليمن) وعلي بن فضل الذي خرج على الدعوة الإسماعيلية ولم يعبـأ بنفوذ عبيـد الله المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية في أواخـر سنة ٢٩٦ هـ . بـل لقد خلع طـاعة المهـدي وحارب ابن حوشب، واستولى على عدن، وحاصره بجبل مسور نحواً من ثمانية أشهر .

وكانت هذه الحرب من العوامل التي كان لها أثر بعيد في إضعاف الدعوة الإسمـاعيلية

---

(١) ابن الأثير : ج ١١ ص ١٤٩ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨١ وما يليها .

في بلاد اليمن. فقد مات ابن فضل مسموماً في سنة ٣٠٣ هـ؛ وخلفه ابنه، وكان ضعيفاً، فتمكن السنيون من القضاء عليه دون أن يحرك أنصار ابن حوشب ساكناً ويقدموا إليه أية مساعدة. وكذلك كان لموت منصور اليمن في سنة ٣٠٢ هـ أثر كبير في إضعاف هذه الدعوة الإسماعيلية ببلاد اليمن. فقد كان خلفاء منصور اليمن يأملون في بقاء رياسة الدعوة في أيديهم، ولكن عبيد الله المهدي قضى على هذه الآمال بتوليته عبد الله بن عباس الشاوي بعد منصور اليمن، مما أثار حنق أبنائه، حتى إن أحدهم خلع طاعة المهدي، وقتل الشاوي الذي آلت إليه رياسة الدعوة، ولم يصغ إلى نصيحة أخيه جعفر بن منصور اليمن الداعي صاحب المؤلفات الإسماعيلية الكثيرة، فتحول إلى المذهب السني.

وقد اتخذ السنيون من هذا الخلاف الذي تفاقم بين الإسماعيلية في اليمن فرصة للقضاء على هذا المذهب وأنصاره، مما حمل البقية الباقية من أنصار الفاطميين على التستر ونشر دعوتهم في الخفاء، حتى لا يتمكن السنيون من استئصاله، وظلوا على ذلك منذ أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حتى ظهرت قوتهم من جديد على يد علي بن محمد الصليحي حول منتصف القرن الخامس الهجري في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي.

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في اليمن على يد علي بن محمد الصليحي، وكان أبوه القاضي محمد بن علي من القضاة السنيين في هذه البلاد. ولما انتقلت الدعوة الإسماعيلية في اليمن إلى عامر بن عبد الله الزواحي (نسبْة إلى زواحى وهي قرية من أعمال حراز) داعي دعاة الإسماعيلية في اليمن، تقرب إلى القاضي محمد بن علي الصليحي الذي توسم فيه مخايل الذكاء والنجابة والعلم والتفقه في الدين. وقد قيل إنه كان عند عامر الزواحي كتاب حلية الصليحي من كتاب الضوء، وهو من ذخائر الأئمة العلويين، فأوصى إليه أن يكتبه قبل وفاته.

وقد تحول علي بن محمد الصليحي إلى المذهب الإسماعيلي وهو في حداثة سنه، وتفقه في أصول هذا المذهب. ثم حل محل عامر بن عبد الله الزواحي بعد وفاته، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة. وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم. ولما استقرت قدم علي بن محمد الصليحي في معظم أرجاء بلاد اليمن، كتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر يستأذنه في إظهار الدعوة الإسماعيلية له في هذه البلاد، فأذن له الخليفة بذلك بعد أن تبادل كل منهما الهدايا، ووجه إليه المستنصر «برايات

الصليحيون باليمـن

اسم الوالي

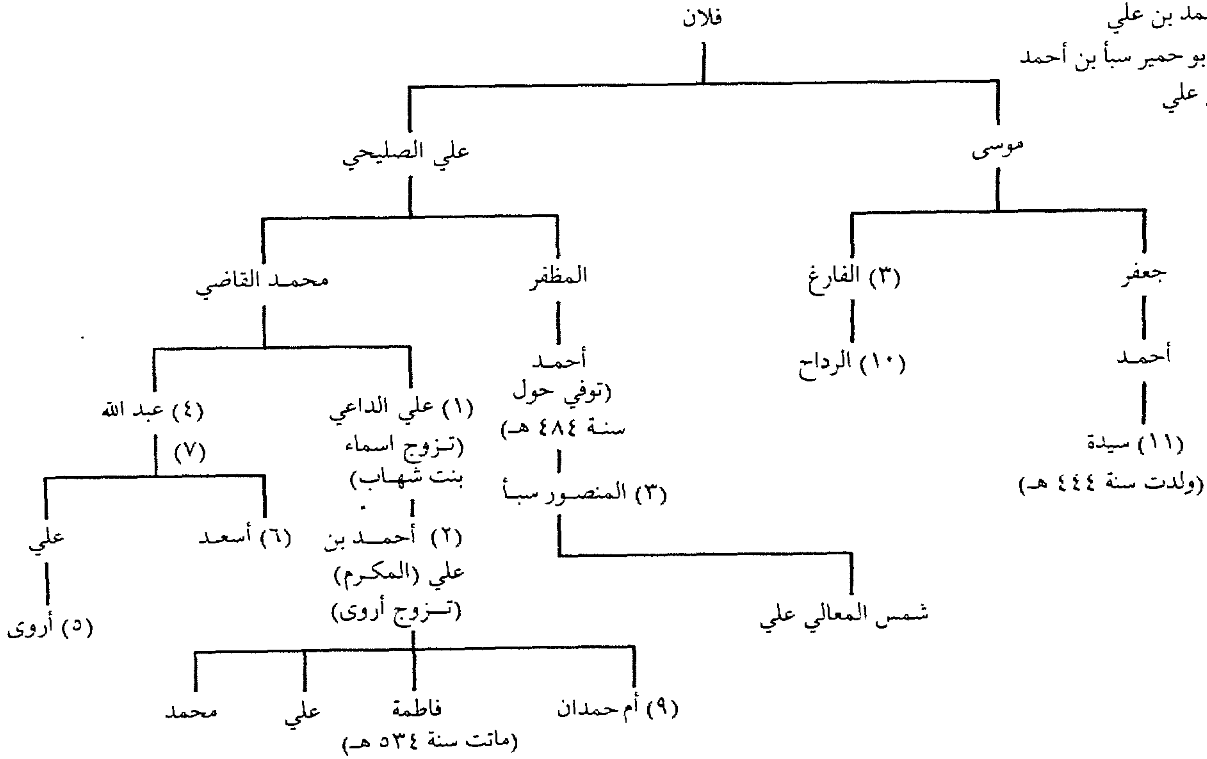
١ ـ أبو كامل علي بن محمد الـداعي (استولى على مكة ٤٥٥ هـ)

٢ ـ المكرم أحمد بن علي

٣ ـ المنصور أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن علي

سنة الولاية ٤٢٩ هـ ـ ٤٥٩

٤٨٤ أو ٤٨٧ ـ ٤٩٢



وألقاب وعقد له الولاية»(١). وقد شمر علي الصليحي عن ساعد الجد وأخذ يتنقل في البلاد داعياً إلى الإمام الفاطمي. ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد ذاعت في كافة أرجاء اليمن، ولم يبق من اليمن كما يقول عمارة اليمني، سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه علي الذي اتخذ صنعاء حاضرة لدولته، ويقص علينا عمارة اليمني(٢) أن علي بن محمد الصليحي شيد في اليمن القصور والدور وغيرها من المساكن الفخمة التي أصبحت بعد انقراض الدولة الصليحية مصدراً لمواد البناء من طوب وحجارة وأخشاب لكل من أراد بناء دار له. وهكذا أقيمت الخطبة للخليفة المستنصر على منابر اليمن وذكر اسم علي الصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب. وزالت الدعوة للخليفة العباسي في هذه البلاد.

ولى علي بن محمد الصليحي صهره أسعد بن شهاب على زبيد، مع أنه كان قد أقسم بألا يوليها إلا لمن يعطي له مائة ألف دينار، فلما ولى أسعد حكم زبيد تقدم إلى علي الصليحي بأموال كثيرة فقال له: من أين لك هذا؟واستولى على خزانته وقال: «هذه بضاعتنا ردت إلينا». وكان علي الصليحي برغم اعتناقه المذهب الإسماعيلي متسامحاً مع السنيين؛ فقد سمح لهم بإظهار المذهب السني الذي كانوا يدينون بعقائده. وقد ولى أبا علي محمد القم الوزارة وديوان الإنشاء. وكان القم شاعراً أديباً، على أن عليًّا الصليحي لم يترك لوزيره شيئاً من النفوذ. وفي سنة ٤٦٠ هـ بلغ عليًّا الصليحي أن ابن طرف خرج عليه بمؤازرة زعماء الحبشة والسودان، فسار إليهم وأحل بهم الهزيمة عند سفوح الجبال. وبعد أن استتب الأمر لعلي الصليحي ونشر نفوذه في جميع أرجاء اليمن، عاد إلى صنعاء وأقام بها اثنتي عشرة سنة وولى حصون اليمن وقلاعها ومدنها الهامة من يثق في إخلاصهم وولائهم. وانضوى تحت لوائه الأمراء وكبار رجالات اليمن. ثم عزم على التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج بصحبة زوجته أسماء بنت شهاب أم الملك المكرم الذي ولاه صنعاء في أثناء غيبته ببلاد الحجاز.

ولما كان ملوك الصليحيين في اليمن قد قاموا بخدمات جليلة للفاطميين، فقد وجد الخلفاء أن منح الألقاب لملوكها وأمرائها خير وسيلة لاكتساب ولائهم. وكانت هذه القبائل تطلق على أبناء هذا البيت ألقاباً كالتي كانت تمنح للأمراء والوزراء في مصر.

وكان الخليفة المستنصر يذكر في مكاتباته ألقاب الملك الصليحي في كل مناسبة. ولا

(١) الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣.
(٢) تاريخ اليمن ص ٢ وما يليها.

غرو فقد كان علي الصليحي في الواقع يحكم بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة الفاطمي، كما حرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر. ومما يدل على هذه التبعية التي كان يدين بها الصليحيون للخلفاء الفاطميين هذه الرسائل التي تبودلت بين علي بن محمد الصليحي والخليفة المستنصر الفاطمي. فقد بعث المستنصر إلى علي في عيد الفطر من سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) برسالة يقره فيها على ولاية اليمن ويذكر له أثره في نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاده(١).

ونستطيع أن نخلص مما تقدم بأن الخلفاء الفاطميين كانوا ينظرون إلى الصليحيين نظرتهم إلى كبار رجال دولتهم، فيمنحونهم هذه الألقاب الضخمة تشجيعاً لهم على الاستمرار في بث الدعوة لهم واستمرار ولائهم لهم. كما كانت هذه الألقاب تقابل من ناحية الصليحيين بالارتياح والشكر للإمام الفاطمي على هذه العناية، كما كانت هذه الألقاب من جهة أخرى تظهرهم أمام رعاياهم بمظهر القوة وتمكن من نفوذهم على أنه امتداد لنفوذ الإمام الفاطمي.

وبلغ من ثقة الخليفة المستنصر بعلي الصليحي واطمئنانه إلى ولائه أن منحه لقب «الأمير الأجل مشرف المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين»، كما لقبه أيضاً «منتخب الدولة وصفوتها ذا المجدين، منجب الدولة وغرسها ذا السيفين، نجيب الدولة وصنيعتها ذا الفضلين»(٢). كما عهد إليه المستنصر بإقرار الأمور في مكة والمدينة وإعادتها إلى حظيرة الدعوة الفاطمية. واستطاع علي الصليحي بما أوتيه من الذكاء أن ينهج نهجاً جديداً في بث عقائد المذهب الإسماعيلي. فاتخذ من موسم الحج فرصة لنشر تعاليم المذهب. وكان يولي العامة، وهم السواد الاعظم في كل مجتمع، ومنهم الجنود، وعن طريقهم تجبى الأموال، اهتماماً خاصاً. وكان يجذبهم إليه بتدينه وتفقهه في عقائد المذهب السني. على أنه لم يظهر حقيقة مذهبه إلا لمن يثق به. وبذلك استطاع علي الصليحي أن يوطد أقدام الفاطميين في بلاد الحجاز، وأن يعيد الخطبة إلى الخليفة الفاطمي على منابرها، وقد أشاد الخليفة المستنصر بفضل علي الصليحي وخلع عليه لقب «عمدة الخلافة»(٣).

---

(١) سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن ـ نشرها الدكتور عبد المنعم ماجد (القاهرة ١٩٥٤).

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رقم ٣ ص ٣٤.

(٣) المصدر نفسه. رسالة رقم ٢ ص ٣٢.

وكان موسم الحج من سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) فاتحة عهد جديد في نجاح الدعوة الإسماعيلية على يد علي الصليحي، فقد قيل إنه بايعه ستون رجلاً من قبيلة همدان على نصرة الدعوة أو الموت دونها. وكان هذا من غير شك نصراً، ولا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه على نصرة الدعوة الإسماعيلية كانوا في عزة ومنعة من قومهم، وهكذا اعتمد علي الصليحي في نشر دعوته على الخاصة والعامة على السواء.

وقد استطاع علي الصليحي أن يجمع اليمن تحت لواء واحد، وهذا ـ كما يقول عمارة اليمني[1] ـ أمر لم يعهد في جاهلية ولا إسلام، «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلي ابن محمد الصليحي، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه في مدة يسيرة بعد أن قهر ملوكه»، وهو لذلك لا يقل عن بعض القواد الفاتحين الذين ظهر اسمهم على صفحات التاريخ، وذلك بفضل ما أحرزه من انتصارات وما قام به من أعمال مجيدة في خلال هذه المدة القصيرة من حكمه.

وكان علي الصليحي إدارياً ممتازاً، أمر ولاة الأقاليم بأن يسيروا وفق السياسة التي رسمها لتكون أساساً ومنهجاً ومرجعاً له في كل ما يشكل عليه. وكانوا يرجعون إليه في كل شئون الدولة. كما كان يدعوهم إلى «مسار» حاضرة ملكه ويجتمع بهم من حين إلى حين للنظر في مهام أمور الدولة، ويذكرهم بواجباتهم وبالمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتقهم. وكانت أمور الدولة والدعوة مركزة في شخصه، إلا أنه كان مقيداً بالسياسة التي رسمها لنفسه من إقامة الحق وبسط العدل. ومن هذا يتضح كيف حكم علي الصليحي بلاد اليمن حكماً مستنيراً[2].

وقد أدخل علي الصليحي كثيراً من وجوه الإصلاح في بلاد الحجاز، فخصص أموالاً وفيرة للبيت العتيق وتشجيع موسم الحج، وأحسن معاملة الناس، ونشر العدل بينهم، واستمالهم إليه، وردع القبائل التي كانت تعترض طريق الحج، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص، فكسب بحسن سياسته رضا الخليفة وثقة كثير من أهالي البلاد الإسلامية بتسهيل سبل الحج وإشاعة الطمأنينة ونشر الأمن.

كما كسا علي الصليحي الكعبة بالديباج الأبيض، وجلب الأقوات إلى الحجاز، مما ألهج نفوس أهليه بالثناء عليه والدعاء له. وقد أقام سياسته على أساس العدل والحق، كما تقدم، وأثر عنه أنه قال: «أنصف المظلوم وأقمع الظالم» وهذا يذكرنا بقول أبي بكر

---

(١) تاريخ اليمن (طبعة كيي Kay ص ١٨).

(٢) عمارة اليمني ص ٣٠٨.

الصديق في خطبته التي ألقاها في اليوم الذي بايعه فيه المسلمون: «والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه»[١].

وكان الخليفة المستنصر الفاطمي يبعث إلى علي الصليحي بأنباء الأحداث الهامة في مصر ليذيعها على الناس ويعلنها من فوق منابر بلاده. فلما أغار عرب بني هلال على إفريقية وهزموا المعز بن باديس في معركة حيدران (بفتح الحاء وسكون الباء وضم الدال) في المغرب، بعث الخليفة الفاطمي إلى علي الصليحي بنبأ هذا النصر[٢]. وقد بلغ من تعلق علي الصليحي بالخليفة الفاطمي أن كتب إليه يستأذنه في السفر إلى مصر ليحظى بلقائه، وبعث إليه بكتابه مع الداعي ملك بن مالك. فأرسل إليه الخليفة كتاباً يأذن له بالحضور إلى مصر. ولكن علي الصليحي ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج، واستخلف ابنه المكرم بصنعاء، واغتيل علي الصليحي على يد سعيد الأحول بن نجاح وهو في طريقه إلى مكة[٣].

ولم تفتر علاقة الفاطميين بالصليحيين بوفاة علي الصليحي، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المكرم. ذلك أن الخليفة المستنصر ما كاد يسمع بنبأ مصرع علي الصليحي، حتى كتب إلى ابنه المكرم يعزيه في وفاة أبيه ويقره على ملكه ويعهد إليه بشئون الدعوة الفاطمية في اليمن وينصح له بأن يسير سيرة أبيه في بسط العدل وحسن السيرة[٤].

ولم يفت الخليفة المستنصر أن يغدق على المكرم الألقاب والنعوت التي تقربه من الخليفة وتحببه فيه وتشجعه على السير وفق سياسة أبيه، فلقبه بهذه الألقاب الضخمة التي كانت مألوفة في ذلك العصر؛ من هذه الألقاب: «أمير الأمراء شرف المعالي عز الملك منتخب الدولة وغرسها ذو السيفين أبو الحسن ابن الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة شرف المعالي تاج الدولة الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين»[٥].

وكان أحمد بن علي الصليحي ضخم الجسم فارع الطول فارساً مقداماً، اتصف بالشجاعة والكرم، وكان الخليفة المستنصر الفاطمي قد لقبه المكرم سنة ٤٥٦ هـ، وذلك في حياة أبيه، وأصبح ولياً للعهد بعد وفاة أخيه الأكبر محمد الأعز، وأخذ يتدرب على إدارة شئون البلاد حتى تسلم عرش الدولة الصليحية.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٥ ص ٤٥.

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٢١٥.

(٤) الهمداني وحسن سليمان ص ٢١٦.

(٥) سجلات وتوقيعات المستنصر: رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧.

وكانت الصعاب تحيط بالمكرم في أول عهده. فقد قتل أبوه وهو في طريقه لأداء فريضة الحج كما تقدم، وأسرت أمه الملكة السيدة الحرة الصليحية أسماء بنت شهاب وغيرها من حرائر بني الصليحي وقضي على خيرة رجال دولته. وتفاقم خطر بني نجاح كما سيأتي الكلام عليهم بعد قليل، وكاد يقضى على الدولة الصليحية لأن أعداءها تربصوا بها الدوائر، وأخذ بعض الولاة ينقضون عهدهم حتى كاد نفوذ الصليحيين يتلاشى من كافة أرجاء بلاد اليمن، ولم يبق في أيديهم إلا التعكر، وكان العبيد قد حاصروه، وتآمرت القبائل من كهلان وعنس وزبيد ويحصب على الصليحيين، وامتد التمرد إلى صنعاء نفسها حيث كان المكرم يقيم فيها مع جماعة من الموالين من أتباعه.

ولعل السبب فيما أحاط بالمكرم من صعاب وما انتشرفي دولته من روح التمرد في أوائل عهده، يرجع إلى أن أهل اليمن في ذلك العهد لم يألفوا الخضوع لسلطات حكومة مثل تلك الحكومة المركزية التي أقامها علي الصليحي، الذي لم يستطع برغم ما بذله من جهد أن يحمل اليمنيين على الخضوع لسلطة حكومة مركزية. كما أن خضوع اليمن كلها لسلطان علي الصليحي لم يكن عن رغبة من أهلها، بل كان نتيجة للحرب التي شنها على ولاياتهم المختلفة، وما استعان به من دهاء وسياسة في سبيل توحيد دولته. لذلك لا عجب إذا وجد الحكام في موت علي بن محمد الصليحي فرصة سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة.

على أن المكرم قد صمم على قتال الخارجين عليه، واستطاع بفضل ما أوتيَ من الشجاعة وصدق العزيمة أن يذلل هذه الصعاب وأن يتخذ من ذلك اليأس الذي ولدته هذه الحالة التي يكتنفها الاضطراب مصدراً للشجاعة والإقدام، واستطاع هو وأعوانه أن يرفعوا الحصار عن صنعاء، وتتبعوا الأعداء وانتصروا عليهم. وكان أهم المواقع التي انتصر فيها جند المكرم موقعة الملوي، وموقعة ذي أشرق، وموقعة زبيد.

ولعل تخليص الملكة السيدة الحرة أسماء أم الملك المكرم يعد من أهم الأحداث التي وقعت في عهد هذا الملك الصليحي، وقد ذكر عمارة اليمني أن السيدة الحرة دبرت مؤامرة لقتل سعيد الأحول ابن نجاح. وكان من أثر ذلك أن قتل أبوه وأسرت أمه.

فلما آل الملك إلى المكرم عمل على تخليص أمه من الأسر، وقد روىٰ المؤرخون أن المكرم وقف تحت طاقة أمه الملكة أسماء بنت شهاب فقال لها، وكانت لا تعرفه: أدام الله عزك يا مولاتنا، فقالت: مرحباً بأوجه العرب. ثم سألته من هو، فقال لها: أنا أحمد بن علي ابن محمد، فقالت: إن أحمد بن علي في العرب كثير، فاحسر ليْ عن وجهك حتى أعرفه،

فرفع اللثام عن وجهه، فقالت: مرحبا بمولانا المكرم، من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ. ثم دخل رؤساء العرب فسلموا عليها وقد كشفت عن وجهها، وكانت هذه عادتها في أيام زوجها لسمو قدرها عمن يحتجب عنه النساء، فنزل المكرم عن ظهر جواده، وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر وعفر خده في التراب، وأحرقت الدور التي اعتصم بها العبيد(١).

احتط المكرم أحمد الصليحي في مدينة ذي جبلة كثيراً من القصور والدور، كدار العز، والتي كان أكثرها يطل على النهرين. كما شيّد المساجد، وبنى قبراً لأمه السيدة الحرة أسماء، واستخلف عمران بن الفضل على صنعاء. وقد عرف المكرم كما عرف أبوه من قبل بحسن السيرة في الرعية، وآثر أن يعامل الناس بالحسنى حتى يجذب إليه قلوبَهم. كما نال تقدير الرعية بما أحرزه من نصر وظفر. وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ خرج سعيد الأحول من بني نجاح من تهامة على رأس جيش كبير وقصد صنعاء، فتصدى المكرم الصليحي لقتاله وانتصر عليه وأرغمه على الهرب. وأقبل الناس على المكرم يطلبون منه الأمان، فأجابهم إلى ذلك. وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦١ هـ توجه المكرم إلى صنعاء فدخلها، وحمد الله وأثنى على الإمام المستنصر الفاطمي وعزا إليه ما أحرزه من نصر وما تم له من فتح(٢).

وكان الخليفة المستنصر يهتم بما يجري في اليمن ويتابع ما يصيبه الصليحيون من نصر؛ فلما علم أن المكرم انتصر على سعيد الأحول ابن نجاح، كتب إليه يعلن سروره ويعرب عن اغتباطه بهذا النصر(٣).

وقد ساد الأمن في أنحاء دولة المكرم بعد أن قضى على الفتن والثورات حتى عاد إلى صنعاء في شهر شعبان سنة ٤٦١ هـ، وهنا عول على الأخذ بالثأر من سعيد الأحول وبني جلدته ليستريح من شرهم، وكان يرى فيهم عدوه التقليدي، فقام المكرم من صنعاء وقصد سعيداً الأحول في زبيد، ثم جاءته الأخبار بأن سعيداً تحرك إلى المخلاف أو إلى عدن، فاتجه المكرم بمن معه من همذان وأهل حراز نحو جبل الشعر حيث عسكر سعيد ومن معه من الأحباش الذين استولى الرعب على قلوبهم، وحمل المكرم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة، وقتل سعيد الأحول وحمل رأسه إلى المكرم الصليحي، كما قتل من بني نجاح بلال بن

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: اليمن البلاد السعيدة ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ٣٠.
(٣) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨.

نجاح وأخوه مالك، وعاد المكرم إلى زبيد، وصلى بالناس وخطب فيهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه وحمد الله على ما أولاه من نعمة النصر عليهم والأخذ بثأره. ثم ترك المكرم زبيد بعد أن ولى عليها السلطان أبا حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحي، وعزم على متابعة فلول جند جياش بن نجاح، ولكنه علم أنه هرب إلى بلاد الهند(١).

وقد تتابعت كتب المستنصر الفاطمي إلى المكرم الصليحي الذي ظل على ولائه للفاطميين، حتى لقد ولاه الخليفة ولاية عمان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)، كما أمره بالعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في بلاد الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي العلوي أمير الأحساء. وفي ٢٩ ذي الحجة سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) بعث الخليفة المستنصر ينبئه بتقليد أمير الجيوش بدر الجمالي والي عكاء منصب الوزارة، وما بذله من جهود في سبيل إقرار الأمن والسكينة في ربوع البلاد.

توفي المكرم في سنة ٤٨٤ هـ بعد أن أصيب بالفالج، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر. ولكن زوجته السيدة أرْوى الحرة لم ترض بهذا الاختيار، لأنها كانت تريد أن تولي ابنها عبد المستنصر، وكان لا يزال طفلاً، وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه أن يقر ابنها على بلاد اليمن؛ وقد أجابها الخليفة الفاطمي إلى طلبها، وأخذ يرسل الرسائل باسم عبد المستنصر. ولكن أمراء اليمن لم يعترفوا بهذا الغلام، واحتدم النزاع بين الداعي أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبي ربيع سليمان ابن الأمير الزواحي أخي الملكة أروى الصليحية. وهدد النزاع الذي قام بين الصليحيين والزواحيين النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن فأرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى أطراف النزاع ينهاهم عن هذا الخلاف، ويأمرهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر ويشيد بالخدمات التي أداها علي الصليحي وولده أحمد المكرم وزوجته السيدة الحرة(٢).

ويظهر أن النفوذ الفاطمي في اليمن كان لا يزال على قوته وأن الأحداث لم تكن لتستطيع أن تضعف من شأنه بدليل استجابة الفريقين المتنازعين لنداء الخليفة الفاطمي وتأييدهم السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر. وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الفاطمي تزف إليه هذا النبأ، فرد عليها برسالة يبدي فيها سروره واغتباطه(٣).

على أن عبد المستنصر لم يعمر طويلاً، فقد وافته منيته، واحتدم النزاع بين الداعي

(١) الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ١٣٠ ـ ١٣٢.
(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٣٨ ص ١٣١.
(٣) المصدر نفسه، رسالة رقم ٣٦ ص ١٢١.

سبأ بن أحمد وبين السيدة الحرة، لأنه كان يريد أن يئول إليه حكم بلاد اليمن وأن يتزوج منها. ولكن السيدة الحرة أبت عليه ذلك، فسار سبأ إليها على رأس جيش عظيم، ونشب القتال بين الفريقين، وطلب سبأ من الخليفة الفاطمي أن يتدخل في أمر هذا الزواج، فكتب الخليفة إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه حسماً للنزاع ودرءاً للفتن، فتزوجته نزولاً على أمر الإمام الفاطمي، مما يدلنا على مبلغ نفوذ الفاطميين في نفوس اليمنيين.

وقد أنفذ الخليفة المستنصر رسولاً إلى السيدة أروى فقال لها: «وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على ما حضر من المال، وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف». ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تلبي نداء الإمام الفاطمي، ورضيت أن تتزوج بمن تكرهه. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على ما كان للخلفاء الفاطميين من نفوذ روحي في بلاد اليمن، لأن السيدة أرْوَى اعتبرت الخروج على أمر الخليفة خروجاً على الدين[1].

وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي، تراسله وتراسل أمه وأخته، حتى وثق بها هذا الخليفة كل الثقة، وعهد إليها أن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهند وفي عمان، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد[2]، كما ظلت العلاقة بين الصليحيين قوية وثيقة بعد وفاة المستنصر في سنة ٤٨٧ هـ. فبادرت السيدة الحرة إلى الاعتراف بالخليفة المستعلي برغم أنه لم يفز بإجماع أنصار الفاطميين في مصر. فقد عمد الأفضل بن بدر الجمالي إلى إقصاء نزار بن المستنصر عن العرش، وبايع أخاه أبا القاسم أحمد، ولقبه المستعلي بعد أن هدد الأمراء وحملهم على تأييده. وكتب الخليفة الجديد إلى السيدة الحرة رسالة يرجع تاريخها إلى ١٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ ـ ١٠٩٦) يصف فيها ثورة أخيه نزار وتغلب وزيره الأفضل عليه، وما كان من اعتقال نزار والقضاء على ثورته.

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ ـ ١١٠٢) آل حكم التعكر إلى الملك المفضل، وكانت التعكر ـ التي اتخذ ملوك اليمن إحدى مدنها وهي ذو جبلة حاضرة لهم ـ تحت حكم السلطان عبد الله بن محمد الصليحي أخي علي بن محمد مؤسس الدولة الصليحية في اليمن، وقد صحب المفضل وعبد الله علياً الصليحي في الحج وقاتلا معه وهما

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ٣٣.

(٢) Hamdani, Letters of al-Mustansir (B.S.O.S.) (1939), Vol. III, part II, p. 321.

في طريقهما إلى الحج. فلما جلس المكرم على عرش الدولة الصليحية ولى أسعد ابن عبد الله الصليحي على التعكر، ولكنه كان سيىء السيرة، فصرفه الملك المكرم عنها. وقد عظم شأن الملك المفضل الصليحي وامتد نفوذه على كثير من أرجاء اليمن. وكان سمحاً عادلاً كريماً يسهر على تدبير شؤون بلاده(١).

وفي سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) قدم إلى اليمن ابن نجيب الدولة، وكان أميناً على خزانة الكتب الأفضلية، متفقهاً في الدين، غزير العلم واسع الدهاء، إلى حد أنه تقرب إلى الملك وأصبح موضع ثقته، فقلده الوزارة ووكل إليه النظر في شئون دولته والعمل على قمع الفتن والثورات(٢).

ولما مات الملك المفضل سنة ٥١٥ هـ، وخلفه المأمون البطائحي، قوي شأن ابن نجيب الدولة، وتفاقمت سلطته حتى آل إليه الأمر، وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الآمر الفاطمي في مصر. وأرسلت إليه هدية من الجواهر النفيسة بلغت قيمتها أربعين ألف دينار، وأعربت عن ولائها له، وأكدت له رضاء الشعب اليمني على ابن نجيب الدولة(٣).

كان عهد ابن نجيب الدولة عهد استقرار وأمن في ربوع اليمن ودعم لعلاقاتها مع مصر الفاطمية حتى مات، فكان ذلك إيذاناً بقيام الفتن والثورات بين أمراء اليمن وحكامها من ذوي المطامع حتى استتب الأمر إلى الداعي محمد بن سبأ، وهو من سلالة علي الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ومن أشراف بلاد اليمن، حتى مات سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) وآل الملك من بعده إلى عمران بن محمد بن سبأ.

ولم يتأثر دعاة الإسماعيلية في اليمن بما أصاب الفاطميين من نزاع وفرقة إثر وفاة الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م)، فظلت السيدة الحرة تقيم الدعوة للخليفة المستعلي وتدين له بالولاء، برغم تفشي النزارية وتأييد الخولانيين لهم، مما هدد بلاد اليمن بمثل ما أصاب مصر من فرقة ونزاع. ولما علم الخليفة الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ) بذلك، أرسل الداعي علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى بلاد اليمن في سنة ٥١٣ هـ ليقف إلى جانب السيدة الحرة ويعينها في صراعها مع أعدائها. وظل ابن نجيب الدولة يعين الملكة الحرة في تدبير شئون البلاد واستقرار الأمور فيها. كما أرسل المأمون البطائحي وزير الآمر إلى ابن نجيب الدولة قوة من الفرسان، تشد أزره في نضاله مع أمراء اليمن. ولكن هذا

---

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ٣٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ و٤٧.

الداعي الفاطمي خرج على الفاطميين وانحاز إلى النزارية؛ فأرسل الخليفة الآمر يطلب منها تسليم الداعي، فقبض عليه وأرسل إلى القاهرة حيث قتل(١).

وقد حفظ الخليفة الفاطمي الآمر للسيدة الحرة إجابته إلى طلبه وتنفيذ أمره، فأرسل إليها في شهر ربيع الأول من سنة ٥٢٤ هـ يبشرها بمولد ولي عهده أبي القاسم الطيب، ويطلب إليها أن تذيع هذا النبأ في بلاد اليمن. ولما قتل الآمر في سنة ٥٢٤ هـ كتم الأمير عبد المجيد بن محمد (الحافظ) ابن المستنصر أمر هذا الطفل(٢). وبذلك صرفت الخلافة عن الإمام الطيب ابن الآمر، وساء ذلك التصرف السيدة الحرة، فاعتبرت إمامة الحافظ باطلة، برغم ما بذل من جهود في سبيل استمالتها إليه، وظلت السيدة الحرة تدعو للطيب على منابر بلادها، بل عملت على إقامة الدعوة له في بلاد الحجاز. ولم يجد الحافظ بداً من أن يرسل إلى آل زريع في اليمن يطلب إليهم أن يدعوا له، وقلد علي بن سبأ بن زريع حكم هذه البلاد ولقبه «الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين».

وبذلك انقسمت الإسماعيلية ببلاد اليمن إلى فريقين: فريق يؤيد الطيب، وفريق يؤيد الحافظ. وكان من أثر هذا الانقسام أن ساءت أحوال بلاد اليمن، ولا سيما بعد وفاة السيدة الحرة في سنة ٥٣٢ هـ. في الوقت الذي آذنت الخلافة الفاطمية بالزوال، وما لبث الأتابك نور الدين محمود بن زنكي أن تدخل في شئون مصر، وتقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة، وقضى على الخلافة الفاطمية في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م)، وتطلع إلى بلاد اليمن، فأرسل حملة بقيادة أخيه الأمير توران شاه، الذي استولى على هذه البلاد، وقضى على نفوذ الفاطميين فيها، كما قضى على النفوذ الفاطمي في مصر نفسها.

هكذا استمرت هذه الوحدة في العقيدة الإسماعيلية بين مصر والمغرب والشام واليمن بضعة قرون، كانت وحدة في النواحي السياسية والثقافية والحضارية. وكانت مدارس صنعاء والقاهرة والقيروان ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب، وتترابط في وحدة فكرية عميقة الجذور. وإن انقسام العالم الإسلامي إلى كتلتين مذهبيتين متنازعتين: الكتلة السنية في العراق، ثم الكتلة الشيعية في مصر واليمن والشام قد انتهى إلى اتحاد عام شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وإنقاذ العالم الإسلامي مما حاق به من هذا العدوان الأثيم(٣).

---

(١) عمارة اليمني ص ٤٣ ـ ٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٩ ـ ٢٤٧؛ واليمن: البلاد السعيدة ص ٧١ ـ ٨٩.

رابعاً ـ اليمن قبل الأيوبيين:

(أ) بنو نجاح في زبيد (٤١٢ ـ ٥٥٤/١٠٢١ ـ ١١٥٩):

كان نجاح مؤسس دولة بني نجاح من أرقاء الحبشة وآخر نظار السراي في الدول الزيادية، وقد حكم زبيد إلى أن توفي سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م). واستولى الصليحيون إذ ذاك على المدينة المنورة التي أصبحت جزءاً من ممتلكاتهم إلى سنة ٤٧٧ هـ. وقد بعث علي ابن محمد الصليحي جيشاً يتكون من خمسة آلاف رجل لقتال بني نجاح وأنزلوا بهم الهزيمة.

وبذلك استقر الملك للصليحيين وازدهرت الحضارة في عهدهم، وظهر العلماء والفقهاء مثل جياش بن نجاح. ومما يدل على استتباب الأمر للصليحيين ما كان من وفود مائة وسبعين سلطاناً من أمراء اليمن على الصليحي يعلنون ولاءهم له ويلتمسون حمايته، فرد عليهم بهذه العبارة: «إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا، وقد أحسنا إليكم وحملنا إليكم الصيانة والعفو». فرد عليه أحدهم بقوله: «والله يا مولانا لئن فعلت ذلك لنازعتك قحطان في ملك تهامة، ولئن كرهته بذلك ليهيجن حفائظها، ولتطلبن دخولها». فأجاب بقوله:

لا تقطَعنْ ذَنَب الأفعى وترسلها ... إنْ كنتَ شهماً فأتْبع رأسَها الذَّنبا

ثم دارت الأيام دورتها على الصليحيين واسترد بنو نجاح سلطانهم على بلاد اليمن وقتلوا من الصليحيين خلقاً كثيراً. ويقص علينا عمارة اليمني ـ وكان شاهد عيان لما كان يجري في اليمن من أحداث بني نجاح ـ فيقول: فرأيت شيخاً منهم (يعني من الصليحيين) اتقى الحربة بولده، فنفذت منهما جميعاً، نعوذ بالله من جهد البلاء. قال جياش: لا أنسى رأس الصليحي في عود المظلة وقراءة المقرىء: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾)(١)، ولا أنسى قول الشاعر العُماني من قصيدة أنشدها مرتجلاً في هذا المقام يصف المظلة:

ما كان أقبح وجهه في ظلها ... ما كان أحسن رأسه في عودها!

فانظر إلى تفاني الشعراء في إرضاء بني نجاح بقتل عدوهم الصليحي وتقبيح وجهه في حياته مع تجميله في وفاته. وهذا يدل على الشماتة حتى عند وفاة العدو. ولا شك أن قصر

(١) سورة آل عمران ٣: ٢٦.

عهد أسرة الصليحيين إنما يرجع إلى ما اتصفوا به من التسامح والعفو عند المقدرة الذي يجذب القلوب ويشيع الطمأنينة في النفوس.

وكان من أثر هزيمة الصليحيين على أيدي بني نجاح أن هاجر هؤلاء إلى الهند فراراً من حنق أعدائهم. وعاد الأمر في اليمن إلى بني نجاح، وامتلأت صدور الناس هيبة من أول ملوكهم وهو سعيد بن نجاح بعد مقتل علي الصليحي، وتغلب الولاة على ما كان في أيديهم من القلاع، واستقر الأمر في تهامة لسعيد الأحول ابن نجاح في سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م)[١].

وقد تقلبت زبيد أكثر من مرة في خلال حياة سعيد الأحول بين أسرتين. وبعد سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) استمرت زبيد بصفة مستديمة تحت حكم بني نجاح حتى أفسحت دولتهم (التي وقعت تحت حكم سلطان الوزراء) الطريق إلى المهديين في سنة ٥٥٤ هـ (١٠٥٩ م).

ولم يكن لأولاد فاتك بن جياش من الأمر إلّا الظاهر فقط، كإقامة خطبة الجمعة بذكر اسمهم بعد اسم الخلفاء العباسيين ونقشه على السكة، وركوبه بالمظلة في أيام المواسم. أما السلطة الفعلية فقد كانت في أيدي الوزراء من الأحباش. وكانت السلطة في عهد المنصور بن فاتك بن جياش (٥٠٣ ـ ٥١٧/١١٠٩ ـ ١١٢٣) في أيدي الوزراء كما كانت في عهد أبيه. ومن هؤلاء الوزراء أنيس الفاتكي، وهو من الأحباش أيضاً. وقد امتاز بالشجاعة ولو أنه اتصف بالشدة. وقد أثرى هذا الوزير ثراءً كبيراً من الأموال التي استولى عليها من بني نجاحٍ، حتى إنه بنى قصراً عظيماً اتخذه داراً لإقامته، بلغ عرض كل قاعة من قاعاته ثلاثين ذراعاً، وعرض كل مجلس من مجالسه أربعين ذراعاً، وسك النقود باسمه، وأراد أن يفتك بالمنصور بن فاتك، ولكن المنصور دبر له كميناً وقضى عليه، واستولى على أمواله وجواريه، ومن بينهن جارية مغنية تدعى «علم» تزوجها المنصور فولدت له ابنه فاتك الثاني ابن المنصور الذي آل إليه الحكم في سنة ٥٠٣ هـ[٢].

وقد خلف أنيس الفاتكي الوزير وزراء امتاز عهدهم بالمنافسة على الوزارة، وقامت الفتن في البلاد. ومن هؤلاء الوزراء أبو منصور مفلح الفاتكي، وكان حبشياً كذلك؛ امتاز بالأدب والشجاعة والكرم.

ولما مات فاتك الثاني انتقل حكم اليمن إلى فاتك الثالث ابن منصور (٥٣١ ـ

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ٦٠ ـ ٦٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ ـ ٧١.

١١٣٦/٥٥٢ ـ ١١٥٨). وفي عهده ظهرت في بلاد اليمن طبقة من العبيد، منهم ريحان الأكبر، وإقبال، ومسرور، الذين علا نفوذهم على نفوذ الوزير. وكان من أثر تآمرهم على لوزير مفلح أن أبعد بحجة محاربة ثوار عدن، فظل مقصياً حتى مات سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م). وتقلد الوزارة من بعده طائفة من العبيد حتى زالت دولة بني نجاح قضى عليها علي بن مهدي سنة ٥٥٤ هـ (١١٧٣ م). وقد اضطربت البلاد بعد وفاته، ولم ستقر الحكم إلا بعد أن استولى عليها بنو مهدي، وكانوا من الخوارج.

(ب) بنو مهدي (٥٥٤ ـ ١١٥٩/٥٦٩ ـ ١١٧٣):

خلف المهديون أو بنو مهدي بني نجاح في زبيد. وكان علي بن مهدي والياً ونبياً في هامة، جذب إليه أشياعاً أطلق عليهم الأنصار والمهاجرون. وفي سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) دأ علي بن مهدي يحتل الحصون ويخضع البلاد. واستطاع أخيراً أن يهاجم زبيد ويغزوها (١١٥٩/٥٥٤).

وقد استقر علي بن مهدي في يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م)، ولكن عهده لم يدم أكثر من شهرين. ومات في شهر شوال من تلك السنة، وخلفه ابنه المهدي (٥٥٤ ـ ١١٥٩/٥٥٨ ـ ١١٦٢). ثم ابنه الثاني عبد النبي الذي خلع وخلفه أخوه عبد الله. لكن الحكم ما لبث أن عاد إلى عبد النبي من جديد. وقد بسط نفوذه على جميع بلاد اليمن، وعلى تهامة وبعض المراكز والمدن المجاورة، إلّا عدن التي ظلت تدفع له الجزية فحسب[1].

وقد ذكر المؤرخون أن عدد الإمارات اليمنية التي خضعت لسلطان عبد النبي بلغ خمسة وعشرين، وأن ثروته قد زادت زيادة تتجلى فيما تركه من المجوهرات والقصور لعظيمة والملابس الثمينة.

وكان بنو المهدي لا يثقون في أتباعهم إلّا إذا ذبحوا أحد أبنائهم، ولو كانوا من عشيرته. وكان هؤلاء الأتباع يتفانون في تحقيق هذه الرغبة، وذلك بتضحية أبنائهم، اعتقاداً نهم بنبوة حكام هذا البيت وأنهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب. وقد استقر الحكم في ني نجاح حتى فتح الأيوبيون بلادهم في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م)[2].

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٩.

(جـ) بنو زُرَيْع[1] في عدن

(٤٧٦ ـ ٥٦٩/١٠٨٣ ـ ١١٧٣):

نصب المكرم الصليحي عباساً ومسعوداً ابني المكرم حاكمين على عدن سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م). وقد استمر حكمهما المشترك أجيالاً عدة. وقد انتهك أبو السعود وأبو الغارات استقلال ملك صنعاء، ولكنهما لم يستطيعا الاستمرار بصفة دائمة. وكانت هذه الدولة أهم دول اليمن بعد الصليحيين. وقد دامت حتى فتحها الأيوبيون سنة ٥٦٩ هـ.

وقد لقي ملوك بني زريع صعاباً كثيرة حتى توطد ملكهم في آخر الأمر في عدن. وكانت هذه الولاية من أمنع ولايات اليمن. ويعد سبأ بن أبي السعود بن زريع أول ملوك هذه الأسرة. وكان تقلد أمراء هذه الولاية الحكم يصدر من الخليفة الفاطمي في مصر منذ عهد الحافظ. ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع شاعر مصري من الإسكندرية يدعى ابن قلاقسي. ومن قصائده في مدح ياسر بن بلال وزير محمد بن سبأ:

سافر إذا حاولت قدرا سفر الهلال فصار بدرا

وفي أواخر عهد دولة بني زريع ضعف نفوذ حكامها حتى صار الأمر إلى وزيرهم ياسر ابن بلال الذي قبض على زمام الحكم في عهد محمد عمران بن محمد بن سبأ فكان آخر ملوك بني زريع. ثم دخل الأيوبيون بلاد اليمن في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م)[2].

خامساً ـ اليمن في عهد الأيوبيين:

وكما شاركت اليمن في الجهاد بعد ظهور الإسلام، كذلك شاركت في الجهاد ضد الصليبيين والتتار. ذلك أنه لما قامت الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي قامت المنازعات بين حكام اليمن؛ فكانت عدن ومخلاف الجند (بفتح الجيم والنون) في يد بني زريع، وكانت صنعاء وبعض مخاليفها في يد بني حاتم، وكانت صعدة (بفتح الصاد وسكون العين) والجوف في يد الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان الزيدي. وكان المخلاف السليماني في يد الشريف غانم بن يحيى بن حمزة، وزبيد وما حولها في يد عبد النبي بن محمد بن علي. وقد قامت بين حاكم المخلاف السليماني وحاكم زبيد منازعات انتهت بقتل غانم بن يحيى واستنجاد أخيه بالخليفة العباسي في بغداد، فكتب إلى

(١) بضم الزاي وفتح الراء وسكون الياء.

(٢) عمارة اليمني ص ١١ ـ ١٢.

السلطان صلاح الدين في مصر؛ فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م).

ويعتبر الفتح الأيوبي لبلاد اليمن أعظم حدث في تاريخ بلاد العرب الوسيط، فقد وحد أمراء بيت صلاح الدين بين اليمن ومصر وسورية وبلاد الجزيرة، وفتح توران شاه زبيد وصنعاء ثم استولى على عدن، وأناب عنه حطان بن كامل بن منقذ الكناني في حكم زبيد وعاد إلى سورية (١١٧٥/٥٧١)، فأضاف إليه أخوه صلاح الدين ولاية الإسكندرية، وبقي نوابه في اليمن إلى أن توفي سنة ٥٧٦ هـ، فولى صلاح الدين عليها أميراً من قبله. ثم ولى أخاه طغتكين بن أيوب بلاد اليمن فبقي بها حتى مات سنة ٥٩٣ هـ، وخلفه ابنه العزيز إسماعيل، ولكنه أساء السيرة فقتله أمراؤه وخلفه أخوه الناصر.

وهكذا توالى ولاة الأيوبيين على بلاد اليمن قرابة نصف قرن (٥٦٩ - ٦٢٥/١١٧٣ - ١٢٢٨).

وإليك سلسلة نسب الأيوبيين في بلاد العرب من حيث صلتها بالفرع الذي كان على حكم مصر، نذكره هنا لأهميته لتاريخ بلاد اليمن:

هجرية		ميلادية
٥٦٩	الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) ابن أيوب	١١٧٣
٥٧٧	الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (وصل إلى اليمن ٥٧٨ هـ)	١١٨١
٥٩٣	معز الدين إسماعيل بن طغتكين	١١٩٦
٥٩٨	الملك الناصر أيوب بن طغتكين	١٢٠١
٦١١	الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه (الثاني) (توفي سنة ٦٤٩ هـ)	١٢١٤
٦١٢ - ٦٢٥هـ	الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل	١٢١٥ - ١٢٢٨ م

سادساً - بنو رسول وبنو الرّسّي في اليمن:

(أ) بنو رسول (٦٢٦ - ٨٥٨/١٢٢٩ - ١٤٥٤)

خلف بنو رسول الأيوبيين في حكم اليمن سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م). وقد جاءوا إلى هذه البلاد مع الأيوبيين، وامتد نفوذهم من حضرموت إلى مكة، وظل حكمهم سائداً أكثر من قرنين. وهم ينتسبون إلى أول ملوكهم وهو علي بن رسول الذي ينتهي نسبه إلى الغساسنة الذين هاجروا من اليمن إلى الشام بعد انكسار سد مأرب.

وكان علي بن رسول قد ولي مكة سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) ثم استخلفه الملك المسعود الأيوبي على اليمن فبقي بها نائباً عن الأيوبيين الذين كانوا يحكمون مصر والشام، ثم استقل علي بملك اليمن وأسس الدولة الرسولية، في تعز، وتلقب بالملك المنصور، وأعلن أنه يحكم اليمن نيابة عن الخليفة العباسي. ثم قتل علي سنة ٦٤٨ هـ فخلفه ابنه الملك المظفر يوسف صاحب جامع المظفرية في تعز. وقد طال عهده باليمن حتى مات بقلعة تعز سنة ٦٩٤ هـ. وقد أرسل المظفر يوسف إلى قلاوون سلطان المماليك في مصر هدايا نفيسة وخطب وده واتحدت مصر مع بلاد اليمن في ذلك العصر.

خلف المظفر يوسف ابنه الأشرف عمر ـ وهو صاحب جامع المظفرية في اليمن ـ ولكن عهده لم يطل، وتوفي سنة ٦٩٦ هـ، ثم خلفه أخوه الملك داود. وفي عهده توطدت الوحدة بين اليمن ومصر، وتبودلت الهدايا والتحف بين حكام البلدين، واعتنق ملك اليمن عقائد المذهب الشافعي، واشتغل بالعلم، وعني بجمع الكتب، حتى إن خزانة كتبه حوت مائة ألف مجلد. وقد قرب إليه العلماء وأجزل لهم العطاء حتى توفي سنة ٧٢١ هـ، فخلفه ابنه المجاهد علي الذي عاصر كلاً من محمد بن قلاوون المملوكي وابنه الناصر حسن. وقد أساء المجاهد السيرة فقتله أنصار المجاهد الذي أعيد إلى ملكه وعزل مرتين، ثم خلفه ابنه الأفضل عباس، ثم تتابع بنو رسول على حكم اليمن حتى زالت دولتهم سنة ٨٥٨ هـ (١٤٥٤ م).

لم يزد جند اليمن في عهد بني رسول على ألفي فارس، وكان هناك فوق ذلك نحو هذا العدد من الجند الغرباء. وكان زي الملك وعامة الجند يتكون من القباء الضيق الأكمام ويتمنطقون بالمناطق المشدودة، وعلى رؤوسهم تخافيف. وكانوا ينتعلون الخف المصنوع من الحرير، وشعار الملك عبارة عن قماش أبيض يتخلله كثير من الورود.

وكان من أهم موظفي الدولة النائب والوزير والحاجب وكاتب السر وكاتب الجيش ومقدم ديوان المال، وكان ملوك اليمن يحاكون سلاطين المماليك في مصر في زيهم وفي أكثر مظاهر السلطان، حتى إن التوقيع على الرسائل كان على مثال توقيع سلاطين المماليك في مصر، وقد تضمن هذا التوقيع عبارة: «الشاكر لله على نعمائه».

وكان للتجار مركز في الدولة اليمنية، لأن التجارة كانت أهم موارد الدولة في عهد بني رسول. وكانت بلاد الهند تمد اليمن بالسلع والسفن، وتعتمد اليمن على أرباب الصناعات في مصر والشام. وكان أمراؤها يجزلون لهم الرواتب ويحسنون معاملتهم ويقربون إليهم

مهرة الصناع، وبذلك يخففون من غربتهم، ويمنحونهم ما يعوضهم عن ترك أوطانهم بما يوفرونه لهم من أسباب الرفاهية ورغد العيش. وكان اليمنيون يهتمون براحة الغرباء الوافدين على بلادهم ويكرمون وفادتهم ويفيدون من مواهبهم وكفاياتهم.

(ب)بنو الرّسّي ـ الأئمة الزيديون (بصعدة وصنعاء)

(٢٨٠ ـ ٧٠٠/٨٩٣ ـ ١٣٠٠)

ويرجع تاريخ بني الرسي إلى أيام المأمون العباسي، فقد خرج في عهده محمد بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ودعا إلى نفسه إلى أن مات، فخلفه أخوه القاسم الذي بث دعاته ـ وهو على حال استتاره زهاء عشرين سنة ـ فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور. وقد بعث الخليفة المأمون إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه، فاختفى في حي من البدو. ولما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ شدد في طلب القاسم، فانتقض عليه أمره (سنة ٢٢٠ هـ) وهرب إلى الهند وأقام بها حتى مات سنة ٢٤٥ هـ، وعاد ابنه الحسين بن القاسم الرسي إلى اليمن. واليه ينسب بنو الرسي.

وكان أنصار بني الرسي من الزيديةوغيرهم يقولون بأحقيته بالخلافة. وكان أول من خرج منهم باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي ودعا إلى نفسه، وتلقب الهادي وبويع بالإمامة سنة ٢٨٨ هـ. وقد جمع حوله جمعاً من الشيعة وحارب إبراهيم بن يعفر (وقيل أسد بن يعفر من أعقاب التبابعة بصنعاء وكحلان)، وملك صنعاء وضرب السكة باسمه، والتف الناس حوله وقوي نفوذه بينهم، ثم عاد إلى صعدة حيث توفي سنة ٢٩٨ هـ.

وخلف يحيى بن الحسين ابنه محمد المرتضى، ثم تتابع على ملك اليمن ملوك من بني الرسي حتى دب الخلاف بينهم وأتاحوا بذلك الفرصة لتغلب السلمانيين أمراء مكة في القرن السادس الهجري. فدعا المنصور عبد الله إلى الخليفة الناصر العباسي، وخطب له على منابر الديلم والجبل، وظلت الحال على ذلك حتى جاء المتوكل أحمد السليماني، فبايع الزيدية أحمد بن الموطىء بن الحسين المنتجب بن القاسم الرسي. وكان أحمد بن الموطىء فقيهاً أديباً عالماً تقياً قواماً صواماً. وقد سار إلى صعدة واستولى عليها من يد أحمد المتوكل زعيم السليمانيين الذي بايعه سنة ٦٤٩ هـ. واستمر حكم الزيدية بصعدة في عقب أحمد بن الموطىء.

جدول بني الرسي

٢٨٠ ـ ٧٠٠ هـ

(ا) العهد الأول

أبو محمد القاسم الرسي ترجمان الدين بن إبراهيم طباطبا (توفي ٢٤٦ هـ).

	هجرية
الحسين بن القاسم	٢٤٦
الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم (توفي ٢٩٨ هـ)	٢٨٠
المرتضى أبو القاسم محمد بن يحيى (اعتزل الحكم سنة ٣٠١ وتوفي سنة ٣١٠ هـ)	٢٩٨
الناصر أحمد بن يحيى (توفي سنة ٣٢٥ هـ)	٣٠١
المنتجب الحسين بن أحمد (توفي سنة ٣٢٤ هـ)	—
المختار أبو محمد القاسم بن أحمد	٣٢٤
المنصور يوسف الداعي ابن يحيى	—
القاسم المنصور بن علي الإلياني (توفي سنة ٣٩٣ هـ)	—
المهدي الحسين بن القاسم المنصور	٣٩٣
جعفر بن القاسم المنصور	—
أبو الهاشم الحسن بن عبد الرحمن	٤٢٦
الناصر أبو الفتح الديلمي ابن الحسين بن محمد	٤٣٠
استولى الصليحيون على صنعاء	٤٥٤
عمران بن الفضل (حاكم صليحي)	٤٨٠
سبأ بن أحمد (حاكم صليحي)	—
حاتم بن الغشيم الهمداني	٤٩٢
عبد الله بن حاتم	٥٠٢
معن بن حاتم	٥٠٤
حميد الدولة حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل	٥٣٢
المتوكل أحمد بن سليمان بن محمد (توفي سنة ٥٦٦) (عاد الرسيون للحكم مؤقتاً)	٥٣٢
علي الوحيد ابن حاتم (هزمه توران شاه الأول الأيوبي سنة ٥٦٩)	٥٥٦

(٢) العهد الثاني

	هجرية
المنصور عبد الله بن حمزة (ولد سنة ٥٦١ هـ وتوفي في المحرم سنة ٦١٤)	٥٩٣
استرد صنعاء	٥٩٤
الناصر عز الدين محمد بن عبد الله (بصعدة حتى سنة ٦٢٣ هـ) المحرم	٦١٤
الهادي نجم الدين يحيى بن حمزة	٦١٤
المهدي أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم (توفي سنة ٦٥٦ هـ)	٦٢٣
المتوكل شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة	٦٥٦
المنتصر داود	٦٨٠
(فرع من قرابة بعيدة نسبهم مشكوك فيه)	
أحمد الإمام	٦٤٦
أبو محمد الحسن	—
يحيى بن محمد	—
حسن بن فلان	—
إبراهيم بن أحمد	٦٧٠
المطهر بن يحيى (ضد المنتصر داود، توفي سنة ٦٩٧ هـ)	٦٧٤
محمد بن المطهر	٦٩٧
المطهر بن محمد	—
صلاح الدين بن المطهر	—

الدولة الموحدية في المغرب

(ا) عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ ـ ٥٥٨/١١٣٠ ـ ١١٦٣

(أ) مولده ونشأته:

يرجع نسب أبي محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلى[1] إلى قيس بن عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان[2]. وقد أجمع المؤرخون على أن عبد المؤمن ينتمي إلى قبيلة

(١) ويقول المراكشي: (المعجب ص ١٧٦) هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الجومي.
(٢) ابن أبي زرع روض القرطاس ج ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

جومية الزناتية. وقد ولد في سنة ٤٨٧ هـ بضيعة من أعمال تلمسان (ببلاد الجزائر الآن) تعرف بتاجرا[١]. وكان أبوه علي فقيراً يشتغل بعمل الأواني الفخارية. وقد طلب عبد المؤمن العلم بالمساجد من صغره، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، واقتبس بعض علوم اللغة والدين، ثم التقى بأستاذه محمد بن تومرت، فأتم دراسته عليه. وقد عرف عبد المؤمن بشدة ذكائه ونال قسطاً وافراً من علوم الدين واللغة مع ما امتاز به من قوة الشخصية التي بوأته مكانة عالية بين الموحدين[٢].

(ب) بيعته:

بايع أصحاب المهدي محمد بن تومرت العشرة عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ. وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة الخاصة، لأن موت المهدي ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين، ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ[٣] وذلك بجامع تينمل[٤]. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص المهدي له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة، إلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته[٥]. وقد قاتل جيوش تاشفين بن علي بن يوسف بتلمسان ثم وهران حيث لقي حتفه[٦]. ثم استولى عبد المؤمن على مدينة فاس ثم على مدينة مراكش حاضرة المرابطين بعد حروب دامية. ثم قبض على إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين آخر أمراء المرابطين وقتله، وأتته القبائل من كل حدب وصوب ودخلت في طاعته، واستوثق له أمر المغرب ولم يبق له منازع. ثم فتح عبد المؤمن بلاد إفريقية، ومد نفوذه إلى برقة، وفتح بلاد الأندلس، وخطب له على جميع المنابر في هذه البلاد[٧].

---

(١) ضبطه ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٢ ـ ١٤٨) تاجرة، بتاء مربوطة في آخر الكلمة (بدلاً من الألف المقصورة).

(٢) وقد وصف (المراكشي المعجب ص ١٩٧) عبد المؤمن فقال: «وكان معتدل القامة وضيء الوجه جهوري الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق. وكان محباً إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه».

(٣) ذهب ابن صاحب الصلاة (المن بالإمامة) إلى أن الموحدين أخفوا وفاة ابن تومرت ثلاث سنين وعلى ذلك تكون البيعة العامة قد تمت سنة ٥٢٧ هـ وقد أجمع المؤرخون على أن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٤هـ.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٧.

(٦) المراكشي: المعجب ص ٢٠٢.

(٧) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢.

ولما أخضع عبد المؤمن جميع قبائل المغرب فكر في فتح بلاد الأندلس وإعادة مجد المسلمين إلى ما كان عليه في عهد الأمويين وقد منى نفسه باسترداد طليطلة حاضرة النصارى وطردهم نهائياً من هذه البلاد. وتاقت نفسه للجهاد، فعزم على غزو الفرنجة براً وبحراً، فأمر بإنشاء الأساطيل فبنى أربعمائة سفينة.

وقد قيل إن المهدي بن تومرت لما توفي تطلعت نفوس العشرة للخلافة، وكادت الفتنة تقع بين القبائل وتختلف كلمة الموحدين، فاجتمعوا على عبد المؤمن بن علي لأنه لم تكن له بالمغرب قبيلة تنافس القبائل التي ينتمي إليها أصحابه العشرة. ولما أخذت البيعة لعبد المؤمن كان العشرة أول المبايعين له، ثم تبعهم الخمسون من الأشياخ ثم كافة الموحدين.

(ج) غزواته:

كانت حروب عبد المؤمن بعد أن بويع بالخلافة تهدف إلى غرضين هما: إخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحدية، والقضاء على الدولة المرابطية. ولم يكد عبد المؤمن يلي أمور الموحدين حتى وجه همته إلى جهاد أعدائه «وقتال أهل الزيغ والعناد عن طاعته» فغزا نادلا (بسكون الدال مع اللام المقصورة) في سنة ٥٢٦ هـ وانتصر عليها. ثم غزا بلاد «درعة» وفتحها، كما غزا قبائل تيغر (بفتح التاء وسكون الياء) وفازار وغياثة (بكسر الغين).

وفي شهر صفر سنة ٥٣٤ هـ تفرغ عبد المؤمن لحرب المرابطين حتى سقطت دولتهم سنة ٥٤١ هـ. فقد حاصر مراسيها على جميع سواحل بلاده[1]. ثم جمع الجند وأخذ في صنع الأسلحة على اختلافها، حتى كان يضرب من السهام وحدها عشرة قناطير في اليوم. ثم خرج عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ من مراكش حاضرة ملكه للجهاد ببلاد الأندلس، ولما وصل إلى رباط سلا كتب إلى جميع أهالي المغرب وإفريقية والسوس يدعوهم للجهاد. فأجابه عدد كبير من الموحدين وقبائل العرب والبربر، قيل إن عددهم بلغ ثلثمائة ألف مجاهد وثمانين ألف متطوع من الفرسان ومائة ألف راجل[2].

أخلاقه - وفاته:

كان عبد المؤمن بن علي يؤثر أهل العلم ويجل العلماء ويعظمهم ويقربهم إليه ويحسن إليهم. كما كان يبعث في طلبهم من مختلف البلاد ويوفر لهم أسباب الراحة

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٥.

ويسكنهم بجوار قصره ويساعدهم على طلب العلم بتوفير المأكل والمشرب لهم في غير إسراف ولا تقتير، كما كان ينوه بذكر المتفوقين. وقد قسم عبد المؤمن الطلبة إلى طائفتين: طلبة الموحدين، وطلبة الحضر. وكان يقصد من ذلك تمييز طلبة المصامدة عن غيرهم[1]، ويحثهم على التعمق في دراسة عقائد المهدي بن تومرت. وكان عبد المؤمن نفسه من رجال العلم المعدودين، فقد كان كما وصفه بن أبي زرع[2] فصيح اللسان عالماً بالجدل، متفقهاً في علم الأصول، حافظاً للحديث صحيح الرواية متبحراً في العلوم الدينية والعقلية، إماماً في النحو واللغة والقراءات ملماً بالتاريخ والسير، أديباً شاعراً. وقد اختار عبد المؤمن كتابه من أدباء عصره، كأبي جعفر بن عطية، وأخيه عطية بن عطية، وأبي الحسن بن عياش وغيرهم.

كما اتخذ عبد المؤمن وزراءه من العلماء النابهين، كعبد السلام بن محمد الجومي، وأبي جعفر بن عبد المؤمن، واتخذ قضاته من الفقهاء النابهين أيضاً، كأبي عمران موسى بن سهل من أهل تينمل، وأبي يوسف حجاج بن يوسف، وأبي بكر بن ميمون القرطبي.

وكان المرض أقوى من عزم عبد المؤمن ودأبه على الجهاد، فقد وافته منيته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ.

(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن: ٥٥٨ - ١١٦٣/٥٨٠ - ١١٨٤:

ولد أبو يعقوب يوسف في ٣ رجب سنة ٥٣٣ هـ[3]. وقد عهد عبد المؤمن إلى ابنه الأكبر محمد بالخلافة من بعده، فبايعه الناس، وقد اضطرب أمر محمد بعد وفاة أبيه وكاد الحكم يخرج من أسرة عبد المؤمن، وقد اتفق الموحدون بزعامة أخويه يوسف وعمر على خلعه لأنه لم يكن يصلح للحكم[4] وبايعوا أخاه يوسف، ولم يتخلف عن بيعته سوى أخويه السيد أبي محمد صاحب بجاية وأبي عبد الله صاحب قرطبة، وظلا على ذلك حتى سنة ٥٥٩ هـ حيث قدم عليه كل منهما ودانا له بالطاعة وبايعاه[5].

كان أبو يعقوب يوسف حسن السياسة والتدبير محباً للجهاد. فلما ولي الخلافة سار

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٠٢.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢.
(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٢.
(٤) المراكشي: المعجب ص ٢٣٦.
(٥) ابن أبي زرع ج ٢ ص ١٨٣.

على سياسة أبيه، فجمع الأموال الضخمة وأنفق أكثرها في شراء السلاح وتدريب الجند. وقد قضى على ثورة «مَرْزَدْغ» (بفتح الميم والزاي وسكون الراء والدال) الغماري (بضم الغين) الصنهاجي الذي تبعه خلف كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة (بفتح الألف مع الهمزة والراء والباء وسكون الواو).

ودخل يوسف مدينة تازا[١] وأحل به الهزيمة وقتله وحمل رأسه إلى مدينة مراكش حاضرة الموحدين. وكان ذلك سنة ٥٥٩ هـ.

وفي سنة ٥٦٥ هـ أمر يوسف بن عبد المؤمن أخاه أبا حفص بحرب نصارى الأندلس فسار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف جندي سوى المتطوعين، وغزا الموحدون طليطلة وأحوازها وسبوا النساء وغنموا الأموال، ثم عاد جيشهم ظافراً منتصراً. وفي سنة ٥٨٠ هـ عزم يوسف على حرب نصارى الأندلس[٢] بجيش جرار يضم قبائل عرب إفريقيا وزناتة ومصمودة وغمارة وصنهاجة وأوربة. وقد جاز هذا الجيش إلى بلاد الأندلس فنزل بمرسى جبل الفتح (جبل طارق) ثم سار إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى اشبيلية، واستولى على مدينة شنترين (بفتح الشين والتاء وسكون النون) غربي الأندلس في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ. ثم غزا هذا الجيش الموحدي مدينة أشبونة (لشبونة حاضرة البرتغال الآن)، على أن النصارى استطاعوا أن يستميلوا إليهم فريقاً من الجيش الموحدي. فقد أعلنوا ليلاً أن يوسف بن عبد المؤمن قد ارتحل عائداً إلى المغرب وأوقعوا بذلك الاضطراب في صفوف الجيش الموحدي، وأخذ الجند يفرون من المعركة. ولما تأكد النصارى المحاصرون أن جند الموحدين قد انفضوا من حول يوسف بن عبد المؤمن عادوا إلى القتال، ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار المسلمين. غير أن يوسف بن عبد المؤمن لم يلبث أن مات متأثراً بجراحه وهو في طريقه إلى الجزيرة الخضراء، وذلك في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ وحمل جثمانه إلى تينمل ودفن بجوار أبيه[٣].

كان يوسف بن عبد المؤمن من أعظم خلفاء الموحدين حباً للعلم وأهله وتقديراً لرجاله لأنه عاش في الأندلس في حياة أبيه الذي ولاه إشبيلية. وقد ذكر المراكشي أن يوسف ابن عبد المؤمن كان ملماً بكلام العرب حافظاً لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٨٤.

(٢) بلغ يوسف بن عبد المؤمن أن ألفونس أغار على قرطبة وغرناطة ورندة (بفتح الراء والدال وسكون النون) ومالقه وغيرها. السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٣٧.

(٣) ابن أبي زرع ج ٢ ص ١٩٣.

والإسلام، وأنه لقي وهـو في إشبيلية كثيراً من اللغويين والنحاة والمفسرين، كأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الملك (ويعرف بابن مُلكون)، وكان من أحسن الناس قراءة للقرآن وحفظاً للغة وتبحراً في النحو. كما عكف يوسف على دراسة الفلسفة والفلك والطب. وقد أولع بجمع الكتب من أنحاء الأندلس والمغرب. وكان يبعث في طلب العلماء[1]. ومن أشهر علماء عصره الفيلسوف أبو بكر بن طفيل، فقد كان عالماً بجميع فروع الفلسفة، وقد تتلمذ على أبي بكر الصائغ المعروف بابن باجة. ولابن طفيل مصنفات هامة في الطبيعيات والإلهيات وغيرها، كما خلف لنا رسالة «حي بن يقظان» المعروفة. ومن الفلاسفة الذين عاشوا في عصر يوسف بن عبد المؤمن الفيلسوف العظيم أبو الوليد بن رشد، والوزير الطبيب أبو بكر بن زهر (بضم الزاي وسكون الهاء)، وكان ملماً بالطب حافظاً للغة والأدب، مشاركاً في الفقه والحديث والتفسير، ومنهم الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد. وكانت مدينة مراكش في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في العلوم والآداب والفنون[2]. كما كانت تتطلع إليها أنظار المسلمين للدفاع عن حوزة الإسلام ضد مطامع النصارى في بلاد الأندلس.

(٣) يعقوب المنصور: (٥٨٠ ـ ٥٩٥/١١٨٤ ـ ١١٩٩):

ولد أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من أم ولد رومية تسمى «ساحر». وقد ذكر المراكشي أن البيعة أخذت له في حياة أبيه[3]. وخالفه في ذلك جمهور من المؤرخين، فذكر ابن أبي زرع أن الموحدين بايعوه عقب وفاة أبيه[4]، وقد استوزر يعقوب المنصور بن أبي حفص الهنتاتي وقلد أخاه يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن قيادة الجيش الموحدي في الأندلس.

وقد صادف يعقوب المنصور في أوائل عهده مشكلتين كبيرتين: الأولى قيام ابن غانية في وجهه، والثانية تمرد نصارى الأندلس وعملهم على إضعاف العرب والاستيلاء على أملاكهم في هذه البلاد.

فقد وجه علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس رجلين من قبيلة مسوفة هما: يحيى

(١) المراكشي ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠.
(٢) السلاوي، الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٠.
(٣) المعجب ص ٢٦١.
(٤) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٤٢.

ومحمد، ويعرفان بابني غانية (نسبة إلى أمهما). فأما يحيى فكان فارساً شجاعاً، كما كان فقيهاً ورعاً، وقد ولاه علي بن يوسف مدينة بلنسية، ثم ولاه قرطبة فظل على ولايتها حتى مات. وأما محمد فقد تقلد بعض أعمال قرطبة من قبل أخيه يحيى، فلما اضطرب أمر الأندلس بعد موت علي بن يوسف وقوي نفوذ الموحدين، خشي محمد ابن غانية على نفسه فعبر جزيرة «ميورقة» مع أهل بيته وحشمه فملكها، كما استولى على جزيرة منورقة، ويابسة، وعاش في هذه الجزر ودعا للخلفاء العباسيين فيها، وكان لمحمد من الأولاد: عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة. وقد آل الحكم إلى ابنه إسحاق ثم إلى حفيده علي بن إسحاق الذي حارب يعقوب المنصور الموحدي ببلاد المغرب ورأى الفرصة قد سنحت له بعد موت يوسف بن عبد المؤمن لانشغال الموحدين بحرب نصارى الأندلس. فاستولى علي بن إسحاق ابن غانية على بجاية ثم على قلعة بني حماد وما حولها من البلاد. وقد خرج يعقوب المنصور من مراكش حاضرة ملكه لحرب ابن غانية الذي لم يقو على حربه على الرغم من مساعدة بهاء الدين قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي له وانتصر يعقوب المنصور على ابن غانية وحلفائه من العرب والمصريين وعاد إلى بلاده سنة ٥٨٤ هـ [١].

(أ) موقعة الأرك[٢]:

أما المشكلة الثانية التي واجهت يعقوب المنصور فهي تمرد نصارى الأندلس وطمعهم في أملاك المسلمين في هذه البلاد. فقد عبر يعقوب المنصور إلى الجزيرة الخضراء (٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ)، وسار حتى نزل شنترين، وأغار على مدينة أشبونة وما جاورها وقطع ما صادفه من الثمار وحرق المزروعات وقتل وسبى كثيراً من الأهالي، ثم عاد إلى المغرب بعد أن أسر ثلاثة عشر ألفاً من النصارى. ويعتبر هذا الجواز الأول إلى الأندلس[٣].

وكان من أثر جواز يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الأولى وما أحرزه على المسيحيين من نصر أن طلب الفونس الهدنة خمس سنين، فأجابه يعقوب إلى طلبه. ولكن ألفونسو لم يكد يسترد قوته ويعد العدة لحرب الموحدين حتى نقض الهدنة وكتب إلى يعقوب المنصور كتاباً يطلب إليه فيه أن ينزل له عن بعض الحصون والمدن، ومما جاء في هذا الكتاب:

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

(٢) بفتح الألف مع الهمزة وفتح الراء.

(٣) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٦٢.

«اللهم باسمك فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية. وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وإخلاء الديار وأسبي الذراري وأمثل بالرجال. ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، إذا أمكنتك يد القدرة»[1].

ولما تسلم يعقوب المنصور هذا الكتاب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه قوله تعالى: ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾[2]. ثم ذيل هذه الآية القرآنية بهذه الكلمات: «ما ترى لا ما تسمع»[3].

وقد دعا يعقوب المنصور الجند من الأمصار وضرب السرادقات بظاهر مدينة مراكش. ولما تجمع الجند جاز بهم إلى بلاد الأندلس. وكان جيشه يضم قبائل العرب وزناتة ومصمودة وغمارة والمتطوعين من القبائل المغربية والأعراز والرماة والموحدين والعبيد. وقد سار الخليفة الموحدي في إثرهم في موكب عظيم يضم أشياخ الموحدين والفقهاء والزهاد. ثم سار هذا الجيش لملاقاة العدو حتى أصبح على بعد مرحلتين من حصن الأرك، وذلك في ٣ شعبان سنة ٥٩١ هـ. وعقد يعقوب المنصور اللواء لأبي يحيى بن أبي حفص الهنتاتي وبقي هو على رأس الجيش الموحدي. ولقي جيش أبي يحيى الهنتاتي ظنّاً منه أنه جيش الخليفة يعقوب المنصور. وحمي القتال بين الفريقين، واستشهد أبو يحيى، وأيقن العدو أن يعقوب المنصور قد قتل، وأنه قد أحرز النصر على جيش الموحدين، ثم أقبل يعقوب المنصور بجيشه وطوق جيش العدو الذي أصبح بين جيش يعقوب المنصور وجيوش زناتة والمصامدة وغمارة والعرب التي كان يقودها أبو يحيى الهنتاتي؛ فولى النصارى الأدبار وأعمل فيهم المسلمون السيف وأسروا عدداً كبيراً منهم، ودخل الموحدون حصن «الأرك»، ونجا الفونس ونحو ثلاثين فارساً من حرسه الخاص (٣ شعبان ٥٩١ هـ)[4].

ويذكر ابن أبي زرع أن أسرى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً[5] وأن يعقوب المنصور

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧.
(٢) سورة النمل ٢٧: ٣٤ - ٣٧.
(٣) السلاوي: ج ٢ ص ١٦٧.
(٤) المراكشي: المعجب ص ٢٨١ - ٢٨٢. السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٣.
(٥) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ٤٨) أن عدد قتلى النصارى في موقعة الأرك بلغ مائة وستة وأربعين ألفاً، وأن عدد الأسرى بلغ ثلاثة عشر ألفاً، وأن المسلمين غنموا مائة وثلاثة وأربعين ألفا من الخيام، ومن =

أطلق سراحهم. وقد ذكر ابن الأثير أن يعقوب المنصور نادى عسكره: من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح.

ولما حلت الهزيمة بألفونس، حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم ألا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش حتى تنتصر النصرانية(١). ثم جمع جموعاً عظيمة، فطلب يعقوب المنصور المدد من بلاد المغرب ودعا الناس للجهاد، والتقى مع العدو في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٢ هـ وهزم النصارى هزيمة منكرة، وغنم ما معهم من أموال وسلاح ودواب. ثم سار إلى طليطلة فحاصرها وأغار على ما يجاورها من البلاد وفتح عدداً من الحصون، ثم عاد إلى إشبيلية فأقام بها حتى سنة ٥٩٣ هـ. ثم سار إلى بلاد النصارى الذين طلبوا الصلح، فعدل يعقوب المنصور عن متابعة الجهاد وأجابهم إلى الصلح وعقد معهم هدنة أمدها خمس سنين، إذ نمي إليه خبر إغارة علي بن إسحاق وعاد إلى مدينة مراكش حاضرة ملكه بالمغرب. وكانت هذه الموقعة العظيمة آخر المعارك التي انتصر فيها المسلمون على نصارى الأندلس.

وقد طمع علي بن إسحاق صاحب غانية في بلاد إفريقية لتغيب يعقوب المنصور الموحدي عن المغرب ثلاث سنين للجهاد ضد النصارى في الأندلس، فقصد إفريقية، وخرَّب جنده هذه البلاد وعاثوا فيها فساداً، وعزم على المسير إلى بجاية ومحاصرتها، ثم إلى بلاد المغرب نفسها. ولما اتصل هذا النبأ بمسامع يعقوب المنصور، هادن النصارى في الأندلس حتى يتفرغ لحرب ابن غانية كما فعل من قبل(٢).

(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين:

استولى الصليبيون على سواحل الشام وملكوا بيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري، ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تخرج الصليبيين كما لم يستطع ذلك العباسيون لأن هاتين الدولتين قد تطرق إليهما الضعف والوهن. فلما آل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام، عزم على الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدي

= الخيل ستة وأربعين ألفاً، ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير مائة ألف. وقد قتل من المسلمين عشرون ألفاً.

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨.

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨ - ٤٩.

وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة[١].

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً[٢] جاء فيه: «الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون[٣] بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية.

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول البحري الموحدي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس. وإذا كان صلاح الدين الأيوبي قد استرد بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ، فإن يعقوب المنصور قد جاز جوازه الأول إلى الأندلس سنة ٥٨٥ هـ، أي بعد استرداد بيت المقدس بسنتين. ثم جاز جوازه الثاني إلى الأندلس

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣.

(٢) قال السلاوي (الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣) إن هذا الكتاب من إنشاء عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل.

(٣) العبر ج ٦ ص ٤٩٠.

حين وقعت معركة «الأرك» الكبرى سنة ٥٩١ هـ. ومن هنا ندرك أن عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين الأيوبي، إن صح ما ذكره بعض المؤرخين، كان راجعاً إلى تربص النصرانية بالإسلام في الأندلس والمغرب معاً.

(ج) إصلاحات يعقوب المنصور ـ أخلاقه ـ وفاته:

اختط أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط ورسم حدودها وبدأ بناءها قبل وفاته(١). فلما ولي ابنه يعقوب المنصور شرع في إتمام بناء هذه المدينة، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منار الإسكندرية، يصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان.

وكان عبد المؤمن بن علي قد هدم سور مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور(٢). ومما ساعد على إقامة هذه المنشئات هذه الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته. فقد ذكر المراكشي(٣) تحت عنوان «اتساع الدولة وزيادة الخراج» أن يعقوب المنصور كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته في كل سنة مائة وخمسين بغلاً، هذا من إفريقية (بلاد تونس الآن) وحدها، ما عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها، والمغرب وجزيرة الأندلس قاطبة.

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من موقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن بالشام(٤). ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة ٥٩٥ هـ، ودفن بتينمل مع آبائه(٥). ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب، لأن قبر يعقوب المنصور ما زال إلى الآن يزار بمدينة تَيْنمِلّ مع قبر أبيه يوسف وجده عبد المؤمن بن علي.

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٦٦.
(٢) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٤٧.
(٣) المعجب ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٤.
(٥) المراكشي: المعجب ص ١٧٤.

الناصر لدين الله :

بايع يعقوب المنصور ابنه محمداً بالخلافة من بعده، ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ [١]. وقد ثار على الموحدين في مستهل عهد الناصر لدين الله رجل يدعى «علودان الغماري»، ولكن الناصر أحل به الهزيمة، ثم سار إلى فاس فأتم سورها. وكان عبد المؤمن بن علي قد خربه في حروبه مع المرابطين، ثم بنى أكثره في عهد يعقوب المنصور على ما تقدم. ثم اتجه الناصر لدين الله إلى حرب ابن غانية بإفريقية، وكان قد استولى على المهدية، ثم نازل تونس سنة ٥٩٩ هـ، وهزم الحامية الموحدية فيها، وفرض الضرائب الفادحة على الأهلين، وكادت إفريقية تقع في يده، إذ عين العمال على الأقاليم، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة على ما كانت عليه الحال في عهد المرابطين.

فلما علم الناصر لدين الله بذلك وهو بمدينة مراكش، استشار الموحدين والفقهاء في أمر ابن غانية، فأشاروا عليه بمسالمته. ولكن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أحد العشرة من صحابة المهدي بن تومرت (وقد أقام أبناؤه الدولة الحفصية بتونس) أشار على الناصر بقتاله، فعمل برأيه، وسار الجيش الموحدي لحرب ابن غانية تؤيده سفن الأسطول بقيادة يحيى بن أبي زكريا الهزرجي. فلما علم ابن غانية بقدوم الناصر، فر من تونس إلى القيروان، ثم اتجه إلى قفصة ثم إلى قابس ثم عاد إلى المهدية[٢]، وحاصر ابن غانية وانتصر عليه، ففر إلى بلاده سنة ٦٠٢ هـ . وفي سنة ٦٠٣ هـ عين الناصر لدين الله وزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي ولاية أفريقية، فقبل هذا المنصب بعد تردد[٣]، وبقي الحكم في عقبه بعد سقوط الدولة الموحدية بالمغرب.

موقعة العقاب :

ولما أغار ألفونس ملك أسبانيا النصرانية على ثغور المسلمين في الأندلس ونهبها وسبى نساءها وأطفالها، كتب الناصر لدين الله إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي صاحب إفريقية يستشيره في الغزو ويطلب إليه المساعدة، فلم يلب نداءه، وأخذ الناصر الموحدي يستعد لقتال نصارى الأندلس[٤]. وكان الناصر مستبداً برأيه، فكتب

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩١ .
(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٢ .
(٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٦ .

إلى رعاياه بإفريقية والمغرب والأندلس يدعوهم إلى جهاد العدو، فأتته الجيوش من سائر البلاد. ثم خرج من مدينة مراكش في ٩ شعبان سنة ٦٠٧ هـ ، واجتاز البحر بجيوشه، واستقر بجزيرة طريف حيث لقيه قواد الأندلس ورؤساؤها وفقهاؤها، ثم نزل مدينة إشبيلية.

وقد قسم الناصر جيشه إلى خمس فرق: فجعل العرب فرقة، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة، وجعل المتطوعة فرقة، وجند الأندلس فرقة، والموحدين فرقة وأمر كل فرقة بأن تنزل في ناحية من نواحي الأندلس، وأوقع بذلك الرعب في قلوب النصارى، حتى طلب منه ملك بمبلونة الأمان واستسلم له، فأمنه وأكرمه. ثم حاصر الناصر حصن «سلبطرة» الذي لا يوصل إليه إلا من طريق واحد شديد الوعورة. وأمر جنده بإحاطة هذا الحصن الذي امتنع على جيش الموحدين[(١)]. وقد أشار أحد شيوخ الموحدين المحنكين على الناصر بأن يعدل عن حصار هذا الحصن لصعوبة اقتحامه وأن يسير إلى ناحية أخرى، ولكنه أخذ برأي وزيره أبي سعيد بن جامع الذي أشار عليه بأن يظل على حصار هذا الحصن حتى تستسلم حاميته. وقد ظل الحصار نحو ثمانية أشهر[(٢)] حتى ملّ الجند وقلت الأقوات. ولما سمع ألفونس بما آل إليه جند المسلمين من ضعف، دعا المقاتلين من سائر ممالك النصارى واحتل قلعة رباح من قائدها الموحدي أبي الحجاج يوسف بن قادس الذي فر مع رجاله.

ولما علم الناصر لدين الله الموحدي بذلك أغار على حصن «سلبطرة» واستولى عليه، ثم التقى الجيشان في حصن العُقاب، فسار النصارى نحو فرقة المتطوعين الموحدية فقضوا عليها، وولى الناصر الأدبار، تاركاً وراءه مئات الآلاف من القتلى. وقد دارت هذه الموقعة المشئومة في ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ ، وتعتبر هذه الموقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين بالمغرب، والأندلس على السواء، بل إنها تعتبر نذيراً بقرب سقوط الدولة الموحدية التي لم تقم لها بعدها قائمة[(٣)].

وقد توفي الناصر الموحدي في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ ودفن في اليوم التالي.

(٥) سقوط الدولة الموحدية :

لم يتصرف الناصر لدين الله في موقعة العقاب تصرف القادة المحنكين كما كان أسلافه من قبل، كعبد المؤمن ويعقوب المنصور. وليس من عجب في ذلك فقد تولى

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٧ .
(٢) السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ .
(٣) المراكشي : المعجب ص ٣٢٢ .

الحكم ولم يكن قد ناهز السابعة عشرة من عمره. ولذلك كان يصدر عن رأي وزرائه الذين كانوا يوجهونه كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم، حتى لقد اتهم المؤرخون وزيره أبا سعيد بن جامع بأنه كان غير أمين في نصحه(١).

وكانت هزيمة «العقاب» ضربة شديدة بعيدة الأثر في تقريب نهاية الحكم الموحدي في المغرب والأندلس. «فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية»(٢).

ثم مات الناصر لدين الله كمداً على ما لحق به من هزيمة منكرة في موقعة العقاب، وولي بعده ابنه أبو يعقوب يوسف الثاني، وكان في السادسة عشرة من عمره، فطمع بعضهم في الملك(٣) وصار الوزراء يولون صغار الأمراء لتحقيق أغراضهم وإشباع أهوائهم، ولم يخلص العرش الموحدي لأحد من بني عبد المؤمن دون قيام الفتن والاضطرابات وانتشار الفوضى. وظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م).

وبعد يوسف بن الناصر ولي أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (أخو يعقوب المنصور)، وكان شيخاً كبيراً لم يستطع أن ينهض بأعباء الحكم، فنزل عن العرش للعادل(ابن يعقوب المنصور)، وقد مات مخنوقاً بعد أن نزل عن العرش بثلاثة عشر يوماً، وقد أبى كثير من الموحدين أن يبايعوا العادل، واشتعلت نار الفتنة في المغرب والأندلس، فدعا أخوه المأمون حاكم إشبيلية لنفسه، وقامت الثورات في المغرب والأندلس.

وهنا كفر المأمون بالموحدين ومبادئهم وأخذ يلعن المهدي بن تومرت ويحط من شأن مبادئه وينادي بوجوب الرجوع إلى مذهب أهل السنة. وكان عهده عهد محن وخطوب ومنازعات تفرقت فيها كلمة الموحدين، فصارت جماعة معه وجماعة مع يحيى بن الناصر الذي زالت دولة الموحدين في عهده(٤).

ثم مات المأمون سنة ٥٣٠ هـ وولي بعده ابنه الرشيد، فاستمال الموحدين بإعادة الدعوة الموحدية إلى ما كانت عليه. وفي عهده حدثت أحداث تنذر بسقوط الموحدين، كظهور قبيلة مرين (بفتح الميم وكسر الراء) التي حاربها الرشيد، فأحلت به الهزيمة غير

---

(١) السلاوي. الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٠.

(٣) المراكشي. المعجب ص ٣٢٧.

(٤) السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ٢١٥.

مـرة. ثم مات الـرشيد غـريقاً في صهـاريج بستـانه بمـراكش سنة ٦٤٠ هـ ، وولي بعـده أبو الحسن السعيد علي (بن المأمون بن المنصور) الذي عقد الهـدنة مـع بني مرين، ولم يلبث أن قتله بنو ريان حكام تلمسان، فتولى بعده أبو حفص عمر الذي تلقب بالمعتضد. ولكنه لم يكد يستقر على عرشه حتى خرج عليه أميـر موحـدي يدعى أبـا العلاء إدريس (ويلقب بـأبي ديوس) الذي تحالف مع المرينيين، ولكنهم غدروا به وقتلوه غيلة سنة ٦٦٧ هـ ، وكـان ذلك نهاية الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى ، وحلت محلها الدولة المرينية[١].

(١) المراكشي : المعجب ص ٣٣٦.

الباب السادس
العلاقات الخارجية

(١) علاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين :

ذكر ابن الأثير[(١)] أن الهدنة أبرمت بين السلطان طغرلبك السلجوقي وإمبراطور الروم وأن الهدايا تبودلت بينهما، وأن مسجد القسطنطينية قد عمر وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرلبك في الخطبة.

وفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) غزت جيوش أحد ملوك الروم البلاد الإسلامية وأسر هذا الملك، ففدا نفسه بأربعمائة ألف دينار، فلم يقبل إبراهيم ينال منه هذا العرض وحمله إلى السلطان طغرلبك. وقد طلب الملك البيزنطي من نصر الدولة بن مروان أن ينقل رغبته في افتداء نفسه إلى السلطان؛ فتم له ما أراد وأرسل طغرلبك الملك بغير فداء، فعبر عن سروره بهدية أنفذها إلى السلطان لم يحمل مثلها على حد تعبير ابن الأثير[(٢)].

وكان من أثر ذلك الانتصار الذي أحرزه السلاجقة على جيش الروم في «أخلاط» غربي آسيا الصغرى سنة ٤٦٣ هـ وأسر «ديوچينس رومانوس» وتعرضه للقتل على يد أحد غلمان السلاجقة أن أحضر الإمبراطور إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي. وعلى الرغم مما توقعه هذا الإمبراطور من القتل أو التشهير في بلاد الإسلام أو العفو، قبل ألب أرسلان العفو وقبول الفداء، واستقر الرأي بينهما على قبول الفداء وقدره مليون وخمسمائة ألف دينار، وأن يكون جند الروم على أهبة الاستعداد إذا ما طلبها السلطان السلجوقي، وأن يطلق أسرى المسلمين في بلاد الروم.

وقد أطلق سراح الإمبراطور مع جماعة من أمرائه وقواده، كما منحه السلطان خمسة عشر ألف دينار يستعين بها على السفر إلى بلاده، وعقد معه هدنة أمدها خمسون سنة وخلع عليه وردّه إلى مأمنه وشيعه فرسخاً. ولما بلغ الروم نبأ هذه الموقعة خلعوا هذا الإمبراطور.

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠.

فلما وصل إلى إحدى قلاعه وعلم بهذا النبأ لبس الصوف وتزهد، وأوفد إلى الإمبراطور الجديد رسولاً ينقل إليه ما استقر عليه الرأي مع السلطان السلجوقي، فآثر قبول المعاهدة. ولكنه لم يستطع أن يرسل إلى السلطان غير مائتي ألف دينار وطبقاً من ذهب عليه جواهر تقدر بتسعين ألف دينار، وأكد الإمبراطور الجديد لألب أرسلان أنه لن يرسل المبلغ المتفق عليه لعجز الدولة عن ذلك. وقد أشاد الشعراء بهذا النصر المؤزر(١).

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والبيزنطية في أوائل عهد المستنصر على شيء من الصفاء. ففي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة الفاطمي والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ ـ ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل عمارة كنيسة القيامة التي خربها الحاكم، كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤ م) في سنة (٤٤٦/١٠٥٤) الذي تعهد بأن يمد مصر بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التي حلت بها في هذه السنة. غير أن هذا الإمبراطور توفي قبل تنفيذ هذا الاتفاق، واشترطت الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ ـ ١٠٥٦ م) على الخليفة الفاطمي أن يتعهد بمساعدتها إذا اعتدي على بلادها، واشتبك الفريقان في معارك برية كتب النصر فيها للفاطميين. ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين في مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم فطلب الخليفة المستنصر المهادنة، وأوفد في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) القاضي أبا عبد الله القضاعي لتسوية الخلاف بين البلدين(٢).

(٢) علاقة العباسيين بالفاطميين:

كان للعوامل السياسية أثر كبير في عداء البويهيين للفاطميين، لأنهم كانوا يخشون خطر الفاطميين على بلادهم. وقد ذكر المؤرخون أن عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي استعد لغزو مصر، ثم جمع العلويين ببغداد وسألهم عن نسب الفاطميين إلى علي فأقروه وشهدوا بذلك.

ويعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري، وأنكر فيها نسب الفاطميين إلى آل البيت؛ وذلك لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب، وهالهم إقامة الخطبة

---

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٧ ـ ٤٢. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) أبو الفدا ج ٢ ص ٦٢. انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٩.

للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل ، فكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في نسبهم إلى علي وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين .

وقد ذكر أبو المحاسن في تاريخه أنه في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ . أمر الخليفة القادر العباسي بتدوين محضر في نسب الخلفاء الفاطميين أشهد فيه القضاة والأئمة أن الحاكم الفاطمي وأسلافه لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب(١) .

وممن وقع على هذا المحضر الشريف الرضي وأخوه المرتضى ، وابن الأزرق الموسوي ، ومحمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضي أبو محمد عبد الله بن الأكفاني ، والقاضي الجزري ، والإمام أبو حامد الإسفرايني(٢) والفقيه أبو محمد الكشفلي(٣) والفقيه أبو الحسين القدوري(٤) الحنفي ، والفقيه أبو علي بن حمكان ، وأبو القاسم التنوخي(٥) ، والقاضي أبو عبد الله الصيمري(٦) .

على أن الفاطميين أخذوا يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم وصادفوا كثيراً من النجاح في هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطعنون فيه في نسب الفاطميين(٧) ، ثم يكتبون في سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر لتنفير قلوب المسلمين من الفاطميين(٨) . وكان هؤلاء الذين طعنوا في نسب الفاطميين مدفوعين في هذا الأمر بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم للمذهب الفاطمي .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه في الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه ، كما قام بالتدريس في مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه : الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ - ٣٧٠) ، ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ - ٢٠) .

(٣) بفتح الكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كشفل إحدى قرى خراسان .

(٤) بضم القاف والدال ، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة ، وله كتاب في الفقه يسمى مختصر القدوري .

(٥) هو علي بن المحسن بن علي بن محمد ، اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المعري ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحي كالمدائن وقرميسين ، وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ - ١٩٢١) الذي ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفي سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

(٨) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

وكذلك كان الخليفة المستنصر الفاطمي لا يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين. ولذلك نراه يؤيد البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ويتعهد بإمداده بالمال والرجال، ومن ثم يبعث داعيته الجريء المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سفيراً من قبله لإثارة حماسة جند البساسيري وحثهم على إذكاء نار الثورة في وجه الخليفة العباسي. ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند الذين بعث بهم إليه من بلاد الشام، كما أرسل إليه كتاباً يعبر فيه عن تقديره لموقفه[١].

(٣) علاقة الفاطميين بالحجاز:

وقد أخذ الفاطميون منذ عهد المعز لدين الله يهتمون ببسط نفوذهم في بلاد الحجاز، لأنهم كانوا يعلمون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي كله، ويكسب خلافته قوة أمام العالم الإسلامي من ناحية، وأمام الشعوب التي يحكمونها وأمام العالم كله من ناحية أخرى. هذا إلى أن هذا الأمر يقلل من شأن الخلافة العباسية، لأن أمير المؤمنين حقاً هو الذي يستطيع أن يبسط نفوذه على الحرمين في مكة والمدينة[٢].

وقد أقام الحسن بن جعفر أمير مكة الخطبة للمعز الفاطمي على منابر بلاده في سنة ٣٥٨ هـ [٣]، كما أقيمت الخطبة لهذا الخليفة الفاطمي في المدينة المنورة[٤]. وبذلك انتشر النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز. وفي عهد العزيز انقطعت الخطبة للفاطميين[٥]، وظلت السيادة الفاطمية مزعزعة حتى سنة ٣٨٠ هـ حين أرسل العزيز الفاطمي حملة حاصرت مكة والمدينة وأعادت الخطبة للفاطميين، وقطعت الدعوة للعباسيين[٦]. وظلت الحال على ذلك حتى سنة ٤٠٠ هـ، حين خلع أمير مكة طاعة الفاطميين، ولكنه لم يلبث أن اعتذر[٧] إلى الخليفة الفاطمي ودخل في طاعته؛ فعفا عنه وأعاده إلى إمارة الحرمين وأقام له الخطبة ونقش اسمه على السكة[٨]. وظلت بلاد الحجاز تدين بالطاعة للفاطميين في عهد الظاهر

---

(١) المؤيد في الدين: السيرة المؤيدية، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٤.
(٢) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (القاهرة سنة ١٩٥٠) ص ١٤.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٧٢.
(٥) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٠١.
(٦) نفس المرجع والصفحة.
(٧) المقريزي: خطط ج ٢ ص ١٥٧.
(٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨.

والمستنصر. وأقام شكر بن أبي الفتوح الدعوة للخليفة المستنصر في الحرمين حتى توفي سنة ٤٥٣ [١].

ولما ولي محمد بن أبي هاشم إمارة مكة، خلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسي؛ فسير المستنصر علي بن محمد الصليحي إلى مكة في سنة ٤٥٥ هـ فأعاد النفوذ الفاطمي إلى الحرمين. على أن الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر في أواخر عهد المستنصر حالت دون استمرار سيادتها على بلاد الحجاز، بعد أن انقطع ما كان يرد إليها من أموال. فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة القائم العباسي، وراسل السلطان ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٦٢ هـ.

(٤) علاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية:

استمرت تبعية بلاد المغرب للفاطميين حتى وليها المعز بن باديس الذي خرج على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلي، وشد أزر أهل السنة ودخل في طاعة الخليفة العباسي ودعا له على منابر بلاده ونقش اسمه على السكة. ويؤيد هذه التبعية ذلك الدينار الذي ورد بمجموعة متحف برلين وقد نقش عليه في الوجه الأول: «ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه. **لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله. والوجه الثاني: باسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام القيروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة. يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ونذيراً وداعياً إلى الله**»[٢].

كما خطب المعز بن باديس للخليفة العباسي القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) على منبر جامع القيروان[٣]، وأمر باتخاذ السواد شعار العباسيين.

وإن من يتبع العوامل التي أدت إلى زوال السيادة الفاطمية ببلاد المغرب، يرى أن ذلك يرجع إلى انتصار مذهب مالك وسيطرة فقهاء المالكية في القيروان على الدولة الزيرية، في الوقت الذي شغل فيه الخليفة المستنصر الفاطمي بالفتن والثورات والمجاعات.

ولم يقف المستنصر الفاطمي من هذه الأحداث الخطيرة التي تمخضت عن خروج إفريقية عن طاعة الفاطميين موقف المتفرج، فقد عمل على الانتقام من بني زيري الذين

---

(١) ابن خلدون العبر: ج ٢ ص ١٢٢.

انظر حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧ - ٢٣٩.

(٢) حسن أحمد محمود، بنو زيري وسياستهم الداخلية ص ١٧٤.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

خرجوا عليه برغم ما أسداه آباؤه لهم من مآثر فأطلق نحوهم قبائل الرياحية والزغبية[١] من بني هلال.

وقد خرجت قبائل هلال وسليم وزغبة ورياح وعدي والأثبج من مضاربهم بصعيد مصر سنة ٤٤٠ هـ وانقضوا على إفريقية، وأوقعوا بالمعز بن باديس في موقعة حيدران[٢] (٤٤٣ هـ)، ودخلوا القيروان وخربوها، وأتوا على تراثها الزاهر، وضعف ملك بني زيري بعد ذلك حتى لم يعد يجاوز أسوار مدينة المهدية[٣]. وقد طرب المستنصر الفاطمي لهزيمة الزيريين، واستطاع أن ينتقم لنفسه منهم. وعبر عن سروره في الرسالة التي بعث بها إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن[٤].

وقد ظلت الخطبة تقام للعباسيين في المغرب حتى قامت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت. ولما توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٨ م) خلفه عبد المؤمن بن علي، الذي قطع الخطبة للخليفة العباسي المقتفي، وتلقب بلقب أمير المؤمنين[٥].

والآن ننتقل إلى الكلام على علاقة الفاطميين بصقلية:

ظل ولاة صقلية من قبل الفاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجري في نزاع متصل مع الروم. وكان لهذا أثره في إضعاف نفوذ الفاطميين في هذه الجزيرة. فلما ولي الأكحل أمور هذه الجزيرة، جمع أهلها وقال لهم: «أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم في بلادكم، والرأي إخراجهم، فقالوا: قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً»[٦]. على أن الأكحل لم يعبأ بذلك، وأرسل إلى الإفريقيين من أهل صقلية فلبوا طلبه، وظل يحمي أملاكهم ويأخذ الخراج من أهل الجزيرة. غير أن هذه السياسة التي اتبعها هذا الوالي أساءت إلى صقلية: فسار فريق منهم إلى المعز بن باديس الصنهاجي أمير إفريقية وشكوا إليه ما حل بهم، وهددوا بتسليم بلادهم إلى الروم. فسير معهم ابنه عبد الله[٧] الذي حاصر

---

(١) من بطون بني هلال الذين استقروا بصعيد مصر في عهد الفاطميين.

(٢) قطعت الخطبة للفاطميين في إفريقية سنة ٤٣٥ هـ وخرج العرب من مصر في طريقهم إلى بلاد المغرب في سنة ٤٤٠ هـ. ووقعت موقعة حيدران في سنة ٤٤٣ هـ، أي أن زحف العرب استغرق ثلاث سنوات (٤٤٠ - ٤٤٣ هـ).

(٣) حسن أحمد محمود: بنو زيري وسياستهم الداخلية ص ١٩٠ - ١٩١.

(٤) سجلات وتوقيعات الإمام المستنصر بالله، رسالة رقم ٥ ص ٤٥.

(٥) أبو المحاسن: ج ٥ ص ٥٠ - ٥٦.

(٦) أماري: المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٣ وما يليها.

(٧) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

الأكحل وقتله. وثار فريق من الأهالي وولوا عليهم «حسن الصمصام» أخا الأكحل. ولكن هذا الوالي لم يكن حسن السياسة، فثار عليه أهل الجزيرة، واستعان بعضهم بالفرنجة ومنوهم الاستيلاء على البلاد، فرحبوا بهذه الدعوة واستولوا على كثير من مدنها.

ولما رأى المسلمون ما حل بهم من الهزيمة، سار فريق منهم إلى المعز بن باديس وطلبوا إليه العون على طرد الروم، فأرسل إليهم أسطولاً غرق أكثر رجاله. ولم يلبث ابن باديس أن توفي، وخلفه ابنه تميم، فأبطل ذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمي في الخطبة (٤٤٣ هـ) ونشر الدعوة للقائم العباسي. وبذلك تقلص نفوذ الفاطميين في المغرب وصقلية، وظلت الدعوة تقام لبني العباس في هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين كما تقدم.

أرسل تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية أسطولاً لمساعدة المسلمين في صقلية على طرد الروم منها. ولم يكد هذا الأسطول يصل إلى الجزيرة حتى قامت الفتنة بين أهلها وبين تميم بن المعز، وانتهز النرمنديون هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة وثغورها، وضيقوا الخناق على المسلمين واشتعلت الحرب بينهم وبين النرمنديين زمناً طويلاً حتى اضطر المسلمون إلى التسليم، وتم لروجر النرمندي الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ[١].

هكذا فقدت الدولة الفاطمية نفوذها في صقلية بعد أن قام ولاتها بكثير من الإصلاحات فيها، ونشروا في بلادها ألوية العدل، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة، فزادت ثروة سكانها، وعمت الخيرات فيها، وافتن أهلها في ضروب الترف والنعيم. وظل المسلمون لا يمتازون عن النصارى في شيء، يتمتع كل منهم بعقيدته وأسلوب معيشته؛ وقد تشبه نساء النصارى بنساء المسلمين فانتقبن النقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، ولبسن الحرير الموشى بالذهب وتزين بكل ما يتزين به المسلمات؛ ولم يرهق الفاطميون النصارى بالضرائب، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم: دينارين من أغنيائهم، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات.

وقد شهد عصر الخليفة المستنصر زوال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب وصقلية، ويرجع ذلك إلى انشغاله بإخماد الفتن الداخلية التي صحبها الغلاء والوباء مما أدى إلى ضعف مصر. كما قطعت الدعوة للمستنصر بعد وفاة الصليحي في اليمن سنة ٤٧٣ هـ.

---

(١) أماري: المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢.

ولم يكتف الفرنجة باستيلائهم على جزيرة صقلية، بل تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل أفريقيا الشمالي، فاستولوا على المهدية حاضرة الدولة الفاطمية الأولى.

(٥) علاقة الفاطميين والعباسيين باليمن:

وقد راجت الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي (ت ٤٥٩ هـ). وكان أبوه من القضاة السنيين في هذه البلاد. وقد استمال عامر بن عبد الله الزواحي داعي دعاة الإسماعيلية في اليمن، علي بن محمد الصليحي، فتحول إلى المذهب الإسماعيلي وهو في حداثة سنه، وتفقه فيه، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم. كما استطاع علي بن محمد الصليحي أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضي على مناوئيه (سنة ٤٣٩ هـ). ولما استقرت قدمه في هذه البلاد، «كتب إلى صاحب مصر، وهو معد المستنصر من بني عبيد، ووجه إليه بهدايا، فوجه معد المستنصر إليه برايات وألقاب، وعقد له الولاية»[١](سنة ٤٥٣ هـ). ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان علي بن محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن.

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلي بن محمد الصليحي في إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها. ولما تم له ما أراد قضى على الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها، ولكنه لم يلبث أن قتل في سنة ٤٥٩ هـ[٢]وهو في طريقه إلى مكة، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المكرم ابن علي الصليحي (ت ٤٧٨ هـ)، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم (٥٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، تلك الدعوة التي لا تزال منتشرة على أيدي البهرة في الهند.

وقد استطاع علي الصليحي أن يوطد نفوذ الفاطميين في الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرها، فأشاد المستنصر بفضله وخلع عليه لقب «عمدة الخلافة»[٣].

---

(١) الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣.

(٢) ابن خلدون: ج ٤ ص ٢١٥.

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣ هـ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣هـ. ولكن الرسائل التي تبودلت بين المستنصر الفاطمي وبين الصليحيين تؤيد أن موته سنة ٤٥٩هـ.
راجع سجلات المستنصر في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلبنان The Letters of Al-Mustansir B.S.O.S. p. 323.

(٣) جاء في رسالة رقم ٢ (ص ٣٢). وقد خوطب رسلك بما يذكرون لك مما يقوي نفسك ويشرح صدرك ويشد أزرك. وزاد أمير المؤمنين في نعوتك «عمدة الخلافة» لاعتماده عليك.

وكان الخليفة المستنصر يبعث إلى علي الصليحي بأنباء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليذيعها على الناس ويعلنها من فوق منابر بلاده.

ولم تتبدل العلاقات بين الفاطميين والصليحيين بوفاة علي الصليحي سنة ٤٥٩ هـ، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المكرم الذي أقره الخليفة الفاطمي على بلاد اليمن وعهد إليه بالاضطلاع بشئون الدعوة الفاطمية في اليمن[١]. وظلت كتب المستنصر إلى المكرم تواتيه لأنه ظل على ولائه للفاطميين. وقد عرف له الخليفة الفاطمي هذا الولاء، فولاه عمان سنة ٤٦٩ هـ. وأمره أن يعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله ابن علي العلوي أمير الأحساء[٢]. وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي فعهد إليها بأن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهند وفي عمان، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد[٣].

(٦) علاقة المسلمين بالصليبيين:

(أ) أسباب الحروب الصليبية

تطلق الحروب الصليبية على الحملات التي وجهها المسيحيون في أوروبا إلى الشرق من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري (الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي) للاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين. وتمتاز هذه الحروب في بدايتها على الأقل بصفتها الدينية وانعدام كل المميزات الجنسية والقومية، إذ أصبح المتحاربون شعباً واحداً هو الشعب المسيحي. ومن ثم أطلق على هذه الحروب الحروب الصليبية.

ومن أهم الأسباب التي دفعت المسيحيين إلى خوض غمار هذه الحروب:

(١) ظهور السلاجقة في بلاد الأناضول وآسيا الصغرى التي انتزعوها من الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وهددوا القسطنطينية وانتزعوا بيت المقدس (٤٧١/١٠٧٨) من الفاطميين. وكان المسيحيون يزورون بيت المقدس في أمن وطمأنينة، فلما جاء السلاجقة وقفوا للصليبيين بالمرصاد وأثاروا بذلك الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين في العصور الوسطى يعتقدون أن الحج إلى بيت المقدس يؤدي إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية.

---

(١) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢١٦.

(٢) راجع Hamdanî, Letters of Al-Mustansir (Bsos), 1934, Vol, III, Part II, pp. 316 - 317.

(٣) Ibid., p. 321.

وليس هذا عجباً لأن الناس في هذه الحروب، وعلى الأخص في عهد الإقطاع، كانوا يقترفون بسبب جهلهم الآثام، وكانوا يخشون قوة الكنيسة ويعتقدون أن لا منجاة لهم من هذه الآثام إلا بالأعمال الصالحة، كالصوم والتقشف في الملبس والحج إلى الأماكن المقدسة التي وطئتها أقدام المسيح وصلب على أرضها من أجل خلاص العالم. فإذا كان ثواب الحج إلى هذه الأماكن عظيماً، فإن ثواب قتال المسلمين، أو الكفار (على ما كان يعتقد المسيحيون في ذلك الوقت) لتخليص هذه الأماكن المقدسة أعظم. ومع ذلك فإنه يبدو أن الأخبار التي ذاعت قبل الحروب الصليبية عن تعصب السلاجقة وسوء معاملتهم الحجاج مبالغ فيها.

(٢) ظهور الروح الحربية في الكنيسة، تلك الروح التي قامت أول الأمر على المودة والمحبة والإخاء وحب السلام ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصدراً لحروب دموية استمرت عدة قرون. وذلك يرجع إلى دخول العناصر المتبربرة في الدين المسيحي واحتفاظها بنزعتها الحربية التي درجت عليها قبل اعتناقها هذا الدين، وإلى رغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق كما فعل الإسلام من قبل وتأسيس مستعمرات لاتينية فيه، ورغبة الكنيسة الغربية في السيطرة على جميع العالم المسيحي ليكون تحت سلطة حكومة دينية واحدة رئيسها البابا. أضف إلى ذلك الروح التي كانت سائدة بين الفرسان والأشراف وميلهم إلى الحروب والمخاطر في سبيل الدفاع عن الكنيسة ورغبتهم في تكوين إمارات في الشرق، ورغبة الرقيق في التخلص من نظام الإقطاع الذي كان يربطهم بالأراضي، وكذا التخلص من أداء ديونهم أو من زوجاتهم أو من المحاكمة على ما اقترفوه من الجرائم.

(٣) انتصار البابوية على الإمبراطورية وتفوق نفوذ البابا على غربي أوروبا مما جعل دعوته مسموعة وكلامه مطاعاً.

(٤) رغبة المدن التجارية مثل البندقية وجنوة وپيزا في نشر تجارتها في الشرق.

ومن العوامل التي مهدت السبيل لقيام الحروب الصليبية:

(١) انقسام دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه وتفكك الوحدة الإسلامية وعدم وجود زعيم قوي يجمع شتات القوات الإسلامية. أضف إلى ذلك ضعف الدولة الفاطمية وعدم قدرتها على درء خطر المسيحيين عن سواحل الشام ومصر.

(٢) قيام المدن الإيطالية، وخاصة جمهوريات جنوة والبندقية وپيزا، وتغلب قواتها البحرية على قراصنة البحر الأبيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب، واحتلال النورمنديين جنوبي إيطاليا وصقلية مما سهل على الصليبيين عبور هذا البحر إلى فلسطين.

(٣) تحول المجريين إلى المسيحية الأمر الذي فتح الطريق بين غربي أوروبا والشرق.

(ب) الدعوة إلى الحروب الصليبية

استولى أحفاد طغرلبك على آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية. وقد قيل إن إمبراطور الروم أرسل إلى البابا أربان الثاني يطلب مساعدته. كما قيل أيضاً إن بطرس الناسك هو الذي أثار الحرب الصليبية الأولى بسبب ما كان يذيعه من اضطهاد السلاجقة للحجاج المسيحيين. على أنه يظهر من أقوال المؤرخين أن بطرس الناسك لم يذهب قط إلى فلسطين ولم ير البابا أربان إلا بعد أن أعلنت الحرب الصليبية الأولى، وأنه بعد إعلان الجهاد جمع شرذمة من الغوغاء رجالاً ونساءً وسار بهم إلى فلسطين. ومهما يكن من شيء فإنه مما لا ريب فيه أن البابا أربان الثاني رحل في سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) إلى فرنسا وعقد في مدينة «كليرمونت» مجمعاً حضره كثير من رجال الدين والفرسان، وشرح لهم حال المسيحيين في بيت المقدس وما يلاقيه الحجاج المسيحيون من المشاق والآلام. ودعا النصارى إلى حمل السلاح والذود عن الهيكل المقدس.

ولم يكد البابا يتم خطابه حتى أحاط به الآلاف من الناس، وأقسموا الأيمان على أن يأخذوا بناصر دينهم. فعلق البابا لكل من المتطوعين صليباً من الخشب على ذراعه الأيمن، فأصبح هذا الصليب شعار الحرب. ومن ذلك الوقت أطلق على هذه الحروب اسم الحروب الصليبية. ثم أعلن البابا حماية الكنيسة لأملاك المحاربين وأسرتهم ومضاعفة جزاء من يشترك فيها، وغفران ذنوب الخاطئين ودخول من يموت منهم في جنات النعيم. وقد بث البابا الأساقفة في طول فرنسا وعرضها لنشر دعوة الجهاد، ومن هؤلاء بطرس الناسك، وكان خطيباً مفوهاً، وسرعان ما سرت روح الحرب الدينية إلى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم وتسربت إلى أعماق نفوسهم، فهرعوا من كل صوب وحدب واتحدت أوروبا المتنازعة المنقسمة إلى دوقيات بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية لأول مرة، على حين كان المسلمون إذ ذاك منقسمين على أنفسهم متنازعين.

وعلى أثر إعلان الدعوة إلى الحروب الصليبية اجتمعت طبقات من الغوغاء وساروا في غير نظام ولا استعداد تحت قيادة بطرس الناسك، بدون تخليص بيت المقدس. فجعلوا ينهبون البلاد التي مروا بها، مقترفين في طريقهم الجرائم الشنيعة، حتى أدى الأمر إلى قيام المجريين والبيزنطيين في وجههم. ولما وصلوا إلى القسطنطينية رأى الامبراطور أن يتقي

شرهم، فساعدهم على السير إلى آسيا الصغرى والتقدم إلى «نيقيا»، حيث قابلهم السلاجقة وأفنوهم على بكرة أبيهم (١٠٩٦/٤٨٩).

(ج) الحرب الصليبية الأولى

في هذه الأثناء كان الاستعداد للحملة الصليبية الأولى قائماً على قدم وساق في أكثر ممالك أوروبا. وقد قام البابا بتنظيم هذه الحملة، فقرر أن تبدأ سيرها في ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) وأن يكون اجتماعها خارج أسوار القسطنطينية. غير أنه لم يكن لهذه الجيوش قائد يجمع شملهم ويوحد كلمتهم. أما الزعامة فقد عهدت إلى عدد من خيرة الأشراف والقواد وأغلبهم من فرنسا وهم:

(١) جودفري دوق اللورين الأسفل مع إخوته.

(٢) بولدوين.

(٣) يوستيس.

(٤) روبرت دوق نورمنديا وابن وليم الفاتح.

(٥) روبرت كونت فلاندر.

(٦) ستيفن كونت شارتر.

(٧) ريمون كونت تولوز.

(٨) هيو أوف فيرماندو.

(٩) بوهيمند دوق تورنتم وابن أخيه تانكرد.

ولم يكن لهؤلاء الزعماء خطة مشتركة بل عمل كل منهم مستقلاً عن الآخرين. أما ملوك أوروبا فإنهم لم يشتركوا في هذه الحملة، إذ كان فيليب الأول ملك فرنسا وهنري الرابع إمبراطور ألمانيا مطرودين من رحمة الكنيسة. وكان ملوك أسبانيا في حرب مع المسلمين، على حين كان ملك إنجلترا شاباً صغيراً لا يهمه من أمور الدين شيء. لذلك سارت هذه الحملة تحت لواء البابا يقودها نفر من الأشراف. وكان سيرها على مثال البرابرة أثناء غزواتهم لرومة لا جيشاً منظماً بالمعنى المعروف مما جعلها تنوء بمطالب الحياة اليومية.

وقد اتخذ كل زعيم طريقاً خاصاً مع جنده. وقد قيل إنهم بلغوا مليوناً من الرجال

والنساء والأطفال والخدم ، بينهم عدد من المحاربين يختلف بين ٢٠٠ و٣٠٠ ألف مقاتل . فلما وصلوا إلى أبواب القسطنطينية خشي الإمبراطور «أليكسيوس» عاقبة أمرهم . لكنه استطاع أن يتفق مع بعض قوادهم على أن يردوا إليه ما عسى أن يستولوا عليه من أملاكه على أن يمدهم بما يحتاجون إليه من المؤن والذخائر .

ثم عبر الصليبيون البوسفور وحاصروا مدينة نيقية . فنقل قليج أرسلان صاحب سلطنة الروم ملكه إلى قونية ، فاتفق الروم مع السلاجقة على أن يدخلوها وحدهم ، فغضب الصليبيون لذلك ، لأن الإمبراطور لم يسمح لهم بسلب المدينة . ثم تقدم الصليبيون إلى دوريليم حيث هزموا جيوش أرسلان ، بينما تفرغ الإمبراطور البيزنطي لاسترداد آسيا الصغرى ويئس من الاتفاق مع الصليبيين ، فكف عن مساعدتهم وأخذ يناهضهم لاسترداد ما دخل تحت حوزتهم .

وقد اختلف بولدوين وتانكرد كل يريد أن تكون الأولوية للوائه ؛ فانسلخ بولدوين إلى الرها تلبية لدعوة أميرها ، فاستقل بها وأسس فيها إمارة لاتينية . أما سائر الصليبيين فقد زحفوا على أنطاكية وحاصروها (أكتوبر ١٠٩٧) تسعة أشهر قاسوا فيها أشد آلام المرض والجوع حتى دب اليأس في نفوسهم ، ثم دخلوها عنوة (١٠٩٨ م) ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل وقتلوا منهم عشرة آلاف وأمروا عليها بوهيمند .

وباستيلاء الصليبيين على أنطاكية خلا لهم الطريق ، فاستأنفوا الزحف على أورشليم . واقتصر الإمبراطور البيزنطي على إمدادهم بالمرشدين ، فدخلوها عنوة في يونيه سنة ١٠٩٩ م . وكان عدد جيش الصليبيين إذ ذاك أربعين ألفاً ، مما يدل على معظم الخسارة التي لحقت بهم منذ رحلوا إلى أرض المشرق . وقد حدثت على أثر دخول الصليبيين مذبحة شنيعة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً ، حتى خاضت خيولهم في بحر من الدماء كما ذكر جودفري في رسالته إلى البابا يهنئه فيها بالظفر .

وعلى أثر هذا الفتح انتخب جودفري ملكاً على بيت المقدس لما امتاز به من البسالة والإقدام ، فاكتفى بلقب حامي قبر المسيح .

ثم أخذ الصليبيون يقتحمون المدن الباقية في فلسطين ، وسهل عليهم هذه المهمة تلك المساعدات التي كانت تقدمها أساطيل المدن الإيطالية . فاستولوا على عكا ، ثم على صور ، وأنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند . وعلى أثر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عاد عامة جندهم إلى أوطانهم ، وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى .

كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أهم نتائج هذه الحرب، فلم يحفل الغربيون بالخسائر الفادحة التي حلت برجالهم. ولما عاد المحاربون إلى أوطانهم قوبلوا بكل مظاهر الحفاوة والترحيب. وقد أثارت الحكايات التي نشرها المحاربون بين مواطنيهم كثيراً من ضروب الحمية والحماس التي مهدت لهم السبيل لتنظيم حملة صليبية أخرى إلى الشرق. كما تكونت أربع إمارات لاتينية في الشام هي:

(١) بيت المقدس ويحكمه جودفري ثم أخوه بولدوين من بعده.

(٢) أنطاكية وأميرها بوهيمند ثم ابن أخيه تانكرد من بعده.

(٣) طرابلس وأميرها ريمند.

(٤) الرها وأميرها بولدوين.

كما استطاعت الدولة البيزنطية أن تسترد جزءاً كبيراً من آسيا الصغرى، وبدأت جمهوريات جنوة والبندقية وپيزا تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين. ورحل إلى فلسطين كثير من الغربيين واتخذوها دار إقامة واندمجوا مع الأهالي وتصاهروا معهم، وأصبحت هذه البلاد النائية وطناً لهم. كذلك قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوروبا، فكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى على الرغم من أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم. وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة بسبب تغلب العنصر الفرنسي؛ ولذلك أطلق العرب اسم الفرنجة على الصليبيين جميعاً.

ولتحقيق تضامن الصليبيين في الدفاع عن الأراضي المقدسة والعناية بالمرضى والجرحى والحجاج، قامت عدة جمعيات دينية لتحقيق هذه الأغراض، وأهم هذه الجمعيات: طائفة فرسان المعبد، وفرسان القديس حنا، ويسمى أعضاء هذا المعهد Templars وكان يتحتم على هؤلاء الأعضاء الطاعة والطهارة والعفاف. ولذلك انضم إليهم كثير من فرسان الغرب وأغدق عليهم الأغنياء الخيرات، فأثروا وكونوا قلاعاً وضياعاً في أوروبا وآسيا.

(د) الحروب الصليبية الثانية (١١٠٠ ـ ١١٠٤)

لم يحسن الصليبيون في الشرق سياستهم مع أنفسهم ولا مع إمبراطور الروم لما كان بينهم من المنافسة والحقد والضغينة والمكائد. وطالما تحالف المسيحيون مع المسلمين

ضد غيرهم من المسيحيين. وتمتاز فترة هذه الحرب بوجود زعيم قوي جمع شتات المسلمين هو عماد الدين زنكي الذي وجه همته نحو إخراج الصليبيين من الشرق. وكان عماد الدين عاملاً من قبل العباسيين على الموصل والعراق ذات العلاقات التجارية بأكثر بلاد الشام. وفي سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) تقدم عماد الدين حتى استولى على الرُّها وهدد كلاًّ من أنطاكية وبيت المقدس، ففزع الفرنجة من خطر هذا الهجوم، وطلب الصليبيون في الشرق معونة دول أوروبا. غير أن الحال في أوروبا قد تبدلت بوفاة البابا أوربان الثاني، فلم يلب أهل أوروبا نداء الصليبيين بنفس الروح القديمة، وذلك لقيام النزاع بين رجال الكنيسة على البابوية وضعف البابوات أنفسهم، وازدياد ثروة أهل أوروبا لرواج تجارتهم مما أدى إلى تغيير يذكر في حالة الشعوب.

ولانشغال أذهان الناس بالمصالح السياسية لم يعودوا يهتمون بتأييد الكنيسة، وبدأوا يعتقدون أن سلطة البابا يجب ألا يتعدى سلطته الروحية. أضف إلى ذلك ازدياد قوة الملكية في عهد لويس السادس ملك فرنسا، وتأسيس رودجر النورمندي مملكة تضم صقلية وجنوبي إيطاليا، وازدياد الثروة وازدياد النزعة الاستقلالية في مدن سهل لومباردي، وإيقاظ الحركة الفكرية، إذ بدأ الناس يفكرون تفكيراً حراً غير متأثر بالتعصب الديني. كما كان لدراسة القانون أثر بعيد في حرية الفكر. وأخذ الشعراء ينظمون قصائدهم في الغزل والخمر. وهكذا أضحى الناس لا يفكرون إلا في التمتع بمظاهر هذه الحياة الجديدة.

ولذلك كله أصبح من الصعب أن تنشب حرب صليبية أخرى. ومع ذلك فقد استطاع «برنارد أوف كليرفو» (Bernard of Clairvaux) أن يجمع بحسن بيانه وقوة حجته عدداً كبيراً من المسيحيين للدفاع عن البلاد التي كلفتهم ثمناً غالياً من المال والرجال.

على أن هذه الحرب تمتاز عن الحرب الصليبية السابقة بانضمام لويسٌ السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث إمبراطور ألمانيا بعد بضعة شهور. ولكن الفرنسيين والألمان اختلفوا بادىء ذي بدء في خطة العمل حتى اضطروا إلى مواصلة سيرهم إلى الشام بطريق البحر، فوصل الفرنسيون إلى انطاكية. أما جيش الألمان الذي كاد أن يستأصل بدسيسة إمبراطور الروم فقد سار إلى عكاء، واتفق الفريقان على الاستيلاء على دمشق ليسيطروا على الطريق الداخلي الموصل إلى الشام. وارتكبوا بذلك خطئاً حربياً؛ لأن أمير دمشق كان موالياً للصليبيين، غير أن قوات عماد الدين زنكي (الذي توفي سنة ١١٤٦/٥٤١) أحاطت بهم من كل جانب تحت قيادة ابنيه سيف الدين الذي خلفه في ولاية الموصل، ونور الدين محمود

الذي خلفه فيما بعد في ولاية حلب، واضطر الصليبيون إلى التقهقر. وأرغم كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا على العودة إلى بلاده بسبب مرضه، وتبعه ملك فرنسا بعد قليل.

ويعتبر ذلك إخفاقاً تاماً للصليبية ومشجعاً للمسلمين. وقد هيأ هذا الإخفاق الظروف لاستيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤/٥٤٩ ثم على حلب سنة ١١٥٩/٥٥٤. فعمل نور الدين على الاستيلاء على الولايات اللاتينية في الشام، لولا انتقال ميدان القتال إلى مصر.

وقد أخفقت الحرب الصليبية الثانية إخفاقاً تاماً وساعدت على تقوية الوحدة بين المسلمين. كما ظهر ضعف الصليبيين في الشام، فقل عدد الحجاج، وضجر أهل أوروبا لهذا الإخفاق، فلم يفكروا في قيام حرب صليبية أخرى قبل وقت طويل.

(هـ) الحرب الصليبية الثالثة

اشتهر في هذه الحرب زعماء كثيرون من المسلمين، منهم نور الدين وصلاح الدين، أما نور الدين فقد قوي مركزه في الشام باستيلائه على دمشق وحلب كما تقدم، وأصبحت مملكة الصليبيين معرضة لهجمات المسلمين، غير أن مسرح القتال انتقل فجأة إلى مصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية عقب موت الوزير الصالح طلائع بن رزيك (١١٦١/٥٥٧) واستيلاء أسد الدين شيركوه (ومعه ابن أخيه صلاح الدين) على بلبيس ثم على الفسطاط ولكنه اضطر إلى العودة إلى الشام بعد أن وقف على ضعف مصر، وأخذ يعمل على الاستيلاء عليها. وفكر في إعداد حملة ثانية على مصر، ولكن سرعان ما فكر الصليبيون في ارسال حملة لغزو مصر، وأغاروا على بلبيس، فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين الذي أنفذ إلى مصر أسد الدين شيركوه على رأس جيش كثيف من التركمان، فوصلوا إلى القاهرة وانضم إليهم المصريون، وأرغم عموري على العودة إلى فلسطين، فدخل شيركوه القاهرة ورحب به المصريون وخلع عليه الخليفة الفاطمي.

ثم بدأ الوزير شاور يكيد المكائد لأسد الدين شيركوه الذي قتله في يناير سنة ١١٦٩ (٥٦٥ هـ) واستقر في مكانه في الوزارة. غير أن المنية عاجلت شيركوه في مارس من هذه السنة، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في الوزارة، فلم يلبث أن أزال الخلافة الفاطمية. وامتد سلطانه إلى حلب والموصل بعد وفاة نور الدين، ثم إلى غربي آسيا. وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين من كل جانب.

اشترك صلاح الدين في الحرب الصليبية الثالثة اشتراكاً أكسبه تلك الشهرة التي يعرفها

له التاريخ ،حيث استولى على كثير من القلاع والحصون التي كانت في أيدي الصليبيين، وسقط في يده بيت المقدس. وقد هال انتصار صلاح الدين أهل أوروبا وحرك همم بعض ملوكها، فأعدوا العدة لحرب صليبية جديدة. وأخذ هؤلاء الزعماء يكونون جيوشاً منظمة، ودعوا حكامهم إلى تنظيم حملة جديدة لاسترداد هذه الأقاليم المفقودة.

وقد انتهت هذه الحرب الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢) وأصبحت فلسطين أرضاً إسلامية، ما عدا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى عكاء.

(و) الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤)

كان الضعف قد أخذ من دول الغرب كل مأخذ بعد ما فقدوا من العدد والعدة في حروبهم مع الشرق؛ فخارت عزائمهم وضعفت نفوسهم. إلا أنه كان لا يزال هناك عدد غير قليل من الناس على استعداد لتلبية نداء البابا إنوسنت الثالث الذي استطاع أن يجمع حوله آلاف الفرسان ويتفق مع الدوق داندولو رئيس جمهورية البندقية أن يمدهم بالسفن والمؤن مقابل مبلغ من المال، على أن يقتسموا معه ما عسى أن يستولوا عليه من الغنائم والأراضي.

ولما كان من المتعذر على الصليبيين أن يدفعوا ثمن نقل هؤلاء الفرسان، عرض عليهم الدوج، وكان رجلاً مسناً ذا مكر ودهاء، أن يشتركوا معه في إخضاع مدينة «زارا» (الواقعة على بحر الأدرياتيك) تنفيذاً لأغراضه التجارية، مقابل إعفائهم من هذا الدين. فهاجم الفريقان المدينة وخربوا ما فيها (٥٩٩/١٢٠٢)، ثم طلبوا من البنادقة أن ينقلوهم على سفنهم إلى مصر أهم مراكز القوى الإسلامية في ذلك الحين.

ولما كانت مصر ذات علاقات تجارية مع البندقية، رأى الدوج أن يحول الصليبيين عن غرضهم الأصلي، وعرض عليهم مهاجمة القسطنطينية لضغينة كانت في نفسه، ولأن هذه المدينة كان لها الزعامة بين مدن البحر الأبيض المتوسط. وقد عزز أغراض الدوج استنجاد أليكسيس (Alexius) ابن الامبراطور المخلوع من عرش القسطنطينية بالصليبيين لاسترداد عرش أبيه مقابل مبلغ كبير من المال، على أن تشترك معهم فيما بعد قوى إمبراطوريته في إخضاع المسلمين.

وعلى الرغم من أن هذا العمل لا يتفق والغرض الأساسي للحملة، رحب به الصليبيون، غير مبالين بتهديد البابا بحرمان زعمائهم من رحمة الكنيسة، لأن أغراضهم كانت أغراضاً دنيوية مصدرها حب المال من أي طريق. فتحول الصليبيون إلى القسطنطينية

واستولوا عليها، ثم اختلفوا مع الإمبراطور لأنه لم يدفع لهم الأموال التي وعد بدفعها. فاشتطوا في جمع الأموال وأدى ذلك إلى قيام الثورة وفرار الإمبراطور عن حاضرة ملكه. فدمر الصليبيون المدينة ونهبوا ما فيها، وحطموا التماثيل والتحف، ثم اقتسموا البلاد فيما بينهم، وأنشئوا فيها ما عرف باسم الإمبراطورية اللاتينية، واختاروا بولدوين دوق فلاندر إمبراطوراً على القسطنطينية.

وفي هذه الأثناء اشتبك اللاتينيون في حرب مع البلغار قتل فيها الإمبراطور بولدوين، وتزعزعت الإمبراطورية حتى هاجمها الإغريق الذين أقاموا حاضرتهم في نيقية، فقضوا عليها سنة ٦٦٠/١٢٦١ واستردوا ملكهم.

ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى إضعاف وسائل الدفاع عن القسطنطينية.

أما الحملات التي تلت هذه الحروب فلم تكن ذات أهمية من حيث نتائجها، لأن العاطفة الدينية التي اتقدت في الحرب الأولى قد خمدت جذوتها وحلت محلها الروح المادية. وليس أدل على ذلك من أن الحملات التي وجهت إلى مصر كانت ابتغاء الربح التجاري بدلاً من أن توجه إلى بيت المقدس.

لماذا انتهت الحروب الصليبية؟ نتائجها:

إذا كانت الحروب الصليبية قد وقفت عند هذا الحد فإن الفكرة ظلت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حين دعا البابوات أهل أوروبا إلى خوض غمارها ضد المسلمين. ومع ذلك فقد لبى بعض ملوك فرنسا هذا النداء، لا لغرض سوى اتخاذ هذه الفكرة ذريعة لجمع الضرائب.

على أن أسباب انتهاء الحروب الصليبية ترجع إلى أن الصليبيين كانوا بصفة عامة في مبدأ أمرهم جماعات غير منظمة أو غير موحدة تحت لواء زعيم واحد يجمع شملهم ويلم شعثهم، وقد ظهرت بين صفوفهم المنافسة والمطامع الشخصية. ثم اتجهوا أخيراً نحو الغنم المادي، وانحرفوا عن الروح الديني الذي قامت الحروب الصليبية من أجل تحقيقه.

وقد ظهرت النزعات القومية وحلت محل النزعات الدينية، فأصبحت كل مملكة في حاجة إلى الاحتفاظ بقوتها لصالح وطنها، كما آثرت المدن التجارية المصلحة الاقتصادية على بذل الجهود في سبيل ما يسمى الحروب الدينية.

وهكذا انتهت الحروب الصليبية بطرد الصليبيين من المشرق وانتصار المسلمين بفضل

اتحاد كلمتهم وتوحيد جهودهم وبعدهم عن الحزازات الشخصية مما جعلهم قوة يخشى بأسها وشوكة في جانب الأوروبيين الذين كانوا يهدفون إلى استعمار هذه الجهات.

ومن هنا نرى أن الحروب الصليبية لم تحقق الأهداف التي قامت من أجلها؛ إذ كانت الدولة اللاتينية التي قامت ببيت المقدس قصيرة الأجل. ومع هذا فقد كان للحروب الصليبية نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ولا سيما في البلاد التي قامت على أرضها هذه الحروب، وكذلك البلاد التي أقامت هذه الحروب. فقد صانت هذه الحروب الدولة البيزنطية وحالت دون إغارة السلاجقة على أوروبا وامتلاكهم جزءاً كبيراً منها. كما قوت مركز البابوية وعلى الأخص في العهد الأول من هذه الحروب. وجعلت الحروب الصليبية من الفروسية نظاماً ثابتاً وساعدت على ظهور جماعات الرهبان الحربية، وأضعفت نظام الإقطاع، إذ باع كثير من الأشراف أراضيهم ونزلوا عن ممتلكاتهم الإقطاعية للحصول على المال والاندماج في سلك الحروب الصليبية. وكان من أثر ذلك أن قامت طائفة أشراف جديدة، وزالت بعض الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض، كما ظهرت الطبقات الوسطى من العمال الأحرار.

وكذلك بثت الحروب الصليبية في شعوب أوروبا وملوكها روح الاتحاد من أجل هدف واحد، ودعمت مراكز الملوك، وقضت على نظام الإقطاع الذي حل محله نظام القومية بين الشعوب، كما ساعدت على نشاط حركة الملاحة لزيادة السفن التجارية التي قامت بنقل الجيوش المحاربة إلى المشرق، وساعدت على استيلاء المسيحيين على موانىء الشام وفتح أبواب التجارة بين الشرق والغرب، وأتاحت الفرصة للغربيين على الوقوف على معالم الحضارة الإسلامية العريقة، فجعلوا ينقلون إلى بلادهم الأقمشة المزركشة والحرير والسجاجيد والمرايات وأنواع النباتات والحيوانات، مما ساعد على نماء ثروة أوروبا وتقدمها الصناعي..

وبهذا أيقظت الحروب الصليبية النشاط الأدبي في أوروبا، فأخذ الكتاب يكتبون القصص ويدونون حياة أبطالهم. ومن نتائج هذه النهضة الأوروبية ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وإنشاء مدرسة لتعليم اللغات السامية بباريس، كما اقتبس الأوروبيون نظم الزراعة من الشرق، وزاد اهتمامهم بالرحلات والكشف على أثر ما نقله الصليبيون إلى بلادهم من أخبار بلاد المشرق، وظهر من بينهم رحالون عظماء، مثل ماركو پولو في القرن الثالث عشر، وخرستوف كولمب الذي كشف القارة الأميركية سنة ١٤٩٢، وماجلان الذي كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م.

وبعد فقد أثرت الحروب الصليبية على أوروبا من نواح أهمها: تأثير هذه الحروب في الكنيسة وفي كرسي البابوي، كما أثرت في الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوروبا بصفة عامة، ثم إنها أثرت أيضاً في العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة، وفي العلاقات التي تربط القارة الآسيوية بأوروبا وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضي الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر.

الباب السابع
الحركات السياسية والدينية

(١) القرامطة :

كان أهل حران وثنيين ينتمون في الغالب إلى أصل إغريقي. وقد رحلوا من بلادهم الأصلية فراراً من بطش المسيحيين بهم بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة الرومانية الشرقية في عهد الإمبراطور چستنيان. ومع ذلك فقد تمسك هؤلاء المهاجرون بالثقافة اليونانية ولا سيما بالثقافة الأفلاطونية الحديثة Neo-Platonic Philosophy، وفي العصر العباسي نقل وثنيو حران فلسفة اليونان وعلومهم إلى بغداد.

وكانت الكوفة التي ظهر فيها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامي، وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام: كالصابئة التي يعبد أتباعها النجوم والكواكب، والمانوية، والزرادشتية[١]. ومن الفرق الشيعية الغالية السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذي وضع مذهب تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر. ومذهب الوصاية[٢] الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم. كما أخذ عن الفرس نظرية الحق الإلهي[٣]. بل إن السبئية أتباع ابن سبأ ألهوا علياً. كذلك نرى الكيسانية الذين ظهروا في عهد عبد الملك بن مروان الأموي يبنون معتقداتهم على أساس معتقدات المجوس المزدكية التي ظهرت في بلاد الفرس في القرن الخامس الميلادي، والبراهمة في الهند، والفلاسفة القدماء، والصابئة، ويعتقدون بنبوة الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية أولاد علي بن أبي طالب[٤].

---

(١) وهي ديانة تقول بأن في العالم قوتين هما الخير والشر، ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة، وكانت هذه الديانة سائدة في فارس وشرقي بلاد العرب ولا سيما جهة البحرين.

(٢) وقد قال إن علياً وصي محمد وإنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين.

(٣) وقد قال إن علياً هو الخليفة بعد النبي وإنه يستمد الحكم من الله.

(٤) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٩٥، ٤٠٤ وما يليها.

وفي العصر العباسي الأول ظهرت طائفة الراوندية(١) الذين عبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء (وهي القبة التي بناها المنصور ببغداد) فألْقَوْا أنفسهم كأنهم يطيرون. ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس حتى اليوم القدرة على الطيران في الهواء كما يعزى ذلك إلى بعض البوذيين(٢). وقد نظر المنصور إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروي، كما نظر إليهم باعتبارهم زنادقة يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها، فقتلهم شر قتلة، ولكنه لم يستطع أن يقضي عليهم، فظهروا في صور مختلفة نراها في ثورة المُقَنَّع الخراساني(٣) الذي ادعى الألوهية وزعم أن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة إبراهيم وغيره من الأنبياء، ثم في صورة محمد ثم في صورة أبي مسلم الخراساني، ثم زعم أنه انتقل منه إليه(٤).

ومن هذه الطوائف طائفة الخُرَّمية(٥) أصحاب بابك (بفتح الباء الثانية) الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني، وتعد حركته استمراراً لحركة المقنع والراوندية وغيرهم. ثم ظهر من طوائف الشيعة الغالية القرامطة والدروز والنصيرية. ذكرنا من قبل أن الخليفة العزيز الفاطمي عمل على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين والقرامطة(٦)، وأنه أرسل جوهراً الصقلي على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين، ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطي الذي استنجد بأفتكين، ويمما شطر عسقلان، وحاصرا بها جوهراً، فاضطر هذا إلى طلب الصلح كما تقدم، ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التي دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين الفاطميين بقيادة العزيز وبين

---

(١) نسبة إلى روان (بفتح الواو) القريبة من أصبهان وكانت مهد دعوتهم.

(٢) الطبَري ج ٩ ص ٣٠٩.

(٣) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) ذكر النوبختي (كتاب فرق الشيعة ص ٤٢ - ٤٣) أن المقنع كان في مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزام وكانوا كيسانية الأصل) وقالوا بتناسخ الأرواح، واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلهاً بحلول روح الله فيه وأنه حي لم يمت.

(٥) قيل إنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما (بضم الخاء وفتح الراء مع التشديد) امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها (وكان ذلك أيام قباذ أبي كسرى الأولى المعروف بأنو شروان). وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك الذي ادعى الألوهية في عهد المأمون العباسي وتفاقم شره في عهد المعتصم.

(٦) يقصد بذلك قرامطة البحرين.

القرامطة بزعامة الحسن الأعصم، والأتراك بزعامة أفتكين، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذي سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم[(١)]، وعادت دمشق إلى أيدي الفاطميين الذين أقيمت الدعوة لهم على منابرها.

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم، حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم، واضطروهم إلى الهجرة إلى أوال[(٢)]، حيث انتقم منهم أبناء أبي طاهر[(٣)]. واتخذ الخليفة العزيز، الذي كان اليد المحركة التي أوقعت الاضطراب في صفوف القرامطة من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادتهم إلى حظيرة الفاطميين. ويقول ابن خلدون[(٤)]: «ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بني العباس». واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون في سنة ٤٧٠ هـ، وذلك في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ.

وقد استطاع الخليفة العزيز الفاطمي بحسن سياسته أن يستميل القرامطة من جديد إلى حظيرة الفاطميين وأن يثير حفيظتهم على العباسيين. يؤيد هذه الحقيقة ما ذكره ابن خلدون[(٥)] من أن القرامطة «رجعوا إلى دعوة العلويين (أي الفاطميين) ومحاربة بني العباس»[(٦)]. وكان من أثر هذه السياسة التي انتهجها الخليفة العزيز الفاطمي أن هاجم القرامطة الكوفة في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ ـ ٩٨٣ م)، ولم يرتحلوا عنها إلا بعد أن أخذوا من أهلها مبلغاً كبيراً في مقابل رفع الحصار عن مدينتهم[(٧)].

---

(١) يقول المقريزي (خطط ج ٢ ص ٨ ـ ٩) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه.

(٢) بضم الألف مع الهمزة.

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٩١.

(٤) المصدر نفسه. انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٥) العبر ج ٤ ص ٩١.

(٦) الواقع أن الفاطميين استطاعوا أن يمزقوا وحدة القرامطة وأن ينتزعوا السلطة من بيت الحسن الأعصم الذي دارت بينه وبين الفاطميين حروب طويلة في عهد المعز والعزيز. وقد آلت زعامة القرامطة إلى ستة منهم أطلق عليهم «السادة». وقد اشتهر منهم جعفر وإسحاق من أبناء عمومة الحسن الأعصم. وكان لهذين الزعيمين أثر كبير في الثورة التي قام بها أفتكين ضد الفاطميين، ثم في ثورة القرامطة على العباسيين بعد ذلك. المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٤٥.

على أن صمصام الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ابن عضد الدولة البويهي استطاع أن يصمد أمام القرامطة الذين حاولوا الاستيلاء على الكوفة غير مرة، وأن يردهم عنها وينزل بهم الخسائر الفادحة مما أوهن من قوتهم وآذن بقرب نهايتهم، «وزال من حينئذ ناموسهم»[١] كما يقول ابن الأثير[٢].

وكان من أثر هزيمة القرامطة أمام جيوش صمصام الدولة البويهي أن تشجع أحد البدو الأقوياء فهاجم القرامطة في الأحساء مركز قوتهم ونفوذهم وأحل بهم الهزيمة، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على أكبر معاقلهم؛ فعرج على القطيف واستولى على ما فيها من أموال القرامطة، ثم سار إلى البصرة وأعلن ولاءه للخليفة العباسي الطائع (٣٨١ هـ)[٣]. وعلى الرغم مما لحق بالقرامطة من هزائم ظلوا مصدر خوف للعباسيين. يدل على ذلك أنهم أغاروا في السنة التالية على البصرة وحالوا دون وصول الحجيج إلى الأراضي المقدسة مما أقلق بال العباسيين والبويهيين على السواء[٤] وفي سنة ٤٠٣ هـ نرى القرامطة يحاولون الوقوف في وجه الحجاج من جديد، كما يحاولون الاستيلاء على الكوفة[٥].

وقد استمرت العلاقات الطيبة سائدة بين القرامطة والفاطميين في عهد الحاكم، ولا سيما بين القرامطة وطائفة الدروز التي ظهرت في عهد هذا الخليفة الفاطمي. وحاول ابن علي مؤسس المذهب الدرزي أن يتصل بقرامطة البحرين ليجذبهم إلى مذهبه، واستطاعت قوة من القرامطة الاستيلاء على مدينة الملتان الهندية[٦]، فهاجمهم السلطان محمود الغزنوي وردهم على أعقابهم (٣٩٦ هـ)، فارتد زعيمهم إلى جزيرة سرنديب (سيلان) حاملاً معه أهله وماله[٧].

(١) يعني بذلك أنه لم يعد لمبادئهم قوة الانتشار والشيوع بعد ذلك.
(٢) الكامل ج ٩ ص ١٥ - ١٦.
(٣) النويري: نهاية الأرب، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ١٠٠.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩.
(٥) De Goeje, Les Carmathes du Bahrain, p. 195.
(٦) وتقع على سمت غزنة.
(٧) Defremery, Essai sur L'Histoire des Ismaeliens, pp. 30-31.

نهاية عهد القرامطة :

وكانت نهاية القرامطة في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي. وقد مرت هذه النهاية في طورين انتهى الطور الأول منهما بطردهم من جزيرة أوال وانتهى الثاني باستئصال شأفتهم من بلاد البحرين. ففي سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) خرجت جزيرة أوال عن طاعة القرامطة في البحرين وخضعت للعباسيين بعد سلسلة من الثورات التي قام بها السنيون في هذه الجزيرة. فقد بنى هؤلاء السنيون مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم، ولما فرغوا من بناء هذا المسجد خطبوا فيه للخليفة العباسي دون الخليفة الفاطمي. كذلك ثار أهل أوال على حكم القرامطة لأنهم عزلوا واليهم وفرضوا عليهم ضريبة جديدة أثارت حنقهم، فأشعلوا نار الثورة وقضوا على قوات القرامطة البرية والبحرية وآل الحكم في هذه الجزيرة إلى السنيين[١].

وكانت هزيمة القرامطة في جزيرة أوال بعيدة الأثر عليهم في بلاد البحرين نفسها، فقد اتصل السنيون في بلاد البحرين بالسلاجقة وبالعباسيين في العراق، فبعثوا إليهم في سنة ٤٦٢ هـ بجيوش جرارة أحلت بهم هزائم متتالية، واضطر القرامطة إلى الارتداد إلى بلاد الأحساء. وقد شجعت هذه الهزائم العباسيين والسلاجقة، فأرسلوا إلى الأحساء جيوشاً جرارة بقيادة طائفة من أمهر قوادهم، وأذاعوا المنشورات يستحثون فيها الناس على الانضواء تحت لواء هؤلاء القواد «في جهاد المبطلين والقرامطة الملحدين... وفي استئصال ذكرهم وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم»[٢]. وقد التف السنيون في البحرين حول الثوار وأنصار العباسيين، وأحاطوا بالقرامطة في شمالي الأحساء، وانتصروا عليهم في موقعة «الخندق» سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ - ١٠٧٨ م). وتعد هذه الموقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ، لأنها قضت على دولة القرامطة الذين ظلوا زهاء قرنين مصدر رعب وفزع للدولة العباسية بوجه خاص. وعلى الرغم من ذلك ظل أثر القرامطة باقياً في البحرين وعمان بعد موقعة الخندق بكثير، حتى لقد تأثر بتعاليمهم الخوجات من أتباع «آغا خان»، ولا سيما العمانيين منهم[٣].

---

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١، القسم الأول، ورقة ١٠٧.

(٢) La Fin de L'Empire des Caramathes du Bahrain (J. A., 1895) pp. 16-17.

(٣) انظر Badger, G. P., The History of the Imams and Sayyids of Oman (London, 1871).

(٢) الدروز[1]

١ ـ دعاة الدروز:

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تأثر المذهب الشيعي بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة: وذلك راجع إلى تأثر بعض الشيعيين بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ. ومن ثم أصبح المذهب الشيعي في عهد الفاطميين خليطاً من الدين والفلسفة، ونشأت بسبب ذلك مذاهب أخرى كمذاهب القرامطة والدروز والنزارية في فارس وخراسان والشام والطيبية في اليمن وغيرها.

وفي أوائل القرن الخامس الهجري قامت طائفة الدرزية أو الدروز وهم من غلاة الإسماعيلية الذين ألهوا الحاكم، وخرجوا بذلك على الإسماعيلية ثم المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة. وقد قامت هذه الحركة الشيعية على أيدي الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملكي المقدس. ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً في هذه الحركة حمزة بن علي الزوزني، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي، الذين جهروا في مصر بتأليه الحاكم.

رحل حمزة بن علي إلى مصر سنة ٤٠٥ هـ وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ وأخذ ينشر في الخفاء الدعوة إلى تأليه الحاكم، ثم جهر بدعوة ألوهية الحاكم (٤٠٨ هـ)، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز، ثم إلى ابنه الحاكم، بمعنى أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول (Incarnation).

ويظهر أن هذه الدعوة قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة في مصر. وقد شجع الحاكم حمزة وأنصاره، حتى إنه كان كثيراً ما كان يلتقي بهم في القرافة ويظهر عطفه

---

(١) الدرزي (بالفتح): واحد دروز الثوب ونحوه. وهو فارسي معرب ويقال درز بالدال والذال، وأولاد درزة: السفلة والسقاط والغوغاء من الناس والخياطون والحاكة، وهم من أسافل الناس. والدرزي (بالفتح) الخياط. والعامة تضم الدال فتقول درزي، وفي الجمع درزي. والصواب درزي في المفرد ودرزية في الجمع، والشائع اليوم دروز وهو خطأ.

عليهم، ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه في هذه الحركة من نجاح[١]. وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة في تلقيب نفسه بألقاب كثيرة مثل الإمام، والدليل على عبادة الله، والداعي إلى توحيد الله، والناطق بحق الله، والبرهان على الله، والرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. . . وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أي الحاكم) والطريق إلى توحيده، والحجة إلى عبادته[٢]. ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية؛ فقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخاري الدرزي في نشر عقائد هذا المذهب، وشجع الأخرم في سنة ٤٠٩ هـ على الجهر بتأليه الحاكم.

وقد ذكر أبو المحاسن أن الأخرم ذهب إلى جامع عمرو على رأس خمسين رجلاً ممتطين دوابهم، وسلموا إلى القاضي السني فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم. وقد أثار الأخرم بذلك حنق السنيين فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم، وتمكن هو من الهرب، ولكنه قتل بعد قليل[٣].

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من هزيمة غلاة الإسماعيلية فقد ظهر على أثر مقتله في سنة ٤٠٩ هـ الداعي محمد بن إسماعيل الدرزي[٤]، وكان قد وصل إلى مصر في سنة ٤٠٨ هـ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء. وقد سلك الدرزي في سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك شتى، فألف الكتب في ذلك، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم في نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين.

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزي في سبيل نشر دعوته، فقد تسمى بسند الهادي (حمزة بن علي)، وحذا حذو أستاذه في نقل رياسة هذه الدعوة إليه، فكتب إلى ختكين داعي دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه، كما كتب إلى ولي عهد المسلمين عبد الرحيم بن إلياس الذي كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوهم إلى دعوته، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ أنصار المذهب الدرزي، على أن ختكين قاوم هذه

---

(١) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) كتاب النقط والدوائر، وهو من كتب الدرزية، وقد ذيل ببعض رسائلهم، وهي (١) الرسالة الموسومة ببدء الخلق، (٢) نبذة من شرح البيان ومجرى الزمان (٣) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق، نشرة سيبولد الألماني (١٣١٩/١٩٠٢).

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣.

(٤) وإليه تنسب طائفة الدرزية، على الرغم من أن حمزة بن علي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب الدرزي.

الحركة واشترك مع السنيين في القضاء عليها، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزي وأنصاره وغلوهم. ووجدت هذه العقيدة أنصاراً من بين المصريين طمعاً في التقرب إلى الخليفة الذي ناصر هذه الحركة وعطف عليها. كما أخذ الدرزي في قراءة كتابه الذي صنفه في عقائد المذهب الدرزي في الجامع الأزهر، وأثار بذلك سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة، حتى كادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام، وأقام بوادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق، وأخذ ينشر الدعوة في تأليه الحاكم ويقرأ على كل أهالي هذه الجهات كتبه التي لم تلق قبولاً لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه، وأظهر الحاكم استياءه من دعوته خوفاً من رعاياه. وقد استطاع الدرزي أن يستميل إلى دعوته كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية. ولا يزال هذا المذهب منتشراً في جبال لبنان وحوران.

وليس من شك في أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية في مصر أولاً وفي الشام ثانياً، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن في دور بعض الناس. وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها، ثم تقديم تقاريرهن إليه في اليوم التالي. فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للمثول بحضرته وأخبرهم بما حدث في دورهم، كما اتخذ الحاكم جواسيس عهد إليهم بأن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث في الطرقات، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب.

٢ ـ أهم مميزات الدرزية:

قامت الطائفة الدرزية في أوائل القرن الخامس الهجري كما تقدم. ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشيء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلي. ولا يزال كثير من الأسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأوائل قائماً إلى اليوم. ومن أهم الخصائص اتخاذ الدرزية تقويماً يؤرخون به حوادثهم، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ، وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن علي وأنصاره. ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون، أي ظهور التوحيد.

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها في وجه كل من لا ينتمي إليها، أي من لا يكون درزياً أو موحداً على حد تعبيرهم. ويبررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب، فمن لم يؤمن بقي كذلك إلى الأبد، ومن آمن فقد آمن بلا ردة[1]، ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين:

---

(١) حمزة بن علي الدرزي: التاليد في مذهب أهل التوحيد (نشرة ميخائيل شاروبيم) ص ٢٣.

الأولى : طائفة الروحانيين، وتكون الطبقة المستنيرة التي تلم بأصول المذهب الدرزي، وتقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد، فالرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية، والعقلاء بيدهم الأسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب.

والطائفة الثانية هي طائفة الجسمانيين. وتنقسم قسمين: الأمراء الجسمانيون والعامة أو الجهال. فالأمراء الجسمانيون بيدهم شئون الحرب والزعامة الوطنية، والعامة أو الجهال هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه، ولا يحق لطبقتي الجسمانيين الدخول، بحال من الأحوال، في مجالس طائفة الروحانيين، ويعتبرون جهالاً مهما علا كعبهم في التعليم والثقافة[١].

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجسمانين بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقي أصول المذهب الدرزي والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقهاً في عقائده، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها. وقد وضع حمزة ابن علي صيغة هذا العهد الذي أسماه «ميثاق ولي الزمان»[٢].

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب، ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره[٣].

ولذلك نرى أن الدروز يرمون المعتدلين من طائفة الإسماعيلية بالجمود، كما يكفرون في الوقت نفسه المسلمين عامة ويسمونهم الكفار أو المشركين في الوقت الذي يطلقون على أنفسهم الموحدين، على حين نرى سائر المسلمين يكفرون الدروز ولا يعدونهم من الفرق الإسلامية: فقوم يكون البشر إلههم ومعبودهم، وحمزة بن علي نبيهم وناطقهم[٤]. كذلك

---

(١) راجع .Hitti, The Origins of Druze People and Religion. p. 43

(٢) Chrestomathie Arabe, Vol II p. 52

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٥٤ ـ ٣٦٠.

(٤) طه أحمد شرف: الإسماعيلية وتاريخهم السياسي حتى سقوط بغداد، مخطوطة ج ١ ص ٣٣٥.

نرى كثيرين من علماء المسلمين يرمون طائفتي الدروز والنصيرية بالزندقة ويبيحون دماءهم ويحرمون مصاهرتهم والتقرب منهم[١].

ولكي يقوي حمزة بن علي مؤسس المذهب الدرزي الرابطة بين أنصار مذهبه جعل العهد الذي يؤخذ على المستجيبين وثيقة مقدسة تلزم هؤلاء المستجيبين بالتفاني في سبيل المذهب والتماسك بين أفراد هذه الطائفة وإليك نصها:

«توكلت على مولانا الحاكم الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان ابن فلان إقراراً أوجبه على نفسه وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره، طائعاً غير مكره ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة في العبادة، وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو يُنتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله، ساءه ذلك أم سره. ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه وأشار به على غيره أو خالف شيئاً من أوامره، كان بريئاً من الباري المعبود وحُرم الإفادة من جميع الحدود، واستحسن العقوبة من الباري العلي جل ذكره. . . ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره، كان من الموحدين الفائزين.

وكتب في شهر كذا وكذا ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده»[٢].

وعلى الرغم من أن الدرزية قد انطووا على أنفسهم حتى أصبحوا جماعة مغلقة لا يعرف الناس من أمرهم شيئاً، نراهم يعاونون المسلمين في صراعهم مع الصليبيين معاونة صادقة في سبيل الاحتفاظ بالسهل الساحلي في لبنان. وكانت لهم في الوقت نفسه مواقف حربية رائعة في حصار قلعة الشقيف[٣]. كما نرى أن الدروز يعاونون هولاكو التتاري إبان

---

(١) المحبي: تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ١٨٦٧) ج ٣ ص ٢٦٩.

(٢) دي ساسي: الأنيس المفيد ج ٢ ص ٨٢ ـ ٨٤. ويقصد بسنة عبد مولانا السنة التي دعي فيها بتأليه الحاكم بأمر الله أي سنة ٤٠٨ هـ.

(٣) ولعلها شقيف تيرون وهو حصن على مقربة من صور. وتطلق كلمة شقيف على عدة أماكن ببلاد الشام، وتشير إلى الأماكن الخصبة: فهناك شقيف أرنون في جبل قريب من بانياس من أعمال دمشق يقع بينها =

إغارته على بلاد الشام، بدليل إقطاعه إياهم بعض البلاد. وكذلك قام الدروز بدور ملحوظ في أثناء فتح الأتراك العثمانيين بلاد الشام ومصر (١٥١٦ - ١٥١٧ م) في عهد السلطان سليم الأول. فكان لمساعدة فخر الدين المعني الأول أحد رؤساء الدروز أثر بعيد فيما أحرزه العثمانيون من نصر. ولا غرو فقد أظهر الدروز كثيراً من ضروب الشجاعة والبسالة في تلك الحروب، مما جعل السلطان العثماني يعترف بهذه المساعدة ويمنحهم الجوائز[١].

وقد وقع في أيدي الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا كثير من مخطوطات الدروز التي عثر عليها في خلواتهم، وذلك عند قيام الثورة السورية في وجه حكم محمد علي سنة ١٨٣٨.

كما نرى الدروز يحملون السلاح في وجه المارونيين جيرانهم المسيحيين في الشمال، مما أدى إلى تدخل فرنسا وإرسالها حملة حربية لوضع حد لذلك النزاع، وانتهى هذا التدخل الفرنسي بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى. كذلك لا ننسى ثورة الدروز بزعامة آل الأطرش ضد الانتداب الفرنسي الذي انتهى باستقلال كل من سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦[٢].

٣ - النصيرية:

كانت طائفة النصيرية[٣] تقيم في شمالي الشام قبل طائفة الدروز في لبنان، وهم من الشيعة الغالية، وموطنهم جبل النصيرية (أو الأنصارية)، وهو جزء من جبل لبنان. وتمتد بلادهم شرقاً إلى سهل حماه وحمص وحلب، وشمالاً إلى ما وراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول.

وبينما نرى اسم «علوي» قد أطلق حديثاً على أتباع هذه الطائفة، فإن اسمهم الأصلي (النصيرية) يذكرنا باسم مؤسس هذه الطائفة، وقد يذكرنا باسم الشخص الذي كان يدعو إلى

= وبين الساحل، وشقيف دركوش وهي قلعة بنواحي حلب جنوبي حارم، وشقيف دبين وهي قلعة قرب أنطاكية. انظر لفظ شقيف في معجم البلدان لياقوت.

(١) كريم خليل: الدروز والثورة السورية ص ٢٥.

(٢) Hitti, Op. cit., pp. 48.

انظر طه أحمد شرف: الإسماعيلية وتاريخهم السياسي ج ١ ص ٣٣١ وما يليها.

(٣) ذكر أبو الحسن الأشعري (مقالات الإسلاميين، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد، جزءان، القاهرة ١٣٦٩/ ١٩٥٠، ص ٩٦ - ١٠٢)، فرق الشيعة الغالية، كالخطابية، والتميرية أصحاب محمد بن نصير التميري، والسبئية والكيسانية، والراوندية، والرزامية، والأبو مسلمية والقرامطة، والمباركية وغيرها.

عقائدهم، وهو الفقيه الشيعي محمد بن نصير المتوفى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م). وكان من أتباع الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند طائفة الإمامية الاثني عشرية[١]. ويقدم لنا أتباع ابن نصير ـ كما يقول ريني دوسو[٢] ـ مثلاً واضحاً للجماعة التي انتقلت مباشرة من الوثنية إلى طائفة الإمامية الاثني عشرية. وهذا يفسر لنا نقط الخلاف الشديد بينهم وبين الإسماعيلية. وثمة تفسير آخر لا يزال مألوفاً عند السنيين الذين يجاورونهم، ولكنه يدخل بلا ريب في نطاق الاشتقاق المتداول لهذا الاسم فيجعله ذا صلة بلفظ نصراني أو نصارى، مما يقرب إلى الذهن أن النصيرية لا يزالون يحتفظون ببعض تقاليد (طقوس) دينية خاصة، فيحتفلون ببعض الأعياد المسيحية، كعيد الميلاد وعيد الفصح (القيامة) ويعتبرونهما من الأعياد الكبرى. كما أن بعضهم يحمل أسماء مسيحية الأصل مثل متى ويوحنا (چون) وهيلانة.

وبالإضافة إلى المبادىء التي اقتبسها النصيرية من المسيحية فإن ديانتهم تحتفظ بقسط وافر من الأسرار الشبيهة بأسرار الدروز، وما تزال تحتفظ بمعالم واضحة تنبىء عن معتقداتهم وعقيدتهم التي هي مزيج من عناصر غير متجانسة تماماً، تقوم على أساس نظام ديني يتصل بعبادة النجوم والكواكب. وقد اقتبست هذه التعاليم في القرون الأولى للعصر المسيحي بعض المبادىء الروحية عند المسيحيين. ومع ذلك فإن هذه المبادىء قد اتخذت بعد ذلك مظهراً معيناً في الأطوار التي مر بها الإسلام، فقد اتخذ على يدي دعاة الإسماعيلية فيما بعد بعض أشكال غامضة مبنية على الإلحاد.

ويظهر أن حسين بن أحمد الخشبي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هو الذي وضع عقائد مذهب النصيرية الذي يفد أتباعه لزيارة ضريح حسين القريب من حلب: ويولون هذا الضريح ما يليق به من الاحترام والإكبار. ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقق (بفتح الباء والقاف الأولى وسكون الراء).

ويقوم نظام النصيرية على التجسد[٣]، ويدور حول هذه الأسماء الثلاثة التي تكون التثليث الشبيه بتثليث النصارى، ويتمتع هؤلاء بالوحدانية والخلود. وهذه الأسماء الثلاثة

---

(١) ذكر النوبختي (كتاب فرق الشيعة ص ٧٨) أن محمد بن نصير النميري أله الحسن العسكري وادعى أنه نبي قد بعثه الحسن العسكري. وكان ابن نصير يقول بالتناسخ والحلول وتأليه الأئمة.

(٢) Dussaud, p. 51.

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٥. البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. الشهرستاني: الملل والنحل ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

التي يرمزون إليها في قائمة مذهبهم هي التي تكون تثليثاً شبيهاً بالتثليث الكائن في النصرانية. ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بحروف ع م س ويقولون إن الله حل في ثلاثة هم: علي بن أبي طالب ويرمزون إليه بالمعنى، ومحمد ﷺ ويرمزون إليه بالاسم، وسلمان فارسي ويرمزون إليه بالباب[١].

وتعتبر النصيرية علياً الإله[٢]. ولذلك أطلق عليهم اسم «العلوية» (أي الذين يعبدون علياً) منذ الانتداب الفرنسي في ديارهم بعد الحرب العالمية الأولى. وعلي وهو الكائن الاسمى والنور المشع الذي ينبعث عن فيضه محمد ﷺ وسلمان الفارسي. وتتكون جماعة النصيرية من قبائل يقوم بينها تحالف، كالكلبية والخياطين والحدادين وبعض قبائل العرب اليمانيين الذين ارتحلوا شمالاً في العصر الجاهلي ثم اختلطوا مع الشماليين كالآراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التي اختلطت قليلاً أو كثيراً باللغة الآرامية التي لا تزال آثارها بادية في بعض اللهجات العربية وفي أسماء الأشخاص والقرى والأنهار والجبال. وتاريخ النصيرية عبارة عن سجل للحروب التي نشبت بينهم وبين جيرانهم للاضطهادات التي تعرضوا لها باعتبارهم ملحدين أو وثنيين، الأمر الذي أثار شعور جمهور المسلمين (ومنهم الشيعيون المعتدلون) ضد هؤلاء النصيرية الذين ظهروا في نظر المسلمين زنادقة مغالين[٣].

---

(١) انظر اعترافات أحد المرتدين عن المذهب النصيري التي نشرت تحت عنوان «الباكورة السليمانية» وقد ترجمها أ. سالسبوري إلى الإنجليزية في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية (سنة ١٨٦٦ مجلد ٨ ص ٢٢٧ ـ ٣٠٨)، والمجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٩ ص ١٩٢ وما يليها.

Browne, Lit, Hist, of Persia, vol I, p. 203, n. 2.

(٢) وقد قالت الشيعة بإمامة علي، ومنهم المقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر. وقال بعضهم إن علياً إمام تجب طاعته بعد الرسول الذي استودعه هو وأولاده من العلم ما يحتاج إليه الناس من دين وجميع العلوم؛ ولذلك استحق الإمامة بعد النبي لعصمته وقرابته وسابقته وعلمه وسخائه وزهده وعدالته في رعيته، واستشهدوا على ذلك بقول الرسول: «علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (النوبختي: كتاب فرق الشيعة ص ١٥ ـ ١٦). أما سلمان الفارسي فقد كان أكبر الصحابة الذين يجلهم الرسول، حتى إن طائفة من النصيرية أدخلته في نظامهم القائم على التثليث. وقد علت منزلة سلمان عند الرسول وحسنت صحبته حتى عدّه من آل البيت فقال: «سلمان منا أهل البيت». كما أثر عن الرسول أنه قال: «سلمان ابن الإسلام». وكان أول من أسلم من الفرس، فعدّه الرسول أول ثمار الفرس. وهو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق حول المدينة وأدى ذلك إلى ازدياد قوة الإسلام وسرعة انتشاره وإلى ضعف روح المقاومة عند أعداء الإسلام. الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٩ ـ ٨٠. انظر كتابي زعماء الإسلام ص ٩٣ ـ ١٠٠.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

ويقيم الآن نحو ثلاثمائة ألف من أتباع هذا المذهب، معظمهم من الفلاحين في شمالي ووسط بلاد الشام. وهم يعيشون في قراهم الجبلية حتى كيليكيا التركية. وقد احتفظوا بمعظم أساليب معيشتهم وتقاليدهم التي نشئوا عليها منذ العصور الوسطى. وهم يمتنعون عن أكل لحم الجمل والأرنب وثعبان الماء والسمك الذي لا قشر له[١].

ويعتبر النصيرية والقرامطة والدروز والنزارية وغيرهم من فرق الإسماعيلية حتى في نظر الشيعة **الاثني** عشرية الذين يؤلفون السواد الأعظم من الشيعة، **من الغلاة**؛ لأنهم يمارون في ألوهية الله ولا يؤمنون بأن النبوة قد انتهت بمحمد. ومن هؤلاء الغلاة فرقة ذهبت إلى أن جبريل أخطأ فدفع الرسالة إلى محمد بدلاً من علي. وفرقة أخرى تسمى التختجية (بفتح التائين والياء مع التشديد وسكون الخاء وكسر الجيم) (قطاع الخشب) في غربي الأناضول، **والعلي** إلهية (المؤلهة علياً) في فارس **وتركستان** (ومنهم جماعة في شمال العراق). ويمت إليهم القزل (بضم القاف **والزاي**) **والباشية** (بكسر الشين وفتح الياء مع التشديد) (الرؤوس الحمر) في شرقي الأناضول، والبكتاشية في تركيا وألبانيا[٢].

٤ ـ الدعوة النزارية في فارس والشام:

شرع الخليفة المستنصر الفاطمي قبل وفاته سنة ٤٨٧ هـ في أخذ البيعة لابنه الأكبر نزار. غير أن الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي أخذ يماطله حتى توفي الخليفة قبل أن تتم البيعة لنزار، وبادر إلى تولية ابنه الأصغر أبي القاسم أحمد ولقبه **المستعلي** بالله. وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين أنصار الفاطميين في مصر.

وقد ظهر أمر الباطنية أو الإسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي. فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد جهاراً في مدينة ساوة، ولكنهم حبسوا ثم أطلق سراحهم. ويذكر ابن الأثير أن هؤلاء الباطنية دعوا مؤذناً من أهل أصبهان إلى اعتناق مذهبهم فلم يجبهم إلى دعوتهم، فخافوا أن ينقم عليهم **فقتلوه**، فكان ذلك أول دم أراقته الباطنية. ولما نمى خبر هذا الحادث إلى نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، أمر بالبحث عن المتهم، وانحصرت التهمة في نجار يسمى «طاهر»، فقتل ومثل به في الأسواق، فكان أول قتيل من أنصار هذه الطائفة. وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا: قتل نجاراً فقتلناه به[٣]، ولم يلبث أن استولى الباطنية على موضع عند قاين كان صاحبه يدين بعقائد هذا

---

(١) Samné, La Syrie, pp. 337 - 342.

(٢) History of the Arabs Hitti, Op. cit., pp. 448-449.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١١٦.

المذهب. وقد حدث أن اجتازت قافلة من كرمان في طريقها إلى قاين، فخرج الباطنية عليهم وقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا رجل استأنف سيره إلى قاين وأخبر أهلها بهذا الحادث، فخرجوا إلى جهادهم، ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمتهم.

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه، تفاقم خطر الباطنية وقويت أطماعهم والتأمت جموعهم في أصبهان حيث نشروا دعوتهم وأخذوا يلحقون الأذى بمخالفيهم، وأمضوا في سرقة أموالهم وتقتيلهم وأدخلوا الفزع في قلوب الأهلين، حتى كان الأمراء يضعون الدروع تحت ثيابهم(١). وكان الباطنية إذا مر بهم شخص أخذوه إلى إحدى دورهم وقتلوه وألقوا بجثته في بئر قد حفر لهذا الغرض. وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع، نذكر من بينها قلعة أصبهان التي بناها السلطان ملكشاه السلجوقي ثم اتصل أحمد بن عبد الملك بن عطاش الطبيب(٢) بمتولي هذه القلعة. وقد نال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق وإلقاء الرعب والفزع في القلوب، حتى كانوا يقولون: «إن قلعة يدل عليها كلب ويشير بها كافر لا بد وأن يكون خاتمة أمرها الشر، ومنها الموت». وقلعة ألموت بنواحي **قزوين**، قيل إن ملكاً من ملوك **الديلم** كان يكثر من الصيد، فأرسل يوماً عُقاباً وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة، فوجده موضعاً حصيناً، فأمر ببناء قلعة عليه فسماها ألموت (بفتح الألف مع الهمزة وفتح اللام)، ومعناها في لغة الديلم: تعليم العقاب(٣).

وكان من تلاميذ ابن عطاش، الحسن بن علي (بن محمد بن جعفر بن **الحسين**) بن الصباح الحميري(٤). وكان الحسن، كما وصفه ابن الأثير(٥): «رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك». وكان الحسن كأبيه يدين بعقائد الإمامية **الاثني** عشرية، ثم وقع تحت تأثير أحد دعاة الفاطميين. وقد اتهم عامل الري (وكان زوجاً لابنة الوزير نظام الملك) الحسن الصباح بتلقي تعاليم الدعاة المصريين، أو بعبارة أخرى دعاة الفاطميين الذين جاءوا من مصر. وقد هرب الحسن الصباح ولم يدركه عامل المدينة

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤.

(٢) وكان داعياً إسماعيلياً نابهاً في فارس.

(٣) ابن الأثير: ج ١٠ ص ١١٧.

(٤) قيل إن الحسن لم يسمح لأنصاره بأن يذكروا هذا النسب قائلاً إنه يؤثر أن يكون عبد الإمام المختار من أن يكون له ابناً لا ينظر إليه الناس بعين الاعتبار.

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol II, p. 202

(٥) ج ١٠ ص ١١٨.

وتنقل في البلاد وانتهى بـه المطاف إلى مصر، فأكـرمه داعي الـدعاة وغيـره من كبار رجـال الدولة، وأكرمه الخليفـة المستنصر وأمـده بالمـال. ولما مثـل بين يدي الخليفـة أمره أن يقيم الدعوة باسمه في بلاده، فقال له الحسن: فمن الإمام بعدك؟ فأشـار إلى ابنه الأكبـر نزار. ثم غادر الحسن الصباح مصر ومر بالشام والجزيرة وديار بكر وعاد إلى خراسـان، ودخل كـاشغر وبلاد ما وراء النهر، واطمأن إلى أهالي ألموت، وأظهـر الزهـد ولبس المسوح ودعـاهم إلى الدخول في دعوته، فتبعه أكثرهم، واستمال صاحب القلعة (وكان علوياً) الذي أحسن الـظن به وقربه إليه وتبرك به.

ولما أحكم الحسن الصباح الأمر واطمأن إلى قوته، دخـل يوماً على صاحب القلعـة، وأمر أصحابه فأخرجوه منها إلى دامغان، وأعطاه ماله وملك القلعة. ولما بلغ هذا النبأ الوزيـر نظام الملك بعث بعسكر كثيف حاصروا الحسن حتى ضاق ذرعاً، فأرسل شخصاً قتل الوزير السلجوقي، ثم جهز محمد بن ملكشاه جيشاً آخر حـاصر القلعـة تمهيداً لاستـردادها، ولكن على غير جدوى[1]. وبعد استيلاء الباطنية على قلعة ألموت، وقعت في أيـديهم قلاع أخـرى حصينة[2].

ويدل استيلاء الباطنية على هذه القلاع على قـوة أتباع الحسن الصبـاح الذي انفصلت دعوتهم بعد وفاة المستنصر عن الدعوة الفاطمية، لأنهم تبنـوا دعوة نـزار دون أخيه المستعلي الذي خلف أباه في القاهرة. ومن ثم انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فريقين: فريق نادى بإمامة المستعلي، فسموا المستعلية أو الإسماعيلية في مصر، وفريق نادى بـإمامـة نزار الابن الأكبر للمستنصر، فسموا النزاريـة أو الحشاشين (أو الحشيشـة)، وهو الاسم الـذي اشتهروا به، كما يعرفون أيضاً بالباطنية. وقد قام هؤلاء بـدور هام في محـاربة المستعليـة والسلاجقـة

(١) ابن الأثير: ج ١ ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) ذكر ابن الأثير: (ج ١٠ ص ١١٨ - ١١٩) أسماء هذه القلاع وهي: شاه دز (بكسـر الدال وزاي مشـددة) وخالنجان (بفتـح اللام وسكـون النون) قـرب أصبهان. وطبس (بفتـح الطاء والبـاء) وتون، وقـاين (بكسر الياء) وزوزن (بفتح الزاي الأولى والثانية وسكون الـواو) وخور، وخـوسف (بضم الخاء وفتـح السين) في قوهستان، ووشمكوه (بفتح الواووسكون الشين وضم الكاف) بقرب الأنبـار، وأستوناوند (بضم الألف مـع الهمزة والتاء وفتح الواو وسكون النون) في مازندران (بفتـح الزاي وسكـون النون وفتـح الدال) وأردهـات (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح الدال) وجردكـوه (بكسر الجيم وسكـون الراء والـدال)، وقلعة الناظر في خوزستان، وقلعة التنبور على مقربة من أرجان (بفتح الراء مع التشديد)، وقلعـة خلادخـان في فارس (بسكون الدال).

انظر Browne, Lit. Hist. of Persia, vol II, p. 204

والصليبيين الذين انتشروا أيضاً في بلاد الشام. وكان اعتناق الحسن الصباح العقيدة النزارية مؤذنا بتطور جديد في تاريخ هذه الدعوة، فقد ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام المستور والدعوة إليه، بعد أن كانت الدعوة الإمامية تعتمد منذ سنة ٢٩٦ هـ على الإمامة الظاهرة (exoteric) لا على المستورة (esoteric). كما استطاع الحسن الصباح أن يستغل الدعوة النزارية خير استغلال، فأصاب نجاحاً بعيد المدى، وأفلح في تكوين نظام جديد، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة في وسط دولة العباسيين السنيين.

وقد تركزت جهود الحسن الصباح بعد موت المستنصر في نشر الدعوة لنزار، واحتفظ بأنصاره القدامى من الإسماعيلية في فارس وخراسان، فالتفوا حوله؛ **كما عمل** على ضم عناصر جديدة إلى دعوته. ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن الصباح إلى نزار، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر في أماكن حصينة، يجتمع فيها كل دعاة النزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم. فأصبح للحسن مئات من القلاع والحصون القوية في أقاليم رودبار وقوهستان والطالقان وغيرها. كما وجه الحسن الصباح دعاته نحو بلاد الشام لنشر الدعوة النزارية ومحاربة السلاجقة والمستعلية والصليبيين، ومن ثم أصبح في كل إقليم أتباع وفي كل مدينة أنصار.

وقد امتازت دعوة الحسن الصباح في ذلك الحين بأنه استغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم، فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه، وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح مصدر العرفان. وكان هذا المبدأ من العوامل التي شجعت الحسن الصباح على حمل السيف في وجه الدولة العباسية السنية. كما لجأ إلى التأويل، فأول القرآن للنزارية تأويلاً يتفق ونزعاته السياسية، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم، وقدسه المستجيبون. كمااستغل عقيدة الإمام ونائبه وحجته كشرط أساسي للدين الحق. ولذلك سمي أشياع هذه الدعوة الباطنية وسميت دعوتهم الدعوة الجديدة.

وقد راع الدولة العباسية خطر دعوة الحسن الصباح، فحملت كثيراً من العلماء على الرد عليه. فألف أبو حامد الغزالي كتابه «المستظهري» أو فضائح الباطنية، ليرد به على النزارية بصدد نظريتهم في الإمام المعصوم.

وقد عمل الحسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيماً دقيقاً يضمن لها البقاء. ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات، وجعل المحبة والأخوة والمرحمة، الرباط الذي يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها، وجعل للأعضاء شروطاً، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم. ولم يشأ أن يجند أتباعه جميعاً ليشهروا السلاح في وجه أعدائه، بل

جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها، يهددون الأعداء بخناجرهم المسمومة، فسموا الفداوية، لأنهم يبذلون نفوسهم رخيصة في سبيل إمامهم ونائبه. أما أهم مراتب الدعوة النزارية فهي :

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل(١) وعدد أفرادها سبعة، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة. فكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة، ولا سيما بعد أن احتل قلعة ألموت في سنة ٤٨٣ هـ . كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل. وكان هو وحده الذي يعين الدعاة ويعزلهم، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعي الدعاة. وكان سلطانه لا يحد: يصدر أوامره من ألموت فيطيعها النزارية في كل مكان. وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين في الإخلاص للمذهب الإسماعيلي. ولم يجعل لمبدأ الوراثة أي اعتبار. كما تظاهر جماعته بالتقشف والورع والمحافظة على الشريعة، حتى إنه قتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر.

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعاة ولا يجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة، لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة: جعل على رأس كل قطر أو «بحر» واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة، وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب. على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر. ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيابزرك أُميد والحسين القَيْني، وأبو طاهر.

المرتبة الثالثة وهي مرتبة الدعاة وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة في ألموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة. وكانوا يتلقون العلم في مدارس القاهرة أول الأمر، ثم ينتقلون إلى ألموت ليتعلموا أسرار الدعوة. وقد اشترط الحسن الصباح في الداعي أن يكون بارعاً في التشكيك، ماهراً في التلبيس، ليخدعوا العامة ويدخلوهم في عقيدتهم. وقد كون هؤلاء الدرجات العليا، وكانوا على علم بعقائد وأغراض وسياسة هذا النظام.

المرتبة الرابعة أو مرتبة الرفاق، وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام، يتولون تثقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم، ويتفانون في المحافظة على المذهب، متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة. ويلي هؤلاء اللصقاء أو الأتباع الذين أقسموا يمين الطاعة والولاء دون أن يفهموا كثيراً مما ينطوي عليه هذا المذهب.

---

(١) وقد أطلق الصليبيون هذه التسمية، أي شيخ الجبل، فسموه الشيخ أو شيخ الجبل.

المرتبة الخامسة : الفداوية أو الفدائيون، الذين كانوا يستخدمون في قتل الأعداء غدرا، ويضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم. ولا يشترط في الفداوي أن يتعمق في دراسة أسرار المذهب، إنما يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود. فأصبحوا آلات انتقام فتاكة، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفزع. وكانوا يتصفون بالشجاعة النادرة وحب المخاطر والعزيمة التي لا تقهر، والصبر الذي لا ينفد؛ ويظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهورا بل سنين للفتك بعدوه. ويشترط في الفداوي أيضاً أن يكون من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات.

المرتبة السادسة : اللاصقون، وهم ينتسبون إلى الدعوة، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية، إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة، ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعمقوا في فهم أصول المذهب.

المرتبة السابعة : المستجيبون، وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون، لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي، إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس، وبث الذعر في نفوسهم.

وكانت الدعوة النزارية تتسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس. فكان الدعاة يتوسلون بالوسائل الآتية :

١ ـ التفرس، ويقصد به إدراك مكنونات النفس؛ ويطلق على ذلك الاستبطان (من الباطنية) ليتبينوا قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده.

٢ ـ التأنيس، وهو من الأنس، وهو بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعوين وإشباع ميولهم وإعطائهم كل ما يميلون إليه، كل حسب ميوله.

٣ ـ التشكيك وهو زعزعة عقيدة المدعوين، ويعتبر خطوة جريئة من أخطر الخطوات، يستطيع بها الداعي أن يصل إلى قلب المريد فيزعزع عقيدته ويزلزل إيمانه.

٤ ـ التعليق، وهو ترك المريد بعد تشككه متأرجحاً في عقيدته مشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي، حتى تستبين نفسيته وتعرف شخصيته.

٥ ـ التدليس، وهو أن يلجأ الداعي إلى التمويه، ويدعي ادعاءات كاذبة تزيد في إغراء المريد وتشويقه وإلهاب رغبته في الدخول في الدعوة.

٦ ـ التأسيس، وهو تثبيت المعلومات والحقائق التي أدلى بها الداعي والمستجيب حتى تستقر في ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها.

٧ ـ الخلع، ويقصد به إقصاء المريدين عن المذاهب السنية نهائياً بإسقاط الفرائض الشرعية في الإسلام، وذلك بالاستعانة بالتأويل غير المشروع.

توفي الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن استقامت له الأمور، وأقام دولة فريدة في نوعها، تتكون من قلاع متناثرة في أقاليم مختلفة، تقوم على نشر مذهب النزارية وتحارب أهل السنة وتناهض المستعلية بوجه خاص.

وهنا ينبغي أن نشير إلى العبارة التي وصف بها «ماركو بولو» هؤلاء الفدائيين في القرن الثالث عشر الميلادي، في وقت كانت قوة الحشاشين في فارس قد قضى عليها مغول هولاكو خان، فاندثرت أو كادت (لأن الحشاشين في سورية استمروا حتى هذا الوقت) ويقول ماركو بولو إن الشيخ كان يسمى في لغتهم «علاء الدين»[1]. وقد اتخذ له وادياً بين جبلين وجعله مقفلاً، وحوله إلى حديقة غناء، لها من جمال التنسيق والروعة والبهاء وفسحة الأرجاء ما لم تشهده عين من قبل، فيها من كل الثمرات، وبها قصور شاهقات تكسوها نقوش زاهيات، تجري من تحتها أنهار جاريات من خمر ولبن وعسل مصفى وماء فرات. وجاء فيها بغانيات فاتنات، اختارهن من أجمل ما في العالم من بنات، عازفات على مختلف أنواع الآلات، مطربات بأعذب الأصوات راقصات ساحرات بطريقة تخلب الألباب وتذهل العقول، لأن الشيخ أراد أن يجعل أنصاره يؤمنون حقاً بأن هذه هي جنة الفردوس؛ من أجل ذلك أنشأها وحاكها على ما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم جنته، إذ الفردوس يجب أن يكون حديقة فيحاء تجري من تحتها أنهار من الخمر واللبن والعسل، والماء، ملأى بحور النساء، حتى لقد آمن أهل هذه الجهات بأنها الجنة التي لا يدخلها إلا من كان من أتباعه الحشاشين (أو الفدائيين). وقام على مدخلها الوحيد الذي لا طريق للوصول اليه غير حصن منيع كفيل بأن يرد كل قوات العالم. وجعل الشيخ في حاشيته جماعة من شباب البلاد تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين كما لو كانوا يختارون للتجنيد. وإلى هؤلاء الشبان يقص الشيخ القصص عن الجنة كما اعتاد النبي محمد من قبل وقد آمن هؤلاء الشبان بهذا الشيخ كما يؤمن المسلمون بنبوة محمد. وكان الشيخ يدخلهم في جنته زمرة زمرة تتألف من أربعة أو ستة أو عشرة في كل مرة، فيسقيهم من منقوع الحشيش[2]، فينامون نوماً عميقاً، ثم

(١) وهو بلا ريب يقصد داعي الدعاة أو الرئيس الأكبر، وهو علاء الدين محمد بن الحسين الذي خلف أباه جلال الدين سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م).

(٢) ومن ثم أطلق على الشيخ «صاحب الحشيش». ويستبعد براون (تاريخ الفرس الأدبي جـ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) أن شيخ الجبل قد شجع استعمال الحشيش (أو الأفيون أو أي مخدر آخر) لأنه يسبب الكسل والإهمال =

يحملون إلى داخل الجنة، حتى إذا ما استيقظوا من سباتهم ووجدوا أنفسهم في هذه الحديقة وفي هذا المنظر الساحر، آمنوا بأنها الجنة. وهناك تداعبهم الفتيات الحسان وتغازلهم كواكب البنات حتى يرضوا رغائب شبابهم كما يعمل كل شاب على شاكلتهم. ولو انهم حلوا ما برحوا هذا المكان.

ولقد حرص هذا الأمير أو الشيخ كما نسميه على أن يجعل بلاطه بحيث تتجلى فيه مظاهر العظمة والجلال، كما جعل بسطاء الشعب الملتفين حوله يؤمنون بأنه نبي عظيم، حتى إذا أراد أن يبعث أحد مريديه من الحشاشين، سقا أحد شبابه من مخدره، ثم حمل إلى الحديقة حتى اذا ما أفاق من غشيته وجد نفسه في القصر ثم في الجنة ولما يكن قد استكمل نشوته، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حضرة الشيخ، فيخر أمامه راكعاً في كثيرمن التجلة، معتقداً أنه في حضرة نبي مرسل، عند ذلك يسأله الشيخ من أين أتى، فيجيبه أنه أتى من الفردوس، وأنها الجنة التي وصفها محمد في القرآن. وكان طبيعياً أن يغري هذا الكلام أولئك الذين لم يدخلوا الجنة، فتتولد لديهم رغبة ملحة في دخولها. وهكذا إذا أراد الشيخ قتل أحد الأمراء، قال لمثل هذا الشاب، اذهب فاقتل فلاناً، وإذا ما عدت حملتك ملائكتي إلى الجنة، وإن أنت مت فلا أقل من أن أرسل إليك ملائكتي لتعود بك إلى هذه الجنة. وبذلك أوجد الشيخ في نفوس مريديه رغبة جامحة في دخول جنته إذا ما حققوا له رغبته. وعلى هذا النحو ساق الشيخ رجاله إلى إعدام وقتل كل من أراد التخلص منه، وكان من أثر هذا الرعب الذي ألقاه في القلوب أن أصبح كل الأمراء من أتباعه، ليكسبوا محبته وتقوم علاقتهم به على أساس المحبة والسلام وليتقوا شر الاغتيال.

وهذه الطاعة العمياء التي يتصف بها الفدائيون جعلت اختيارهم مقيداً بصفات خاصة تنحصر في الشجاعة والطاعة وعدم معرفة دقائق وأسرار هذا النظام بدرجاته الفلسفية العليا. ويظهر هذا في جلاء ووضوح فيما ذكره المؤرخون عن زيارة الكونت هنري دي شامباني Henry de Champegne ملك أورشليم لشيخ سوريا وإذ هما يسيران يوماً رأيا بعض الصبيان في جلاليب بيضاء جالسين فوق ذروة برج عال، فالتفت الشيخ إلى ضيفه الكونت يسأله عما إذا كان قد رأى رعية أطوع لسيدها من رعاياه. ودون أن ينتظر الكونت منه جواباً. أومأ الشيخ بيده إلى صبيين، فقفزا مسرعين من فوق البرج ليلقيا حتفهما في البقعة التي سقطا فيها.

= والضعف الذهني الذي لا يتناسب مع الواجبات الشاقة الدقيقة التي كان يعهد بها إلى المريدين؛ ولعل استعمال هذا المخدر اقتصر على إحدى الدرجات التي انقسم إليها نظام الإسماعيلية في فارس.

ومع أن الفدائيين لم يتعلموا أسرار مذهبهم وخفاياه كانوا مدربين بعناية فائقة على حمل السلاح واستعماله. وقد تعودوا على تحمل المشاق وأساليب التنكر، بل إنهم كانوا ملمين أحياناً ببعض اللغات الأجنبية، حتى اللغات الأوروبية، لأن هؤلاء الذين انتدبوا لاغتيال المركيز كنراد أمير مونت فيرات، كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية بدرجة كافية، وكانوا يحملون جوازات مرور باعتبارهم رهباناً مسيحيين خلال ستة أشهر يقضونها في معسكر الصليبيين، منتهزين الفرصة لتحقيق أغراضهم. ويندر طبعاً أن يعيش هؤلاء الفدائيون بعد فرائسهم. وكانوا يقتلون الأمير المسلم في يوم الجمعة وفي المسجد أو بيت الله، ويقتلون الأمير المسيحي أو الدوق في يوم الأحد وفي أقدس الأماكن لديه وهي الكنيسة على مشهد من جماعة المصلين. وفي عقيدة أتباع الحسن الصباح أن الموت في سبيل تحقيق أغراض «الشيخ» على هذه الصورة المروعة أشرف ميتة، وفيها توكيد لضمان السعادة، حتى إن أمهات الفدائيين كن يبكين إذا عاد إليهم أبناؤهم أحياء يرزقون.

وكان تهديد الفدائيين لغيرهم في بعض الأحيان كافياً لقضاء مآربهم والوصول إلى غاياتهم، فإذا ما سار زعيم إلى معقل من معاقلهم لمهاجمته، فقد يستيقظ من نومه فيجد بجواره خنجراً قد أغمد في الأرض، وقد ألصقت به ورقة قد تكون كافية لترده على أعقابه وتثنيه عن عزمه، كما حدث ـ على ما قيل ـ لملكشاه السلجوقي، ولصلاح الدين الأيوبي، ولو أن هذا القول بحاجة إلى ما يؤيده.

ولما اندثرت معاقل الفدائيين نهائياً ووقع شيخهم الثامن والأخير «ركن الدين خُرْشاه» أسيراً في أيدي المغول وأعدموه في الوقت الذي زالت فيه الخلافة العباسية في بغداد، كان نشاط الحشاشين لا يزال على قوته.

وقد ذكر ابن الأثير[1] أن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه استولى على قلعة ألموت سنة ٥٢٤ هـ.

أما عن فرقة الحشاشين في سورية فقد جعلت لهذا النظام شهرة في أوروبا وأضاف إلى لغاتها كلمة جديدة. ويبدأ تاريخ هذه الفترة السياسية بالاستيلاء على قلعة بانياس حول سنة ٥٢٠ هـ (١١٣٦ م)[2].

---

(١) راجع S. Guyard, Un grand Maitre des Assassins (J. A. 1877) أي «أحد عظماء شيوخ الحشاشين» (المجلة الآسيوية الفرنسية ١٨٧٧).

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٢٥٤.

وهـذه القصة الحقيقيـة عن الشيخ «رشـد الدين سنـان» المشهور الـذي جعـل الفـرع السـوري من هذا النـظام يستقل عن النـظام الفارسي قـد أمـدتنـا بمعلومـات تعـد من أقـوى القصص تأثيراً في النفوس وبتفاصيل وافية تتصل بتاريخ هذا المـذهب وما قـام به دعـاته من أعمال وما أدخلوه على أنظمتهم من أساليب.

وحتى هذا اليوم لا يزال أعقاب هذه الفرقة القوية برغم تشتتها منتشرة في الشـرق: في سوريا وفارس وخراسان وفي شرقي أفريقيا وفي أواسط آسيـا والهند، حيث نجـد «أغا خـان» الـذي يرجـع نسبه إلى ركن الدين خورشاه آخـر شيـوخ ألموت الذي ينتمي إلى نزار بن المستنصـر الفاطمي من سـلالة إسماعيل الإمـام السابـع من طـائفـة الإمـاميـة السبعيـة أو الإسماعيلية والذي يـرجـع نسبـه إلى علي وفـاطمـة.

من كل ما تقدم نرى أن طائفة النزارية انتشرت في بلاد فـارس وخراسـان والشام. ولم يقتصر نشاطهم على هذه البلاد، بل امتد نفوذهم الروحي منـذ أيام الحسن الصبـاح إلى بلاد الهند نفسها، فقد كونوا لأنفسهم دولة ذات طابع خاص، وقاموا بدور كبيـر في حياة سـلاطين السـلاجقة وفي حيـاة الخلفاء الفـاطميين والعباسيين. كمـا كان لهم أثـر بعيـد في الحـروب الصليبية، ووقفوا في وجه المغول في فارس. ولما انتهى أمرهم بقتل زعيمهم وإمـامهم ركن الدين خورشاه سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) لم تستسلم جميع قلاع «الدعوة النـزارية»، بـل بقي منها قلاع حمل دعاتهـا السلاح في وجـه المغول، واشتـركوا مـع المماليـك في موقعـة عين جالوت وغيرها من المواقع.

وقد مر تاريخ النزارية في العصر الذي أفردناه لهذا الجزء في كتـابنا (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ) بدورين، يعرف أولهما بدور الستر الأول كما يعرف بدور الدعاة؛ ويعرف الدور الثـاني بدور الظهور الأول أو دور الأئمة.

أما دور الستر الأول أو دور الدعاة (٤٨٨ ـ ٥٥٧ هـ)، فيبدأ بمقتل نزار بن المستنصر، ويمتاز بأن رئاسة الدعوة كانت في أيدي جماعة من كبار دعاة النزارية، هم الحسن الصباح (ت ٥١٨هـ) وخليفتاه ألكيابزر[1] (بسكون اللام وكسر الكاف وضم الباء وفتـح الزاي) جميـد (بضم الجيم وفتـح الميم وسكـون اليـاء) (٥١٨ ـ ٥٣٢ هـ)، وابنـه محمـد الأول (٥٣٢ ـ ٥٥٧ هـ). وفي هـذا الدور كـان هؤلاء الدعـاة يدعـون للأئمـة المستورين من أبنـاء نـزار، معارضين في ذلك الخلافة والإمامة الفاطمية.

---

(١) الكيا = الرئيس، وبزر حميد = من يهب الأمل والرخاء.

وأما الدور الثاني أو دور الظهور الأول أو دور الأئمة فيبدأ بإعلان الحسن الثاني رئيس الدعوة النزارية (٥٥٧ ـ ٥٦١ هـ) الإمامة، وادعائه بأنه من سلالة نزار بن المستنصر، فسمى نفسه القاهر بن الهادي بن نزار، ومن ذلك الحين أصبح رؤساء الدعوة النزارية يعرفون بالأئمة بعد أن كانوا يلقبون بالرؤساء أو الدعاة، وقد جاء بعد القاهر أربعة من الأئمة هم: محمد الثاني (٥٦١ ـ ٦٠٧ هـ)، وجلال الدين حسن (٦٠٧ ـ ٦١٧ هـ)، وعلاء الدين محمد (٦١٧ ـ ٦٥٣ هـ)، وركن الدين خورشاه (٦٥٣ ـ ٦٥٥ هـ).

وفي هذا الدور نرى هؤلاء الأئمة يعملون على أن يرثوا الفاطميين في الأمور السياسية والدينية، وأن يقفوا في وجه العباسيين باعتبارهم الوارثين الحقيقيين لعلي وفاطمة وأبنائهما من بعدهما، واستطاعوا بذلك أن يقوموا بالدور الذي تقدمت الإشارة إليه.

على أن تاريخ النزارية لم ينته بمقتل ركن الدين خورشاه وانقضاء دور الستر الأول أو دور الأئمة سنة ٦٥٥ هـ . فقد دخل هؤلاء النزارية أنفسهم في دور جديد يعرف بدور الستر الثاني، ويبدأ من سنة ١٢٥٧ م وينتهي في سنة ١٨١٧ م وذلك بظهور الإمام النزاري الجديد محمد حسين (١٨١٧ ـ ١٨٨١) الذي تلقب بلقب أغا خان، وقد انتشرت النزارية في عهد الستر الثاني في فارس وخراسان وفي الهند.

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف تاريخ هؤلاء النزارية بدأ تاريخهم في الظهور منذ مستهل القرن التاسع عشر، بدليل أن بعضهم تقلد الحكم في بعض الولايات الفارسية؛ فقد تقلد الشاه خليل الله مثلاً ولاية كرمان. وتولى الشاه[1] محمد حسين إمامة النزارية في سنة ١٨١٧وتزوج من ابنة فتاح علي شاه فارس. وقد قيل إنه طمع في الوصول إلى العرش عن طريق زوجته. واضطر محمد حسين إلى الهجرة إلى أفغانستان بعد أن أخفق في الثورة التي أشعلها في جنوبي فارس، لأن وزير هذه البلاد كان قد طلب الزواج من ابنة هذا الإمام، فرفض طلبه لأنه عده غير كفء لابنته.

وقد قام محمد حسين بمساعدة الإنجليز في فتح أفغانستان، فمنحوه معاشاً ضخماً ولقبوه بصاحب السمو أغا خان. ولم يكتف الإنجليز بذلك، بل إنهم عملوا على تقوية الرابطة بينه وبين أتباعه في بلاد الهند وغيرها.

وبعد وفاة علي شاه بن محمد حسين (١٨٨١ ـ ١٨٨٥) تولى رياسة النزارية أغا خان

---

(١) يلاحظ أن هذا اللقب كان نوعاً من التستر لإحاطة الأئمة النزارية بنوع من الغموض بخلاف لقب شاه الذي يطلق على ملوك فارس.

محمد شاه جد صدر الدين بن علي الأغا خان الحالي . ويشتهر كل من هؤلاء بكثرة زياراتهم لأتباعهم الذين يعرفون باسم «الخوجات» . وينتشر هؤلاء الأتباع في الهند، وعلى الأخص في ولايات بمباي وكلكتا والبنجاب وكشمير وأحمد أباد وسورات وغيرها، كما ينتشر بعضهم في فارس وأفغانستان وعمان وسائر بلاد الخليج العربي، وفي شرقي القارة الإفريقية ولا سيما في زنزبار.

من ذلك نرى أن الخوجات اليوم وعلى رأسهم أغا خان يمثلون طائفة النزارية أتباع نزار بن المستنصر، كما يمثل البهرة طائفة الطيبية أتباع الإمام الطيب بن الآمر بن المستعلي . فالخوجات أو الأغا خانية يمثلون الدعوة الجديدة، على حين يمثل البهرة الدعوة القديمة.

(٥) الدعوة الطيبية في اليمن:

نهج أنصار الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن نهج أنصار الدعوة الفاطمية في فارس وخراسان والشام. فقد نادى أهل اليمن من أنصار الخليفة المستعلي بابنه أبي القاسم وكان صغيراً، ونقلوه إلى بلادهم في سنة ٥٢٦ هـ ، وأقاموا الدعوة له ولقبوه الإمام الطيب، ولم يعترفوا بإمامة الخليفة الحافظ؛ وبذلك أسسوا الدعوة الطيبية في اليمن، وساروا في ذلك الأمر على منوال أنصار نزار بن المستنصر في فارس الذي لم يعترفوا بإمامة أخيه المستعلي ونقلوا إليها أحد أبناء نزار وأسسوا الدعوة النزارية في فارس وخراسان والشام.

ولم يقتصر نفوذ الطيبية على بلاد اليمن فقد قامت الدعوة للطيب بمصر في بادىء الأمر، ونقشت الدنانير باسمه في الإسكندرية سنة ٥٢٥ هـ . وقد جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار في الإسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسمائة، أبو القاسم المنتصر بأمر الله أمير المؤمنين

الإمام

محمد(١)

وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية أولاً مركزاً لحركتهم ومستقراً لدعوتهم.

وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ الفاطمي ولم تعترف بشرعية حكمه أو أحقيته بالخلافة والإمامة، لأن الملكة الحرة أروى الصليحية كانت قد تلقت من

(١) Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes. p. 163, pièce no, 489.

الآمر كتاباً يبشرها فيه بمولد ولي عهده، فعرفت أن الحافظ اغتصب الخلافة وأنه لا حق له في إقامة الدعوة الإسماعيلية التي انقسمت بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي، وطيبية نسبة إلى الإمام الطيب بن الآمر حفيد المستعلي.

وقد عمل الخليفة الحافظ على مناوأة الدعوة الطيبية في اليمن، فاستعان ببني زريع[1] الذين ظلوا على ولائهم للحافظ وخلفائه، كما ظلوا يقاومون الدعوة الطيبية حتى أبطل نواب صلاح الدين الأيوبي هذه الدعوة كما ذكرنا.

ومن أهم ما تمتاز به الدعوة الطيبية في ذلك العصر، أنها كانت تدعو إلى إمام مستور هو الطيب وأبناؤه من بعده على حين دعا بنو زريع إلى إمام ظاهر، هو الحافظ وخلفاؤه من بعده.

ومن أهم ما تمتاز به الدعوة الطيبية أيضاً انفصال الدعوة عن الدولة، فقد أصبح الصليحيون، ولا سيما في عهد الملكة السيدة أروى (بفتح الألف مع الهمزة والواو وسكون الراء) الصليحية، يمثلون الدولة، على حين أصبح الداعي المطلق يمثل الدعوة نفسها، الأمر الذي أدى إلى اتساع نفوذ هذا الداعي بين أنصار الدعوة الطيبية؛ ولا عجب في ذلك. فقد أصبح هذا الداعي يمثل الإمام المستور، يعنون بذلك الطيب وأبناءه.

وإذا وازنا بين مركز الداعي الكبير لاماك بن مالك ومركز ذؤيب بن موسى الداعي الداعي المطلق من حيث أثر كل منهما في الدعوة الإسماعيلية في اليمن، وجدنا أن مركز الأول لا يتعدى الدعوة والدعاة هناك، بحيث إنه كان يستمد تعاليمه وأصول الدعوة من داعي الدعاة في مصر. أما الثاني فقد كان بالإضافة إلى ذلك يعتبر المنبع الأوحد لعلوم الإمام المستور ومعارفه. فلا تجد داعياً يكتب في التأويل إلا بعد الرجوع إليه، بعد أن كان ذلك مباحاً للجميع قبل عصر الدعوة الطيبية. ومن ثم أصبحت الطريقة الوحيدة لبقاء أصول المذهب الإسماعيلي مقصورة على دراسة آداب الدعوة، فلم تعد حاجة إلى مؤلفات يتجه فيها مؤلفوها نحو التجديد، بل لقد أصبح من الواجب أن يقتصروا على ما ورد في كتب الدعوة القديمة والمحافظة عليه واختصاره ونشره في مؤلفات سهلة المنال[2]. (Compendiums).

لذلك رأى القائمون بالدعوة اليمنية من واجبهم أن يعملوا ما استطاعوا للحصول على

---

(١) بضم الزاي وفتح الراء وسكون الياء.

(٢) Hamdani, Some Un Known Ismaili authors (JRAS, 1933), p. 365.

المؤلفات الإسماعيلية القديمة والمحافظة عليها بإخراج هذه المختصرات. ولهذا نستطيع أن نجد المعلومات التي تضمنتها فلسفة إخوان الصفا، وهم إسماعيلية في ميولهم، وفي أبحاث الداعي أبي حاتم الرازي، وأبي يعقوب السجستاني الداعي، وأحمد حميد الدين الكرماني وغيرهم من قدامى الدعاة وأعلامهم؛ بل في الأبحاث التأويلية للقاضي جعفر بن منصور اليمني والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، يرى الباحث كل ذلك في مؤلفات الدعاة في عصر الدعوة الطيبية، ولم يكن هذا كله إلا لأن بقايا الإسماعيلية المستعلية من أنصار الخليفة المستعلي بن المستنصر وابنه الآمر يرون أن الإمامة الفاطمية لم يعد لها وجود منذ استتار الإمام الطيب، وأن تراث الدعوة القديمة يجب المحافظة عليه على هذا النحو الذي أشرنا إليه[1].

ومن أهم الكتب التي تمثل هذا الأسلوب الجديد كتاب «عيون الأخبار» للداعي عماد الدين إدريس بن الحسن بن الوليد (٧٩٤ - ١٣٩٢/٨٧٢ - ١٤٦٨) فقد بحث فيه تاريخ الدعوة الإسماعيلية وتطوره. ويعد هذا الكتاب أحسن كتاب وضع في هذه الناحية. ولعباد الديل كتب أخرى ألفها على غرار مؤلفات الدعوة القديمة.

كما تمتاز الدعوة اليمنية في هذا الدور بأنها كانت قوية في البداية، إذ كانت تعضده وتشد من أزرها قوة الصليحيين السياسية، إلا أنها لم تنل مثل هذا التأييد في أخريات هذا الدور بسبب ما تعرضت له جماعة الإسماعيلية من ضعف ووهن نتيجة لزوال نفوذ الصليحيين وبني زريع في اليمن على يد عبد النبي بن مهدي[2]. ثم على يد توران شاه ابن أيوب. فأخذ أتباع الدعوة اليمنية في هذه البلاد يتحولون تدريجياً إلى جمعية سرية دينية كل همها أن تعيش عيشة هادئة وأن تحتفظ بتراث هذه الدعوة.

وكذلك نستطيع أن نميز عنصراً آخر جديداً في هذه المرحلة، هو أن اليمن لم تقطع صلتها تماماً بمصر، إذ بقي بنو زريع على ولائهم لحلفاء مصر (نواب الأئمة) حتى قضى ابن مهدي على سلطانهم على ما سبق، وبعبارة أخرى نرى أنه على الرغم من أن أنصار الدعوة اليمنية في اليمن كانوا يعتبرون الحافظ ومن جاء بعده من الخلفاء خارجين على الدعوة اليمنية أو الإمامة الحق التي تتمثل في الطيب المستور - على الرغم من ذلك ظل آل زريع يخطبون على منابرهم باسم هؤلاء النواب. لهذا نستطيع أن نقول إن آل زريع كانوا يمثلون

---

(١) Hamdani Ismaili esoterice (Islamic Cultue, 1927), p. 211.

(٢) كان أبوه مهدي يدعي أنه إسماعيلي وأنه أحد دعاتهم (ابن الجوزي: مرآة الزمان). وفي الحل أن المهدي وابنه كانا خارجين على المذهب الإسماعيلي.

الجانب الظاهري من الدعوة المستعلية، على حين يمثل أنصار الدعوة اليمنية الجانب السري منها؛ يتضح ذلك من هذه العبارة التي نقلها عمارة اليمني عن الملكة الحرة الصليحية إذ يقول: «ثم نقلت السيدة دعوة الحافظ إلى آل زريع، وقالت: «حسب بني الصليحي ما علموه من أمر مولانا الطيب . ثم صارت الدعوة اليمنية في أبناء حاتم بن إبراهيم إلى هذا الوقت»[١] أي إلى نهاية القرن السادس الهجري.

وقد ظلت الدعوة الطيبية تعمل في الخفاء في بلاد اليمن، كما انتقلت هذه الدعوة إلى بلاد اليمن حيث يمثلها هنا وهناك البهرة الذين ينتظرون الإمام من أبناء الطيب. ويشتهر البهرة بالتجارة ويختلفون مع الخوجات أتباع أغا خان[٢]. ولا غرو فإن البهرة يدعون للإمام الطيب حفيد المستعلي، ويدعو الخوجات لإمامهم أغا خان الذي يرجع نسبه الى نزار بن المستنصر.

(٦) الدعوة المرابطية:

كان يحيى بن إبراهيم الجدالي رجلاً صالحاً متحمساً للإسلام عاملاً على نشره تواقاً إلى التزود بأحكامه وقد رحل عن بلاده لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول سنة ٤٤٠ هـ . وفي طريق عودته إلى بلاده مر بمدينة القيروان بإفريقية (وهي بلاد تونس الآن)، مركز إفريقية العلمي إذ ذاك، والتقى فيها بالشيخ الصالح أبي عمران الفاسي وكان من فقهاء المالكية، وانضم إلى حلقة دروسه. ولما رأى أبو عمران ميل يحيى للعلم، سأله عن اسمه وقبيلته ووطنه، فأجاب أنه يحيى بن إبراهيم من جدالة إحدى قبائل صنهاجة الجنوب[٣].

وقد ارتاع أبو عمران حين اختبر يحيى بن إبراهيم في بديهيات الإسلام وعرف أنه لا يفقه منها شيئاً ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفاً على الرغم من أنه أمير قومه. غير أنه «صحيح النية والعقيدة واليقين، جاهل بما يصلح دينه» فقال له أبو عمران: وما يمنعك من التعلم؟ قال يحيى: «يا سيدي! إن أهل بلادي قوم عمهم الجهل، وليس فيهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسارعون إليه، لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ويعلمهم شرائع الإسلام ويبين لهم سنن النبي صلى الله عليه وسلم. فلو ابتغيت الثواب من الله تعالى

(١) تاريخ عمارة اليمني: ص ١٠٢.
(٢) وهم النزارية المحدثون.
(٣) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (لمؤلف مجهول الاسم) ص ٩.

بتعليمهم الخير، لبعثت معي إلى بلادنا بعض طلبتك، يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، فيكون لك في ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم إذ تكون سبباً لهدايتهم»(١).

وقد تأثر الفقيه أبو عمران الفاسي بكلام يحيى بن إبراهيم وهمَّ بتلبية طلبه، لأنه رأى في ذلك تقرباً إلى الله بنشر دينه وإشاعة الخير بين أهل هذه البلاد الذين تفشت فيهم الجهالة. ولما عرض الفقيه أبو عمران هذا الأمر على تلاميذه النابهين لم يوافقه أحد منهم لبعد الشقة وإشفاقهم من دخول الصحراء، فدله الفقيه على رجل من فقهاء المغرب يدعى «واجاج بن زللو» اللمطي، وكان يقيم بمدينة نفيس(٢) (بفتح النون وكسر الفاء) وهو فقيه من أهل السوس الأقصى، أخذ العلم عليه وانقطع للعبادة والعلم، وأسس مدرسة للمالكية في بلده وكثر عدد تلاميذه. وقد بعث أبو عمران الفاسي مع يحيى بن إبراهيم برسالة إلى واجاج، فرحب به وأكرمه ودلَّه على أحد تلاميذه وهو الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي. **فقبل الذهاب مع يحيى بن إبراهيم اللمتوني إلى الصحراء حيث مواطن جدالة ولمتونة.**

عرف عبد الله بن ياسين الجزولي مهدي المرابطين بالتبحر في العلم، والتفقه في الدين، وكان فوق ذلك زعيماً شجاعاً وقائداً مقداماً ومجاهداً مخلصاً(٣). وقد أهلته هذه الصفات الممتازة لإرساء أساس الدولة المرابطية التي خدمت الإسلام ونشرت أحكامه الصحيحة في الجنوب المغربي وفي السودان ثم ولت وجهها شطر الشمال، فجددت عزة الإسلام في الأندلس وأعادت شوكته ولا سيما في عهد يوسف بن تاشفين.

ولما رأى عبد الله بن ياسين ما كانت عليه لمتونة من القوة والرغبة في الدين قال لهم: «إنكم إن صبرتم ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد فتحتم ما كان أمامكم ستفتحون إن شاء الله ما وراءكم» وأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة، وكان أهلها تحت طاعة أمراء مغراوة (بكسر الميم وسكون الغين) الزناتية. وكان بين لمتونة بقيادة عبد الله بن ياسين وبين مغراوة حروب كثيرة(٤).

تدرع عبد الله بن ياسين بالصبر في نشر دعوته. ولم يكد يستقر به المقام في بلاد لمتونة وجدالة حتى أخذ يعلمهم الدين ويبين لهم شرائعه. ولما رأى أن البربر في ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية، أخذ يحثهم على إصلاح سلوكهم، فأعرضوا عنه،

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص
(٢) الحلل الموشية: ص ٩ - ١٠.
(٣) الكامل ج ٩ ص ٢٣١.
(٤) الحلل الموشية ص ١١.

ففكر في الرحيل عن ديارهم[١] ولكن يحيى بن إبراهيم الجدالي تشبث ببقائه وقال له: «إني لا أتركك تنصرف وإنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وديني، وما علي فيمن ضلّ من قومي» ثم أشار على عبد الله بن ياسين بأن يفرا بدينهما ويعتصما بجزيرة نهر السنغال[٢] بنيا بها رباطاً اتخذاه مركزاً لعبادتهما، وأخذا يعلمان الناس التفقه في دينهم والمحافظة على شعائرهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين.

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه، وخاصة من جدالة ومسوفة ولمتونة أخذت في الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادىء الإسلام. ومن كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة قوله لتلاميذه:

«اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخوفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته؛ فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه، فخلوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا»[٣] وتعتبر هذه العبارة منهجاً أساسياً وضعه عبد الله بن ياسين لدعاة المرابطين من بعد.

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ يعلمهم القرآن والسنة وأحكام الدين؛ وهذا الاسم مأخوذ من الرباط، أي الخلوة التي اتخذها عبد الله بن ياسين في جزيرته بنهر السنغال. هذا ما ذكره صاحب القرطاس. أما ابن عذارى (بكسر العين) فإنه يرى رأياً آخر في هذه التسمية، حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية، فأطلق عليهم عبد الله ابن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم[٤].

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ٩ ص ٢٣١) أن اللمتونيين رحبوا بيحيى بن إبراهيم وبعبد الله بن ياسين الذي أخذ يعلمهم عقائد الإسلام وفرائضه فقالوا: «ما ذكرت من الصلاة والزكاة فصحيح وهو قريب، وأما قولك من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنى يجلد أو يرجم فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا».

(٢) ويذكر ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة: «وأخذه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في الصيف وغمراً في الشتاء». ولعل ابن خلدون قد وقع في هذا الخطأ الذي وقع فيه الشريف الإدريسي (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨.) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤ ـ ١٦. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة المؤلف ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٤) أحمد مختار العبادي: مجلة تطوان، العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

وذكر ابن الأثير[1] أن عبد الله بن ياسين عقد لأبي بكر بن عمر شيخ لمتونة اللواء وسماه أمير المسلمين، وحث من حسن إسلامه قومه على الجهاد في سبيل الله وسماهم المرابطين.

ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هذا. ومعنى المرابطين: الأتقياء المجاهدون في سبيل الله. وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط، وهو حراسة الحدود، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حامياتها. وقد ورد لفظ رباط في القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد، أي القتال في سبيل الله، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها، فقال جل شأنه في سورة الأنفال [٢٢ : ٣٩ - ٤٩] ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

كان الأثر الديني في قيام دولة المرابطين أقوى من الأثر السياسي، إذ كانت الروح الدينية تقوم على الجهاد. ولم يكن «أمير المسلمين» الذي تلقب به أمراء المرابطين غير ملك مجاهد. وكان المجلس الاستشاري يتألف من رجالات الدولة، وكان الفقهاء من أبرز أعضاء هذا المجلس. وقد ظهرت هذه الحياة الدينية في رباط السنغال، وهو المكان الذي يرابط فيه المسلمون للجهاد ويدافعون عن الدين وعن البلاد. وكانت هذه الربط تقام في الأماكن التي يخشى فيها من هجمات الأعداء. ثم تحول هذا اللفظ إلى «ثغر» أي مدينة حصينة.

على أن الرباط قد أصبح له معنى آخر في شمالي إفريقيا، فقد كان فقهاء المالكية يلقون دروسهم بمساجد القيروان من أجل الدفاع عن مذهب مالك ودعوة الناس إلى التزهد والتعبد، وضربوا المثل بأنفسهم وبالإمام مالك. وقد فضل كثير منهم أن يعتزل حياة المدن التي سادتها الاضطرابات السياسية والفوضى وفساد العقيدة ويرحلون إلى رباطات ينقطعون فيها إلى العبادة وتلقين العلوم الدينية. ولعل هذه الرباطات كانت في بداية أمرها على هذه الصفة بمثابة رد فعل سلبي ضد المذاهب الجديدة التي تختلف مع المذهب السني كالمذهب الشيعي والمذهب الخارجي البرغواطي. وإذا كانت الربط قد ظلت كذلك في إفريقية والمغرب الأوسط حيناً من الدهر، فإنها في المغرب الأقصى قد تحولت من ربط التزهد وتدريس العلم إلى مراكز حربية لكفاح المذاهب الأخرى. وقد امتاز رباط السنغال

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢. انظر ما ذكرناه عن هذه التسمية بصدد كلامنا على الدولة المرابطية (الباب الثالث من هذا الكتاب).

بأنه لعب دوراً هاماً في ثلاث من النواحي ، إذ كان المؤمنون يتلقون فيه العلم ، ويتعبدون فيه ويتطلعون إلى جهاد المشركين والقضاء على عناصر الفتنة في شمالي المغرب . وبذلك كان رباط السنغال مدرسة ومعبداً ونواة لدولة لعبت فيما بعد دوراً بعيد الأثر في تاريخ المغرب والأندلس معاً . وفي رباط السنغال تشكل الجهاز السياسي الأول الذي جمع عدداً من الشيوخ والفقهاء ، على رأسهم يحيى بن إبراهيم الجدالي وعبد الله بن ياسين ،وإذا كان عبد الله بن ياسين رجل فقه من حيث تكوينه الديني ، فقد كان من الناحية العملية القوة الدافعة للحركة المرابطية من الناحية السياسية أيضاً ، لأنه هو الذي وحد بين قبائلهم ووضع لهم الخطط الحربية في الوقت الذي كان يحيى بن إبراهيم الموجه السياسي من الناحية النظرية فحسب .

ولم يلبث عبد الله بن ياسين أن أخضع جميع الصحراء ، وكون جيشاً كبيراً جمع أموالاً ضخمة من الغنائم وتودّد إلى قبيلة مصمودة . وبعث بأموال عظيمة من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة المصامدة وقضاتها .

ولم يكن الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني أقل حماساً في نشر الإسلام من سلفيه عبد الله بن يتفاوت ويحيى بن إبراهيم . فلم يكد يلي منصبه الجديد في رئاسة المرابطين حتى أمره عبد الله بن ياسين بالجهاد في سبيل الله : «وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين ، كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه ؛ فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً : وجب عليك الأدب ، قال له : فيم يا سيدي؟ قال له : لا أعرفك به حتى آخذه منك . فكشف له (يحيى بن عمر) عن بشرته . فضربه عشرين سوطاً ثم قال : إنما ضربتك لأنك باشرت القتال وأصليت الحرب بنفسك ، وذلك خطأ منك ، فإن الأمير لا يقاتل ، وإنما يقف ويحرض الناس ويقوي نفوسهم ، فإن حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيوشه»(١) .

وهذه العبارة إن دلت على شيء فإنما تدل على تفاني يحيى بن عمر في الإخلاص لدعوة عبد الله بن ياسين وشدة طاعته ، كما تدل على إلمام عبد الله بن ياسين بأساليب القتال وإدارة دفة المعارك الحربية .

وقد ظل يحيى بن عمر منقاداً لزعيمه الروحي عبد الله بن ياسين ، واستولى المرابطون على جميع بلاد الصحراء ، وغزوا بلاد السودان ، واتجهوا صوب الشمال ، ففتحوا درعة وسجلماسة وقضوا على أهل البدع وأحلوا محلها أحكام الإسلام . ولم يذهب عبد الله بن ياسين إلى سلجماسة ودرعة حتى استنجد به الفقهاء وكتبوا له وليحيى بن عمر وشيوخ

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦ ـ ١٧ .

المرابطين كتاباً يطلبون إليهم أن يقوموا بفتح بلادهم وتطهيرها من الآثام وتخليصها من عسف أمراء زناتة. فلما وصل هذا الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع شيوخ المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم في الأمر فقالوا: «أيها الفقيه! هذا مما يلزمنا ويلزمك، فسر بنا على بركة الله! فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد». وقد كتب الله النصر للمرابطين على أمراء مغراوة الذين كانوا حكام درعة وسجلماسة، واستولوا على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم، وقام عبدالله بن ياسين بتوزيع الغنائم على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، إذ أخرج الخمس وقسمه على فقهاء درعة وسجلماسة وأهل التقوى والصلاح. ثم وزع الأربعة الأخماس الباقية على المحاربين[١].

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا الغزو لم يكن غزواً سياسياً يرمي إلى التوسع الإقليمي وبسط سلطان المرابطين السياسي، وإنما كان جهاداً في سبيل الله ونصرة دينه.

وقد استشهد الأمير يحيى بن عمر في إحدى غزواته سنة ٤٤٧ هـ، فقلد عبد الله بن ياسين أخاه أبابكر بن عمر اللمتوني قيادة الجيش المرابطي (محرم سنة ٤٤٨ هـ)، وأمره بغزو بلاد السوس والمصامدة. وفي شهر ربيع الثاني من سنة ٤٤٨ هـ عين أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي لمع نجمه وعلا شأنه في الدولة المرابطية، واستطاع أبو بكر بن عمر في زمن قصير أن يستولي على معاقل بلاد السوس ويخضع قبائلها، ففتح جزولة وماسة وتارودانت قاعدة السوس وخلصها من أيدي الشيعة البَجَلية. ثم اتجه أبو بكر لحرب قبائل المصامدة، ففتح جبل دَرَن ومدينة نَفيس وسائر بلاد جَدْميوَة. ووفدت عليه القبائل فبايعته، ثم سار إلى مدينة أغمات، وبها يومئذ أميرها لَقُوط ابن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين، ففر إلى أبناء عمومته بني يَفرن ملوك سلا وتادلا (بسكون الدال). واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات سنة ٤٤٩ هـ، واتخذوها حاضرة لهم حتى تأسست مدينة مراكش.

ثم اتجه عبد الله بن ياسين إلى تامسنا[٢] حيث كانت قبائل برغواطة تقيم بساحلها وتستعد للقائه. وقد أوغلت هذه القبائل في الكفر والضلالة، وكان بعضها يدين بالمجوسية فقاتلها عبدالله بن ياسين لانضوائها تحت لواء الإسلام. وكان البراغواطيون بقيادة أبي جعفر عبد الله من سلالة اليسع بن صالح بن طريف المتنبي الكذاب[٣]. وكانت بينه وبين عبد الله

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٢.

(١) يطلق هذا الاسم على الناحية الممتدة بين سلا وآسفي في سهول المحيط الأطلسي ولا سيما في سهول الشاوية الحالية جنوبي الدار البيضاء.

(٣) ذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ج ٢ ص ٢٥ ـ ٢٦) أن صالح بن طريف ينتمي إلى أصل يهودي، =

ابن ياسين حروب طاحنة أصيب فيها عبدالله بن ياسين بضربة أودت بحياته. ولما حضرته الوفاة قال للمرابطين:

«يا معشر المرابطين! إني ميت من يومي هذا لا محالة، وإنكم في بلاد عدوكم، فإياكم أن تجبنوا أو تتنازعوا فتفسلوا وتذهب ريحكم[1]، وكونوا أعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله. وإياكم والتحاسد على الرياسة، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده».

وتوفي عبد الله بن ياسين عشية هذا اليوم (الأحد ٢٤ من شهر جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ)، ودفن بموضع عال يعرف بكريفلة على مقربة من مدينة الرباط بين الرماني وابن سليمان وبني على قبره مسجد لا يزال حتى الآن.

وقد استمر الأمير أبو بكر بن عمر في حرب البرغواطيين حتى قضى على دعوتهم، ثم تفرغ لحرب الصحراء، تاركاً أمر المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين، ثم نزل له عن الحكم بعد عودته كما تقدم.

إن العوامل التي أحاطت بالدعوة المرابطية، ومدى تأثر عبد الله بن ياسين بالبيئة التي عاش فيها، وتكوينه الديني، وروح الحماسة التي اتصف بها في الإسلام لجديرة بالبحث،

= وأن موطنه الأصلي بلاد الأندلس. وقد أسلم في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان، ورحل إلى المشرق ودرس العلوم الإسلامية، ثم قدم بلاد المغرب ونزل بلاد قامسنا فوجد بها قبائل من البربر قد فشا فيهم الجهل، فادعى النبوة وتسمى «صالح المؤمنين» وقال لهم: أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد عليه السلام. ثم أخذ يشرح لهم ديانته (١٢٥ هـ) وجعل الصيام في شهر رجب لا في شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمس بالليل وخمس بالنهار، وقرر أن الأضحية واجبة على كل من اتبعه في الحادي والعشرين من شهر المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرّة والخاصرتين، وجعل في صلاتهم الإيماء، لا سجود فيها الا في الركعة الأخيرة حيث يكون السجود خمس مرات. وأمرهم بأن يخرجوا العشر من جميع الثمار. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء، وحرم الزواج من بنات العم. كما أمرهم أن يطلقوا ويرجعوا كما يشاءون. وأمر بقتل السارق حيث وجد، وحرم رأس الحيوان ولحم الدجاج، واعتمد في الصلاة على أذان الديكة التي حرم ذبحها، ومن ذبح ديكاً ألزم بعتق رقبة. ووضع صالح بن طريف المتنبي قرآناً يقرأونه في صلاتهم ويتلونه في مساجدهم، وزعم أنه نزل عليه وأنه أوحي به من الله تعالى، ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر. واشتمل قرآنه المزعوم على ثمانين سورة سماها بأسماء النبيين وغيرهم، منها سورة آدم وسورة نوح وسورة يونس وسورة موسى وسورة هارون وسورة فرعون وسورة بني إسرائيل وسورة الديك وسورة الجزاء وسورة إبليس وسورة الجمل... الخ.

(١) وهذا مقتبس من قوله تعالى ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا ويذهب ريحكم﴾.

لما لها من الصلة الوثيقة بالدعوة المرابطية وقيام الدولة المرابطية، وإبراز شخصية هذا المصلح الاجتماعي.

اتفق جمهو المؤرخين على ثلاث نقط أساسية لا شك في صحتها وهي:

(١) أن عبد الله بن ياسين ينتسب إلى قبيلة جزولة.

(٢) أنه تلقى العلم على واجاج بن زلّلو بمدينة نَفيس.

(٣) أنه ينتمي إلى مدرسة واجاج بن زللو تلميذ أبي عمران الفاسي أحد أئمة المذهب المالكي.

أما عن قبيلة جزولة فقد أشار إليها ابن خلدون[١] عند كلامه على تفرع الشعوب البربرية حيث يقول: «وأما شعوب البرانس، فعند النسابين أنهم يجمعون سبعة أجذام وهي: أزداجة، وأوْربة، وعَجيسة، وكتامة، وصنهاجة، وأوريغة، وزاد سابق بن سليم وأصحابه لمطة وهسكورة وجَزولة»[٢].

على أنه مما لا شك فيه أن صنهاجة المرابطين قد هاجرت إلى الصحراء قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل. وسواء أكانت جزولة قبيلة برنسية قائمة بذاتها أم كانت فخذاً أو بطناً من صنهاجة أو من مصمودة، فإن موطنها هو جنوبي السوس على ساحل المحيط الأطلسي الذي عرف نوعاً من النشاط الحضاري. وعلى ذلك فإن عبدالله بن ياسين ينتمي إلى عنصر بربري إلى أرومة عربية على أساس أن صنهاجة وكتامة قبيلتان عربيتان كما أثبت ذلك ابن خلدون.

وأما عن مدينة نَفيس، فقد قامت فيها مدرسة واجاج بن زللو شيخ عبدالله بن ياسين. وشهدت منذ الفتح الإسلامي التطورات الفكرية والسياسية والدينية التي تلقي كثيراً من الضوء على شخصية ابن ياسين. وإذا رجعنا إلى الوراء رأينا أن عقبة بن نافع الفهري استولى

---

(١) العبر ج ٦ ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) خالف تيراس Terrasse. Histoire du Maroc, tome I. p. 196 ابن خلدون بقوله: إذا كان من السهل معرفة المغرب المصمودي برغم ما يحيط الجزء الخاص بالمصامدة من شك، فإننا على العكس من ذلك نرى صعوبة ما في تحديد مواطن صنهاجة في المغرب. ويبدو أن ساحل المحيط الأطلسي الصغير كان قد انتشرت فيه صنهاجة وجزولة ولمطة. وقال المؤلف نفسه في موضع آخر (ج٢ ص ٢١٣) إنه كانت هناك فيدراليات مهمة تحتل الصحراء الغربية فكانت لمطة وتاركة وسرتة وجزولة على اتصال بالجنوب المغربي. وقد اختلف المؤرخون في نسب جزولة، فجعلها بعضهم فخذاً وبطناً من صنهاجة، وعدها بعض آخر قبيلة برنسية قائمة بذاتها كصنهاجة ومصمودة وغيرهما من القبائل المشهورة.

على هذه المدينة وأخضع الروم المسيحيين والبربر. ولا يبعد أن يكون قد بنى فيها مسجداً بعد أن جمع منها كثيراً من الغنائم. ثم بسط عبد الله بن ياسين نفوذه على الجنوب المغربي بعد أن ضم مدينة نفيس وجبال المصامدة. ويقول السلاوي[1] إن إدريس الثاني لما فرغ من بناء مدينة فاس. . . أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة ثم غزا بلاد المصامدة ودخل مدينة نفيس.

من ذلك نرى أن مدينة نفيس التي تلقى عبدالله بن ياسين العلم في مدرستها كانت مركزاً حضارياً أكثر من قرنين قبل قيام الدولة المرابطية. وسواء أولد عبد الله بن ياسين في هذه المدينة، أم قضى فيها شطراً من حياته، أم وفد إليها من مكان آخر لتلقي العلم على واجاج بن زللو، فإنه مما لا ريب فيه أنه كان لهذه المدينة أثر بعيد في تكوين شخصية عبد الله بن ياسين من جهة، وفي أنه وقف عن طريقها على المشاكل السياسية والحركات الفكرية التي عرفها المغرب في أيامه من جهة أخرى.

وأما عن المذهب المالكي الذي كان عبدالله بن ياسين يدين بتعاليمه، فإن الإسلام لم يكد يستقر في المغرب حتى تعرضت للاختلافات المذهبية التي انتشرت في الشرق الإسلامي زهاء ثلاثة قرون حتى قدر للمذهب المالكي أن تكون له السيادة بعد أن ظل في صراع مستمر مع غيره من المذاهب. وكانت سيادة هذا المذهب من أبرز نتائج الدعوة المرابطية.

ويظهر أن فقهاء المذهب المالكي ظلوا منذ سقوط دولة الأدارسة سنة ٣٧٥ هـ إلى قيام الدولة المرابطية في صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وبرغواطية، عاملين على توطيد مذهبهم، فأقاموا شبكة من المراكز تمتد من إفريقية (تونس الحالية) إلى السوس الأقصى. وقد اشتهر من هذه المراكز: القيروان، وفاس، ونفيس. وإذا كانت الخصومة قد اشتدت بين المالكية السنيين وبين الدويلات التي قامت في المغرب من شيعيين وخوارج وبرغواطيين، فإن المالكية قد ظلوا خلال هذا الصراع يعقدون الآمال على ظهور زعامة إسلامية توحد العالم الإسلامي وتعيده إلى السنية والسلفية. لذلك لم يكن عمل هؤلاء المالكية ذا صبغة فقهية فحسب، بل كان كذلك مظهراً دينياً وسياسياً يهدف إلى بعث حركة إصلاحية تنطلق من أحد هذه المراكز لتقيم الدولة المغربية السنية في المغرب أولاً ثم في سائر العالم الإسلامي ثانياً.

---

(١) الاستقصا ج ١ ص ١٥٣.

وإذا كان الفقيه المالكي واجاج بن زللو اللمطي قد تحمل مشاق الرحلة من الجنوب المغربي ليأخذ العلم على الفقيه أبي عمران الفاسي المالكي في القيروان، ثم يعود إلى هذا الجنوب المغربي ليؤسس مدرسة للفقه المالكي تضم طائفة من أبناء الجنوب رغبة في إعداد جيل يقوم بنصرة هذا المذهب، فقد كان عبد الله بن ياسين أحد أولئك التلاميذ الذين كانوا يهيئون للقيام بهذا الدور الذي يتفق وأهداف المالكية. وليس من شك في أن غرض واجاج بن زللو في مدرسته بنفيس قد تحقق في شخص عبد الله بن ياسين الذي لم يغادر نفيس يوم ندبه شيخه للتوجه إلى الصحراء مع الأمير الملثم يحيى بن عمر إلا وهو مؤمن بأن المغرب في حاجة ملحة إلى الإصلاح، وأن أستاذه لم يندبه للرحيل إلى بلاد صنهاجة إلا لثقته فيه لأن يبني قوة حربية وجهازاً سياسياً يتفق وأهداف فقهاء المذهب المالكي ونشر تعاليمه بين أولئك الصحراويين الذين لم يفسدهم تناحر الفرق وتنازع الأهواء. ومما يؤيد هذا الرأي أن عبد الله بن ياسين كان يبعث في بعض الأحيان بخمس الغنائم من الصحراء إلى أستاذه واجاج بنفيس، وأنه توجه في بعض غزواته إلى بلاد المصامدة بدعوة من أستاذه.

وصفوة القول أن شخصية عبد الله بن ياسين قد توافر لها من المؤثرات الفكرية والسياسية ما جعل من صاحبها مصلحاً وداعية دينية، إذ سار في توجيه الدعوة وفق خطة مرسومة تهدف إلى إقامة دولة وتوحيد أمة وتوطيد دعائم مذهب. أما تأثير عبد الله بن ياسين في توجيه الدعوة المرابطية فيتبين في جلاء ووضوح في اعتناق هؤلاء البدو الرحل الذين أصبحوا بفضل تعاليمه مسلمين حقاً متمسكين بتعاليم الإسلام على هدي من تعاليم مذهب مالك، ثم يتفانون في نصرة هذا المذهب الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة المرابطية، ويحاربون هؤلاء الذين انحرفوا عن جادة الإسلام.

(٧) الدعوة الموحدية:

(أ) مولد ابن تومرت ونشأته

ولد محمد بن تومرت بقرية **إيجلي**[١] بجبال الأطلس ببلاد السوس بالمغرب الأقصى، وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وينسب ابن تومرت إلى قبيلة هرغة

---

(١) المراكشي: المعجب ص ١٨٧. ويذكر الزركشي (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٢ - ٣) أنها تسمى إيكلين.

إحدى بطون قبيلة مصمودة التي تعتبر أكثر قبائل القرن عدداً وأشدها بأساً وأوفرها ثراء، وهي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى[١].

ومن هنا يدرك أن ابن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ينتمي إلى أكبر قبائل المغرب، وأن هذا الأمر قد هيأ له النجاح في دعوته التي انتهت بقيام الدولة الموحدية، لأن العصبية، كما يقول ابن خلدون[٢]، تعد أهم العناصر نجاح المبادىء والدعوات.

وقد ذكر ابن تومرت أنه ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ويشير المراكشي (المعجب ص ١٧٨) إلى أن ابن تومرت ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الأدارسة الذين أسسوا دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ . وقد انقسم المؤرخون في مسألة نسب ابن تومرت إلى بيت الرسول إلى طوائف ثلاث:

(١) طائفة أيدت صحة هذا النسب، لأن الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم شرط أساسي في المهدي المنتظر. ومن هؤلاء المؤرخين أبو بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيدق وتلميذ ابن تومرت، وكان لا ينفك عنه كظله حتى توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ .

(٢) وطائفة أنكرت نسب ابن تومرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ومن هؤلاء ابن أبي زرع وابن عذارى.

(٣) وطائفة أخرى آثرت جانب الاعتدال والتزمت الحياد. ومن هؤلاء عبد الواحد المراكشي.

---

(١) ويذكر الشريف الإدريسي (وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، نشرة هنري بيرس Henri Perès، الجزائر ١٩٥٧ ص ٣٥) أن مصمودة هي القبيلة الأولى نزلت المغرب فعمرته، وقد ذكر البكري (المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤) أن كتامة بطن من مصمودة. وعلى ذلك يكون الشعب المصمودي قد انتشر في المغربين الأوسط والأقصى، وفي مصر في العصر الفاطمي حيث كان أكثر جيشها من قبيلة كتامة. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة فرع من المصامدة (المصدر نفسه). وعلى ذلك يكون هذا الشعب المصمودي قد انتشر في صحراء المغرب حتى السودان (عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٨). ويذكر ابن خلدون بعض قبائل مصمودة فيقول: «وقبائل هؤلاء المصامدة كثيرة، فمنهم هرغة (بفتح الهاء والغين وسكون الراء) قبيلة ابن تومرت، وهنتاتة (بكسر الهاء وسكون النون وفتح التاء) وتينمل (بفتح التاء وسكون الياء والنون وكسر الميم) وجدميوة (بفتح الجيم الأولى وسكون الدال وكسر الميم الثانية وفتح الواو)، وجنفيسة (بفتح الجيم والسين وسكون النون)، ووريكة (بفتح الواو والكاف) ورجراجة (بفتح الراء وسكون الجيم الأولى وفتح الجيم الثانية) وهزميرة (بفتح الهاء والراء وسكون الزاي)، ودكالة (بضم الدال)، وحاحة، وأصارن، وبنو وزكيت (بفتح الواو وسكون الزاي)، وبنو ماكر، وإيلانة (ابن خلدون): العبر ج ٦ ص ٤٦٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧ .

ويبدو أن ابن خلدون[1] يميل إلى صحة نسب ابن تومرت إلى الرسول الكريم وانتمائه إلى قبيلة مصمودة البربرية فيقول: «وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ووشجت عروقه فيهم والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار في عدادهم». ويرى ابن خلدون أن ذرية سليمان بن عبد الله أخا إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى قد انتشرت في قبيلة مصمودة عن طريق المصاهرة، وكان محمد ابن تومرت يدعى النسب إلى سليمان بن عبد الله.

وقد نشأ ابن تومرت في بلاد السوس التي اشتهرت منذ ظهور الإسلام في المغرب بحب الدين الحنيف والسعي لتحصيل علوم القرآن الكريم. وكان أهل بيته، كما يقول ابن خلدون، أهل نسك ورباط، وقد شب محمد (بن تومرت) هذا قارئاً، محباً للعلم، وكان يسمى «أسافو» ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل لملازمتها. من ذلك نرى أن ابن تومرت نشأ في بيئة دينية، وأنه انكب على طلب العلم ولازم بيوت الله للعبادة.

وبعد أن أخذ ابن تومرت بحظ من علوم الدين واللغة رحل إلى المشرق لطلب العلم، فرحل إلى الأندلس، ثم إلى مصر والشام، ثم ألقى عصا النسيار بالعراق حيث جد في طلب العلم. وكانت بغداد في ذلك الحين من أعظم الحواضر الإسلامية في العلم والأدب والحضارة. وقد تلقى ابن تومرت العلم على أعلام العلماء كأبي بكر الشاشي، والمبارك بن عبد الجبار من علماء الكلام والأصول والحديث، وقيل إنه أخذ العلم على الإمام أبي حامد الغزالي. وقد تأثر بالثقافة الإسلامية في بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية. وكان لهذه الثقافة أثر بعيد في حياة ابن تومرت الذي أخذ على عاتقه أن ينقل إلى المغرب التوحيد الكلامي القائم على التأويل[2] وأن يصرف الناس عن المذهب التقليدي الذي ورثه فقهاء المالكية عن السلف الصالح، والذي يأبى التأويل إباء تاماً عملاً بقوله تعالى:

﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنَّ أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكَّر إلا أولوا الألباب﴾ [سورة آل عمران ٢ : ٧].

---

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٢.

(٢) يقصد علم الكلام الذي يؤول الآيات القرآنية تأويلاً يبعد الذات الإلهية عن مشابهة الحوادث وعن التجسم مثال ذلك: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ [سورة الفتح ٤٨ : ١٠] فعلماء الكلام يفسرون اليد بالقدرة أي قدرة الله تؤيدهم بينما تقف السلفية موقفاً محايداً فلا يسمحون لأنفسهم بالتأويل.

(ب) دعوة ابن تومرت

وهنا نسأل: على أي أساسٍ قامت الدولة الموحدية؟ وهل قامت على أساس ديني إصلاحي أم على أساس ديني وسياسي معاً؟ ولماذا تسمت بهذا الاسم؟

ظل ابن تومرت سنوات يطلب العلم بالمشرق ثم عاد إلى بلاده حاملاً أفكاراً جديدة وآمالاً بعيدة، فحج بيت الله وأخذ بنشر الدعوة الموحدية في مكة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. وكانت مكة إذ ذاك خاضعة للحكم الفاطمي، فلم يكن بد إذن من أن يندد بسوء حال المسلمين في عهد الفاطميين. لذلك نرى ابن تومرت يغادر مكة ثم يتجه إلى الشام ثم إلى مصر مركز الدولة الفاطمية إذ ذاك. وقد قيل إنه اتصل بالفقيه أبي بكر الطرطوشي في الإسكندرية. وهنا أخذت الدولة الفاطمية تطارد ابن تومرت خشية انتشار مبادئه الثورية بين الناس، فركب البحر واتجه إلى المغرب، وقد اختلف المؤرخون في اسم المدينة التي نزلها ابن تومرت بعد خروجه من مصر، فيرى ابن خلدون أنه حل بمدينة طرابلس حيث أخذ ينشر مذهبه الجديد في التوحيد الذي يقوم على تأويل المتشابه من القرآن الكريم والحديث الشريف، مشدداً النكير على علماء المغرب في عدولهم عن التأويل. ثم قام ابن تومرت بتدريس علم التوحيد لتوضيح مذهبه الجديد وأخذ الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

على أن علماء المغرب المالكية السلفيين لم يتقبلوا مذهب ابن تومرت بل قاوموه بعنف حتى «لقي بسبب ذلك أذايات في نفسه احتسبها من صالح عمله» على حد تعبير ابن خلدون[1]. وقد ذكر البيدق أن ابن تومرت نزل بمدينة تونس ثم بمدينة قسنطينة ثم بمدينة بجاية، ثم اتجه إلى تونس، وكان طلبتها يأخذون العلم عليه. وقد أضاف البيدق قائلاً: «وظل (ابن تومرت) على هذا أياماً. فلما كان بعض الأيام قال: نتوجه إن شاء الله نحو الغرب، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كنا أول القدوم: سيدنا المعصوم، ويوسف الدكالي، والحاج عبد الرحمن، وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق. فلم نزل نجد السير حتى وصلنا قسنطينة». ثم يذكر البيدق أن ابن تومرت أقام بمدينة قسنطينة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ثم خرج منها إلى مدينة بجاية[2].

ذكر ابن خلدون أن ابن تومرت التقى بتلميذه عبد المؤمن بن علي بعد خروجه من

---

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٧.

(٢) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص ٥١.

مدينة بجاية بقرية تبعد عنها بفرسخ واحد[١] ويبالغ مؤرخو الموحدين في وصف لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن، فيذكرون أن المهدي عرفه قبل أن يلتقي به بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم[٢] والجفور[٣]، وأن ابن تومرت قربه إليه وآثره على جميع أتباعه وهيأ له السبيل لأن يخلفه في زعامة الموحدين.

خرج ابن تومرت من هذه القرية ومعه عبد المؤمن بن علي، ومحمد البشير الونشريشي، فمر بوجدة ومكناسة وسلا، وانتهى به المطاف أخيراً بمدينة مراكش حاضرة المرابطين في ذلك الحين. وكان ابن تومرت في جميع هذه المدن يدعو إلى مذهبه، آمراً الناس بالمعروف ناهياً عن المنكر مشدداً النكير على من يخالف الشرع. وكان في الوقت نفسه يبشر بمبادىء التوحيد الكلامي سراً كلما أتيحت له الفرصة.

أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم «الموحدين» إشارة إلى أنهم هم الذين يوحدون الله حقاً، وتعريضاً بالدولة المرابطية التي رماها ابن تومرت بالكفر والتجسيم، وأحل قتالها باعتبار المرابطين (في رأيه) غير مؤمنين عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [سورة التوبة ٩ : ١٣].

(ج) ابن تومرت وعلي بن يوسف المرابطي

كان ابن تومرت يمشي في الأسواق آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، فيتلف المزامير وآلات اللهو ويريق الخمر ويكسر أوانيها، ولم يكن في ذلك مأذوناً من السلطان ولا من القضاة ولا من المحتسبين التابعين للدولة المرابطية، إذ كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة اللهو المنافي للشرع من اختصاص المحتسب وحده. وكانت الحسبة عملاً حكومياً هاماً؛ من أجل هذا اعتبرت الدولة المرابطية عمل ابن تومرت مخالفاً لقوانين الدولة. وقد نبه ابن تومرت بأعماله الجريئة أذهان الناس، فلم يكن بد من أن يأمر السلطان علي بن يوسف بإحضاره. «فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه ورثاثة حاله، فاستحقره وهان عليه أمره

(١) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٤٦٧.

(٢) كان التنجيم من العلوم التي عني بها المسلمون في ذلك الحين، حتى إن الخلفاء والسلاطين كانوا لا يحاربون إلا بمشورة المنجمين. وقد ندد أبو تمام بالمنجمين مادحاً المعتصم العباسي بعد انتصاره على الروم في موقعة عمورية بقوله:

السيف أصدق إنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

(٣) الجفر جلد الماعز الذي قيل إن به علوم الأولين ومعرفة الغيب قد دونها الإمام جعفر الصادق ثم ورثها عنه أئمة الشيعة.

وقال: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ فقال: وما بلغك أيها الأمير؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك فإنك المسئول عنه. وقد عاب الله تعالى قوماً تركوا النهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾»(١) [سورة المائدة ٥ : ٧٩].

فلما سمع السلطان كلام ابن تومرت أكبره وعظمه وأشار إلى وزرائه بإحضار الفقهاء لمناظرته وتحقيق مقالته. ولما حضر الفقهاء قال لهم السلطان: «إنما بعثت إليكم لتختبروا أمره، فإن كان عالماً اتبعناه وإن كان جاهلاً أدبناه»(٢).

من ذلك نرى أن السلطان الورع علي بن يوسف بن تاشفين قد تأثر بكلام ابن تومرت، وأنه بعث إلى العلماء ليستمعوا بدورهم إلى آرائه ويختبروا علمه، فإن كان على حق قضت الضرورة باتباعه، وإن كان على باطل فينبغي أن يؤدب. وإذا كان السلطان يريد أن ينزل العقاب بابن تومرت لما رأى ضرورة لطلب العلماء لمناظرته واختباره.

على أن علماء المرابطين برياسة مالك بن وُهَيْب حقدوا على ابن تومرت لأنهم عجزوا عن مناظرته. وقد اشتهر ابن تومرت بقوة الجدل والمناظرة فقال لهم: «قدموا من تقوم به حجتكم، وتأدبوا بأدب أهل العلم وسلموا عند شروط المناظرة واتركوا اللجاج، وقدموا أحدكم ممن تثقون بمعرفته وتأدبه. وكان جل من حضر ذلك المجلس أصحاب حديث وفروع (فقه) وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل»(٣).

ولما سمع مالك بن وُهَيْب كلام ابن تومرت استشعر حدة ذكائه وقوة عبارته وأيقن بعجزه وعجز علماء المرابطين عن دفع حججه. فأشار مالك على السلطان بقتل ابن تومرت وقال مشيراً إليه: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن فر إلى بلاد المصامدة وقع لنا منه شر كثير. ولكن علي بن يوسف الذي عرف بورعه وزهده استشعر حقد العلماء على ابن تومرت، فلم يستمع إلى نصيحة مالك ولم يفكر في قتل ابن تومرت. ولما يئس مالك من حمل السلطان على قتل ابن تومرت أشار عليه بحبسه حتى يموت في سجنه فقال علي بن يوسف: علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء، فخرج ابن تومرت مع أصحابه متوجهاً إلى بلاد السوس.

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٠٨.
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٩.
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٠.

(د) هرب ابن تومرت

ثم فر ابن تومرت خشية أن يكيد له الفقيه مالك بن وهيب بمراكش، وظل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاجتمع حوله كثير من الناس. وقيل إنه نزل بأغمات على الفقيه المصمودي عبد الحق بن إبراهيم، وأنه أخبره بمقصده وما جرى له مع السلطان وعلماء المرابطين فقال له عبد الحق: هذا الموضع (يعني أغمات) لا يحميكم، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد بلدة «تينمل»، وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم. فلما سمع ابن تومرت كلمة تينمل دار بخاطره أنه رأى هذا في كتاب الجفر وتفاءل بأنه سوف ينتصر في هذا الموضع. فاتجه إليه[١].

ويذكر ابن خلدون أن ابن تومرت لما ذهب إلى أغمات غير بها المنكر على عادته، فضاق كثير من الناس به ذرعاً وأغروا به السلطان علي بن يوسف؛ فلما علم ابن تومرت بذلك، خرج هو وأصحابه من أغمات خائفين يبتدرون الطريق، فلحق بقبيلة مسفيوة المصمودية ثم بقبيلة هنتاتة، حيث لقيه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية، ثم تركهم ابن تومرت ميمماً شطر قبيلة هرغة، فنزل على قومه سنة ٥١٠ هـ[٢].

ولا ريب أن فرار ابن تومرت هائماً على وجهه وتوديعه مدينة مراكش حاملاً بين جنبيه عداء علماء المرابطين الذين عملوا على الإيقاع به وحملوا السلطان على طرده، ثم ما لمسه من ضعف هذا السلطان المرابطي الذي أمر بإبعاده وأبى الانتفاع بعلمه والاستماع إلى مبادئه كل ذلك قد حدا بابن تومرت إلى القيام بعمل حاسم إزاء الدولة المرابطية التي سيطر عليها العلماء والنساء في عهد علي بن يوسف، فبنى بهرغة رابطة للعبادة، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل المختلفة، وأخذ يلقي عليهم درساً من كتابه «المرشدة» الذي ضمنه مذهبه الكلامي الجديد. وألف لأتباعه كتباً في عقيدة التوحيد التي قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية[٣]. فذاع ذكره وعظم أمره واشتدت شوكته. وأخذ يفكر في المهدوية التي تعتبر أول خطوة في قيام الدولة الموحدية.

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٧٧.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٤٧٠.

(٣) انظر كتابي انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٢٠.

(هـ) بيعة ابن تومرت

ومما يدل على عناية ابن تومرت بإحلال التوحيد الكلامي القائم على التأويل محل توحيد السلف القائم على التسليم بظاهر الآيات، أنه بعد أن حل بقومه بهرغة وبنى رابطة للعبادة والتدريس، أخذ يدرس التوحيد الكلامي جهراً بعد أن كان يذيعه بين تلاميذه سراً[١]. ولما اجتمع حول ابن تومرت كثير من الطلاب، طلب اليهم مبايعته على التوحيد، ثم مهد للخطوة التالية، وهي المهدوية، فأخذ يروي لطلابه الأحاديث التي جاءت في المهدي المنتظر، وذكر لهم أن ظهوره قد آن أوانه لوجود هذه العلامات التي وردت في الأحاديث التي أوردها الشيعة عن المهدي المنتظر. وقد ذكر ابن تومرت أن هذه العلامات تنطبق عليه من حيث اسمه ولقبه ونسبه النبوي؛ لذلك ادعى هذا الأمر لنفسه وقال: أنا محمد عبد الله، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه وناشد بالله للمهدي المعصوم، وروى في ذلك كثيراً من الأحاديث حتى استقر في الأذهان أن ابن تومرت هو المهدي، وبسط يده فبايعوه وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رسول الله[٢].

ويصف ابن القطان بيعة الموحدين لابن تومرت بالمهدوية فيذكر أنه حين وثق من منعته في قومه عقد اجتماعاً عاماً وخطب في قومه قائلاً:

«الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما يشاء، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه. وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور. مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمن، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم. وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد. وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل»[٣].

وهناك رواية ينقلها ابن القطان عن اليسع أنه قال: «وسمعت أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن بن علي (رضي الله عنه) يقول: لما فرع الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه من

(١) المصدر نفسه ص ٧١.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٨٨.

(٣) انظر ابن القطان: نظم الجمان، مخطوط المعهد الإسلامي بمدريد، نشره الدكتور محمود مكي ورقة رقم ١٥.

كلامه بادر إليه عشرة رجال منهم أنا، فقلت له: هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت المهدي، فبايعناه على ذلك»[١] والعشرة المذكورون هم: عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير الونشريشي، وأبو إبراهيم الهزرجي، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي، وأبو الربيع سليمان بن الحضري، وأبو عمران موسى بن عمار، وأبو يحيى، وأبو بكر بن يحيت، وأبو عبد الله محمد بن سليمان، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي (مؤسس الدولة الحفصية في تونس)، وعبد الله بن مَلْوِية.

وهؤلاء العشرة هم المسلمون أهل الجماعة، كانوا بمثابة مجلس وزراء لابن تومرت كما كانوا نواة للدولة الموحدية.

(و) الحكومة الموحدية

نظم ابن تومرت دولته تنظيماً عسكرياً على الآتي:

(١) العشرة أو أهل الجماعة: وكانوا بمثابة الوزراء.

(٢) أهل الخمسين: وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الشيوخ.

(٣) أهل السبعين: وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الأمة.

(٤) الطلبة: وهم العلماء.

(٥) الحفاظ: وهم صغار الطلبة.

(٦) أهل الدار.

(٧) قبيلة هرغة: وهي قبيلة المهدي بن تومرت.

(٨) أهل تَيْنمل: وهم جماعة منتخبة من عدة قبائل، وهم الذين ألفوا الجيش الموحدي الذي استطاع أن ينشر الدعوة الموحدية ويؤسس الدولة الموحدية. وقد ظلت تينمل مركز الدعوة الموحدية حتى سقطت مراكش في أيديهم سنة ٥٤١ هـ.

(٩) قبيلة جَدْمِيوة.

(١٠) قبيلة جَنْفيسة.

(١١) قبيلة هنتاتة.

---

(١) المصدر نفسه ورقة ٢٠.

(١٢) القبائل الموحدية.

(١٣) الجند.

(١٤) الغِزّات وهم عوام الناس[١].

وكان المهدي بن تومرت يأخذ أتباعه بالشدة في احترام القوانين والمواعيد والتمسك بالصفات الحميدة. وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكانها في الحكم. كما رسم ابن تومرت لهذه الطبقات ما لها من حقوق وما عليها من واجبات. وكانت الطبقات في مجموعها متساندة كمجموعة لها كيانها، وكان على الموحدين كافة أن يقوموا بأداء حقوق الله قبل كل شيء، وأن يواظبوا على الصلاة في أوقاتها وقراءة تلك الأحزاب التي وضعها المهدي[٢] والكتب التي ألفها في العقيدة الموحدية على أن تتلى بصفة مستمرة[٣].

(ز) غزوات ابن تومرت

كانت غزوات المهدي بن تومرت التي سبقت موقعة البحيرة عبارة عن إخضاع القبائل التي أبت أن تدخل في الدعوة الموحدية عن طواعية واختيار؛ فقد أرسل ابن تومرت إلى القبائل المختلفة كتباً يدعوها إلى الدخول في سلك هذه الدعوة التي تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور (في رأيه) وتنقذهم من التردي في هاوية العقيدة المرابطية التي تؤدي إلى التجسيم والإشراك بالله. وقد حارب ابن تومرت قبائل رجراجة وقبائل جبل درن (الأطلس): يقتل من عصا ويؤمن من اتبعه وانقاد له. وبذلك استطاع ابن تومرت أن يفتح جميع قلاع جبل درن وحصونه وأوديته، فأطاعته قبائل هنتاتة وجنفيسة وهرغة وغيرها[٤].

على أن البيدق يعتبر أن حرب المهدي بن تومرت ضد قبائل الأطلس عبارة عن سلسلة من حروب ووقائع منفصلة، فيعقد البيدق لأخبار المهدي فصلاً يتناول فيه سبع غزوات يشترك فيها ابن تومرت بنفسه ويشج ويحمل من المعركة جريحاً على نحو ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد[٥].

---

(١) انظر ابن القطان: نظم الجمان، مخطوطة المعهد الإسلامي بمدريد.

(٢) وهي أشبه بالأوراد التي يتلوها المصلون عقب الصلاة.

(٣) عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٧٢ ـ ١٧٧.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١١٨.

(٥) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٧.

وتعتبر موقعة «البحيرة» التي نشبت بين المهدي بن تومرت وبين الجيش المرابطي أهم المواقع . وكان الجيش الموحدي بقيادة أبي محمد البشير الونشريشي ، وقاد الجيش المرابطي أبو بكر علي بن تاشفين ، وانتهت هذه الموقعة بقتل قائد الموحدين وهزيمة جيوشهم[1]. وكانت هزيمة الموحدين صدمة عنيفة للمهدي بن تومرت الذي انتابه المرض ومات سنة ٥٢٤ هـ ، على ما ذكرنا في الباب الثالث من هذا الكتاب .

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١١٤ .

الباب الثامن
نظم الحكم

١ ـ النظام السياسي

١ ـ الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقيين:

بدأ الفقهاء يبحثون مسألة الخلافة نظرياً في عصر انحلال الدولة العباسية، حين لم يعد للخليفة من الأمر شيء. وقد تناول موضوع الخلافة من الوجهتين النظرية والعملية كثير من فقهاء المسلمين ومؤرخيهم.

فأبو الريحان البيروني[١] (ت ٤٤٠/١٠٤٨) أعلن في وضوح ما آل إليه أمر الخلافة العباسية فقال: إنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء، اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته.

كذلك تعرض لمسألة الخلافة فقيه آخر هو أبو الحسن علي الماوردي[٢] (ت ٤٥٠/١٠٥٨) الذي ولد في عهد الخليفة العباسي الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١/٩٧٤ ـ ٩٩١) وتوفي في عهد القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧/١٠٣١ ـ ١٠٧٥). ويعتبر الماوردي في طليعة الذين بحثوا هذا الموضوع، فقد بحث الخلافة بحثاً نظرياً لا يتفق والحوادث التي وقعت في عصره وقبل عصره؛ فهو يقول: إن مركز الخليفة انتخابي، ويذكر الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير. ثم يسرد تاريخ البيعة منذ أيام أبي بكر، ويدلي بالحجة على أن بيعة كل من الخلفاء الراشدين صحيحة شرعاً، كما يسرد شروط أهل الإمامة وواجبات الخليفة الدينية والإدارية والقضائية والحربية[٣]. على أن الماوردي قد تجاهل في هذا البحث النظري حقيقة ما وصلت إليه الخلافة في عهده.

كما تناول موضوع الخلافة كاتب متأخر عن البيروني والماوردي هو نظامي عَروضي

---

(١) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (لندن ١٧٨٩).

(٢) الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٧ هـ) (ص ٨ ـ ١٢).

(٣) المصدر نفسه ص ٤ ـ ٦، ٨ ـ ١٢، ١٣ ـ ٢٠).

السمرقندي، الذي يرى ضرورة قيام من يخلف النبي ﷺ للمحافظة على الشريعة، كما يقول: إن هذا القائم بالأمر يجب أن يكون خير المجتمع، ويقول أيضاً: إن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا أن يدير دولته إدارة حازمة لاتساع رقعتها، ولا بد إذاً أن يكون له نواب يمثلونه في الولايات النائية.

ومن الفقهاء الذين تكلموا عن الخلافة ابن حزم(١) (٤٥٦/١٠٦٤) في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، والشهرستاني(٢) (١١٥٣/٥٨٤) الذي تكلم في كتابه «الملل والنحل» (جـ ٤ ص ١٦٣ ـ ١٧١) عن آراء أصحاب الفرق في الخلافة وفي إمامة الخلفاء الأول.

كما تناول موضوع الخلافة فريق من الفلاسفة والأخلاقيين الذين تأثروا بعلوم اليونان وفلسفتهم، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون. ومن فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بما كتبه أفلاطون في جمهوريته: أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٩٥٠/٣٣٩، والذي عاصر سيف الدولة الحمداني واتصل به اتصالاً وثيقاً وتأثر بفلسفة أفلاطون في جمهوريته، فتكلم على دولة تعتبر مثلاً أعلى عند الفلاسفة. وقد أفرد الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» باباً عنون له بباب «القول في العضو الرئيس»(٣)، (وهو الخليفة والإمام في العرف الإسلامي) تعتبر مثلاً أعلى على رأسها الفلاسفة.

وقد شبه الفارابي الدولة بالكون الذي ينتظم عوالم متناسقة بدرجاتها المختلفة، تخضع لسلطان الله سبحانه وتعالى، كما شبه الكون بالروح الإنسانية من حيث مقاييس الذكاء، وبجسم الإنسان من حيث تركيب أعضائه في شكل منظم يسيطر عليه القلب. وبهذه الطريقة نفسها شبه الفارابي الدولة بنظام متعدد الدرجات. والدولة المثالية في نظر الفارابي يشرف عليها زعيم يعرف ما هي السعادة الحق، لأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى هدفه بدون هداية مثل ذلك الزعيم (الإمام أو الخليفة). ولعل الفارابي لم يعن العناية المطلوبة في بحث الحالة السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي الذي كان يعيش فيه، وأن هذه الحالة لا يمكن أن تنطبق على الخلافة إلا من الناحية النظرية ومن جهة النظرة الدينية فحسب(٤).

كذلك تعرض إخوان الصفا لمسألة الخلافة من وجهة نظرهم التي تتفق ونظرية الشيعة كما يرى أكثر الباحثين، فقالوا: إن الملوك خلفاء الله في الأرض، وإن الملك حارس الدين

---

(١) القاهرة ١٣١٧ هـ.

(٢) على هامش كتاب ابن حزم.

(٣) ص ٧٠ ـ ٨٠.

(٤) Arnold, The Caliphate, pp. 121-122

وحارس الرعية، فهو يحمل رعيته على الإذعان لأحكام الدين ونواهيه ؛ وهذا يتفق مع النظرية الإسلامية العامة. ومن هؤلاء نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي[١] وقد تناول موضوع الحكومة في كتابه سياسة نامه الذي وضعه سنة ٤٨٥ (١٠٩٢ م)، فبحث مسألة إعداد الحكام وإدارة الدولة.

ومن أولئك الفلاسفة والأخلاقيين شهاب الدين سهراوردي (١١٩١/٥٨٧) الذي تأثر في كتابه «حكمة الإشراق» بما كتبه أفلاطون في جمهوريته، ونصير الدين الطوسي الشيعي الذي دخل في خدمة هولاكو التتاري وحثه على إزالة الخلافة العباسية، وصحبه في حصار مدينة بغداد سنة ١٢٥٨/٥٦٦ . فقد وصف في كتابه «أخلاقي ناصري» الإمام (أي الخليفة) كحاكم مثالي كما فعل أفلاطون وأرسطو من قبله، وكان نصير الدين الطوسي من أبرز الكتاب الذين خلفوا لنا مؤلفات في الدين والفلسفة.

وقد عني ببحث موضوع الخلافة في العصر الأخير بعض المستشرقين من أمثال متز وجولدتسيهر وسير توماس أرنولد، وغيرهم مثل عبد العزيز الدوري، وحسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن في كتاب (النظم الإسلامية)، وقد نقل إلى الأردية والفارسية.

ويرى ابن خلدون (ت ١٤٠٥/٨٠٨) أن الخلافة تطورت وتحولت عما كانت عليه في صدر الإسلام، وأنه لم يكن بأس من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أياً كانت جنسيتهم. ويقرر ابن خلدون نظريته التي تقوم على العصبية المطلقة لا العصبية القرشية التي بدأت عقب وفاة الرسول واختلاف الصحابة فيمن يخلفه، ويرى أن الإسلام في جوهره لا يفرض هذه العصبية القرشية على المسلمين. ونلاحظ أن ابن خلدون قد طبق روح عصره تماماً، إذ رأى الخليفة في القاهرة في عصر المماليك لا يملك من أمر المسلمين شيئاً، وأن الخلافة قد أصبحت صورية، وبذلك قرر نظريته وهي أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصبية المطلقة[٢].

بذلك نرى ابن خلدون يختلف مع جمهور السنة الذين يرون حصر الخلافة في قريش، ومع الشيعة الذين يريدون قصر الخلافة أو الإمامة على أسرة الرسول وفي بيت علي وأبنائه من بعده. كما يختلف مع الخوارج الذين يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر، ثم اشترطوا الإسلام والعدل، ومع المعتزلة الذين يقولون إن الإمامة اختيار من الأمة سواء أكان المرشح قرشياً أم غير قرشي.

---

(١) Siasset Naméh, 3 vols, (paris, 1891, 1897)

(٢) ابن خلدون: مقدمة ص ١٩٣ ـ ١٩٦.

بل لقد خالف ابن خلدون ابن حزم (ت ٤٥٦/١٠٦٤) برغم تقديره له واتخاذه إياه قدوة ونبراساً له في تاريخ المغرب والدين بصفة خاصة، إذ جعل ابن حزم أمر القرشية الشرط الأساسي الأول في الإمامة، كما لم يجوز خلع الإمام إذا ظلم، بل أشار بمنع المسلمين إياه من الظلم، فإذا لم يمتنع كان لهم أن يعزلوه[١].

٢ ـ الخلافة العباسية في عهد سلاطين السلاجقة:

لم تختلف حالة الخلفاء العباسيين أيام السلاجقة اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بني بويه. وكان هؤلاء الخلفاء في أيام السلاجقة يعيشون من إقطاعات مقررة كما كانت الحال في أيام بني بويه، ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة. وكانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها.

على أن معاملة السلاجقة السنيين للخلفاء العباسيين كانت أحسن بكثير من معاملة البويهيين الشيعيين لهم؛ يدل على ذلك ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع بعضد الدولة ابن بويه الذي لم يكن همه إلا إظهار ما كان يتمتع به من نفوذ وسلطان أمام رسول الخليفة الفاطمي العزيز.

كما تتجلى هذه العلاقات الطيبة التي سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة في هذه الخلع التي كانوا يتبادلونها؛ فقد كان الخليفة إذا ما ارتقى العرش يبعث في طلب السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا، كما كان السلطان السلجوقي يلتمس بعد توليته السلطنة التفويض من الخليفة العباسي[٢]. ويعزو المؤرخون هذه العلاقات الحسنة إلى هذه الحقيقة، وهي أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني مذهب الخلفاء العباسيين. وذكر سيرتوماس أرنولد في كتابه الخلافة «أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي لا لمركزه السياسي بل لأنه خليفة رسول الله»[٣].

كما تظهر تلك العلاقات واضحة جلية في ارتباط البيتين السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة. فقد تزوج طغرلبك من ابنة الخليفة القائم، الذي زوج ابنه المقتدي من ابنة السلطان ألب أرسلان (٤٦٤ هـ). كذلك تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ) من ابنة السلطان ملكشاه في سنة ٥٠٢ هـ، وتزوج الخليفة المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ) من فاطمة بنت محمد بن ملكشاه أخت السلطان محمود[٤].

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١١١.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٤٠ ـ ٦٤.
(٣) The caliphate p. 80
(٤) ابن الأثير: ج ١٠ ص ٨، ٢٩، ١٩٩.

على أن هذه الروابط الوثيقة لم تحل دون قيام النزاع بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة الذين تعدوا على حرمة الخلافة إذا ما تدخل الخليفة في شئون الحكم. وقد ذكر سير توماس أرنولد[1]: أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب «ظل الله» الذي كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم، وأنهم أخذوا من الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) بردة الرسول التي كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية كذلك لقب ملكشاه نفسه بلقب «أمير المؤمنين»، ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء انفسهم[2].

٣ ـ عودة النفوذ إلى الخلفاء العباسيين ـ المقتفي والمسترشد:

وإن حسن معاملة سلاطين السلاجقة للخلفاء العباسيين بوجه عام قد أحيت في نفوسهم الأمل في إعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان، حتى إنهم استطاعوا في أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشيء من السلطة، وبخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقي.

ولما آلت الخلافة إلى المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥/١١٣٦ ـ ١١٦٠) عول على ترسم خطى آبائه، ونجح كثيراً في هذه السبيل. وقد دخل النزاع بين الخليفة المقتفي والسلطان مسعود في طور جديد. وكان هذا الخليفة ـ كما يقول السيوطي[3]: «قد حدد معالم الإمامة ومهد رسوم الخلافة، ولم تزل جيوشه منصورة حيثما يممت». وقد حاصر السلطان مسعود مدينة بغداد، ولكنه عاد مخذولاً.

٤ ـ احتفاظ الخلفاء العباسيين بسلطتهم الدينية:

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي قد أصبح طوال عصر انحلال الدولة العباسية ألعوبة في أيدي أمراء الأتراك أولاً، ثم في أيدي بني بويه والسلاجقة ثانياً، ظل محتفظاً

---

(١) Ibid., p. 80

(٢) ذكر البنداري (تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥، ٢٣٤، ٢٤٢) أن سنجر تلقب بلقب ملك عشرين سنة وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية، كما تلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين. وذكر ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ٧١ ـ ٧٤) أنه تلقب بلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين. وذكر ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) أن الخليفة المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥) خلع على عماد الدين زنكي كثيراً من الألقاب مثل الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحد عماد الدين، عمدة السلاطين قاهر الكفرة والمتمردين، أمير العراقين والشام نصير أمير المؤمنين.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢.

بسلطته الدينية في عهد السلاجقة، كما كان محتفظاً بها عند غيرهم من الأمراء المستقلين، لأنه قد ثبت في أذهان الناس أن الخلافة نظام لا بد منه لصلاح العالم واستقامة أموره، وأن الخليفة هو مصدر السلطات. لذلك نرى كثيراً من أمراء المسلمين الذين كونوا إماراتهم بقوة السيف يعترفون بسلطة الخليفة الدينية ويلجئون إليه للحصول على تفويض بالحكم باعتباره خليفة النبي ﷺ ومصدر قوة المسلمين.

وإنما لجأ هؤلاء الأمراء الذين وصلوا إلى الحكم بالقوة إلى هذه السياسة ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر الشعوب المحكومة. نعم! لقد اعترف بالخليفة العباسي السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١/٩٩٨ - ١٠٣٠)، كما اعترف يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بخلافة المقتدي العباسي (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ)، وطلب إليه أن يعطيه تفويضاً شرعياً بتثبيته في حكم بلاده.

من ذلك نرى أن الخلفاء العباسيين ما زالوا يتمتعون في ذلك الوقت بسلطة أدبية كبيرة في داخل بغداد وفي خارجها. ويقول سير توماس أرنولد: إن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يعارض في شيء، بل يحتمل أنه كان يقابل مثل هذه المطالب بالارتياح والقبول، لأنها اعتراف بسلطته النظرية في وقت امتدت فيه رقعة الدولة الفاطمية على حساب الدولة العباسية المنحلة المتداعية(١). على أن الدولة الفاطمية ما لبثت أن تطرق إليها الوهن والانحلال، فسقطت في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م)، وظهر على مسرح السياسة صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي خطب للخليفة المستضيء العباسي (٥٦٦ - ٥٧٥/ ١١٧٠ - ١١٨٠) على منابر مصر واليمن وسورية، فمنحه هذا الخليفة تفويضاً بحكم هذه البلاد، كما منح الخليفة المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠/١٢٢٦ - ١٢٤٢) نور الدين عمر (١٢٢٩ - ١٢٤٩ م) تفويضاً بحكم بلاد اليمن، وأعطى مثل هذا التفويض إيلتتمش Iltutmish أحد الملوك العبيد الذي اتخذ مدينة دلهي حاضرة لمملكته، ومنحه لقب سلطان، فنقش اسم الخليفة على السكة.

٥ - زوال الخلافة العباسية في بغداد:

بموت مسعود سنة ٥٤٧ هـ أفل نجم البيت السلجوقي وتقاسمت ملك السلاجقة دول شتى عرفت باسم دول الأتابكة.

وفي مستهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كانت هناك دويلات إسلامية منفصلة متعادية في غربي آسيا وشمالي إفريقيا، فكانت مصر وفلسطين ومعظم بلاد

---

(١) Arnold p. 83.

الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي وبسط السلاجقة سلطانهم على آسيا الصغرى، في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية لا تزال قائمة في بغداد. كما قامت في الشرق إمبراطورية خوارزم على أنقاض الدولة السلجوقية، ونشر أمراؤها سلطانهم بين نهري الكنج (بالهند) ودجلة (بالعراق)، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند.

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسي وخوارزمشاه، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزمشاه، حتى يأمن شره ويحول بذلك دون ما يحدق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزمشاه. وفي شهر نوفمبر سنة ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) سار هولاكو بالتتار إلى بغداد، واستولى عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)[1].

وقد ذبح المغول السواد الأعظم من الأهلين، وأضرموا النيران في المدينة، وقتل الخليفة المستعصم وأولاده وزالت الخلافة العباسية من العراق كما تقدم في الباب الرابع.

٦ ـ تعدد الخلافة في المغرب والأندلس وغيرهما:

كان الشائع على ألسنة العلماء أن الخلافة لا يمكن أن تكون متحدة إلا في شخص خليفة واحد، وإن وجد أكثر من خليفة، فإن سلطانه يكون غير شرعي، بل تجب محاربته والقضاء عليه. ولكن بعد أن ضعفت الخلافة العباسية ولم يعد للخليفة شيء من السلطان تعدد الخلفاء:

١ ـ فقامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب أولاً (٢٩٧ هـ) ثم مصر ثانياً (٣٦٢ هـ).

٢ ـ وقامت الخلافة الأموية ببلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) الذي تلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر بعد أن قنع أسلافه بلقب «بني الخلفاء»، وبذلك أصبح هناك ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ثم مصر، والخلافة الأموية بالأندلس، كما تلقب حكام الموحدين في المغرب الأقصى فيما بعد بلقب أمير المؤمنين.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الخلافة العباسية قامت على الحق الإلهي في الحكم، وأن الخلافة الفاطمية قامت على نظام التوريث الذي كان سائداً عند الفرس أيام آل ساسان،

---

(١) الفخري ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧.

وأن الخلافة الأموية بالأندلس لم تستمد من الله سبحانه ولا من الشعب، وإنما هي نتيجة قوة عبد الرحمن الثالث، كما كان نظام الخلافة الموحدية في المغرب وراثياً.

٣ ـ وفي سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) اتخذ حاكم سجلماسة (جنوبي جبال أطلس) لقب أمير المؤمنين.

٧ ـ المرابطون والخلافة العباسية:

(أ) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين

كانت الثورات في المغرب الأقصى أشد منها في سائر شمالي إفريقية وقد ساعد على ذلك بعد هذه البلاد عن القيروان ثم المهدية فالمنصورية حاضرة الفاطميين، ومناعة جبال المغرب، ووعورة الطرق، الشيء الذي لم يكن مألوفاً لدى العرب الفاتحين.

وعلى الرغم من أن المرابطين في المغرب كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لم يلقب أحد منهم نفسه بلقب خليفة أو أمير المؤمنين لأن الظروف السياسية لم تساعدهم على منافسة الخلافة العباسية أو التغلب عليها في عهد السلاجقة، فقد خطب إدريس الأول في البربر يوم أخذت له البيعة فقال: «أيها الناس! لا تمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا». ولهذا اكتفى الأدارسة بلقب «إمام» الذي شاع في مخاطبتهم وكتاباتهم. وهذا اللقب هو اللقب الذي أطلقه الشيعة على الأئمة العلويين مما يقدم دليلاً على أن الأدارسة كانوا متأثرين بمبادىء الشيعة وإن لم يتعصبوا أو يغالوا في ذلك إذ أنهم نصروا مذهب السنة ونشروه بالمغرب. وقد ذكر ابن خلدون أن إدريس الأول بنى بمدينة تلمسان مسجداً صنع به منبراً كتب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة ١٧٤ هـ.

على أن الفاطميين لما استولوا على إفريقية (وهي بلاد تونس الحالية) وأقاموا خلافتهم في القيروان سنة ٢٩٧ هـ، امتنع الأدارسة عن الاعتراف بخلافتهم في بادىء الأمر، وعزلهم موسى بن أبي العافية في رقعة ضيقة من ناحية الريف والغرب. أصبح النفوذ في المغرب يتداول بين الفاطميين والأمويين، حتى أعلن الحسن بن جنون آخر أمراء الأدارسة ولاءه للفاطميين واغتيل بسبب تقربه إليهم. أما الزناتيون الذين حكموا المغرب نحو قرن ونصف قرن قبل قيام الدولة المرابطية، فإنهم لم يذعنوا للفاطميين إلا في سنة ٣٠٧ هـ، وظلوا على

ذلك حتى زالت الخلافة الأموية في الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري. وكان الزناتيون أكثر ميلاً إلى الأمويين.

يمتاز النظام السياسي في الدولة المرابطية في جملته بالبساطة. ولم يدر بخلد عبد الله ابن ياسين منذ بث تعاليمه في الصحراء أنه سيقيم دولة، بل كان كل همه منصرفاً إلى نشر التعاليم الإسلامية على وفق مذهب مالك كما ذكرنا.

أما اتخاذ المرابطين لقب أمير المسلمين فإنه يرجع إلى عوامل داخلية وخارجية انتهت بقيام دولتهم. وتنحصر العوامل الداخلية فيما يلي:

أولاً: العامل السياسي، وذلك أن مملكة غانة قد ظهرت في مستهل القرن الخامس الهجري بمظهر القوة والعظمة، وفي مستهل هذا القرن سيطر الملثمون على تجارة السودان وعزموا سنة ٤٣٢ هـ على الاستيلاء على أهم مراكز الغانيين التجارية، وهي مدينة أودغشت القريبة من نهر النيجر شمالي شرقي مدينة تمبكتو. على أن الملثمين انهزموا أمام الغانيين، ثم جمعوا صفوفهم ويمموا شطر الشمال، وقاتلوا الزناتيين المتنازعين المتنافرين في سجلماسة ونواحيها ومهدوا بذلك السبيل لقيام الدولة المرابطية.

ثانياً: العامل الاقتصادي. فقد كانت الحرب التي نشبت بين الملثمين والغانيين في الواقع نزاعاً على الطريق التجاري الذي يمر بسجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً، إذ كان أهل السودان يتبادلون السلع التجارية مع أهل الجنوب، فيرسلون إليهم التبر والصوف والإبل، على حين يرسل أهل الشمال القمح والقطاني ويسيطرون على تجارة الملح ويستولون من القوافل على مورد هام من المكوس. فلما أقصى الغانيون الملثمين من أودغشت، فقد هؤلاء هذه الموارد وفكروا في الزحف شمالاً، وكونوا الدولة المرابطية التي كان لها أثر بعيد في حياة المغرب الاقتصادي.

ثالثاً: العامل الديني، وذلك أن الأشراف في قبائل الملثمين كانوا يؤلفون الطبقة الأرستقراطية. وقد فرض الزناتيون المكوس في سجلماسة، وعمل المرابطون على إقامة حدود الدين ونشر الإسلام في كافة أرجاء المغرب، وأسسوا دولة أخضعت المغرب ومدت نفوذها من طنجة شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً ومن وادي شلف شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى بلاد الأندلس شمالاً.

أما العوامل الخارجية التي ساعدت على قيام دولة تعيد إلى المغرب الإسلامي وحدته وتصد عنه هجمات أعدائه وتحافظ في ظل الخلافة العباسية على مبدأ الوحدة الإسلامية في

وقت تفككت فيه عرى العالم الإسلامي ونشط النصارى إلى استعادة أملاكهم بالأندلس. فقد أخذ نفوذ الفاطميين في الضعف، واستولى السلاجقة على بغداد، وأخذ المسلمون يدخلون في ذلك الصراع العنيف مع الصليبيين، واحتل النورمنديون المهدية وزويلة من يد الصنهاجيين سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م)، ثم عادوا فاحتلوهما في سنتي ٥١٧، ٥٤٤ هـ، واحتل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م)، ودخل المرابطون في حروب مع قشتالة وأراغون في الأندلس. ولم يكن يحيى بن إبراهيم الجدالي شيخ لمتونة ولا عبد الله ابن ياسين يفكران في إقامة دولة وراثية. ومع ذلك فقد كانت إقامة هذه الدولة هي السبيل الوحيد إلى إنشاء نظام حكومي يضمن له الاستقرار ويتلاءم مع الأوضاع التي كانت سائدة بهذه البلاد في ذلك العصر.

ولم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة، لسوء اعتقادهم فيهم وعدائهم لهم بسبب تدخلهم في شئونهم، وتضامناً مع حلفائهم صنهاجة الذين قطعوا الخطبة للفاطميين سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م). لذلك عدل المرابطون عن طريق مصر حين رحلوا لأداء فريضة الحج، برغم ما قام به أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر الفاطمي من جهود في سبيل استمالتهم[١]. وكان المرابطون ينظرون إلى الخليفة العباسي نظرة أسمى من نظرتهم إلى الخليفة الفاطمي، رغبة في المحافظة على الوحدة الإسلامية كما ذكرنا، ولأنهم كانوا لا يخشون الخلافة العباسية التي تطرق إليها الضعف والانحلال.

(ب) المرابطون والخلافة العباسية

وقد نقش المرابطون اسمهم على السكة سنة ٤٥٠ هـ؛ وكانت تحمل اسم عبد الله أمير المؤمنين[٢]. وهكذا اتخذت الدولة المرابطية مقومات الدولة بعد أن استولى أمراؤها على جزء كبير من بلاد المغرب ولا سيما على سواحل المحيط الأطلسي وجزء كبير من الصحراء. ويرجح أن اسم عبد الله الذي نقش على السكة حتى نهاية الدولة المرابطية يقصد به الخليفة العباسي، حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين؛ يدل على ذلك اسم عبد الله الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ) إلى علي بن يوسف بن تاشفين[٣] على أن اسم هذا الخليفة هو أحمد. ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب (عدا طنجة وسبتة[٤] وناحية تازا) واستقرت الدولة المرابطية في مراكش التي بنيت سنة ٤٥٤هـ، كان

(١) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٣٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤.
(٣) الحلل الموشية ص ١٧.
(٤) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٣٨٠.

طبيعياً أن يتخذ أمير المرابطين لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه. وقد رأى رؤساء المرابطين أن يتخذ يوسف بن تاشفين لنفسه لقب «أمير المؤمنين»، ولكنه أبى ذلك **وقال**: «حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم، وإنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راحلهم (رحلهم على الأصح) والقائم بدعوتهم»(١). وإنما تسمى يوسف بن تاشفين ـ كما يقول السلاوي ـ بهذا الاسم، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة(٢). ومنذ ذلك الحين اتخذ يوسف بن تاشفين لقب «أمير المسلمين وناصر الدين». وسار على ذلك أمراء المرابطين من بعده. وقد اتخذوا السواد شعار العباسيين شعاراً لهم في ملابسهم وأعمالهم. وإنما لجأ المرابطون إلى هذه السياسة لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية، وقد كتب يوسف بن تاشفين بذلك إلى عمال دولته وأعيانها، وقد جاء في هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل «فلانة» أدام الله كرامتهم ووفقهم لما يرضاه ـ سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر، وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر. وإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله في منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة. وإنه لما مَنَّ الله علينا بالفتح الجسيم، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة بروض النعيم، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المسلمين وناصر الدين. فمن خطب الخطبة العلية السامية، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام»(٣).

ولم يتصد المؤرخون لذكر السنة التي اعترف فيها الخليفة العباسي بإمرة يوسف بن تاشفين الذي بعث إلى الخليفة المقتدي، على ما ذكر ابن خلدون(٤)، سفراء يطلبون منه الاعتراف بإمرته فأجابه الخليفة إلى ما طلب.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين وناصر الدين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة على ألفونس السادس وحلفائه من المسيحيين بالأندلس في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧ م)، وأن أول من دعاه بهذا اللقب هو

---

(١) الحلل الموشية ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٥٢.
(٣) الحلل الموشية ص ١٨.
(٤) العبر ج ٦ ص ٣٨٦.

المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وأقره على ذلك الخليفة العباسي. وعلى أن يوسف بن تاشفين اتخذ هذا اللقب، على ما ذهب إليه بعض المؤرخين، في سنة ٤٦٦ هـ أي قبل موقعة الزلاقة بثلاث عشرة سنة.

وقد ذكر صاحب كتاب الحلل الموشية (ص ١٧) أن زعيم المرابطين كان يلقب أول الأمر بلقب أمير المرابطين. وكان الأمير أبو بكر بن عمر أول من تلقب به بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ ولما سار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لحرب أعداء قبيلة لمتونة أصحاب اللثام في الجنوب، وخلف مكانه يوسف بن تاشفين، أطلق عليه أمير المغرب (أي المغرب الأقصى)؛ وكان هذا هو أول لقب تلقب به يوسف بن تاشفين الذي ظل من الناحية الرسمية عاملاً على المغرب من قبل أبي بكر بن عمر. وظل ابن تاشفين أميناً على عهده لأبي بكر بن عمر حتى توفي أبو بكر سنة ٤٨٠ هـ. يدل على ذلك أن السكة المغربية ظلت تحمل اسم أبي بكر بن عمر إلى سنة ٤٨٤ هـ. ولما استنجد المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بيوسف بن تاشفين مستنصراً إياه على ألفونس السادس زعيم المسيحيين في الاندلس ولبى نداءه، تلقب يوسف بن تاشفين بلقب أمير جند المسلمين، وذلك مقابل تسمية ألفونس السادس أمير المسيحيين.

لما انتصر يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة المشهورة، لقبه المسلمون بهذا اللقب تقديراً لجهاده وانتصاره على المسيحيين[1]. وقد ذكر ابن الأثير[2] أن ابن تاشفين لما عاد من بلاد الأندلس ودخل مدينة مراكش حاضرة ملكه خاطبه علماء الأندلس بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة العباسي المقتدي في الخطبة ويأتيه عنه تقليد بإقراره، فأرسل رسله إلى الخليفة المقتدي ببغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب أمير المسلمين وناصر الدين[3].

وقد قامت حول هذا اللقب مشكلة شرعية وهي: هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٧.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٥٧.

(٣) وقد ذكر ابن الأثير (ج ١٠ ص ١٥٦) أن يوسف بن تاشفين عندما استولى على بلاد الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم فقالوا له: ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة فتجب طاعتك على الكافة، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢) رسولاً يحمل هداياه ومعه كتاب يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنجة في الأندلس وما قام به في سبيل نصرة الإسلام، ويطلب إليه تقليداً بولاية البلاد التي دانت له. فبعث إليه الخليفة تقليداً بالحكم ولقبه أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع.

ليوسف بن تاشفين: باعتباره أميراً للمسلمين؟ على أن يوسف لم يصرح للخطباء بإقامة الدعوة له إلا بعد أن أرسل بعثة من رجال الدين إلى الخليفة العباسي المستظهر يستفيته في جواز حمل هذا اللقب، فلم ير الخليفة بدأ من عرض هذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برياسة الإمام الغزالي سنة ٤٨٤ هـ وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين في موقعة الزلاقة. وهذا يدل دلالة واضحة على أن يوسف كان يصدر في أعماله عن وازع ديني لا جرياً وراء الشهرة، لأن حياته كلها كانت تتسم بالزهد والتقشف.

على أن هناك شروطاً أخرى يجب أن تتوافر فيمن يرشح لإمرة المسلمين في الدولة المرابطية، وهي أن يكون من قبيلة لمتونة ومن بيت وتطرن (بفتح الواو والتاء والطاء وسكون الراء والنون) بالذات، وأن يكون ذا كفاية حربية عالية، وأن يسير في سياسته على وفق تعاليم مذهب مالك، وأن يرجع في إدارة دولته إلى رؤساء القبائل، ويعمل برأي الفقهاء في الأمور السياسية والدينية[١].

وقد تأثر شعب النيجر بصفة عامة وشعب الفلاني (بضم الفاء) في إفريقيا بصفة خاصة بأمراء المرابطين، فأطلقوا على حكامهم لقب أمير المسلمين. وكان مذهبهم هو مذهب مالك، مما يحمل على الظن أن شعب النيجر قد تأثر بالمرابطين الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في حوض النيجر[٢] وأنهم أخذوا بتلك الشروط التي وضعها المرابطون لمن يرشح لحكم الدولة المرابطية.

٨ ـ الخلافة الموحدية:

كان الموحدون يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم، لأنهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً. ولا غرو فقد استولى الموحدون على الأندلس، وامتد نفوذهم إلى طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً، وحاولوا في عهد يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ) الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي، وكان عصرهم في المغرب والأندلس من أزهى العصور.

وقد أقر المهدي محمد بن تومرت عبد المؤمن بن علي على الجيش، وقال لأتباعه:

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٢٣.

«أنتم المؤمنون وهذا أميركم»(١). وبهذا لم يجد أتباع المهدي بن تومرت حرجاً في أن يلقبوا عبد المؤمن بلقب أمير المؤمنين بعد أن خلف المهدي في زعامة الموحدين. وبذلك اتخذ عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب لقب خليفة وتسمى أمير المؤمنين(٢)، ولا سيما أنه كان ينتسب أيضاً إلى بيت النبوة. وبذلك حددت رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال (٥٦٧/١١٧١).

٩ ـ الحفصيون والمرينيون:

وبعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس (٦٦٧/١٢٦٨) ظلت الدعوة الموحدية في إفريقية (وهي بلاد تونس الحالية) حيث أقيمت على أيدي الحفصيين (٦٢٥ ـ ١٢٢٨/٩٤١ ـ ١٥٣٤)، وهم نوع من الموحدين، ينتسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاتي (من هنتاتة إحدى بطون مصمودة). وقد قام الشيخ أبو حفص يحيى بدور هام في نشر دعوة المهدي محمد بن تومرت وفي إسناد الخلافة الموحدية إلى عبد المؤمن بن علي ودعم نفوذ الموحدين في المغرب والأندلس، بفضل زعامته لقبائل مصمودة التي تعتبر أكبر قبائل المغرب كافة(٣). ويرى أكثر المؤرخين أن الحفصيين ينتسبون إلى جدهم أبي حفص عمر، وقيل إنهم ينتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وبفضل انتساب الحفصيين إلى قريش وانتسابهم إلى الرسول وقرابتهم من الموحدين، استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صبغة شرعية وأن يؤسسوا دولة مستقلة امتد نفوذها الأدبي في عهد السلطان أبي زكريا الحفصي ٦٢٦ هـ من طرابلس شرقاً إلى سبتة غرباً وإلى سجلماسة جنوباً. وأعلن ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر في سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م)، أي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي التتار وقتل الخليفة المعتصم العباسي بسنة واحدة.

وعلى أثر ذلك بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصي باعتباره وارثاً للخلافة

---

(١) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٨.

(٢) وفي السنة الرابعة من ولاية عبد المؤمن أمر بسك نقود جديدة مربعة الجوانب تمييزاً لها عن نقود المرابطين ونقش على أحد وجهيها: «لا إله إلاّ الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله»، وعلى الوجه الآخر «الله مولانا ومحمد رسولنا والمهدي إمامنا».

(٣) المراكشي: المعجب ص ٣٣٩ ـ ٣٤١.

العباسية ودعا له على منابر بلاده ولقبه أمير المؤمنين[1]. وبذلك أكسبت هذه البيعة الخلافة الحفصية صبغة شرعية، وأقيمت الخطبة للخليفة الحفصي على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسيس دولتهم بالخليفة الحفصي. كما أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين في موقعة العقاب (Das Navas de Tolosa) في ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م)، وزال سلطان الموحدين، وسقطت هذه البلاد في أيدي الأسبان ولم يبق في أيدي المسلمين سوى منطقة جبلية في جنوب شرقي أسبانيا، حيث قامت مملكة غرناطة الإسلامية على أيدي بني نصر أو بني الأحمر الذين بايعوا الخليفة الحفصي أقوى حكام المغرب في ذلك الحين، وأقاموا له الخطبة على منابرهم، وذلك لحماية دولتهم الناشئة من إغارات الأسبان.

وقد اقتدى بنو مرين في المغرب الأقصى (٥٩١ ـ ١١٩٥/٨٧٥ ـ ١٤٧٠)، وبنو زيان[2] في المغرب الأوسط (٦٢٣ ـ ١٢٣٥/٧٩٦ ـ ١٣٩٣)، الذين كون كل منهم دولته على أنقاض الدولة الموحدية، بملوك بني نصر الأحمر، في غرناطة، فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصي لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر شعوبهم. وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن أقام يعقوب المنصور الذهبي المريني (٦٥٦ ـ ١٢٥٨/٦٨٥ ـ ١٢٨٦) الدعوة لنفسه. وبذلك ظهرت في المغرب الكبير خلافة قوية هي الخلافة الحفصية التي امتد سلطانها الروحي على بلاد الحجاز شرقاً، وإلى المغرب والأندلس غرباً، وغدت حاضرتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب إليها السفراء والعلماء من كافة أرجاء العالم.

ويذكر السلاوي الناصري أنه برغم تأصل الدعوة الموحدية في نفوس أهل المغرب، رأى بنو مرين أنهم بحاجة لتأييد الحفصيين، فأقاموا الدعوة لهم «تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم وإثباتاً لهم من ناحية أهوائهم، إذ كانت صبغة الدولة الموحدية قد رسخت في قلوبهم»[3].

ولعل بني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناتة خطبوا ود الحفصيين المصامدة الذين هم أشد قبائل المغرب وأكثرهم عدداً ولم ينسوا ما لحق بهم من هزائم على أيدي المصامدة الذين أقاموا الدولة الموحدية، فكانت مسالمة المرينيين للحفصيين سياسة تدل على بعد النظر.

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٦ ـ ٢٠٠.

(٢) أو بنو حمود أو بنو عبد الواحد أو بنو يغمراسن.

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ٢٨.

وقد شعرت مصر بخطر الخلافة الحفصية التي كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سورية والحجاز، تلك السياسة التي كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التي كانت مصر تنتهجها منذ عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ)، فحرصت مصر على مد سلطانها إلى الحجاز والسيطرة على تجارة البحر الأحمر، وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذي يرجع إليه الفضل في صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو في موقعة عين جالوت[1] المشهورة، وبالصليبيين في الشام؛ حرصت على إحياء الخلافة في مصر بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م). وكان بيبرس يرمي من وراء ذلك إلى تقوية عرشه وجعل حكمه شرعياً في البلاد، كما كان يرمي إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر، وإلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدبي في المشرق.

ولما دب الضعف إلى الخلافة الحفصية أبطل يعقوب المنصور المريني الدعوة للحفصيين بالأندلس والمغرب، واتخذ ملوك بني الأحمر في غرناطة لقب خليفة، وأخذ بنو مرين يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على حاضرتهم تونس غير مرة، وتلقب سلاطينهم بلقب أمير المسلمين[2].

وفي سنة ٦٥٦ هـ سقطت الدولة العباسية، فانتهت الخلافة بنظامها القديم، واختل نظامها حتى أصبح في استطاعة كل أمير قوي تغلب على بلد من البلاد الإسلامية أن يلقب نفسه بلقب خليفة، ولم ير ما يدعو إلى الالتجاء إلى الخلفاء العباسيين في القاهرة للحصول على تفويض شرعي بالحكم. ولذلك نرى المغول بعد أن اعتنقوا الإسلام لا يحلفون بالخلفاء العباسيين في القاهرة؛ ففي فارس اعتنق غازان (١٢٥٩ - ١٣٠٤ م) الإسلام، ودعي له على المنابر بهذه الألقاب وهي «السلطان الأعظم وسلطان الإسلام والمسلمين»، وتلقب الشاه رُنّ (بضم الراء وسكون النون مع التشديد) بلقب، خليفة، وتلقب أبو عنان فارس (١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) أحد أمراء الأسرة المرينية في المغرب بألقاب خليفة وأمير المؤمنين وإمام، واتخذ علاء الدين خلنجي وأوزون حسن التركماني (١٤٥٣ - ١٤٨٧ م) لقب خليفة. وكذلك كان شأن محمد شيباني (١٥٠٠ - ١٥١٠ م) مؤسس دولة أزبك Uzbeck في بلاد ما وراء النهر. بل لقد أطلق سلاطين المماليك في مصر - مثل قايتباي وقانصوه الغوري - على أنفسهم لقب إمام.

وبهذا التعدد في نظام الخلافة أصبحت كلمة «خليفة» لا تدل على الحاكم الروحي

(١) هي بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين.

(٢) السلاوي الاستقصا ج ٣ ص ٢٨.

المتسلط على العالم الإسلامي، وإنما أصبحت تدل كما يقول سير توماس أرنولد[١] على مجرد حاكم، أي أن سقوط بغداد كان معناه انقراض الخلافة بمعناه التقليدي[٢].

١٠ ـ الخلافة الفاطمية

(٢٩٧ ـ ٥٦٧/٩٠٩ ـ ١١٧١)

كان قيام الخلافة الفاطمية في المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين. فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم أولاد علي كرم الله وجهه، وهو ابن عم الرسول الكريم وزوج ابنته فاطمة الزهراء. وظل العلويون يناضلون في سبيل هذه الزعامة، بالسيف تارة وبالدهاء تارة أخرى، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في المشرق.

وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته، ولقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد، قبولاً عند الخلفاء الفاطميين، وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض، كما أصبح شخصاً مقدساً.

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها الخليفة الفاطمي أو العلوي، وأمير المؤمنين ومن الألفاظ المحببة إلى الإسماعيلية، لقب إمام، وصاحب الزمان، وسلطان، والشريف القاضي، كما يظهر من مخاطبة قاضي القضاة الخليفة في صلاة الجمعة «الشريف القاضي الخطيب». وكان السنيون يطلقون عليهم «العبيديين»، نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين؛ كما كان يطلق عليهم «العلويون» نسبة إلى علي بن أبي طالب، و«الفاطميون»، نسبة إلى فاطمة الزهراء، كما كان يطلق عليهم «السلاطين». وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم، فنجد مثلاً: المعز لدين الله، والعزيز بالله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لدين الله، والمستنصر بالله.

وقد اتخذ أمراء الأيوبيين لقب «ملك». أما المماليك فقد تلقبوا بلقب «سلطان» وأصبح لقب ملك يطلق على بعض الأمراء وخاصة على بقايا الأيوبيين في بلاد الشام.

---

(١) The Caliphate, p. 88

(٢) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة ١٩٦٤) ص ٨١ ـ ٨٦.

وقد حذا الفاطميون حذو الأيوبيين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد، فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله، عهد بالخلافة إلى أحد أبنائه، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته. وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يسترد موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه. ثم أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه، كما فعل بدر الجمالي وابنه الأفضل من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبو المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده لأنه أكبر أبنائه.

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمي باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته، حتى لا يخلو العالم من إمام. وكان لهذه الطريقة ميزاتها وعيوبها، فقد كان صغر سن الخليفة وقلة تجاربه ونقص كفايته من عوامل ضعف الخلافة الفاطمية وسقوطها في النهاية(١).

وبعد وفاة الخليفة المستنصر نصب الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بن اخته أبا القاسم أحمد بن المستنصر ولقبه «المستعلي بالله». وقد أدى ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى فريقين: فريق نادى بإمامة المستعلي فسموا المستعلية، وفريق آخر نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر، فسموا النزارية.

وقد استبد بالسلطة في عهد الآمر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي. وقد اعتنق مذهب الإمامية الاثني عشرية فأبطل الموالد الأربعة التي كان يحتفل بها الفاطميون في كل سنة، وهي مولد النبي ﷺ، ومولد علي كرم الله وجهه، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الإمام الحاضر (الآمر). ولكن هذه الموالد قد أعيد الاحتفال بها بعد أن قتل الوزير الأفضل بتدبير هذا الخليفة، وذلك سنة ٥١٥ هـ.

وولي الحافظ (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ) الخلافة بعد مقتل ابن عمه الآمر بن المستعلي على يد فريق من النزارية. على أن الآمر ترك طفلاً أقام أنصار الفاطميين الدعوة له في اليمن، ولقبوه الإمام الطيب؛ وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ، وانقسمت الدعوة الإسماعيلية بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي بن المستنصر، وطيبية نسبة إلى الطيب بن الآمر حفيد المستعلي(٢).

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٢ ـ ٢٦٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٦ ـ ١٧٧، ٢٦٦ ـ ٢٦٧. انظر ما ذكرناه في الباب السابع.

وقد انتهز صلاح الدين الأيوبي فرصة مرض الخليفة العاضد الفاطمي ودعا للخليفة المستضيء العباسي (المحرم ٥٦٧/١١٧١)، كما أمر بالدعاء له أيضاً على منابر بلاد اليمن والشام وفلسطين التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية، فمنحه الخليفة العباسي تفويضاً بحكم هذه البلاد، وتم هذا التغير دون أن يلقى أية مقاومة. وفي تلك يقول ابن الأثير[١]: «فلم ينتطح فيها عنزان». ولم يلبث الخليفة الفاطمي أن توفي في العاشر من المحرم ٥٦٧ هـ.

وكان من أثر هذا التحول أن أصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة للخلافة العباسية تبعية اسمية، وأصبح يدعى للخليفة العباسي على المنابر[٢].

١١ ـ علاقة الأيوبيين بالخلافة العباسية:

ذكرنا من قبل أن صلاح الدين الأيوبي أمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء على منابر القاهرة بدل الخليفة الفاطمي العاضد الذي مات في شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) دون أن يعلم بهذا التغيير.

وقد أرسل صلاح الدين إلى نور الدين محمود صاحب حلب[٣] يخبره بذلك، فأشاد أحد الشعراء بهذا الحادث وأنشد:

قد خطبنا للمستضيء بمصر ... نائب المصطفى إمام العصر
واستنارت عزائم الملك العا ... دل نور الدين الهمام الأغر

ولما علم الخليفة العباسي بإقامة الخطبة له بمصر أرسل إلى نور الدين وصلاح الدين الخلع إعراباً عن رضاه عليهما، وبذلك اعترف الأيوبيون بالخليفة العباسي في بغداد وأقاموا له الخطبة على منابر بلادهم، ونقشوا السكة باسمه.

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب (نوفمبر ١٢٤٩) أخفت زوجته شجرة الدر خبر موته حتى لا يتطرق الضعف إلى نفوس المسلمين أمام الصليبيين الذين تقدموا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى المنصورة وكادوا يدخلون قصر السلطان. ولكن المصريين

---

(١) الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

(٢) انظر كتابي: النظم الإسلامية ص ٩٠ وما يليها.

(٣) ذكر المؤرخون أن نور الدين محمود هو الذي أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء.

بقيادة بيبرس أحلوا الهزيمة بالفرنسيين وطاردوهم وقضوا على جيشهم في موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ م وحملوهم على إخلاء دمياط.

وبذلك اشتد نفوذ المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقتلوا ابنه توران شاه لسوء معاملته لهم، وولوا شجرة الدر زوجة أبيه السلطنة؛ فقربت إليها المماليك ومنحتهم الإقطاعات وخففت الضرائب عن الناس. ولكن المصريين كرهوا حكمها، إذ لم تجر عادة المسلمين أن يتقلد حكمهم امرأة.

ولما أرسل أمراء المماليك إلى الخليفة العباسي المعتصم ببغداد يطلبون منه إقرار تولية شجرة الدر حكم مصر، أرسل كتاباً يقول فيه: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلاً»[١]. ولما علمت شجرة الدر بذلك آثرت المحافظة على كيان الدولة، وأعربت عن رغبتها في خلع نفسها من الحكم حفظاً لكرامتها من أن تمتهن بالعزل، فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيبك[٢] أتابك[٣] المعسكر، وتفوض إليه أمور المملكة، فنزلت عن حكم مصر بعد ثمانين يوماً[٤] أظهرت فيها حكمة نادرة في تصريف الأمور.

ولما تخلت شجرة الدر عن العرش نصب المماليك عز الدين أيبك سلطاناً عليهم ولقبوه المعز. على أن أيبك أثار غضب زوجته شجرة الدر بسبب خطبته إحدى أميرات الموصل فتآمرت على اغتياله، فقتل سنة ١٢٥٧ م، فانتقم له ابنه نور الدين الذي تقلد السلطنة من بعده، فأوعز إلى بعض الجواري فقتلتها. ثم اجتمع العلماء والقواد، وخلعوا نور الدين، وقلدوا قطز (بضم القاف والطاء) سلطنة مصر.

وإلى بيبرس أحد قواد المماليك يرجع الفضل في إلحاق الهزيمة بالمغول في موقعة عين جالوت[٥]. ولم يلبث أن اشتد نفوذه وتولى حكم مصر. وفي عهده انتقلت الخلافة إلى القاهرة بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)[٦].

---

(١) المقريزي: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٦٨.

(٢) بفتح الألف والباء وسكون الياء.

(٣) ومعناه مربي الأمير. وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي، الذي فوض إليه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ. وقد تحول هذا اللقب لقباً عسكرياً في عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيش.

(٤) ابن إياس: تاريخ مصر ج ١ ص ٩٠.

(٥) بليدة بين بيسان ونابلس بفلسطين.

(٦) انظر حسن إبراهيم حسن: المجمل في التاريخ المصري (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(ب) الوزارة

١ ـ الوزارة في عهد السلاجقة
٤٤٧ ـ ٦٥٦/١٠٥٥ ـ ١٢٥٨

يلاحظ على عصر السلاجقة الذي يربو على قرنين من الزمان:

(١) كثرة الوزراء الذين اشتهر بعضهم بتشجيع العلوم والآداب ومهروا في الإدارة والسياسة والحرب.

(٢) تفاقم خطر الباطنية في فارس الذين ذهب ضحيتهم كثير من الوزراء وكبار رجال الدولة العباسية الذين عملوا على قمع هذه الحركة.

(٣) مصادرة أموال بعض الوزراء وحبسهم عند عزلهم من مناصبهم لابتزازهم أموال الناس وقضاء حاجاتهم عن طريق الرشوة.

(٤) ظهور المنافسة والدس والرشوة ابتغاء الوصول إلى دست الوزراء.

ومع ذلك فقد أسندت مقاليد الوزارة إلى كثير من مشهوري الوزراء، نذكر منهم على سبيل المثال: الوزير الكُنْدري، وفخر الدولة بن جهير، وابنه عميد الدولة، وأبا شجاع، ونظام الملك وأبناءه، وابن صدقة، والشريف أبا القاسم الزينبي، وأنوشروان خالد، وابن هبيرة، ومؤيد الدين بن العلقمي الذي زالت الدولة العباسية في عهد وزارته.

بعد أن عاد الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ) إلى بغداد بمساعدة السلطان طغرلبك السلجوقي اتخذ أبا الفتح بن دارست وزيراً له[١]، فظل في الوزارة حتى خلفه فخر الدولة بن جهير سنة ٤٥٤ هـ، ثم عزل في سنة ٤٦٠ هـ ثم أعيد إلى الوزارة.

وقد اشتهر من أولاد فخر الدولة بن جهير زعيم الرؤساء، وكان يتولى ديوان الزمام، كما اشتهر منهم عميد الدولة. وقد ذكر المؤرخون أنه قد حمل رسالة الخليفة القائم إلى السلطان طغرلبك السلجوقي في الري وأنه نجح في مهمته بفضل زواجه من ابنة الوزير نظام الملك (٤٦٢ هـ)، فقدر له الخليفة كفايته ومهارته السياسية فاستوزره. وفي سنة ٤٦٣ هـ رحل عميد الدولة بن جهير إلى نيسابور يحمل هدايا القائم إلى السلطان ألب أرسلان ويطلب زواج ابنة السلطان من حفيد الخليفة.

(١)(٢) انظر البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق. ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٥٤/٤٦٧.

وعلى الرغم مما اشتهر به عميد الدولة بن جهير من المهارة السياسية كان كما وصفه ابن الأثير[١] وابن خلكان[٢] «عظيم الكبر يكاد يعد كلامه عدًّا، وكان إذا كلم إنساناً كلمات يسيرة هنىء ذلك الرجل بكلامه».

وقد ظل عميد الدولة في الوزارة حتى عزل في سنة ٤٦٧ هـ، فخلفه ظهير الدين أبو شجاع[٣] وكان أديباً فذاً ومؤرخاً لامعاً طالما أفاد المؤرخون من تاريخه الذي يتناول الكلام على الدولة العباسية من سنة ٣٦٩ هـ إلى سنة ٣٨٩ هـ، وهو الجزء الذي عثر عليه المؤرخون من تاريخه، ويعتبر ذيلاً لكتاب تجارب الأمم لمسكويه. وكان أبو شجاع يقضي بين الناس بالعدل ويجلس للمظالم بعد صلاة الظهر، فينادي الحجاب في الناس: من كانت له حاجة فليعرضها.

وكان أبو شجاع ليناً حليماً متسامحاً. فلما وقعت الفتن بين أهل السنة والشيعة في الكرخ وباب البصرة ببغداد حرص هذا الوزير العالم على تهدئة الخواطر وحال دون إراقة الدماء. ولم يؤثر عن وزير حج بيت الله أيام وزارته غير أبي شجاع والبرامكة من قبله، ثم اعتزل أبو شجاع الوزارة بعد أن أحس بكيد حساده له وتدبيرهم الدسائس من حوله، وتزهد ولبس ثياب القطن وأقام بمدينة الرسول يكنس المسجد النبوي ويفرش الحصر ويشعل المصابيح وعليه ثوب غليظ الخام[٤].

ومما يؤثر عن أبي شجاع أنه برغم زهده وعلمه أقصي عن الوزارة سنة ٤٨٤ هـ فأنشد عند عزله هذا البيت:

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق[٥]

ثم أعيد عميد الدولة بن جهير إلى الوزارة في هذه السنة[٦]. فظل فيها في السنوات الأولى من خلافة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ). وكان عميد الدولة يعمل تحت نفوذ مؤيد الملك بن نظام الملك، وانتهى أمره بالعزل والسجن سنة ٤٩٢ هـ.

---

(١) الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ (حوادث سنة ٤٦٣ هـ).
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٤.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٤. ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٦. البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨.
(٤) الفخري ص ٢٦٤.
(٥) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٧٩.

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أبو علي الحسن بن علي بن صدقة. وقد استوزره الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) سنة ٥١٣ هـ ولقبه بهذه الألقاب وهي:

«جلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين»(١).

وكان ابن صدقة عالماً بقوانين الملك واشتهر بحب الخير للناس. ولكن ظهير أمير المؤمنين لم يلبث أن عزل عن الوزارة، لأن وزير السلطان السلجوقي حقد عليه، ثم زال سوء التفاهم بين الوزيرين وأعيد ابن صدقة إلى الوزارة وخلع عليه الخليفة المسترشد وأمر أرباب الدولة أن يمشوا بين يديه إذا سار إلى ديوان الوزارة، فكان «أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه»(٢).

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أو عصر السلاجقة العظام نقيب النقباء الشريف أبو القاسم علي بن طراد الزينبي. وكان ملمًّا بقوانين الوزارة وقواعد الملك. استوزره الخليفة المسترشد سنة ٥٢٣ هـ. وقد عبر له الخليفة المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ) عن تقديره لمواهبه وكفايته بهذه العبارة وهي: كل من ردت إليه الوزارة شرف بها إلا أنت فإن الوزارة شرفت بك. وأمر أرباب المناصب العالية في الدولة بأن يسيروا بين يديه إلى ديوان الوزارة»(٣).

وقد استوزر سلاطين السلاجقة طائفة من مشهوري الوزراء من أمثال الكندري (بضم الكاف والدال وسكون النون) ونظام الملك وأبنائه وأنوشروان خالد. فقد استوزر السلطان طغرلبك (٤٢٩ ـ ٤٥٥ هـ) عميد الملك الكندري. ولما مات هذا السلطان أجلس الكندري سليمان بن داود، وكان عمه طغرلبك قد أوصى بأن يخلفه في السلطنة. على أن ألب أرسلان ثار على أخيه وجلس على عرش السلطنة من بعده بمساعدة وزيره نظام الملك. وسرعان ما قبض على الوزير الكندري وأرسل إلى مرو حاضرة خراسان حيث اعتقل أكثر من سنة، ثم قتل بأيدي غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر لطغرلبك ثماني سنين وأشهراً كما تقدم(٤).

ولما ولي ألب أرسلان السلطنة بعد عمه طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ أسند مقاليد الوزارة إلى نظام الملك وعهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه وقال له: «هذا حسن الطوسي (يعني نظام الملك)

---

(١) الفخري ص ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧١.

(٤) انظر ص ٢٠ ـ ٢١ من هذا الجزء.

فتسلمه واتخذه والداً لا تخالفه». وقد اتخذ ألب أرسلان نظام الملك وزيراً له قبل أن يجلس على عرش السلطنة.

وكان نظام الملك ساعد السلطان ملكشاه الأيمن ومدبر ملكه ومستشاره الأمين، وقد قبض هو وأولاده الاثنا عشر على زمام الأمور في الدولة السلجوقية، «فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد» على حد تعبير ابن خلكان(١).

وكان من أثر الاضطرابات التي عمت أطراف الدولة السلجوقية وما أداه نظام الملك من خدمات جليلة وما ظهر من شجاعته وكفايته في الأزمات الخطيرة أن منحه السلطان ملكشاه لقب «أتابك».

وكان نظام الملك عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت. وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء. واشتهر ببناء المدارس النظامية المشهورة، وأسقط المكوس والضرائب. وكان يجل أهل العلم ولا يشجع الشعراء لأنه لم يكن يجيد نظم الشعر.

وقد ذهب نظام الملك وأبناؤه كما ذهب البرامكة وبنو سهل من قبل ضحية الدسائس التي دبرها لهم حسادهم ومنافسوهم. ومات نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان صاحب خراسان من قبل عمه طغرلبك قبل أن يتولى السلطنة.

وقد ذكر المؤرخون أن عز الملك ابن نظام الملك أخرج بركياروق أكبر أبناء ملكشاه بعد أن قبض عليه وأرسل إلى أصبهان حيث سجن، وذلك لإفساح الطريق لجلوس أخيه الصغير محمود على عرش السلطنة بعد موت أبيه. ولما ولي بركياروق السلطنة ٤٨٧ هـ قلد عز الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته(٢).

وقد ساعد مؤيد الدولة ابن نظام الملك محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق لأنه أقصاه عن الوزارة وأسندها إلى أخيه عز الملك بن نظام الملك. وقد قام الخلاف بين هذين الأخوين على ثروة أبيهما كما قام على التنافس على الوزارة(٣).

ومن وزراء هذا العصر من أبناء نظام الملك: أبو نصر أحمد، وقد حكم بين الناس بالعدل ورفع عنهم الظلم. روى ابن طباطبا(٤) أن الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) لما عزم على

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦.
(٢) البنداري: ص ٨٠ - ٨١.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ - ١٠٨.
(٤) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٧٢.

عمارة سور بغداد فرض على الناس خمسة عشر ألف دينار، فأدى الوزير أبو نصر هذا المال عن الناس من ماله الخاص. وقد تقلد أنوشروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد الوزارة للخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة. وكان يعتذر عن قبول الوزارة. وهو الذي صنّف له الحريري «المقامات الحريرية». وقد اشتهر هذا الوزير بالتواضع حتى إنه كان يقوم لكل من دخل عليه كبيراً كان أو صغيراً.

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول: محمد بن محمد جهير(١) ومؤتمن الدولة ابن صدقة ويحيى بن هبيرة. وقد جمع ابن هبيرة بين السياسة والعلم وبين الطيبة والدهاء وبين القلم والسيف. وإليه يرجع الفضل في إزالة آخر نفوذ للسلطان السلجوقي في العراق وإعادة هيبة الخلافة(٢) في عهد المقتفي العباسي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ). «ورزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه أحد حتى زاد ما مدح به من القصائد على مائتي ألف بيت»(٣).

ولما استوزر الخليفة الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) مؤيد الدين بن العلقمي خلع عليه الوزارة، فجلس في كرسي الوزارة والناس بين يديه، فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف في قدر الخنصر بخط يد الخليفة، فقرىء على الناس وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم! محمد بن العلقمي نائبنا في البلاد والعباد. فمن أطاعه فقد أطاعنا، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن أطاع الله أدخله الجنة؛ ومن عصاه فقد عصانا، ومن عصانا فقد عصى الله، ومن عصى الله أدخله النار»، فسما العلقمي بهذا التوقيع في أعين الناس وعلت منزلته(٤).

وكان مؤيد الدين بن العلقمي آخر وزراء الخلفاء العباسيين وكان كما وصفه صاحب الفخري من أعيان الناس وعقلاء الرجال. وقد عرف بشغفه بالكتب وتقريب أهل العلم ورجال الأدب. وكان عفيفاً عن أموال الناس مترفعاً عن أموال الدولة. وقد رماه خصومه بأنه زين للخليفة المستعصم تسليم بغداد لهولاكو وأنه اتفق مع نصير الدين الطوسي وزير هولاكو على ذلك. وكان كل من هذين الوزيرين يدين بعقائد المذهب الشيعي.

وقد عزا بعض المؤرخين ما قام به الوزير ابن العلقمي إلى ما حل بالشيعيين من الاضطهادات على يد أكبر أبناء الخليفة المستعصم. على أن موت هذا الوزير العالم النزيه

---

(١) الفخري ص ٣٦٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٩ ـ ٣٦٣.
(٣) انظر ما كتبه الدكتور جواد علي في مجلة الأستاذ (بغداد ١٩٦٠) ص ١٢٨
(٤) الفخري ص ٣٣٦.

بعد موت الخليفة بثلاثة أشهر لينهض دليلاً على عدم صحة ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون الذين رموه بخيانة بلاده.

٢ ـ الوزارة في مصر:

على الرغم من العظمة التي كان يتمتع بها الوزير في العصر الفاطمي الأول كانت سلطته محدودة، إذ كان بقاؤه في مركزه يتوقف على رضا الخليفة. غير أن تلك العظمة لم تلبث أن تبدلت، ولا سيما في العصر الفاطمي الأخير (٤٦٥ ـ ١٠٩٣/٥٦٧ ـ ١١٧١)، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض بعد أن كانت وزارة تنفيذ.

وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) قامت وزارة التفويض، كوزارة يحيى البرمكي وابنه جعفر في عهد هارون الرشيد. فقد استدعى المستنصر بدر الجمالي والي عكاء لإصلاح أمور مصر على أثر «الشدة العظمى» التي استمرت بها سبع سنوات (٤٥٧ ـ ٤٦٥ هـ)، بعد أن أخفق الوزير اليازوري في تخفيف المجاعة التي اشتدت وطأتها. وتبين لنا مبلغ تزعزع مركز الدولة الفاطمية[1] من تعاقب أربعين وزارة مختلفة في تسع سنوات. وكان المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين من الضعف بحيث لم يبق لهم من الأمر شيء حتى أطلق على هذا العصر «عصر الوزراء العظام».

وقد قبض بدر الجمالي على زمام السلطة سنة ٤٦٥ هـ. وظل في مصر إلى أن مات في خلافة المستنصر، فتولى الوزارة بعده ابنه الأفضل الذي استبد بالسلطة حتى أصبح المستنصر في عهده كالمحجور عليه حتى مات.

فولى الأفضل المستعلي بن المستنصر الخلافة دون أخيه نزار الذي كان أبوه قد ولاه العهد قبل وفاته.

وكان المستعلي مسلوب السلطة مع خاله الأفضل، وظلت الحال على ذلك إلى عهد الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ) الذي فكر في قتله. وتم ذلك، فآلت الوزارة إلى أبي عبد الله المأمون بن البطائحي.

وكان النزاع الذي قام بين الخلفاء والوزراء من مميزات العصر الفاطمي الأخيرة، وربما كان ذلك نتيجة تولي الأطفال عرش هذه الدولة. وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير في هذا العصر أن أضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على هذا المعنى. ومن هذه الألقاب التي تلقب

---

(١) ابن منجب: الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٠ ـ ٤١.

بها أبو علي الأكمل حفيد الوزير بدر الجمالي: «نـاصر إمـام الحق وهادي القضـاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، مُولِي النعم ورافع الجـور عن الأمم، مالـك فضيلتي السيف والقلم». وتلقب رضوان بن الولخشي وزير الحافظ «السيـد الملك الأفضل»، وظـل الوزراء يتمتعـون بهذا اللقب منذ ذلك الحين.

وفي أواخر عهد الخليفة العاضـد الفاطمي (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ)تقلد الـوزارة أسد الـدين شيركوه بعد أن قتل شاور بأمر نور الدين محمود بن زنكي. ولكن شيركوه مـات بعد أن حكم شهرين، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي تلقب بالملك الناصـر بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وأسس الدولة الأيوبية كما تقدم.

٣ ـ الوزارة في المغرب:

لم يعن المؤرخون ببحث نظام الوزارة في عهد المرابطين، بل لقد اتخذوا من الكتابـة والوزارة نظاماً ثابتاً. ويرجع السبب في ذلك إلى أن عمال الدولـة كانـوا يتمتعون بنفـوذ طغى على نفـوذ هؤلاء الذين كـانوا يلونهم من كبـار الموظفين. على أنـه مما لا ريب فيـه أنه كـان للمـرابطين مـوظفين يرجعـون إلى مشورتهم، وأنـه كان لهم كتـاب يشرفـون على الـدواوين المختلفـة، كديـوان الرسـائل أو ديـوان الإنشـاء، ممـا جعـل المؤرخين يخلطون بين هؤلاء وأولئك، فيسمون هؤلاء المستشارين وزراء، والآخرين كتاباً[١].

وكان للمرابطين وزراء إقليميون[٢] لم يكونوا في الـواقع غيـر أصحاب ديـوان الإنشاء[٣] كما كان لهم وزراء مركزيون يقيمون بمدينة مراكش.

ومهمـا يكن من شيء فإنـه لم يكن عند المـرابطين مجلس وزراء، وإنمـا كانت هنـاك هيئة استشارية يشترك فيها طائفـة من الفقهاء والأعيـان والكتاب. وكـان أهم هذه الـدواوين: ديوان الرسائل أو الإنشـاء، ويرأسـه موظف كبيـر يعرف بـالكاتب. ولا يبعـد أن تكون هنـاك دواوين متعددة يشرف على كـل منها كـاتب يقوم بعمـل الوزيـر. ولم يتمتع الـوزير في عهـد المـرابطين بمـا كان يتمتـع بـه وزراء التفـويض مثـلاً في عهـد العبـاسيين والفـاطميين، ولا الحجاب في عهد الأمويين في الأندلس، لتمتـع نواب أميـر المسلمين بالسلطة المـطلقة في

---

(١) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٥٨.
(٢) المراكشي: المعجب ص ١٦٤. صلة الصلة ص ٨٢.
(٣) صلة الصلة ص ٨٢.

نياباتهم. ولم يكن في الدولة المرابطية ما يطلق عليه اسم الوزير أو رئيس الوزراء، لأن النفوذ كان ينحصر في يد أمير المسلمين نفسه، ولأن الدولة المرابطية كانت تقوم على مشورة الفقهاء على مذهب الإمام مالك أكثر مما تقوم على السياسة.

٤ ـ الوزارة في الأندلس:

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية شائعاً كما كان في الدولة العباسية في الشرق وفي الدولة الفاطمية في مصر، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة في الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير تارة أخرى. ولهذا نرى أن الحاجب في الدولة الأموية في الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف. فكان الحاجب، كما ذكر ابن خلدون(١)، يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم، ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شئون الدولة.

وقد وزعت أعباء الوزير أو رئيس الوزراء كما يسمى اليوم بين جماعة من كبار موظفي الدولة للاستعانة بهم ومشاورتهم ويختار منهم الأمير أو الخليفة شخصاً يسميه الحاجب، وجعل للمالية وزيراً، وللرسائل وزيراً وللمظالم وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور أو الولايات وزيراً وهكذا. وقد جعل لهم مكان خاص يجتمعون فيه وينفذون أوامر السلطان، كل في دائرة اختصاصه. واختير أحدهم للتردد على الأمير أو الخليفة والنيابة عنه في كل وقت، وقد عرف باسم الحاجب. وظلت الحال على ذلك حتى عهد ملوك الطوائف، فأصبح اسم الوزارة عامّاً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم، وغدا الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين(٢).

ولم يكن مجلس الحاجب، أو بعبارة أخرى مجلس الوزراء، هو وحده الذي يدير شئون الدولة، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى «مجلس الشورى» يرأسه الأمير أو الخليفة، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموي.

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذي الوزارتين، مقتدياً في ذلك بالعباسيين، لجمعه بين خطتي السيف والقلم. ففي سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب الخليفة الأموي في الأندلس أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين، وضاعف له

---

(١) مقدمة ص ٢٠٨.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢.

راتبه. وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه. وقد أسند الأمويون الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداي بن شبروط الذي بعث به سفيراً إلى «أوتو» إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

ولما ضعفت الدولة الأموية في الأندلس ازداد نفوذ الحاجب، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شيء. وأحسن مثل لذلك المنصور بن أبي عامر الذي تخلص من جعفر المصحفي الحاجب في عهد هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو في بلاد الأندلس، وخلفه في كرسي الحجابة، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الأموية في هذه البلاد، حتى دعي له على المنابر، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان اسم الخلفاء[1].

(د) الكتابة:

وقد زخر العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم. فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق.

وكان ملوك فارس يسمون كتاب الرسائل تراجمة الملوك، وكانوا يقولون لهم: لا تحملنكم الرغبة في تخفيف الكلام على حذف معانيه، وترك ترتيبه والإبلاغ فيه، وتوهين حججه.

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة، فقد كانت إحدى المناصب العالية التي كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن آنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضاء الخليفة.

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمي جوهراً الصقلي كاتباً له سنة ٣٤١ هـ. لأنه كان كاتبا بليغاً، كما كان عفيفاً جم الأدب في كتابته. وكان الكاتب في عهد الفاطميين في مصر يقوم بعمل الوزير إذا رضي عنه الخليفة، ويسمى أحياناً صاحب الوساطة.

وكان صاحب الإنشاء والمكاتبات في عهد الفاطميين يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين ديناراً.

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ (الطبعة السابعة القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

ويلي صاحب الإنشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق، الذي كان يوقع على المظالم، ويجالس الخليفة في خلوته، فيدارسه كتاب الله ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ويحدثه عن مكارم الأخلاق، ويعلمه تجويد الخط، وكان راتبه مائة دينار في كل شهر، وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة، فإذا انتهى المجلس ألقي في هذه الدواة عشرة دنانير مكافأة له، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند[١] ممزوج بالمسك، ليتبخر به عند دخوله على الخليفة في المرة التالية.

ولما أصبح الوزير في آخر أيام الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم أخذ يجلس للمظالم، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق بدل كاتب السر. وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير، بل النظر في الشكاوى قبل انعقاد مجلس النظر في المظالم. ويلي صاحب القلم الدقيق في الرتبة صاحب القلم الجليل، ويقوم بتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها. وكان الكتاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب وامتازوا بالقدرة في فن الإنشاء[٢].

وقد نبغ القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) في الكتابة في أيام الفاطميين حتى صار من كتاب البلاط، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائي يعهد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي تذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصيغة الرسمية، وتتكون هذه العبارة من: «الحمد لله شكراً لنعمته»[٣]، كذلك تقلد ديوان الرسائل في عهد الخليفة الآمر الفاطمي ابن منجب الصيرفي، وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين.

وممن نبغ في الكتابة في عهد الأيوبيين القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م)، وقد تقلد منصب الوزارة في عهد صلاح الدين الأيوبي وولديه من بعده. وخلف لنا كثيراً من الرسائل التي تمتاز بغزارة المادة التاريخية، كما تمتاز بسلامة الأسلوب ووضوحه.

وكان بعض كبار الموظفين في عهد المرابطين في المغرب يجمع بين الكتابة والاستشارة. وكان أكثر الكتاب من رجال الأدب في الأندلس الذين عملوا في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين ثم دخلوا في خدمة أمير المسلمين. ونذكر من بين

(١) الند (بالفتح): عود يتبخر به، وقيل: العنبر.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٢.

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

هؤلاء الكتاب: عبد المجيد بن عبدون، وعبد العزيز الأنصاري، وأبا جعفر بن عطية، وابن أبي الخصال، وابن عبدون اليابري[١]. ويظهر أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بأحوال نصارى الأندلس أكثر من الكتاب المغاربة، كما سيأتي الكلام على ذلك في باب الثقافة.

وكانت الكتابة في الأندلس تلي الحجابة (وهي الوزارة) في الرتبة وتنقسم قسمين:

(١) كتابة الرسائل ويسمى صاحبها الكاتب.

(٢) كتابة الزمام ويعرف صاحبها بكاتب الجهبذة، ويشترط فيه أن يكون من أهل الذمة، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير[٢].

(د) الحجابة:

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية، فاتخذوا الحاجب، وزادوا في منع الناس عن لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة. وهذا ما يسميه ابن خلدون[٣] الحجاب الثاني. فصار بين الناس وبين الخليفة دار الخاصة ودار العامة، يقابل كل طائفة في مكان معين على ما يراه الحجّاب. ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين[٤].

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين، فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة. ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول «الفضل بن الربيع» الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد، وأوقع الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون.

وكثيراً ما كان الحاجب يتدخل في أمور الدولة العباسية ويستبد بالنفوذ دون الوزير، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة، ويحتم عليهم بألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته.

ولم يكن الحاجب في عهد الفاطميين يتمتع بذلك النفوذ الذي كان يتمتع به في البلاد الإسلامية الأخرى، ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين وحدهم بل لقد اتخذ قاضي القضاة أو الوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم. ولكن الحاجب كان بلا

---

(١) نسبة إلى يابري (بسكون الباء) إحدى مدن البرتغال.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣. انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٦٦.

(٣) مقدمة ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٤) كتاب المحاسن والمساوىء ج ١ ص ١٢٤.

ريب، من رجال البلاط الفاطمي، بدليل ما ذكره القلقشندي[١] عند كلامه على مجلس الملك في عصر الفاطميين. وكان صاحب الباب من كبار الموظفين في ذلك العصر.

وكانت الحجابة في الدولة الأموية بالأندلس، كما قال ابن خلدون، لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم. فكانت في دولتهم رفيعة للغاية، كما نراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم. ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك. ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره، جاء من بعدهم ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونه شرفاً لهم. وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين، يعنون به السيف والقلم، ويُدلُّون[٢] بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة، وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم.

وأما عن الحجابة في المغرب فقد ذكر ابن خلدون[٣] أنها لم تكن موجودة في عهد الأمويين في بلاد الشام ثم في الأندلس، وفي العراق في عهد العباسيين، لأن الدولة المرابطية تميزت بالبساطة؛ بل إنه كان من اليسير أن يتصل أي شخص بأمير المسلمين عن طريق الأعوان. وقد ساعد على ذلك ما امتاز به المرابطون من الزهد في مظاهر الحياة، حتى لقد كان لباسهم الصوف وطعامهم الشعير. وكان يوسف بن تاشفين يتفقد أحوال الرعية ويباشر شئونه بنفسه كما كان عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قبله، بل إن عليَّ بن يوسف بن تاشفين كثيراً ما كان ينصرف عن مباشرة شئون الدولة إلى التعبد والتبتل.

٢ ـ النظام الإداري

(أ) الإمارة على البلدان

١ ـ علاقة المسجد بإدارة شئون الدولة:

كان الخلفاء الراشدون يستعينون في إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل، وكانوا يجتمعون في مسجد المدينة، ولا يقطع

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨.
(٢) بضم الياء وكسر الدال وضم اللام مع التشديد من الإدلال وهو التيه والكبر.
(٣) مقدمة ص ٢٠٩.
(٤) السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ٥٥.

الخليفة أمراً دون استشارتهم، وكان نظام الحكومة في الثلاثين السنة الأولى للإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهوري.

وقد بحث سير توماس أرنولد[1] علاقة المسجد باعتباره مكان العبادة (أي المكان الذي يؤم فيه الخليفة أو الوالي الناس في الصلاة) بإدارة شئون الدولة السياسية والاجتماعية، وكيف يجمع الخليفة أو الوالي بين إمامة المسلمين وبين شئون الدولة أو الولاية فقال:

«لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية، فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء، ويدير شئون الدولة، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر في الأمور السياسية والدينية... فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد، ومن فوق المنبر أيضاً، وقف عثمان يدافع عن نفسه. كما كان الخليفة عند استخلافه يلقي من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان عن سياسته في الحكم».

فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش يلقي منه الحاكم بيان سياسة الدولة كما هو الحال في النظم الدستورية اليوم.

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم، أن المساجد كانت تستخدم منذ ظهور الإسلام لاجتماع العلماء فيها، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم، ثم استخدمت المساجد معاهد للتعليم، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم. وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين، كان المسجد المكان الذي تذاع فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام.

وقد ذكر سير توماس أرنولد أن المساجد سرعان ما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية، فلم تعد تمثل عرش الخليفة وكرسي الوالي ولا منصة القاضي، وغدا عمل المساجد مقصوراً على إقامة الصلوات، يمجد فيها الله، ويصلى على النبي، ويترحم على الصحابة، ويدعى للخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله في المحافظة على الدين. ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة في الخطبة، ليكون ذلك اعترافاً من الولايات الإسلامية بسلطة الخليفة الاسمية.

وغير خاف أن المساجد كانت كمعاهد العلم اليوم تدرس فيها العلوم الدينية والعربية والعقلية.

---

(١) The Caliphate pp. 36-38.

٢ ـ نظرية الإمارة على البلدين:

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الفقهاء قسموا الإمارة على البلدان إلى إمارة عامة وإمارة خاصة. فالعامة على نوعين: إمارة استكفاء بعقد عن اختيار، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار(١).

وكان الخليفة مصدر كل قوة كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة. وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن، يقضي باسمه في جميع شئون الدولة، فكان له الحق في تنصيب العمال وصرفهم والإشراف على جمع الضرائب.

وقد ظهر بتوالي الأيام أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد، ومن ثم أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها.

وكان الخليفة يختار عمال الأقاليم بنفسه للقيام على شئونها، بيد أن سلطاتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً، فإذا ما عزل من منصبه، طلب إليه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته. ومع ذلك اكتسب بعض الولاة امتيازات خاصة، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيادة للخليفة وتقديم بعض المساعدات المادية للدولة.

وكانت مصر في عهد الدولة الفاطمية مقسمة إلى أربع ولايات هي:

(أولاً) ولاية قوص، وكانت أعظم ولايات مصر، لأن عاملها يحكم جميع بلاد الصعيد، ويتولى إقليم الأشمونين بالإضافة إلى عمله الأصلي.

(ثانياً) ولاية الشرقية وتلي ولاية قوص في الأهمية. وكان عاملها يحكم منطقة بلبيس وقليوب وأشموم.

(ثالثاً) ولاية الغربية، وتلي ولاية الشرقية في المنزلة، ويتولى عاملها المحلة ومنوف وأبيار.

(رابعاً) ولاية الإسكندرية، وتلي ولاية الغربية في الرتبة ويتولى عاملها إقليم البحيرة كله.

---

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٨ وما يليها.

وكـان يخلع على هؤلاء الولاة الأربعـة من خزانـة الكسوة بـالبدنـة، وهو الثـوب الذي يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج[١].

وكانت هذه الـولايات الأربـع تضم كوراً أخـرى صغرى فصلهـا ابن مماتي في البـاب الذي عقده للتقسيم الإداري في أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين، وهي الشرقية والمرتاحية، والدقهلية، وجزيرة قويسنا، والغربية، والسمنودية، والدنجاوية (بكسر الدال مع التشديد وسكون النون) والمنوفية، وجزيرة بني نصـر، والتستراويـة (بضم التاء مـع التشديـد وسكون السين)، والبحيرة، وحوف رمسيس، والكفور الشاسعة، وفوة، والمزاحمتين (بفتـح الحـاء والميم والتـاء وسكـون اليـاء) والجيزيـة، والإطفيحيـة، والبوصيرية، والفيومية، والبهنساوية[٢]، والأشمونين، والأسيوطية، والإخميمية، والقوصية[٣].

وكان لأمراء المرابطين نـواب ينوبـون عنهم ويمثلونهم في حكم المغرب والأنـدلس. وكانت وظيفة نـائب أمير المسلمين سيـاسية وحـربية معـاً، ويراعى في اختيـاره أن يكون من أقـرب الناس إليـه متصفاً بـالمهارة الحـربية منفـذاً لسياسـة الدولـة التي تقـوم على التعـاليم الإسلامية وفق مذهب الإمام مالك. وكان هؤلاء النواب يختارون عادة من ولاة العهـود. فقد كان علي بن يوسف نائباً لأبيه يوسف بن تـاشفين، وكان تـاشفين نائبـاً لأبيه علي، وإبـراهيم نائباً لأبيه تاشفين. وقد تولى هؤلاء النيابة في بلاد الأندلس. وكذلك كان يوسف بن تـاشفين من قبل نائباً لأبي بكر بن عمـر قبل أن يصبـح أميـراً للمسلمين، ثم أصبـح أبو بكـر بن عمر نائباً ليوسف بن تاشفين في الصحراء بعد أن نزل عن سلطته.

وكانت سلطة النائب سياسية وحربية معـاً كما ذكـرنا. فقـد كان يـراقب أعمال العمـال ويضع الخطط الحـربية ويصـدر بتعيينه منشـور خاص يـذاع على العمال. وكـان نائب أميـر المسلمين يستعين في إدارة نيابته بطائفة من الكتاب أطلق عليهم الوزراء تجاوزاً.

(ب) الدواوين:

كـان الوالي يعين من قبـل الخليفة وينـوب عنه في حكـم البـلاد، وهو الـرئيس الأعلى للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما إليها من أعمال الدولة.

---

(١) القلقشندي: ج ٣ ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٢) وهي محافظة المنيا الآن.

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٨٥ ـ ١٠٨.

انظر حسن إبراهيم حسن: كتاب تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٨٩.

وكانت الصلاة أهم أعمال الوالي لارتباطها بالإمامة الدينية، وهي منشأ الحكم في الإسلام. لذلك كان الوالي يقيم الصلاة في الجمع والأعياد، ويؤم الناس في الصلاة أو يستخلف عليها. وقد قضت الضرورة بذلك حين تعددت المساجد الجامعة بعد أن أخذ الإسلام ينتشر في مصر على أثر إقبال المسلمين على الزواج من القبطيات.

ولم يدخل النظام الإداري في مصر الإسلامية تغيير يستحق الذكر حتى جاءت الدولة الفاطمية فأدخلت عليه كثيراً من التعديل.

وفي عهد الفاطميين كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير. ومن هذه الدواوين: ديوان الجيش، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخيولهم، وديوان خزائن الكسوة والطراز، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام، وديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم، وديوان الرواتب. ويعد صاحبه استمارات الرواتب ويعرضها على الخليفة في كل سنة[1].

ومن هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام وديوان الحجاز.

وكان عدد الموظفين في عهد الفاطميين كبيراً: منهم صاحب الباب، وحامل مظلة الخليفة، وصاحب الرسالة (وكان يحمل كتب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين) وصاحب بيت المال (وهو بمثابة وزير المالية في العصر الحاضر) وحامل دواة الخليفة. وهناك كثير من المناصب الدينية، من أهمها منصب قاضي القضاة، وله النظر في الأحكام الشرعية والإشراف على دور السكة وضبط عيارها.

ويلي قاضي القضاة في الرتبة داعي الدعاة، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية في دار العلم والمساجد. ومن كبار الموظفين في عهد الفاطميين: المحتسب، وكان له النظر في الأسواق والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة، والإشراف على الموازين والمكاييل، وعلى استيفاء الديوان. وكان ينتخب من وجوه المسلمين ، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً.

ومن كبار موظفي الدولة في العهد الفاطمي وكيل بيت المال، ونائب صاحب الباب، وكان يستقبل سفراء الدول وينزل كلاً منهم في المكان اللائق به. وهناك عدد كبير من القراء يقرءون القرآن في حضور الخليفة في مجالسه ومواكبه، ويقال لهم قراء الحضرة[2].

---

(١) القلقشندي: ج ٣ ص ٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ ـ ٥٣٢.

ومن كبار الموظفين أيضاً تسعة يعرفون بالأستاذين المحنكين (بضم الميم وفتح الحاء والنون مع التشديد)[١] منهم: صاحب بيت المال، وصاحب الرسالة، وزمام القصر. وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار في الشهر، وراتب كل من قاضي القضاة وداعي الدعاة مائة دينار، وراتب كل من طبيبي الخليفة الخاصين خمسين ديناراً[٢].

ومن المناصب الدينية الهامة في العصر الفاطمي وظيفة باب الأبواب وهو لقب شيعي لقب به جعفر بن منصور اليمن الذي تمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر حتى اتخذه الخليفة المعز «باب أبوابه» أي رئيس الدعاة. كما لقب حميد الدين الكرماني المتوفى سنة ٤٠٨ هـ بلقب «حجة العراقين»[٣].

دور الضرب:

وتبين لنا كتب السكة نواحي أخرى من التقسيم الإداري، ونعني بها دور الضرب، وهي البلاد التي كانت الحكومة تتخذها مراكز لبنك النقود وضرب العملة. وليس من شك في أن هذه البلاد كانت تمثل حواضر الأقاليم التي تقيم بها أمراء الولايات حيث تكون الدواوين ومقر الحكومة الإقليمية. وهنالك ناحية أخرى تبينها كتب السكة، وهي السنة التي ضربت فيها النقود لأول مرة: فهي تبين التاريخ الذي أصبحت فيه هذه المدينة حاضرة الإقليم، كما تبين السنة التي انقطع فيها ضرب النقود من المدن، وهي تدل أيضاً على التاريخ الذي انتهت فيه أهمية المدينة كحاضرة لهذا الإقليم. وإليك ثبتاً بأسماء دور الضرب في مصر والولايات التابعة للدولة الفاطمية، مثل صقلية وافريقية وبلاد الشام.

---

(١) جمع أستاذ محنك، أي رجل مدرب، وكان يتلثم بطرف من عمامته، ومعناه يجعل عمامته تحت ذقنه وفكيه (انظر Lane's Arabic-English Lxicon). ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج، وصاحب المجلس، ويشبه الآن كبير الأمناء، وصاحب الرسالة، وصاحب بيت المال، وحامل الدواة، وزمام الأقارب، وزمام القصور، ويعهد إليه بإدارة شئون القصر (القلقشندي ج ٣ ص ٤٨٤ و٤٨٥).

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ و٥٢٦. المقريزي: خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: كتاب الدولة الفاطمية ص ٢٩٣ وما يليها.

دار الضرب Place of unit	الإقليم	السنة التي بدأت فيها السكة	نهاية السكة	ملاحظات
الإسكندرية	مصر	٤٦٩	٥٥٥	
أيلة	فلسطين	٥١٤	—	
تيماء	فلسطين	٥١٤	—	
حلب	الشام	٤٢٩	٤٤٤	
دمشق	الشام	٣٦٨	٤٤٦	
زويلة	إفريقية	٤١٤	—	
صقلية	صقلية	٣٤٣	٤٥٦	
صور	الشام	٤٣٠	٤٨٤	
طبرية	الشام	٣٩٥	٤٦٠	
طرابلس	الشام	٣٦٧	٤٧٥	
عسقلان	الشام	٥٠٧	—	
عكاء	فلسطين	٤٦٢	٤٩٥	
فلسطين	فلسطين	٣٥٩	٣٦٤	
القيروان	إفريقية	٣٠٣	٣٣٥	
مصر (الفسطاط)	مصر	٣٦١	٥٦٤	
المنصورية	إفريقية	٣٤١	٤٥٤	
المهدية	إفريقية	٣١٥	٤٢٠[1]	

(جـ) البريد:

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم. على أن مقاديره أو مسافاته كانت متفاوتة. وقد ذكر القلقشندي[1] أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية، وقد أخذه، عن الروم أثناء حكمهم في الشام. ثم أدخل عبد الملك بن

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) عدة تحسينات على نظام البريد، أصبح بذلك أداة هامة في إدارة شئون الدولة.

وكان للبريد ديوان كبير في بغداد (أشبه بمصلحة البريد الآن)، وكان مزوداً بمحاطّ على طول الطريق، وذلك نظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية في ذلك العصر، وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً في نقل الرسائل حتى خلافة المستعصم العباسي، وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة للتجارة في أسفارهم، كما كانت نواة للبحوث الجغرافية، على أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل مراسلات الجمهور. وكان صاحب البريد يراقب العمال ويستطلع أخبار الأعداء. ويشبه هذا النظام قلم المخابرات في أيامنا. وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم وبالعكس، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة، ينقل أخباره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه.

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم.

وقد ذكر أبو المحاسن(١) أن شفيعاً اللؤلؤي كان صاحب البريد في مصر سنة ٢٩٢ هـ. ومع أننا لا نعرف الكثير عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين والفاطميين، فقد ذكر المؤرخون أنهم اهتموا بحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل، واستخدم الفاطميون الحمام، وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنسابها(٢).

وقد بلغ نظام البريد في عهد بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة، حتى كانت الدولة تنقل البريد في أثناء الحرب بالجمازات(٣)، وهي أشبه بالعربات التي تجرها الخيل السريعة التي يركبها عمال البريد ورجال الحرب وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة. فإن الفاطميين لما عزموا على غزو مصر سنة ٣٠١ هـ، استعمل علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسي الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال في كل يوم.

وكان لبني بويه أثر كبير في ترقية البريد، فقد أدخل عضد الدولة السعاة (وكان يقال لهم الفيوج)، وهم طائفة من موظفي البريد تخصصوا في نقل البريد من مكان إلى آخر.

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٨.

(٢) القلقشندي: ج ١٤ ص ٣٩٠.

(٣) انظر تاج العروس.

وقد استعملت النار كوسيلة من وسائل المراسلة في القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) على الساحل الإفريقي الشمالي، حتى كانت الرسائل تصل من طنجة إلى سبتة في ساعة واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات. ولم يبطل هذا النظام إلا في سنة ٤٤٠ هـ حين أثار المعز بن باديس الفتن في المغرب في وجه الفاطميين الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو[١].

كذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل في نقل الرسائل. وقد راج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية، وخاصة الإسماعيلية؛ فقد استعان عبد الله بن ميمون القداح بالطيور في نقل الأخبار إلى أنصاره[٢]، واهتم الفاطميون بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل، فقد ذكر القلقشندي[٣] أن الفاطميين بالغوا في العناية بالحمام حتى أفردوا له ديواناً وجرائد (قوائم) بأنساب الحمام، كما كان يفعل العرب في معرفة أنساب الخيل.

وللبريد محطات تسمى السكك، كانت تزود بالخيل وراكبيها في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة. وكانت طرق البريد منتشرة في المشرق والمغرب، ومن أهمها:

١ ـ من بغداد إلى القيروان بحذاء نهر دجلة، ويمر بالموصل وسنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان.

٢ ـ من بغداد إلى الشام بحذاء الضفة الغربية لنهر الفرات، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق.

٣ ـ من بغداد إلى الشرق، ماراً بحلوان وهمذان والري ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند حتى يصل إلى الصين. ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر في أواسط خراسان حتى يصل إلى الطالقان ثم يخترق نهر جيحون حتى يصل إلى فرغانة[٤].

وقد ارتقى نظام البريد في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، فوضع له نظام يكفل ارتباط جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط من البريد البري والجوي. وكان مركز هذه الشبكة

(١) الأمير شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٢٣٤.
(٣) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٠.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٧٥. وتاريخ الدولة الفاطمية ص ٢١١ ـ ٢١٥.

قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة ٥٧٢ هـ، حيث كان يتفرع منها أربعة طرق برية، يمتد أحدها إلى قوص، والآخر إلى عيذاب، وثالث إلى الإسكندرية، ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة. ومن قلعة الجبل تتفرع سائر خطوط البريد وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء الدولة، وترد إليها الرسائل من الولاة. وأصبح البريد في عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية يرد على مصر مرتين في الأسبوع.

(د) الشرطة:

الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين، وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم. وقد عرفت الشرطة بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها. وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس في الليل. وفي عهد علي ابن أبي طالب نظمت الشرطة، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة. وكان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر لأنه يتولى رياسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن.

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر، تقوم على الأحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود؛ ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم. وقد أدخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) نظام «الأحداث». وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد[1].

وكثيراً ما كانت الشرطة والحسبة تسندان لشخص واحد مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة في عصر الدولة الفاطمية، وكان ينوب عن صاحب الشرطة موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الأمر في الأقاليم، ويساعد صاحب الشرطة القضاة والعمال ويقوم بتنفيذ أحكامهم.

ومن ذلك نرى أن الشرطة كانت تابعة للقضاء في أول الأمر، يقوم صاحبها بتنفيذ الأحكام القضائية ويتولى إقامة الحدود. ولم تلبث أن انفردت عن القضاء، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم. وكانت الشرطة تؤهل صاحبها للحجابة أو الوزارة.

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى وشرطة صغرى. وقد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

اختص صاحب الشرطة الكبرى، كما يقول ابن خلدون[١]، بـالحكم على الخاصـة من ذوي النفوذ والجاه واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة.

٣ ـ النظام المالي

(أ) موارد بيت المال

١ ـ الخراج:

تعمل السياسـة الماليـة لكل دولـة على تحقيق التوازن بين مـواردها ومصـارفها. وقـد سارت الدولة الإسلامية منذ ظهورها على هذه السياسة، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعـة. وهو بهـذا يشبه وزارة المـالية في العصـر الحاضـر، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية، وكان يطلق عليه صاحب بيت المال.

والمـال الوارد لبيت مـال المسلمين، إما أن يكـون ضـريبـة أو عن أشيـاء أخـرى غيـر الأرض. وأهم موارد بيت المال: الخراج، والجزية، والزكاة، والفيء، والغنيمة، والعشور.

كـان الخراج إمـا شيئاً مقـدراً من مال أو غلة، كمـا صنع عمـر بن الخطاب في أرض السواد[٢] بعد فتحها، وإما حصـة معينة ممـا يخرج من الأرض، وهـذا ما يسمى بـالمعاملة أو المـزارعة كمـا عامـل النبي ﷺ أهل خيبـر على نصف ما يخـرج من الأرض، قليـلاً كـان أو كثيراً.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخـراج، فقصره بعضهم على جـزية الـرؤوس التي فرضت على أهل الذمة، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض.

ولم يكن الخراج ثابتاً، فقد كانت ضريبـة الأرض تقل وتكثـر حسب الاهتمام بـالتعمير وتحسين وسائل الري، كما أن جزية الرؤوس كانت تتناقص بالتوالي لدخـول أهل البـلاد في الإسلام.

وكـان خراج أقـاليم الشرق الإسـلامي يقدر بـالدراهم وخـراج أقـاليم المغـرب يقـدر بالدنانير (عدا برقة وإفريقية). ويرجـع السبب في ذلك، على ما ظهر، إلى أن مناجم الفضة

---

(١) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المحفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بـالقاهـرة رقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف.

(٢) سمي كذلك للخضرة والشجر والـزرع، أي الأرض الخصبة التي تزرع فيبدو وجههـا مخضراً قـاتماً كلون السـواد.

كانت أكثر في أقاليم المشرق منها في أقاليم المغرب، وبعكس ذلك مناجم الذهب. كما يلاحظ أيضاً أن ما يصل إلى بيت المال ببغداد كان صافي ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أرزاق الجند والموظفين وشراء المعدات الحربية وما تتطلبه مرافق الدولة من كري الأنهار والترع وإصلاح الجسور، وما ينفق على الدواوين وعلى الخليفة ورجال البلاط.

وهناك ضرائب أخرى تجبى من أرباب الحرف والصناعات ومن التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب.

٢ ـ نظام الالتزام:

يرجع نظام الإقطاع[1] أو الالتزام في الإسلام إلى عهد الرسول ﷺ.

ويقول المقريزي[2]: «وقد كان خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس يقطعون الأراضي من أرض مصر النفر من خواصهم، لا كما هو الحال اليوم (أي في زمن المقريزي)، بل يكون خراج أرض مصر يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف، ويحمل ما يفضل إلى بيت المال، وما أقطع من الأراضي فإنه بيد من أقطعه». وفي عهد صلاح الدين الأيوبي حتى زمن المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ كانت أراضي مصر تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده.

وكانت أرض مصر على سبعة أقسام: قسم يلحق بديوان السلطان، وهو على ثلاثة أقسام: ما يجري في الديوان الخاص، وما يجري في الديوان المفرد، وما يقطع للأمراء والأجناد، وقسم ثالث يحبس إيراده على المساجد والمدارس والخوانق[3]، وعلى جهات البر وعلى ذرية واقفي تلك الأراضي وعتقائهم، وقسم رابع يقال له الأجباس، ينفق إيرادها على الذين يقومون بخدمة المساجد وإقامة الشعائر الدينية، وقسم خامس يباع ويشترى ويورث ويوهب لأنه اشتري من بيت المال، وقسم سادس لا يزرع للعجز عن زراعته، فترعاه المواشي أو ينبت الكلأ ونحوه، وقسم سابع لا يرويه ماء النيل فهو قفر كما هو الشأن في الصحارى.

---

(١) يقال: اقتطع طائفة من الشيء أخذها، أقطعني إياها أذن لي في اقتطاعها، واستقطعه إياها سأله أن يقطعه إياها. والإقطاعية جزء من أرض الخراج يقطعها الجند فتدر لهم غلتها فتصير لهم رزقاً وأجراً (راتب).

(٢) خطط ج ١ ص ٩٧.

(٣) جمع خانقاه وهي كلمة فارسية معناها «بيت». وقيل: أصلها خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. والخوانق حدثت في الإسلام حول سنة أربعمائة من الهجرة، وجعلت الخلوة الصوفية فيها للعبادة.

وقد أورد الماوردي[1] نوعي الإقطاع فقال: «وهو ضربان: إقطاع استغلال وإقطاع تمليك؛ والثاني ينقسم إلى موات وعامر، والثاني وهو ضربان: أحدهما ما يتعين مالكه، ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام، فإن كانت دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد، فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع إليه عند الظفر بها فإنه يجوز».

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة، بل قد يشمل ولاية برمتها. وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم[2].

ذكرنا من قبل أن السلطان ملكشاه السلجوقي منح الوزير نظام الملك لقب «أتابك» وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك. وقد سار سلاطين السلاجقة على هذه السنة، فكانوا يسندون إلى بعض مماليكهم الذين يظهرون كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية ويعهدون إليه بتنشئة أحد أبنائهم[3]. ولما ضعف البيت السلجوقي تقاسم هؤلاء الأمراء ملك السلاجقة وأورثوه أبناءهم. وكان هؤلاء الأمراء يقطعون الأمراء المقربين إليهم بعض الأقاليم والمدن بشرط أن يظلوا خاضعين لهم، فإذا ما حاول أحدهم بالاستقلال بإقطاعه قام السلطان أو الأمير بعزله وإقطاع الإقليم أو المدينة لأمير آخر؛ على أن هؤلاء المقطعين كانوا في عصر السلاجقة العظام مرتبطين بالسلطان السلجوقي مباشرة وكانوا يقيمون الخطبة له وينفذون أوامره ويشتركون في قتال أعدائه.

وكان بعض هؤلاء الأمراء المقطعين يتمتعون بنفوذ واسع واستقلال يكاد يكون تاماً فعماد الدين زنكي مثلاً أصبحت الالتزامات الإقطاعية التي كانت تربطه بالسلطان السلجوقي محدودة بل إنها تحولت إلى موقف عدائي في بعض الأحيان، وقد أدرك زنكي ضرورة إقطاع قواده بعض الإمارات المحلية في الجزيرة والشام وشرقي الموصل وفي الإمارات الصليبية. وكان كلما استولى على بلد «رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء». كما فعل بعد

(١) الأحكام السلطانية ص ١٧١ ـ ١٨٢.

(٢) الكندي: كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣، ١٧٣، ١٨٠ ـ ١٨٤، ١٩٥ ـ ١٩٧، ١٩٨ ـ ٢٠٢.

(٣) انظر ص ٢٦.

استيلائه على مدينة حلب سنة ٥٢٢ هـ[١]. وكانت سياسة عماد الدين زنكي ترمي إلى قيام المقطع بإدارة شئون الولاية باعتباره والياً من قبله، أو لإبعاده الشخصي الذي يرى في وجوده بإحدى الولايات خطراً على نفوذه[٢]، أو مكافأة لأحد المقربين إليه اعترافاً بولائه له وما أداه من خدمات ممتازة لدولته، أو لتشجيع بعض الأمراء المناوئين له على تسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق[٣].

٣ ـ الجزية:

الجزية مبلغ معين من المال توضع على الرؤوس، وتسقط بالإسلام، وثبتت بنص القرآن لقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[٤]، والفرق بين الجزية والخراج على الأرض (وليس على الرؤوس)، ولا يسقط بالإسلام، وقد ثبت بالاجتهاد (لا بنص القرآن).

وقد فرضت الجزية على الذميين في مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان، لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة، ويتمتعون بحقوق واحدة، وينتفعون بمرافق الدولة العامة بنسبة واحدة. ولذلك أوجب الله تعالى الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم في الأقاليم الإسلامية التي يقيمون فيها[٥]. ولذلك فرض الشرع الجزية على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين لأن كلتا الطبقتين تكافأتا في الحقوق وتساويتا في الواجبات. وكانت الجزية تجمع على النحو الآتي:

١ ـ أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهماً.

٢ ـ متوسطو الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهماً.

٣ ـ فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهماً.

٤ ـ ولا تؤخذ الجزية من مسكين يتصدق عليه، ولا ممن لا قدرة له على العمل، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوي العاهات، ولا من الرهبان إلا إذا كانوا من الأغنياء. ولا تجوز أن تفرض إلا على الرجال الأحرار والعقلاء، كما أنها لا تفرض على امرأة أو صبي.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤٨.
(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٤٦.
(٣) ابن القلانسي ص ٢٧٠.
(٤) سورة التوبة ٩ : ٢٩.
(٥) أبو يوسف: كتاب الخراج ٦٩ ـ ٧٢

٤ ـ الزكاة:

والزكاة معناها الطهارة، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، طبقاً لقوله تعالى مخاطباً الأغنياء: ﴿وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾.

فكما أن الخراج شيء من المال يطهره، فكذلك يبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة، قال الله تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1].

وقد منح الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه وفضلا، وجعل علامة الشكر لذلك منهم على هذه النعمة التي منحها الله إياهم أن يخرجوا بعض هذه الأموال لتنفق على الفقراء والمساكين وذوي الحاجة بوجه عام.

والزكاة شرعاً: تمليك جزء من المال عينه الشارع يخرجه الغني للفقير في الحدود التي عينها الشارع. وهناك خمسة أشياء يجب إخراج الزكاة منها وهي:

١ ـ زكاة النقد (الذهب والفضة)، وتجب الزكاة فيهما إذا بلغ النصاب؛ فنصاب الذهب عشرون مثقالا، والمثقال يساوي بالعملة المصرية ٥١ قرشاً تقريباً، ونصاب الفضة مائتا درهم (والدرهم يساوي نحو أربعة قروش مصرية). فإذا بلغ كل منهما النصاب المقرر وجب على المالك إخراج ربع العشر.

٢ ـ زكاة السوائم[2]؛ وهي: الإبل والغنم. فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة، وهكذا في كل خمس شاة، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بنت مخاض[3] وفي ست وثلاثين بنت لبون[4]، وفي ست وأربعين حقة[5]، وفي إحدى وستين جذعة[6]، وفي ست وسبعين بنتاً لبون. فإذا بلغت إحدى وتسعين ففيها حقتان إلى مائة وعشرين. ثم تستأنف الفريضة فيؤخذ في كل خمس شاة مع الحقتين.

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٢٦١.

(٢) السائمة هي التي يرسلها صاحبها لترعى في البراري في أكثر السنة بقصد الدر أو النسل أو السمن الذي يراد به تقويتها لا ذبحها، فلو اتخذت للذبح أو الحمل أو الركوب أو الحرب فلا زكاة فيها.

(٣) هي ما بلغت من الإبل سنة ودخلت في الثانية.

(٤) هي ما أتمت سنتين ودخلت في الثالثة.

(٥) بكسر الحاء ما أتمت ثلاث سنين ودخلت في الرابعة.

(٦) بفتح الجيم والذال ما أتمت أربع سنين ودخلت في الخامسة.

أمـا زكاة البقـر والجامـوس، ففي كل ثلاثين تبيـع أو تبيعـة[١] وفي أربعين مُسن[٢] إلى ستين ففيها ضعف ما في الثلاثين، ثم في كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مُسِنَّة.

أما نصاب الغنم (ضأناً ومعزاً) ففي كل أربعين شـاة، وفي كل مـائة وإحـدى وعشرين شاتان، وفي المائتين وواحدة إلى أقل من أربعمائـة ثلاث شيـاه، وفي أربعمائـة وما زاد ففي كل مائة شاة.

ولا زكاة في غير ما ذكر من الحيوان، فلا زكاة في الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة.

٣ ـ زكاة عُروض[٣] التجارة، ومنهاربع العشر، بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب والفضة، وأن يحول عليها الحول.

٤ ـ المعدن والركاز، وهما بمعنى واحد، وهو شـرعاً: مـال عثر عليـه تحت الأرض، سواءاً كان خَلْقياً خلقه الله تعالى، أو كان كنـزاً مدفـوناً. قـال الحسن البصري: مـا كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة (وهو ربع العشر).

٥ ـ زكاة الزرع والثمار: وحكم زكاتهمـا أنـه يجب فيهـا العشر إذا كـانت خارجـة من أرض تسقى بالمطر أو السيح[٤] وهو نصف العشر إذا كانت خـارجة من أرض تسقى بـالدلاء ونحوها، ويقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها[٥].

والزكاة تصرف على الأشخاص المـذكورة في قـوله تعالى: ﴿إنمـا الصـدقات للفقـراء والمسـاكين والعاملين عليهـا والمؤلفـة قلوبهم وفي الـرقـاب والغـارمين وفي سبيـل الله وابن السبيـل فريضـة من الله والله عليم حكيم﴾[٦]، وفي قول الـرسول الكريم: «أمرت أن آخـذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم».

وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقـه في الفرق بين الفقيـر والمسكين، وفي حد الفقـر الذي يجوز معه الأخذ من الصدقة، والعاملون عليها هم الجباة الذين يندبهم الإمام لتحصيل

---

(١) التبيـع: الذي يتبع أمه، وهو ما أوفى سنة.

(٢) المسن: ما أوفى سنتين.

(٣) جمع عرض (بسكون الراء) وهو ما ليس بذهب ولا بفضة.

(٤) وهو ماء يسقي الأرض دون أن يخرجه الإنسان من النهر، ويطلق عليه عند فلاحي مصر ري الراحة.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٠٨ ـ ١١٧.

(٦) سورة التوبة: ٩ : ٦٠.

الزكاة، والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا يظهرون الإسلام ليتألف المسلمون بذلك قلوبهم، وقد انقطع هذا الفريق بعد ظهور الإسلام وانتشاره. ويقصد «بالرقاب» أن يعتق الرقيق لضمان ولائهم للمسلمين. والغارمون هم الذين ركبهم الدين. وقوله تعالى: (وفي سبيل الله) يراد بهم الغزاة، وأهل الرباط الذين يعطون ما ينفقون في غزوهم سواء أكانوا فقراء أم أغنياء. (وابن السبيل) الذي انقطعت به الأسباب عن ماله لبعده عن بلده ومستقره وأهله. فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غنياً في بلده.

وكان للزكاة ديوان خاص بها في حاضرة الخلافة، وله فروع في سائر الولايات والبلدان.

٥ ـ الفيء والغنيمة:

والفيء كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا إيجاف[١] خيل ولا ركاب[٢].

وخمس الفيء يقسم خمسة أسهم متساوية: سهم للرسول ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين، وقد سقط بموته ﷺ.

أما أربعة أخماس الخمس فسهم لذوي القربى، ويراد بهم آل بيت رسول الله ﷺ، وقد اختلف فيهم: فقيل إنهم قريش كلها، وقيل بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وقيل بنو هاشم خاصة، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة[٣] بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[٤]، وبقوله ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم».

وكانت أربعة أخماس الفيء الباقية تقسم في صدر الإسلام بين الجند في الأعمال

---

(١) الإيجاف: سرعة السير. والركاب الإبل التي يسافر عليها، لا واحد لها من لفظها، أي لم يستعمل في تحصيله خيلاً ولا إبلاً، بل حصل بلا قتال.

(٢) جمع ركب ويقصد بذلك الإبل وغيرها المستعملة في الحرب.

(٣) مداولة من الأغنياء إلى الأغنياء دون الفقراء.

(٤) سورة الحشر ٥٩: ٧. الدولة (بضم الدال) في المال فقط، يقال صار الفيء دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا؛ الجمع دولات ودول.

الحربية وما تتطلبه من شراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب. وقد ظلت الحال على ذلك حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند.

والغنيمة في اللغة: ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي، وهي كل ما أصابه المسلمون من عساكر الكفار عن طريق الحرب.

وقد جرت العادة أنه إذا جمعت الغنائم لم تقسم حتى تنتهي الحرب لئلا يتشاغل الجند بها فتحل بهم الهزيمة كما حدث في غزوة أحد. فإذا انتهت الحرب عجل أمير الجيش بقسمتها في دار الحرب. ومع ذلك فإنه يجوز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب ما يراه أمير الجيش.

ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من الغنيمة، فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ (سورة الأنفال ٨ ـ ٤١). وقد تقدم ذكرهم في باب الفيء. والأربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين؛ غير أن الإمام إذا رأى أن يمن على الأسرى بإطلاقهم فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم.

٦ ـ العشور:

ويرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب. وكان تجار المسلمين الذين يفدون إلى دار الحرب (أي بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) يدفعون العشر عن سلعهم فأمر عمر بأن يأخذ المسلمون العشر من التجار غير المسلمين الذين يفدون ببضائعهم إلى دار الإسلام، وأمر بأن يؤخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة مائتي درهم فأكثر. وللإمام أن يزيد عن العشر أو أن ينقص عنه إلى نصف العشر، أو أن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة. ولا يزيد ما يؤخذ عن مرة واحدة من كل قادم بالتجارة في كل سنة ولو تكرر قدومه. وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى، وهذا ما نسميه في الوقت الحاضر الضرائب الجمركية.

وهناك مورد آخر من موارد بيت المال، هو الأموال التي لا يعلم لها مستحق كاللقطة، ومال من يموت وليس له وارث، والأموال التي صالح عليها المسلمون أعداءهم.

٧ ـ الضرائب في العصر العباسي الثاني:

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشئون الزراع والتخفيف عنهم. وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الحنطة والشوفان، وأحل محلها نظام المقاسمة، وهو دفع الضرائب النوعية (المتنوعة) بنسبة خاصة من المحصول. على أن النظام النقدي القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهها. ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة في جمع الضرائب توسع الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه المنصور فعممه، وجعل الضرائب تجبى دائماً بالنسبة إلى المحصول. وإذا كانت الأرض ممتازة الخصوبة ولا تحتاج إلى عمل كثير، كان على الزارع أن يقدم للحكومة نصف غلة أرضه. وإذا صعب عليه ريها دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض.

أما الكروم والبساتين والنخيل، فكانت غلتها تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث. ويسمى هذا النظام المقاسمة، تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف بالمحاسبة ويقضي هذا النظام بأن تجبى الضريبة بالنسبة إلى الأرض، وهناك ثلاث طرق في جباية الأرض:

١ ـ المحاسبة ـ وهي إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً.

٢ ـ المقاسمة ـ وهي ضريبة تؤخذ من المحصول.

٣ ـ المقاطعة ـ وهي ضريبة تجبى وفق اتفاقات معينة بين الحكومة والأمة، ويدخل في هذا النظام معظم أراضي الدولة. وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب، حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجدب.

وقد بلغت مساحة الجزء المنزرع في عهد المعز لدين الله الفاطمي ٢٨٥,٧١٤ فداناً، وفي أيام بدر الجمالي الذي تقلد الوزارة في سنة ٤٦٥ هـ نحو هذا القدر، وانعدمت أو كادت في أواخر عهد المستنصر. ولم يكن السبب في ذلك راجعاً إلى انخفاض النيل أو حدوث الوباء، وإنما كان راجعاً إلى سوء سياسة الحكام وعدم اهتمامهم بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخلجان وإقامة الجسور ونحوها.

ويمكننا الوقوف على اطراد النقص في مساحة الجزء المنزرع في مصر وزيادة مقدار الخراج الموضوع على الفدان من الثبت[١] الآتي:

---

(١) الثبت: الفهرس.

الوالي	السنة الهجرية	المساحة المزروعة	الخراج	الضريبة على الفدان
عمرو بن العاص	٢٠	٦ مليون فدان	٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٢ دينار
هشام بن عبد الملك	١٢٥	٢ مليون فدان	٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٢ دينار
المأمون	٢١٨	٢,١٢٨,٠٠٠ فدان	٤,٢٥٧,٠٠٠ دينار	٢ دينار
أحمد بن طولون	٢٧٠	؟	٤,٨٠٠,٠٠٠ دينار	
محمد الإخشيد	٣٣٤	٥٠٠,٠٠٠ فدان	٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٤ دينار
المعز لدين الله	٣٥٨	٢٨٥,٧١٤ فدان	٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٧ دينار
المستنصر في أواخر حكمه	٤٨٧	٧٦٥,٢٥٠ فدان	٣,٠٦١,٠٠٠ دينار	؟

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي ـ ولا تزال ـ تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية. وهنا أهم المحاصيل الشتوية نقلا عن ابن مماتي[(١)]:

نوع المحصول	الغلة بالفدان	ضريبة الفدان
القمح والشعير	٢ ـ ٤٠ أردب	٣ أرادب
الفول	٢٠ ـ ٢٠ أردب	٢ $\frac{1}{2}$ ـ ٣ أرادب
العدس	٥ ـ ٢٠ أردب	٢ $\frac{1}{2}$ أرادب
الكتان	٣٠ حبلاً	٣ ـ ٦ دينار
القرط (البرسيم)	٢ ـ ٤ أردب	١ دينار
البصل	١٠ ـ ٢٠ دينار	٢ دينار
السمسم	١ ـ ٦ أردب	١ دينار
القطن	٢ ـ ٨ قنطار	١ قنطار
قصب السكر	٤٠ ـ ٨٠ ايلوجة[(٢)]	٥ دينار
القلقاس	٥ ـ ٤٠ دينار	٤ دينار
الباذنجان	٣٠ دينار	٣ دينار
النيلة	٢٦ دينار	٣ دينار
العنب والفاكهة	٣ دينار	٣ دينار

(١) كتاب قوانين الدواوين ص ٢٥٨ ـ ٢٧٠.

(٢) الأيلوجة هي الحزمة الكبيرة.

وكانت الضرائب فادحة على المواد الضرورية، كالقمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه، حتى إن متوسط الضريبة على الفدان الواحد بلغ أربعة دنانير.

وإذا كان الخراج قد بلغ ٣,٠٦١,٠٠٠ ديناراً في عهد وزارة بدر الجمالي، فإننا نستطيع أن نقدر مساحة الجزء الصالح للزراعة في أيام المستنصر على الوجه الآتي:

$\frac{٣,٠٦١,٠٠٠}{٤}$ = ٧٦٥٢٥٠ فداناً وهو مقدار قليل جداً كما نرى.

ولو كان لدينا خريطة مفصلة لمصر ونواحيها في أيام الفاطميين، لاستطعنا أن نستعين بالإحصاء القيم الذي أورده أبو صالح الأرمني في كتابه (كنائس وأديرة مصر)، حتى نقدر مساحة كل كورة بالتقريب، فنحصل على مساحة معقولة للجزء المنزرع. وما دام أبو صالح الأرمني قد أهمل مساحة كل كورة فلنكتف بأن نذكر أنه كان بمصر ١٢٢٨ ناحية و٨٣٤ قرية، وأن خراجها قد بلغ ٣,٠٦١,٠٠٠ ديناراً[١].

على أن أغلب مؤرخي مصر الإسلامية قد اتفقوا على أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم ومعاملتهم معاملة تنطوي على العطف والرعاية، ولا سيما في عهد المعز والعزيز. على أنه لما بدأ أمر الخلفاء يضعف وبدأ نجم الوزراء يعلو وسلطانهم يمتد، خرج أمر الرعية من يد الخلفاء فتصرف الوزراء حسب أهوائهم.

ولعل اليازوري هو الوحيد الذي استطاع أن يصلح ما أفسده من سبقه من الوزراء، فقد رأى أن يبيع قمح الحكومة بسعر معتدل دون أن ينتظر ارتفاع الأسعار كما كان يفعل الوزراء من قبل. وكان من أثر هذه السياسة أن خسرت الحكومة مبالغ كبيرة من المال، وخلت مخازنها من القمح الاحتياطي الذي كان ضرورياً في عهود الشدة التي جاءت بعد ذلك. ثم انتهز اليازوري فرصة زيادة المحصول في إحدى السنين، فحال دون إرهاق المرابين والتجار للفلاحين، فمنعهم من شراء المحاصيل بأسعار منخفضة في الوقت الذي كان الفلاح يعلن عن حاجته إلى المال. ثم أقام مخازن كبيرة للقمح في مدينة الفسطاط ليحول دون انتشار خطر المجاعة.

وقد أمدنا المقريزي[٢] ببيان واف يشتمل على ما كان يجبى بالدنانير من عوائد

---

(١) انظر كتابي النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢) ص ٢٦٥.

(٢) خطط ج ١ ص ١٠٣ ـ ١١١.

الأرض، وكل صنف من أصناف الصناعات، وما تحصله الدولة من الرسوم الجمركية ومستخرجات المعادن، ومن الزكاة وجزية الرؤوس، وما يتحصل من دار الضرب، وما يدخل بيت المال من التركات التي لا وارث لها.

ومما ذكره المقريزي وغيره من المؤرخين يتبين لنا مقدار خراج مصر في العصور المختلفة:

الحاكم	الخليفة	مقدار الخراج بالدينار
عمرو بن العاص	عمر بن الخطاب	١٢,٠٠٠,٠٠٠
عبدالله بن سعد بن أبي سرح	عثمان بن عفان	١٤,٠٠٠,٠٠٠
أسامة بن زيد	سليمان بن عبد الملك	١٢,٠٠٠,٠٠٠
عبد الله بن الحبحاب	هشام بن عبد الملك	٢,٧٢٣,٨٣٩
موسى بن عيسى الهاشمي		٢,٢٥٧,٠٠٠
أحمد بن محمد بن المدبر		٨٠٠,٠٠٠
أحمد بن طولون		٤,٨٠٠,٠٠٠
خمارويه بن أحمد بن طولون		٤,١٠٠,٠٠٠
محمد بن طغج الإخشيد		٢,٠٠٠,٠٠٠
كافور الإخشيد		٣,٢٧٠,٠٠٠
جوهر الصقلي	المعز	٣,٤٠٠,٠٠٠
وزارة يعقوب بن كلس	العزيز	٣,٠٠٠,٠٠٠
—	الحاكم	٣,٤٠٠,٠٠٠
وزارة اليازوري	المستنصر	٢,٠٠٠,٠٠٠ منها مليون من الشام
بدر الجمالي في سنة ٤٨٧ هـ		٣,١٠٠,٠٠٠
الأفضل بن بدر الجمالي	المستعلي	٥,٠٠٠,٠٠٠
صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٥ هـ	—	٤,٦٥٣,٠١٩
الظاهر بيبرس	—	١٢,٠٠٠,٠٠٠ (١)

(١) انفرد ابن إياس (ج ٣ ص ٢٦٦) بإيراد هذا الرقم.

٨ ـ النظام المالي في الأندلس:

وضع الأمويون أساس النظام المالي في الأندلس، وكان يتألف من الخزانة العامة، وإدارة بيت المال، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة.

وكان يشرف على الخزانة العامة أحد كبار الموظفين، ويسمى «خازن المال». ومقر هذه الخزانة القصر، وتودع فيها الأموال التي تجبى من المدن والقرى. ومن أهم هذه الأموال التركات التي يموت أصحابها دون أن يتركوا وارثاً، والضرائب المفروضة على الأسواق، والرسوم الجمركية التي تفرض على السفن، والخراج، والجزية، والأعشار.

أما موارد بيت المال، كما كان يسمى في الأندلس، فقد اقتصرت على ما يرد عليه من الأحباس (الأوقاف). وكان مقر هذا الديوان المسجد الكبير بقرطبة، يقوم هذا الديوان على صيانة المنشئات الدينية ودفع رواتب موظفي المساجد، وتوزيع الصدقات، ويشرف عليها قاضي القضاة ونوابه في الأقاليم برعاية الخليفة. ويشبه هذا الديوان من بعض الوجوه وزارة الأحباس ووزارة الشئون الاجتماعية الآن.

وأما موارد الأمير أو الخليفة الخاصة، فكان يشرف عليها موظف يعرف «بصاحب الدية»، ويشرف هذا الموظف على أرض الأمير أو الخليفة، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين، على أن يستولوا على جزء قليل من غلاتها[1].

وقد استمر هذا النظام في الأندلس حتى استولى عليها المرابطون واتبعوا نظاماً يقوم على قواعد الإسلام الأساسية وهي الزكاة. فلما أراد عمال المرابطين أن يتبعوا النظام السابق رغبة في جمع أكبر قدر من المال ثار أهالي الأندلس عليهم، واضطر أبو الطاهر (أخو السلطان علي بن يوسف) أن يقمع هذه الثورة التي اشتدت حتى جاء علي بن يوسف فقضى عليها، كما كانت هذه الثورات من العوامل الهامة التي جعلت الأندلسيين يرحبون بالحكم الموحدي ليتخلصوا من وطأة الضرائب التي اشتط العمال في جمعها على أيدي اليهود الذين اشتهروا إذ ذاك في الشئون المالية.

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة ١٩٦٥) ج ٣ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

٤ ـ النظام الحربي

(أ) الجيش في العصر السلجوقي:

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نمواً عظيماً على أثر دخول كثير من الناس في الإسلام وانضوائهم تحت لوائه. وقد بلغ عدد الجند في عهد العباسيين مئات الألوف. وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامي للدولة، تدفع لهم رواتبهم بانتظام، ومن ثم قلّت أرزاقهم تبعاً لزيادة عددهم. ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد، أصبح الجند يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهما(١). وكان إلى جانب الجند النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب.

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده، فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح، وهؤلاء من جند العرب، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين. وفي العصر العباسي الثاني دخل في الجيش عنصر جديد أصبح أشد خطراً من الفرس والخراسانيين، هو عنصر الأتراك ويكونون القسم الرابع من الجيش.

وكان الجيش العباسي يتألف من عدة فرق تضم النظامية والمتطوعة. وتتألف هذه الفرق من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرماح والحراب والتروس، ومن الرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب ويلبسون الخوذ لتقي رؤوسهم والتروس لتقي صدورهم، ولها أجزاء للساعدين والساقين. ولكل فرقة من فرق الجيش فصيلة لقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين، ويرتدون الملابس التي فيها النيران لاقتحام الحصون المشتعلة.

وكان الجيش العباسي بوجه عام يتألف من الفرسان والمشاة أو الرجالة، والمنجنيقيين والنشابين (وهم الذين يرمون النشاب)، والنفاطين، والزراقين (وهم الذين يقذفون بالنار الإغريقية التي اقتبسها اليونان من الشرق)، والدبابين والعيارين، وهم رماة الحجارة من المقالع، وقد اشتهروا في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون، كما كان الجيش يتألف من المهندسين والأطباء والبياطرة والمرتزقة.

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية، وهو ما يعبر عنه اليوم بالقرعة العسكرية أو

---

(١) الدرهم يساوي أربعة قروش تقريباً.

التجنيد، تقرر بعد اختيار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد. وقد وصف هلال الصابي[١] طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب[٢].

وقد ارتقى نظام الجاسوسية عند العباسيين، إذ كانوا يستخدمون الرجال والنساء، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم.

ولكي يحمي العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهي الثغور. ومن هذه الثغور طرسوس، وأدنة، والمصيصة، ومرعش، وملطية، وكانت تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي الروم.

وقد بلغ الجيش في عهد الدولة الزنكية درجة عالية من الرقي ودقة التنظيم حتى أصبح مثالاً يحتذى في البلاد الإسلامية الأخرى. وقد عني عماد الدين زنكي عناية خاصة بتنظيم الجيش للقضاء على الإمارات المحلية المتنافسة في الموصل والجزيرة والشام وتوحيدها في جبهة إسلامية تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين.

ولذلك وضع عماد الدين زنكي على رأس ديوان الجيش موظفاً كبيراً عرف باسم «أمير حاجب» كان يلي نائب السلطنة في الرتبة. وكان هذا القائد «ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمراجعة النائب. وكان عليه تقديم من يُعْرض (على السلطان) ومن يردّ[٣]، وعرض الجند»[٤]، كما كان ينظر في مخاصمات الجند وما يتعلق بأمور الإقطاعات الخاصة وغير ذلك[٥]. وكان «أمير حاجب» يعتبر أكبر قواد عماد الدين زنكي.

وكان جيش الأيوبيين والمماليك من بعدهم يقوم على التقسيم العشري، بحيث ينظم أمراء الجند بشكل متدرج، فيلقب أكبرهم بمقدم ألف، ويليه أمير أربعين، ثم أمراء العشرات فالخمسات. وكان هذا التقسيم متبعاً عند السلاجقة قبل استيلائهم على بغداد سنة ٤٤٧ هـ، ويظهر أن عماد الدين زنكي اتبع نفس هذا التنظيم الذي يعد استمراراً للنظم السلجوقية من جهة وأساساً للنظم المملوكية من جهة أخرى.

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٣ ـ ١٤.
(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة) ج ٣ ص ٢٨٥.
(٣) يعني ومن ترفض مقابلته.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩.
(٥) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٢١٩.

وكان جيش عمادالدين زنكي يتألف من الخراسانيين والتركمان[1] الذين استعان بهم في قتال الصليبيين، ومن الشآميين وخاصة أهل حلب الذين اشتركوا في كثير من المعارك ضد الصليبيين في شمالي الشام وقاموا بدور هام في الدفاع عن حلب وأعمالها. كما استعان عماد الدين زنكي بأهل حماة الذين اتخذهم حرساً خاصاً له. وهناك فرق أخرى من البدو والأكراد التي تألف منها جيش زنكي بقسميه النظامي (أو المرتزقة) والمتطوعة.

كذلك أدخل عماد الدين زنكي نظام التجنيد الإجباري في المناطق المعرضة لخطر الصليبيين باعتباره نوعاً من الجهاد. كما اهتم بفرض حصار اقتصادي عند حصار المدن ليحول دون وصول المؤن إليها، واشترك مع جنده في الهجوم لإثارة الحماس في نفوسهم ورفع روحهم المعنوية. وتجلت براعة زنكي وقواده في استخدام أساليب القتال كنصب الكمائن[2] وشن الغارات على معسكر العدو والانسحاب بسرعة لإثارة الخوف في نفوس الجند ونشر الفوضى في صفوفهم[3].

وقد اهتم عماد الدين زنكي بترقية فن حصار المدن الحصينة المنتشرة في الجزيرة والشام، واعتمد على الجواسيس الذين كانوا يمدونه بأخبار العدو وتحركات جيوشه حتى يستطيع وضع خطة حربية سليمة[4]؛ ففي مدينة الرها طلب زنكي من أهل الحصن تسليمه فرفضوا، فأمر بضربه بالمنجنيقات وأخذ جنده يوالون هجماتهم بلا انقطاع لقتال الحامية في الوقت الذي أخذ النقابون ينقبون بعض الأماكن التي تحت الأبراج حيث وضعوا الأخشاب وأشعلوا فيها النيران، فسقطت الأبراج واحترق السور وفتح زنكي الطريق أمام الجيش لدخول الحصن والاستيلاء عليه[5].

(ب) أسلحة الجيش:

وقد كشف البحث الحديث خطأ النظرية التي ذهب أصحابها إلى أن المواد المفرقعة من اختراع اليونان والرومان الذين عرفوا المواد الملتهبة التي استخدمت قديماً في الحروب، ومن بينها النار الإغريقية التي لا علاقة لها بالمواد المفرقعة المتصلة بالنفط، والتي ساعدت على تطوير مجرى الحرب وعاونت على القيام بكثير من الأعمال والمشاريع العمرانية، كشق الطرق بين الجبال وما إليها.

ونقرأ كثيراً من أعمال النفط وفرق النفاطين التي اشتهرت في الفتوح الإسلامية، ولا

(١) ابن القلانسي ص ٢٧٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٤.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٠.
(٥) ابن القلانسي: ص ٢٧٩.

سيما في العصر العباسي، وما كان لها من أثر بعيد في حصار المدن وتمهيد السبيل لفتحها بعد إحراق بيوتها الخشبية، كما حدث في حصار حصن هرقلة (بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف) في عهد الرشيد. وكان لكل فرقة من فرق الجيش فصيلة من النفاطين (بفتح النون والفاء مع التشديد) لقذف النفط، يرتدي رجالها الملابس التي لا تؤثر فيها النيران عند اقتحامهم الحصون المشتعلة.

وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أخذ الأوروبيون عن المسلمين المواد المفرقعة المشتعلة على ملح البارود والكبريت والفحم. وقد دحض المستشرق الألماني جرجي يعقوب الرأي القائل إن القديسة «بربارة» اخترعت هذا المسحوق حين أغار الوندال على إفريقية واستخدمته للمرة الأولى، حتى أصبحت هذه القديسة شعاراً لفرق المدفعية عند كثير من الأمم حتى اليوم.

وقد عرف ثلج الصين (نترات البوتاسيوم أو ملح البارود) في بلاد الصين في النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حيث نجد استخدام الصينيين المواد المفرقعة للمرة الأولى عند هجوم أجتاي التتارى على إحدى المدن الصينية سنة ٧٨٢ هـ (١٣٣٢ م)، وهذه المواد المفرقعة عبارة عن أسهم نارية ومواد مدمرة كانوا يلقونها على العدو إذا حاصروه في زاوية لا يمكنه الإفلات منها. وقد أخذ المسلمون نترات البوتاسيوم عن الصين وأطلقوا عليها اسم ثلج الصين الذي استعمل كعنصر أساسي في صناعة الأسلحة النارية التي تعرف باسم «طوربيد». فوصفها حسن الرماح (بفتح الراء والميم مع التشديد) في كتابه عن الرماية بأنها «بيضة تخرج وتحرق». وقد عرف المسلمون النار الإغريقية كما عرفوا غيرها من أسلحة الحرب التي أخذها عنهم الأوروبيون.

(جـ) إمرة الجيش:

وقد عدد ابن طباطبا[1] الصفات التي يجب ان تتوافر في قائد الجيش فقال: «قال بعض حكماء الترك: ينبغي أن يكون في قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان: جرأة الأسد، وحملة (أي قوة تحمله) الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وغارة الذئب، وحراسة الكركي، وسخاء الديك، وشفقة الدجاجة على الفراريج، وحذر الغراب، وسِمَن تَعْرو، وهي دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والكد».

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه، لأنه يعتبر نائبه في القيادة وفي إمامة

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ٥٧.

الصلاة. وإذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس، فيصبح هذا القائد بمثابة «قائد القواد». وإذا انتهى الفتح ووقف القتال أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم كما هو الحال في عصرنا.

ويرجع إلى قواد العرب تنظيم طريقة القتال، فقد كانوا في الجاهلية يتبعون طريقة الكر والفر في القتال، فيكرون على العدو، وإذا ما آنسوا في أنفسهم ضعفاً فروا، ثم عادوا فكروا، وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام.

غير أن قواد المسلمين لم يرتاحوا لهذه الطريقة، ووجدوا أنها لا تكفل لهم النجاح ولا تصلح لقتال الجنود المنظمة، ونزلت الآية الكريمة﴿إنّ الله يُحِبّ الذين يُقَاتِلون في سَبِيلِهِ صفّاً كَأَنّهم بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (١). وأخذ المسلمون في أيام النبي يقفون للقتال صفوفاً كما يفعلون في الصلاة، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامنين، وليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه.

وفي عهد الأمويين والعباسيين اختلط العرب بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة، أي تقسيم الجيش إلى كتائب، تكون إحداها في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى «قلب الجيش»، وتوضع واحدة إلى يمينها وتسمى «الميمنة»، وأخرى إلى يسارها وتسمى «الميسرة»، ثم تكون أمامها كتيبة (من الفرسان في الغالب) وتسمى «المقدمة»، وخلفها كتيبة تسمى «ساقة الجيش» ولذلك تركوا نظام الصفوف. وبعد تقدمهم في المدنية تفننوا في طرق تعبئة الجيوش.

وقد عدل العرب عن اصطحاب نسائهم معهم إلى ميادين القتال، بعد أن كن يصحبن الجيش ويخصص لهن أماكن في المدن الحصينة. وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على كل من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالي البلاد المفتوحة بسوء. ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر، كما كان الجندي لا يمكث بعيداً عن أسرته أكثر من أربعة أشهر وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية في أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفي أثناء المعارك الحربية، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس في نفوسهم. وقد اتصف الجندي المسلم بالتفاني في القتال لاعتقاده بأن من يموت في سبيل الله دخل الجنة.

---

(١) سورة الصف ٦١ : ٤.

ومما ذكره ابن الأثير[١] عن سير الخليفة المسترشد العباسي (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) لحرب دبيس بن صدقة بن مزيد صاحب الحلة الذي هدد الخليفة بتخريب بغداد بعد أن كحل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أخاه، نستطيع أن نتبين بعض الخطط التي كانت تتبع في المعارك الحربية فقد ندب الخليفة الأمير آقسنقر لحرب دبيس، واستعد الخليفة لحربه واستنفر الشعب للقتال ووزع عليهم الأموال والسلاح. وفي شهر ذي الحجة سنة ٥١٦ هـ نادى «أهل بغداد: النفير النفير، الغزاة الغزاة! وكثر الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة، وبرز الخليفة... وعبر دجلة، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحة، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني (أي من حديد صيني)، ونزل الخيام، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طرد وشيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل وغيرهم من الأعيان. وكان البرسقي قد نزل بقرية جهار طاق ومعه عسكره، فلما بلغهم خروج الخليفة من بغداد عاد إلى خدمته فلما رأوا الشمسة (أي الشمسية)، ترجلوا جميعهم وقبلوا الأرض بالبعد منه (أي على بعد منه). ودخلت هذه السنة، فدخل الخليفة في مستهل المحرم بالحديثة بنهر الملك، واستدعى (آقسنقر) البرسقي والأمراء واستحلفهم على المناصحة في الحرب، ثم ساروا إلى النيل[٢] ونزلوا بالمباركة، وعبى (عبأ) البرسقي أصحابه، ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصته، وجعل دبيس أصحابه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً، وجعل الرجالة بين يدي الخيالة بالسلاح، وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي النساء، فلما تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف والعبيد بالملاهي. ولم ير في عسكر الخليفة غير قارىء ومسبح. فقامت الحرب على ساق.. فجعل عنتر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي، فتراجعت على أعقابها... وعاد وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأول. فلما رأى عسكر واسط ذلك ومقدمهم آقسنقر حمل وهم معه على عنتر ومن معه وأتوهم فبقي عنتر في الوسط وعماد الدين من ورائه والأمراء البكجية بين يديه. فأسر عنتر وأسر معه بريك ابن زائدة وجميع من معهما ولم يفلت أحد. وكان (آقسنقر) البرسقي واقفاً على نشز (مرتفع عال) من الأرض، وكان الأمير آق بوري في الكمين في خمسمائة فارس. فلما اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دبيس، فانهزموا جميعهم وألقوا نفوسهم

(١) ج ١٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) يقصد نهر دجلة الذي كان يطلق عليه النيل أحياناً كما كان يسمى نهر النيجر النيل أيضاً وهذه الإطلاقات نشأت من عظم نهر النيل وشهرته حتى أصبح علماً على كثير من الأنهار.

في الماء، فغرق كثير منهم وقتل كثير. ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب، جرد سيفه وكبر وتقدم إلى الحرب. فلما انهزم عسكر دبيس وحملت الأسرى بين يديه، أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً. وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل، وعسكر البرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل. ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً. وجعل نساء دبيس وسراريه تحت الأسر سوى بنت إيلغازي وبنت عميد الدولة ابن جهير، فإنه كان تركهما في المشهد. وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة... وأما دبيس بن صدقة فإنه لما انهزم نجا بفرسه وسلاحه وأدركته الخيل ففاتها وعبر الفرات... واختفى خبره بعد ذلك وأرجف عليه بالقتل ثم ظهر أمره...».

(د) **الجيش في مصر:**

وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوي يكون عدتهم وقت الحروب، ويتكون هذا الجيش من الأمراء وطوائف الجند، ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تجاوزها إلى غيرها، فالأمراء كانوا يطوقون بأطواق الذهب، والبعض الآخر يركب في المواكب بالقضب الفضية. أما طوائف الجند فتتكون من عدة عناصر، كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان. ولكل طائفة من هؤلاء قائد يشرف عليهم ويقوم بترتيبهم في مواقفهم. وينسب بعض هذه الطوائف إلى الخلفاء كالحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ الفاطمي والآمرية نسبة إلى الخليفة الآمر الفاطمي، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء كالجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي، والأفضلية نسبة إلى الأفضل بن بدر الجمالي[١].

وفي عهد الأيوبيين أخذ السلطان صلاح الدين الأيوبي جيشاً من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية، حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاقتنى عدداً كبيراً من المماليك كان معظمهم من الأتراك. ويرجع السبب في ذلك إلى المنافسة التي قامت بينه وبين أخيه العادل الذي كان يرى أنه أحق منه بالملك، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك، فتفرق عنه جيشه من الأكراد، ولم يبق معه غير مماليكه وطائفة من خواصه، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه. فلما تولى نجم الدين أيوب سلطنة مصر بعد أخيه العادل، حفظ للمماليك شجاعتهم وولاءهم حين تفرق عنه الأكراد، فاستكثر من شرائهم، وبنى لهم بجزيرة الروضة قلعة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية والأقوات، وأنشأ بها جامعاً وستين برجاً. ولما تم بناء هذه القلعة انتقل إليها الملك الصالح بأسرته واتخذها داراً لملكه وأسكن فيها مماليكه البحرية.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢.

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت الدولة الأيوبية وولي المعز أيبك سلطنة مصر، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل. ولما ولي الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية عرش مصر أعاد قلعة الروضة إلى ما كانت عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وأسكن الأمراء في أبراجها.

ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيماً تاماً، ولا عجب فقد كان قائداً ممتازاً، ظهرت كفاءته في موقعة المنصورة التي دارت بينه وبين الصليبيين وكان سلفه عز الدين أيبك الذي تزوج من شجرة الدر رئيساً لقواد المماليك. وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف: جنود نظامية تنفق عليهم الدولة، ومماليك السلطان وتنفق عليهم الخاصة السلطانية ويؤلفون حرس السلطان، وكانوا ذوي ثروة كبيرة ونفوذ عظيم بحيث كانوا يهددون السلطان بالخلع إذا شاءوا. أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم. وقد حافظ المماليك على صبغتهم الحربية حتى بعد ضعف نفوذهم باستيلاء السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧ م. وكانوا ينظمون جيوشهم على هيئة مربعات، يقف فرسانهم في وسطها ثم يدور القتال بغير نظام، لذلك لم يكن من الصعب إلحاق الهزيمة بهم على الرغم مما امتازوا به من الشجاعة والبسالة.

(هـ) الجيش في المغرب:

عرفت قبيلة لمتونة المرابطية بشدة البأس وبراعة الرمي وقد أدخل يوسف بن تاشفين على الجيش المرابطي تعديلات جوهرية حتى أصبح من أعظم جيوش العالم عدداً وسلاحاً. وكان باعتباره أمير المسلمين هو القائد الأعلى للجيش. وعمل المرابطون على الاحتفاظ بخططهم الموروثة في تنظيم المعارك[1].

وقد اشتهر اللمتونيون بقوة البأس في الحروب، لا يفرون أمام العدو مهما تفوق عليهم في العدد، كما اشتهروا بركوب الخيل؛ لذلك كان معظم جيشهم من الفرسان. وكان أشجع جندهم من المشاة يقفون في الصف الأول متقلدين الحراب الطويلة التي كانوا يغرسونها في الأرض. وكانت قوة الفرسان لا تقل عن مائة ألف مقاتل من المدربين على الحروب والمزودين بأحسن السلاح، ويتألف الجيش المرابطي من فرق يحمل كل منها علماً خاصاً عليه نقوش تميزها عن سائر فرق الجيش، وعلى كل من هذه الفرق قائد خاص. ويسير الجند إلى حومة الوغى بين قرع الطبول وأصوات الأبواق، وقد رتبت صفوفه حسب القبائل المغربية على اختلافها.

---

(١) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (القاهرة ١٩٥٨) ص ٤٧٨.

وكان ترتيب الجند المرابطي يقوم على نظام خماسي، هو المقدمة، والمؤخرة، والميسرة، والميمنة (ويؤلفان جناحي الجيش)، والقلب: فالمقدمة تتألف من الجند المشاة، والجناحان من وحدات الفرسان الخفيفة وحملة القسي وحملة النبال. ويتألف القلب من وحدات الفرسان الثقيلة، وإليها يرجع الفضل غالباً في إحراز النصر في المعارك الحاسمة. أما القوى الخفيفة أو الاحتياطية فكان يقودها يوسف بن تاشفين باعتباره القائد الأعلى للجيش المرابطي، وتتألف من صفوة الجند وقوى الحرس على اختلافها(١).

وتنتمي كل فرقة من الجيش المرابطي إلى إقليم أو مدينة: فالأندلسيون مثلاً يؤلفون قسماً خاصاً من الجيش ويحملون أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها: وتتألف قوة الحرس الخاص من أكثر الجند شجاعة وتمتاز بحسن القوام وقوة البدن والشجاعة والبراعة. وقد استعان يوسف بن تاشفين بتجار الرقيق في إقليم غانة، واختار أمهرهم ودربهم على جميع الفنون الحربية، وزودهم بالسلاح والخيل، وأنشأ منهم حرسه الخاص، وكان يتألف من ألفي جندي.

وكان جند المرابطين يحاربون بنفس الروح الإسلامية التي تحلى بها الجند في صدر الإسلام، يحاربون للجهاد في سبيل الله وليظفروا بإحدى الحسنيين، النصر أو الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين. كان حب المرابطين للقتال في سبيل الله يظهر ظهوراً واضحاً في حروبهم ضد النصارى من الأسبان. ومن تقاليدهم الصلاة قبل بدء القتال وإذاعة أنباء النصر من أعلى المآذن وتلاوة البيانات الخاصة بالحروب من فوق المنابر في كافة أرجاء الدولة المرابطية.

وكانت أسلحة الجيش المرابطي في عهد يوسف بن تاشفين خفيفة تمثل البداوة، وتتألف من درق اللمط وسيوف الهند ومزارق الزاف والقنا(٢) الطوال. ولما طال مقام المرابطين في الأندلس، اقتبسوا كثيراً من أسلحة ملوك الطوائف والأسبان، فاعتمدوا على الخيل مع اعتمادهم على الجمال التي يطلق عليها سفن الصحراء، وتسلحوا بالزرد والدروع والسيوف. ويبدو أن أسلحة المسلمين في الأندلس والمعارك التي خاضوها كانت في مستهل الحكم المرابطي في هذه البلاد على ما ذكره أبو بكر الطرطوشي(٣) حيث يقول:

«فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا (الأندلس)، وهو تدبير نفعله في لقاء عدونا، أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة، فيصفون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض،

---

(١) أشباخ ص ٤٧٩.
(٢) القنا جمع قناة وهي نوع من الرماح.
(٣) سراج الملوك ص ١٧٩.

وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم، ولا يقوم رجل منهم على قدميه. فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب[١]، والرجالة بالمزاريق، وصدور الرماح تلقاهم، فأخذوا يمنة ويسرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله».

ولننتقل الآن إلى الكلام على الجيش في عهد الموحدين:

كان النظام الذي وضعه المهدي محمد بن تومرت نظاماً عسكرياً بحتاً، وكان ذلك أمراً ضرورياً في الجهاد؛ فوضع لأتباعه نظاماً يسمى «الطبقات» تتميز بمقتضاه كل طبقة عن الأخرى في وقت السلم والحرب. وفي مقدمة هذه الطبقات أهل العشرة وهم صحابة ابن تومرت ووزراؤه الذين منهم عبد المؤمن بن علي الذي ولي الأمر بعد ابن تومرت. وكانت الطبقات كلها تشترك في الحرب عند الضرورة، يدل على هذا موقعة البحيرة المشهورة التي هزم فيها المرابطون الموحدين هزيمة منكرة وفقد فيها ابن تومرت جل صحابته وتوفي بعدها بقليل. ولم يتخذ الجيش الموحدي طابعه الكامل إلا في عهد عبد المؤمن بن علي الذي يعد من أعظم قواد العصور[٢].

ولما آلت الخلافة إلى عبد المؤمن ألغى نظام الطبقات الذي لم يبق منه سوى مجلس الخمسين والسبعين. أما النظام الحربي فقد بقي على ما كان عليه في عهد ابن تومرت.

وكان المرابطون ـ كما ذكرنا ـ يعتمدون على الفرسان. أما الموحدون فقد كانوا أهل جبال؛ لذلك كانوا يعتمدون في حركاتهم الحربية على أنفسهم لا على دوابهم. وقد اقتبس عبد المؤمن تنظيم الصفوف من الطريقة الجرمانية، ولعله أخذها عن جند الأسبان أو النرمانديين في صقلية في حرب تونس والمهدية، فقد جعل كل صف يتألف من عشرة من الجند، ولكل وحدة قائدها الخاص. وكان عبد المؤمن يعنى عناية خاصة بتدريب الجند والقواد الذين كانوا يتميزون بخفة الحركة والبراعة الحربية. ويختار المشاة في الجيش الموحدي من أبناء رجال القبائل الجبلية ولا سيما قبائل مصمودة، الذين كانوا يحملون حراباً يبلغ طول كل منها اثنا عشر قدماً، وتسمى «الأمراس»، يقذفون بها في وجوه الأعداء في قوة وسرعة[٣]...

---

(١) بفتح النون والشين مع التشديد.

(٢) أشباخ: تاريخ المرابطين والموحدين ص ٣٠٥.

(٣) الحلل الموشية ص ١١٥ ـ ١١٦.

وكان الجيش الموحدي ينقسم بوجه عام قسمين: الأول هو الجيش النظامي ويختار من أبناء القبائل المغربية، والثاني ويختار من رجال الحرس وكانوا من أهل الجنوب ويقوم أمير المؤمنين بنفسه باختيارهم من أشد الشبان قوة وأعظمهم إخلاصاً. ولا يشترط فيهم أن يكونوا من المغاربة، بدليل وجود كثيرين من مسلمي الأندلس والصقالبة والسودانيين. وكان الجندي يتدرب تدريباً كافياً ويحصل على أكبر نصيب من المران الذي يعده للقتال ويكفل له البراعة في وضع الخطط الحربية.

وكانت الدولة الموحدية تزود الجند النظاميين بالسلاح والغذاء والملابس، وتقدم القبائل كل ما يطلبه أمير المؤمنين من شبان القبائل للاشتراك في المعارك أو الجهاد ضد نصارى الأندلس. وكان كثير من المتطوعين يقدمون أنفسهم للجهاد في سبيل الله، بخلاف الجند الذين كانت القبائل المغربية تقدمهم للخدمة العسكرية الإجبارية. وكذلك كانت القبائل تسهم في تقديم الذخائر والمؤن عند نشوب الحروب.

وإذا عزم أمير المؤمنين على خوض غمار الحرب ضد أعدائه، عقد مجلساً حربياً يعرض أمام أعضائه العوامل التي دعت إلى القتال، ويبحث مع قواد جيشه خطة المعركة وما يتصل بها من الهجوم أو الارتداد والخدع. وكانت الخدع البارعة من أهم فنون الحرب عند الموحدين، كأن يتصنعوا الفرار أو يتظاهروا بالانهزام أو نحو ذلك. وكان للموحدين عيون يبثونها للوقوف على مواطن القوة أو الضعف عند العدو، ثم يضعون خططهم على ضوء ما يتوافر لديهم من المعلومات الصحيحة. وإذا ما استقر الرأي على خوض غمار المعركة عرض أمير المؤمنين الجيش واشترك في ترتيبه، ثم ضرب قبته الحمراء، يخفق عليها علمه الأبيض، وارتدى ملابس القتال، وامتطى فرسه المطهمة وقبض على سيفه المسلول بإحدى يديه، وحمل المصحف الشريف في يده الأخرى. وكان ذلك إيذاناً بنشوب المعركة التي تقوم عند الموحدين على فكرة التربيع(١)، وتوضع كل فرقة من الجيش تحت إمرة قائد خاص تؤلف فرقته إحدى الزوايا الأربع التي يتألف منها المربع. وتتألف قوة الجيش الرئيسية من المشاة النظاميين الذين يقفون في مقدمة الجيش، ويتسلح جندها بحراب طويلة. ويلي هؤلاء صفوف من الجند تسلحوا بالسيوف وعليهم الدروع، ثم يليهم حملة النبال والقسي.

وقد تفوق الموحدون على المرابطين في فن الحصار، حتى إن أكثر المدن منعة كانت تتحطم أمام سلاح الحصار الموحدي. وكان الموحدون يستعملون أسلحة متنوعة في

(١) الحلل الموشية ص ٩٨.

الحصار : فأحياناً يستعملون الحراقات ، أو يقومون بقذف كميات ضخمة من الأحجار ، أو يطلقون المياه الغزيرة في قوة وعنف . وكان عبد المؤمن نفسه أستاذاً في فن الحصار ففي حصار فاس التي قاومت أسوارها المنيعة مدة طويلة ، نرى عبد المؤمن يستعين بمياه النهر التي أمر بحفظها في خزانات ضخمة ، ثم يطلقها دفعة واحدة على الأسوار . وكذلك نراه يحرق أبراج مدينة وهران بالنيران المحرقة المصحوبة بقذف الآلات ، ويفتح مدينة المهدية بحيلة مماثلة ، وذلك بتحطيم جدرانها القوية التي يسير عليها فارسان متحاذيان ؛وبمثل هذه المهارة استولى عبد المؤمن على مدينة مراكش التي لم تقف أسوارها المنيعة عقبة في سبيل فتحها . وعلى هذا النحو سقط في أيدي الموحدين كثير من القلاع في أضيق المفاوز الجبلية في المغرب والأندلس ، وذلك بفضل آلات الحصار الضخمة التي كانت تقذف كتلاً هائلة من الحجارة والكرات الملتهبة من الحديد .

(و) إمرة الأسطول :

كانت السفن الإسلامية تبنى في معظم المرافىء البحرية السورية والمصرية ، كما كانت هذه السفن أضخم من السفن البيزنطية ، كما كثر عدد سفن البحرية التجارية ولقيت التجارة البحرية كل تشجيع . وكان بكل مرفأ منارة تدعى «الخشب» . ويظهر أن الأسطول لم يكن مؤلفاً من السفن التي ابتنتها الحكومة للمهام الحربية فحسب ، بل كان لزاماً على كل مقاطعة أو ثغر أن تقوم بتقديم عدد معين من السفن إذا طلب منها ، وذلك في أيام الفاطميين في مصر . وعلى هذا النحو سار صلاح الدين الأيوبي . ولكل سفينة حربية قائد (أو مقدم) يتولى القيادة في سفينته ، ويقوم بتدريب الجند وتجهيز الحملات ، في الوقت الذي نرى موظفاً آخر يدعى «الرئيس» يتولى الإشراف على الملاحة ، ويدعى قائد الأسطول أمير الماء أو أمير البحر ومنه اشتق لفظ Admiral أو Amiral .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعلموا هذه الفنون من البيزنطيين أصبحوا أساتذة أوروبا ، لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة . يدلنا على ذلك أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوروبا لا تزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم . وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الابيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من أثر غيرهم من شعوب أوروبا . ويقول فون كريمر : ومما يوضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الأقطار المسيحية ، أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوبي أوروبا ؛ نذكر من تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ «حبل» العربي ، وكلمة Arsenal (وبالإيطالية

Darsonal) المأخوذة عن لفظ «دار الصناعة» بالعربية، وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ «غراب» العربية.

(ز) البحرية في مصر:

اشتهرت مصر بصناعة المراكب النيلية التي كانت تسير في النيل تحمل حاصلات البلاد بين الوجهين البحري والقبلي، كما اشتهرت أيضاً بصناعة السفن التي تألف منها الأسطول المصري. وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس[1] والفرما[2].

وقد اشتهر أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ) بإنشاء المراكب الحربية، وجعل لها حول جزيرة الروضة أحواضاً كانت تعرف باسم «صناعة الجزيرة». وظلت صناعة السفن بجزيرة الروضة حتى نقلها محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) إلى فسطاط مصر في المصنع المعروف باسم «صناعة السفن»، فغدت المراكب الحربية والنيلية تصنع في «صناعة مصر» تارة وفي «صناعة الجزيرة» تارة أخرى.

وقد اهتم الفاطميون بعد قيام دولتهم في إفريقية بسيادة البحر الأبيض المتوسط، لأنهم كانوا يقدرون أثر العامل البحري في قصة النضال بين الإسلام والمسيحية، لذلك عنوا بإنشاء المواني البحرية المحصنة، فأسسوا مدينة المهدية واتخذوها قاعدة لأسطولهم في البحر الأبيض المتوسط، كما حرصوا على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار، فاستولوا على صقلية واتخذوا من موانيها قواعد يغيرون منها على مواني حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد أغار الفاطميون على بلاد الروم سنة ٣١٦ هـ، وكانت هذه الحملة خاتمة لسلسلة من الحملات البحرية على هذه البلاد حيث أغارت على لمبارديا وقلورية (Calabria) واستولت على مدينة تارانت، وحاصرت نابولي ويممت شطر جنوة سنة ٣٢٣ هـ وأغارت على جزيرة سردانية ودمرت أساطيل الفرنجة، ثم استولت على

---

(١) تنيس (بكسرتين وتشديد النون): اسم مدينة قديمة كانت قائمة في جزيرة صغيرة في الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة.

(٢) الفرما (بالتحريك) من حصون مصر القديمة في الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط.

جزيرة قرسقة، وغنم الفاطميون بذلك بلاداً ذات قيمة استراتيجية عظيمة. وبذلك رجحت كفتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلا شأنهم في العالم الإسلامي[١].

ولم تقف عناية الفاطميين عند حد تكوين الجيش، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين بلاد الشام (وكانت تابعة لمصر) واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوي؛ فأنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين المراكب الحربية في مدينة مصر وفي الإسكندرية ودمياط. وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانيء الشامية مثل عكاء وصور وعسقلان.

وقد أنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بني فيها ستمائة مركب، وصفها المسبحي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله: «إنه لم يرَ مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً». ويحدثنا المقريزي[٢] أنه كان على رأس الأسطول المصري في ذلك العصر عشرة قواد، عليهم رئيس هو «قائد القواد»، ويسمى في عهد الفاطميين «أمير الجيش» وفي عهد المماليك «ناظر الجيش».

وكان هؤلاء القواد يتناولون مرتبات تبلغ عشرين ديناراً في الشهر، كما كان للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها. ولم يزل الأسطول المصري محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بين الصليبيين؛ فأمر شاور[٣] وزير الخليفة العاضد الفاطمي بإحراق الفسطاط ليحول دون وصول العدو، كما أحرق مراكب الأسطول.

ولما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي، اهتم بأمر الأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن المواني الإسلامية، فخصص له ديواناً كبيراً عرف باسم «ديوان الأسطول» وأقر له ميزانية خاصة، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل.

وكان معظم أفراد الشعب في عهد الدولة الأيوبية يكرهون الحروب البحرية، حتى كان السلاطين يضطرون لإرغام الناس على الاشتغال في الأسطول إذا دعت الضرورة إلى تجهيزه. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أصبحت خدمة الأسطول في عهد الدولة الأيوبية عاراً يسب به الرجل، فإذا قيل لرجل: «يا أسطولي» غضب غضباً شديداً. ويظهر أن تلك الكراهية إنما جاءت على أثر تحول الحروب الصليبية إلى مصر، فإذا قيل لرجل: يا

---

(١) ابن عذارى: المغرب ج ١ ص ١٩٨.
Fournel: les Berbères. pp. 150-151

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ١٣٣.

(٣) بفتح الواو هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار.

أسطولي، فكأنهم يعنون بذلك أنه مثل الصليبيين الذين حملتهم الأساطيل، ويرمز بهذا إلى الشر، وقد تغيرت نظرة الناس إلى رجال الأسطول واحترامهم لهم حتى أطلقوا عليهم «المجاهدين في سبيل الله» و«الغزاة في أعداء الله».

(جـ) البحرية في المغرب:

كان للمرابطين في عهد يوسف بن تاشفين أسطول صغير يتألف من السفن التي تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس. وكان عدد هذه السفن كبيراً بالنسبة إلى السفن الحربية. وقد ارتقى الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف، وأظهرت وحداته نشاطاً ملحوظاً في البحر الأبيض المتوسط. يؤيد هذا ما ذكره الإدريسي(1) «من أن أحمد بن عمر كان والياً لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله». ومن ثم نرى أن الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف كان ضخماً، وأنه كان ينقسم إلى أقسام أو وحدات. وقد انتصر الأسطول المغربي على أسطول الفرنجة في فتح بلنسية وجزر البليار(2). واشتهر من أمراء البحر في عهد علي بن يوسف: علي بن ميمون الذي كانت له جولات بحرية رائعة على سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا.

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين تفوقت قوتهم البحرية. وكانت سفنهم على نوعين أحدهما يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية كما كانت الحال في عهد المرابطين، وثانيهما يتألف من السفن الحربية. وقد ذكر المؤرخون أن أسطول الموحدين بلغ أربعمائة سفينة ألقت مراسيها على جميع سواحل بلاده(3).

وقد تجلت عظمة الأسطول الموحدي منذ عهد عبد المؤمن بن علي. ثم نهض نهضة مباركة في عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن، وظهرت قوته في المعارك البحرية التي قامت بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة في بلاد الأندلس، وفي موقعة المهدية التي كان يحتلها النورمانديون أصحاب صقلية، وتغلب الموحدون بقيادة أمير البحر عبد الله ابن ميمون على أسطول النورمانديين الذي كان يتألف من مائتي سفينة على الرغم مما أظهروه من براعة في القتال، وأغرق وأحرق أكثر سفنهم.

---

(1) المغرب وأرض السودان ص ٥٤.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٧.

(3) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨. ومن هذه السفن ١٢٠ سفينة بالمهدية (وكانت تسمى حلق المعمورة) ومائة سفينة بمواني سبتة وطنجة والريف، ومائة سفينة بسواحل إفريقية (تونس الآن) ووهران ومرسى هنين، و٨٠ سفينة بعدوة الأندلس.

وقد عني عبد المؤمن بن علي عناية خاصة بالجيش والأسطول، وأنشأ المدارس الحربية لتخريج القواد الأكفاء والجند البواسل. ولكي يحافظ على الروح العسكرية جمع عبد المؤمن الشبان من القبائل المغربية ولا سيما من قبيلة مصمودة. وكانت المدارس الحربية تقوم إلى جانب الفنون الحربية بتدريس كتب المهدي محمد بن تومرت ونشر تعاليمه. ويحفظ الطلبة وصايا المهدي عن ظهر قلب.

ومن أهم مناهج الدراسة التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها، وركوب الخيل والسباحة وأساليب الحصار براً وبحراً. وعلى مقربة من مدينة مراكش أنشأ الموحدون بركة «وضعت فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة سفن التدريب» حيث كان الطلاب يتدربون على التجذيف وقيادة السفن وكل ما يتصل بالفنون الحربية.

وكان التعليم في هذه المدارس على نفقة الدولة الموحدية، عدا ما كان يمنح للطلاب من الخيل والأسلحة. وفي المدارس تخرج كثير من القواد وكبار الضباط وحكام القلاع(١).

ولا شك أن هذه المدارس العسكرية والأساطيل البحرية والجيوش الجرارة كانت تعتمد على دعامة اقتصادية متينة، بدليل ما ذكره عبد الواحد المراكشي(٢) أن خراج المغرب في عهد الموحدين بلغ ما يقرب من مائة وخمسين بغلاً من إفريقية وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها.

٥ ـ النظام القضائي

(أ) القضاء في العصر العباسي الثاني:

تطور النظام القضائي في العصر العباسي تطوراً كبيراً؛ فقد ضعفت روح الاجتهاد في الأحكام لظهور المذاهب الأربعة وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. فكان القاضي في العراق يحكم وفق أحكام مذهب أبي حنيفة، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك، وفي مصر وفق المذهب الشافعي. وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب القاضي عنه قاضياً يأخذ بمبادىء مذهب المتخاصمين.

---

(١) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٤٨٩ ـ ٤٩١.
(٢) المعجب ص ١٥٥.

كذلك تأثر القضاء في هذا العصر بالسياسة، لأن الخلفاء العباسيين عملوا على أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية، وحملوا القضاة على السير وفق رغباتهم في الحكم، حتى لقد امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء، خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ولا يتفق مع ذممهم وضمائرهم. وخير مثل لذلك الإمام أبو حنيفة النعمان الذي اعتذر عن تولي منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور.

وقد اتخذ العباسيون نظام «قاضي القضاة»، وهو بمثابة وزير العدل اليوم. وكان يقيم في حاضرة الدولة، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم الإسلامية. وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) صاحب كتاب (الخراج) في عهد هارون الرشيد، وكان قاضي القضاة في الأندلس يسمى «قاضي الجماعة» ويقوم بتولية القضاة على الأقاليم.

وفي هذا العصر اتسعت سلطة القاضي، فبعد أن كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء، وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصص والحسبة ودار الضرب وبيت المال والإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية[١]، وعلى الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء، والدعاء في صلاة الاستسقاء[٢].

وقد أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب المختلفة وينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه.

وقد عرف بعض قضاة هذا العصر بالعدل والنزاهة والزهد وتحري الدقة في الحكم، ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي: أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، فقد أثر عنه أنه لم يأخذ أجراً في أثناء تقلده منصب القضاء، كما عرف بالعدل ولم يحاب أحداً من المتقاضين، فقد ذكر ابن الأثير[٣] عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٨ هـ (التي مات فيها هذا القاضي) أن أحد الأتراك شكا إليه رجلاً فقال له القاضي: ألك بينة؟ قال: نعم! فلان

(١) أنشيء هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ. وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه. وجعل من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٢) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً؛ ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة». واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس للصلاة شخصاً معيناً ولقضاء القضاء شخصاً آخر.

(٣) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٩٤.

والمشطب الفقيه الفرغاني، فقال: لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير، فقال التركي: فالسلطان ونظام الملك يلبسان الحرير، فقال؛ لو شهدوا عندي على باقة بقل لا أقبل شهادتهما.

وكان لقاضي القضاة ببغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة، ومن أشهر موظفي هذا الديوان: الكاتب والحاجب وعارض الأحكام وخازن ديوان الحكم وأعوانه. وقد اقتضى تطور نظام القضاء في هذا العصر التحري عن الشهود. وكان القاضي يرتدي السواد شعار العباسيين ويغطي رأسه بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة(١).

(ب) القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين:

وقد ضعف نفوذ القاضي السني بعد الفتح الفاطمي وألزم بأن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعي، بل أشرك معه قاض مغربي للنظر في المظالم الخاصة بالمغاربة. وما لبثت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً في القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين. ثم زاد نفوذه حتى آل إليه النظر في قضايا المصريين أنفسهم، وأصبح يطلق عليه اسم قاضي مصر والإسكندرية، ثم استقل الشيعيون بالقضاء.

وكان منصب القضاء يعهد به في العصر الفاطمي لبعض السنيين أحياناً؛ إذ أن الفاطميين في أواخر عهدهم لم يسيروا دائماً على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة. وكان سجل القاضي الذي كان يقرأ في القصر وعلى منبر جامع عمرو يتضمن فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة، وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة من الفقهاء المتشيعين، حتى لا يصدر الحكم مخالفاً للمذهب الشيعي.

على أن أبا علي بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ) الذي كان يدين بمذهب الإمامية الاثني عشرية خرج على هذه القاعدة، فعين في سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة: اثنين من الشيعة، واثنين من السنيين. وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إمامياً والآخر إسماعيلياً. أما القاضيان السنيان فكان أحدهما شافعياً والآخر مالكياً. وقد أعطى هذا الوزير لكل من هؤلاء القضاة الأربعة السلطة المطلقة في إصدار أحكامه وفق مذهبه. ولما قتل هذا الوزير عادت السلطة إلى الإسماعيلية من جديد وظلت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي؛ فعمل في سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية، وأسس مدرستين لتعليم الفقه، إحداهما على مذهب الإمام

(١) الكندي: كتاب القضاة ص ٣٧٨.

الشافعي والأخرى على مذهب الإمام مالك، ثم صرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية إذ كان صلاح الدين شافعي المذهب.

وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئاً فشيئاً إلى المذهب السني الذي كانت له السيادة قبل الفاطميين، وأخذ المذهب الشيعي بنوعيه الإسماعيلي والإمامي في الضعف إلى أن قضي عليه نهائياً[1].

قانون الوراثة في عهد الفاطميين:

ويجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت. وهذا يخالف أحكام مذهب السنة التي تقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة. ولقد تمسك القاضي الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه، وغدا في استطاعته أن ينقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام.

وقد عدلت القاعدة التي تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولي على جميع الثروة التي يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث إذا لم يكن هناك وارث سواها، والسر في أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للأعمام أمران:

الأول أن أبا بكر أخذ فدك (قرية بخيبر) من يد فاطمة، وكان رسول الله قد أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها، فادعت أنها ترث ذلك، فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون، واستدل بحديث سمعه من رسول الله في ذلك.

والثاني أن بني العباس يدعون أيلولة ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم، لأنه عم رسول الله والوارث له يوم وفاته، لأن ابنته لا تحرز كل المال، وعلي أنزل من العباس فقالوا هم إنها تحرز كل الميراث ليمنعوا بني العباس من دعواهم، وإلى ذلك يشير شاعر بني العباس بقوله:

أنى[2] يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام؟

وكان الداعي لحضور (أبي بكر) الطرطوشي أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر، وتوريث البنت نصف المال، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوي العصبية، كما هو مذهب آل البيت، فاعتذر المأمون (البطائحي) بأن هذه قضية لم يقل بها (أي لم يؤخذ بها من قبل)، وأن أمير الجيوش بدراً هو الذي ابتكرها...

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١.

(٢) أنى بمعنى كيف الاستفهامية.

واستمرت المناقشة إلى أن قال المأمون للفقيه: أنا لا أرى مخالفتك. . . . وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية. وهذا نصه بعد البسملة:

١ ـ يخلص لحرم ذوي الشيع الوارثات جميع موروثهم، وهو المنهاج القويم لقوله تعالى﴿وأولُوا الأرْحامِ بَعْضُهمْ أوْلى ببَعْضٍ في كتابِ الله إنَّ الله بِكُلِّ شَيء عَلِيمٌ﴾[١].

٢ ـ إن كل دارج من الناس (أي كل إنسان) على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته. . . ويحمل من سواهم على مذهب مخلفيهم، ويشترك معم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لمن بعدهم[٢].

٣ ـ إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود إلى ما كانت عليه الحال.

٤ ـ أن يعوض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحشرية[٣].

٥ ـ من لا وارث له، حاضراً أو غائباً، فموجوده لبيت المال، إلا ما يستحقه زوج أو دَيْن عليه.

٦ ـ وإن كان للمتوفى وارث غائب، فليحتفظ الحكام والمستخدمون بتركته. وإذا حضر وأثبت استحقاقه في مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب، فليخرج الأمر بتسليمه إليه.

٧ ـ يعتمد القاضي ذلك بالباب (يعني مجلس القاضي)، ويصدر الإعلام به إلى سائر النواب. وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين[٤]: بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد، ترسل نسخ منه إلى جميع النواب عنه في البلاد، وليخلد (يسجل) في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديوان المجلس والخاص الآمري.
لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ٥١٦ هـ[٥].

ومما هو جدير بالذكر أن تغير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع قد حدث في عهد

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٧٦.

(٢) يعني بذلك أن البنت التي تعيش مع أبيها بمفردها تتمتع بجميع ما له على جميع المذاهب، وليس للدولة أن تتدخل في ذلك طالما يحمل إليها الضريبة التي ينص عليها الشرع.

(٣) يعني الذين ليسوا من ورثة الصلب كالابن وابن الابن.

(٤) جامع عمرو والجامع الأزهر.

(٥) المقفى الكبير للمقريزي، ليدن، مخطوط ١٦٤٧، المجلد الثالث، ورقة ١٩٥ أ ـ ١٩٧ ب.

العباسيين قبل هذا التغيير الذي حدث في عهد الفاطميين، وذلك أنه في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد، ولم يخلف ولداً، فآلت ثروته إلى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به في ذلك الحين[١].

حدث ذلك في خلافة المعتمد العباسي ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ (٨٦٩ - ٨٩٢ م) فأمر خلفه المعتضد ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ (٨٩٢ - ٩٠٢ م) بإرجاع القانون إلى ما كان عليه من قبل. وظلت الحال على ذلك إلى عهد المكتفي ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ (٩٠٢ - ٩٠٨ م)[٢]. فصدرت الأحكام في الميراث على حسب التعديل الذي أدخل على هذا القانون من قبل[٣]. وقد أنكر الوزير علي بن محمد بن الفرات هذا التعديل، وعده مخالفاً لما جرت به أحكام قانون مذهب السنة، فاستطاع أن يحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة، وصدر مرسوم مذيل بإمضاء الخليفة المقتدر يقضي[٤]:

١ - بأن يصرف القائمون بأعمال المواريث في سائر النواحي ويبطل أمرهم، ويرد النظر في أعمال المواريث إلى الحكام على ما كان يجري عليه قبل أيام المعتمد على الله.

٢ - وبأن يرد على ذوي الأرحام ما أوجب الله عز وجل، ورسوله ﷺ، وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، ومن اتبعهم من أئمة الهدى.

٣ - وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته.

٤ - وأن يعمل على إذاعة ما أمر، وإظهاره وقراءته على الناس في المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد)، ليكون مشهوراً متعارفاً، والخبر به إلى الأداني والأقاصي واصلا[٥].

(حـ) القضاء في الأندلس:

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس كما كان في غيرها من البلاد الإسلامية. وكان الأمير أبو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء، وذلك لتعلق هذه الوظيفة بالدين. وكان قاضي القضاة يسمى «قاضي الجماعة» أيضاً لأنه يقيم في حاضرة الدولة.

---

(١) هلال الصابي، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦.
(٢) هلال الصابي ص ٢٤٧ - ٢٤٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٨ - ٢٥٣، انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣١٦ - ٣١٨.

ويشترط في القاضي أن يكون متبحراً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة، وأن يكون عربياً خالصاً. وطالما تقلد القضاء الموالي والمولدون والبربر، وأحسن مثل لذلك يحيى الليثي قاضي قضاة الأندلس، وكان من أصل بربري، ومن قبيلة مصمودة. وكان قاضي الجماعة يختار غالباً من قضاة الأقاليم الأندلسية الذين تقلدوا بعض مناصب الدولة الهامة(١).

وكان قاضي الجماعة يقيم بقرطبة حاضرة الدولة الأموية في الأندلس، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة، وينوب عنه في الأقاليم قضاة يسمى كل منهم مسدد خاص.

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع في الأندلس، ويسير القضاة في الأندلس والمغرب حتى اليوم، على وفق مذهب الإمام مالك بن أنس، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة.

ومن اختصاصات القاضي أيضاً الإشراف على موارد الأحباس، وسجلات الفتاوى الفقهية(٢)، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة، أو بمسجد الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء، والدعاء في صلاة الاستسقاء، وكان قاضي القضاة يسمى «صاحب الصلاة»، حتى أفرد عبد الرحمن الناصر شخصاً معيناً للصلاة ولقضاء القضاء شخصاً آخر.

وكان القضاة في الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة (Romence)، ويناقشون المتقاضين بها في مجالس الحكم. وكان المسلمون يطلقون على هذه اللغة: اللغة الأعجمية أو العجمية أو اللاطينية(٣).

(د) المظالم:

وكانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا في عصرنا، تعرض عليها القضايا إذا لجأ إليها المتقاضي إذا اعتقد أن القاضي لم يحكم بالعدل. وكان الغرض الأساسي من إنشاء محكمة المظالم وقف تعدي ذوي الجاه والحسب. ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم قاضي المظالم.

---

(١) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣.

(٢) أنشىء هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ. وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه، واتخذ من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٣) راجع ما ذكره أبو عبد الله بن محمد بن حارث الخشني القروي في كتاب القضاة بقرطبة الذي نشره ريبيرا Julian Ribera (مدريد ١٩٤٤) ص ٩٦، ١٣٨.

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم، ويسمى رئيس هذا الديوان «صاحب المظالم». وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي.

وكانت محكمة المظالم تنعقد تحت رياسة الخليفة أحياناً أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما، ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طول أيام الأسبوع.

وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم: الحماة والأعوان، والحكام ويحيطون بالأحكام ويردون الحقوق إلى أصحابها، والفقهاء الذين يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل؛ الكتاب يقومون بتدوين أقوال الخصوم والشهود، ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ويشهدون على أن ما أصدره القاضي لا ينافي العدل. ومن اختصاصات قاضي المظالم:

١ ـ النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف، وعمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة.

٢ ـ النظر في تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم.

٣ ـ تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

٤ ـ مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد(١).

ومن هنا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة، كما نقف أيضاً على ما وصل النظام القضائي من الدقة والإتقان.

ويظهر أن نظام النظر في المظالم قد ارتقى في العصر العباسي الثاني، فقد ذكر ابن الأثير(٢) أن بعض سلاطين السلاجقة اشتهروا بالعدل واستمعوا إلى ظلامات الناس وعملوا على رفع الظلم عنهم. فقد قيل إن السلطان محمد بن ملكشاه اشترى مماليك من بعض التجار وأحالهم على عامل خوزستان ليتسلموا منه الثمن؛ فأعطاهم بعضه وماطل في تسليمهم البعض الآخر. وقد حضر هؤلاء التجار مجلس الحكم، وكان ينعقد عادة برياسة السلطان، فلما رآهم أمر حاجبه بأن يسألهم عن سبب حضورهم مجلس الحكم فقالوا: لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم، فقال الحاجب من هو؟ قالوا: السلطان، وشرحوا له قضيتهم. فبعث السلطان في طلب العامل وأمره بتسليم المال المستحق لهم وتشدد في

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٣ ـ ٨١. (٢) الكامل ج ١٠ ص ١٩٨.

عقوبته ليكون ذلك مثلاً لغيره. وكان هذا السلطان بعد ذلك يقول: لقد كان عادلاً منصفاً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم فيقتدي بي غيري ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق لصاحبه. وكان من أثر ذلك أن كف العمال عن الظلم وأخذ أموال الناس بغير حق.

(هـ) الحسبة:

وكانت سلطة القاضي - على ما هو معروف عن القضاء اليوم - موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم؛ فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحياناً مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب.

وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، مع ما بين العملين من التباين، فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل(١).

وكان المحتسب ينظر في مراعاة أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور؛ كما كان يستوفي الديون، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف. وكان للموازين والمكاييل دار خاصة بها، فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها، فإن وجد فيها خللاً صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها. وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية(٢).

وكان المحتسب يعاقب كل من يعبث بالشريعة أو يرفع الأسعار، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين.

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين، فكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق، فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع، ويشرفون على السقايين لضمان تغطيتهم القرب ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة.

كما كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر. واتسعت

---

(١) الماوردي ص ٦١ - ٧٢.

(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

سلطته حتى أصبح من واجب رجال الشرطة أن يقوموا بتلبية أوامره وينفذوا أحكامه. وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينتي مصر والقاهرة على المنبر.

وقد عرض الشيزري[1] للشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة، وأضاف إلى ما ذكرناه أن المحتسب كان يشرف على السلع المعروضة في الأسواق، فيشرف على بائعي الفراء وصانعي الحلوى، وعلى شوائي اللحوم، وعلى الرواسين أي بائعي الروس والأكارع، وعلى قلائي السمك والهرائسيين أي صانعي الهريسة، وهي طعام من خليط القمح واللحم. كما كان يشرف على الشرابيين أي صناع الأشربة، وهي الأدوية السائلة، وعلى البزازين أي بائعي الثياب، وعلى الحاكة وهم الذين ينسجون الغزل قماشاً، وعلى الخياطين لمراعاة جودة التفصيل، وعلى الصباغين والدلالين والمنادين، وعلى الصاغة، والصيارف، وعلى الحمامات وقومتها[2].

وقد تكلم الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية والمقريزي في كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، على ولاية الحسبة في المشرق، وهي لا تختلف عنها في المغرب والأندلس، إلا أن ولاية الحسبة فيهما كانت أكثر تحديداً منها في المشرق.

كما كانت الحسبة تقوم على ما تقضي به الضرورة في المعاملات هناك بحيث يمكن أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والأندلس قد استمر طوال العصور الوسطى. وأحسن دليل على أهمية الحسبة أن ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليماً، أقروا المحتسب في عمله، وأصبحوا يطلقون عليه Almotacen، وهو الوالي الذي يعهد إليه بالإشراف على الموازين والمكاييل. أما في المغرب فليس أدل على أهمية الحسبة من استمرارها في المدن الغربية حتى اليوم[3].

---

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره الدكتور السيد الباز العريني (القاهرة ١٩٤٦).

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥.

(٣) راجع ما ذكره ليفي بروفنسال في:

Histoire de l'Espagne Musulmane, Tome III (L'Espagne du califat de Cordon, pp. 148 - 150.)

L'Espagne Musulmane au Xe Siècle, pp. 181 - 185.

الباب التاسع
الحالة الاقتصادية

١ ـ الزراعة

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٣٠) أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية، بفضل انتشار المدارس الزراعية، وأنهم توسعوا في البحث النظري، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات، كما عملوا على تنظيم الري في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي فارس وبلاد ما وراء النهر. وعنوا بشق الترع وصيانة السدود[١]، وجعلوا لماء للري ديواناً أطلقوا عليه «ديوان الماء»[٢]. كما عنوا بحراثة الأرض وتسميدها واستخدموا لذلك الأبقار، واهتموا بتربية الحيوانات، وخاصة البقر وبتربية الجاموس الذي جلبوه من الهند وتفريخ الدجاج وتربيته وحفظ الحمام في أبراج لوقايته من الأفاعي[٣].

وكانت الحنطة تزرع بكثرة في كافة أرجاء الدولة الإسلامية حيث يتوافر الماء كالعراق وخوزستان ومصر والمغرب والأندلس. وكانت زراعة الذرة تكثر في جنوبي البلاد الإسلامية كجنوبي بلاد العرب وكرمان والنوبة.

ومن الحاصلات الزراعية النارنج والأترج الذي نقل من الهند منذ القرن الرابع الهجري، فزرع في عمان والبصرة والعراق والشام وطرسوس[٤]، وكثرت زراعة قصب السكر في كثير من البلاد الإسلامية، وخاصة في بعض بلاد الأفغان وفي بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والمغرب والأندلس.

واشتهرت مصر بزراعة الليمون، ومنه نوع يقال له التفاحي يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه[٥]. وقد ذكر الحسن الوزان[٦] أن سوق الزيانين بمدينة فاس كان يزخر

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٤٥.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية ترجمة ج ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٩٤.
(٤) مسكوبة ج ٢ ص ١٩٣.
(٥) المقريزي: خطط ج ١ ص ١٧٣.
(٦) Leon l'African, tome I— p— 195.

بالزبد المملح والعسل والجبن الطازج والزيتون والليمون والجزر والكرنب، وأن حوانيت هذا السوق كانت تزدان بزهرياته الزاهية التي كانت أثمانها تبلغ أضعاف أثمان السلع التي تباع فيها، وفي هذه السوق تباع خوابي (مفردها خابية وهي الجرة الكبيرة) الزبد والعسل والزيت بالمزاد العلني، وينادي عليها أشخاص مكلفون بوزن الزيت عند بيعه بالجملة، ويسع كل من هذه الخوابي نحو ستين كيلوا جراماً. أما سوق الزهور فإن الإنسان إذا شاهد هذه الزهور وتنوعها يعتقد أنه يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا، إذ يشاهد لوحة تضم أحسن وأزهى الألوان المتنوعة. ومن محاصيل المغرب القمح والذرة والشعير والجزر واللفت والفول الطازج.

وقد اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة قصب السكر وصناعته. وكثرت زراعة القصب في عهد السعديين كثرة عظيمة حتى إن السلطان أحمد المنصور الذهبي جلب الأعمدة الرخامية التي استعملها في بناء قصره البديع بمدينة مراكش من البلدان الأخرى مقابل كميات كبيرة من السكر التي اشتهرت المغرب بصناعته. وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة الزيتون واستخراج الزيت منه، كما اشتهرت باستخراج العقاقير (الأدوية) من النباتات المختلفة، كما اشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والكتان والقطن والتوت لتربية دود القز، وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنهر تاجة والوادي الكبير والوادي اليانع وإبرو (بسكون الباء)، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول، ووضعوا تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي، الذي أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات في مواعيدها وأخذه عنهم غيرهم من الأمم.

وقد أسس محمد بن علي بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيح دخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة. وقام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بغرس نباتات الشام وآسيا الصغرى وفارس ومصر، ثم ضمه الملك الكامل الأيوبي إلى حاشيته، وأصبح رئيس النباتيين، وألف كتابه المشهور في النباتات ومات سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م).

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة، كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت. على أن زراعة أشجار التوابل لم يقدر لها النجاح[1]. وقد وجد المسلمون في صقلية أرضاً مثمرة تمدهم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل، ويكثر بها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها.

(١) Heyd, tome I,p. 50.

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي ـ ولا تزال ـ تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية، وقد أورد ابن مماتي[١] أسماء المحاصيل الشتوية وهي : القمح والشعير والفول والحمص والجلبان والعدس والكتان والقرط (بضم القاف وسكون الراء هو البرسيم) والبصل والثوم والترمس والكمون والكراويا والسلجم (نوع من اللفت) والبطيخ الأصفر والأخضر واللوبيا والسمسم والقطن وقصب السكر والقلقاس والباذنجان والسمسم النيلي والنيلة والفجل واللفت والخس والكرمب.

كما اهتم الفاطميون بزراعة الفاكهة على اختلاف أنواعها، حتى كانت بساتين مصر تزخر بأشجار الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والموز والنخيل. كما عني الفاطميون بزراعة الورود والياسمين والمرسين (بفتح الميم وسكون الراء) والريحان والخيار شمبر (بضم الشين والباء وسكون الميم[٢]).

ولما كان الإنتاج الزراعي يتوقف على وفرة ماء الري والعناية بخصب الأرض وجودتها، كان طبيعياً أن يعنى الفاطميون عناية كبيرة بنظم الري، من صيانة الترع والمحافظة على الجسور. وهذه الجسور على نوعين: «جسور سلطانية» تقيمها الدولة، و«جسور بلدية» يقيمها الفلاحون[٣].

أما الجسور السلطانية فقد كانت الدولة تقوم بإنشائها لتنظيم الانتفاع بماء النيل، وتفرض الدولة الفاطمية الضرائب على الأراضي الزراعية لصيانة الجسور والمحافظة عليها.

أما الجسور البلدية فتقام في القرية أو في الناحية أو في الكورة. ويتولى إقامتها أصحاب الإقطاع والفلاحون من أهل القرى المنتفعين بهذه الجسور. وتوزع نفقات إقامة هذه الجسور على الأفراد توزيعاً عادلا، ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر[٤].

وكانت الأراضي المصرية تشقها شبكة من الخلجان والأبحر[٥] والترع. وقد بلغ عدد خلجان مصر في ذلك العصر ثمانية، وعدد الأبحر خمسة وعشرين، أما عدد الترع فقد بلغ في الوجهين البحري والقبلي مائة وسبع عشرة[٦].

وقد استتبع اهتمام الفاطمين بالترع والجسور اهتمامهم بمقاييس النيل، فهي ضرورية لمعرفة الرخاء أو الكساد؛ إذ أنه كلما ارتفع مستوى النيل استبشر المصريون بوفرة المحصول

---

(١) كتاب قوانين الدواوين ص٢٥٨ ـ ٢٧٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.
(٣) المقريزي: خطط ج ١ ص ١٠١.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) جمع بحر وهي الترعة الكبيرة أو الرياح في المصطلح الحديث.
(٦) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٢٠٥ ـ ٢١٦.

وضمنت الدولة زيادة الخراج بنوعيه. فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشرة ذراعاً كان في ذلك تمام الخرج وخصب البلاد، أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحلول الفيضان، وإذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحُلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية، كما حدث في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي(١).

ولما فتح العرب مصر بنى عمرو بن العاص مقياساً للنيل بأسوان وآخر بدندرة، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت مصر في طاعة الأمويين، فبنى عامل مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان مقياساً بأنصنا، وبنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان. أما مقياس الروضة فيرجع إلى سنة ٩٧ هـ، وذلك في عهد ولاية أسامة بن زيد. وقد جدد الخليفة المتوكل العباسي هذا المقياس في سنة ٢٤٧ هـ.

وقد أصلح أحمد بن طولون مقياس الروضة وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن الأضلاع، في موضع يصل إليه الماء عند انسيابه. وينقسم إلى اثنين وعشرين ذراعاً، والذراع مقسم إلى ٢٤ إصبعاً. أما الإثنا عشر ذراعاً الأولى، فإن كل ذراع منها ينقسم إلى ٢٨ إصبعاً. وتبدأ زيادة النيل في آخر بؤونة وأبيب ومسرى، وتستمر في شهر توت كله. وبالمقياس ذراعان يسميان منكرا ونكيرا، وهما الذراعان الثالث عشر والرابع عشر، فإذا زاد الماء عنهما نصف ذراع استسقى الناس، وإذا جاوز خمسة عشر ذراعاً ودخل في السادس كان فيه صلاح لبعض الناس، وإذا بلغ تسعة أذرع، انساب في خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وخليج المنهى. وقد جرت العادة أن تذاع نتائج المقياس على الناس، فيخرج المنادي إلى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر، ولكن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أمر بكتمان أمر المقياس، لأن الناس إذا أحسوا بانخفاض النيل، تسرب القلق إلى نفوسهم، فأخفوا الغلال، وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر، ويعمل الأغنياء على اختزان الغلال، فيحدث الغلاء. وإذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح الأضرار. لذلك كان في كتمان الزيادة عن العامة فائدة تامة.

وإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعاً ثم ستة عشر ذراعاً وإصبعاً واحداً، احتفل الخليفة بفتح خليج أمير المؤمنين. فإذا فتح الخليج فتحت الترع الأخرى، وفاض الماء، «وغمرت القيعان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً»(٢).

---

(١) المقريزي: خطط ج ١ ص ٥٩.
انظر كتابي «تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الثالثة» (القاهرة ١٩٦٤) ص ٥٧١ - ٥٧٢.

(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ٥٨.

٢ ـ الصناعة

(أ) النسيج :

كان للصناعة في العصر العباسي الثاني حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة المعدنية على اختلافها، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز، والملح والكبريت من شمالي فارس، والنفط من بلاد الكرج.

وقد اشتهر بعض المدن الإسلامية بصناعة النسيج. ومن هذه المدن كازرون التي سميت دمياط الأعاجم. واشتهرت كابل بنسيج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين. واشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته، كما انتشرت هذه الصناعة في المغرب والأندلس؛ ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور. كذلك تفوق المسلمون في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد: فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها، واشتهرت خوزستان بمنسوجاتها الحريرية وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى «الدمسق»، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها. كما اشتهرت مرو بإقليم طبرستان بصناعة الإبريسم. وتفوق أهل أرمينية بصناعة التكك الإبريسيمية التي كان يتراوح ثمن الواحدة منها بين دينار وعشرة دنانير. واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية.

وقد ازدهرت صناعة النسيج بمصر في العصر الفاطمي، واشتهرت بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته بكورة الفيوم. ومن أهم مراكز هذه الصناعة إقليم الفيوم، ونواحي بحيرة تنيس (بكسر التاء والنون مع التشديد)، وخاصة في دمياط وشطا (بفتح الشين) ودبيق (بفتح الدال وكسر الباء) التي تنسب إليها الثياب الدبيقية، وتنيس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين عشرين ألف وثلاثين الف دينار سنوياً[١].

وقد بلغ نظام الطراز في مصر درجة كبيرة من الرقي في العصر الفاطمي حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية. والطراز فارسي الأصل معناه التطريز، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى. ولا يرتدي هذا النوع من الثياب إلا الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية. وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى

---

(١) المقريزي: خطط ج ١ ص ٢٢٦.

بالخيط، كما تطلق على النقوش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أي نوع، سواء أكان من الحجارة أم من الفسيفساء أم الزجاج أم الفخار أم كان محفوراً بالخشب(١). ويتبين مقدار مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات من وصف الكسوة التي أمر الخليفة الفاطمي المعز بعملها للكعبة(٢).

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر. نذكر منها: الثياب العتابية(٣) المصنوعة من الحرير، والخسرواني (أو الخسرواني بضم الخاء وفتح الراء)، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسروشاه أحد ملوك الفرس(٤)، والقلموني (بفتح القاف واللام)، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس، وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع في دمياط وتنيس خاصة(٥)، والتستري (بضم التاء مع التشديد وسكون السين وفتح التاء الثانية)، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر أشهر مدن خوزستان. والقرقبي (بضم القافين وسكون الراء(٦))، وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان، ثم أدخلت صناعته إلى مصر، وأصبح يصنع في دمياط وتنيس. وقد اشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تتغير دائماً ولا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس. والنصفية (بكسر النون مع التشديد وسكون الصاد) وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن.

وكان مضرب الخليفة الظاهر الفاطمي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ) منسوجاً من خيوط الذهب ومقاماً على أعمدة من الفضة؛ وقد بلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار. وكان مضرب الوزير اليازوري مجموعة رسوم فنية بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار، واشتغل في صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات، وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدماً واتساع محيطه ألف قدم تقريباً، وقد نقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم(٧).

الزخرفة في العصر الفاطمي:

ولا بأس من أن نعرض هنا لذكر فن المنسوجات الزخرفية في العصر

---

(١) انظر الجوذري: سيرة جوذر توقيع رقم ٢١ ص ١٠٠.

(٢) انظر هذا الوصف في ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٤ وفي حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٣.

(٣) ينسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب.

(٤) Lane : Arabic - English Lexicon

(٥) ياقوت: انظر هذا اللفظ في معجم البلدان. Dozy Supplément

(٦) القرقب طائر يرى في الغدر والمستنقعات. انظر معجم البلدان لياقوت.

(٧) المقريزي: خطط ج ١ ص ٤١٩.

الفاطمي، فقد كانت المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة أربعة أنواع تمثل العصور الأربعة الرئيسية في تاريخ الفاطميين وهي:

النوع الأول وينسب إلى عصر الخلفاء المعز والعزيز والحاكم، وقوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى، بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها في بعض، وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود.

والنوع الثاني وينسب إلى عصر الظاهر والمستنصر، وقد تنوعت فيه الأشرطة الزخرفية، وقوامها جامات عليها رسوم طيور وحيوانات محرفة عن الطبيعة، وتحيط بها سطور من الكتابة الكوفية التي أصبحت عنصراً زخرفياً.

والنوع الثالث وينسب إلى عصر المستعلي والآمر، وقد تطورت فيه الزخرفة وظهرت عناصر جديدة مثل الأشرطة والجدائل التي تتعوج وتتداخل ويتخللها جامات تضم رسوم طيور وحيوانات وكؤوساً بها فاكهة، وتتخللها سطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره.

والنوع الرابع ويرجع إلى أواخر العصر الفاطمي، وتتألف زخارفه من جدائل تتقاطع وتتشابك وتؤلف جامات عليها رسوم حيوانات أو رسوم نباتية مكتوبة بخط النسخ(١).

(ب) بناء السفن:

ولما فتح الفاطميون مصر شعروا بحاجتهم إلى أسطول قوي يصد البيزنطيين خاصة والصليبيين عامة عن بلاد الشام. فقد أنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة مركب وصفها المسبحي المؤرخ المصري فقال: «إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً». واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية، وبنيت في مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشواني(٢).

كما أنشأ الفاطميون دوراً لصناعة السفن في الاسكندرية ودمياط(٣). وعنوا بجلب الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من مناطق الغابات في كثير من جهات الصعيد. ولم يكن إنتاج البلاد من الخشب ملائماً لصناعة السفن الكبيرة، لأنه لم يكن يمتاز بالصلابة المطلوبة، لهذا كان الفاطميون يستوردون الخشب من أوروبا عن طريق البنادقة(٤).

(١) Migeon, Art musulman, tome II, pp. 300 - 309.

(٢) عن المقريزي: خطط ج ١ ص ١٩٧.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٣.

(٤) البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٥٣.

(جـ) صناعة المعادن:

وقد برع الصناع المصريون في صنع المعادن والعاج والفسيفساء، فعرفت مدينة الفسطاط[١] بصناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وشمالي إفريقية، كما عرفت مدينة تنيس بصناعة المقصات والسكاكين[٢]، وراجت صناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع في صنع الحلي والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ورش الملابس الفاخرة. وليس من شك في أن هذه التحف التي أنتجها الفاطميون والتي تدل عليها آثارهم تلقي ضوءاً على تقدم هذه الصناعة ورقيها[٣]. هذا إلى ما عرف به صناع مصر من مهارة ودقة في صناعة النحاس والبرونز. وكان سوق المكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة، وقد راجت صناعة النحاس المكفت رواجاً عظيماً، حتى لا تكاد تخلو دار في القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت (مطلي)[٤].

(د) قصب السكر والزيت:

وكان قصب السكر من أهم الحاصلات الزراعية ولا سيما في عصر الفاطميين في مصر، لأنه عماد صناعة السكر والعسل التي راجت رواجاً عظيماً. وانتشرت مطابخ السكر في جميع أرجاء البلاد: في الفسطاط والمنيا والفيوم وديروط وأسيوط وقفط وسمهود، حتى لقد ذكر ابن دقماق[٥] أن مطابخ السكر في الفسطاط وحدها بلغت ثمانية وخمسين مطبخاً. كما انتشرت مصانع العسل في أرجاء البلاد[٦]، وكان الفاطميون يهتمون بهذه الصناعة اهتماماً عظيماً، فأنشأوا المعاصر السلطانية وحملوا الفلاحين على نقل قصبهم إليها. ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى أن هذه الدولة كانت تجبي مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً[٧].

وكذلك راجت في مصر صناعة الزيت الذي كانت له أهمية كبيرة في حياة أهل هذه البلاد لأن منه طعامهم ووقودهم. لذلك عني المصريون عناية كبيرة بصناعة النباتات الزيتية، فزرعوا الزيتون في منطقة الفيوم والإسكندرية[٨]. كما كان السمسم يزرع في جميع أرجاء البلاد[٩]. وكانوا يستخرجون زيت الزيتون من الزيتون وزيت الشيرج من السمسم[١٠]. كما

---

(١) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٦٧.
(٢) Safar Naméh, p. 114,
(٣) خطط ج ١ ص ٤١٨ - ٤١٩.
(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢.
(٥) الانتصار ص ٤١ - ٤٢.
(٦) المقريزي: خطط ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٣.
(٧) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٣٦٧.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٩٧.
(٩) انظر ما ذكرناه عن الزراعة في هذا الباب.
(١٠) Nasir Khusrau, Safar Naméh

استخدموا الفجل والخس في هذه الصناعة، حتى إن هذه النباتات احتلت مكانة مرموقة في الصناعة المصرية. وكانت أهم معاصر الزيت في مدن صندفا بكورة البهنسا مركز بني مزار بمحافظة المنيا، وفي الفيوم والفسطاط[١]. وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس باستخراج الزيت من الزيتون الذي تكثر زراعته في هذه البلاد[٢].

(هـ) صناعة الصابون والشمع:

وقد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون التي تقوم على الزيت. وانتشرت مطابخ الصابون بمدينة الفسطاط[٣]، وقد ذكر الحسن الوزان[٤] أن الصابون كان يصنع في الجبال المجاورة لمدينة فاس، وأن أهل الجبال وأصحاب البغال (المكارون) كانوا يحملونه ويبيعونه لأصحاب الحوانيت في مدينة فاس وغيرها، كما كانوا يبيعونه سائلاً، إذ لم تكن هناك إلا دكاكين قليلة مجتمعة، لأنه لا يخلو حي من أحياء المدن من حوانيت يباع فيها الصابون.

وقد انتشرت صناعة الشمع بالإسكندرية. وكان بمدينة القاهرة في عهد المماليك كثير من الأسواق نخص بالذكر منها سوق الشماعين، وكان يمتد من الجامع الأقمر الذي بناه الخليفة الآمر الفاطمي إلى سوق الدجاجين، وتباع فيه الشموع على اختلافها من موكبية وفانوسية وطوافات، وبلغت زنة بعض الشموع قنطاراً. حتى إنها كانت تحمل على العجل لثقل وزنها[٥] وكان بمدينة فاس سوق أطلق عليه اسم «سوق الشماعين». ويذكر الحسن الوزان أن صناعة الشمع في المغرب بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال لم ير مثلها في حياته[٦].

(و) صناعة الزجاج والبلور والخزف:

وقد اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف، واتخذت طرازاً خاصاً في زخرفة الزجاج. وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الإتقان. وكان الزجاج الملون المطلي بالميناء يصدر إلى كثير من جهات العالم[٧]. وقد قيل

---

(١) المقريزي: خطط ج ١ ص ٤٦٢.
(٢) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ - ٩٦.
(٣) ابن دقماق: الانتصار ج ٤ ص ١٠٨.
(٤) Description de l'Afrique, tome I, p. 191.
(٥) حسن إبراهيم حسن: المجمل في التاريخ المصري ص ٢٠٦.
(٦) كتاب وصف إفريقية (بالفرنسية) ج ١ ص ١٨٧.
(٧) أمير علي مختصر تاريخ العرب: ترجمة ٣٦٤ - ٣٦٥.

إنه كان ببغداد أربعة آلاف معمل لصنع الزجاج وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف[١]. كما اشتهرت بغداد بالصباغة المقتبسة من الفرس والتي بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأنظار، وكانوا يتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً يحكمون صناعتها بالرسم لتمثل الحقائق وصوراً عليهاطيور تطير، ومن فوقها العقبان تنقض عليها وهي تحاول الإفلات من مخالبها[٢].

وقد ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخري في العصر الفاطمي، وبلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقي، يشهد بذلك هذه التحف التي تزخر بها متاحف القاهرة وأوروبا. ويعزى ذلك إلى كثرة بناء المساجد والقصور والمدارس وتزويدها بالقناديل وألواح الزجاج والشمسيات وغيرها[٣]. كما أن حياة الترف عند الفاطميين واتخاذهم القصور والمناظر، وتفننهم في زخرفتها وتزيينها ووفرة ثرائهم كان من أهم الأسباب التي أدت إلى رواج هذه الصناعة الدقيقة.

وقد اشتهرت الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عبادة (بكورة البهنسا، المنيا الآن)، والإسكندرية بصناعة الزجاج[٤] الذي كان يصدر إلى البلاد الشرقية والغربية[٥].

وزخرت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبلور التي بلغت حد الإعجاز في جمال الصناعة وإشراق الزخرفة[٦].

وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني والزجاج والبلور، فصنعت منه الأزيار الكبيرة والأواني المستعملة في حفظ العطور والبخور[٧]. ويدل على تفوق هذه الصناعة ما ذكره الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي رأى التجار يصنعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق. كما رأى في أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التي بلغ من جودتها أنه

---

(١) أمين زكي : كتاب عمران بغداد ص ٥٠.

(٢) نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٥. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٣) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ١٨١.

(٤) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٤٢.

(٥) Safar Naméh. p. 154.

(٦) المقريزي: خطط ج ١ ص ٤٣٤.

(٧) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ١٤٩.

رأى يده بوضوح بظهر الإناء، كما شاهد الرحالة المقدسي[١] توقيع صناع مصريين على بعض الفسيفساء في الكعبة وأن جدران الأروقة من الظاهر ألبست بالفسيفساء التي حملها إليها صناع مصر والشام.

وقد كشف عباس بن فرناس (بكسر الفاء وسكون الراء) الفلكي المسلم بالأندلس في معمله طريقة لصنع البلور، وهو الذي قذف بنفسه في تجربة رائعة مدهشة على متن طائرة شراعية سبح بها عالياً في الفضاء، ثم وقع ونهض سالماً، وكان بذلك مبشراً بفكرة الطيران منذ العصور الوسطى. وقد اقتدى أهل الأندلس بزرياب المغني والموسيقي المشهور في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) في تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة[٢].

وقد اشتهرت سابور والكوفة وجور (جنوبي فارس) بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والنرجس والسوسن والزئبق والنارنج. واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس[٣].

(حـ) صناعة الجلود:

كذلك اشتهر المسلمون بصناعة الجلود. وكان يصنع بمصر ولا سيما بمدينة الفسطاط الأنطاع التي كانت تصدر إلى بلاد الشام. كما كان يصنع بالفسطاط الكمرانات[٤] وحقائب الجلد والسيور والقسي (بكسر القاف) التي فاقت قسي دمشق في دقة الصناعة[٥]. وبرع المصريون في صناعة السروج المحلاة بالذهب والفضة حتى كانت قيمة السرج الواحد تتراوح بين الألف دينار وسبعة آلاف دينار. وقد تبعت صناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة، وقلائد وأطواق لأعناق الخيل. وقد بلغ من اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أن اتخذوا خزانة خاصة بالسروج أطلقوا عليها خزانة السروج[٦].

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٢.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢. بروفنسال: المشرق الإسلامي والحضارة العربية ـ الأندلسية ص ٣٠ ـ ٣٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٤) جمع كمران وهو حزام مجوف من الجلد توضع فيه النقود الذهبية والنفائس ويربط حول وسط الإنسان.

(٥) المقريزي خطط ج ١ ص ٣٦٧.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ ـ ٥٩١.

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة آلات الحرب من التراس والرماح والتروس واللجم والدروع(١).

وكذلك اشتهرت بلاد المغرب بصناعة المناطق الجلدية والأحزمة. وكان بمدينة فاس سوق خاصة للمحافظ والحقائب التي تصنع من الجلد والتي بلغت حد الاتقان والروعة(٢). وسوق آخر تصنع فيه الدلاء الجلدية. ثم يلي سوق الإسكافيين الذين يصنعون الأحذية، على اختلاف أنواعها، وكان به مائة وخمسون متجراً وحوانيت أخرى تباع فيها الأحذية، وهناك نوع آخر من الأحذية أرقى لا يلبسها الصناع ولا الجنود ولا خدم القصور.

كما اشتهر أهل المغرب بصنع الدرق (بفتح الدال مع التشديد وفتح الراء) والتروس من الجلد على الطريقة الإفريقية، كما اشتهروا أيضاً بصناعة ركاب وسروج الخيل، وكانوا يصنعون لكل سرج ثلاث طبقات من الجلد كل طبقة تعلو الأخرى، والطبقةالوسطى أرقها. وتصنع هذه الطبقات بطريقة بديعة .واشتهر أهل المغرب الأقصى بصناعة الزرابي الجلدية الصغيرة والوسائد(٣). واشتهرت لمطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم) بالمغرب الأقصى بصناعة الورق(٤).

٣ ـ التجارة

اهتم المسلمون بتسهيل سبل التجارة، فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل، وأنشئوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من غارات القراصنة وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمخر عباب البحار. وغدت بغداد حاضرة الدولة العباسية سوقاً نافقة للتجارة. وأصبحت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو

---

(١) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ٩٥.
(٢) الحسن الوزان ج ١ ص ١٩٣.
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٨.
(٤) جمع درقة (بفتح الدال والراء والقاف). وهي معربة عن لفظ فارسي هو «دريجة». وهي درع بيضاوي الشكل غالباً، يتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين. وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة، وأحياناً من جلد التمساح.
انظر Lanés Arabic - English Lexion
راجع ما ذكره ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك حيث ذكر أن معدن الدرج اللمطية لا يوجد له مثيل في الدنيا.

من أقاليم نهر الفرات إلى بلاد الغرب ومصر، وأصبح نهر الفرات ودجلة وجداولهما شرايين تجارية هامة في بلاد الدولة العباسية[١].

وكان لعناية الخلفاء العباسيين بتيسير الطرق البرية والبحرية أثر بعيد في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل السلع وفي تمهيد السبيل أمام الكاشفين والرحالة الذين وصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة.

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وضع أبو القاسم بن خرداذبة الفارسي في كتابه المسالك والممالك[٢] دليلاً للمسافرين وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة (بضم الألف الثانية والباء) ويصل إلى بلاد الهند والصين. ويذكر ابن خرداذبة أن سفن المسلمين كانت تسير بمحاذاة ساحل الخليج العربي وساحل الهند حتى ملبار. وقد نشطت الحركة التجارية ونمت في الملتان (بضم الميم وسكون اللام). والديبل (بفتح الدال مع التشديد وسكون الياء وضم الباء) في السند (إحدى ولايات الباكستان الآن) حيث تذهب إلى الهند والصين وتعود حاملة منتجات هذه البلاد[٣]. وكانت قوافل البنجاب (شمالي الباكستان الآن) تنقل السلع عبر هضاب أفغانستان، وكان التاجر المسلم يستطيع الذهاب إلى الصين ويمر بهضبة التبت (بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وقبائل الترك لشراء الحرير[٤]. واستطاع المسلمون أن يستقروا في جنوبي مدينة شنغهاي. وكان للمسلمين في هذه المدينة قاض مسلم يسير في أحكامه بين المسلمين وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم في الصلاة. كما كان المسلمون يتبادلون التجارة مع الهند الصينية (تايلاند الحالية) والصين وشبه جزيرة الملايو[٥]. كما فتحت أمام تجار المسلمين جزائر الهند الشرقية المعروفة الآن باسم اندونيسيا، ولا سيما مع جزيرة جاوة وهي أكبر جزائرها.

وقد بدأ المحيط الهندي يزدحم بالتجار الآسيويين، وبخاصة تجار العرب الذين اعتادوا الرحلة إلى جنوبي بلاد الهند وجزيرة سيلان، بل إنهم وصلوا إلى الصين نفسها.

---

(١) Heyd, vol I, p. 26.

(٢) طبعة دي غويه (ليدن ١٣٠٦ هـ).

(٣) Heyd. tome I. p. 36. سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٦٢.

(٤) Heyd, p. 36.

(٥) وهي إحدى ولايات ماليزيا التي تضم سنغافورة والملايو وشمالي برنيو وسرواك (بفتح السين والراء).

لكن ظهور الإسلام في جزيرة العرب قد هيأ لهم الفرصة ليظهروا على مسرح التاريخ. وقد ظلوا من القرن السابع إلى القرن السادس عشر الميلادي سادة المحيط الهندي بلا منازع.

وكانت العلاقات التجارية بين أوروبا وآسيا تعتمد على السلع التي يحملها هؤلاء العرب إلى سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر. وقد أنشأ الغرب محاط تجارية قبل المحاط التي أنشأتها أوروبا؛ فقد أنشئوا محاط في فاليقوط وساحل ملبار وملقا، وأقاموا علاقات تجارية مع جزر الهند الشرقية والفيليبين وسيام، ثم استقر العرب في هذه البلاد. ويقال إنه أُنشئت مستعمرة عربية كبيرة في مدينة كانتون. ولم تكن هذه التجارة مقصورة على العرب والفرس، فإن أهل هذه البلاد الشرقية كانوا يردون الزيارات. وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرقي القارة الإفريقية وإلى ساحل بلاد العرب، كما وصلت سفن الملايو وجاوة إلى مدغشقر. وكذلك وصلت سفن الصين، بدليل أن كثيراً من العملة الصينية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) والتي لا يبعد أن يكون العرب أو الهنود قد جلبوها معهم قد عثر عليها في ساحل إفريقيا. ولا يبعد أن يكون الصينيون أنفسهم قد تعاملوا مع أهالي هذه البلاد، لأن الكتب الصينية القديمة تتضمن إشارات إلى شرقي هذه القارة. كما تتحدث بعض الكتب الصينية التي ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن زنجبار وعن أهلها من العرب الذين يرتدون عباءات زرقاء مصنوعة من القطن وينتعلون بنعال حمراء.

ومن ذلك يتضح أنه كان لشرقي إفريقيا نصيب من هذه العلاقات التجارية في المحيط الهندي في العصور الوسطى. فقد وجدت سلع الهند طريقها إلى أوروبا عبر آسيا. وأهم هذه السلع: العاج الذي يكثر في هذه البلاد حيث تكثر الفيلة التي تستخدم في الحروب أو في أغراض أخرى. كذلك وجد الذهب في مناجم روديسيا، وكان الخشب يحمل من زنجبار إلى بلاد العرب. ولا ننسى تجارة الرقيق التي كانت تعد السلعة الأولى في هذه التجارة.

غير أن هذه العلاقات التجارية التي قامت بين بلاد العرب وشرقي إفريقيا لم تتوطد إلا بنزوح العرب إلى هذه البلاد واستقرارهم فيها. وقد شاءت الصدف أن يكون هؤلاء المهاجرون من جنوبي الجزيرة العربية، وأن يؤسس هؤلاء العرب إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقي لهذه القارة[1].

---

(١) Coolpand, East Africa and its Invaders, pp. 15 - 21.

انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية (الطبعة الثانية، القاهرة سنة ١٩٦٥) ص ٢٧ - ٢٨.

وقـد حـاول دعـاة المسلمين أن يشقـوا طـريقهم إلى بـلاد الحبشـة وأن ينتشـروا على حدودها الشرقية، بالإضافة إلى من كان يفد إلى هذه البلاد من تجار المسلمين. وكان هؤلاء الدعاة والتجار يفدون إلى شرقي القارة الإفريقية عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحـرين ومصـوع وزيلع وبربـرة وزنزبـار ومدغشقـر. وقد أخـذ الإسلام يشق طـريقه معهم إلى بـلاد الحبشة والصومال، ليس عن طريق الفتـح والغزو فحسب، بـل عن طريق التجـارة كذلـك، حيث أخـذ التجـار المسلمـون يفـدون على هـذه البـلاد ويـدخلون الكثيـرين من أهلهـا في الإسلام. ومن الساحل الشرقي نفذ الإسلام إلى نيـاسالانـد، بل لقـد نفذ إلى كينيـا وأوغندة وتنجانيقا، وإلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية(١).

ويمكن أن نلخص المسـالك التي سلكهـا الإسلام وانتشـرت منها التجـارة إلى القارة الإفريقية فيما يلي:

١ ـ طريق شمالي إفريقيا: مصـر، برقـة، طرابلس، إفـريقية (بـلاد تونس)، المغـرب الأوسط (الجزائر وجزء من مراكش)، بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال. ويتبع هذا الطريق طريق بحري بعد نمو البحرية الإسلامية: من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش).

٢ ـ طريق صحراوي: من واحات مصر العربية ماراً بجنوبي بلاد المغرب حتى غـربي القارة الإفريقية.

٣ ـ طريق القوافل: من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالي السودان، ولا سيما من جنوبي تونس إلى بلاد برنو غربي بحيرة شاد، ومن جنوبي الجزائر إلى بلاد «الحوصا» شمال «نيجيريا». ومن جنوبي مراكش إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر.

٤ ـ والطريق الرابع يسير عبر الصحراء الشرقية ووادي النيل إلى بلاد النوبة وشمالي السودان.

٥ ـ والطريق الخامس من جنوبي بلاد العرب إلى ساحل أفريقيا الشرقية(٢).

وكان لاختراع البوصلة التي تهتدي بها السفن التي تمخر عباب المحيطات والبحار أثر كبير في اتساع نطاق تبادل السلع وتمهيد السبيل أمام الرحالة والمكتشفين. وإلى الصين يرجع الفضل في اختراع هذه الآلة التي لم تعرفها أوروبا قبل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)،

---

(١) سيرة توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٨١ ـ ٣٨٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٣٦.

أي قبل عصر كريستوفر كولمبس مكتشف القارة الأمريكية سنة ١٤٩٢ م. وقد ذهب ابن عذارى[1] المراكشي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى أن اختراع البوصلة كان في القرن الحادي عشر الميلادي، وقيل في القرن الثاني عشر.

وإلى الشرق يرجع الفضل أيضاً في اختراع وسائل المواصلات التي كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية: كالعربة ذات العجلات، وحمام الزاجل، والجمل. وكان استخدام الجمل في شمالي القارة الإفريقية من الأحداث الهامة التي أدت إلى ربط أجزاء الدولة الإسلامية ونمو العلاقات الاقتصادية والثقافية بين أفريقيا وآسيا من ناحية، وبين الشرق والغرب من ناحية أخرى، وبين المغرب الأقصى والممالك والإمارات الإسلامية بحوض السنغال والنيجر، كما أثبت التاريخ أن يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية قد استعمل الجمل في حربه ضد النصارى في موقعة الزلاقة الشهيرة ٤٧٩ هـ. وقد علل أكثر مؤرخي الغرب بأن ذلك كان من عوامل انتصاره في هذه الموقعة، إذ ذعرت خيول النصارى من الجمال التي لم ترها من قبل. كما أن أهل الأندلس لم يكونوا قد رأوا قط جملاً من قبل ولا كانت خيلهم قد رأت صورها أو سمعت أصواتها.

وقد اشتهرت بلاد العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد، واشتهرت بلخ ببلاد ما وراء النهر (أي نهر جيحون) بالجمال ذات السنامين (وتسمى البخاتى بفتح الباء والخاء). وكانت الخيل التي كثر استعمالها في أوروبا فيما بعد، تجلب إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية، من بلاد العرب، ولا سيما من بلاد الحسا (أو الأحساء) على الخليج العربي، كما جلب العرب الجاموس من موطنه الأصلي وهو بلاد الهند، حيث نقل إلى العراق في عهد الدولة الأموية[2].

(أ) طرق التجارة:

أما وقد ذكرنا شيئاً عن عناية خلفاء المسلمين بالتجارة التي احتلت في العصر العباسي الثاني المكانة الأولى في التجارة العالمية، يحسن أن نذكر أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب. **والطريق الأول** من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر، ويبدأ من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويقوم به اليهود، ويسميهم المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية نسبة إلى نهر الرون، ويتكلمون العربية والفارسية واليونانية والفرنسية والصقلبية. ويجلب هؤلاء اليهود من الغرب الجواري والغلمان والديباج وجلود الخز[3]، ثم أطلق هذا الاسم على الثوب

(١) كتاب المغرب في أخبار المغرب طبعة دوزي (ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٥١، وباريس ١٩٣٠).

(٢) متز: الحضارة الإسلامية ترجمة أبي ريدة، ج ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٩٤.

(٣) الخز اسم دابة وقيل هو الذكر من الأرانب ويطلق فيعرف به الحرير في العرف.

المأخوذ من وبر الخز. وترسو سفنهم عند الفرما (وكانت من أهم الموانىء التجارية في ذلك الحين)، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم وهي مدينة السويس الحالية[١]، أو إلى الإسكندرية، وكانت ملتقى التجارة العالمية، ومنها تنقل إلى الفسطاط أكبر مدن مصر التجارية في ذلك الحين، أو إلى القاهرة حاضرة الفاطميين والايوبيين ومن جاء بعدهم من الحكام عن طريق النيل.

يقول «هيد» في كتابه تاريخ التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى[٢] نقلاً عن ابن خرداذبة إن السلع كانت تنقل من الفسطاط إلى القلزم، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة (وهي ميناء مكة المكرمة) حتى تصل إلى الهند والصين. ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدارصيني. فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية، ومنها إلى بروفانس، وأحياناً يقصد بعضهم الإسكندرية.

ثانياً ـ والطريق الثاني يبدأ بحراً من بروفانس على أيدي تجار اليهود الراذانية إلى المشرق صوب أنطاكية حيث تنقل السلع على الدواب إلى بغداد عن طريق نهر الفرات وجداوله، ثم إلى الأبلة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الفارسي، ثم إلى عمان والهند والصين.

ثالثاً ـ والطريق الثالث يبدأ من شمالي الروسيا إلى المشرق عن طريق بحر قزوين، ثم إلى مرو حاضرة خراسان، فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين، ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل، وكان المسلمون يأخذون الجزية من هؤلاء التجار باعتبارهم مسيحيين.

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل الفلجا الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وينبغي ألا ننسى فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند التي قيل إنه غزاها ثلاث عشرة غزوة ونشر الإسلام في ربوعها، وما كان لهذه الفتوح من أثر في رواج التجارة، ويرجع وجود النقود الإسلامية التي كشفت في شمالي أوروبا إلى هذا العصر، وقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمالي أوروبا وبلاد الشرق الإسلامي.

والطريق الرابع هو الطريق البري، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازاً المغرب الأقصى عن طريق سبتة والمغرب الأدنى عن طريق تلمسان ووهران والقيروان والمهدية والمغرب الأدنى عن طريق طرابلس وبرقة حتى يصل إلى مصر، ثم يتجه إلى

(١) ابن خرداذبة. المسالك ص ١٥٤.
(٢) ج ١ ص ٤١.

بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق، ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز، ثم إلى كرمان والهند والصين[١].

وكانت طرق التجارة تسلك طرق البريد. وقد عني الفاطميون بطرق المواصلات البرية التي تسلكها القوافل التي تسير بالتجارة من بلد إلى آخر. فكان هناك طريق للقوافل يصل مصر ببلاد المغرب غرباً وببلاد الشام والعراق شرقاً.

(ب) مراكز التجارة:

ومن أشهر مراكز التجارة أنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربي، وقد حصنها الخليفة العباسي المعتصم. وكانت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية[٢]، كما أصبحت أداة الاتصال بين الشرق والغرب. وغدت الفرما (وكانت مفتاح الديار المصرية)[٣]، والإسكندرية من المراكز التجارية الهامة بين الشرق والغرب، تنقل منها التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الأحمر، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوروبا. وكانت الإسكندرية ـ ولا تزال ـ أهم موانىء البحر الأبيض المتوسط، تفد إليها السفن حاملة منتجات الشرق والغرب. واشتهرت بمعدن الرخام والخرنوب والزيتون واللوز. وكانت من أهم مراكز صناعة الزيت والصابون[٤] وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة حيث تكثر السلع الشرقية والغربية. ومن برقة ترى سلسلة من الموانىء التجارية الهامة مثل طرابلس والمهدية ووهران ومليلة وسبتة وطنجة.

وكانت الفسطاط عاصمة مصر التجارية في عهد الفاطميين وهي، كما يقول المقدسي[٥] «ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنام وأجل من مدينة السلام (يعني بغداد)، خزانة المغرب ومطرح المشرق، أهل من نيسابور وأجل من البصرة، وأكثر من دمشق. معدن الصلحاء، طيب الشتاء، أهل سلامة وعافية». وكانت أسواق الفسطاط في غاية النظافة والنظام، تصطف فيها القياسير والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع. وإليها ترد تجارة الشام والموصل والعراق وغيرها من بلاد المشرق الإسلامي.

---

(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) Heyd, tome 1, pp. 43 - 44.

(٣) اشتهرت بمصايد الأسماك. المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ص ١٩٥.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية.

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

ومن مراكز التجارة في مصر في العصر الفاطمي: مدينة أسوان، وكانت قصبة إقليم الصعيد، وكانت ـ ولا تزال ـ سوقاً لتجارة النوبة والسودان.

وتلي مدينة الفسطاط في الأهمية مدينة دمياط ثالثة الثغور التي تقع على ساحل مصر الشرقي، وهي تنيس والفرما ودمياط، وقد برزت دمياط في ميدان التجارة والصناعة وأضحت في العصر الفاطمي مركزاً هاماً لصناعة النسيج، كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية. ولعبت دمياط دوراً بارزاً في قصة الصراع بين المسلمين والصليبيين.

ومن مراكز التجارة في العصور الوسطى عيذاب (بفتح العين وتسكين الباء) على ساحل البحر الأحمر. وقد نافست ميناء القصير، ولعبت دوراً هاماً في تجارة البحر الأحمر، وازدهرت عيذاب في القرنين الخامس والسادس للهجرة لتحول طريق التجارة الفاطمية إلى الجنوب بسبب اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة الذين كانوا أصحاب النفوذ في بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك العصر، ثم لاستيلاء الصليبيين على أيلة (بفتح الألف وسكون الياء وفتح اللام) الواقعة على زاوية خليج العقبة سنة (٥١٠ هـ) ١١١٦ م. وقد ذكر ابن جبير[١] أن أهل عيذاب جمعوا ثروة طائلة من السفن التي كانوا يمتلكونها، وكانوا يحترفون التجارة وينقلون الحجاج ويقومون بصيد اللؤلؤ في شهري يونية ويولية من كل سنة.

وكان التجار والحجاج يفدون إلى ثغر عيذاب عن أحد طريقين: أحدهما طريق قوص ويتفرع إلى فرعين: أحدهما يعرف بطريق «العبدين»، ويعرف الثاني بطريق «دون» وهي قرية على شاطىء النيل. أما الطريق الثاني فهو طريق مدينة أسوان.

وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء في هذا الطريق في الصيف، يمتاز عن الطريق الأول بقصره، فكانت القوافل تقطعه في خمسة عشر يوماً. كما يمتاز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة التي تكثر في الطريق الأول. أضف إلى ذلك أن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة. لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص. وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز، أو بالسلع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب، ومنها إلى الساحل المصري، لذلك كانت عيذاب من أعظم مراسي الدنيا، لأن مراكب الهند واليمن كانت تفرغ فيها البضائع، ويقلع منها الحجاج في ذهابهم وإيابهم.

ومما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة إلى الجنوب قد أدى إلى انتعاش كبير في حالة

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٥ ـ ٤٢. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣.

عيذاب الاقتصادية، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السلع التي تمر بها، أو الاستيلاء على جزء منها للاستهلاك المحلي، كما استفاد الأهالي من اشتغال عدد كبير منهم في شحن السلع وتفريغها، مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم.

وقد ظل حجاج مصر والمغرب يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج عبر صحراء عيذاب التي لم تزل طريقاً للحج في ذهابهم وإيابهم أكثر من مائتي سنة (٤٦٠ هـ - ٦٦٠ هـ).

ففي الشدة العظمى في عهد المستنصر الفاطمي انقطع الحج براً، وظلت الحال على ذلك حتى كسا السلطان بيبرس الكعبة وعمل لها مفتاحاً، ثم أرسل قوافل الحج براً في سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ - ١٢٦٨ م)[١].

كانت مصر في عهد الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ترتبط بعلاقات تجارية مع كثير من بلدان أوروبا وبلدان الشرق، فكان تجار مدينة «أمالفي» الإيطالية يجلبون المنسوجات الحريرية من مصر والشام، ويجلبون من مصر مهرة الصناع لتزيين قصورهم بالفسيفساء. وكان لأهل «أمالفي» حي خاص بهم في مدينة أنطاكية كما كان لهم كثير من الفنادق بمدينة الإسكندرية[٢]. وأخذت مراكب جنوة تشق طريقها إلى موانىء مصر والشام وتحمل حجاج المسيحيين إلى يافا حيث يذهبون إلى بيت المقدس، ويذهب تجار جنوة إلى أسواق مصر ليجلبوا الفلفل وجوز الطيب والقرنفل والشب والنطرون الذي كان الفاطميون يحتكرون تجارته. كما كان لأهل جنوة جالية بالإسكندرية، وقد أقامت حكومة البندقية علاقات تجارية واسعة مع الفاطميين في مصر ونقلت سفنها منتوجات آسيا إلى أوروبا[٣].

وكانت الدولة البيزنطية، برغم سوء علاقاتها مع مصر، بحاجة إلى المصنوعات المصرية الممتازة التي تنتجها مصانع تنيس ودمياط، ويقبل عليها الأباطرة لتزيين قصورهم. واحتلت المنسوجات المصرية مكانة مرموقة في أسواق القسطنطينية حيث كان المصريون يجلبون الفراء الوارد من بلاد الروس، وكان بالفسطاط حي يقيم فيه تجار الروم[٤].

وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة في العصر الفاطمي؛ فكانت أكثر السفن تقلع من مصر إلى إيطاليا وجنوبي فرنسا مارة بموانىء صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات مصر وتحصل في مقابلها على قمح صقلية وفواكهها ومعادنها[٥].

ولم تنقطع علاقة الفاطميين ببلاد المغرب بعد انتقال حاضرة خلافتهم إلى مصر. فقد

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

(٢) Heyd, tome 1, pp. 104 - 106.

(٣) Ibid, tome 1, pp. 107 - 129.

(٤) Ibid, tome 1, p. 58.

(٥) المقريزي: خطط ج ١ ص ٩٦.

كانت سفن المغاربة تقلع إلى مصر تحمل حجاج المغاربة كما تقدم أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند. وقد ذكر أبو عبيد البكري أن سفن مصر كانت تحمل غلات بلاد المغرب مثل زيت الزيتون والفاكهة، وتسير السفن إلى المهدية التي بناها عبيد الله المهدي في إفريقية (بلاد تونس الحالية) وتستمر في سيرها إلى المغرب الأقصى وتعود محملة بالسلع إلى الإسكندرية[١].

وكان من أثر تقدم المسلمين في فن الملاحة أن أخذ الشرق الإسلامي يتصل ببلاد الأندلس، وأدى ذلك إلى قيام علاقات تجارية بينها وبين سائر البلاد الإسلامية، حاملة منتجات هذه البلاد، وكانت الأساطيل التجارية التي ترسو في موانىء إشبيلية ومالقة (بفتح اللام والقاف) ودانية والمرية (بفتح الميم وكسر الراء وفتح الياء مع التشديد) تنقل إلى جميع موانىء البحر الأبيض المتوسط محاصيل الأندلس ومنتجات مصانع المدن الأندلسية والمغربية. ونذكر على سبيل المثال أغطية جنجالة وسجاجيد بسطة (بفتح الباء وسكون السين) وفراء سرقسطة (بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين) وأواني مالقة الفخارية المذهبة، وحلي قرطبة المنقوشة وجلودها، وأسلحة طليطلة، وورق مالقة السميك. وقد شاهد ناصر خسرو[٢] في أسواق الفسطاط قطعة من البللور الصخري واردة من بلاد المغرب.

وكانت هذه العلاقات التجارية مستمرة مع مصر التي أصبح تأثيرها على الأندلس قوياً، كما تدل على ذلك النقوش التي أثبتت وجود هذه العلاقات التجارية، فقد وجد اسم تاجر من الإسكندرية مات في ميناء المرية سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) منقوشاً على أحد قبور المدينة، يدل على أنه مات في أثناء سفره في العهد الذي كانت المرية تصنع أقمشة فاخرة ذات شهرة عالمية. وفي هذه الحقبة كان الأندلس مغربياً في عهد المرابطين.

ويذكر البكري[٣] أن برقة كانت تصدر إلى مصر الذبائح كما تفعل اليوم، والصوف والعسل والقطران، وأن القوافل كانت تحمل منتوجات السودان وغانة وحوض السنغال والنيجر إلى واحات مصر، فتحمل التبر وبعض السلع التي ينتجها إقليم الواحات.

وكان للمغرب علاقات تجارية واسعة مع أهالي البلاد الواقعة جنوبي الصحراء بين المغرب وبلاد السودان. فقد قال الشريف الإدريسي[٤] عند كلامه على مملكة غانة: ومدينة

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥، ٣٠، ٤٧، ٤٩، ٨٢.

(٢) Sefar Naméh, p. 149.

(٣) المغرب ص ٥.

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (نصوص من هذا الكتاب بعنوان: «الغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» ص ٦).

ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتي عشرة مرحلة في رمال ودماس (قفار) لا ماء بها. وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو (يقصد نهر النيجر). وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى. وأهلها مسلمون، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهو يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي، وله قصر على ضفة النيل (يقصد به نهر النيجر أيضاً) قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه، وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج، وكان بنيان هذا القصر في عام عشر وخمسمائة من سني الهجرة».

وقد ذكر الشريف الإدريسي[١] أنه كان بنهر النيجر جزيرة تقع شرقي مدينة غانة، طولها ثلاثمائة ميل وعرضها مائة ميل. ويحيط بها النهر في سائر السنة. ويطلق الإدريسي على هذا النهر اسم النيل، ولعله يظن أن نهر النيجر هو امتداد لنهر النيل. وبعد انتهاء موسم الفيضان في شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر، يقصد أهالي هذه الجهات الجزيرة بحثاً عن التبر، «فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر. وما يخيب منهم أحد. فإذا عاد النيل (أي النيجر) إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضاً، واشترى أكثره أرقلان (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح القاف) وأهل المغرب الأقصى، وأخرجوه إلى دور السكك (أي دور صك النقود) في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع، هكذا في كل سنة».

وقد ذكر السلاوي[٢] نقلاً عن أبي العباس أحمد الشريشي صاحب كتاب شرح المقامات الحريرية أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار، ثم يسيرون في قوافلهم إلى غانة، فيقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً، فيبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر. ويحدثنا الشريشي أن التاجر المغربي كان إذا سافر إلى غانة بثلاثين حملاً، رجع منها بثلاثة أحمال أو حملين: واحد لركوبه وثان للماء وذلك بسبب اختراقه المفازة. وكان التجار يقطعون هذه المفازة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا ما حملوه على ظهور إبلهم. وقد أضاف الشريشي إلى ما تقدم أن أثمان أحمال الثلاثين جملاً يوضع فيها من التبر ما يملأ

(١) المصدر نفسه ص ٨.
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٥ ص ٩٩ - ١٠٠.

مزوداً[١] واحداً وهذا يؤيد رأي الشريف الإدريسي في استخراج التبر واستعماله في هذا العصر[٢].

وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى. وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم في التجارة السودانية من الذهب والرقيق، وأن يبادلوهـا بالسلع التي تحملها القوافل من المغرب الأقصى، وهي ملح الطعام والنحاس والفواكه المجففة، ويوجد الذهب في بلاد تسمى ونقاره (بفتح الواو والراء وسكون النون) (Wangara)، وكانت تقع خارج حدود مملكة غانة. وكـانت شعوب المـاندنجـو يستخرجون الذهب من هذه الجهات ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى المجلوبة من غانة، ويتم التبادل بطريقة تسمى التبادل الصامت (Dumb Barter). ذلك أن تجار غانة يضعون متاجرهم على شاطىء أحد الأنهار ثم يختفون عن الأنظار، فيتقدم أصحاب التبر إلى هذا المكان ويضعون بجوار هذه السلع قيمتها تبراً، ثـم ينسحبون فيظهر أهل غانة من مخابئهم، فإذا رضوا بكمية الذهب أخذوها، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى حتى تزاد الكمية. وكانت هذه الطريقة في المبادلة شائعة في القارة الإفريقية في العصور الوسطى.

وكانت تجارة الذهب تلعب دوراً هاماً في اقتصاديات العصور الوسطى، فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربي أوروبا[٣].

وحول منتصف القرن السابع الميلادي أحرز بعض قبائل لمطة (بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء) البربرية في المغرب الأقصى نفوذاً سياسياً على زراع مملكة صنغاي (بضم الصاد وسكون النون) الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة (Dendi)[٤]. واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى ديا (Dia) حكمت هذه البلاد حتى سنة ١٣٢٥ م واتخذت كوكيا حاضرة لهم[٥].

وقد تمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر عن طريق تاد مكة (أي مكة الجديدة) الذي يعد مركزاً هاماً لطرق القوافل. وكانت هذه العلاقات التجارية ذات

---

(١) المزود مخلاة يوضع فيها علف للبعير، والمزود كذلك هو موضع وضع علف الحيوانات في الحظائر.

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٩٨.

(٤) للوقوف على نشأة هذه المملكة راجع السعدي: تاريخ السودان (طبعة باريس ١٩٨ ص ٣٣ وما يليها). راجع كتاب «الدعوة إلى الإسلام» ترجمة ص ٢٦٩.

(٥) لا يعرف موقعها بالضبط، ويمكن أن يقال إنها تقع على حدود نيجيريا في المنطقة الشمالية الغربية.

أثر بعيد في تحول ملوك هذه البلاد إلى الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق شمال إفريقية، وإن كان كثير من رعاياهم قد ظل على الوثنية.

وفي ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد على مقربة من طرق القوافل الرئيسي، إلى مدينة جوا (بضم الجيم) عند منحنى نهر النيجر. وقد أصبحت هذه المدينة من أهم مراكز التجارة في السودان الغربي، وهي تشبه مدينة غانة بالنسبة إلى البلاد الواقعة في أعالي النيجر(١).

(حـ) الأسواق:

وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة التي تعتمد على الأسواق. وتقيم كل طائفة من التجار في قسم من أقسام هذه الأسواق، ولا يعودون إلى دورهم إلا في المساء.

أما أسواق المدن فكانت تقام في أيام معينة من الأسبوع، وكانت الحوانيت في مصر والشام وفلسطين والمغرب تمتد على طول الشوارع من الجانبين، وخصصت للتجار الغرباء فنادق أشبه بالأسواق الكبيرة. ويضع التجار ـ كما يذكر ابن الفقيه(٢) ـ بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية. ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن (Depots) الفنادق أو القياسر مفرده قيسارية.

وهناك خانات أو مخازن كبرى، كدار البطيخ بالبصرة، ترد إليها جميع أصناف الفاكهة(٣). أما في بلاد المشرق الإسلامي، فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد.

كان الرومان يحكمون شمالي أفريقيا، وقد أطلق على إمبراطورهم اسم «قيصر». وكان بكل مدينة سوق كبيرة أطلق عليها اسم قيسارية (تحريف قيصرية) نسبة إلى قيصر. ويعلل المؤرخون الأفارقة ذلك بأن الموظفين الرومانيين كان لهم في داخل المدن فنادق وحوانيت يبيعون فيها ما يتقاضونه من هذه المدن عيناً (أي سلعاً) كضرائب وإتاوات، ثم يبيعون هذه السلع في تلك الحوانيت والفنادق في داخل المدن. وكثيراً ما كان الأهالي ينهبون هذه المخازن؛ لذلك رأى أباطرة الرومان أن ينشئوا في كل مدينة حياً صغيراً يجتمع فيه التجار ويحفظون فيه سلعهم، ويختزن الموظفون المكلفون بالجبايات كل ما يحصلون عليه من السلع، وإذا أراد رجال المدينة أن

---

(١) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) كتاب البلدان ص ٥١.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ٢ ص ٣٢٧.

يدافعوا عن أموالهم الخاصة اضطروا إلى أن يدافعوا ويحافظوا على أموال الإمبراطورية ويحولوا بذلك دون نهبها(١).

وكانت الدولة الفاطمية تجبي مبالغ كبيرة من الجمارك أو المكوس المفروضة على الصادرات والواردات. فكانت السفينة إذا رست في الميناء صعد إليها موظفون معينون سماهم ابن جبير «الأمناء»، ومهنتهم «تقييد جميع ما جلب فيها من بضائع، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش»(٢). وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى مقاومة التهريب حتى لا تفلت البضائع من الرسوم المقررة عليها، أما القوافل فإنها لم تكد تصل إلى حدود البلاد حتى يهرع إليها الأمناء لتحصيل الرسوم المستحقة عليها(٣).

وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم الواردين على الثغور خمس ثمن السلع، ومن الروم ١٠ ٪ (٤). وكانت نسبة الرسوم تبلغ أحياناً ٣٥ ٪ من قيمة السلع، وقد تنخفض إلى ٢٠ ٪ (٥)، ويرجع ذلك إلى اختلاف أنواع السلع وقيمتها وجنسيات التجار. فكان تجار المسلمين الوافدون من الشرق أو الغرب يؤدون رسوماً أقل مما يؤديه تجار المسيحيين. ولم يكن التجار الأوروبيون يعاملون معاملة واحدة؛ فكانت الرسوم الجمركية تخفض على واردات دور الصناعة من الخشب والحديد بسبب حاجة الدولة إلى هذه المواد. هذا عدا رسوم إضافية يدفعها التاجر مقابل استخدام المترجمين والحمالين وعمليات الوزن(٦).

وإذا وصلت السلع إلى الميناء نقلت إلى الفندق أو الوكالة حيث يجري تثمينها بواسطة سماسرة تعينهم الدولة التي تستولي على ما تحتاج إليه من بعض المواد كالحديد والخشب والقطران(٧)، وتسمح للتجار الأوروبيين بإقامة الفنادق في الموانىء الهامة، ولكل جالية أوروبية فندقها الخاص، تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها، ويضم الفندق كنيسة صغيرة يقيمون فيها شعائرهم الدينية، وفرناً يصنعون فيه الخبز، وحماماً، وداراً لصنع النبيذ. وتختار الجالية واحداً من أفرادها يطلق عليه اسم الفندقي للإشراف على الفندق، وهو مسؤول أمام الحكومة(٨).

(١) الحسن الوزان (ليون الإفريقي) Description de l'Afrique, p.499
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧.
(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٣٤٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٦.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣.
(٦) Heyd, tome 1, pp. 391 - 392.
(٧) ابن مماتي ص ٣٢٧.
(٨) المقريزي (خطط ج ٢ ص ٩٢ ـ ٩٤) ومنها فندق بلال الغيثي حيث تباع صناديق الذهب والفضة، وفندق =

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة في الموانىء فحسب، بل كانت منتشرة أيضاً في داخل البلاد: فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هنالك فنادق بمحلة صرد والبجوم والكريون(١). ولا يبعد أن يكون عدد هذه الفنادق قد تضاعف في العصر الفاطمي بسبب رواج التجارة ووفرة رؤوس الأموال وشدة إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر(٢).

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم بمثابة مخازن لبضائعهم ومنازل يقيمون بها عندما يقيمون بمصر، وتصبح هذه الوكالات صلة بينهم وبين التجار المصريين الذين كانوا بدورهم ينشئون وكالات من هذا النوع في بلاد الشام والعراق والحجاز(٣). أما القياسر فهي «كالخان العظيم تغلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض»(٤). «والقيسارية مجموعة من المباني العامة على هيئة رواق من أروقة الدير، وبها حوانيت ومصانع ومخازن، وأحياناً مساكن»(٥). وقد كثرت القياسر في العصر الفاطمي وعمرت بالتجار الوافدين عليها من كل فج(٦). كما كثرت الخانات بمصر في ذلك العهد(٧) وارتفعت إيجاراتها، حتى بلغ إيجار الخان بمدينة الفسطاط اثني عشر ألف دينار في السنة(٨).

= الصالح، وفندق ابن قريش، وفندق دار التفاح حيث ترد إليه الفواكه التي تنبت في بساتين ضواحي القاهرة من التفاح والكمثري والسفرجل. وتنقل من هذا الفندق إلى سائر أسواق القاهرة، وفندق طرنطاي وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام.

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٨٩، ٩٠، ٩١.

(٢) البراوي ص ٢٧١.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٦٢.

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٤١.

(٥) انظر مادة قيسارية في دائرة المعارف الإسلامية.

(٦) أمدنا المقريزي (خطط ج ٢ ص ٨٦ - ٩١) بكلام مستفيض عن القياسر في مصر. ومن هذه القياسر: قيسارية ابن قريش، وقيسارية الشرب، وقيسارية ابن أبي أسامة، وقيسارية بيبرس، وقيسارية سنقر الأشقر، وقيسارية جهاركس، وقيسارية العصفر حيث يدق العصفر، وقيسارية العنبر، وقيسارية الجامع الطولوني، وقيسارية ابن ميسر الكبرى حيث يباع الكتان الأبيض والأزرق والطرح، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة.

(٧) ومن أهمها خان مسرور حيث كانت تباع مهمات الأساطيل والرقيق، وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر، وخان منكورش، وخان الخليلي (المقريزي: خطط ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤).
ويلاحظ أن بعض هذه الفنادق والقياسر والخانات يرجع إلى العهد المملوكي، فإن بعضها لا يزال باقياً حتى الآن.

(٨) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٨ - ٦٢٠.

وقد وصف المقدسي(١) أسواق الفسطاط في عهد الفاطميين فقال: «به أطعمة لطيفة وأدامات (بضم الألف مع الهمزة) نظيفة، وحلاوات رخيصة، كثير الموز والرطب، غزير البقول والحطب، خفيف الماء صحيح الهواء». وكانت أسواقها في غاية النظافة والنظام، وتصطف فيها القياسر والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع، وقد بلغ من ازدحام أسواقها بالناس أن شبهت بالجوامع. ومن أشهر أسواقها: سوق القناديل. وقد بلغ من روعة هذه الأسواق ما ذكره المقدسي(٢) الذي شاهد المدن العظام، فقال: «يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته؛ غير أن أجل أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم».

وبرغم ازدحام الفسطاط بالسكان، رخصت أسعارها، فكان الثلاثون رطلاً من الخبز تباع بدرهم، والبيض تباع الثمانية بدانق (وهو سدس درهم). وكان الموز والرطب في غاية الرخص(٣). ويرد إليها من الصعيد: الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب؛ ومن تنيس الثياب الملونة، ومن دمياط القصب، ومن الفيوم الأرز والكتان، ومن الفرما السمك، كما كان يرد إليها الجلبان ودهن الفجل والزئبق(٤).

وقد وصف ناصر خسرو(٥) مدينة الفسطاط بعد المقدسي بنحو نصف قرن، فقال حين زارها بين سنتي ٤٣٩ و ٤٤١ هـ إن سوق القناديل كان يزخر بالتحف النادرة التي ترد إليها من جميع أنحاء العالم، وإن بها من الخانات ما لا يقل عن ألفي دكان يتراوح إيجار الواحد من دينارين إلى عشرة دنانير، وبها من السفن أكثر مما كان ببغداد والبصرة، كما رأى بها عمارات شاهقة بلغ عدد طبقاتها أربعة عشر طابقاً.

ومن مظاهر الحضارة بمدينة الفسطاط في عهد الفاطميين الأسواق التجارية التي كانت عامرة بحوانيت البزازين (أي بائعي الثياب) والمأكولات على اختلاف أنواعها. ومن هذه الأسواق: سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج والإوز (بكسر الألف مع الهمزة). وبه حانوت العصافير وآلاف الأقفاص التي بها هذه العصافير وأنواع الطير كالقماري والهزارات والشحارير والببغاء والسماني.

وكان سوق «الحلاويين» من أبهج الأسواق، يشاهد فيه الأواني وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة. ومن الحلاوات المصنفة، وتسمى المجمعة عدة ألوان. وفي هذا السوق

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه ١٩٩.
(٤) المصدر نفسه ٢٠٣.
(٥) Sefar Naméh, pp. 127, 145, 149, 153.

معامل يصنع فيها من أمثال الخيول والسباع والقطط وغيرها، وتسمى «العلاليق»، وترفع بخيوط على الحوانيت، منها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، وتشترى للأطفال، ويقبل على شرائها الناس على اختلافهم. وتمتلىء أسواق الفسطاط والقاهرة وريف مصر بهذا النوع من الحلوى.

وقد وصف الحسن الوزان أسواق مدينة فاس وصفاً شائقاً فقال: إنه كان لكل حرفة سوقها الخاص، وإن أهم هذه الأسواق كان يحيط بجامع القرويين. نذكر من هذه الأسواق على سبيل المثال سوق العدول وكان لهم ثمانون دكاناً، وسوق الإسكافية حيث تصنع أحذية الأطفال، وسوق النحاسين، وسوق الفاكهة ويضم خمسين حانوتاً، وسوق الزهور. وقد ذكر الوزان أنه إذا شاهد الإنسان كثرة الزهور وتنوعها اعتقد أنه إنما يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا، وبعبارة أخرى خيل إليه أنه يشاهد لوحة تضم أجمل وأزهى الألوان.

ومن أهم أسواق مدينة فاس سوق الحقائب والمحافظ التي تصنع من الجلد الفاخر، وقد بلغ عدد حوانيته الثلاثمائة.

ومن أسواق فاس سوق الجزارين وسوق الثياب المصنوعة من صوف المغرب، وسوق الأسلحة، وسوق السكاكين، وسوق الدجاج، وسوق الدقيق، وسوق الخيوط التي يصنع منها نسيج القنب والكتان والقطن، وسوق صانعي سروج الخيل، وسوق الحدادين، وسوق صانعي الرماح. وهناك أحياء تباع فيها الأغطية الصوفية والثياب الحريرية كالقلانس والمراتب والزرابي الجلدية الصغيرة، ويشغل الخياطون ثلاثة أحياء. وهناك حي خاص بطي وخياطة العمائم، وحيان لبائعي المنسوجات والقمصان والثياب النسوية، وهؤلاء هم أغنى تجار فاس، ويجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة. ثم يأتي حي تباع فيه الملابس المصنوعة من النسيج المجلوبة من أوروبا، وأخيراً يأتي حي تباع فيه الفوط والحصر والقمصان البالية.

وقد ذكر الحسن الوزان عند كلامه على سوق العطارين بمدينة فاس أنه كان يشغل شارعاً مستقيماً به نحو مائة وخمسين حانوتاً. وكان هذا الشارع يغلق من طرفيه ببابين جميلين يمتازان بمتانتهما. وكان العطارون يدفعون أرزاق الحرس الذين يجوبون الشارع خلال الليل ومعهم كلاب وفوانيس[1].

وذكر المراكشي[2] أن الخراج بلغ في عهد الموحدين وقر مائة وخمسين بغلاً من إفريقيا وحدها، عدا بجاية وأعمالها، وتلمسان وأعمالها، وأن عبد المؤمن بن علي وجه همه لتشجيع

---

(١) نفس المصدر والصفحة.
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥٥.

الزراعة وإصلاح الحالة الاقتصادية ببلاد الأندلس، وأن الازدهار الاقتصادي الذي عرفه المغرب في عهد الموحدين يرجع إلى اتساع رقعة الدولة الموحدية واستتباب الأمن واستقرار الحياة، وتشجيع التجارة والصناعة التي تتمثل في إنتاج الأسلحة وفي البناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران[١].

وقد روى عباس بن ابراهيم[٢] عن الإدريسي[٣] الذي وصف مراكش في عهد المرابطين بقوله: «وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة».

العملة:

وإلى الصين يرجع الفضل في إدخال العملة المعدنية والعملة الورقية التي أطلق عليها المسلمون اسم الورق (بفتح الواو وكسر الراء) وأخذها عنهم الأوروبيون، ومن المرجح أن الصين قد عرفت هذه النقود قبل الميلاد بنحو تسعة قرون. ويشك بعض في هذا الرأي، فيزعم أن العملة المعدنية اخترعت في بلاد اليونان أولاً، ويذكر بعض آخر أن انتقال هذا النوع كان نتيجة غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي.

وكانت العملة المستعملة في الأسواق: العملة الذهبية وهي الدينار، وهي مشتقة من ديناريوس Denarius اليونانية، والفضية وهي الدرهم وهو فارسي الأصل. وكان الدينار شائعاً في البلاد الغربية للدولة الإسلامية، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل الإسلام. أما الدرهم فكان استعماله شائعاً في العراق وفارس. إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق وغيرها من البلاد الإسلامية.

وكان الدينار يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد. فتارة يساوي ١٠ دراهم، وتارة يساوي ١٣ درهماً، وتارة أخرى يساوي ١٥ درهماً.

ومن وسائل التعامل الصك، وهو أشبه بالشيك الآن. وقد ذكر الخوارزمي (بضم الخاء وفتح وكسر الراء وسكون الزاي) في كتابه مفاتيح العلوم أن الصك كان يجمع فيه أسماء المستحقين وعددهم وما يستحقونه من المال. ثم يوقع الخليفة أو السلطان أو الأمير بتوقيعه في آخر الصك باعتماد دفع هذه الأرزاق أو الرواتب. وكثيراً ما ذكر الفردوسي لفظ «شيك».

ومع هذا الاختراع انتقلت الألفاظ والاصطلاحات الخاصة به، وهي ترجع إلى أصل

(١) عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ٤.

(٢) الإعلام فيمن حل مراكش وأغمات من الأعلام جـ ١ ص ٦٣ وما يليها.

(٣) نزهة المشتاق (نصوص بعنوان المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) ص ٦٧.

فارسي أو عربي. وما زالت هذه الصكوك متداولة في اللغات الأوروبية حتى اليوم، ففي اللغة الهندية مثلاً (ويطلق عليها الأردية بضم الألف مع الهمزة وفتح الياء مع التشديد) نجد أفال (بفتح الألف الأولى مع الهمزة) وهي حوالة (بفتح الحاء) العربية.

وقد ذكرنا في الباب الأول أن الملاحين الذين نقلوا السلطان ملكشاه السلجوقي هو وجيوشه عبر نهر جيحون تسلموا من وزيره نظام الملك حوالات تسلموا قيمتها من العامل السلجوقي بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك هذا السلطان.

قد حرم الإسلام التعامل بالربا، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان. ومن المعلوم أن التجارة في العصور الإسلامية الأولى، بل إلى عهد قريب، كانت تقوم على الثقة المتبادلة.

الباب العاشر
الثقافة

١ ـ مراكز الثقافة الإسلامية

كان من أثر كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة وذخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم. ومن ثم نرى صدى هذه النهضة في بلاط كل من الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والأمويين في الأندلس، والمرابطين والموحدين في المغرب.

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية. وخير مثل لذلك هذه الآثار التي خلفها العلماء من السنيين والشيعيين، وما كان لها من أثر في النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن، ولو أن قيام هذه الدول قد ساعد على زيادة الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم تبعاً لذلك.

كانت هناك في العصر العباسي الثاني مراكز عدة للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها:

١ ـ أصبهان والري حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهي. وكان بلاط بني بويه هنالك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب.

٢ ـ البلاط الساماني في بخارى حيث زخرت مكتبة نوح بن نصر الساماني بكثير من الكتب النادرة.

٣ ـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين.

٤ ـ بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني ابن مأمون في خيوة. وقد آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوي.

٥ ـ بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة. وكان من أحسن السلاطين ميلاً للأدب وتشجيعاً للعلماء.

٦ ـ بلاط السلاجقة في مرو حاضرة خراسان حيث أقام أمراء السلاجقة ولا سيما في عهد السلطان سنجر ثم في عهد أمراء الخوارزميين. وقد أقام ياقوت الحموي طويلاً في هذه المدينة وأخذ العلم على علمائها وأفاد من خزائن كتبها، وقال إن مرو «أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلها». كما أطنب ياقوت في وصف خزائن الكتب في مرو حين فارقها أمام غارات التتار سنة ٦١٦ هـ التي قال عنها: «وفيها عشر خزائن للوقف لم أرَ في الدنيا مثلها كثرة وجودة»(١).

٧ ـ بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب ولا سيما في عهد سيف الدولة الحمداني.

٨ ـ بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر. وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ. فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والعلماء والمؤرخين والشعراء. وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية، وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات.

٩ ـ وقد نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية، وأصبحت حاضرة الأمويين في الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب، وجذبت مساجدها الأوروبيين الذين وفدوا إليها للتزود من الثقافة الإسلامية.

٢ ـ معاهد الثقافة

(أ) المسجد:

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركة العلمية، وانصرف بعض فقراء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف حيث بنى الرسول الصُّفة، وهي مكان مظلل في شمالي المسجد يأوي إليه فقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم.

وكان المسجد فوق اعتباره مكان العبادة والمكان الذي يؤم فيه الخليفة الناس في الصلاة،

---

(١) انظر لفظ مرو في معجم البلدان لياقوت.

مركزاً لإدارة شؤون الدولة أو الولاية. وكان المنبر أشبه بالعرش، يلقى منه بيان الخليفة لسياسة الدولة، ويلقي فيه خطبته الأولى ويبين فيها سياسته في الحكم. وفي المسجد تذاع القرارات الهامة التي تتعلق بالصالح العام، ويستقبل الخليفة السفراء ويدبر شؤون الدولة. والمسجد هو المكان الذي يتخذه علماء التفسير والحديث مقراً لهم، وهو المعهد الذي يتلقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، وهو المكان الذي اتخذه القضاة لعقد جلساتهم، بل لقد اتخذ بعض المساجد أماكن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الأعداء. وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة في الخطبة، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات. على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تدرس فيها العلوم الدينية، ويقوم بذلك أئمة المساجد.

وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين، ثم أصبح الأزهر في عهد الفاطميين مركزاً هاماً للثقافة ومثابة للعلماء وخاصة فقهاء المذهب الشيعي. وأهم خصائص الأزهر أنه وإن كان قد بدأ كغيره من المساجد، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب الكثير من مختلف العلوم والفنون. وكان يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من فكر في تحويل الأزهر إلى جامعة. وكان العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين والأمراء يشجعون الطلاب من وطنيين وأجانب، فيقدمون إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل الراحة من غير أجر، وأصبح يدرس في الأزهر التوحيد والفقه واللغة والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم[1].

ومن هذه المعاهد الثقافية مسجد القرويين بفاس، وقد أنشىء حول منتصف القرن الثالث الهجري، ثم أصبح مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية. كما أصبحت هذه الجامعة شاهداً على ديمقراطية التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وتخصيص كراسي الأستاذية وشروط التعيين في وظائف التدريس ومراسيم تعيينهم ودرجاتهم العلمية والإجازات الفخرية ومجالس أوصياء الكليات، والمساكن الجامعية للأساتذة والطلاب والمكتبات الجامعية. وفي هذه الجامعة الإسلامية وضع أساس التقاليد الجامعية التي تسير عليها الجامعات في الأمم الراقية، كحفلة افتتاح الدراسة، وحفلة التخرج، وسلطان الطلبة وغير ذلك من الشواهد التي تدل دلالة واضحة على أن المسلمين سبقوا الأوروبيين في ديمقراطية التعليم. ومن ثم ظهرت بجامعة القرويين بفاس طائفة من العلماء الذين تفوقوا في مختلف العلوم والفنون.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٣.

وقد جذبت مساجد قرطبة الأوروبيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية. ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم.

(ب) الزاوية:

ومن معاهد العلم «الزاوية»، وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوي، وبمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد. وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء، فأنشئوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد، كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة. ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر. وتطلق الزاوية أيضاً على المعهد والرباط الذي تنشئه إحدى الفرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسنوسية والشاذلية والخلواتية. وتنتشر الزوايا في كثير من أرجاء المدن والقرى.

وتطلق كلمة زاوية في المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء، تتصل بها غالباً مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولي. وكثيراً ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم أو العبادة. وكانت الزاوية المغربية «مدرسة دينية وداراً لضيافة الأغراب».

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) انتشرت الزوايا في المغرب، وأنشئت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادىء العلوم، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يطوروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكليات، ليسهموا في الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها من مدارس الزوايا في داخل المدن وفي خارجها. وقد خصص ابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) الفصل الثاني والأربعين من رسالته عن أبي الحسن المريني المسماة «المسند الصحيح الحسن» للكلام على الزوايا التي شيدها هذا الملك المغربي[١].

وقد تطورت الزوايا بالمغرب في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حين اشتدت وطأة النصارى على المسلمين في الأندلس، وامتدت أطماعهم إلى احتلال السواحل

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، العدد التاسع، المجلد العاشر ص ٣٣٢.

المغربية. ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد، أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي، وبلغت أوج ازدهارها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، واستطاعت أن تجلس على العرش المغربي أسرة الشرفاء السعديين، وأن تقف معهم جنباً إلى جنب في الجهاد ضد المسيحيين المحتلين. وقد وفقت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية.

كذلك تطورت الزوايا في المغرب في خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة (السادس عشر والسابع عشر للميلاد)، حتى أصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعي الصلاح من ذوي الأغراض الفاسدة والمشعوذين. على أن هنالك بعض الزوايا التي لم يحد أهلها عن سبيل الدين وأجمع الناس على صلاحهم واستقامة سلوكهم، وظهرت نتائج أعمالهم، كالدلائيين والفاسيين والناصريين.

ولم تكن هذه الزوايا الثلاث بمعزل بعضها عن البعض الآخر، على الرغم من اختلاف مواقعها، وإنما كان يجمع بينها التزاور في حل المشاكل الاجتماعية. ومن المقرر عند الأشياخ أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ هم: سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، وسيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي عبد القادر الفاسي[١]. وإلى جانب هذه المراكز الدينية الهامة كانت زاوية العياشية، وهي ربيبة الدلائيين، تقوم بدور مماثل في منحدرات الأطلس المطلة على أراضي نافيلالت وواحات الصحراء، ولا تزال محتفظة بمكتبتها التي تزخر بكثير من الكتب إلى اليوم.

(حـ) الكتاب والمدرسة:

والكتاب مشتق من كتب، والمكتب (بضم الميم وسكون الكاف وكسر التاء) أو المكتِّب (بضم الميم وفتح الكاف وكسر التاء مع التشديد) هو الذي يعلم التلميذ الكتابة.

ولم تكن هناك مكاتب خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام، بل كانوا يختلفون إلى المسجد. ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هي المدرسة البيهقية في نيسابور[٢].

وقد ذكر ابن الأثير أن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ) أسس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، وتعرف كل منهما باسم

(١) محمد بن أحمد الفاسي: المورد الهني، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط ورقة ٢ ب.
(٢) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٣.

المدرسة النظامية. كما أسس نظام الملك المدرسة الحنفية ببغداد. وكان الإمام الغزالي يقوم بالتدريس في المدرسة النظامية ببغداد ثم في نيسابور في أواخر القرن الخامس الهجري. ولما زار السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك بغداد سنة ١٠٨٦/٤٧٩، زار الوزير المدرسة النظامية وجلس في خزانة كتبها وطالع بعض الكتب وألقى على الطلاب درساً في الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر[١]، كما أجرى هذا الوزير الجرايات والمخصصات المالية على مدارسه وأملى الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما[٢]، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن نظام الملك كان من رجال العلم المشهورين في ذلك العصر ومن أكبر المشجعين على نشر الثقافة عامة والثقافة الإسلامية خاصة.

كما بنى نظام الملك الرصد وعين له جماعة من أعيان المنجمين على رأسهم عمر الخيام. وكان نظام الملك يجمع بداره الفقهاء والعلماء الذين كانوا يلقون منه كل مظاهر التكريم والتشجيع. وقد طلب إليه السلطان ملكشاه أن يكتب له كتاباً في السياسة، فألف كتابه المشهور «سياسة نامه» الذي يشير إليه الفردوسي باسم «سير الملوك».

وقد ذكر ابن خلكان[٣] أن مجلس نظام الملك كان عامراً بالفقهاء والصوفية، وأنه كان يغدق الأموال على الصوفية.

وقد أخذ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي هذا النظام عن الفرس في القرن السادس الهجري، ثم نقله صلاح الدين الأيوبي إلى مصر حيث أبطل المذهب الشيعي مذهب الفاطميين وأقام المذهب الشافعي مقتدياً في ذلك بنور الدين محمود الذي بنى عدة مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب وغيرهما[٤].

وقد عني صلاح الدين الأيوبي عناية خاصة ببناء المدارس ومن مدارس الأيوبيين في مصر مدارس الناصرية والقمحية والسيفية، والمدرسة الفاضلية التي أسسها في سنة ٥٨٠ هـ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الذي تقلد ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ) واتخذه صلاح الدين وزيراً له. وكان بهذه المدرسة مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد. ومن المدارس التي أنشئت في عهد الأيوبيين «دار الحديث» التي بناها الملك الكامل

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٧٧.

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٩٦.

(٤) المقريزي: خطط جـ ١ ص ١٠٩.

ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٦.

«بين القصرين»(١)، وتعرف باسم المدرسة الكاملية.

(د) المارستان:

وقد اهتم العباسيون بنشر العلوم الطبية، فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التي يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية. وقد أصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية. وقد اقتبس المسلمون فكرة البيمارستان عن السريان الذين تفوقوا في مهنة الطب في العصر العباسي الأول، وقد وضع بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء في المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين، وبنوا المارستان للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب، وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل.

ومن أحسن الأمثلة لذلك المارستان الذي أسسه أحمد بن طولون في أرض العسكر سنة ٢٥٩ هـ وأدخل عليه ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في الوقت الحاضر. وفي سنة ٣١١ هـ أسندت إمارة مارستان الري إلى محمد بن زكريا الرازي أشهر أطباء عصره، ثم أسندت إليه إمارة مارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي (٣١١ هـ)، وقد بنى عضد الدولة البويهي (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) كثيراً من المارستانات، نذكر منها المارستان العضدي ببغداد(٢)، وأسس الأيوبيون في مصر كثيراً من المارستانات(٣)، وأنشأ يعقوب المنصور الموحدي بالمغرب المارستان في مدينة مراكش، وكان يتفقده بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى بنفسه(٤).

(هـ) بيت الحكمة:

ذكرنا من قبل أن كسرى أنوشروان أسس في جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم بقي أثرها حتى قامت الدولة العباسية. وكان بيت الحكمة الذي يرجح أن يكون هارون الرشيد هو الذي وضع أساسه قد ألحق به ابنه المأمون مرصداً، وخزانة أمدها بالكتب والمصنفات حتى أصبحت من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي.

---

(١) يعني القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للخليفة المعز الفاطمي والقصر الغربي الصغير الذي بناه العزيز الفاطمي.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٨.

(٣) انظر لينبول: سيرة القاهرة (ترجمة المؤلف) ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

وقد نهض المذهب الإسماعيلي على أيدي الفاطميين نهضة بعيدة الأثر من حيث استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة الفاطمية وبسط نفوذها، فاعتمد عبيد الله الفاطمي أول الخلفاء الفاطميين على المدارس التي أطلق عليها اسم مدارس الدعوة لنشر عقائد المذهب الإسماعيلي بين أشياعه سراً. وقد راجت مدارس الدعوة في المهدية حاضرة الدولة الفاطمية الناشئة في عهد عبيد الله المهدي، ثم راجت في المنصورية حاضرة هذه الدولة في عهد حفيده المنصور، ثم في القاهرة في عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين. وقد عرفت هذه المدارس في مصر باسم «مدارس الحكمة» التي كان لها شأن كبير في نشر الثقافة الإسماعيلية. ومن هذه المدارس «دار الحكمة» التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله. ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصوراً على القاهرة وحدها، وإنما جاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسية أو بحارها أو جزرها كما كان يطلق عليها في ذلك الحين(١).

(و) قاضي القضاة وداعي الدعاة:

وقد عمل دعاة الفاطميين في مصر على ترويج المذهب العلني(٢) بين السنيين والشيعيين، بحيث يرضي هؤلاء ولا يثير سخط السنيين. لذلك نرى جوهراً والمعز يدخلان عبارات مذهبية كعبارة «حي على خير العمل» في الأذان والقنوت(٣) في صلاة الجمعة، والدعاء من فوق المنابر لآل بيت الرسول وللخليفة الفاطمي القائم بالأمر، كما جهروا بالبسملة في خطبهم وصلاتهم، إلى غير ذلك. ومما يلفت النظر أن المؤرخين قد تصدوا لهذه التغيرات المذهبية. أما الدعوة السرية فلم يتناولها أحد بالبحث، بل إن المؤرخين يكادون يجمعون على أن دراسة عقائد المذهب الإسماعيلي وأصوله لم تبدأ إلا في أواخر عهد الخليفة العزيز بالله، وكان الدعاة الفاطميون يتناولونها بالبحث والدراسة.

وقد بلغ من عناية الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم أنهم فتحوا أبواب قصورهم لأنصارهم من الإسماعيلية، وأصبح داعي الدعاة يشرف على مجالس الدعوة.

(١) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 1, pp. 305 - 306.
نقلاً عن بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ١ ص ٢٠١ وما يليها.

(٢) للفاطميين دعوة علنية يذيعونها بين الناس ولهم تعاليم سرية يلقنونها للخاصة من الدعاة.

(٣) يقرأ القنوت بعد الركوع في الركعة الثانية في صلاة الصبح عند الشافعية، ويقرأ قبل الركوع في الركعة الثالثة في صلاة الوتر عند الأحناف. ويبدأ القنوت بالعبارة اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله. أما عند الشيعة فإن القنوت يبدأ بعد الركعة الأولى أو قبل الركوع مباشرة أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر (بعد صلاة العشاء) ويكون القنوت في أبسط صورة بعبارة «إنا لك قانتون».

وقد أسندت رياسة الدعوة الإسماعيلية في عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه «داعي الدعاة». وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه. وكثيراً ما كانت وظيفة قاضي القضاة وداعي الدعاة تسند إلى رجل واحد. ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً، وله نواب ينوبون عنه في البلاد، وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وأتباعه من الإسماعيلية.

ومن أهم أعمال داعي الدعاة رياسة الدعوة الإسماعيلية، وأخذ العهد على المريدين، إما مباشرة أو بواسطة نوابه في مصر وفي غيرها من البلاد التي ساد بها المذهب الإسماعيلي، والإشراف على المحاضرات التي تلقى بمجلس الدعوة، بل لقد بلغ من عناية الفاطميين بهذه المجالس أن المحاضرات التي يلقيها داعي الدعاة ونوابه كانت تعرض على الخليفة لإقرارها قبل أن تلقى على الناس(١). وهذا يدل على أن الخلفاء الفاطميين كانوا بصفة عامة من أفقه الناس بعقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه.

ومن خصائص داعي الدعاة جمع النجوى من «المؤمنين والمؤمنات» يعني الإسماعيلية (وكانت ثلاثة دراهم وثلثاً)، وتدوين اسم من يؤدي أكثر من المال المقرر للنجوى. ومن سراة الإسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً، وفي هذه الحالة يعطى شارة فاطمية هي عبارة عن رقعة مذيلة بتوقيع الخليفة تحمل العبارة الآتية: «بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك»(٢).

وقد خصص لداعي الدعاة مكان بقصر الخليفة يشرف منه على نشر الدعوة، فيتصل بالدعاة ويزودهم بتعليماته، ويقدمون له في يومي الاثنين والخميس ما أعدوه من المحاضرات التي تلقى في أصول المذهب الإسماعيلي.

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس مصنفاته فيحاضر الرجال، كما يعقد في الأزهر مجلساً خاصاً للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقنهن فيه أصول هذا المذهب. وكانت هذه المجالس تفرد للناس كل حسب طبقته؛ فكان لأهل البيت مجلس، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس، ولخدم القصور مجلس، وللحريم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن.

وإذا فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضرته على أنصار المذهب الإسماعيلي، أقبلوا عليه يقبلون يده، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي يحمل توقيع الخليفة من محاضرته.

---

(١) المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، السيرة المؤيدية، مخطوط بجامعة القاهرة ص ١٢١.
(٢) المقريزي: خطط جـ١ ص ٣٩١.

ومن تقلد منصب داعي الدعاة: أسرة أبي حنيفة النعمان المغربي، وابنه علي بن النعمان، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي.

وكان قاضي القضاة يلي الوزير في الرتبة، وتعلو رتبته رتبة داعي الدعاة، وكان بعض فقهاء الإسماعيلية يجمعون بين المنصبين. ومما يدل على صحة هذا القول أنه إذا انعقد مجلس الملك في قاعة الذهب بقصر الخليفة، وأخذ زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب أمكنتهم عند الأبواب، وأخذ غيرهم أمكنتهم المخصصة لهم، أخذ الأمناء في تقديم من ينبغي تقديمه للخليفة، فكان الوزير أول من يقدم إلى الخليفة، فيحيي أمير المؤمنين بلثم يديه وطرف ردائه، فيأذن له الخليفة بوسادة يجلس عليها إلى جانب الخليفة الأيمن. ثم يتلوه قاضي القضاة، فيقترب من الخليفة ويحييه ويرفع يده اليمنى ويشير بسبحته قائلاً: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته». وبهذا يتميز على سائر أعضاء المجلس اعترافاً بمركزه الديني الرفيع. ثم يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم(١).

كما يتضح ما كان يتمتع به قاضي القضاة من مركز رفيع في عهد الفاطميين من احتفال الخليفة بصلاة الجمعة. فقد كان قاضي القضاة قبل وصول الخليفة إلى الجامع يحمل المبخرة، فيبخر المنبر والقبة التي يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة. وقاضي القضاة هو الذي يدخل على الخليفة وهو في قاعة الخطابة فيشير ببدء الصلاة، وقاضي القضاة هو ذلك الموظف الكبير الذي يقف مع الوزير على باب هذه القاعة، وهو الذي يلي الوزير في التبليغ عن الخليفة عند إقامة الصلاة، وإذا خرج الخليفة من الجامع بعد الصلاة سار الوزير عن يمينه، وسار قاضي القضاة عن يساره يتبعه داعي الدعاة(٢).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠.

(٢) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٨١.

وذكر القلقشندي أن الخلفاء الفاطميين كانوا يركبون في مناسبات متعددة، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام، وهي: موكب أول العام الهجري، وأول رمضان، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيدي الفطر والأضحى، وجبر الخليج (القلقشندي جـ٣ ص ٥٠٣ ـ ٥٢٠). أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند الركوب لمناظرهم ويكون ذلك عادة في أيام السبت والثلاثاء «شرحه جـ٣ ص ٥٢١».

حسن إبراهيم حسن: الأزهر: تاريخه وتطوره (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٢ ـ ٢٧.

(ز) المكتبات:

لما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي وتقدمت صناعة الورق، تبع ذلك ظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم، فكثرت المكتبات التي تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها، وأصبحت هذه المكتبات فيما بعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية. وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة الذي قيل إن هارون الرشيد هو الذي وضع أساسه كما ذكرنا، بمختلف الكتب، وظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م).

ومن أشهر المكتبات في العصر العباسي الثاني مكتبة نوح بن نصر الساماني[(١)]، ومكتبة الصاحب إسماعيل بن عباد[(٢)]. كذلك نقل السلطان محمود الغزنوي كثيراً من المؤلفات إلى غزنة، واحتوت مكتبة مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب[(٣)].

وقد أشاد ياقوت الرومي بمكتبات مدينة مرو حاضرة خراسان التي استوطنها مدة طويلة، وقال إنها كانت عامرة بالكتب ولا سيما في عهد السلطان سنجر السلجوقي، وإنه كان بها عشر خزائن لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في الجامع نذكر منها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر الزنجاني، وكان فقاعياً للسلطان سنجر[(٤)]. وكانت تحتوي على اثنـي عشر ألف مجلد، وخزانة نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد نوه ياقوت بالفوائد الجليلة التي ساعدته على جمع مادة كتابه معجم البلدان وغيره فقال: «فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد. وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن». وقد بلغ من ولع ياقوت وإفادته من الكتب التي زخرت بها المكتبة «ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل صفي وسكن، فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المفقودة»[(٥)].

وكذلك اتخذ الفاطميون في مصر من مساجدهم وقصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ذكر ياقوت (انظر لفظ مرو في كتابه معجم البلدان) أن الزنجاني كان في مبدأ أمره يبيع الفاكهة والريحان ثم سار شرابياً لسنجر.

(٥) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٨٤ في ترجمته لياقوت.

خاصة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات. وقد أمدت الدولة الفاطمية مكتبة «دار العلم» التي كانت متصلة بدار الحكمة بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة، وأبيح للناس الانتفاع بما يحتاجون إليه من المواد والأقلام والأوراق والمساند دون مقابل.

كما استفادت مكتبة القصر الشرقي في القاهرة من غيرة يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي الذي عرف بولعه بجمع الكتب التي نقل عدد عظيماً منها من داره الخاصة إلى مكتبة القصر الخلافي بعد وفاته. وكان بمكتبة القصر عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام لكل قسم منها باب. وقد روى المقريزي[١] أنه كان بالقصر الشرقي أربعون خزانة منها خزانة تحتوي على ١٨,٠٠٠ مجلد. وكانت هذه المكتبة ـ كما يقول أبو شامة[٢] ـ «من عجائب الدنيا»، حتى قيل إنه كان فيها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري. وقد اختلف المؤرخون في عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر الشرقي، فذكر ابن واصل أنها اشتملت على ١٢٠,٠٠٠ مجلد، وذكر ابن أبي طي وابن الطوير وعماد الدين الأصفهاني[٣] أن هذا العدد بلغ ٢٠٠,٠٠٠ و ٦٠٠,٠٠٠ و ٢,٠٠٠,٠٠٠ على التوالي.

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر الشرقي، فهناك مسألتان جديرتان بالملاحظة تحملان على الظن بأن عدد هذه الكتب بلغ ٦٠٠,٠٠٠ على الأقل على ما ذكره ابن الطوير.

الملاحظة الأولى أنه لما مات الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) نقل الخليفة الآمر من قصره ٥٠٠,٠٠٠ مجلد إلى مكتبة القصر[٤].

والملاحظة الثانية أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) حمل من مكتبة القصر ١٠٠,٠٠٠ مجلد إلى المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني سنة ٥٨٠ هـ[٥].

ومع ذلك فقد عانت المكتبة الكبرى في القصر ما عاناه غيرها من المكتبات من المصائب التي حلت بالخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ) وعند سقوط الدولة

(١) خطط جـ ١ ص ٤٠٩.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) جـ ١ ص ٢٠٠.
(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢٦٨.
(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٥٧.
(٥) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٦.

الفاطمية (٥٦٧ هـ) وفي غضون المجاعة التي أصابت البلاد في عهد دولة المماليك البحرية سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ - ١١٩٥م)[١].

وقد انتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي الذي استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط. وبذل عبد الرحمن الناصر جهوداً متصلة في توجيه الدراسة الأندلسية في ميدان العلوم والطب، وضمت مكتبة الحكم الثاني في قصره بقرطبة بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد. وكانت هناك طائفة من الباحثين والسماسرة والناسخين تعمل لحساب هذا الخليفة وتبحث عن المؤلفات التي يستطيعون العثور عليها في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ويعمل عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين في إنماء هذه المكتبة الفخمة وتجميلها[٢]. وكذلك قلد أشراف قرطبة ووجهاؤها الخليفة الأموي في الأندلس وأخذوا في تكوين مكتبات خاصة، ومن هذه المكتبات مكتبة المنصور بن أبي عامر الحاجب التي زخرت بكثير من الكتب النفيسة. ولكن كثيراً من مجلدات هذه المكتبة قد تعرض للحريق على يد المنصور بن أبي عامر نفسه. فقد أراد بعمله هذا أن يحول دون تفاقم سخط رجال الدين الذين عرفوا بكراهيتهم للفلسفة، فأمر بإحراق كتبها في ميادين قرطبة، وأحرق بعضها بيده، فسمي حامي الإسلام.

كما أمر المنصور الحاجب بإحراق جميع الكتب الخاصة بالكتب القديمة. وليس من شك في أنه كان يقصد بهذا العمل إرضاء فقهاء المالكية السلفيين الذين كانوا يكرهون الفلسفة ويعتبرونها خطراً يهدد مذهبهم السلفي.

وقد ظل نفوذ المالكية قوياً وبغضهم للفلسفة شديداً حتى عهد المرابطين بالمغرب. فقد حملوا السلطان علي بن يوسف بن تاشفين على إحراق كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي زعماً منهم أنه من صميم الفلسفة وأنه خطر على الدين. وبذلك أمر السلطان علي بن يوسف بإحراق هذا الكتاب بالأندلس والمغرب. وكان هذا العمل السيىء من العوامل الأساسية التي تذرع بها المهدي بن تومرت صاحب دولة الموحدين في حرب الدولة المرابطية ورميها بالجمود ثم بالتجسيم في التوحيد لسيرها على مذهب السلف الصالح الذي لا يؤول الآيات القرآنية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة نفوذ علماء المالكية وتحكمهم في المجال السياسي في ذلك العصر الذي كان للدين فيه شأن كبير، ليس في العالم الإسلامي

---

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٨ - ٤٣٥.

(٢) بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية - منشورات الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية (تطوان ١٩٥١) ص ١٨ - ١٩.

فحسب، بل في العالم أجمع، ولا سيما في أوروبا التي كان علماء المسيحية فيها يبيعون صكوك الغفران.

(حـ) ديوان الإنشاء:

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول أصبح من الضروري تعيين طائفة من كبار الموظفين يعاونون الوزير (أو رئيس الوزراء كما يسمى الآن) في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها. ويسمى كل من هؤلاء «الكاتب». ومن هؤلاء كاتب الرسائل ومهنته إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، وكذلك مراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمة.

كذلك كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان أو عامل الإقليم في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة(١). ويتولى كاتب الرسائل مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة. وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه.

وقد ذكر ابن خلدون(٢) الصفات التي يجب أن تتوافر في الكاتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة فقال إنه يجب أن يختار من علية القوم، وأن يكون متصفاً بالمروءة والحشمة والعلم والبلاغة.

وكانت الكتابة سبيلاً إلى الوزارة في كثير من الأحيان، فنجد المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً بعد وزيره عبد الملك بن الزيات دون أن يلقبه بلقب الوزير.

وقد ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠) أن أبا الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي (ت ٤٦٩ هـ) كان إمام عصره في النحو وأنه كان يراجع الرسائل التي تحرر بديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من نحو أو لغة. وكذلك ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٣) أن أبا محمد عبد الله بن بري (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد) المقدسي الأصل اشتهر بالنحو واللغة والرواية، وأنه كان كابن بابشاذ يراجع كل ما يحرر من الرسائل في ديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من لغة أو نحو قبل أن ترسل إلى الملوك والأمراء.

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة ويتولاها الذين عرفوا بالكفاية والقدرة على معالجة الأمور، فإذا نال صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة، وكان يطلق على صاحب الإنشاء في عهد الفاطميين «صاحب الرسائل» و «صاحب الدست الشريف»، ويتسلم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ - ٢٠٦.
(٢) مقدمة ص ٢١٥.

المكاتبات الواردة ويعرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها، ويستشيره الخليفة في أكثر أموره. وكذلك كان يطلق على صاحب الرسائل «كاتب السر». وكان أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي أول من تلقب بهذا اللقب في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي في سنة ٤٥٤ هـ (١١٥٩ م)(١).

ويلي صاحب الإنشاء في الرتبة في عهد الفاطميين «صاحب القلم الدقيق». ويوقع على المظالم ويجلس مع الخليفة في خلوته، فيذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال، ويحدثه عن مكارم الأخلاق، وقد يعلمه تجويد الخط. ويتقاضى مائة دينار في الشهر. فإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة، فإذا انتهى المجلس ألقي في هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاس.

ولما غدا الوزير صاحب السيف والقلم في الشطر الأخير من أيام الفاطميين وأصبح يجلس للمظالم،كان صاحب القلم الدقيق يجلس إلى جانبه ويقوم مقام كاتب السر، ويوقع تحت توقيع الوزير، بل ينظر في الشكاوى قبل انعقاد المجلس(٢).

ويلي «صاحب القلم الدقيق» في الرتبة «صاحب القلم الجليل»، ويقوم بتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها(٣)، وكانت مرتبته أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق، وتسمى وظيفته الخدمة الصغرى.

وقد اشتهر من كتاب البلاط الفاطمي أبو عبد الله القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م). وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجرائي في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي تذيل بها الأوراق لإعطائها الصيغة الرسمية. وتتكون هذه العلامة من العبارة الآتية: «الحمد لله شكراً لنعمته». كما اشتهر بالكتابة في هذا العهد ابن منجب الصيرفي الذي تقلد ديوان الرسائل في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) في عهد الخليفة الآمر، وقد ظل في منصبه إلى سنة ٥٣٦ هـ، وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين. وقد خلف لنا كتابه «الإشارة إلى من نال الوزارة» (في عهد الدولة الفاطمية)(٤).

وكانت الكتابة في الأندلس مثل «الحجابة» (الوزارة) في الرتبة وتنقسم قسمين: كتابة

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢٨١. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.
(٣) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٩١ ـ ٤٩٢.
(٤) ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب جـ ٥ ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.

الرسائل ويسمى صاحبها «الكاتب»، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة. «وكاتب الزمام» ويعرف بكاتب الجهبذة (ويشترط فيه ألا يكون ذمياً، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير)[١].

وقد نهضت الكتابة في عهد المرابطين ونفق سوقها بمدينة مراكش، إذ سيطر المرابطون على الأندلس وعلى المغربين الأقصى والأوسط. وكان بدهياً أن تتطلب هذه الدولة المترامية الأطراف طائفة من رجال الأدب لتحرير الرسائل المتنوعة عن لسان أمير المؤمنين إلى عمال دولته وقوادها وكبار موظفيها. وقد وجد المرابطون في أدباء الأندلس ما يسدُّ هذه الثغرة بعد استيلائهم على هذه البلاد وهي في أوج عزها الأدبي ومجدها العلمي في عهد ملوك الطوائف، حتى إنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه علي كما يقول المراكشي[٢]: «من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار».

وكان على رأس هؤلاء الأدباء ابن قصيرة، وابن عبدون، ومروان بن أبي الخصال، وأخوه عبد الله بن أبي الخصال، وأبو جعفر بن عطية المراكشي. ولم يكن هؤلاء الكتاب أشهر كتاب الأندلس، بل لقد اشتهر غيرهم، ولا سيما الكتاب الإقليميون الذين لم تتح لهم الفرصة للعمل في بلاط أمراء المرابطين.

الرباط:

الرباط لا تقل أهميته عن المسجد من حيث كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام. فقد كان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى معرضاً للخطر من ناحية البيزنطيين، ولكي يحمي المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة، أقاموا الحصون في بعض المدن الواقعة على تخوم دولتهم، مثل طرطوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية. وكانت هذه الحصون ـ أو الثغور كما كانت تسمى ـ تقع طوراً في أيدي العرب، وطوراً في أيدي الروم. وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل، ولا يستريحون إلا في أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل. ولذلك بنيت «العواصم» وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة. وفي عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدولة الأموية أن تجد أعمالاً جديدة غير الفتح والغزو للمرابطين من جند العرب في الولايات الإسلامية حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال.

ولما استولى أبو جعفر المنصور العباسي على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣. (٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٩٤.

الصغرى حصن هذه المدن وأحكم بناءها من جديد، وأطلق عليها اسم الثغور. ولما ولي هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ أنشأ ولاية جديدة سماها «الثغور»، وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً، وأقام فيها المعاقل، وأمدها بحاميات دائمة، ومنح الجند بالإضافة إلى أرزاقهم أراضٍ قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم. فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين. وقد سار أبناء الرشيد على نهجه في جهاد الروم، وكان من أبرز الحروب التي قامت بين ابنه المعتصم وبين الروم، موقعة عمورية الشهيرة التي انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً يتمثل في قصيدة أبي تمام الشهيرة التي سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال في مطلع قصيدته المشهورة:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتب ... في حَدّه الْحدُّ بين الجِدّ واللّعِبِ

وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجأون إلى هذه الثغور للتفرغ للدرس والبحث. كما كان يتوافد غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ويرابطون فيها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال العظيمة ويحتفلون فيها بالأعياد، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى في هذه الثغور من محاسن الإسلام.

وكان المسلمون كما نعلم يغزون بلاد الدولة البيزنطية صيفاً وشتاء. ولذلك سميت هذه الغزوات الصوائف والشواتي. وكان الخلفاء يعهدون إلى ولاة عهودهم أو إلى قضاة قضاتهم قيادة الصوائف والشواتي، لأنهم كانوا يعدونها نوعاً من الجهاد في سبيل الله، فقد قاد يحيى بن أكثم جند المسلمين لحرب البيزنطيين في عهد الخليفة العباسي المأمون، وقادهم أحمد بن أبي دؤاد في عهد الواثق. وسار الأمويون في الأندلس على نهج الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضاتهم قيادة الصوائف لحرب الروم نيابة عنهم. ومن هؤلاء القضاة منذر بن سعيد قاضي الأندلس الذي تولى قيادة الصوائف في عهد عبد الرحمن الناصر[١].

وقد أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين، السفن الحربية في مصر (وهي الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع)، وفي الإسكندرية ودمياط. وكان بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانىء الشامية مثل عكار وصور وعسقلان[٢].

ولقد عرف المغرب الرباط قبل أن يعرف الزاوية، ولعل عهده به يرجع إلى زمن الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، فرباط شاكر المعروف عند الفرنجة بسيدي شكير (بضم الشين) على ضفة وادي نفيس جنوبي مراكش، وهو مدفن شاكر أحد أتباع الفاتح العظيم

---

(١) ابن خلدون: مقدمة ص ١٩٣.
(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة ص ٣٠٣.

عقبة بن نافع الفهري، بناه يعلى (بفتح الياء) ابن مصلين (بفتح الميم وسكون الصاد) أحد رجال رجراجة (بفتح الراء) السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة، فأسلموا وعادوا إلى المغرب دعاة للدين الحنيف. وكان شاكر يقاتل فيه كفار بورغواطة[١]. وقد جدد المولى محمد بن عبد الله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ (١٧٦٤ م)[٢].

ويمتاز الرباط بطابعه الحربي بالإضافة إلى وظائفه الدينية من العبادة وتلاوة القرآن والتفقه في الدين، وهو بذلك لا يختلف عن الرابطة إلا من حيث كونها تبتدىء حيث ينتهي، فتجعل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم، وتهيىء المرابطين فيها بعد ذلك للجهاد، على ما نجده في رابطة عبد الله بن ياسين الجزولي[٣]. وقد اجتمع في هذه الرابطة نحو ألف من رجال صنهاجة كما تقدم، فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولاً، ثم أمور الجهاد في سبيل نشر الدين الحنيف. وكان للجهاد في عهد عبد الله بن ياسين غرضان:

الأول: فتح بلاد السودان، وتحويل أهلها إلى الإسلام.

الثاني: نشر مذهب الإمام مالك بين شعوب أفريقيا الشمالية[٤].

وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين. وكان عبد الله منقطعاً للعلم والجهاد في رباط شاكر، ثم انتقل إلى أقصى الصحراء ليرشد قبائل صنهاجة ويفقههم في أمور الدين. ومات وهو يقاتل كفار بورغواطة سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م)، وقبره معروف بكريفلة على الطريق الذاهبة من الرباط إلى الرماني[١].

(أ) العلوم النقلية

تقسيم العلوم:

ظهرت في الدولة الإسلامية عوامل متعددة كان لها أثر بعيد في تكوين مجتمع إسلامي جديد، وأهم هذه العوامل:

(١) التوسع في الفتوح الإسلامية إلى أقصى السند شرقاً وإلى أقصى المغرب والأندلس غرباً.

---

(١) يوسف بن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف (نشره مسيو فور، الرباط سنة ١٩٥٨) ص ٢٦.

(٢) انظر مجلة المغرب التي كان يصدرها محمد الصالح ميسة بالرباط، المقال الافتتاحي عدد شهري ربيع - جمادى سنة ١٣٥٥ هـ (يونية - يولية ١٩٣٦).

(٣) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع (الرباط ١٣٥٥/ ١٩٣٦) جـ ٢ ص ١١ وما يليه حيث تجد ترجمة مطولة لعبد الله بن ياسين.

(٤) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٦٥.

(٢) اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كالفرس والروم والهنود والصينيين وغيرهم.

وبفضلِ هذين العاملين دخلت في الإسلام علوم جديدة إلى جانب العلوم الدينية.

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها وميز كتابهم بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة أو الداخلية.

وتشمل العلوم النقلية: علم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والأدب. وتشمل العلوم العقلية الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والنجوم والموسيقى والسحر والتاريخ والجغرافية.

وقد قسم ابن خلدون العلوم إلى علوم آلية كالنحو واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والجغرافية، وإلى علوم مقصودة بالذات كالتفسير والحديث والفقه. وهناك تقسيم آخر للعلوم وهو العلوم النقلية والعلوم العقلية. ففي الأولى اعتمد العرب على دينهم ولغتهم وفي الثانية اعتمدوا على ما نقلوه من الأمم الأخرى. والآن نتحدث عن العلوم النقلية والعلوم العقلية التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الثاني (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ).

١ ـ القراءات:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن العباسيين عنوا بعلم القراءات الذي يعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم، وأن الأساس الذي قام عليه هذه العلم هو في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها، وبعبارة أخرى في قراءاته. ويعتبر علم القراءات أول محاولة لتفسير القرآن الكريم. ويرجع أكثر الاختلافات في القراءات إلى رجال عاشوا في القرن الأول كابن عباس وعائشة وعثمان بن عفان وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم ممن أثنى عليهم التابعون وغيرهم[١].

كانت الآية أو الآيات أو السورة ينزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم، فيقوم النبي بتبليغها لأصحابه فور نزولها. وكان أكثر الصحابة يحفظ ولا يقرأ وأقلهم يحفظ ويقرأ وأكثر هؤلاء القراء سبعة هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري. ولم يكن النبي ﷺ يكتفي بحفظ الحفاظ، بل كان يطلب إلى كتاب الوحي أن يكتبوا كلام الله المنزل. ومن أشهر هؤلاء

(١) تاريخ الإسلام السياسي جـ٢ ص ٣٢٠.

الكتاب عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب. وكان هؤلاء يدونون القرآن في العسب واللحاف والعظام والرقاع. ومن هنا نعلم أن القرآن الكريم كان مكتوباً في عهد النبي ﷺ كما كان محفوظاً في الصدور مرتب الآيات(١).

ومن أشهر القراء في العصر العباسي الثاني عبد الله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي. وقد اشتهر في الأدب والنحو والتفسير والحديث والقراءات والنسب والفرائض والحساب. وقد حفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات المختلفة. وقد ذكره العماد الأصفهاني في الخريدة وعدد فضائله وذكر أنه كان بجانب إلمامه بالعلوم الدينية ولا سيما القراءات شاعراً، وإن لم يؤثر عنه أنه كان من فحول الشعراء. ومن شعره يصف الشمعة:

صفراء من غير سَقام بها ... كيف وكانت أمها الشافيهْ
عاريةٌ باطنها مكتسٍ ... فاعجبْ لها عاريةً كاسيهْ

وقد توفي ابن الخشاب ببغداد سنة ٥٦٧ هـ(٢).

وقد اشتهر كثير من القراء في المغرب والأندلس حيث عني أهل هذه البلاد بالعلوم الدينية ومنها علم القراءات، ومن أشهر هؤلاء القراء أبو الطاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري وكان من أهل سرقسطة شرقي بلاد الأندلس. وكان ابن خلف إماماً في علم القراءات كما كان من مشهوري أدباء عصره. وقد خلف لنا كثيراً من المؤلفات التي تشهد بتفوقه العلمي ومن هذه المؤلفات: «كتاب العنوان». وكان الفقهاء في الأندلس يرجعون إليه في حياته وبعد وفاته. وقد أثنى عليه ابن بشكوال في كتاب الصلة. ولم يزل ابن خلف منصرفاً إلى علم القراءات حتى توفي سنة ٤٥٥ هـ(٣).

---

(١) كثرت القراءات في نهاية القرن الثاني للهجرة، ولكن الناس أجمعوا على صحة قراءة سبعة قراء هم: عبد الله بن عامر المتوفى بالشام سنة ١٨ هـ. وأبو معبد عبد الله بن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠ هـ، وأبو بكر عاصم المتوفى بالكوفة سنة ١٢٧ هـ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى بالبصرة سنة ١٥٤ هـ، ونافع بن نعيم المتوفى بالمدينة سنة ١٦٩ هـ، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى بالبصرة سة ١٨٩ هـ، وأبو عمارة حمزة بن حبيب المتوفى سنة ٢١٦ هـ. ومن أشهر رواته ابن هشام، ثم جاء القراء الثلاثة فصارت بهم القراءات عشراً وهم: أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٥ هـ، وأبو محمد خلف بن هشام المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ. ثم جاءت قراءات أربع نسبت لمحمد بن محيص المكي، والأعمش الكوفي والحسن البصري ويحيى اليزيدي، فأصبحت القراءات أربع عشرة، والمشهور والمتواتر منها القراءات السبع.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص ٢١١.

ومن أشهر القراء أحمد محمد، ويعرف بابن العريف، وكان من أهل المرية ببلاد الأندلس. وكان فوق اشتغاله بكثير من العلوم الدينية يعنى عناية خاصة بالقراءات ويهتم بطرائقها المختلفة، واشتهر بالورع والتقوى. ومن مؤلفاته كتاب: «المجالس في التصوف». وقد بلغ من تبحره في العلم والتفاف الناس حوله، ولا سيما أهل الزهد والتقوى، أن أثار حسد منافسيه، فوشوا به عند السلطان علي بن يوسف أمير المرابطين الذي استدعاه إلى مدينة مراكش. ولكن ابن العريف لم يكد يصل إلى هذه المدينة حتى أدركته منيته ودفن بها (٢٣ صفر سنة ٥٣٦ هـ). وقد أثر عن هذا السلطان أنه أسف على استدعائه لما عرفه عن صلاحه وتقواه[١].

ومن أشهر قراء المغرب في ذلك العصر أبو العباس أحمد (ابن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطيئة اللخمي الفاسي). وقد ولد بمدينة فاس سنة ٤٧٨ هـ وتلقى العلم بها، ثم هاجر مع أهله إلى مصر واستقر بها. وقد عرف بالصلاح والزهد وعفة النفس، كما كان ملماً بالأدب وقد عده المؤرخون والفقهاء إماماً في القراءات السبع. وقد أقام بجامع راشدة في القاهرة، فقد ذكر ابن خلكان[٢] أنه وقعت بمصر في أيامه مجاعة، فسار إليه أعيان البلاد وسألوه قبول مساعدتهم، فامتنع. فاتفقوا على أن يخطب أحدهم ابنته الوحيدة، فتزوجها شخص من الأثرياء يعرف بالفضل بن يحيى الطويل الذي طلب من هذا الفقيه أن تعيش زوجته مع جدتها، فوافق على ذلك وقضى أيامه بنسخ الكتب ويعيش من أجره القليل حتى توفي في شهر المحرم سنة ٥٦٠ هـ.

٢ ـ التفسير:

لا ريب أن العرب الذين عاصروا نزول الوحي قد أدركوا معانيه ووقفوا على الأسباب التي أدت إلى نزول الآيات القرآنية. غير أن الأمم الإسلامية الأخرى وخاصة الفرس، كان يصعب عليها إدراك معاني الآيات والظروف التي أحاطت بنزولها، ولهذا نشأ علم التفسير.

وقد اتجه المسلمون كما ذكرنا في الأجزاء السابقة في تفسير القرآن اتجاهين، يعرف أولهما: باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة. ومن أشهر مفسري هذا النوع محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ، والقرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ. وقد اتسع التفسير بالمأثور على مر الأزمان بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

أما النوع الثاني من التفسير فيعرف باسم التفسير بالرأي، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل. ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية.

أما المعتزلة فإنهم لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم على العقل. وقد فسروا بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية، وأسسوا تعاليمهم على أسس دينية من القرآن الكريم واستخدموا التفسير في رد حجج خصومهم. ولما كان المعتزلة يؤمنون بمبدأ التنزيه أو بالأحرى بمبدأ نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى فقد أخذوا يفسرون القرآن على وفق آرائهم التي تقوم على العقل مخالفين في ذلك تعاليم مدرسة التفسير بالمأثور. ولذلك نرى مفسري المعتزلة يلجأون إلى التأويل فيما يتعارض مع مبدئهم في نفي صفات الله، وخالفوا المفسرين بالمأثور في رؤية الله يوم القيامة. من ذلك تفسيرهم قوله تعالى في سورة القيامة (٧٥: ٢٢ ـ ٢٣): ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة، على حين يقول المفسرون بالمأثور إن عباد الله الصالحين يرون ربهم عياناً. وقد استدل المعتزلة بقوله تعالى في سورة الأنعام (٦: ١٠١). ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير﴾ قائلين إن الأبصار لا تدركه في الدنيا بدليل قوله تعالى على لسان موسى في سورة الأعراف (٧: ١٤٣) ﴿رَبِّ أرِنِي أَنْظُرْ إليك قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾: «وإذا كانت رؤية الله في الدنيا مستحيلة فهي في الآخرة أحرى»[١]. وبذلك حبذ جولد تسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية؛ لأنهم كافحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين[٢].

ومن أشهر مفسري العصر العباسي الثاني (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ) الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ. وكانت له أمالي في الشعر والأدب شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالي تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائي وغيره.

ومن أشهر مفسري المعتزلة في هذا العصر العباسي أبو يونس عبد السلام القزويني (ت ٤٨٣ هـ). وقد فسر القرآن تفسيراً مطولاً، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبع

---

(١) جولدتسيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ترجمة ص ١١٠ ـ ١١١.
انظر كتابي الإسلام السياسي جـ٣ ص ٢٤٣.

(٢) جولدتسيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١١٣ ـ ١١٥.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ص ٣٤٢.

مجلدات. ويرجع السبب في عدم ذيوعها بين الناس إلى ضخامتها وما تحويه من عقائد السنيين أحياناً.

ويضع بعض الكتاب أبا القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) اللغوي المشهور وصاحب الكشاف في مرتبة الطبري في تفسيره. ولئن كان الطبري قد أخذ ببعض القصص الإسرائيلية، فإن الزمخشري قد بالغ في ذلك وأدلى برأيه في كل ما يتعلق بالتفسير، حتى إنه نال إعجاب المستشرقين. وقد أشاد به جولد تسيهر وعقد له فصلاً خاصاً في كتابه مناهج التفسير الإسلامي.

والزمخشري من أئمة علماء المعتزلة، وربما كان هذا سر إعجاب جولد تسيهر[1] به، وقد أثر عن الزمخشري أنه كان إذا قصد صديقاً وطلب أن يؤذن له في الدخول قال: قل لفلان أبو القاسم المعتزلي بالباب. وهذا يدل على اعتزازه بانتمائه للمعتزلة.

وكان الزمخشري إمام عصره في التفسير والحديث واللغة، «تشد إليه الرحال في فنونه»[2]. ومن مؤلفاته كتاب الكشاف في تفسير القرآن الكريم الذي يقول فيه ابن خلكان[3] إنه «لم يصنف قبله مثله». ومن كتبه المحاجاة بالمسائل النحوية، وكتاب المفرد والمركب في اللغة العربية، وكتاب الفائق في تفسير الحديث، وكتاب أساس البلاغة في اللغة، وكتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، وكتاب متشابه أسامي الرواة، وكتاب النصائح الكبار والنصائح الصغار. ومن كتبه أيضاً كتاب ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض، وكتاب المفصل في النحو، وكتاب الأنموذج في النحو، وكتاب المفرد والمؤلف في النحو. وللزمخشري كذلك كتاب رؤوس المسائل في الفقه، وكتاب شرح أبيات سيبويه، وكتاب المستقصى في أمثال العرب، وكتاب صميم العربية، وكتاب سوائر الأمثال، وكتاب شقائق النعمان في حقائق النعمان، وكتاب شافي العي من كلام الشافعي، وكتاب القسطاس في علم العروض، وكتاب المناهج في علم الأصول. وله أيضاً ديوان الرسائل وديوان الشعر، وكتاب الأماني في كل فن إلى آخر ما خلف لنا من تراث إسلامي يشيد بعلو كعبه في شتى الثقافات الإسلامية[4].

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١٣٧. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ ٢ ص ٢٩٠.

(٢) رحل الزمخشري إلى مكة وأقام بها مدة، ولذلك أطلق عليه «جار الله». وكان هذا الاسم علماً عليه، ثم طلب العلم في مدينة بخارى، وهناك سقط عن دابته فانكسرت رجله. وقد توفي بخوارزم سنة ٥٣٨ هـ، وذلك بعد رحلته من مكة.

(٣) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٥٧.

(٤) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٥٤ ـ ٢٦٠.

ومن أشهر مفسري هذا العصر أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بـن مَتّويه (ت ٤٦٨ هـ) وكان أشهر علماء عصره في النحو والتفسير الذي أخذه عن أبي إسحاق الثعلبي المفسر المشهور الذي وصفه ابن خلكان (ج ١ ص ٦١) فقـال إنه: «كان أوحد زمانه في علم التفسير». ومن مؤلفاته: «التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير». كما وضع ابن متويه في التفسير عدة كتب نذكر منها البسيط، والوسيط، والوجيز. وقد ذكر ابن خلكان[١] أن أبا حامد الغزالي اعتمد على مؤلفات ابن متويه وأفاد من علمه وأعجب به حتى اقتبس أسماء كتبه الثلاثة في التفسير.

ولابن متويه كتب أخرى في التفسير نذكر منها كتاب «أسباب نزول القرآن» و «التحبير في شرح أسماء الله الحسنى» كما شرح ديوان المتنبي شرحاً وافياً اعتمد عليه الأدباء الذين جاءوا بعده. وقد أخذ ابن متويه العلم على الثعلبي المفسر المشهور وتوفي ابن متويه في نيسابور سنة ٤٦٨ هـ.

أما الباطنية فقد اتخذوا التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجأوا إلى التأويل. فتراهم يفسرون قوله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[٢] بأن قوله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ أي اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ بأن السماء هي الإمام، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم؛ ومعنى: ﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى ﴿يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ أن الجنات هي الدعوة السرية الباطنية والأنهار هي العلم الباطني[٣]، وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى[٤]: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾، الشيطان هو عمر بن الخطاب والإنسان هو أبو بكر الصديق. ومعنى اكفـر لا تؤمن بإمـامة عـلي بن أبي طالب. وتفسـيرهم قولـه تعالى: ﴿الشمس والقمـر بحسبان﴾[٥] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس وآدم المشهورين في القرآن هما أبو بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر[٦].

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٦.
(٢) سورة نوح ٧١: ١٠ـ١٢.
(٣) Guyard, p. 209.
(٤) سورة الحشر ٥٩: ١٦.
(٥) سورة الرحمن ٥٥: ٥.
(٦) الغزالي: فضائح الباطنية (نشره جولد تسيهر ـ ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣.

والشيعة يقدسون الإمام ويؤولون كثيراً من الآيات القرآنية للتدليل على علو مقام الإمام والولاية له، فيقولون في قوله تعالى في سورة الأنعام: (٦ : ١٢٢) ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾: النور هو الإمام الذي يأتم به المسلم، وفي قوله تعالى في سورة النمل (٢٧ : ٩٠) ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون، ومن جاء بالسيئة فَكُبَّتْ وجوههم في النار﴾: الحسنة معرفة الولاية وحب أهل البيت للإمام، والسيئة إنكار الولاية وبغض أهل البيت، والأئمة هم الهداة الذين قال الله فيهم في سورة الرعد (١٣ : ٧) ﴿ولكل قوم هاد﴾[1].

هذان هما نوعا التفسير كما عرفا في العصور السابقة. ولئن كان التفسير بالرأي يبدو لأول وهلة أعم وأشمل من التفسير بالمأثور، فإنه مما لا ريب أن الذين أخذوا به قد بالغوا في استعماله حتى خرجوا به عن المقصود من تفسير القرآن الذي يراد به أن يكون واضحاً جلياً لا غموض فيه ولا إبهام على نحو ما ترى في تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده الذي نراه يعتمد على الرأي المستمد من أقوال السلف، والذي يرجع إلى جوهر القرآن وروح الدين، وهو يعمل رأيه في هذا بالتوسع في شرح الآيات القرآنية دون أن يتقيد بتفسير من سبقه، بحيث أضبح تفسيره مزيجاً من التفسير بالمأثور ما دام صحيحاً، ومن التفسير بالرأي الذي لا يفسر القرآن في نطاق إطارات ضيقة محدودة، إذ أن القرآن إنما جاء لهداية البشر، بحيث إذا سئلنا في يوم القيامة، على ما يقوله الأستاذ الإمام محمد عبده: هل بلغتم الرسالة؟ وهل تدبرتم ما بلغتم؟ استطعنا الإجابة على ذلك معتمدين على استخدام الرأي والعقل، ولكن في نطاق الجوهر الأساسي للقرآن الكريم.

(٣) الحديث:

إذا عرفنا أن الحديث الشريف هو أحد أصلين قام عليهما التشريع الإسلامي باتفاق جميع المذاهب الإسلامية، أدركنا أهمية هذا العلم في الثقافة الدينية الإسلامية خاصة وفي الثقافة الفكرية عامة، فالسلفيون، وفي مقدمتهم الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اتبع طريقهم كالظاهرية والحزمية، قد جعلوا التشريع الإسلامي قائماً على القرآن الكريم والحديث الشريف. وزاد الأحناف، ثم الشافعية الرأي والقياس كما هو معروف في علم أصول الفقه. ومن هنا نرى الحديث الشريف يلي القرآن في الأهمية، وكان له رجال عرفوا باسم المحدثين.

وقد نال الحديث حظاً وافراً من جهود الفقهاء. ولكن المصادر التي اعتمد عليها المسلمون لدراسة الحديث قليلة نذكر منها «الصحيحين» (البخاري ومسلم) وأبا داود

(١) عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٥٢.

السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن، وأبا عيسى بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع، وأبا عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، وأبا عبد الرحمن بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ صاحب السنن.

ومن أشهر المحدثين الذين ظهروا في المشرق في طليعة القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن مندة (بفتح الميم والدال وسكون النون) المتوفى سنة ٥١١ هـ. وهو من أهل أصبهان، وقد وصفه ابن خلكان في هذه العبارة فقال: «هو محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث. وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية، ثقة حافظاً فاضلاً مكثراً صدوقاً، كثير التصانيف، حسن السيرة بعيد التكلف. أوحد أهل بيته في عصره. خرج التخاريج لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصبهانيين»[1].

وعلى الرغم من شهرة ابن مندة الواسعة في علم الحديث فإنه يُعَدُّ من المؤرخين المعدودين. وقد صنف كتاب «تاريخ أصبهان» وغيره.

ومن مشهوري علم الحديث بالمشرق في القرن السادس الهجري، المحدث الفقيه أبو محمد (الحسين بن مسعود بن محمد) المعروف بالفرَّاء البغوي[2]، وكان متبحراً في العلم، وقد صنف كثيراً من الكتب في الحديث والتفسير والفقه. ومن مؤلفاته كتاب: «شرح السنة في الحديث»، وكتاب «التهذيب في الفقه»، وكتاب «معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم»، وكتاب «المصابيح»، وكتاب «الجمع بين الصحيحين».

ومما يلفت للنظر إسهام النساء في الاشتغال بالعلوم الدينية، لا سيما في علم الحديث. ومن هؤلاء النساء: كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية التي اشتهرت برواية صحيح البخاري، وتوفيت بمكة سنة ٤٦٤ هـ[3].

ومن أشهر المحدثين في العصر الفاطمي أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ السِّلفي. وكان من أهل أصبهان، وكان حافظاً غزير العلم شافعي المذهب. وقد اختلف إلى كثير من البلاد يطلب الحديث على بعض أعلام الفقهاء، وقد رحل من بغداد إلى صور حيث ركب البحر إلى الإسكندرية فوصل إليها في شهر ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (١١١٨ م). ولما استقر به المقام استمع إلى دروسه كثير من أهالي البلاد. وفي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ الوزير الفاطمي

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢١٧.

(٢) بفتح الباء الموحدة والغين المعجمة بعدها واو نسبة إلى بغو بخراسان.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٢٦.

العادل بن السلار في الإسكندرية كلية عين السلفي عميداً لها، فظل يتقلد هذا المنصب حتى توفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م)[١].

وقد جعل أهل المغرب موطأ الإمام مالك من أصول كتب الحديث. ولا عجب فقد كان مالك إمام محدثي المدينة في عصره، كما كان أول فقيه وجه أنظار المسلمين إلى ضرورة الاعتماد على الحديث الشريف باعتباره أحد أصلين قام عليهما الفقه الإسلامي.

وقد اهتم الموحدون في المغرب بموطأ المهدي محمد بن تومرت باعتباره صورة مصغرة لموطأ الإمام مالك، وذلك بعد حذف الأسانيد، واهتم الخليفة الموحدي الثالث يعقوب المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ) بعلم الحديث اهتماماً خاصاً، حتى إنه قام بإصلاح فقهي أساسه اعتبار الحديث الشريف بالإضافة إلى القرآن الكريم مصدر التشريع في العبادات والمعاملات، وأمر بإحراق أهم الكتب التي تناولت الكلام على مذهب مالك، مثل مدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب[٢]. كما أمر بوجوب أخذ الفقه من كتب عشرة عدها أمهات كتب الحديث، وهي الصحيحان (البخاري ومسلم)، والترمذي، وموطأ مالك، وأحاديث المهدي محمد بن تومرت في الطهارة، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي.

وكذلك ندرك مدى اهتمام المغرب الأندلسي بعلم الحديث في جميع العصور ولا سيما في القرن الخامس الهجري، حيث ظهر الفقيه المحدث الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ، والشيخ عبد الله بن ياسين زعيم دولة المرابطين المتوفى سنة ٤٥٣ هـ. وفي القرن السادس الهجري ظهر المهدي محمد بن تومرت المتوفى سنة ٥٢٤ هـ، كما ظهر الخليفة الموحدي المحدث يعقوب المنصور المتوفى سنة ٥٩٥ هـ[٣].

ومن أشهر المحدثين في الأندلس الحافظ القرطبي أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٢ هـ) الذي يقول أبو الوليد الباجي إنه لم يكن بالأندلس مثله في الحديث. ومن أشهر كتبه: كتاب «الاستدراك لمذاهب الأعصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار». وقد جمع ابن عبد البر الصحابة في كتاب سماه «الاستيعاب في معرفة الأصحاب». ومن كتبه كتاب «الدرر في المغازي والسير»، وكتاب «بهجة المجالس وأنس المُجالس».

(١) ابن خلكان: جـ ٢ ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٢٧٩.

(٣) عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٠٧.

كما نبغ في علم الحديث في المغرب والأندلس: أبو الوليد الباجي، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد الفيلسوف المشهور، وابن عاصم مؤلف: «التحفة». وتعتبر النسخة التي نقلها المحدث المشهور ابن سعادة من صحيح البخاري في سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) المرجع الأساسي في رواية صحيح البخاري في كافة بلاد المغرب والأندلس. ومن هؤلاء المحدثين أيضاً أبو علي الحسين بن أحمد الغساني الجياني (ت ٤٩٨ هـ) صاحب كتاب «تقييد المهمل» الذي ضبط فيه كل لفظ يقع فيه اللبس من كتاب الصحيحين، ويقع هذا الكتاب في جزأين، ويعد الجياني من أعظم المحدثين الذين ظهروا ببلاد الأندلس.

٤ ـ الفقه:

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩) أنه قد ظهر في العصر العباسي الثاني بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب في الفقه وأن هذه المذاهب لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام المذاهب الأربعة. ومن فقهاء هذا العصر داود الظاهري(١) الذي كانت له طريقة خاصة تتلخص في الأخذ بظاهر نص القرآن والسنة وعدم قبول الرأي والقياس؛ ولذلك سمي داود الظاهري، ويعرف أتباعه بالداودية أو الظاهرية(٢)، والظاهرية ـ كما يقول ابن خلدون(٣) ـ قد جعلوا المدارك كلها منحصرة في التصوف والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص. وبذلك خرج داود على علم الأصول والقواعد الفقهية التي وضعها أئمة المذاهب الأربعة ولا سيما الإمام الشافعي(٤). وكان ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهري(٥). ثم انفصل ابن حزم عن الظاهرية واشتغل بمذهب خاص عرف به سمي المذهب الحزمي وعرف أتباعه بالحزمية.

وهناك مذاهب أخرى في الفقه انقرضت كمذهب سفيان الثوري(٦) المتوفى سنة ١٦١ هـ. وقد أخذ عنه الأوزاعي (ت ١٨٠ هـ) إمام أهل الشام(٧)، ومذهب إسحاق بن راهويه (بفتح الهاء والواو وسكون الياء) (ت ٢٤٠ هـ). وفي القرن الثالث الهجري ترى من المذاهب: المذهب الشافعي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنفي، ومذهب الثورية، ومذهب

(١) وينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان، وكان شافعي المذهب.
(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٣٠٣.
(٣) مقدمة ص ٣٩٠.
(٤) ولداود مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم (الفهرست ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥).
(٥) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٣٤٧.
(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١٠.
(٧) المقري: نفح الطيب جـ ٤ ص ٢١٤.

الداودية أو الظاهرية. وقد ساد من هذه المذاهب في القرن الرابع الهجري: المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، ومذهب الداودية. كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كالمذهب الحنبلي ومذهب الراهوية ومذهب الأوزاعي. على أن السيادة قد أصبحت على مر الزمن للمذاهب الأربعة المشهورة وظلت على ذلك إلى وقتنا هذا وقد وقف الاجتهاد عند هذه المذاهب. وفي ذلك يقول ابن خلدون(١):

«ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم(٢)، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد».

وقد ظهر في وقتنا الحاضر الاتجاه إلى توحيد المذاهب الفقهية والرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة في استخلاص الفروع الفقهية مع الاستئناس بآراء الأئمة حتى يسير المسلمون في اتجاه واحد في أمور دينهم مما عساه أن يضع حداً للخلافات المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من ألوان الشقاق والفرقة.

(أ) فقه الشيعة:

وقد نهض المذهب الإسماعيلي نهضة بعيدة الأثر على أيدي الفاطميين الذين اعتمدوا على المدارس التي أطلقوا عليها في المغرب «مدارس الدعوة» لبث عقائد المذهب الإسماعيلي على أساس تعاليم الفقه الشيعي. وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الحكمة، ومنها دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم الفاطمي. وقد امتدت هذه المدارس إلى أقاليم الدعوة الفاطمية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها في ذلك الحين.

وكان الخلفاء الفاطميون بصفة عامة من أفقه الناس بعقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه، كما كان لداعي الدعاة ونوابه أثر كبير في نشر الفقه الشيعي على المبادىء التي كانت تلقى في المساجد والقصور وفي دور العلم كمدارس الدعوة ومدارس الحكمة. وكان هؤلاء الدعاة يصنفون الكتب ويعدون المحاضرات التي تتناول المسائل الفقهية التي يستمدونها من أئمة أهل البيت. وقد أنجبت الدعوة الإسماعيلية دعاة كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف. ومن بين هؤلاء الدعاة أو الفقهاء: أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) في بلاد الديلم، وأبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١ هـ) وأبو حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ) الذي عاصر الفاطميين في المغرب وترك مؤلفات ذات غناء في الفقه الإسماعيلي.

---

(١) مقدمة ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٢) أي لم يبق منهم أحد.

وقد بلغت الدعوة الإسماعيلية ذروتها على يد الخليفة المعز لدين الله وقاضي قضاته أبي حنيفة النعمان المغربي، وباب أبوابه جعفر بن منصور اليمن (٤٠٨ هـ). وكان لهذه المدرسة أثرها البعيد فيما خلفه من جاء بعده من الدعاة، مثل حميد الدين الكرماني الذي يعد من فلاسفة الإسماعيلية ودعاتهم في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله والذي كان يلقب بحجة العراقين. وقد ألف الكرماني في الرد على بدعة الدرزية في تأليه الحاكم رسالة سميت «الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله» ويثبت فيها عقيدة الإسماعيلية في وحدانية الله سبحانه. ومن أشهر كتبه كتاب «راحة العقل»، وله رسائل في أدب الإسماعيلية، وكتاب «المجالس البغدادية» وكتاب «المجالس البصرية» جمع فيهما محاضراته في تأويل الآيات المتشابهة(١).

ومن أشهر فلاسفة الإسماعيلية وفقهائهم المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، ويعرف بالمؤيد فقط. وقد غلب عليه لقب المؤيد في الدين، ويسمى «هبة الله» و«السلماني» نسبة إلى سلمان الفارسي. وقد انحدر المؤيد في الدين من أسرة اتخذت التشيع لها ديناً والفاطمية مذهباً. وأخذ المؤيد يرقى مدارك الدعوة الإسماعيلية حتى تقلد رياسة الدعوة في شيراز وأصبح حجة بلاد فارس حول سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م)، واتصل بالسلطان أبي كاليجار البويهي وكسب عطفه وتوثقت صلته به، واستطاع بقوة حجته وبلاغته أن يستميله إلى الدعوة الإسماعيلية، ثم سار إلى الأهواز ودعا الناس إلى إقامة الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي، ثم رحل المؤيد في الدين إلى الموصل ولجأ إلى قرواش بن المقلد العقيلي، ولكنه لم يستجب لدعوته، فرحل إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ومثل بين يدي الخليفة المستنصر الذي قلده ديوان الإنشاء. واستمال أبا الحارث البساسيري التركي الذي انتصر جنده على جند طغرلبك السلجوقي أول الأمر ونشر الدعوة الفاطمية في العراق وخطب للخليفة الفاطمي في بغداد نحواً من سنة(٢).

وقد تقلد المؤيد في الدين رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعي الدعاة في سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٨ م)(٣)، كما برع المؤيد في العربية والفارسية وخلف كثيراً من الكتب التي تعد بحق من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم(٤). ومن مؤلفاته كتاب «المجالس المؤيدية» و«ديوان المؤيد»

---

(١) انظر كتاب أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٨٥ - ٩٣ و ٩٩ وحسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: المعز لدين الله ص ٢٥٨ وما يليها.

(٢) المؤيد في الدين: ديوان المؤيد في الدين، نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) مقدمة ص ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٨ و ٣٠. السيرة المؤيدية: مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٥٦: ٢٦ ص ١٦.

(٣) ديوان المؤيد في الدين مقدمة ص ٤٩.

(٤) Ivanow, A Guide to Ismaili Literature

و «سيرة المؤيد في الدين» و «شرح المعاد» و «كتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير» وكتاب «الابتداء والانتهاء» و «قصيدة الاسكندرية» وتسمى أيضاً «ذات الدرجة»، وكتاب «تأويل الأرواح» وكتاب «المسألة والجواب» وكتاب «أساس التأويل»(١).

ومن أهم آثار المؤيد في الدين كتاب «المجالس المؤيدية»، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الفاطمي، ويصور «ديوان المؤيد» عقائد الفاطميين تصويراً كاملاً. كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأي والقياس.

ومن أهم مؤلفات المؤيد في الدين التي تعرض لفلسفة الإسماعيلية كتاب «المجالس المستنصرية». فقد تناول الكلام على أصول عقائد الإسماعيلية وتعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن، ورفع من شأن إمام العصر وهو المستنصر بالله ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً تتناول هذه المسائل وهي:

١ ـ توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك والقرناء له.
٢ ـ الاعتراف بالأنبياء والرسل وعصمتهم من كل خطأ وأن محمداً خاتم النبيين.
٣ ـ القول بوصاية علي وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم.
٤ ـ التصديق بما جاء في القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً.
٥ ـ إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة(٢).
٦ ـ القول بالظاهر والباطن معاً.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر عالماً أندلسياً رحل إلى مصر واتخذها وطناً له، ذلك هو الفقيه المالكي المشهور أبو بكر الطرطوشي(٣) الذي ينتسب إلى مدينة طرطوشة شرقي مدينة بلنسية بالأندلس، حيث ولد سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م). وقد تنقل في الحجاز والشام والعراق، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء في أمهات المدن الإسلامية كمكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة، ونزل الإسكندرية واستوطنها وقام بالتعليم فيها، وبقي بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م).

ولم يلبث الطرطوشي أن تقرب إلى الوزير الفاطمي المأمون البطائحي وأهدى إليه «سراج

---

(١) Ibid., p. 413.
(٢) ديوان المؤيد في الدين ص ١٠٣.
انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الجامع الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٣ ـ ٣٥.
(٣) بتشديد الطاء الأولى مع ضمها وسكون الراء. انظر لفظ طرطوشة في معجم البلدان لياقوت.

الملوك»[١] وكان من مظاهر سرور الوزير بهذا الكتاب أن رتب للطرطوشي خمسة دنانير في كل يوم، فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفضل ابن (أمير الجيوش) بدر الجمالي قد أجراهما عليه.

وقد أسهم الفقيه الطرطوشي في تعديل قانون الوراثة في عهد الفاطميين، ذلك القانون الذي قضى بأن ترث البنت كل ما يتركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت. وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذي يقتضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة. ثم عدلت هذه القاعدة التي تجيز بمقتضى قانون الشيعة بأن تستولي البنت على جميع الثروة التي يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث. وقد قضى هذا التعديل بأن يرث كل من الشيعيين والسنيين على وفق مذهبه والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته. وقد تم هذا التعطيل سنة ٥١٦ هـ.

وتوريث البنت جميع الثروة يخالف ما ورد في القرآن الكريم، إذ فصَّل الميراث في سورة النساء (٤: ١١ ـ ١٢) تفصيلاً واضحاً.

(ب) الفقه في اليمن:

انتشر مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة في اليمن، وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة وقع في هذا البلاد حدثان عظيمان:

الأول ـ فتنة القرامطة التي عمت بلاد العراق.

والثاني ـ قيام الإمام الهادي يحيى بن الحسين العلوي الذي دعا إلى اعتناق عقائد الشيعة في اليمن:

ولد يحيى سنة ٢٤٥ هـ واشتغل بالعلم منذ حداثة سنة في الحجاز والعراق وانتشر نفوذه في اليمن سنة ٢٨٠ هـ ويذكر المؤرخون أن يحيى دخل اليمن بدعوة من أهلها. وقد انتشر فيها مذهب القرامطة وجاهدهم جهاداً كبيراً، وألف كثيراً من الكتب قيل إنها جاوزت الأربعين. ووضع أساس الفقه الهدوي التي كانت تسير عليه الدولة اليمنية الزيدية حتى قيام الجمهورية العربية اليمنية.

وقد شق المذهب الشافعي طريقه إلى اليمن إلى جانب الزيدية، حتى أصبح للمذهب الشافعي في هذه البلاد أنصار يعملون على نشره ولا سيما بجهة زبيد وبيت الفقيه. وقد ظهر هذا المذهب على يد القاسم بن محمد الجمحي إمام الشافعية في صنعاء وعدن، وامتد في أواخر

(١) ويقال إن كتابه يسمى سراج الهدى.

القرن الرابع الهجري إلى المعافر ولحج وأبين وأهل الجند والسحول وغيرها، وممن أخذ الفقه عن القاسم الجمحي، جعفر بن عبد الرحيم المخائي الذي قام بالتدريس والفتيا ومات سنة ٤٦٠ هـ.

ومن علماء اليمن القاضي محمد الصليحي وابنه علي بن محمد. وقد تفقه في عقائد المذهب الشيعي وأسس الدولة الصليحية في هذه البلاد في القرن الخامس الهجري.

ومن أشهر علماء اليمن: زيد بن عبد الله اليفاعي. وقد أخذ الفقه وعلم الكلام على مشاهير علماء اليمن ومكة، ثم عاد إلى اليمن وسكن الجند حيث التف حوله كثير من الطلاب ثم هاجر إلى مكة حيث قضى فيها اثنتي عشرة سنة. واشتهر بالزهد والورع وعاش من غلة أرضه واستغل ثروته في التجارة. وقد نبه ذكر زيد بن عبد الله في مكة وبرز على فقهائها، ثم عاد إلى اليمن سنة ٥١٢ هـ وبقي بها حتى مات سنة ٥١٤ هـ.

ومن أشهر فقهاء اليمن: عبد الله بن يحيى الصعبي، وقد أخذ عليه الفقه كثير من الطلاب وكان إماماً في العربية. ومن فقهاء اليمن أيضاً: أبو بكر بن محمد اليافعي الذي تقلد قضاء اليمن (من إب إلى عدن) من قبل الداعي محمد بن سبأ. وقد أخذ الفقه على أخواله ونبغ في اللغة العربية والشعر وعلم الكلام ومات سنة ٥٥٢ هـ.

ومن أشهر فقهاء اليمن أيضاً: عمر بن علي بن سمرة الجندي اليمني. وقد خلف لنا كتابه «طبقات فقهاء اليمن». ويعد من أقدم المصنفات اليمنية في هذا الموضوع. وكان هذا الكتاب المرجع الذي يعتمد عليه الفقهاء الذين ألفوا في الطبقات والتراجم. وقد استمد الجندي مادته من كتب الفقه والحديث والتاريخ.

وكان الجندي شافعي المذهب، وقد ترجم لنفسه في ثنايا كتابه، فذكر أنه أخذ العلم من أشهر علماء اليمن، وأنه تقلد القضاء في «أَبْين» سنة ٥٨٠ هـ، وحج بيت الله من عدن عن طريق البحر وزار جزيرة كمران في ذهابه وإيابه. وتعد أسرة ابن سمرة من الأسر العريقة ذات الجاه والثراء. وقد ذكر مؤلفو التراجم والسير أن ابن سمرة انتهى من وضع كتابه سنة ٥٨٦ هـ ولم يجزموا برأي في سنة وفاته. ويظهر أنه توفي في السنة التي أتم فيها كتابه. ويلاحظ أنه يستطرد أحياناً فيذكر شيئاً من تاريخ الأسرات والدول التي تداولت الحكم في اليمن.

ولما كان الجندي يدين بعقائد المذهب الشافعي وجب أن نأتي بكلمة عن انتشار هذا المذهب في بلاد اليمن مستعينين في ذلك بما أورده هذا المؤلف نفسه في كتابه.

كان مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة قبل قدوم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين

إليها سنة ٥٨٠ هـ وانتشار الدعوة الشيعية على يده وظهور دعوة علي بن فضل وابن حوشب. ولما ظهر مذهب الإمام الشافعي لقي فقهاء اليمن بعض أئمة الشافعية في مكة والمدينة وبغداد والفسطاط وغيرها، وأخذوا عنهم علمهم وكتبهم وعادوا بها إلى اليمن حيث انتشر هذا المذهب من صنعاء إلى عدن في القرن الرابع الهجري، ثم عم انتشاره بعد ذلك إلى القرن السادس الهجري[1].

(جـ) الفقه في المغرب والأندلس:

جاء إقرار مذهب مالك في الأندلس رداً على إقرار العباسيين مذهب أبي حنيفة بالمغرب. ففي القرن الرابع الهجري تدخل الأمويون في سياسة المغرب ونشروا المذهب المالكي بين أتباعهم. على أن الاضطرابات السياسية التي سادت هذه البلاد في عهد الزناتيين لم تتح الفرصة لظهور علماء من المغرب متفقهين في المذهب المالكي بسبب عدم ضمان حياة الاستقرار التي تساعدهم على الإنتاج العلمي. وقد نقل مذهب مالك إلى أفريقية في القرن الثالث الهجري على أيدي علماء تلقوا العلم عن تلاميذ مالك، نخص بالذكر منهم أبا القاسم ومن تلاميذه أسد بن الفرات وسحنون[2].

ثم جاء المرابطون في عصر ظهور كبار الفقهاء كأبي عمران الفاسي، وعبد الله بن ياسين، والقاضي عياض ـ وكلهم من المغاربة الذين تلقوا العلم ببلاد الأندلس. وقد تلقى عبد الله بن ياسين العلم بقرطبة[3] نحواً من سبع سنين، ثم أتم دراسته على وجاج بن زللو الذي تلقى العلم بدوره عن أبي عمران الفاسي بالقيروان، ثم أسس أول مدرسة لفقه المالكية في نفيس على مقربة من أغمات. وكان مذهب مالك يتناسب وبساطة المرابطين الصحراوية الذين كانوا ينظرون إلى علماء أهل المدينة باعتبارهم رمز الإسلام ورسل المحبة والصفاء.

وقد قويت سلطة فقهاء المذهب المالكي في عهد المرابطين ولا سيما في بلاد الأندلس. وكان كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قد وصل إلى الأندلس والمغرب، وشقت الصوفية التي تقوم على محاسبة النفس طريقها إلى هذين البلدين[4]، وأصبحت الهوة تتسع في الأندلس بين الصوفية وبين الفقهاء الذين خشوا على نفوسهم من دخول كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي الذي جمع بين أحكام الفقه وآداب المتصوفة. فأفتوا علي بن يوسف بن تاشفين بمصادرته وإحراقه. ومما هو جدير بالملاحظة أن فقهاء المالكية قد قاوموا كتاب إحياء علوم الدين لسببين:

(١) الجندي. طبقات فقهاء اليمن ص ١٢ ـ ١٣. (٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٠.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٢١٨. (٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥.

الأول ـ أن الاتجاه الفقهي في هذا الكتاب يسير على مذهب الإمام الشافعي.

الثاني ـ أن كتاب الإحياء كتاب صوفي في روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي كان يحرمها المالكية ويخشون منها على مذهبهم. ولذلك أفتوا بإحراق الكتاب.

وكان زعيم فقهاء المالكية بالأندلس ابن حمدين وزعيمهم بالمغرب مالك بن وهيب[١] وقد تم إحراق هذا الكتاب بين سنتي ٥٠٠ و ٥٠٥ هـ.

ومما يدل على قوة نفوذ الفقهاء في الدولة المرابطية ما كان يتمتع به عبد الله بن ياسين من نفوذ، حتى إن أمراء المرابطين كانوا بعد موته لا يبرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء، ومن أكبر الأدلة على قوة نفوذ الفقهاء أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين هم بمساعدة مسلمي الأندلس ضد النصارى لم ير بدأ من الرجوع إلى رأي الفقهاء الذين أفتوا بوجوب حرب النصارى، ثم أملوا على الأمير الكتاب الذي يجب أن يوجهه إلى الفونس السادس ملك المسيحيين في الأندلس. وكانت هذه الرسالة على نمط الرسائل التي كان يرسلها النبي والخلفاء الراشدون إلى الملوك. ومما يدل على صحة هذا الرأي ما ذكره المراكشي[٢] أن علي بن يوسف بن تاشفين «كان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشورة الفقهاء». ويذكر لنا التاريخ أن الفقهاء في الأندلس طلبوا إلى يوسف بن تاشفين القدوم إلى بلدهم وأفتوا بخلع ملوك الطوائف. بل إن علي بن يوسف بن تاشفين حين فكر في تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩ هـ استفتى الفقهاء في المغرب والأندلس، وقد اشترك ابن رشد الأندلسي في مجلس علي بن يوسف وأفتى بصحة هذه الفتوى. كذلك أفتى ابن رشد علي بن يوسف بإبعاد النصارى المعاهدين بغرناطة إلى المغرب لمساعدتهم «ابن روذمير» وغدرهم بالمسلمين، فتم ترحيلهم إلى المغرب ولا سيما إلى مكناسة وسلا[٣].

(٥) علم الكلام:

علم الكلام هو البحث في أمور العقيدة الإسلامية مثل توحيد الله، والكلام في ذاته سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله، ثم الكلام في الأنبياء والرسل، ويتناول كثير من كتب علم الكلام مسائل عصمة الرسل والإمامة. وقد يعرض هذا العلم لمسائل غيبية كالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك، ثم يعرض هذه المسائل على مقاييس العقل والمنطق في معرض جدلي كلامي منطقي. ويعد علم الكلام أساس الفلسفة الإسلامية، بل لقد تميزت به هذه الفلسفة

---

(١) الحلل الموشية ص ٨٥.
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١.
(٣) الحلل الموشية ص ٧٦.

الكلامية عند المسلمين عن الفلسفة اليونانية.

ويعتبر علم الكلام وليد النهضة الثقافية الإسلامية التي تأثرت بثقافات اليونان والفرس والسريان في العصر العباسي الأول. وقد حملت المعتزلة لواء علم الكلام الذي سيطر على الفكر الإسلامي حيناً من الدهر، وكان له أثر بعيد في دفع العقلية العربية خاصة والإسلامية عامة في ميدان التفكير الإسلامي العام.

ومن أشهر متكلمي المعتزلة: أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ. ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ من تلاميذ أبي الهذيل العلاف. وكان للنظام منزلة لا تدانى في عصره. وقد تتلمذ له أبو عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذي تنسب إليه فرق «الجاحظية» من المعتزلة(١).

وكان علم الكلام بدعة من أكبر البدع في الإسلام. وقد شدد النكير على هذا العلم أهل الحديث (السنة السلفية) الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث في الأحكام الفقهية ابتداع(٢). وكان رجال مذهب السلف الصالح يرمون علماء الكلام بالكفر والزندقة. وقد روى السبكي أن أحد تلاميذ الشافعي جعل يسأله في علم الكلام، فكان الشافعي يجيبه بأخصر جواب، ثم التفت إليه قائلاً: «يا بني! هذا علم (يقصد علم الكلام) إن أصبت فيه لم تؤجر، وإن أنت أخطأت فيه كفرت، فهل لك في علم إن أصبت فيه أجرت وإن أخطأت لم تأثم؟ قال (التلميذ): وما هو؟ قال (الشافعي): الفقه، فلزمته وتعلمت عليه الفقه»(٣).

ويعد تأويل الآيات المتشابهات في القرآن الكريم أهم الفوارق التي تفصل أهل السنة السلفية عن المعتزلة.

(١) التوحيد في الإسلام:

ذكر الله سبحانه وتعالى التوحيد في أغلب آيات القرآن الكريم إما مباشرة وإما ضمناً بطريق التذكير بقصص الأنبياء السابقين الذين أرسلوا لتوحيد الله قبل كل شيء(٤)، وليست أحكام الفروع إلا وسيلة لعبادة ذلك الواحد الأحد. ومن تحصيل الحاصل الاستشهاد بآيات

(١) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي ريدة ص ٥١.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية جـ١ ص ٣٤١.

(٤) وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ (سورة يوسف ١١: ١٢٠).

قرآنية تثبت التوحيد لأنها أكثر من أن تذكر. وقد عقدت بعض السور القرآنية جميعها للتوحيد كسورة ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾[١].

وإن هذه السور التي كانت مطلع الوحي ونزلت على النبي الكريم بمكة المكرمة كلها تدور على محور الوحدانية ومحاربة الشرك[٢]. ثم كان التوحيد أول أركان الإسلام في الحديث النبوي الشريف: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».

ولقد وضع علماء المسلمين أمر التوحيد في المنزلة الأولى في كل العصور. ومن هذا قول الإمام الغزالي: لا إله إلا الله كلمة نتيجتها معرفة الوحدانية وثمرتها الإقرار بالفردانية. وذلك هو المقصود من وجود الموجودات، وكون الكائنات. ولولا معرفة الوحدانية والإقرار بالفردانية، لما سحب ذيل الوجود على موجود، ولما أخرج من كتم العدم مفقود، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٣]، كما يتضح ذلك من الحديث القدسي المأثور عن الرسول الكريم وهو: «عبدي خلقتك من أجل التوحيد وخلقت الأشياء كلها من أجلك».

وفي القرآن الكريم آيات محكمات تنزه الله تنزيهاً تاماً وتباعد بين مشابهة الذات الإلهية بالمخلوقات كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارىء المصور، له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم. . .﴾[٦].

وثمة آيات أخرى يفهم ظاهرها مشابهة الله لمخلوقاته، وتسمى الآيات المتشابهات وذلك كقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾[١٠].

---

(١) سورة الإخلاص ١١٢.

(٢) انظر على سبيل المثال سورة: العلق ٩٦، المزمل ٧٣، المدثر ٧٤.

(٣) الغزالي: التجريد في علم التوحيد، مخطوط مكتبة الإسكوريال (Escorial) ورقة رقم ١٧ قسم ٧٦٢.

(٤) سورة الشورى (٤٢: ١١).

(٥) سورة الحشر (٥٩: ٢٢ - ٢٤).

(٦) سورة البقرة (٢: ٢٥٥).

(٧) سورة طه (٢٠: ٥)

(٨) سورة الفتح (٤٨: ١٠).

(٩) سورة الأنعام (٦: ١٨).

(١٠) سورة الأعراف (٧: ١٢٧).

وهذه الآيات المتشابهات كانت مثار جدل عنيف بين علماء المسلمين، ولا سيما بين السلفيين وعلماء الكلام.

وقد وقف السلفيون ومن سار على نهجهم موقف الحياد التام إزاء الآيات المتشابهات، فلم يسمح لهم ورعهم بأن يعمدوا إلى تأويلها، بل سلكوا سبيل الحذر، وحملهم على ذلك أمران: أحدهما ظاهره المنع الوارد في القرآن الكريم، إذ يقول الله جل شأنه مخاطباً نبيه الكريم:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ. رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[١].

فالسلفيون قد تركوا أمر تأويل هذه الآيات إلى الله إذ لا يعلم تأويلها إلا هو حسب النص القرآني، وآمنوا بهذه المتشابهات من غير بحث قائلين: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

والأمر الثاني ـ أن التأويل أمر مظنون فيه بالاتفاق، والقول في ذات الله سبحانه وتعالى بالظن غير جائز. والكلاميون لا يعتبرون التأويل ظناً، بل يؤمنون بما يرونه من تأويل. هذا إلى أن التأويل المظنون ليس من شرائط الإيمان وأركانه[٢].

ومن أبرز رجال المدرسة السلفية الإمام مالك، والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم.

يقول الشهرستاني في الإمام مالك: «أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل، ولا تهدفوا للتشبيه، فمنهم مالك بن أنس رضي الله عنه إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». كما ذكر الشهرستاني من رجال هذه المدرسة السلفية أحمد بن حنبل وداود الظاهري الأصفهاني[٣] وتلميذه ابن حزم. وكان شعار السلفيين: فر من الكلام في أي صورة تكون كما تفر من الأسد.

ويعبر عن شعور السلفيين نحو علم الكلام قول حانق ينسبونه إلى الشافعي وهو:

---

(١) سورة آل عمران (٣: ٧ ـ ٨).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (جـ ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ١١٨ ـ ١١٩.

حكمي على رجال علم الكلام أنه يجب أن يضربوا بالسياط والنعال وأن يطاف بهم مشهرين في المجامع والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ينبذ القرآن والسنة في ناحية وينكب على علم الكلام الذي إن أصاب المرء فيه لم يؤجر وإن أخطأ فيه كفر(١).

ومن أشهر السنيين السلفيين في العصر السلجوقي شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري (٣٩٦ - ٤٨١/١٠٠٦ - ١٠٨٨). ويعد من أئمة العلماء والمحدثين وكبار الصوفية. وكان حنبلي المذهب، شديد التعصب لرأيه، ولقي بسبب ذلك كثيراً من العنت والاضطهاد من الفلاسفة وعلماء الكلام، حتى دبروا له المكايد للتخلص منه غير مرة ورموه بالكفر عند الوزير نظام الملك في عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقي. إذ اتفق هؤلاء العلماء على إغارة صدر السلطان على الأنصاري واجتمعوا عنده لشكواه، وكانوا قد وضعوا صنماً صغيراً من النحاس في محرابه، وقالوا إن الشيخ يقول بالتجسيم وإن في محرابه صنماً يقول إن الله على صورته، ثم طلب هؤلاء العلماء إلى السلطان أن يبعث في طلب الأنصاري، فأرسل السلطان (وقد تملكه الغضب) من يحضر الصنم من قبلة الشيخ فأحضر، ثم أمر بالشيخ فحضر، وحضر العلماء ووجوه المدينة إلى مجلس السلطان فوجدوا أمامهم صنماً، فاتجه السلطان إلى الأنصاري قائلاً: ما هذا؟ (مشيراً إلى الصنم)؟ فقال الشيخ: هذا تمثال عمل لعبة للأطفال. فقال السلطان غاضباً: لست أسأل عن هذا، فقال الشيخ: عما تسألون يا مولاي؟ فأجابه (السلطان): إن هذه الجماعة تقول إنك تعبده كما تقول عنك إنك تقول إن الله على صورته، فقال الشيخ: (سبحانك هذه بهتان عظيم)؛ قالها بهيبة وقوة، فأدرك السلطان أن الجماعة قد افترت عليه كذباً، فاعتذر السلطان للشيخ وأعاده إلى بيته معززاً مكرماً، كما اعترفت هذه الجماعة بأنهم دبروا هذه المكيدة للشيخ للخلاص منه، ولما يلاقونه من تعصبه، فأمر السلطان بأن يشتروا أرواحهم بثمن غال فرضه عليهم عقاباً لهم.

وللشيخ عبد الله الأنصاري هذا مؤلفات تشهد له ببراعته في الأدب والزهد. ومن مؤلفاته كتاب ذم الكلام(٢).

كان اهتمام المسلمين عظيماً في مجال علم التوحيد كما تقدم، فقد كتب فيه السلفيون والمعتزلة، كما عني الشيعة كثيراً بالبحث في هذا العلم، ومن أهم ما كتبه الشيعة في علم الكلام:

---

(١) ابن تيمية: العقيدة والشريعة لجولد تسيهر (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٤.
انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ١٣٣ - ١٣٧.

(٢) وهو بالمتحف البريطاني (Add ٢٧/٥٢٠).
نظامي عروضي: جهار مقاله (ترجمة) ص ١٧٧ - ١٧٨.

كتاب المجالس المستنصرية للمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس. ويعد من أهم آثارهم في علم الكلام، وهو مجموعة محاضرات ألقاها هذا الداعي في مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الإسماعيلي الفاطمي[١].

ويعد ديوان المؤيد في الدين من أهم مؤلفاته، لأن شعره في هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً. فقد تحدث عن الولاية والتوحيد، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الولاية والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة. ومن ذلك قوله في منظومته:

وهم أُولوا الأمر أئمة الهُدى ... عِصْمَةُ مَنْ لاذَ بهم من الردى
مفروضةٌ طاعتُهم على الأمم ... قاطبةً مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
اقرأ: أطيعوا الله والرسولا ... ثُمَّ أولي الأمر بهم موصولا
ثلاثُ طاعاتٍ غَدَتْ مَعْلُومةْ ... في آيةٍ واحدة مَنْظومةْ[٢]

وكما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأي والقياس، كذلك عرض لنظرية المثل والممثول، فالإسماعيلية يذهبون إلى القول بأن النبي ﷺ يعلم بتأويل ما أتى به، وأنه أول الراسخين في العلم وأفضلهم، وعنه أخذ كثير من الراسخين في العلم. وكما أن النبي كان يعلم تأويل القرآن، فإن من قام مقامه في كل عصر يعلم هذا التأويل. كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى من يخرج كنوز معانيه ويؤولها، لأن له معان غير المعاني التي تتداولها ألسنة العامة. وهذه المعاني هي سر إعجاز القرآن، وإعجازه ليس في لفظه بل في معناه، وفي ذلك يقول المؤيد:

إن كان إعجاز القُرآن لفظا ... ولمْ يَنَلْ معناه منه حظا
صادفتُمْ مَعْقُودهُ مَحْلولا ... مِنْ أجل أن أنكرتُمُ التأويلا[٣]

والإمامة في نظر الإسماعيلية هي قيادة العالم وحمل معرفة الحقيقة إليه. ولا بد من وجود

---

(١) وقد بلغ عدد هذه المحاضرات ثمانمائة محاضرة. ويرجح الدكتور محمد كامل حسين (ديوان المؤيد في الدين، مقدمة ص ٦٠) أن المؤيد ألقى بعض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعي الدعاة في سنة ٤٥١ هـ.

(٢) ديوان المؤيد ص ٦١.

(٣) ديوان المؤيد ص ١١٠.

ونلاحظ في هذا الكتاب التوحيدي الشيعي أنه اهتم اهتماماً خاصاً بأمور الأئمة العلويين وما يتمتعون به من حقوق يجب على المسلمين القيام بها نحوهم كجزء من العقيدة الإسلامية، إذا جعلوا الإمامة ركناً سادساً لأحكام الإسلام الخمسة التي وردت في الحديث المشهور بني الإسلام على خمس.

هذا المرشد في كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلاً، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس. ويقول المؤيد:

وتأويله مستودعٌ عند واحد ... وإنْ لم تسائله فزوراً تأولتَ
وأحْمدُ بيت النور لا شك بابُه ... أبو حسن والبيت من بابه يُؤتى
للعلم قومٌ به خُصُّوا، أقامهم ... رَبُّ الورى للورى في أرضه عَلَما[1]

ولم يأخذ الفاطميون بالقياس في التفسير والفقه وطعنوا في فتاوى الصحابة، وذهبوا إلى أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى قد حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا لفظه، كما يتضح ذلك من قول المؤيد:

وهو الذي قد حَرَّف الكتابا ... عن وجهه وجانَبَ الصوابا
يثبتُ شيئاً ليس فيه فيه ... وحُكْمِ آيٍ أُحْكِمَتْ يَنفِيه[2]

كما يعتقد الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت، وأن هذه العلوم هي علوم الباطن، ولذلك سموا الباطنية، لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم. قال المؤيد:

ورُب معنى ضَمَّه كلامُ ... كمثل نور ضَمَّه ظلامُ
باقٍ بقاءَ الحَبِّ في السنابل ... في مَعْقل من أحرز المعاقل[3]

وإن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المثل والممثول[4] وهو تفسير الباطن من الظاهر، أي تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويماثلها من الأمور الجسمية المحسوسة. وهذا الاسم مستمد من أقوال الفاطميين: إن الله جعل لهم مَثَلاً دالاً على ممثوله فعرفوا الممثول بمثله، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مَثَلٍ لعلهم يتذَكَّرُون﴾[5]. فأخفى الله سبحانه الممثول[6] وستره وجعل مثله طريقاً إلى

---

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦.

(٤) الظاهر والباطن يقابلهما المثل والممثول. فالمثل: الظاهر، والممثول: الباطن. ولكل مثل ممثول كما أن لكل ظاهر باطناً. والله يضرب الأمثال للناس، أما بواطن هذه الأمثال أو ممثلوها فلا يعلمه إلا الأئمة وحدهم، لأنهم أصحاب علم الباطن.

(٥) سورة الزمر: ٣٩: ٢٧.

(٦) يقصدون به الله سبحانه وتعالى، والمثل يقصدون به الشبه والنظير.

معرفته اختباراً لعباده وامتحاناً لهم، قال المؤيد:

والـذي قـال في الكتـاب تعـالى مَـثَـلٌ ذاك تَحْتَـه - ممثـول
أقصـد: حَمَـا مَمْثـولَـه دون المثـل ذا أبَـرُ النحـل وهـذا كـالعسـل[1]

كما رد المؤيد على الفرق المختلفة في تفسير رؤية الرحمن، ورد على الفرق التي أثبتت رؤية الرحمن أو أنكرتها، فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين: أحدهما محسوس والآخر معقول وهو رؤية العقل. فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسمية والعقل لا يدرك إلا المدركات العقلية، والرؤية إما رؤية حس أو رؤية عقل. قال المؤيد:

فـالعقـل لـلمـرء أداةٌ كـالبصر ذا بـاطنٌ فيـه وهـذا قـد ظَهَـر
كـلاهمـا يُـدْرك بـالمجـانسـهْ مَـقَـالـةً صَحَّـت بـلا مُمـارَسَـهْ
ولـيس مـن جـنس العـقـول الله يـا قـومُ كي تُـدْرِكُهُ حـاشـاه[2]
كـما تعـالى أن يكـون كـالصـور مجـسـماً كـيـما يـلاقيـه البـصر

فكأن المؤيد قد رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالأبصار، كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالف المعتزلة الذين رفضوا الصفات. يدل على ذلك قوله:

فـالفـرقتـان اجتمعـا مُشَبِّهَـهْ خَيَّـاطـةُ عَشْـواء جهـلٌ وعَمَـهْ[3]

أما نظر المؤيد إلى ما ورد في آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية، فإن للمؤيد في ذلك رأياً يتفق مع التأويل الذي ذهبت إليه الإسماعيلية والمعتزلة. فهو يرى أن اليد هي النعمة، وهي القوة، كما يتبين ذلك من قوله:

وقـائِـلٌ لله وَجْـه ويَـدُ وقـولـه: هـذا لـديـه رشَـدُ
وقـائِـلٌ ذلـك حُـكْـمٌ بـاطـلُ إنْ صَحَّ ذا، فالله شَخصٌ مـاثِلُ[4]

أما رأي المؤيد في الأحرف التي وردت بأوائل السور كقاف ونون وألم وكهيعص، فإنه يتفق مع رأي الإسماعيلية القائين بالتأويل. وهو يرى أن لهذه الحروف معاني مستورة خفية لا يعلمها إلا خزنة علم الله. كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا إليه عن الأنبياء. ذلك أن الفاطميين يقولون بعصمة الأنبياء، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين. وقد قال

---

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٧.
(٢) يعني أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية.
(٣) ديوان المؤيد ص ١١١.
(٤) المصدر نفسه ص ١١٤.

الفاطميون: إن هذه الآيات تفسيراً ظاهرياً، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين، أما باطنها فإنه يبعد الأنبياء عن المعاصي. كما سمى الفاطميون الأنبياء النطقاء، لأن النطق ـ كما قالوا ـ قسمان: أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم، وهو النطق عما في الدنيا، والآخر النطق عما في الدار الآخرة الذي يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب أي الذين يدركون الغيب. وعلى هدي هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم، وقصة إبراهيم، والفلك، وطوفان نوح، وقصة لوط، وقصة داود، وقصة يوسف، كما عرض لزواج النبي لزينب بنت جحش(١).

ومن أهم الكتب التي تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المستنصرية(٢). فقد عرض مؤلفه لعقائد المذهب الإسماعيلي في إيجاز، وقد أشار إلى هذه العقائد، ولكنه مسها مساً رقيقاً في الوقت الذي عرض فيه المؤيد في الدين لأصول هذه العقائد التي لا بد من أن يلم بها المستجيب؛ لذلك لم يسرف في التأويل إسرافاً يثقل على السامع الذي لا عهد له بعلم الباطن من قبل؛ ولهذا نراه يعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن. وانفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله الفاطمي وأعلى ذكره وغالى في تمجيده. ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبي ﷺ، فقد عمد الداعي إلى أن يتخذ من هذا العدد التاسع عشر أصلاً من أصول الدين، فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنتي عشرة سنة، فيكون مجموعها تسع عشرة إشارة إلى الإمام المستنصر(٣). ولم ينفرد فلاسفة الدعوة الإسماعيلية باتخاذ الأعداد أصولاً لآراء دينية، فقد اتخذ الفيثاغوريون من كل عدد أصلاً لدراستهم، كما اتخذ العبرانيون العدد سبعة أصلاً لبعض عقائدهم، وكما فعل الحرانيون

(١) انظر مقدمة ديوان المؤيد ص ١٣٤ ـ ١٥٢.

(٢) ذكر إيفانوف في كتابه «المرشد إلى أدب الإسماعيلية» A Guide to Ismaili Literature أن هذا الكتاب ينسب إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وأنه غير كتابه المعروف باسم «المجالس المؤيدية» ويشك الدكتور محمد كامل حسين الذي قام بنشر كتاب المجالس المستنصرية في نسبة هذا الكتاب إلى المؤيد في الدين، ويستند في قوله هذا إلى أن التأويل على ما ورد في كتاب المجالس المستنصرية يختلف عن التأويل الذي ورد في كتاب المجالس المؤيدية إذ أن المؤلف الواحد لا يرى رأيين مختلفين في مسألة واحدة كما أن صاحب كتاب المجالس المستنصرية كان يميل إلى الاعتماد على الفقه في آرائه أكثر من اعتماده على التأويل أي أنه كان سائراً على مذهب السلف الصالح، بخلاف المؤيد في الدين، فإنه كان يؤثر التأويل. وقد خلص ناشر كتاب المجالس المستنصرية إلى القول بأن هذا الكتاب ينسب إلى الداعي علم الإسلام ثقة الإمام لا إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي.

راجع كتاب المجالس المستنصرية، للداعي علم الإسلام (القاهرة ١٩٤٧).

(٣) كتاب المجالس المستنصرية، مقدمة ص ١٧.

حين اتخذوا العدد خمسة أصلاً لعقيدتهم، وكذلك كان قدماء المصريين مثلثة[١]، والزرادشتيون مخمسة. وهاك أهم ما يمكن أن يستخلص من هذا الكتاب:

١ ـ توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك والقرناء له.
٢ ـ الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ، وأن محمداً خاتم النبيين.
٣ ـ القول بوصاية علي بن أبي طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً.
٤ ـ التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً.
٥ ـ إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة.
٦ ـ القول بالظاهر والباطن معاً بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ولا الباطن دون الظاهر[٢].

وقد انفرد هذا الكتاب بأنه أفرد مجلساً تحدث فيه الداعي إلى معشر المؤمنات مما يوحي بأن الدعوة كانت توجه إلى الرجال والنساء.

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً: عرض في المجلس الأول منها لوجوب التأويل، وعرض في المجلس الثاني إلى المجلس السادس للفرائض والسنن، وعرض في المجالس من السابع عشر إلى الرابع والعشرين إلى حسن المعاملة، كالبر بالوالدين وصلة القرابة وحفظ الجار، ومعاملة الزوجين، ومعاملة العبيد، وتعرض في المجلس الخامس والعشرين إلى المجلس الثلاثين لصيام رمضان[٣].

٢ ـ علم الكلام في المغرب والأندلس:

كان المغرب يسير على وفق العقيدة السلفية، وظل أهل هذه البلاد على هذه العقيدة حتى ظهر المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية، إذ كانت دعوته توحيدية محض، فقد تحدى علماء المرابطين ورماهم بالشرك والتجسيم لأنهم يتمسكون بظاهر الآيات المتشابهات، وظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية وقامت الدولة الموحدية تحمل مذهباً كلامياً جديداً دعا إليه ابن تومرت، وفي ذلك يقول المراكشي: «وكان جل ما يدعو إليه (ابن تومرت) علم الاعتقاد على طريق الأشعرية. وكان أهل المغرب... ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك»[٤].

---

(١) المصدر نفسه، مقدمة ص ١٨.
(٢) المصدر نفسه، مقدمة ص ١٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٥ ـ ١٤٧.
انظر كتابي: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٥ ـ ٥٠٠.
(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٤.

وليس من شك في أن ابن تومرت كون عقيدة من المذاهب الإسلامية التي سبقته، ولكن خرج آخر الأمر بعقيدة توحيدية متميزة خاصة به. فالعقيدة التومرتية تعتبر مزيجاً من المذاهب الكلامية؛ فهي ليست أشعرية بحتة كما ذكر المراكشي وابن خلدون، ولا خارجية كما أدركها علماء المرابطين، كما أنها ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ولا سلفية تنأى عن الرأي والتأويل، وليست غزالية كما توهمها «أندريه جوليان»، بل هي مزيج من أغلب المذاهب المذكورة وغيرها. وقد أغفل المؤرخون جانباً هاماً في وضع هذه العقيدة وهو المذهب الحزمي؛ فقد تأثر ابن تومرت إلى حد ما بمذهب العلامة الأندلسي «ابن حزم»، مما يرجح الرأي القائل بأن ابن تومرت قضى شطراً من حياته الدراسية بالأندلس قبل أن يقصد إلى معاهد الشرق، وأنه نهل إلى حد ما من معين الثقافة الحزمية التي كانت تتألق حينئذ بقرطبة.

ولكي نبين مدى تأثر ابن تومرت بآراء ابن حزم في العقيدة، كان من الضروري أن نعقد مقارنة بينهما في هذا الصدد، ولكنه من العسير أن نعقد مقارنة كاملة بين الإمام ابن حزم وبين المهدي ابن تومرت في ميدان التوحيد لسبب أساسي وهو أن ابن حزم له مذهب كلامي مفصل واضح المعالم محدد المنهج، إذ قد ناضل المعتزلة والأشعرية والخوارج والشيعة والمرجئة وغيرهم، وانتهى من هذا النضال إلى نتائج تميز مذهبه، وتعين مدرسته، وتبرز شخصيته. وبهذا الجهد المتواصل انفصلت شخصية المذهب الحزمي عن شخصية المذهب الظاهري الذي فضله ابن حزم على جميع المذاهب، وأعجب به.

أما المهدي ابن تومرت فلم يناضل المذاهب الكلامية نضالاً علمياً، ولم يقدم لنا نظريات وآراء نستطيع بها أن نبني له مذهباً خاصاً.

وكل ما يمكن أن نعمله من مقارنة، هو مقارنة عقيدته المدونة بكتابه: «أعز ما يطلب» بآراء غيره في ميدان هذه العقيدة، لنرى مدى التشابه أو المخالفة بينه وبين أهل المذاهب الكلامية المفصلة مثل ابن حزم.

وربما كان السبب في تخلف ابن تومرت عن أن يترك للناس مذهباً دراسياً على نمط المعتزلة والأشعرية والحزمية وغيرهم، أنه أفرغ نشاطه في مقاومة المرابطين، والتفنن في كيفية قهرهم، وصرف الناس عن اتباع مذهب السلف الذي قد يجر معتنقيه إلى التشبيه والتجسيم. وابن تومرت في هذا الميدان العلمي يعتبر من الشخصيات العلمية البارزة في التاريخ الإسلامي، فقد انتهت دعوته بإسقاط دولة عتيدة وإقامة دولة مكانها، بينما أخفق ابن حزم في نشر مذهبه في حياته، إذ قهرته السلطات الحاكمة بالأندلس، ونجح علماء المالكية في الكيد له حتى أحرق

المعتمد بن عباد كتبه، ومات مهيض الجناح. وقد ضاق الغزالي بفساد أهل زمانه، ولكنه لم يجترىء على مساجلة الدولة السلجوقية، بل كان لها أداة طيعة. والمعتزلة من قبل قد نجحوا في جذب المأمون إلى صفوفهم، كما جذبوا المعتصم والواثق، ولم يهادنهم الزمن بعد ذلك، فهزموا على يد السنيين هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة.

وابن تومرت مصلح ديني عملي، وإن لم يترك مذهباً كلامياً كاملاً. وسوف نقدم نصاً من عقيدته كما دونها في كتابه «أعز ما يطلب». قال المهدي ابن تومرت تحت عنوان «توحيد الباري سبحانه» لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات، وشهدت عليه المخلوقات، بأنه جل وعلا، وجب له الوجود على الإطلاق، من غير تقييد ولا تخصيص بزمان ولا مكان، ولا جهة ولا حد ولا جنس ولا صورة ولا شكل ولا مقدار ولا هيئة ولا حال.

أول، لا يتقيد بالقبلية. آخر، لا يتقيد بالبعدية. أحد، لا يتقيد بالأينية[١]. صمد، لا يتقيد بالكيفية. عزيز، لا يتقيد بالمثلية. لا تحده الأذهان، ولا تصوره الأوهام، ولا تلحقه الأفكار، ولا تكيفه العقول. لا يتصف بالتحيز والانتقال، ولا يتصف بالتغير والزوال، ولا يتصف بالجهل والاضطرار، ولا يتصف بالعجز والافتقار. له العظمة والجلال، وله العزة والكمال، وله العلم والاختيار، وله الملك والاقتدار، وله الحياة والبقاء، وله الأسماء الحسنى.

واحد في أزليته، ليس معه شيء غيره، ولا موجود سواه، لا أرض ولا سماء ولا ماء ولا هواء ولا خلاء، ولا ملاء[٢] ولا نور ولا ظلام، ولا ليل ولا نهار ولا أنيس ولا حسيس، ولا رز[٣]، ولا همس، إلا الواحد القهار. انفرد في الأزل بالوحدانية والملك والألوهية، ليس معه مدبر في الخلق ولا شريك في الملك، له الحكم والقضاء، وله الحمد والثناء، لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، ليس فوقه آمر قاهر ولا مانع، زاجر ليس عليه حق ولا عليه حكم، فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[٤].

تأثر ابن حزم بمذهب داود الظاهري في الفقه والعقيدة على السواء، بل لقد زاد عليه في تمسكه الشديد بظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف في العقيدة، فكان ابن حزم لا يقول

---

(١) أي لا يتقيد بالمكان؛ فالأينية نسبة إلى أين التي يسأل بها عن المكان.

(٢) يقصد بالخلاء الفضاء الأرضي وبالملاء الفضاء الجوي، من قولهم: الملا الأعلى؛ ولكن اللفظة اللغوية تعطي معنى آخر، فالملا والملاءة شدة الثقة. انظر مختار الصحاح مادة «ملأ».

(٣) الرز (بفتح الراء مع التشديد)، أن يسكت اللسان فجأة.

(٤) أعز ما يطلب ص ٢٤٠ - ٢٤١.

بصفات الله ولا يقول بالتأويل؛ ولذلك حمل على المعتزلة وعلى الأشعرية في غير هوادة. يقول ابن حزم(١):

«وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عز وجل فمحال لا يجوز، لأن الله تعالى لم ينص قط في كلامه المنزل على لفظة الصفات ولا على لفظة الصفة، ولا حفظ عن النبي ﷺ أن الله تعالى صفة أو صفات. نعم! ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا عن أحد من خيار التابعين، ولا عن أحد من خيار تابعي التابعين».

ويذكر ابن حزم أن لفظ الصفات قد ابتدعه المعتزلة ورؤساء الرافضة، ثم سلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام الذين لم يتبعوا سبيل السلف الصالح. ويبين ابن حزم منهجه الكلامي في هذه العبارة: «إنما الحق في الدين ما جاء عن الله تعالى نصاً أو عن رسول الله ﷺ كذلك، أو صح إجماع الأمة كلها عليه، وما عدا هذا فضلال»(٢).

ويفسر ابن حزم ما يسميه الأشعرية «صفات» الله تفسيراً بارعاً، إذ يقول في قوله تعالى: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ «إن الله له معلومات بالأشياء كلها، وهو لا يخفى عليه شيء، ولا يفهم منه البتة أن له علماً هو غيره»(٣).

من ذلك ترى أن ابن حزم قد زاد على السنة السلفية في التمسك بنص الكتاب والسنة، إذ أن السلفيين رفضوا الدخول في مناقشات في العقيدة، واعتبروا أهل الكلام كفاراً أو زنادقة. ولكن ابن حزم لم يقف من علماء الكلام موقفاً سلبياً كما وقف أهل السنة السلفية، بل نازلهم وناقشهم بالحجة والبرهان، واستعمل في مناقشته آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة، فحمل على المعتزلة وعلى تلاميذهم الأشعرية. وكان لمذهبه أتباع كثيرون في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، بل إنه ترك وراءه فرقة تحمل اسمه وتعرف بالحزمية. وقد انضم إلى هذه الحزمية كثير من الظاهرية. ومال يعقوب المنصور الموحدي إلى مذهب ابن حزم في التوحيد، واعتنق مذهبه في التوحيد رجوعاً إلى الكتاب والسنة.

(و) النحو:

حفل العصر السلجوقي بطائفة من مشهوري النحاة، نخص بالذكر منهم أبا البركات

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ٢ ص ١٢٠.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٢١.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٢٩.
انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٥٢ ـ ١٥٤، ١٥٥ ـ ١٥٦.

عبد الرحمن الأنباري[١] (ت ٥٧٧ هـ). وقد رحل إلى بغداد في صباه وقضى بقية حياته فيها، وتلقى العلم بالمدرسة النظامية، ودرس اللغة على أبي منصور الجواليقي ونبغ في الأدب. وقد عهد إليه بتدريس النحو بالمدرسة النظامية، وصنف فيه كتاب «أسرار العربية» وكتاب «الميزان».

ومن مشهوري النحاة أبو نزار البغدادي. وكان من المبرزين في النحو حتى صار «أنحى طبقته». وكان يعجب بنفسه حتى لقد لقب نفسه ملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير هذا اللقب. وقد تلقى أبو نزار الحديث وأصول الدين والفقه وعلم الكلام على أئمة زمانه، وأخذ النحو على القصبجي الذي أخذه على عبد القادر الجرجاني. ثم رحل أبو نزار إلى جرجان وكرمان وغزنة ثم إلى الشام، واتخذ مدينة دمشق موطناً له وتوفي بها سنة ٥٦٨ هـ[٢].

ومن مشهوري النحاة أيضاً ابن الدهان، وكان يسمى «سيبويه» عصره. وقد وضع كثيراً من المصنفات القيمة في النحو، منها «شرح الإيضاح والتكملة» ويقع في ثلاثة وأربعين مجلداً، و «الفصول الكبرى» و «الفصول الصغرى». كما شرح كتاب «اللمع» لابن جني (بكسر الجيم والنون مع التشديد) في مجلدين وسماه «الغرة». وألف في النحو كتاب «العروض» وكتاب «الدروس» وكتاب «الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية» (ويشتمل على سرقات المتنبي كما ذكر ابن خلكان). كما ألف ابن الدهان كتاب «زهر الرياض» في سبعة مجلدات، وكتاب «الغُنْية في الطاء والظاء»، وكتاب «العقود في المقصور والممدود والراء»، وكتاب «الغنية في الأضداد».

وقد عاصر ابن الدهان كثيراً من أئمة النحاة كالجواليقي، وابن الخشاب، واشتهر في النحو وبرز فيه حتى كان العلماء يفضلونه على هؤلاء النحاة مع ذيوع شهرتهم في هذا المضمار.

ترك ابن الدهان بغداد إلى الموصل، فتلقاه الوزير جمال الدين بالقبول وأحسن إليه. ولكن كتبه التي خلفها ببغداد قد تلفت بسبب فيضان دجلة ووصول مائه إلى داره. ولما حملت هذه الكتب إلى ابن الدهان على هذه الصورة، أشير عليه بإصلاح ما أمكن إصلاحه منها، فقام بتبخيرها بنفسه بثلاثين رطلاً من اللاذن، فصعد البخار إلى رأسه وعينيه حتى قيل إن ذلك أفقده بصره، ولم يحل ذلك دون انتفاع الطلاب بتصانيفه.

---

(١) نسبة إلى الأنبار وهي بلدة قديمة على الفرات، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. وقد قيل إنها سميت بهذا الاسم لأن كسرى كان يتخذ فيها أنابير للطعام. والأنابير جمع أنبار ونبر كصرد: اللقم الضخام. راجع القاموس المحيط مادة نبر.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧١.

وكان ابن الدهان فوق تفوقه في النحو ينظم الشعر، كما كان ابنه أبو زكريا يحيى بن سعيد أديباً شاعراً.

وقد توفي ابن الدهان بالموصل سنة ٥٦٩ هـ [١].

ومن أئمة النحو في هذا العصر ابن الخشاب البغدادي، وكان متبحراً في النحو والأدب والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب والقراءات، كما اشتهر بجودة الخط. وقد شرح كتاب «الجمل» لعبد القادر الجرجاني وسماه «المرتجل في شرح الجمل»، كما شرح كتاب «اللمع» لابن جني (ولم يكملها) وتوفي سنة ٥٦٧ هـ[٢].

وقد أخذ النحو على ابن الخشاب: أبو البقاء (الضرير) العكبري[٣] الأصل البغدادي المولد والدار. وقد اشتهر بالفقه على المذهب الحنبلي، كما اشتهر بالحساب والفرائض، وأخذ النحو على ابن الخشاب وغيره من أئمة النحو في عصره. ووضع أبو البقاء كتباً قيمة في النحو وشرح كتاب «الإيضاح» لأبي علي الفاسي. كما شرح ديوان المتنبي. وألف من الكتب النافعة كتاب إعراب القرآن الكريم (في مجلدين)؛ و«إعراب الحديث» و«شرح اللمع» لابن جني و«اللباب في علل النحو» و«إعراب شعر الحماسة» لأبي تمام، و«شرح المفصل» للزمخشري، و«الخطب النباتية» و«المقامات الحريرية»، وكذلك ألف في النحو والحساب وانتفع به الطلاب وذاع اسمه في البلاد.

وتوفي أبو البقاء سنة ٦١٦ هـ.

ومن أئمة النحو أبو البقاء ويعرف بابن الصائغ. وكان موصلي الأصل. ولد بحلب ونشأ بها وأخذ العلم فيها وفي دمشق والموصل وبغداد وغيرها. واتصل به عدد من جلة علماء عصره مثل بهاء الدين بن شداد قاضي حلب وصاحب كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» (ت ٦٣٢ ـ ١٢٣٤) وابن الأثير (ت ٦٣٠ ـ ١٢٣٢) صاحب كتابي «الكامل في التاريخ» و«أسد الغابة في تمييز الصحابة». وقد شرح أبو البقاء كتاب «المفصل» للزمخشري وكتاب تصريف الملوكي لابن جني، وتوفي بحلب سنة ٦٤٣ هـ[٤].

---

(١) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠.

(٣) نسبة إلى عكبراء (بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء) بليدة على نهر دجلة تبعد عن بغداد عشرة فراسخ.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ٦ ص ٤٥ ـ ٥١.

وفي عهد بني نجاح في اليمن ظهر كثير من العلماء والشعراء والفقهاء. وكان الحسن بن أبي عباد إمام النحاة في عصره. وقد صنف في النحو مختصراً ذاع صيته في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، كما كان الحسن من أئمة اللغة، وكذلك كان ابن أخيه إبراهيم من بعده.

ومن العلماء الذين ذاع صيتهم في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني (وكان لغوياً نحوياً)، وأبو طاهر النحوي في عهد الخليفة الحاكم، وأبو يعقوب النجيرمي[١] في عهد الخليفة الظاهر، وابن البركات (ت ٤٢٠ هـ)، وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن الأغلب، وقد صنف في النحو كتاباً كبيراً، كما صنف في إعراب القرآن كتاباً يقع في عشرة مجلدات. وكان فوق ذلك عالماً بالتفسير واللغة، وتوفي في أوائل عهد الخليفة المستنصر[٢].

ومن نحاة العصر الفاطمي أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ). وقيل انه ديلمي الأصل، وكان إمام عصره في علم النحو. وقد صنف كثيراً من الكتب القيمة، نذكر من بينها: المقدمة، وشرح الجمل للزجاجي، وشرح كتاب الأصول لابن السراج. كما جمع وهو في عزلته طائفة كبيرة من المسائل النحوية قيل إنها لو نسخت لقاربت خمس عشرة مجلدة، وقد سماها النحاة الذين جاءوا بعده «تعليق الغرفة»، وقد انتقلت هذه التعاليق إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بركات النحوي، ثم إلى صاحبه ابن بري (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد)، ثم إلى صاحبه أبي الحسين النحوي. وكان كل من هؤلاء النحاة المشهورين يعهد بها إلى تلميذه ويعهد إليه بحفظها[٣].

ومن نحاة هذا العصر أيضاً: إسماعيل بن خلف المتوفى سنة ٤٥٠ هـ. وقد أتقن القراءات ونبغ في الأدب. وكان من أهل سَرَقُسْطه في شرقي الأندلس. ومن نحاة الأندلس أيضاً: عبد الله البطليوسي، ومن مؤلفاته كتاب «الحلل في شرح أبيات الجمل» و «الحلل في أغاليط الجمل» و «شرح كتاب سقط الزند» «لأبي العلاء المعري»، وكتاب «شرح الموطأ» للإمام مالك، وقد أقام البطليوسي بمدينة بلنسية شرقي الأندلس، وأخذ عنه كثير من الطلاب، وكان يجيد نظم الشعر؛ فمن قوله في نظم العالم:

---

(١) بفتح النون مع التشديد وكسر الجيم وفتح الراء، نسبة إلى نجيرم (ويقال نجارم) وهي محلة أو قرية بالبصرة.

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ٤٦١ - ٤٦٢.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يُظنُّ من الأحياء وهو عديم[(١)]

وممن نبغ في النحو في الأندلس أبو الحجاج يوسف المتوفى سنة ٤٧٦ هـ. وكان من أهل شنتمرية[(٢)]. وقد رحل إلى قرطبة وأخذ العلم بها، وكان عالماً باللغة حافظاً للأشعار عالماً بمعانيها حريصاً على ضبطها وإتقانها. وقد قصده الطلاب من البلاد لأخذ العلم عنه. وقد كف بصره في آخر أيامه.

وقد شرح أبو الحجاج كتاب «الجمل» في النحو لأبي القاسم الزجاجي، وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد[(٣)].

ومن أئمة نحاة الأندلس أيضاً أبو علي عمر (بن محمد بن عبيد الله الأزدي) الشلوبيني[(٤)]، وكان إماماً في علم النحو حتى كان أهل الأندلس يعتزون بعلمه ويقولون: «ما يتقاصر الشيخ أبو على الشلوبيني عن الشيخ أبي علي الفاسي»، وقد شرح الشلوبيني المقدمة الجزولية (في القراءات والنحو) شرحاً وافياً وشرحاً موجزاً. ومن مؤلفاته في النحو كتابه الكبير «التوطئة». وقد أقام الشلوبيني بإشبيلية مسقط رأسه. وذكر ابن خلكان[(٥)] أن الشلوبيني كان خاتمة أئمة النحو في الأندلس.

(ز) علم اللغة:

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب[(٦)] أن علم اللغة قد تطور في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم. فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة، وكيف نبغ في مدرستي البصرة والكوفة كثير من العلماء المبرزين كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الذي وضع علم العروض ووضع كتاب العين الذي يعتبر أول موسوعة في اللغة العربية كما يعتبر أول معجم عربي مرتب على حسب الحروف

---

(١) المصدر نفسه جـ٢ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح الفاء المثناة من فوقها والميم وكسر الراء وبعدها ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة: وهي مدينة في غربي الأندلس ببلاد البرتغال الآن. وقد قيل له الأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا.

(٣) ابن خلكان جـ٦ ص ٧٩ ـ ٨١.

(٤) وهذه الكلمة بلغة الأندلس معناها الأبيض الأشقر.

(٥) وفيات الأعيان جـ٣ ص ١٢٤.

(٦) جـ ٣ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

الأبجدية. كذلك نذكر سيبويه الفارسي تلميذ الخليل بن أحمد، وقد أخذ الفراء عن أستاذه الكسائي النحو واللغة وفنون الأدب. ومن أشهر كتب الفراء كتاب معاني القرآن وهو تفسير لغوي شرح فيه دقائق النحو واللغة.

وقد نهض لغويو القرن الثالث نهضة مشكورة لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف ربما وقع فيه الناسخون، فوضعوا المعاجم المنظمة على طريقة الخليل من حيث ترتيب حرف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق، وأولها حرف العين. فأنشأ ابن دريد (بضم الدال وفتح الراء وسكون الياء) (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة، وإن كان لا يخلو من بعض المآخذ لما يلاقيه الباحث الذي يؤثر السرعة من صعوبة في الوصول إلى غايته من كتب اللغة. ولعل ابن دريد أول من اخترع فن المقامات في اللغة العربية، وعنه روى تلميذه أبو علي القالي (٢٢٨ ـ ٣٥٦ هـ) «كتابه الأمالي» من أحاديث مضبوطة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة.

ومن علماء اللغة أيضاً الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥) صاحب كتاب «المحيط»، ويقع في سبعة مجلدات، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب «المجمل»، وأبو منصور الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب التهذيب، وقد رتب المادة اللغوية على الحروف مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب والحرف الأول منها هو الفصل. وقد ذاعت هذه الطريقة بعد الجوهري في تأليف المعاجم في المشرق والمغرب.

ومن علماء اللغة في شرح الدواوين الأدبية ابن بسطام (بكسر الباء) الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي (٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ). وقد تلمذ لأبي العلاء المعري ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد. وكان أحد أئمة اللغة والبلاغة في عصره، وصنف كتباً كثيرة في الأدب مثل تهذيب غريب الحديث، وتهذيب إصلاح المنطق، وكتاب الكافي في علم العروض والقوافي، وكتاب الملخص في إعراب القرآن[١]. ومن كتبه أيضاً شرح ديوان الحماسة وشرح ديوان المتنبي وشرح سقط الزند وهو ديوان أبي العلاء المعري، وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات.

وقد ألف الجوهري من علماء المشرق كتاب الصحاح على الترتيب المعروف لحروف المعجم، فجعل البداءة منها بالهمزة، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل بن أحمد.

ومن أئمة اللغة في العصر الفاطمي بمصر أبو القاسم السعدي. ولد بجزيرة صقلية سنة

(١) وقد اطلع عليه ابن خلكان (جـ ٢ ص ٢٣٣) ويقع في أربع مجلدات.

٤٣٣هـ، ثم وفد إلى مصر حوالى سنة ٥٠٠هـ، واتخذها مقراً له، واشتهر بالتبحر في اللغة، وكان من أئمة الأدب في عصره، وقد صنف كتاب الأفعال وكتاب أبنية الأسماء، وكتاب الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة (يعني جزيرة صقلية)، وكتاب أم الملح الذي جمع فيه كثيراً من أشعار الأندلس، وتوفي بمصر سنة ٥١٥هـ[1].

وقد اشتهر أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن بري المقدسي الأصل في اللغة والنحو والرواية. وكان كما وصفه ابن خلكان[2] «علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره». وقد أخذ علم اللغة عن أبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني (بفتح الشين مع التشديد والتاء) النحوي وأبي طالب المعافري القرطبي؛ كما سمع الحديث وحفظ كلام العرب. وذيّل كتاب الصحاح بحواشي قيمة، واستدرك عليه في مواضع كثيرة تدل على سعة علمه واطلاعه وغزارة مادته. وأخذ عنه فريق من العلماء كأبي موسى الجزولي صاحب المقدمة في النحو. وكان لا يصدر بديوان الإنشاء كتاب إلى ملك من الملوك إلا بعد أن يتصفحه ابن بري ويصلح ما قد يجده فيه من خطأ، وتوفي ابن بري بمصر في سنة ٥٨٢هـ.

ومن أئمة اللغة والأدب أبو طالب عبد الجبار المعافري[3] المغربي وقد جاب البلاد وانتهى به المطاف إلى بغداد حيث تلقى العلم بها، وأخذ عنه كثير من الطلاب. وفي سنة ٥٥١هـ وصل إلى مصر واشتغل بالتدريس فيها. ومما يؤثر عنه أنه كان يجيد الخط المغربي ويعنى بضبط ما يكتب. وقد غادر مصر سنة ٥٦٨هـ، ولكنه مات وهو في طريقه إلى بلاده[4].

ومن علماء اللغة في الأندلس أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ (٩٦٦ - ٩٦٧م). وقد استقدمه عبد الرحمن الناصر من العراق لتأديب ابنه الحكم المستنصر، وألف كتابه «الكامل في اللغة»، وأصبح كتابه «الأمالي» مرجعاً أساسياً يعتمد عليه في اللغة والأدب. وأبو علي القالي أول من أسس علوم اللغة وآدابها في الأندلس، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وأكابر الأدباء في هذه البلاد.

ويحتل ابن سيدة (بكسر السين وفتح الدال) الأعمى الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٥ - ١٠٦٦م) مكاناً بارزاً بين علماء اللغة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر

---

(١) ابن خلكان جـ٣ ص ١١ - ١٢.
انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٢) وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٩٢.

(٣) نسبة إلى المعافر (بضم الميم) ابن يعفر (بفتح الياء وسكون العين وضم الفاء) وهي قبيلة كبيرة يقيم أكثرها في مصر.

(٤) ابن خلكان جـ٢ ص ٣٨٤.

الميلادي). وكان ينعم بتعضيد الموفق صاحب دانية. وهو الذي ألف كتاب «المحكم»، وتعرض فيه لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، ثم لخصه محمد بن أبي الحسين، وكان معاصراً للدولة الحفصية بتونس، ورتبه على نمط كتاب الصحاح للجوهري على أساس اعتبار أواخر الكلمات. فكان هذان المعجمان ـ كما يقول ابن خلدون ـ «توأمي رحم وسليلي أبوة». ويعتبر كتاب «المخصص» لابن سيدة الذي يقع في عشرين جزءاً (بولاق سنة ١٣٢١هـ) دائرة معارف جليلة.

وقد ذكر المقريزي[١] في ترجمة ابن سيدة أنه إمام اللغة في عصره وأنه رحل بعد موت الموفق صاحب دانية لأنه لم يأمن جانب ابنه، ففر إلى بعض البلاد المجاورة وكتب إليه مستعطفاً.

وممن نبغ في اللغة أيضاً: ابن مالك الأندلسي مؤلف الألفية المنسوبة إليه. وقد ولد في جيان ورحل في صباه إلى الشام وبقي بها حتى مات بدمشق سنة ٦٧٢هـ (١٣٧٢م).

(ح) الأدب

(ا) الشعر:

(أ) تمهيد: ذكرنا من قبل[٢] أن نزعة الأمويين في الشعر كانت جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، وأنه لما انتقل الحكم إلى العباسيين ظهر كثير من الشعراء انتهجوا مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب في الشعر خاصة وفي الأدب عامة. وذلك يرجع إلى اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عما كانت عليه الجاهلية. كما يرجع ذلك إلى انتشار الشعوبية وأثر الثقافة الأجنبية والفارسية خاصة. ومع ذلك فما زلنا نرى في اللغة العربية بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان والتزام اتخاذ أواخر الأبيات في جميع أبيات القصيدة الواحدة. وتعرف هذه الطريقة بمذهب المحافظين في أيامنا هذه.

على أن شعراء الفرس لم يدخلوا على الشعر العباسي تغييرات من الناحية الشكلية؛ غير أنهم أمدوه بكثير من ألوان الخيال الخصيب والتعبير الدقيق والإحساس العميق. كما أمدوه بطائفة كبيرة من الآراء والأفكار التي اكتسبوها من الحياة الإسلامية الجديدة، إذ كان الإسلام ذا تأثير عميق في الحياة العامة. ونرى أن الشعر في هذا العصر يتميز بصفة عامة بالرقة والعمق والتفنن في المعاني، كما يتميز بالنقد الدقيق.

---

(١) نفح الطيب جـ ٥ ص ١٧١.

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

وربما ترجع نهضة الشعر والأدب إلى تشجيع الخلفاء والسلاطين والوزراء رجال الأدب بالعطايا الجزيلة تارة وتقليدهم المناصب الرفيعة تارة أخرى. ولذلك نلاحظ انتشار المدح في هذا العصر واشتداد روح التنافس بين الشعراء والكتاب الذين كان من أهم أغراضهم أن يحظوا بالتقرب إلى رجال الحكم رغبة في استدرار عطفهم وكرمهم، على أن المدح وكثرته يدل من ناحية أخرى على مدى استبداد هؤلاء الحكام، وأنه لم يكن من سبيل للوصول إليهم أو اكتفاء شرهم إلا بالتقرب إليهم بكثرة المدائح.

وكان السلاجقة بوجه عام يميلون إلى الشعر، فقد ذكر نظامي عروضي أن طغانشاه بن ألب أرسلان (وكان حاكماً لخراسان أيام أبيه) كان من أكثر السلاجقة ولعاً بالشعر، وأن أكثر ندمائه كانوا من الشعراء[١].

وقد أثر عن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي أنه كان لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يجيد نظمه، وأنه عني بالأئمة والمتصوفة أكثر من عنايته بغيرهم من رجال العلم والأدب.

ويقول نظامي عروضي في المقال الثاني من كتابه «جهار مقاله» (أو المقالات الأربع) الذي عنون له: «في ماهية الشعر وصلاحية الشاعر»:

«الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة والقياسات المُنْتِجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، ويرد الحسن في زي القبيح في صورة الحسن، ويثير بالإيهام القوي العصبية والشهوانية، فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباض وانبساط، وتنشأ في العالم الأمور العظام»[٢].

ويقال نظامي عروضي في موضع آخر عن أثر الشعر في تخليد أسماء الملوك وبقاء ذكرهم عن طريق قصائد الشعراء في الدواوين والكتب:

وأسامي ملوك العصر وسادات الزمان خُلِّدَت بذكر جماعة لهم نظم رائع وذكر شائع. كما بقيت أسماء آل ساسان بالأستاذ أبي عبد الله جعفر بن الروذكي، وأبي العباس الربَنْجَني، وأبي المثل البخاري، وأبي إسحاق الجويباري، وأبي الحسن الأعجمي، والطحاوي، والخبازي النيسابوري، وأبي الحسن الكسائي[٣] وأما أسامي آل سلجوق فبقيت بِفَرَّخي الجرجاني، ولامعي الدهسَّناني، وجعفر الهمذاني. . . وبرهاني. . . وأسامي ملوك الغرور آل شَنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبي العباس الرفيعي وعلي الصوفي[٤].

---

(١) نظامي عروضي: جهار مقاله الترجمة العربية ص ٥١، ١٣٢ ـ ١٣٥ هامش رقم (١٩).
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦.

أما عن الشروط التي يجب أن تتوافر في الشاعر فهي أن يكون «سليم الفطرة صحيح الطبع جيّد الرويَّة رقيق النظر، متنوِّعاً في أنواع العلوم آخذاً بأطراف الرسوم، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم».

وينبغي أن يكون الشاعر منطقياً في مجلس المحاورة طَلْقَ الوجه في مجلس المعاشرة. وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطوراً وعلى ألسنة الأحرارمذكوراً، يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن، وخير ما في الشعر تخليد الاسم، ولا يبلغ هذا المقصد ما لم يكن مسطوراً مقروءاً. وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره ومات قبل قائله. وكيف يُخَلِّدُ غيره (يعني الشعر) إن لم يخلد نفسه»[١].

وكان الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ) أديباً بليغاً وخطيباً مفوهاً، وكان ينظم الشعر. فمن شعره حين أسر:

ولا عجباً للأُسْد إنْ ظفرتْ بها ... كلابُ الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشيٍّ سقت حمزة الردى ... وموتُ عليٍّ من حسام ابن مُلجم

قال الذهبي يصف بلاغة المسترشد وفصاحته: «وفد بالناس يوم عيد أضحى فقال: «الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء وعلت على الأرض السماء. الله أكبر ما هَمى سحاب وأنجب طِلاب وسَرَّ قادماً إياب. اللهم أصلحني وذريتي، وأعني على ما وليتني، وأوزعني شكر نعمتك، ووفقني وانصرني».

فلما انتهى المسترشد من خطبته أنشده أحد شعراء هذا العصر وهو أبو المظفر الهاشمي قصيدة طويلة نذكر منها هذه الأبيات:

عليك سلامُ الله يا خيرَ مَنْ علا ... على منبرٍ قد حفَّ أعلامَه النصر
وأفضلَ أهل الأرض شرقاً ومغرباً ... ومَنْ جَدُّه من أجله نزل القطر
لقد شنَّفَتْ أسماعَنا منك خُطْبَةٌ ... وموعظةٌ فصل يلين لها الصخر
ملأتَ بها كل القلوب مهابةً ... فقد رجفت من خَوف تخويفها مصر
فلله عصرٌ أنت فيه إمامُنا ... ولله دينٌ أنت فيه لنا الصدر[٢]

وقد ذكر السيوطي[٣]أن الخليفة الراشد (٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ) كان أديباً شاعراً.

---

(١) المصدر نفسه ٣٧.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٩.

(ب) الطُّغْرائي (ت ٥١٣هـ):

ومن أئمة الأدب في العصر السلجوقي أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد (ويلقب مؤيد الدين الأصفهاني) المعروف بالطغرائي[١]. ولد بأصبهان وأخذ العلم على أئمة علمائها وأدبائها. وكان الطغرائي يسمى الأستاذ لغزارة علمه. وقد وزر للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي بالموصل، فلما قامت الحرب بين مسعود وأخيه محمود وانتصر محمود على أخيه ضم الطغرائي إليه، ولكن الكمال نظام الدين وزير محمود نفس على الطغرائي ورماه بالإلحاد فقتل ظلماً في سنة ٥١٣هـ[٢].

وللطغرائي ديوان شعر معروف. ومن شعره قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم التي نظمها ببغداد في سنة ٥٠٥هـ يصف فيها حاله ويشكو زمانه، ومنها:

أصالةُ الرأي صانتني عن الخطل ... وحليةُ الفضل زانتني لدى العَطَلِ[٣]
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شَرَعٌ ... والشمسُ رأدُ الضحى كالشمس في الطَّفَلِ[٤]
فيمَ الإقامةُ بالزوراء[٥] لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناء عن الأهل صِفْرُ الكفِّ مُنْفَرِدٌ ... كالسيف عُرِّيَ مَتْناهُ عن الخلل[٦]
فلا صديقٌ إليه مُشْتَكَى حَزَني ... ولا أنيسٌ إليه ينتهي جَذَلي
طال اغترابي حتى حنّ راحلتي ... ورحْلُها وقِرى العسَّالةِ الذُّبُلِ[٧]
حُبُّ السلامة يُثْني هَمَّ صاحبه ... عن المعالي ويُغْرِي المرءَ بالكسل
فإنْ جَنَحْتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقاً ... في الأرض أو سُلَّماً في الجو واعْتَزِلِ

---

(١) الطغرائي (بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء بعدها ألف مكسورة) نسبة إلى من يكتب الطغرى (بضم الطاء المشددة وسكون الغين وفتح الراء) وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب في عهده، وهي كلمة أعجمية.

(٢) وقيل سنة ٥١٤ هـ كما قيل سنة ٥١٨ هـ.

(٣) الخطل: العيب والعطل والتعطل.

(٤) يفتخر بأن مجده الأخير الذي هو خلاصة حياته هو امتداد لمجده الأول الموروث عن آبائه، كالشمس في مطلعها شبيهة بها وقت غروبها.

(٥) يقصد مدينة بغداد التي يطلق عليها الزوراء لازورار نهر دجلة عندها.

(٦) يشبه حاله بالسيف المثلوم متناه من الخلل.

(٧) يقصد حتى تاقت راحلتي إلى الانتقال، والرحل: الرحيل. والقرى: كرم النوق المحيلة التي لا تكرم عادة إلا بانتقالها ومسيرها في المراعي النضرة.

ودع غِمار العُلى للمُقْدمين على ركوبها واقْتَنِعْ منهنَّ بالبلل
رضا الذليل بخفض مَسْكَنَةٌ والعز تحت رسم الأيْنُقِ الذُّلُل[١]
إنَّ العلا حدّثتني وهي صادقةٌ فيما تُحَدِّث أنّ العزّ في النُّقَل
لو أنّ في شرف المأوى بلوغَ مُنىً لم تَبْرَح الشمس يوماً دارةَ الحَمَل[٢]
أعَلِّلُ النفس بالآمال أرْقُبُها ما أضْيَقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأَمَلِ

(حـ) شعراء اليمن:

وقد فطن الملك علي الصليحي إلى أهمية الشعر باعتباره وسيلة من أهم وسائل الدعاية للمذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين الذي كان يدين به الصليحيون. وقد استغل علي الصليحي الشعر في الرد على خصومه واستخدمه في الدفاع عن دولته والإشادة بذكرها، فأجزل العطاء للشعراء في اليمن كما فعل الفاطميون في مصر وسورية. وكان علي الصليحي نفسه عالماً فقيهاً متضلعاً في علم التأويل كما كان خطيباً مفوهاً.

وكان الداعي ابن نجيب الدولة الذي آل إليه الأمر في اليمن في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) غزير العلم متفقهاً في الدين. ولعل إشرافه على خزانة المدرسة الأفضلية قد ساعده على الانصراف للعلم والتزود من مورده. ولا عجب فقد كانت مدارس صنعاء والقيروان والقاهرة ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب وتتلاقى في وحدة فكرية عميقة الجذور بعيدةالأثر، وانتهت هذه الكتلة العربية إلى اتحاد شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وتخليص البلاد العربية من هذا العدوان.

وفي عهد بني نجاح (٤١٢ - ٥٥٤/١٠٢١ - ١١٥٩) اشتهر جياش بن نجاح الحبشي صاحب تهامة الذي هرب إلى الهند بعد مقتل أخيه علي بن المكرم بن أحمد الصليحي، ثم عاد بعد موته إلى اليمن وحارب الصليبيين واستعاد تهامة منهم. وكان جياش شاعراً فصيحاً، له ديوان شعر[٣]، وله أيضاً كتاب المفيد في أخبار زبيد الذي اختصره عمارة اليمني[٤].

---

(١) يعني أن الذليل يرضى بالسكن والإقامة في عيش حقير. ومن يريد العيش الكريم والعز الأثيل فعليه أن يركب النوق التي ذللت على السفر واعتادت على الرحيل.

(٢) لو كان في عدم الحركة شرف وعزة وعلى لما تحركت الشمس من مكانها.

(٣) وقد وردت نماذج من شعره في مختصر المفيد لعمارة اليمني ـ لوحة ١٤٨ نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٨٠٤٨ ح.

(٤) الجندي: طبقات فقهاء اليمن ص ١٠٤.

وفي عهد بني نجاح امتاز الوزير مفلح بن منصور الفاتكي بالأدب. وقد أنشد عبد العزيز ابن الحسين بن الحباب الشاعر المصري صاحب ديوان الإنشاء في اليمن قصيدة في مدح هذا الوزير أجازه عليها بخمسمائة دينار، كما أجازه ابنه منصور بن مفلح بثلثمائة دينار بعد أن أنشده قصيدة أخرى في مدحه. ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع (٤٧٦ - ١٠٨٣/٥٦٩ - ١١٧٣) شاعر مصري من أهل الإسكندرية يدعى ابن قلاقس فقال:

سافرْ إذا حاولت قدرا   سار الهلال فصار بدرا

ويعد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني من مشهوري شعراء اليمن. وقد خلف لنا في ديوانه قصائد رائعة في مدح الفائز والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وكبار رجال دولتهم، كما سنرى ذلك واضحاً عند كلامنا على الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين.

(د) الشعر في العصر الفاطمي الأخير
٤٦٦ - ١٠٧٣/٥٦٧ - ١١٧١

حفل العصر الفاطمي الأول بطائفة من الشعراء الذين نظموا قصائدهم في مدح الخلفاء الفاطميين الذين أغدقوا عليهم الخلع والجوائز والأرزاق. ومن هؤلاء الشعراء: ابن هانىء الأندلسي في عهد المعز، ومحمد بن أبي الجَرْع وأبو حامد الأنطاكي في عهد العزيز، وعبد الوهاب بن نصر المالكي الذي وفد على مصر من بغداد في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي.

وقد أمدنا أحد الكتاب المعاصرين، وهو عماد الدين الأصفهاني[1]، بمادة غزيرة عن الدور الذي قام به الشعراء في العصر الأخير من أيام الفاطميين.

ولد أبو عبد الله محمد هبة الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصفهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م). وكان شافعي المذهب درس الفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها، وأتقن المجادلة وفنون الأدب، واتصل بخدمة الوزير عون الدولة بن هبيرة، فأحسن إليه وقربه وشمله بعطفه، فلما توفي هذا الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق حيث تقلد إدارة البريد (١١٦٥/٥٥٢). وفي سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) تولى التدريس بدمشق. ولما توفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ذهب عماد الدين إلى الموصل حيث مرض مرضاً شديداً وظل بها حتى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)، ثم رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي حتى وفاته، فعاد إلى دمشق وعكف على الأدب حتى مات سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠م).

(١) انظر ياقوت: إرشاد الأريب جـ ٨ ص ٨١ - ٩٠، وابن خلكان جـ ٢ ص ٩٧ - ١٠٠.

وهناك كثير من الكتاب المعاصرين، من أمثال عمارة اليمني، أسامة بن منقذ، وابن مُيَسَّر. والعصر الذي تناوله عماد الدين الأصفهاني في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر[١] يمكن تقسيمه قسمين:

الأول: يبحث في الشعراء الذين عاشوا بين سنتي ٤٨٦ - ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ - ١١٥٤م). وذلك في عهد الخلفاء الفاطميين المستعلي والحافظ والظافر.

الثاني: ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا في عهد الفائز والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

ومن هؤلاء الشعراء أبو الفتيان مُفَضّل العسقلاني، وقد جاء إلى مصر فتمتع بصلات الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي. وقد مدحه بقصيدة طويلة جاء فيها:

أقول والنَّجْمُ مرقومٌ بغرته ... سطراً نظرتُ وضوء الصبح مبتسمُ
أماء خدَّيْه أضحى في زجاجته ... يدبرُ أم ماؤها وجنتيه دمُ؟
صيغ الصباحُ ضياءً من مياسمه ... فاستنبطت حلفاً في شعره العُتَم[٢]

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر وأفادوا من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم: أبو الحسن علي بن جعفر بن البُوَيْن[٣]، وهو من أهل معرة النعمان منبت أبي العلاء المعري. وقد حاز ثقة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي قربه إليه وأدر عليه صلاته ولقبه بأمين الملك. ومن قصيدته يمدح الوزير الأفضل:

يا منْ تنافس فيه السمعُ والبصرُ ... كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومَنْ تحكّم في الأرواح فاحتَكَمتْ ... ألا يُحَكّم فيها بعده بشر[٤]

كذلك أمدنا عماد الدين بمعلومات ذات غناء عن الشاعر أبي الحسن علي بن محمد الأخفش وهو من أشراف المغاربة. وقد مدح الخليفتين الآمر والحافظ، من ذلك قوله في إحدى قصائده:

إلى ذروة النور العلائي إنه ... إلى ذروة النور الإلهي يُنْسَبُ

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً جعفر بن أبي زبيد، وقد عبر عما خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر إلى بغداد في قصيدة نذكر منها هذين البيتين:

---

(١) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس.
(٢) المصدر نفسه: ورقة ١٨١ ب.
(٣) المصدر نفسه ورقة ١٤٣ (أ).
(٤) المصدر نفسه ورقة ١١٨ (أ).

وما قصدُنا بغدادَ شَوْقاً لأهلها ... ولا خَفِيَتْ مُذْ قط أبصارنا عنها
ولا أنّنا اخترنا على مصر بلدةً ... سواها ولكن المقادير ساقتنا[1]

ومن الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم في نشر العقائد الفاطمية: أبو الحسن ابن الزُّبد. وقد وصفه عماد الدّين الأصفهاني، نقلاً عن القاضي الفاضل، فقال: «وإنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله». ومما قال يهنىء الخليفة الحافظ بانتصاره على الصليبيين: «الحمد لله الذي فضل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول وجعل أيامه واضحة الحجول والغرر مخصوصة بالفتوح والظفر. يخفق النصر على بنوده، وتسير السعادة أمام جنوده. نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده»[2].

الشعراء بين سنتي ٥٤٩ و٥٦٧هـ (١١٥٤ - ١١٧١م)

ومن الشعراء الذين عاشوا في العصر الفاطمي الأخير: المهَذَّب الحسن بن علي بن الزبير. وقد ذكر عمارة اليمني أن الحسن كان من أشهر شعراء عصره[3]، وقال أيضاً «ولم يكن في زمانه أشعر منه»[4] وهو من الشعراء الذين جذبهم تعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال دولتهم. ومما قاله المهذب في قصيدة طويلة يخاطب فيها الوزير الصالح طلائع بن رُزيك يصف بطولته في الجهاد:

أفارسَ المسلمين اسمعْ، فلا سمعتْ ... عداك غير صليل البيض في القُلل
مقال ناء غريب الدار قد عدم الـ ... أنصار، لولاك لم يسمع ولم يقل
يشكو مصائبَ أيام قد اتّسَقَتْ ... فضاق منها عليه أوْسعُ السبل
وكيف ألقى من الأيام مُرْزِية ... حلّت ولي من بني رُزِّيك كلُّ وَلِي؟

وقد أشاد بعض الشعراء بمدح الفاطميين وأنصارهم وهم في بلادهم لم يفدوا إلى مصر، ومن هؤلاء الشعراء المهذب بن أسعد، وكان من أهل الموصل، ثم قام بالتدريس في مدرسة

---

(١) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (أ).
(٢) المصدر نفسه ورقة ١١٠ ب.
(٣) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٣٥.
(٤) انظر عماد الدين الأصبهاني ورقة ٣٧ ب.

حمص، وكان من أعلام الفقهاء والشعراء النابهين. استمع عماد الدين الأصفهاني لشعره سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧ - ١١٦٨م) حين لقيه بحمص. ومن ذلك ما أنشده ابن سعد في مدح الوزير الصالح طلائع بن رزيك هذه القصيدة التي بعث بها إليه، نقتطف منها هذه الأبيات:

هادي الدعاية أبو الغارات خيرُ فتىً ... أدنى عطياته أدنى أمانيكا
يشكو إليك بنو الآمال فقرَهُمُ ... فينثنون وبيتُ المال يشكوكا
مَنْ أرتضي يا كريمَ الدهر تُنْعِشُني ... جدواه إنْ شعبي في رحابيكا؟
أأمدَحُ الترك أبغي الخير عندهم ... والشعر ما زال عند الترك متروكا[(١)]

وكان الوزير ابن رزيك نفسه شاعراً، ينظم الشعر ويقرب إليه الشعراء، ويذكر عماد الدين الأصفهاني أنه لقي الفقيه والشاعر النابه نصر بن عبد الرحمن (وكان من أهل الإسكندرية) في بغداد سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤ - ١١٦٥م) ونقل عنه قصيدة نظمها الوزير طلائع بن رزيك يرد بها على قصيدة يمتدحه فيها هذا الشاعر، وفيها يقول الوزير:

أهدى لي القاضي الفقيه عرائسا ... فيها بديعُ الوشي من تنميقهْ
فأجلت طرفي في بديع رياضه ... من ورده وبهاره وشقيقه
فكأنما اجتمع الأحبة فانبرتْ ... يد عاشقٍ تهوي إلى معشوقه
نزّهتُ في بستان نظمك ناظري ... فحظيتُ من زهر الرُّبا بأنيقه

(هـ) عمارة اليمني:

خلف لنا أبو محمد نجم الدين عمارة بن أبي الحسن الحكمي سيرته. وكان من أهل تهامة باليمن[(٢)]. وفي سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤ - ١١٥٥م) حج عمارة بيت الله في مكة، وأوفده أميرها القاسم بن فليتة[(٣)] رسولاً إلى مصر، فوصل إليها في غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م)، فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك بالعطف والقبول على أثر إنشاده أولى مدائحه في قاعة الذهب بالقصر. وقد أقام عمارة في مصر إلى شهر شوال سنة ٥٥٠هـ، ثم عاد إلى مكة، حيث أنفذه أميرها بمهمة أخرى (صفر ٥٥١ - إبريل ١١٥٦)[(٤)] إلى مصر، حيث أقام

---

(١) عماد الدين الأصفهاني ورقة ٧٧ (أ) - ١٧٨ (ب).
(٢) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٧ - ٨.
(٣) بضم الفاء وفتح اللام والتاء الأولى وسكون الياء.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٢ - ٣٤، ٤١، ٤٢.

في القاهرة وأصبح من مشاهير شعراء البلاط الفاطمي في عهد الفائز والعاضد. وبلغ من تشجيع الفاطميين له وإغداقهم المنح عليه أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنياً شافعي المذهب. وقدْ ظهرت ميول عمارة للفاطميين ظهوراً واضحاً حتى إنه اتهم بالاشتراك في الحركة التي قامت لإزالة سلطان الأيوبيين وشنق في شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م). ويحسن أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده، وقد أنشدها في قاعة الذهب في القصر:

١ الحمدُ للعِيسْ بعد العزم والهممِ ... حَمْداً يقوم بما أَوْلَتْ من النعمِ
٣ قرَّبن بُعد مزار العز من نظري ... حتى رأيتُ إمام العصر من أمم
٤ ورُحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفْداً إلى كعبة المعروف والكرم
٦ حيث الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُها ... بين النقيضين من عفوٍ ومن نقمِ
٧ وللإمامة أنوارٌ مقدسةٌ ... تجلو النقيضين من ظُلْمٍ ومن ظُلَم
٨ وللنبوة آياتٌ تَنُصُّ لنا ... على الحقيقين من حُكْمٍ ومن حِكَم
١٢ أقسمتُ بالفائز المعصوم معتقداً ... فوزَ النجاة وأجرِ البرِ في القَسَم
١٣ لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما ... وزيرُه الصالح الفراج للغمم
١٧ أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني ... في يقْظتي أنها من جملة الحلم
١٩ ليت الكواكبَ تدنو فأنظمَها ... عقودَ مدحٍ فما أرضى لكم كلمي
٢٠ ترى الوزارةَ فيه وهي باذلةٌ ... عند الخلافة نصحاً غير متهم
٢٢ خليفةٌ ووزير مَدَّ عدلهما ... ظلاًّ على مَفرَق الإسلام والأمم
٢٣ زيادةُ النيل نقصٌ عند فَيْضهما ... فما عسى يتعاطى مِنّة الديم[١]

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الخليفة الفائز ووزيره، كما يحدثنا عمارة نفسه، حيث يقول إنه بعد أن أنشده قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب، ودفع إليه الوزير خمسمائة دينار، وأتته مثلها من السيدة أخت الخليفة، وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة في مناسبات كثيرة، وأقام له أمراء الدولة الولائم في بيوتهم تكريماً له، وانتظم عمارة في سلك جلساء الوزير[٢].

بقي عمارة في مصر ينعم بكرم الدولة الفاطمية، وقبل عودته إلى اليمن أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ابن رزيك، فمنحه الخليفة وأخته ألف دينار، ومنحه الوزير مائتي دينار

---

(١) النكت العصرية ص ٣٢ ـ ٣٤.
(٢) عمارة اليمني: النكت العصرية في الوزراء المصرية ص ٣٧.

لقصيدة أخرى أنشدها له في داره. وكان لتدخل هذا الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت لداعي اليمن السابق وقد مات، فأشير على ولده وورثيه أن يعدل عن المطالبة بها.

ولما مات ابن رزيك وآلت الوزارة إلى شاور[١]، قرب عمارة إليه وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته، فسار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته، ونال الكثير من صلاته[٢].

ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رزيك[٣] وذوي قرباه وغيرهم من الأمراء، وختم كلامه بهذه الكلمات: «ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلُّ نشاطه ولا يُطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم وهنت بعدهم»[٤].

ولما عاد عمارة إلى مصر في شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦)، أحسن إليه الوزير ابن رزيك وبنوه وأهله كل الإحسان، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب، على الرغم من اختلافه وإياهم في المذهب الديني[٥].

وقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين، وأشار إلى ذلك في ديوانه ببضعة أبيات خاطب بها الوزير الذي ألح عليه في التحول إلى المذهب الشيعي، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه؛ ولكن عمارة اعتذر بلباقة[٦]. وهو يشير إلى هذا الاختلاف في العقيدة في هذا البيت:

مـذاهبُهمْ في الجـود مـذهبُ سُنَّـة   وإنْ خـالفـوني في اعتقـاد التشيـع[٧]

ولما مات ابن رزيك (١٩ رمضان سنة ٥٥٦/سبتمبر سنة ١٦١١). أصبح حزن عمارة على وفاته مثاراً لنظم قصائده، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم. وقد نظم في هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب، من أمثال ابن واصل والقلقشندي والمقريزي، كما نظم شعراً كثيراً في الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته. ولكن إخلاصه للفاطميين أقصاه عن عطف الدولة الأيوبية. ونستطيع أن نقف على مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التي وجه بها إلى صلاح الدين، وعنوانها: «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»[٨].

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٣ ـ ١٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٧٦.
(٦) النكت العصرية ص ٤٥.
(٧) ديوان عمارة ص ٢٨٨ و٢٩٣.
(٨) المصدر نفسه ص ٢٨٧ ـ ٢٩١.

ولا غرو فإن تحيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين، وانتهت حياته الحافلة بشنقه لأنه اتهم بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين(١).

(و) البهاء زهير (ت ٦٥٦/١٢٥٨)

«البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم، يجمع إلى حب الخير وفضيلة العفو، قوة الشخصية وشرف النفس وعزة الإباء. وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفائقة خصوصاً في عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان في مثل منصبه».

هكذا استهل الأستاذ مصطفى عبد الرازق مقدمة بحثه عن البهاء زهير(٢).

ينتسب أبو الفضل زهير بن محمد بن علي إلى المهلب بن أبي صُفْرة. ويطلق عليه بعض المؤرخين البهاء زهير الحجازي، ويصفه بعضهم بالمصري، ويطلق عليه آخرون الوصفين معاً.

ولد البهاء زهير بمكة (أو بوادي نخلة على مقربة من مكة) على ما ذكره ابن خلكان(٣) الذي عرفه واجتمع به وشاد بسمو أخلاقه. والبهاء زهير مصري النشأة والروح والعاطفة وفي ذلك يقول:

فرعى الله عهدَ مصرٍ وحيّا ... ما مضى لي بمصر من أوقاتِ
حبّذا النيل والمراكب فيه ... مُصْعِداتٍ بنا ومُنْحَدِراتِ
هاتِ زِدْني من الحديث عن النيـ ... ـلِ ودعني من دجلة والفراتِ

ولد البهاء زهير في ٥ ذي الحجة سنة ٥٨١هـ (فبراير ١١٨٦م) وتوفي في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٦هـ (نوفمبر ١٢٥٨م). ونشأ بمدينة قوص من أعمال صعيد مصر كما ذكر السيوطي(٤)، وكانت قوص من أهم مراكز العلم في مصر في ذلك العصر، حتى قيل إنه كان بها ستة عشر معهداً للعلم(٥).

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٨ - ٢٨٨.
ابن دقماق (جـ ٥ ص ٩٣ - ٩٤)، نقلاً عن ابن المتوج (ت ٧٣٠/ ١٣٣٠) في كتابه خطط مصر المسمى إيقاظ المتغفل المتأمل. انظر الحاشية التي كتبها مسيو ديرنبور (سيرة عمارة: جـ ٢ ص ٥٥٢).
راجع حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٢) ص ٤٤٨ - ٤٦٣.

(٢) مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٨/١٩١٠ ص (١).

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٨٢، ٨٥.

(٤) حسن المحاضرة (طبعة ١٣٢٧ هـ) جـ ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٥) الأدفوي (ت ٧٤٨ هـ) صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأهل الصعيد (القاهرة =

وقد سمع البهاء زهير بقوص بعد أن سمع فيها الحديث ودرس الأدب، ثم انتقل إلى القاهرة واتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل الأيوبي[١]، وبقي في خدمته حتى قبض عليه ابن عمه الملك الناصر داود صاحب الكرك واعتقله بقلعتها. فأقام بهاء الدين بنابلس وحافظ على عهده لنجم الدين حتى عاد إلى ملكه، فعاد بهاء الدين إلى خدمته (٦٣٧هـ)، فكان لذلك «كبير القدر عنده لا يطلع على سره الخفي غيره»[٢].

ويمتاز شعر البهاء زهير بالرقة والعذوبة وشرف المعنى. وله ديوان شعر معروف. ومن شعره يحن إلى صعيد مصر الذي نشأ به وترعرع:

أحنُّ إليكم كلَّ يومٍ وليلةٍ ... وأهذي بكم في يَقْظَتي ومنامي
فلا تنكروا طيب النسيم إذا سرى ... إليكم فذلك الطيبُ فيه سلامي
فهل عائدٌ منكم رسولي بفرحةٍ ... كفرحة حُبْلَى بُشِّرت بغلامِ؟
ويرتاح قلبي للصعيد وأهله ... وعيشٍ مضى لي عندكم ومُقامي
وأهوى ورودَ النيل من أجل أنه ... يمرُّ على قومٍ لديّ كرامِ[٣]

ومن مليح شعر البهاء زهير يتفكه بحال عجوز تتصابى[٤]:

كم ذا التصاغُرُ والتّصابي ... غالطْتِ نَفْسَكِ في الحسابِ؟
لم يَبْقَ فيكِ بَقِيَّةٌ ... إلا التعلُّلُ بالخضاب
لا أقتضيك مودَّةً ... رُفع الخراج عن الخراجِ
ما العيش إلا في الشبا ... بِ وفي معاشرة الشبابِ
ولقد رأيتك في النقاب ... وذاك عنوانُ الكتابِ
وسألْتُ عما تحته ... قالوا عظامٌ في جرابِ
يا هذه ذهب الصِّبا ... فإلى متى هذا التصابي؟

(ز) الشعر في الأندلس:

١ - ابن زيدون:

امتازت الأندلس بجمال الطبيعة واعتدال المناخ والثروة الطبيعية التي تتمثل في المياه

= ١٣٣٣/١٩١٤).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٨١.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ٨٢.

(٣) انظر ديوان البهاء زهير. مصطفى عبد الرازق: البهاء زهير ص ٢٦.

(٤) مصطفى عبد الرازق: البهاء ص ٢٩.

المتدفقة والرياض المزهرة والسماء الصافية، والخبرات الوفيرة. وقد تنافست الأندلس مع الشرق عند قيام الدولة الأموية في هذه البلاد. وكان لهذا التنافس أثره البالغ في ازدهار الحضارة والعمران بصفة عامة والأدب بصفة خاصة، حيث كان للأدباء والعلماء منزلة رفيعة ومكانة مرموقة، فكان منهم الوزراء وحكام الأقاليم والقواد وغير هؤلاء من ذوي الجاه وأصحاب السلطان. وامتاز عصر ملوك الطوائف بازدهار العلوم والأدباء وتشجيع رجال العلم والأدب، فزخر هذا العصر بطائفة من الشعراء والأدباء الذين لا تزال آثارهم إلى اليوم شاهدة بما بلغه الأدب من منزلة رفيعة في هذه البلاد.

ومن أبرز شعراء الأندلس في عهد ملوك الطوائف: الوزير أبو الوليد (أحمد بن عبدالله ابن أحمد) بن زيدون، وينتمي إلى بيت اشتهر بفقهائه وأدبائه. وقد نبغ في الأدب وهو في حداثة سنه، واشتغل بالسياسة، فانضم إلى بني جهور الذين تولوا الحكم في قرطبة بعد سقوط الدولة الأموية، فولوه الوزارة، فحسده أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين بني جهور وقد احتال ابن زيتون كثيراً في طلب الصفح فلم يظفر بطائل، ففر من سجنه إلى إشبيلية واتصل بصاحبها المعتمد بن عباد الذي قربه إليه لعلو كعبه في الأدب[1].

وكان لعلاقة ابن زيدون مع ولادة بنت المستكفي التي اشتهرت بالأدب أثر بعيد في حياته، حتى لقد زخرت بها كتب الأدب، وأضحت قصيدته الشهيرة التي نظمها متشوقاً إلى ولادة من القصائد الخالدة في الأدب العربي بصفة عامة. وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة[2]:

أضْحى التَّنائي بديلاً من تدانينا ... ونـاب عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنْتُم وبِنّا فما أبْتلَّت جوانِحُنا ... شوقاً إليكم ولا جَفَّت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائِرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا
حالت لفقدِكُم أيامنا فغدتْ ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذْ جانِبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا ... ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
إن الزمان الذي ما زال يُضْحكنا ... أُنْساً بقربهمُ قد عاد يُبْكينا
غيضَ العِدى من تساقينا الهوى فدَعوْا ... بأنْ نَغَصَّ فقال الدهر آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانْبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يُخْشى تَفَرُّقنا ... فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

(١) المراكشي: المعجب في أخبار المغرب ص ١٠٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ - ١٠٩.

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا
عليكِ مني سلامُ الله ما بقيتْ صبابةٌ منك تُخفيها فتخفينا

وقد توفي ابن زيدون بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ، وكان له ولد يكنى أبا بكر تقلد الوزارة للمعتمد بن عباد بعد أبيه، وقتل في اليوم الذي سقطت فيه قرطبة في يد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين.

(٢) ابن عمار:

ومن أشهر الشعراء في عصر ملوك الطوائف أيضاً: الوزير أبو بكر محمد بن عمار (ت ٤٧٩هـ)، وقد سار على نهج ابن هانىء الأندلسي الذي أطلق عليه لقب متنبي المغرب، وإن كان عبد الواحد المراكشي يفضل ابن عمار أحياناً على ابن هانىء فيقول: «ربما كان أحلى مَنْزَعاً منه في كثير من شعره».

وينسب ابن عمار إلى مدينة شِلْب (بكسر الشين وسكون اللام) التي نشأ فيها وأخذ الأدب على علمائها. ثم رحل إلى قرطبة فأتم دراسته، ونبغ في نظم الشعر وتكسب به وجال في الأندلس مادحاً الملوك ابتغاء منحهم وعطاياهم[١]، ولم يقتصر مدح ابن عمار على الملوك والأمراء بل مدح السوقة طلباً للرزق، وظل على هذه الحال إلى أن اتصل بالمعتضد بالله أبي المعتمد بن عباد، فمدحه بقصيدة استهلها بقوله:

أدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انْبرى والنجمُ قد صرف العنان عن السُّرى[٢]
والصُّبحُ قد أهدى لنا كافورةً لما استردّ الليلُ منه العَنْبَرا

ثم يخلص ابن عمار إلى مدح المعتضد فيقول:

عَبَّادُ المُخْضَرُّ نائلُ كفه والجود قد لبس الرداء الأغْبرا
قداحُ زَنْد المجد لا ينفك مِن نار الوغى إلا إلى نار القِرى[٣]

وقد وقعت هذه القصيدة من نفس المعتضد موقعاً حسناً، فأمر لابن عمار بمال وثياب ومَرْكب وألحقه بديوان الشعراء، ثم اتصل بالمعتمد بن عباد اتصالاً وثيقاً حتى إنه كان لا يفارقه ليلاً أو نهاراً، فاتخذه وزيراً حين ولاه أبوه ولاية شِلْب.

وقد قام ابن عمار بدور سياسي هام في المفاوضات التي دارت بين المعتمد بن عباد

---

(١) المصدر نفسه ص ١١١.
(٢) بضم السين المشددة وفتح الراء السفر ليلاً.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٤، ١١٥.

والفونس السادس زعيم نصارى الأندلس[١]. على أن المعتمد بن عباد قد ساورته الشكوك في إخلاص وزيره ابن عمار، إذ كان يطمع في انتزاع أحد الأقاليم الشمالية التابعة لابن عباد ليكون ملكاً مستقلاً. ولكن ابن عباد اكتشف هذه المؤامرة وأمر بتقييده وحمله إلى مدينة قرطبة (وكان المعتمد قد انتزعها من بني جهور)[٢]، فسجن، فكتب ابن عمار أشهر قصائده متوسلاً طالباً العفو. ومن هذه القصيدة:

سجاياك إنْ عافَيْتَ أندى وأسْجح[٣] ... وعذرك إنْ عاقبت أجلى وأوضحُ
وإنْ كان بين الخُطّتين مزيةً ... فأنت إلى الأدنى إلى الله تجنح
حنانَيْك في أَخْذي برأيك لا تُطع ... عداي ولو أثْنوا عليك وأفصحوا
فإنّ رجائي أن عندك غيرَ ما ... يخوض عدوي اليومَ فيه ويمرح
ولِمْ لا وقد أسلفت وُداً وخدمة ... بكران في ليل الخطايا فيُصْبح
وهبني وقد أعقبت أعمال مُفْسد ... أما تَفْسُد الأعمالُ ثمتَ تَصْلح
إقِلْني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله بابٌ مُفَتح
وعفٍّ على آثار جُرم سلكتُها ... بهَبَّة رُحْمَى منك تمحو وتُمْصِحُ[٤]
ولا تلتفتْ قول الوشاة ورأيَهُم ... فكل إناءٍ بالذي فيه يرشح
وماذا عسى الواشون أن يتزيّدوا ... سوى أنّ ذنبي واضح مُتَصَحِّحُ

ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً في سنة ٤٧٩هـ[٥].

(٣) الشعر الفني: الزجل والموشحات:

ذكر المقري أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وعذوبة ألفاظه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منوال التوشيح، ونظموا في طريقتهم بلغتهم العامية الحضرية، من غير أن يلتزموا فيه إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزّجل، والتزموا النظم فيه على طريقتهم، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة. وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كان هذا النوع من الشعر قد استعمل من قبلُ بالأندلس؛ لكن لم تظهر حُلاها ولا انسكبت معانيها إلا في زمانه. ويعد ابن قزمان إمام الزجالين على الإطلاق؛ وليس أدل على ذلك من قول ابن سعيد المقري (ت ٦٧٣/١٢٨٥): «رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر

(١) المصدر نفسه ص ١١٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٤.
(٣) السجاحة: غزارة الماء ويقصد بها الكرم.
(٤) تمصح: أي تزيل.
(٥) المعجب ص ١٢٥ - ١٢٦، ١٢٧.

المغرب». وهذا يدل على أن أهل المشرق قد اقتبسوا الأزجال عن المغرب كما عرفوا فن التوشيح عن الأندلس أيضاً. كما يقول ابن سعيد: سمعت أبا الحسن بن جَحْدر الإشبيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة.

وقد خرج ابن قزمان إلى متنزَّه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر فقال:

وعريشٍ قد قام على ركانٍ	بحال الرواقْ
وأسدٍ قد ابتلع ثعبان	من غِلَظ ساق
وفتح فَمُو بحال إنسان	به الفُواق
وانطلق مِنْ ثَمَّ على الصفاح	وألقى الصباح

ونرى أن هذا الشعر لا يلتزم وزناً ولا قافية ولا انتظاماً بين شطري البيت الواحد، كما تلاحظ أن بهذا الشعر كلاماً ملحوناً وكلاماً عامياً؛ فمن الخطأ النحوي قول ابن قزمان «ابتلع ثعبان»، ومن الخطأ اللغوي قوله «فتح فَمُو». وهذا يدل على أن هذا الشعر قد قيل بالعامية ولم تراع فيه المقاييس أو اللغة أو العرف الشعري بخلاف التوشيح، فإنه وإن كان لم يسر على نظام القصيدة العربية، قد روعي فيه التزام قواعد النحو واللغة، وهذا هو الفرق الأصيل بين التوشيح والزجل.

ومع أن ابن قزمان كان قرطبي الدار كان يتردد على إشبيلية ويقول فيها كثيراً من أزجاله لحضارتها وجمال طبيعتها وشدة إقبال الناس على سماع أزجاله فيها[1]. ولا ريب أن ابن قزمان قد نهض بفن الزجل نهضة لم يسبق إليها، وأنه كان رائداً للزجالين الذين جاءوا بعد عصره.

ويحسن أن نعرض في إيجاز للشعر الفني في هذا العصر الذي خصصناه في هذا الجزء الرابع حيث نلمس تطوراً في الشعرالعربي بالأندلس: في أوزانه وقوافيه وفي نظامه بصفة عامة. وكان ذلك التطور راجعاً إلى طبيعة الأندلس الجميلة التي تتميز بالأنهار الجارية والجنان المزهرة والأشجار المشرقة والطيور المغردة والجبال المنيفة والروابي السحيقة والطبيعة التي لا تستقر على حال. كل هذا قد تحكم في الخيال الشعري وفي الشعر العربي، فتغنى الأندلسيون بطبيعتهم وجمال بلادهم، ولم يستطيعوا أن يحصروا شعورهم في تلك القيود الشعرية التقليدية التي نقلوها عن المشرق، بل انطلقوا يعبرون عن إحساسهم ومشاعرهم بلغة حرة، فتخلصوا من هذه القيود في قصائد لم تلتزم وزناً ولا قافية ولم تلتزم نظاماً معيَّناً في القصيدة. وقد أطلق على هذا

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

النوع من الشعر اسم «الموشحات».

وكان أول من برع في هذا النوع «مقدم (بضم الميم وفتح القاف والدال مع التشديد) القبّري» من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني. وقد عاش مقدم هذا في صدر الدولة الأموية بالأندلس، ثم أخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد. وكان أول من ظهر في هذا الميدان بعدهما عُبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المريّة. وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما وجد له من قوله:

بَدْر تَمّ(١) شَمْس ضُحى غُصْنُ نقًى مسك شمّ
ما أَتَمّ(٢) ما أوضحا ما أورقا(٣) ما أَنَمّ(٤)
لا جَرَمْ(٥) من لمحا(٦) قد عَشقَا قد حُرم

ثم جاء فريق الموشحين في عصر المرابطين، فنهضوا بالموشحات نهضة مباركة. وعلى رأس هؤلاء الموشحين الأعمى التطيلي، ثم يحيى بن بَقِيّ. ومن موشحات التطيلي قوله:

كيف السبيلُ إلى صبري وفي المعالم أشجان
والرّكب(٧) وسْط الفلا بالخُرّدِ(٨) النواعمِ قد باتوا(٩)

ومن قول التطيلي أيضاً:

ضاحكٌ عن جُمان(١٠) سافرٌ عن بَدْرِ
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

وممن اشتهر بالموشحات في صدر الدولة الموحدية: محمد بن أبي الفضل بن شرف، وابن

---

(١) يقصد البدر قد بلغ التمام في ليلة الرابع عشر من الشهر الهجري.
(٢) يعني أن محبوبته قد بلغت الكمال.
(٣) يشبه محبوبته هنا في الرونق بالشجرة المورقة.
(٤) من النمو.
(٥) لا شك.
(٦) يلاحظ أن الألف للإطلاق لوزن الشعر ومثلها عشقا.
(٧) الركاب عامة ويعني هنا ركاب الإبل.
(٨) جمع خريدة وأصلها اللؤلؤة قبل الثقب أطلقت على الفتاة العذراء.
(٩) باتوا فارقوا الحي.
(١٠) الجمان اللؤلؤة يشبه بها أسنان محبوبته.

هردوس (بكسر الهاء وسكون الراء وفتح الدال ولعله اسم محرف عن الإسبانية)، الذي يقول:

يا ليلة الوصل والسعود بالله عودي

ومن موشحي الموحدين: ابن مؤمَّل الذي يقول:

ما العيد في حُلّةٍ وطاقِ وشَمِّ طِيب
وإنما العيد في التلاقي مع الحبيب

ومن هؤلاء الموشحين في عهد الموحدين أبو إسحاق الدُّوَيْني الذي قال عنه ابن سعيد المغربي: سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول: إنه (أي الدويني) دخل على ابن زُهر وقد أسنّ وعليه زي البادية إذ كان يسكن بحصن سَبْتة، فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرَّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها (أي جاء فيها):

كُحْلُ الدُّجى يَجْري من مُقْلة الفجرِ على الصباحْ
ومِعْصَمُ النهر في حُلَلٍ خُضرٍ مِنَ البطاحْ

فتحرك ابن زهر وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبره، فقال: ارتفع فوالله ما عرفتك(١).

وممن اشتهر بالموشحات في عصره أبو بكر بن زهر الطبيب الفيلسوف الذي «شرَّقتْ موشحاته وغرَّبت» على حد تعبير ابن سعيد الأندلسي. وقد نسب إلى ابن زهر قوله:

ما للمُوَلَّه(٢) من سُكره لا يُفيق يا له سكرانْ
من غير خمرِ ما للكئيب المَشوق يندُب الأوطانْ
هل تُستعاد أيامُنا بالخليج ولياليـنا ؟
إذْ يستفاد من النسيم الأريج(٣) مسكُ دارينا
وإذْ يكاد حُسْنُ المكان البهيجِ أنْ يُحيينا
نَهْرٌ أظلَّه دَوْحٌ(٤) عليه أنيق مورقٌ فَينانْ(٥)
والماء يجري وعائمٌ وغريق مِن جَنَى الرَّيحان(٦)

---

(١) نفح الطيب جـ ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٣.

(٢) من الوله (بفتح الواو واللام) الحيران الحزين. (٤) الدوح: الشجر الملتف.

(٣) ذو الرائحة الزكية. (٥) من الفنن (بفتح الفاء والنون) الغصن.

(٦) يقصد أن النهر قد نثرت عليه الرياحين، فمنها العائم ومنها الغريق، وقد أوجدت جواً عطرياً، فالرائي ينظر ماء كالفضة ويشم رائحة عطرية ويعجب بهذه الطبيعة التي تتفنن في الجمال.

ومما هو جدير بالذكر أن فن الموشحات الذي هو من ابتكار مسلمي الأندلس قد نهض نهضة ملموسة في عهد ملوك الطوائف وفي عهد المرابطين والموحدين كما ذكرنا.

الشعر في المغرب

الحصري:

ويعتبر الشاعر القيرواني المشهور أبو الحسن علي بن عبد الغني الكفيف المعروف بالحصري زعيم صناعة الشعر في عصره. وقد ولد بالقيروان ونشأ بها واشتهر أمره وذاع ذكره فيها. ولما غزا الهلاليون تونس ودمروا مدينة القيروان وحطموا مسجدها الجامع، فر الحصري محزوناً إلى مدينة سَبْتة بالمغرب الأقصى، ومنها إلى بلاد الأندلس، وذلك في منتصف القرن الخامس الهجري، فتنافس عليه ملوك الطوائف لذيوع شهرته وعلو مكانته الأدبية.

وكان أبو الحسن الحصري معاصراً لأبي العلاء المعري[1]، وهما يجتمعان في الأدب وفقد البصر، ولكنهما يختلفان في كثير من الأمور؛ فقد عاش أبو العلاء في عزوبة وعزلة، وكان عفيف اللسان كريم الخلق لا يميل إلى الهجاء، يغلب على شعره الحكمة والموعظة، على حين نرى الحصري قد تزوج بمن هي دونه في السن بالشيء الكثير حتى فارقته، كما كان يتكسب بشعره، مولعاً بهجاء الناس. وقد وصفه ابن بسام[2] بقوله «كان فيما بلغني ضيق العطن[3] مشهور اللّسن يتلفّت تَلفُّت الظمآن إلى الماء... اشتملت عليه مدينة طنجة (بعد أن خلع ملوك الطوائف). وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه[4]، وله على ذلك سجع يَمَجُّ أكثره السمع، لم يسمح نقدي أن أكتبه ولا راقني أن أرويه، وما أراه يسلك إلا سبيل المعري فيما انتحاه، وكان هو وإياه كما وصف العباس بن الأحنف:

هي الشمس مسكنها في السماء   فَعَزِّ الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع إليها الصعودَ   ولن تستطيع إليها النزولا»

وإن قصيدته الشهيرة التي خلفها لنا في كتابه «زهر الآداب وثمر الألباب» والتي استهلها بقوله:

---

(١) انظر ما ذكرناه عن أبي العلاء المعري في الجزء الثالث من هذا الكتاب (الطبعة السابعة، القاهرة ١٣٦٥) ص ٣٦٥ ـ ٣٦٨.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة جـ ١ القسم الرابع ص ١٩٢.

(٣) يعني أنه كان عصبي المزاج يضيق بالناس.

(٤) يقصد بذلك أنه قد ضاق بالناس وبالحياة بعد زوال حكم ملوك الطوائف الذين يغدقون عليه الأرزاق فرجع إلى هجاء الناس والضيق بالحياة.

يـا لـيـلُ الصَّبُّ متى غـدُهُ　　أقـيـامُ الـسـاعـةِ مَـوْعِـدُهُ

قد عارضها كثير من الشعراء والشواعر في كثير من العصور والبلدان، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن الأبار البلنسي، وإسماعيل الزبيدي اليماني، وشمس الدين الحصري الدمشقي[١]، وناصر الدين الأرجاني، ومن المحدثين: أحمد شوقي، وإسماعيل صبري، وولي الدين يكن، وعاتكة الخزرجية العراقية.

ولا بأس أن نذكر بعض أبيات في معارضة الشاعر ولي الدين يكن لذيوع شهرته:

الحُسْنُ مكـانُـك مَعْبَـدُه　　واللحظُ[٢] فؤاديَ مَغمِـدُه[٣]
يـا سـيـدتي هـذا حُـرٌّ　　لم يـعـرفْ قَـبْـلَكِ سَـيِّـدَه
الـلـيـل وطـيـفُـك يـعـرفـه　　إنْ كـان فـؤادك يجْـحَـدُه
كم يـوحي طرفُـك لي غـزلاً　　وأنـا في شِـعْـريَ أُنْـشـده
وتـسـاجـلني الأطـيـارُ هَـوًى　　في الـدَّوْحِ[٤] أبـيـت أُرَدِّدُه
للصبـح سنـاؤك[٥] أبْيَضُـه　　لـلـيـل غـرامِـيَ أسـودُه[٦]
أحببتُ قـلاك[٧] فمطْلقُـه　　عـنـدي عـذبٌ ومُـقَـيَّـدُه
إنْ ضـلَّ حنانُـكِ عن قلبي　　فـأنـا بـولـوعـي أُرْشِـدُه
شـوقـي إنْ بنـتِ يضـاعـفـه　　صـبري إن جُـرْتِ يؤكده[٨]
خِـلاَّن هـمـا شمسـا فَلكٍ　　طـرفي مع طـرفـك يـرصـده

ومن آثار الحصري ديوان زهر الآداب وثمر الألباب الذي تقدمت الإشارة إليه وكتاب المصون في سر الهوى المكنون. وله ديوان «المُعَشّرات». وهو في شعره في هذا الديوان وفي ديوان

(١) وكثيراً ما وقع اللبس عند الأدباء في الحصري القيرواني والحصري الدمشقي.
(٢) اللحظ: العين أو نظرتها.
(٣) المغمد (بفتح الميم الأولى وكسر الميم الثانية) غمدت السيف ويريد أن يقول:
أنت معبد الحسن في هذه الدنيا ومحج عشاقه　　وقـلبي غـمـد لسهم لحظك الـفتـاك
(٤) الدوح: الشجر الملتف.
(٥) السنى: الضوء.
(٦) يقصد أن بياض الصبح مصدره نورها وغرامي يثير آلامي فكأن سواد الليل مأخوذ من غرامي.
(٧) القلى: الصدود.
(٨) في كلمة شوقي تورية، يقصد شوقي الشاعر وشوقه بمعنى الحب وهو المقصود، فحيثما تبعد يضاعف كلفه بها. وفي لفظة صبري تورية كذلك، فأحد المعنيين صبري الشاعر والمعنى الثاني الصبر على بعدها.

«ذيل الاقتراح» متأثر بأبي العلاء المعري في لزومياته في التقيد فيما ليس بضروري من قيود فيما نظم. فقصائد «المُعَشَّرات» مرتبة على حروف الهجاء، وكل قصيدة منها عشرة أبيات تبدأ جميعها بحرف الهجاء في القافية. فإذا كانت القصيدة من قافية الهمزة أو التاء أو الظاء، جاءت أبياتها العشرة مبدوءة بالحرف نفسه. وقصائد ديوان «ذيل الاقتراح» عددها تسع وعشرون بعدد حروف الهجاء. وكل قصيدة منها خمسة عشر بيتاً يلتزم الحرف الواحد في أوائل الأبيات وأواخرها.

ولأبي الحسن الحصري ديوان فريد في نوعه سماه «اقتراح القريح واجتراح الجريح» في رثاء ولده عبد الغني الذي أنجبه من زوجته التي هجرته ومات وهو في التاسعة من عمره، إذ تركته أمه فآثره أبوه على إخوته ومنحه كل عواطف الأبوة وحنانها. فلما مات هذا الابن أفرغ الشاعر المحزون أحزانه وأشجانه في ديوان كامل من الرثاء ربما كان الديوان الوحيد في العربية في رثاء ولد.

ومما يثير الأسف أن الباحثين في ميدان الأدب لم يوفوا هذا الشاعر حقه من البحث ودواوينه من الدراسة الواجبة. ولكنه ظهر في تونس أخيراً كتاب «أبو الحسن الحصري القيرواني» للأستاذين الكيلاني بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقي. وقد تناول هذان المؤلفان حياة أبي الحسن الحصري كما تناولا الكلام عن تراثه الأدبي[١].

(٢) النثر

(أ) الحريري:

ظهر بين كتاب العرب كتاب ألفوا كتابة النثر المسجوع متأثرين في ذلك بالقرآن الكريم وخطب الجاهلية، كخطب أكثم بن صيفي الذي يقول: «أيها الناس! من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت. . . الخ». وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه.

وقد ظهر هذا النوع في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في خطب الخلفاء وعمال الأقاليم، ثم تطور هذا الفن على أيدي الكتاب المحترفين من أمثال ابن نباتة (ت ٣٧٤/ ٩٨٤)، كما تطور على أيدي كتاب البلاط من أمثال إبراهيم بن هلال الصابي (٣٨٤/ ٩٩٤). ومن ثم أصبح من مميزات الأدب الذي التزمه الأدباء. ومن هنا ظهرت طائفة

(١) انظر مقال الدكتورة عائشة عبد الرحمن في جريدة الأهرام (صفحة الأدب) في ١٣ يناير ١٩٦٤.

من بين كتاب العربية من العرب والفرس ابتدعوا فناً خاصاً من بين فنون الأدب يدعى فن المقامات. وإلى بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨/١٠٠٧) يرجع الفضل في ابتكار هذا النوع الجديد المميز من السجع المعروف باسم المقامات.

والمقامة حكاية تقال في مقام معين على نحو ما صنع أبو محمد القاسم الحريري (ت ٥١٥/١١٢١)[١] صاحب المقامات المشهورة التي تشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب والحكم والأمثال والأشعار النادرة التي تدل على سعة اطلاعه وغزارة مادته وطول باعه وعلو مقامه في عالم الأدب. ويرى نيكلسون[٢] أن الحريري دون بديع الزمان من حيث الابتكار والابتداع، على حين أن الحريري أغزر مادة وأكثر وأشد تعمقاً في اللغة مما جعل لمقاماته منزلة خاصة جعلتها في المنزلة الثانية بعد القرآن الذي يعتبر كنز اللغة العربية الذي لا ينفد والحديث الشريف، كما يرى نيكلسون أن مقامات الحريري تحفة أدبية رائعة.

ويعزى السبب الذي من أجله وضع الحريري مقاماته، إلى أنه كان جالساً في المسجد ببني حرام، فدخل شيخ رقيق الحال رث الثياب تبدو عليه أهبة السفر؛ وكان هذا الرجل فصيح العبارة، فسأله الحاضرون من أين الشيخ؟ فقال من سروج[٣]، فسألوه عن كنيته فقال: أبو زيد؛ فوضع الحريري مقامته الأولى المعروفة بالحرامية أو السروجية وعزاها إلى أبي زيد السروجي. فلما بلغ خبر هذه المقامة الوزير الفارسي والسياسي المشهور أبا نصر شروان بن خالد وزير الخليفة المسترشد[٤]، أعجب بها وأشار على الحريري بأن يضم إليها غيرها، فأتمها خمسين مقامة.

وقد أشار الحريري إلى هذا الوزير بقوله: «فأشار من إشارته حُكم وطاعته غُنم إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع[٥] وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع»[٦].

---

(١) ولد الحريري في البصرة سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ومات بها.

(٢) Lit. Hist. of the Arabs, p. 329.

(٣) هي مدينة في سواد العراق قريبة من الرها.

(٤) توفي هذا الوزير سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م)، وهو صاحب تاريخ السلاجقة الذي طبعه «هوتسما» (ليدن ١٨٨٩) ضمن مؤلف البنداري.

(٥) يقصد أن يسير فيها على نهج بديع الزمان الهمذاني في رسائله أو مقاماته. ويعتبر بديع الزمان أول من وضع المقامات بالمشرق.

(٦) وهو يشبه نفسه بالظالع أي المائل عن الطريق المستقيم، ويشبه بديع الزمان بالضليع أي القوي، وهو يقصد تأدباً منه أن مقاماته لا ترقى إلى منزلة مقامات بديع الزمان لأن الفضل للسابق. انظر مقامات الحريري (طبعة القاهرة ص ٥).

وللحريري أيضاً «ملحمة الإعراب» وهي منظومة في النحو، و«درة الغواص في أوهام الخواص»، وله أيضاً ديوان رسائل وشعر غير شعره الذي أنتجه في ثنايا المقامات.

وقد حقد على الحريري طائفة من أدباء عصره وطعنوا في نسبة هذه المقامات إليه، فاستقدمه الوزير شروان وطلب منه أن ينشيء رسالة في موضوع عينه هذا الوزير، فلم يوفق في هذا المقام فخرج، وبعد حين قدم إلى الوزير عشر مقامات.

وكان الحريري ضئيل الجسم زري المنظر عصبي المزاج، يقتلع شعرات لحيته إذا اشتغل بالتفكير أو الكتابة. ولكنه مع هذا كان موضع تقدير الناس وإكبارهم. ويحكى أن شخصاً زاره، وأراد أن يتلقى عليه شيئاً من العلم لذيوع شهرته، فلما وقع بصره عليه استزرى منظره فأدرك الحريري ما دار في نفسه. ولما طلب هذا الشخص إلى الحريري أن يملي عليه شيئاً من الأدب قال له: اكتب! وأملاه هذين البيتين:

ما أنت أول سارٍ غَرّه قمرٌ ورائِد أعجبته خُضْرَة الدِّمَن[1]
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مِثل المُعَيْدي[2] تسمع بي ولا تَرَني[3]

اشتملت مقامات الحريري على فوائد جمة عددها في قوله: «وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خالدة وروية ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله، وغرر[4] البيان ودرره وملح الأدب ونوادره؛ إلى ما وشّحتُها[5] به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي[6] النحوية والفتاوي اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المُحَبَّرة[7] والمواعظ المبكية والأضاحيك

(١) يشير إلى الحديث النبوي وهو قوله ﷺ: إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء. ويشير الرسول إلى أن النبات يخرج رائعاً شديد الخضرة فوق السماد المتخلف من فضلات الحيوان.

(٢) بضم الميم وفتح العين وسكون الباء وفتح الياء الثانية مع التشديد.

(٣) يشير إلى المثل العربي: لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، والمعيدي شخص قميء المنظر ذو شهرة. انظر ابن خلكان جـ ٣ ص ٢٢٧ - ٢٣١.

(٤) جمع غرة وهي خيار الشيء.

(٥) من الوشاح وهو القلادة.

(٦) جمع أحجية وهي الأغلوطة يختبر بها العقل.

(٧) من التحبير وهو التزين.

المُلْهية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السَّروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري(١). وما قصدت بالإحماض(٢) فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه. ولم أودِعْه من الأشعار الأجنبية إلى بيتين فذَّيْن(٣) أسست عليهما بنية المقامة الحُلْوانية وآخرين توأمين(٤) ضمنتهما خواتم المقامة الكَرَجية. ما عدا ذلك فخاطري(٥)أبو عُذْره(٦)، ومقتضب(٧) حُلوه ومُره(٨) (أي جيده ورديئه).

ولنبدأ بتقديم المقامة الأولى التي أنشأها الحريري، والتي لفتت نظر الوزير «شروان» إذ يقول الحريري في هذه المقامة التي سماها «الحرامية»: روى الحارث بن همام عن أبي زيد السَّروجي قال: ما زلتُ مذ رحلتْ عَنْسي(٩) وارتحلتُ عن عِرْسي(١٠)وغَرْسي(١١)أحن إلى عِيان(١٢) البصرة حنين المظلوم إلى النصرة، لِما أجمع إليه أرباب الدراية وأصحاب الرواية وعلمائها من خصائص معالمها ومآثر مشاهدها وشهدائها، وأسأل الله أن يُوَطِّئني ثراها لأفوز بمراها(١٣)، وأن يُمْطيني قَراها(١٤) لأفْتري(١٥) قُراها، فلما أحلّنيها الحظ وسرح لي فيها اللحظ.

رأيتُ بها ما يملأ العينَ قُـرَّةً(١٦) ويُسلي عن الأوطان كلَّ غريب

فغلَّست(١٧)في بعض الأيام حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو المنذر (١٨) بالنُّوَّام، لأخْطُوَ في خططها وأقضي الوتر من توسُّطها، فأداني الاختراق في مسالكها والانصلات (١٩) في

---

(١) يقصد نفسه، وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام: كلكم حارث وكلكم همام.

(٢) الإحماض: الانتقال من أسلوب إلى آخر، مأخوذ من إحماض الإبل وهو انتقالها من مرعى حلو إلى مالح.

(٣)الفذ الفرد وأحد البيتين للوأواء الدمشقي والثاني للبحتري.

(٤) التوأم المولود مع آخر في بطن واحد، سمي البيتان بذلك لكونهما لقائل واحد وهو ابن سكرة.

(٥) يريد قلبه.

(٦) يقال هو أبو عذرها إذا كان هو الذي اقتضها؛ والأصل فيه أبو عذرتها، فحذفت التاء منه، والمراد أنه أول قائل لهذا الكلام.

(٧) يعني الحريري نفسه. والمقتضب المرتجل خطبة أو شعراً من اقتضب الغصن أي اقتطعه على البديهة.

(٨) مقامات الحريري ص ٦ ـ ٧.

(٩) العنس: الناقة القوية.

(١٠)العرس: الزوجة.

(١١)الغرس: الأولاد.

(١٢)العيان: المشاهدة.

(١٦) يقصد مرآها.

(١٧) أي يركبني ظهرها.

(١٨) أفتري: أتبع.

(١٩) قرة أي سروراً.

(١٣) أي خرجت في الغلس وهو ظلمة آخر الليل عند بزوغ الفجر.

(١٤) كنية الديك.

(١٥) الانصلات: الخروج بسرعة والسير السريع،

سككها إلى مَحَلة(١) موسومة(٢) بالاحترام، منسوبة إلى بني حرام(٣)، ذات مساجد مشهودة وحياض موروودة، ومبان وثيقة ومغان أنيقة، وخصائص أثيرة(٤) ومزايا كثيرة.

بها ما شئت من دينٍ ودنيا وجيرانٍ تنافَوْا(٥) في المعاني
فمشغوف بآيات المثاني(٦) ومفتون برنّات المثاني(٧)
ومضطلع بتلخيص المعاني ومطلع إلى تخليص عاني(٨)
وكم من قارئٍ فيها وقارٍ أضرّا بالجفون والجفان(٩)
وكم من مَعْلَم للعلم(١٠) فيها ونادٍ للندا(١١) حُلوِ المجاني(١٢)
ومَغْنَى(١٣) لا تزال تُغنُّ فيه أغاريدُ الغواني(١٤) والأغاني
فصِلْ إنْ شئتَ فيها مَنْ يُصَلِّي وإمّا شئتَ فادْنُ من الدِّنان(١٥)
ودونك صُحْبَةَ الأكياس فيها أو الكاسات منطَلِقَ العنان(١٦)

من ذلك نرى أن الحريري غني بمادته اللغوية، إذ استعمل كثيراً من الألفاظ اللغوية التي تحتاج إلى تفسير. كما نرى أنه يقول الشعر عن طبع وموهبة متصرفاً في شعره تصرف الواثق من نفسه، لغزارة أدبه وسعة اطلاعه وعلو باعه. ونراه أيضاً قد التزم السجع التزاماً، وأكثر من المحسنات البديعية الأخرى، ولا سيما الجناس الذي كان يقوله تاماً وناقصاً. فمن التام قوله بآيات المثاني ورنات المثاني في البيت الثاني، إذ يقصد بالمثاني الأولى آيات القرآن الكريم وبالمثاني

(١) أي منزلة.
(٢) موسومة أي معروفة.
(٣) بنو حرام قبيلة معروفة.
(٤) الخصائص الفضائل والأثير ذو الفضل يعني أنه يتمتع بمزايا مأثورة ممتازة.
(٥) تنافوا: اختلفوا.
(٦) أي مفتون بقراءة القرآن.
(٧) أي مفتون بنغم أوتار العود.
(٨) أي فك أسير.
(٩) الأول من القراءة والثاني من القرى للضيف.
(١٠) أي مدرسة.
(١١) يقصد مجلس الكرم.
(١٢) المجاني الثمار.
(١٣) المغنى المنزل.
(١٤) جمع غانية وهي التي استغنت بجمالها عن الزينة.
(١٥) يعني أنك مخير بين أن تجلس مع العباد المصلين أو مع أهل السكر الغاوين.
(١٦) مقامات الحريري ص ٥٥٧ ـ ٥٥٩.

الثانية رنات أوتار العود. واللفظان متفقان في الشكل وعدد الحروف وترتيبها، فهو من الجناس التام، ومن الجناس الناقص قوله في البيت الثالث تلخيص المعاني وتخليص عاني. فبين كلمتي تلخيص وتخليص جناس ناقص وبين المعاني وعاني جناس ناقص أيضاً.

وقد أنشأ الحريري مقامته الصنعانية في صنعاء حاضرة اليمن التي يعتقد أنها أول بلدة صنعت بعد طوفان نوح عليه السلام. وجعل هذه المقامة الأولى، وكان بطلها أيضاً أبا زيد السروجي الذي سماه سراج الغرباء وتاج الأدباء، ولم يستطع الحارث بن همام (وهو الحريري) أن يكلم السروجي إجلالاً له واحتراماً، فسأل عنه تلميذه قائلاً: «عزمتُ عليك بمن تستدفع به الأذى لتُخْبِرَني مَنْ ذا، فقال هذا أبو زيد السروجي».

قال الحريري في هذه المقامة: حدث الحارث بن همام قال: لما اقتعدت غارب[١] الاغتراب وأتتني المتربة[٢] عن الأتراب[٣]، طوَّحَتْ بي طوائح الزمن إلى صنعاء اليمن، فدخلتها خاويَ الوفاض[٤] بادي الإنفاض[٥]، لا أملك بلغة[٦] ولا أجد في جرابي مُضْغة[٧]، فطفقت أجوب طرقاتها مثل الهائم وأجول في حرماتها جَوَلان الحائم[٨]، وأرود في مسارح لمحاتي ومسايح غدَواتي ورَوْحاتي، كريماً أُخلق له ديباجتي[٩] وأبوح إليه بحاجتي، أو أديباً تُفرج رؤيته غُمَّتي[١٠] وتُرْوي راويته غلتي[١١] حتى أدتني خاتمة المطاف وهدتني فاتحة الألطاف إلى ناد رحيب... فرأيت في بُهْرة[١٢] الحلقة شخصاً شَخْتَ[١٣] الخلقة... يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه. وقد أحاطت به أخلاط الزمر إحاطة الهالة بالقمر والأكمام[١٤]

---

(١) غارب كل شيء أعلاه ويريد أنه تغرب عن الوطن.

(٢) المتربة الفقر.

(٣) جمع ترب وهو أمثال الشخص.

(٤) أي فارغ الوفاض والوفاض هو الشيء الذي يضع فيه الإنسان زاده.

(٥) الإنفاض هو فناء المال والزاد يريد ظاهر الفقر.

(٦) البلغة ما يتبلغ به من العيش وهو اليسير من الزاد.

(٧) المضغة هي ما يمضغ.

(٨) الحائم هو الطائر الذي يحوم ليرى ماء يشربه.

(٩) أي أبذل وجهي.

(١٠) الغمة ما على القلب من الأسى والغم.

(١١) الغلة شدة العطش.

(١٢) البهرة وسط الحلقة.

(١٣) الشخت هو الدقيق النحيل.

(١٤) الأكمام جمع كم وهو وعاء التمر.

بالثمر، فدلفت إليه لأقتبس من فوائده وألتقط بعض فرائده، فسمعته يقول حين خب في مجاله وهدرت شقائق ارتجاله: أيها السادر في غلوائه السادل ثوب خيلائه. . .»[١].

من ذلك نرى الحريري التزم السجع والمحسنات البديعية الأخرى ولا سيما الجناس وأنه يتصرف في اللغة تصرف الغني بثروته اللغوية المدرك لبراعة الكلام. والمقامة تدور حول الاتعاظ بشخصية أبي زيد السروجي الذي اتشح بالفقر وتزين بالأدب، فكان أدبه أبهى جمالاً من ثروة أغنياء المال. ثم إن الحارث بن همام (وهو الحريري) أعجب بهذا الشخص الذي يفيض أدباً وبلاغة وجلس يستمع إلى نصائحه الغالية وحكمه البارعة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على سعة اطلاع الحريري وامتلاكه ناصية الكلام والثقافة في عصره.

وهناك مقامات أخرى[٢]يطول بنا المقام إذا تصدينا لدراستها، وهي حرية بالدراسة الأدبية المتخصصة[٣].

ويذكر براون[٤]أن الحريري بأسلوبه في مقاماته هو الملك المتوج على رأس الكتاب الذين تخصصوا في المقامات، إذا ما قورنت مقاماته بما كتب بالعربية كمقامات بديع الزمان الهمذاني، أو ما كتب بالفارسية كمقامات حميد الدين البلخي، على الرغم من أن بديع الزمان أسبق إلى ابتكار فن المقامات وترويجه. وقد قدره الأدباء من المشارقة والأوروبيين، وحسبنا أن نذكر أن الزمخشري قدر الحريري بقوله إن مقاماته حرية بأن تكتب بماء الذهب. وإن مؤلفاته ومقاماته قد درست وشرحت وترجمت أكثر من مرة في بلاد المشرق وأوروبا[٥]. كما نالت مقامات الحريري شهرة عظيمة في بلاد الأندلس في حياته، ثم جاء الشُّرَيْشي الأندلسي بعده بنحو قرن، فشرحها شرحاً قيماً.

---

(١) سدل الثوب أرخاه والخيلاء الكبر.

(٢) مقامات الحريري ص ١٠ ـ ١٦.

(٣) من هذه المقامات المقامة الحادية عشرة الساوية (مقامات الحريري ص ٩٧ ـ ١٠٦) والمقامة الثانية عشرة الدمشقية (ص ١٠٦ ـ ١١٩) والمقامة الثالثة عشرة البغدادية (ص ١٢٠ ـ ١٢٨) والمقامة الرابعة عشرة الملكية (ص ١٢٨ ـ ١٣٦) والمقامة السادسة عشرة المغربية (ص ١٥٠ ـ ١٦٠) والمقامة الثانية والعشرون الفراتية (ص ٢٠٩ ـ ٢٢٠) والمقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية (ص ٣٨٣ ـ ٣٩٠) وهكذا.

(٤) تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ج ٢ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٥) Chenery, Assemblies or maqamat (London, 1867)

يجد القارىء عبارة وافية عن حياته في مقدمة

Houtsma, Recueil de textes relatifs à l'Histoire des Seldjoucides (Leyden, 1889), p. II et seq.

(ب) القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ).

ويعتبر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني زعيم النثر في عهد الأيوبيين. وله مدرسة عرفت به تدعى مدرسة المحسنات البديعية التي اقتبسها من ابن العميد، ولكن طريقة القاضي الفاضل قد تدهورت على أيدي تلاميذه الذين غالوا فيها مغالاة شديدة وانحرفوا بها عن الغاية المنشودة منها، فأضحت نوعاً من الحلية اللفظية التي ضعف المعنى بجانبها، واستمرت في هذا التدهور حتى أصبحت مظهراً سيئاً للأدب في عهد المماليك والأتراك العثمانيين.

ولد القاضي الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩هـ وتولى أبوه القضاء بمدينة بَيْسان (بين بيت المقدس ويافا). ولذلك نسب القاضي الفاضل إلى هذه البلدة فسمي البيساني. وقد أخذ العلم على علماء عصره ومنهم أبوه، ثم قدم القاهرة وخدم في ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ - ٥٤٤م)، ثم أخذ يتدرج حتى أصبح صاحب هذا الديوان. ولما قدم أسد الدين شيركوه مصر وآلت إليه الوزارة اتخذ القاضي الفاضل كاتباً له. ثم آلت الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي فقرب القاضي الفاضل إليه واستعان به في إزالة الدولة الفاطمية، ثم اتخذه وزيراً له يرجع إليه في أمور الدولة. وظل في الوزارة إلى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) حيث خرج لقتال الملك العادل بن أيوب وهو في طريقه للاستيلاء على مصر[١].

من آثار القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية التي أسسها في القاهرة سنة ٥٠٨هـ ويحدثنا المقريزي أن هذه المدرسة كانت تضم مكتبة نفيسة حوت نحو مائة ألف مجلد[٢].

ومن الرسائل التي وجهها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي رسالة يتشفع فيها لخطيب عَيْذاب رجاء توليته خطابة الكرك (بفتح الكاف والراء) لعدم احتماله المقام في هجير عيذاب، ولأن خطابة الكرك تدر عليه رزقاً أكثر لكثرة عياله. وإليك هذه الرسالة:

«أدام الله السلطان الملك الناصر وثَبَّته وتقبل عمله بقبول صالح وأثبته، وأخذ عدوه قائلاً أو بيته[٣]، وأرغم أنفه بسيفه أو كبته. خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب. ولما نبا (بعد) به المنزل عنها وقل عليه المرفق فيها، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض

(١) ابن خلكان جـ٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٧.

(٢) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٣٦٦.

(٣) يقصد أن الله سبحانه وتعالى يأخذ عدو صلاح الدين وقت القيلولة (ويكنى بها عن النهار) أو بيته بمعنى يأخذه في الليل.

ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صبحها. وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب، وتوصل بالملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب، والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف. ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف؛ والسلام»(١).

وللقاضي الفاضل شعر أيضاً، ولكنه لم يبلغ منزلة النثر عنده. ومن هذا الشعر قوله عند بلوغه الفرات في خدمة صلاح الدين متشوقاً إلى نيل مصر:

بالله قل للنيل عني أنني ... لم أَشْفِ من ماء الفرات غليلا
وسلِ الفؤاد فإنه شاهدٌ ... إن كان جَفْني بالدموع بخيلا
يا قلب كم اختلقتَ ثمَّ بثينة ... وأعيذ صبرك أن يكون جميلا

(جـ) النثر في المغرب والأندلس:

وقد اتخذ المرابطون عدة كتاب على رأسهم صاحب ديوان الرسائل، وكان بهذا الديوان طائفة من النساخين يقومون بنسخ عدة نسخ من الكتاب الأصلي توجه إلى عمال الأقاليم وغيرهم من الحكام، يذكر المراكشي بأنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه علي من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور المغرب.

وكان أكثر هؤلاء الكتاب من رجال الأدب في الأندلس الذين عملوا في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين، ومن هؤلاء الكتاب عبد المجيد بن عبدون وعبد العزيز الأنصاري. ويبدو أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بفن الكتابة الذي توارثوه عن الدولة الأموية بالأندلس التي عرفت بالتفوق الأدبي الذي اقتبسوه من الشرق. لذلك نرى المرابطين يعينون الكتاب والقضاة والمحتسبين وغيرهم من أهل الأندلس. ومن أشهر أدباء المرابطين:

(أ) أبو جعفر بن عطية:

ومن هؤلاء الكتاب أبو جعفر بن عطية، وقد نشأت أسرته بمدينة طرطوشة التي ينتمي إليها الفقيه أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك. وقد كتب ابن عطية لعلي بن يوسف ثم لابنيه تاشفين وإسحاق حتى أواخر عهد المرابطين، ثم انخرط متنكراً في جيش عبد المؤمن بن علي. وكان يحسن الرماية. ثم صحب أبا حفص عمر لحرب الثائر محمد بن هود الماسي السلاوي الذي انضم إلى عبد المؤمن أولاً ثم خرج عليه ثانياً، وأخذ يدعو إلى نفسه

(١) ابن خلكان جـ٢ ص ٣٣٤.

باسم الهادي، وكاد يطيح بعرش الموحدين، ولكنه قتل على يد أبي حفص قائد الموحدين.

وقد كتب أبو جعفر بن عطية إلى عبد المؤمن رسالة طويلة يشيد فيها بانتصار الموحدين على ابن هود، فأعجب بها عبد المؤمن واستدعاه إلى بلاطه وقلده الكتابة ثم الوزارة فيما بعد. ومما جاء في هذه الرسالة: «كتبنا هذا في وادي ماسة بعدما تزحزح من أمر الله الكريم ونصره المعلوم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. فتح فاق الأنوار إشراقاً وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً»(١).

على أن ابن عطية على الرغم مما بلغه من جاه ونفوذ في عهد الموحدين كان يعطف على المرابطين الذين تقلب في نعمتهم من قبل، حتى إنه تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين. وقد نصح أخاها يحيى بالهجرة إلى جزيرة ميورقة، فنمى الخبر إلى ابن عبد المؤمن، فأمر بالقبض عليهما وعلى أخيه، وحاول ابن عطية أن يستدر عطف ابن عبد المؤمن بما نظم من شعر وبعث برسائل يعتذر فيها عما فرط منه. ومن شعره قوله:

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البثّ والحزن
مَنْ عِنْدَكُمُ يسعى على ثقةٍ ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
أنتم بذلْتم حياة الخلق كلهم ... مِن دون منٍّ عليهم ولا ثمن
قد أوجدتهم حياةً منك سابقة ... والكل لولاك لم يوجد ولم يَكنِ

على أن عبد المؤمن أجابه بقوله متمثلاً بالآية الكريمة: ﴿الآن وقد عصيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢)، وأمر به فقتل. وقد ذكر المقري(٣) أن بيت ابن عطية كان غنياً بأدبائه.

(٢) ابن أبي الخصال:

ومن كتاب النثر في المغرب مسعود بن أبي الخصال. وقد تقلد منصب الكتابة في عهد المرابطين، وقد ولد بالأندلس ونشأ بقرطبة وطلب العلم فيها ومرن على الكتابة، كأخيه أبي مروان الذي تقلد الكتابة لابن الحاج الذي خرج على أمير المسلمين علي بن يوسف تاشفين ودعا لنفسه بقرطبة ثم قبض عليه. ولكن علياً عفا عنه وولاه «فاس» ونواحيها، ثم قلده ولاية سرقسطة حيث قتل في حربه مع النصارى في سنة ٥٠٨ هـ. وقد وصف عبد الواحد المراكشي(٤) ابن أبي

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٩٨. المقري: نفح الطيب جـ٧ ص ١١٠.
(٢) سورة يونس ١٠: ٩١.
(٣) انظر نفح الطيب جـ٧ ص ١١٠ ـ ١١٥.
(٤) المعجب ص ١٧٣.

الخصال بقوله: «إنه كان من أهمهم وأكبرهم مكانة لديه (يعني عليٍّ بن يوسف) إذ هو آخر الكتاب[١] وأحد من انتهى إليه علم الآداب».

ولابن أبي الخصال ديوان للرسائل تداوله الكتاب والأدباء واتخذوه نموذجاً لرسائلهم[٢]. وقد قيل إن عليٍّ بن يوسف أمر ابن أبي الخصال وأخاه أبا مروان أن يكتبا إلى جند بلنسية كتاباً يؤنبانهم فيه على تخاذلهم عن نصرة إخوانهم بسرقسطة. إلا أن كلًّا من الأخوين كتب رسالة تنم عن احتقارهما للمرابطين ووصفهما إياهم بأنهم بدو عراة صحراويون لا إلمام لهم بأساليب السياسة وأمور الحضارة والمدنية، مما أغضب أمير المسلمين علي بن يوسف عليهما فعزلهما عن الكتابة. ومما جاء في هذه الرسالة:

«أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضاناً لها حالب قاعد. لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقاباً[٣] وأن نعيدكم إلى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم[٤]».

وقد أثار هذا الكلام غضب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فأمر بتنحية أبي مروان وقال لأخيه أبي عبد الله: كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين، والآن قد صح عندنا. فلما رأى ذلك أبو عبد الله، استعفاه فأعفاه، فعاد إلى قرطبة بعد موت أخيه أبي مروان بمدينة مراكش. وظل أبو عبد الله بن أبي الخصال بقرطبة حتى مات.

ومن كتاب النثر في المغرب أبو بكر بن القصير، وقد تقلد الكتابة لأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين. وكان قد تقلد الكتابة للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية. وقد وصفه المراكشي[٥] بقوله: «أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جَزْل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء».

ومن كتاب النثر الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، تقلد الكتابة للمظفر صاحب بطليوس، ثم لسيد بن أبي بكر، ثم لعلي بن يوسف بن تاشفين، وبلغ عنده مكانة عالية؛ وهو كما

---

(١) يقصد بذلك أنه آخر الذين اشتهروا بالكتابة في عهد المرابطين.

(٢) المعجب ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) يعني أنكم غير جديرين بوضع اللثام على وجوهكم. وكان ذلك اللثام عند المرابطين علامة على الشجاعة والفروسية والقـوة.

(٤) ارتحض: افتضح؛ والرحضاء أيضاً يطلق على العرق، يعني بذلك أنهم صحراويون لا يعنون بالنظافة.

(٥) المعجب ص ١٦٤.

يقول المراكشي من أهل يابرة[١]. وكان شاعراً مجيداً[٢]، كما كان كاتباً مجيداً. فمن رسائله قوله: «أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، خافقة بنصرة الدين أعلامه، نافذة في السبعة الأقاليم أقلامه، من داخل مدينة شنترين، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين. . . »[٣].

الفتح بن خاقان (٥٢٩/١٠٣٤ - ١٠٣٥)

ومن أشهر كتاب الأنـدلس أبو نصر الفتح بن خاقان، وكان أديباً كاتباً شاعراً، غير أن شعره كان وسطاً وكتابته فائقة كما يقول المقّري[٤]. وقد أخذ العلم عن طائفة من أدباء عصره كأبي بكر ابن القصيرة، وابن اللّبانة، وأبي جعفر بن سعدون، وأبي محمد بن عبدون. ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال أصبح من كتاب الأندلس الذين يشار إليهم بالبنان، كما أحرز قصب الكتابة فألف «بداية المحاسن وغاية المحاسن» ومجموعة تتضمن ما أنتجه من نثر أدبي، كما ألف من الكتـب «قلائد العقيان ومطمح الأنفس»[٥] ومن رسائله قوله:

«سيدي: لا عَدِمْتَ ارتفاقاً[٦] ولا حُرمت تكيُّفاً من السعد اتفاقاً، أنا الآن مشتغل البال لا أُفَرِّق بين الإعراض والإقبال. وعند توجهي أفرغ لك ما حضر[٧]، ومثلك أرجأ الأمر وانتظر[٨]، وفي علم الله تعالى لو أمكنني لحملتك على كاهل وأوردتك منه أعذب المناهل، وأَبَحْتُ لك السعد ثغراً ترتشفه، وخلعته بُرْداً عليك تلتحفه، لكن الزمان لا يجد[٩] وصروفه لا تنجد.

وعلى أي حال فلا بد أن تجد قراك وتُحمد سراك (سفرك) إن شاء الله تعالى».

ومن كتب الفتح بن خاقان البليغة هذه الرسالة التي بعث بها إلى أبي بكر بن علي (ابن تاشفين) عند ولايته إشبيلية:

---

(١) نسبة إلى يابرة إحدى مدن البرتغال.
(٢) المعجب ص ٧٥ - ٧٦.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٥ - ١٦٦.
(٤) نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٤٢.
(٥) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٤٨.
(٦) يقصد الرفق.
(٧) يقصد أنه يعبر له عما يجيش في صدره من هموم عند أول لقاء.
(٨) يعني أن لك من السلطات ما يستطيع إرجاء الأمور أو النظر فيها سريعاً.
(٩) يعني أن الزمان لا ينيل الإنسان كل رغائبه.

«أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبي بكر للأرض يتملكها ويستدير بسعده فلكها. استبشر الملك وحق له الاستبشار وأومأ إليه السعد في ذلك وأشار، بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من ألويتك. فلقد حُبِيَ منك بملك أمضى من السهم المسدَّد، طويل نجاد السيف رحْب المُقَلّد[١] يقدم حيث يتأخر الذابل[٢] ويُكرم إذا بَخِل الوابل (المطر)، ويَحمي الحما كربيعة بن مُكَدَّم (بضم الميم وفتح الكاف مع الدال المشددة هو أحد فرسان الجاهلية) ويسقي الظبا[٣] نجيعاً[٤] كلون العندم[٥]. فهنيئاً للأندلس لقد استردّت عهد خلفائها واستمدت تلك الإمامة بعد إغفائها، حتى كأن لم تمر أعصارها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا (يقصد مدينة الزاهر التي بناها عبد الرحمن الناصر) ونكحا (تزوج) عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية (سيف اليمن) مهراً. والله تعالى أسأله انتصار أيامك، وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أعجب من عصرهم ونصرك أعز من نصرهم والسلام»[٦].

وللفتح بن خاقان شعر كثير، ولكنه لا يرتقي إلى منزلة نثره البليغ. ومن أحسن ما نظم قوله يستعطف الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) ويحن إلى مثواه بإشبيلية:

وَيْحَكِ يا سَلْمَ لا تُراعي[٧] ... لا بد للبَين من مساعِ
لا تحسبيني صَبَرْت إلا ... كصبر مَيْتٍ على النزاع[٨]
ما خلق الله من عذاب ... أشدّ من وقْفَة الوداع
ما بينها والحِمامُ فرقٌ ... إلا المناحاتُ في النواعي
إنْ يفترق شملنا وشيكاً ... مِن بعدما كان في اجتماع
فكل شمل إلى افتراق ... وكل شَعْب إلى انْصداع
وكل قرب إلى بعاد ... وكل وصل إلى انقطاع[٩]

(١) إشارة إلى سعة الصدر الدالة على الشجاعة، وكان يعلق به السيف، ويرد به إلى فراهة الجسم.
(٢) يريد به الرمح أو حامله.
(٣) جمع ظبية (بضم الظاء) حد السيف.
(٤) النجيع دم القلب.
(٥) هو زهر لونه كلون الدم.
(٦) المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٧) يقصد لا تخافي.
(٨) النزاع نزعة الموت.
(٩) الشعب التحام المنكسر وانصداع الكسر. المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٥١.

العلوم العقلية

(أ) الطب في العصر العباسي الثاني:

أشاد نظامي عروضي السمرقندي[١] بأهمية صناعة الطب وعرض الشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب فقال:

«الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان وهي كائنة ونستردها وهي مفقودة، وبواسطتها يزدان البدن بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط، وأما الطبيب فينبغي أن يكون رقيق الخلق حكيم النفس صائب الفكر قوي الاستنتاج، ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية، ولا يكون حكيم النفس ما لم يعرف المنطق. كما أنه لا يكون جيد الحدس ما لم يكن مستمداً العون من الله سبحانه. والطبيب الذي يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة؛ ذلك أنه يستدل على حالة المريض بالنبض، والنبض حركة الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون».

وقد أوصى نظامي عروضي بأن يتزود من يريد مزاولة الطب بدراسة مصادره الأصيلة مثل أصول أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق[٢]، «ومرشد محمد بن زكريا الرازي[٣]، و«شرح النيلي»[٤] الذي أجمل هذه المؤلفات، وذخيرة ثابت بن قرة[٥] (بضم القاف وفتح الراء مع التشديد). و«المنصوري» و«الحاوي» لمحمد بن زكريا الرازي[٦]، أو «الهداية» لأبي بكر

---

(١) جهار مقاله، ترجمه إلى الإنكليزية إدوارد براون، وإلى العربية عزام والخشاب. الترجمة العربية ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) اسم هذا الكتاب «المسائل في الطب للمعلمين»، انظر ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٢٩٤. القفطي: تاريخ الحكماء ص ١٧٣.

(٣) اسم هذا الكتاب الفصول في الطب ويعرف باسم المرشد، انظر ابن النديم: الفهرست ص ٣٠١ والقفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٧٥.

(٤) هو أبو سهل سعيد بن عبد العزيز، وله كتاب «اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق» وتلخيص شرح جالينوس لكتاب الفصول لبقراط، وكان من أهل نيسابور.

(٥) يشك القفطي (ص ١٢٠) في نسبة هذا الكتاب لثابت.

(٦) كتاب المنصوري أو كتاب الطب المنصوري، ويحتوي على عشر مقالات، وقد ألفه الرازي باسم منصور بن محمد بن إسحاق بن أسد، وكان والياً على الري من قبل عمه أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني، وقد خرج منصور علي نصر بن أحمد ثالث أمراء السامانيين. انظر تعليق ميرزا محمد على كتاب جهار مقاله، ترجمة ص ١٦٣ - ١٦٤.

الأجويني، أو «الكفاية» لأحمد بن فرج، أو «الأعراض»(١) لسيد بن إسماعيل الجرجاني، ثم يدرس أحد الكتب المفصلة مثل «الست عشر رسالة» لجالينوس أو «الحاوي»(٢) لمحمد بن زكريا أو «كامل الصناعة»(٣) أو «صد باب»(٤) (مائة باب) لأبي سهل المسيحي، أو «القانون» لأبي علي بن سينا، أو «الذخيرة»(٥) للخوارزمي، وأن يقرأ هذا الكتاب المفصل في وقت الفراغ، فإذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلها فقد يكتفي بالقانون، فإن سيد الكونين وإمام الثَّقَلين(٦) يقول: «كل الصيد في جوف الفرا» فكل ما ذكرت موجود في «القانون» مع زيادات كثيرة. وكل من يحيط علماً بما في المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شيء من علم الطب وكلياته، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب(٧).

ويرى نظامي عروضي أن الطبيب إذا علم ما في المجلد الأول من «القانون» وهو في الأربعين من عمره، أصبح أهلاً للاعتماد عليه؛ وإذا ما بلغ الطبيب هذه المرتبة وجب عليه أن

(١) وهو في علم الطب بالفارسية، وقد ترجمه عن كتابه «ذخيرة خوارزمشاهي» بأمر مجد الدين أبي محمد الصاحب بن محمد البخاري وزير آتسز خوارزمشاه (٥٢١ ـ ٥٥١ م). ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٣٢٠.

(٢) ويعرف باسم «الجامع الحاضر لصناعة الطب» وهو أعظم وأهم مؤلفات أحمد بن زكريا الرازي. القفطي ص ٢٧٤.

(٣) كامل الصناعة الطبية، ويعرف بالملكي لعلي بن العباس المجوسي الأهوازي (ت ٣٨٤/٩٩٤). وهو أشهر أطباء عصره، وكان طبيب عضد الدولة البويهي، ويعرف مؤلفه في أوروبا باسم Harly Abbas، وقد طبع في القاهرة في جزأين (١٣٩٤/١٨٧٧) ويحتوي الجزء الأول على الجانب النظري ويبحث الثاني عن الناحية العملية.

(٤) ويعرف باسم «كتاب المائة في الطب». وقد ولد المسيحي في جرجان وأتم دراسته في بغداد، وهو أحد أساتذة ابن سينا، وكان صديقاً لأبي الريحان البيروني. ابن أبي أصيبعة جـ ١ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨، جـ ٢ ص ١٩.

(٥) أو «ذخيرة خوارزمشاهي» وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب، ألفه زين الدين (شرف الدين) إسماعيل بن حسن الحسيني الجرجاني المتوفى بمرو سنة ١١٣٦/٥٣١. وقد وضعه كما يقول في مقدمة كتابه باسم قطب الدين محمد خوارزمشاه مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ١١١٠/٥٠٤. وقد ذكر ريو Rieu في فهرست الكتب الفارسية (ص ٤٦٦ ـ ٤٦٨) ترجمة المؤلف وترتيب فصول وأبواب كتابه. ويلاحظ براون أنه قد يكون أول مسلم يستعمل اللغة الفارسية في المسائل العلمية أو على الأقل هو أول من عرفنا كتبهم. ابن أبي أصيبعة جـ ٢ ص ٣١ ـ ٣٢. نظامي عروضي: جهار مقاله، التعليق في الترجمة العربية ص ١٦٦.

(٦) يقصد علي بن أبي طالب، والثقلان يقصد بهما الجن والإنس.

(٧) وقد نوه نظامي عروضي إلى أهمية كتاب القانون لابن سينا وذكر أنه واجب القراءة لدرجة أنه من الممكن الاستغناء به عن الكتب الأخرى. جهار مقاله ص ٧٦.

يحرص على اقتناء أحد هذه الكتب الصغيرة التي ألفها أصحاب التجارب الطويلة من الأساتذة الأطباء مثل «تحفة الملوك» لمحمد بن زكريا الرازي، أو «الكفاية» لابن مندويه الأصفهاني، أو «تدارك أنواع الخطأ في التدبير الطبي»(١) لأبي علي بن سينا، أو «خُفّي علائي»(٢) لاسماعيل بن حسن الجرجاني، أو «التذكرة» لسيد بن إسماعيل الجرجاني. وقد نوه نظامي عروضي بهذه الشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب والكتب التي لا غنى له عنها لمزاولة مهنته على أتم وجه فقال: «ذلك أنه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التي هي في نهاية مؤخر الدماغ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت في العمل. وإذاً ينبغي لكل ملك أن يحرص على هذه الشروط التي عددناها في الطبيب الذي يختار، فإنه ليس من اليسير أن يضع روحه وعمره في يد كل جاهل وأن يجعل تدبير حياته في حجر كل عاقل(٣)».

وكان الأطباء في هذا العصر ملمين بأكثر فروع المعرفة، فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً وفقيهاً وأديباً. فقد حكى نظامي العروضي السمرقندي، وكان ينتمي إلى الغور، أنه وقعت في سنة ٥٤٧هـ موقعة بين جيوش «سلطان العالم» سنجر السلجوقي وجيوش علاء الدين الحسين الغوري، وأن الدائرة قد دارت على الغور الذين تعرضوا لحقد السلاجقة وحنقهم واضطهادهم. وقد اختفى نظامي العروضي عن أنظار السلاجقة في مدينة هراة حيث دعاه أحد الأهالي لتناول طعام العشاء في داره، ثم عبر له عن حزنه لمرض ابنته الوحيدة التي كانت مصدر بهجته وسروره، وقال إنها في أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر منّاً(٤) من الدم حتى تخور قواها. ثم أضاف أنه استشار كثيراً من الأطباء الذين تولوا علاجها، ولكنْ على غير جدوى، وقال إن الأطباء إذا وقفوا الدم انتفخ بطنها وزاد ألمها، وإذا تركوه نزف وظهر عليها الهزال وتعرضت للهلاك. وطلب نظامي عروضي إلى الرجل أن يخبره حين يعود الحيض إلى ابنته.

---

(١) هو كتاب وضعه ابن سينا باسم الحسين أحمد بن محمد السهلي وزير علي بن مأمون خوارزمشاه الذي ولي الملك سنة ٣٨٧/٩٩٧. وقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٣٠٥/١٨٨٧ باسم «دفع المضار الكلية عن الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير» على حاشية كتاب «منافع الأغذية ودفع مضارها» لمحمد بن زكريا الرازي (بولاق، القاهرة).

(٢) هو كتاب مختصر في الطب باللغة الفارسية وهو مختصر لكتابه: «خوارزمشاهي» بأمر علاء الدين آتسز. وقد اختصره على جلدين من القطع الطويل حتى يمكن الاحتفاظ بهما دائماً في الخفين. وعلائي نسبة إلى علاء الدولة وهو لقب من ألقاب آتسز. ميرزا محمد تعليقاته على كتاب جهار مقاله، ترجمة ص ٧٧، ١٦٧.

(٣) جهار مقاله الترجمة العربية ص ٧٧.

(٤) كيل أو ميزان وهو يساوي رطلين.

ويقول نظامي عروضي: «فلما انقضت عشرة أيام جاءتني أم المريضة، فسرت معها وأحضرت البنت أمامي، فرأيتها رائعة الجمال حائرة يائسة من الحياة، فلما رأتني ارتمت على قدمي وقالت: أي أبي! أغثني لوجه الله فإني شابة ولم أر الدنيا. فانهمر الدمع من عيني وقلت لها: طيبي نفساً فهذا أمر يسير. ثم وضعت يدي على نبضها فوجدته قوياً، وكذلك كان لون وجهها عادياً، وقد توفرت فيها أكثر الأمور العشرة كالامتلاء والقوة والمزاج والسمنة والسن (يقصد سن الشباب) والفصل وهواء البلد والعادة والأعراض الملائمة[1] فدعوت فصاداً وأمرته بفصد عرق الباسليق في يديها، ثم أخرجت النساء من حولها، وقد خرج الدم الفاسد، وأخذت منها بالإمساك والتسريح ألف درهم من الدم[2]، فسقطت المريضة لا تعي. فأمرت بإحضار النار وشويت بجانبها اللحم والطير حتى عبق البيت برائحة الكباب وصعد بخاره إلى دماغها، فثابت إلى رشدها وتحركت وتأوهت. ثم أعددت لها شراباً مقوياً لذيذ الطعم، وعالجتها أسبوعاً حتى استعادت الدم الذي فقدته وزالت عنها العلة وانتظم الحيض عندها. وكنت أناديها بابنتي وكانت تناديني بأبي، وهي اليوم مني كأبنائي[3].

ومن ذلك نرى أن المسلمين الأوائل كانوا على دراية بالتشريح ودراسة أعضاء الجسم دراية عميقة تمكنهم من إجراء العمليات الناجحة.

ومن أطباء العصر السلجوقي الأول: أبو علي يحيى بن جَزْلة الطبيب (ت ٤٩٣هـ) وكان نصرانياً فأسلم، وقد صنف كتاب «المنهاج» في الطب[4].

ومن مشهوري الأطباء: أبو الحسن المختار بن بُطلان (بضم الباء وسكون الطاء). ولد ببغداد في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وسافر في رحلات علمية إلى مصر والقسطنطينية وسورية، وألف كثيراً من الكتب في الطب، نخص بالذكر منها كتاب «دعوة الأطباء».

وقد ذكر ابن بطلان في هذا الكتاب أنه دعا طبيباً لتناول الغذاء معه وسماع درسه عن

---

(١) لعل نظامي عروضي يقصد أن حالتها الاجتماعية تجعلها في رخاء وسعة من العيش مما يتضمن سلامة جسمها وعدم تعرضها للمرض لنقص الغذاء.

(٢) يقصد أنه تحكم في دورتها الدموية باستنزاف الدم الفاسد وحفظ الدم النقي وظل على هذا النمط حتى بلغ ما استنفده من الدم الفاسد وما استطاع حفظه في الجسم من الدم النقي نحو ما يساوي ألف درهم. وكان ذلك في مدة من الزمن تجري لإجراء العملية بهذا المقدار.

(٣) نظامي عروضي: جهار مقاله، الترجمة العربية ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ١١٣.

الطب. وحينما جلسا إلى المائدة أخذ ابن بطلان يشرح خواص ما قدم لضيفه من ألوان الطعام. وقد اشتملت هذه الألوان على اللحوم والسمك والشكوريا والأرز والفطير والفاكهة، وبعد أن فرغ كل منهما من تناول الحلوى جاء الخادم بطبق مغطى بقماش ظن المدعو أنه طبق آخر من الحلوى. وقد تملكه الدهش حين رأى الآلات الطبيــة التي كان يستعملها ابن بطلان، نذكر منها كلبتي الأضراس، ومكاوي الطحال، وزراقان الكولنج[١]، وقناطير التبويل[٢]، وملزم البواسير[٣]، ومجرفة الأذن[٤]، ومخرط المناخير، ومخالب التشمير، ومحك الجرب، ومنشار المقطع، وخَشبة الكف، ومفتاح الرحم[٥]، ودرج المكاتل، وموهمدان المراهم.

ومن مشهوري الأطباء: محمد بن علي السمرقندي، وقد عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وألف كثيراً من الكتب في الطب، نذكر منها كتاب «أغذية المرضى». وقد تناول فيه الكلام على الأمراض والأغذية التي توافق كل مرض، وكتاب أبقراط وجالينوس وابن سينا والمجوسي (ت ٣٨٤/٩٩٤) وهذا الكتاب من كتب الطب المشهورة.

ومن مشهوري أطباء هذا العصر أيضاً: هبة الله بن أبي الغنائم (ت ٥٦٠هـ). روى ابن خلكان[٦] عن كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصفهاني أن هبة الله «سلطان الحكماء»، كما قال: «وهو مقصد العالم في علم الطب، بقراط عصره وجالينوس زمانه، ختم به هذا العلم، ولم يكن في الماضيــن من بلغ مداه في الطب».

(ب) الطب في العصر الفاطمي:

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا بسهم وافر في الطب، كذلك حفل المغرب الإسلامي بطائفة من أشهر الأطباء. وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات التي كانت أشبه بكليات للطب تخرّج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين.

---

(١) هي آلة من آلات الجراحة التي تستعمل بنوع خاص للقولون (المصران الغليظ).

(٢) هي آلة تستعمل لقياس أمراض المثانة.

(٣) هي آلة أشبه بالمبضع تستعمل للكشف عن البواسير.

(٤) هي آلة تستعمل لجرف الأوساخ التي تتولد بالأذن.

(٥) هي آلة تستعمل لكشط الزائد بالرحم والتي تمنع الحمل إذا لم تكشط

(٦) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١١٩.

وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريانية واليونانية، بجانب إلمامه بالطب. وقد أورد القفطي وابن أبي أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا في العصر الفاطمي، مثل موسى بن العازار الذي نبغ في عهد المعز، وعلي بن رضوان الذي اشتهر في عهد العزيز وخلف كثيراً من الكتب في الطب والفلسفة والمنطق وغيرها.

ومن الأطباء الذين نبغوا في عصر الأيوبيين (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ) ضياء الدين عبد الله بن أحمد، وقد ولد بمالقة ببلاد الأندلس، ثم انتقل إلى مصر والتحق بخدمة الملك الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين. وكان كما يقول السيوطي[١] «أوحد زمانه. . . انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه» ومات بدمشق سنة ٦٤٦ هـ.

ومن أشهر أطباء هذا العصر علاء الدين علي بن النفيس القرشي، وكان يعد إمام الطب في زمانه، واشتهر بمؤلفاته الطبية. وهو كما وصفه السيوطي[٢] «أحد من انتهت إليه معرفة الطب» فوق إلمامه بالفقه وعلم الأصول والحديث واللغة والمنطق. وقد توفي سنة ٥٨٧ هـ.

الطب في المغرب والأندلس:

وكان أبو القاسم الزهراوي المتوفى بقرطبة سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦م) أشهر جراحي عصره. وقد ترك كتباً كثيرة في الطب نذكر منها بحثه الصغير في الجراحة، يشرح فيه العمليات الجراحية والآلات الطبية التي تستعمل في هذه العمليات. وقد وصف عملية شق المثانة وتفتيت الحصاة، وذكر أنواع الحصى وطريقة تفتيتها وإخراجها والآلات التي تستعمل في هذه العملية، كما وصف الأربطة وغيرها من الأشياء التي يستعملها الجراح لتضميض جراح المريض.

وإلى ابن زهر (بضم الزاي وسكون الهاء) يرجع الفضل في اكتشاف علاج للأمراض الجلدية قدمه إلى الخليفة يعقوب المنصور الموحدي.

وقد قصد الأطباء من كافة أرجاء العالم الإسلامي هؤلاء الأطباء المشهورين لتلقي العلم عليهم، كما قصدهم المرضى لالتماس الشفاء على أيديهم. وكان المسيحيون يقصدون قرطبة كلما دعتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معماري أو مطرب كبير. مثال ذلك ما حدث من أن «تونا» ملكة إنافار وفدت بولدها سانكو البدين لمعالجته من السمنة في قرطبة. وكان لنجاح علاجه

---

(١) حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص ٢٣٣.

أثر بعيد في عقد معاهدة مع المسلمين.

وكما عرف الغرب كثيراً من أطباء الإسلام كمحمد بن زكريا الرازي الذي يعرفه الأوروبيون باسم rhazes الذي أفادوا من مؤلفاته الطبية مثل كتاب «الحاوي»(١). ذاعت شهرة الرئيس ابن سينا الذي يعرفه الأوروبيون باسم Avicenna، كما اشتهر ابن رشد الذي ولد بقرطبة وأتم دراسته الطبية فيها، ونبغ في علوم الطب النظرية، وتوفي سنة ٥٩٥هـ (١١٩٨م)، وخلف كتابه المشهور المعروف باسم «الكليات» أي كتاب الطب العام، وشرح كتاب «القانون» لابن سينا.

وقد عرف المسلمون نظام التخصص في الطب، وظهر بين أطباء المسلمين وأهل الذمة أطباء تخصصوا في أعضاء الجسم والجراحة واستعملوا الآلات الطبية في علاج الأمراض. وقد أطلق على من يشتغل بالطب في العصور الوسطى لقب «حكيم». والفلسفة كلمة يونانية معناها الحكمة، ويطلق على من يزاولها «حكيم»، لأن الطب كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة. وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة: كالطبائعية، والكحالين، والجرائحية والمجبّرين وغيرهم، وقد ذكر ابن القيم الجوزية(٢) أنواع الأطباء والآلات الطبية في هذه العبارة حيث قال:

«والطبيب في هذا الحديث يتناول من يطبُّ بوصفه وقوله، وهو الذي يختص باسم الطبائعي، وبمروده وهو الكحال، وبمبضعه ومراهمه وهو الجراح (الجرائحي في الأصل)، وبموساه وهو الخاتن، وبريشته وهو الفاصد، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجَبِّر، وبمكواته وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن. وسواء كان طبه لحيوان أو لإنسان فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء كلهم».

وكان لهذه المبادىء الإنسانية السامية التي قررها الإسلام أثر بعيد في شفاء الأمراض وتخفيف الآلام. وقد خصص بعض خلفاء المسلمين أعطيات ثابتة للمجذومين حتى يمتنعوا عن سؤال الناس ويحولوا دون انتشار الأمراض، وجعل بعضهم في المساجد خزائن وضعت فيها الأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين، وبنوا المارستانات للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل. بل لقد اشتهر كثير من أطباء المسلمين بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى، حتى كانوا يعالجونهم ويقدمون إليهم الأدوية والعقاقير ويقومون بالإنفاق عليهم حتى يتم شفاؤهم.

---

(١) وينقسم اثني عشر قسماً ويقع في ثلاثين مجلداً.

(٢) زاد المعاد ص ١١٠.

(د) المدارس الطبية:

وقد اهتم العباسيون بنشر الثقافة الطبية وتقدمها بترجمة ما خلفه اليونان، وتأسيس البيمارستانات أو الكليات والمدارس الطبية والمستشفيات لتخريج الأطباء وعلاج المرضى. ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت في جميع أرجاء الدولة الإسلامية. وحذق المسلمون صناعة الطب ومرنوا عليها، وبرعوا في تشخيص الأمراض، ووصفوا الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها. واعتمدوا في علاج المرضى على ما كسبوه من تجارب، وما يستتبع ذلك من وضع المؤلفات الطبية في الأدوية والعقاقير وفي أعضاء الجسم ووظائفه.

كما دعا المسلمون إلى عقد المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد الإسلامية في موسم الحج، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويعرضون نباتات بلادهم ويصفون خواصها الطبية، وأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية.

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية أو المارستانات على نظام معاهد الطب الأجنبية، فقد اقتبس المسلمون فكرة المارستان عن السريان في العصر العباسي الأول لتفوقهم في مهنة الطب، وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سرياني الأصل اسم «الساعور» ومعناها بالسريانية متفقد المرضى. أما إذا كان مسلماً أطلق عليه اسم رئيس الأطباء، وهو الذي يشرف عليهم ويأمر بممارسة مهنة الطب[١].

وكان أبو منصور عبد الملك بن يوسف من علماء عصره، وقد تسلم المارستان العضدي الذي بناه عضد الدولة البويهي بعد أن تطرق إليه الخراب، فجدد عمارته وعين له ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاثة من الخزان، واشترى له الأملاك التي يصرف رَيْعها على إدارة هذا المارستان الذي لم يكن له قبل ذلك طبيب ولا خزانة دواء. وقد اشتهر أبو منصور بأعمال البر وفعل الخير وإغداق الصلات على الناس. وكان يلقب بالشيخ الأجل، ذلك اللقب الذي لم يلقب به أحد سواه في زمانه. ومات سنة ٤٦٠هـ[٢].

وقد عني صلاح الدين الأيوبي ببناء المارستانات في مصر. وفي مدينة مراكش بنى الخليفة المنصور الموحدي المارستان الذي وصفه عبد الواحد المراكشي[٣] فقال إنه يمتاز بالنقوش البديعة

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ١٩، ٢٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٢١ ـ ٢٢.
(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

والزخارف المحكمة، وأقيمت فيه الصيدليات وأجريت المياه المتفجرة وغرست الأشجار المزهرة والأشجار المثمرة، وزود بالثياب للمرضى من الصوف والكتان والحرير. ولم يقصر يعقوب المنصور هذا المارستان على الفقراء دون الأغنياء، بل كان كل من مرض بمدينة مراكش نقل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان يعقوب المنصور يركب بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى ويسأل عن أهل كل غرفة فيقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟[١] إلى غير ذلك من الأسئلة ليقف بنفسه على أحوالهم[٢].

٢ ـ الفلك والنجوم

(أ) الفلك والنجوم في العصر العباسي الثاني:

كان لعلم النجوم كما كان لغيره من العلوم في العصور الوسطى أهمية في المشرق وفي المغرب الإسلامي على السواء، حتى إن علماء الدين كانوا يولونه اهتماماً خاصاً، بل إنهم كانوا ينصرفون إلى دراسته والتبحر فيه، لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين كانوا لا يبرمون أمورهم ولا يقدمون على خوض غمار الحروب دون الرجوع إلى آراء المنجمين وكانت الجيوش لا تسير إلى ميادين القتال إلا في الوقت الذي يقع عليه اختيار المنجمين.

وقد ذكر أبو الريحان البيروني (ت ١٠٤٨/٤٤٠) في كتاب «التفهيم في صناعة التنجيم»[٣] أن المنجم يجب أن يلم بأربعة علوم هي الهندسة والحساب والهيأة والأحكام. ففي الهندسة يجب على المنجم أن يدرس كتاب أوقليدس الذي نقحه ثابت بن قرة، وفي الحساب يدرس كتاب «أرثماطيقي» ليلم بأصول الحساب، وأن يدرس فروع هذا العلم في «تكملة أبي منصور البغدادي» المتوفى سنة ١٠٣٧/٤٢٩. أو «صد باب» (مائة باب) للسجزي[٤]. والهيئة علم يعرف به أحوال العالمين العلوي والسفلي، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك ويجب على المنجم أن يدرس كتاب «المجسطي» وأحسن تفاسيره وشروحه، مثل «تفسير النيريزي»[٥]

(١) يقصد أطباء المارستان أو المستشفى والمرضين والخدم.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) هو كتاب في مقدمات علوم الهيئة والهندسة والعلوم ألفه البيروني سنة ١٠٢٩/٤٢٠ (وقيل سنة ١٠٣٣/٤٢٥) بالعربية والفارسية.

(٤) من مشاهير الرياضيين والمنجمين في القرن الرابع الهجري. وقد عاش معظم حياته تحت رعاية عضد الدولة البويهي في شيراز (٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ). ومن مؤلفاته كتاب «الجامع الشاهي» في النجوم والطالع وغيرها.

(٥) كان إمام عصره في العلوم الرياضية، وكان معاصراً للمعتضد العباسي (٣٧٩ ـ ٣٨٩ هـ). ومن كتبه تفسير =

«ومجسطي الشفا». وفروع هذا العلم هي علم الزيجات وعلم التقاويم. ويقصد بالأحكام الاستدلال على أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وأحوال أدوار العالم والممالك والبلدان والمواليد والتحاويل وغيرها. ويجب على المنجم أن يدرس تصانيف أبي معشر البلخي(١)، وأحمد ابن عبدالجليل السجزي، وأبي الريحان البيروني وكوشيار الجيلي(٢).

وينبغي أن يكون المنجم طيب النفس زكي الخَلْق رضي الخُلُق... وينبغي أن يكون طالع النجم الذي يريد أن ينبىء بالأحكام في سهم الغيب أو في مكان ملائم منه(٣). ومن توفر له برج سهم الغيب كان مسعوداً، وكان مكانه محموداً، ووقع ما يقول قريباً من الصواب. ويجب على المنجم أن يعلم «مجمل أصول كوشيار»(٤) وأن يداوم قراءة «كار مهتر»(٥)، وأن ينظر في «قانون المسعودي»(٦) و«جامع شاهي».

وقد ذكر ابن الأثير(٧) أن قتلمش جد أمراء السلاجقة أصحاب قونية وقيصرية وملطية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ثار على السلطان ألب أرسلان وهدد الري فجمع السلطان جيشاً عظيماً أحل به الهزيمة في سنة ٤٦٥هـ. وكان قتلمش يتقن علم النجوم، فنظر أن طالعه في ذلك اليوم قد قارنه النحس، فحلت به الهزيمة ومات من يومه. وقد أضاف ابن الأثير إلى ما تقدم أن أولاد قتلمش قد حذوا حذو أبيهم في دراسة علم النجوم».

= مجسطي بطليموس. وينتسب إلى نيريز وهي بلد بفارس.

(١) من مشاهير منجمي القرن الثالث الهجري، وكان معادياً ليعقوب بن إسحاق الكندي. وقد توفي أبو معشر في شهر رمضان سنة ٢٧٢ / ٨٨٦ وقد جاوز المائة.

(٢) ينسب إلى بلاد جيلان وهو من مشاهير المنجمين والفلكيين في عصره. وقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. ومن مؤلفاته كتاب «مجمل الأصول» (مكتبة المتحف البريطاني ٤٩٠ .Add. ورقة ٢٢ ب).

(٣) يعني بذلك أن يكون المنجم قد ولد في أحد الأبراج التي تشير إلى السعادة أو ترمز إلى الغيب.

(٤) هو مجمل الأصول لكوشيار. وتوجد منه نسخة ممتازة في المتحف البريطاني ٤٩٠ .Add.

(٥) كارمهتر اسم كتاب في النجوم ألفه حسن بن الخصيب من حذاق المنجمين وكان معاصراً ليحيى بن خالد البرمكي.

(٦) هو من أنفس كتب البيروني في علمي الهيئة والنجوم، وقد ألفه بين سنتي ٤٢٢ و٤٢٧ هـ (١٠٣٠ - ١٠٣٦ م) باسم السلطان مسعود الغزنوي. ويشتمل هذا الكتاب على إحدى عشرة مقالة، كل مقالة مقسمة إلى أبواب. وفي المتحف البريطاني نسخة ممتازة تشتمل على ٢٦٢ ورقة.
انظر تعليقات الأستاذ ميرزا محمد على كتاب جهار مقاله، الترجمة العربية ص ١٤٦ - ١٥٢.

(٧) الكامل جـ ١٠ ص ١٣ - ١٤.

وقد روى نظامي عروضي السمرقندي[1] قصة الحكيم الموصلي المنجم. وكان الوزير نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي يرجع إلى رأيه، ولما تقدمت به السن طلب من الوزير أن يعفيه من عمله ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه تقويماً وتحويلاً في كل عام. وقد طلب منه الوزير أن ينظر في تقويمه فينبئه بالوقت الذي يموت فيه، فقال الحكيم الموصلي: «بعد وفاتي بستة أشهر».

وكان نظام الملك يسأل كل من يأتي من نيسابور عن حال الموصلي المنجم، فإذا علم أنه سليم معافى «اعتدل طبعه وطاب قلبه إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة (١٠٩٢ - ١٠٩٣م)، فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلي، فتقدم الرجل بالتحية ثم قال: ليبقى صدر الإسلام وارثاً للأعمار، لقد مات الموصلي. فقال الوزير: متى؟ قال الرجل: ذهب فداء لصدر الإسلام في نصف ربيع الأول. فتفطر قلب الوزير الكبير، وأفاق فأعاد النظر في أعماله وفي سجل الأوقاف، ووقع الأمر بصرف الخيرات، وكتب الوصية وحرر من رضي عنه من عبيدة وفي دَيْنه، وأسعد كل من استظل بسلطانه، وطلب العفو من خصومه، وبقي ينتظر الموت حتى كان رمضان، فاستشهد على يد تلك الجماعة[2] في بغداد[3]. أنار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه».

وكان الوزير نظام الملك مولعاً بعلم النجوم مشجعاً للمنجمين. فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٧هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه السلجوقي جمعا جماعة من أعيان المنجمين فجعلوا النوروز أول نقطة من «الحمل» وكان قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت، وأصبح هذا العمل مبدأ التقويم.

وفي هذه السنة عهد السلطان ملكشاه إلى مظفر الإسفزاري بعمل الرصد، فقام جماعة من عظماء المنجمين ومن بينهم عمر الخيام وميمون بن النجيب الواسطي وغيرهم بعمل التقويم الجلالي المعروف بالرصد الملكشاهي[4]. وقد بقي هذا الرصد حتى مات السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ.

ويعتبر عمر الخيام بالإضافة إلى شهرته من مشاهير الفلاسفة والرياضيين في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس. وكان متبحراً في الفقه عالماً باللغة والتاريخ. وكان أحد

---

(١) جهار مقاله ص ٦٨ - ٦٩.
(٢) يعني الباطنية أو النزارية أتباع الحسن بن الصباح.
(٣) اتفق المؤرخون على أن نظام الملك قتل في نهاوند.
(٤) انظر نظامي عروضي: جهار مقاله تعليقات ميرزا محمد - الترجمة العربية ص ١٦٠ هامش رقم ١٨.

واضعي الزيج الملكشاهي. وقد ذاع صيته في الشرق والغرب بفضل رباعياته، وكان ملكشاه السلجوقي ينزله منزلة الندماء، ويعظمه الخاقان شمس الملوك في بخارى غاية التعظيم ويجلسه على سريره. وكان صديقاً لنظام الملك وحسن الصباح(١).

ويروي نظامي عروضي(٢) أن عمر الخيام ومظفر الاسفزاري نزلا دار الأمير أبي سعيد في مدينة بلخ سنة ٥٠٦هـ. وكان نظامي عروضي متصلاً بهذا الأمير، فسمع عمر الخيام يقول أثناء مجلس السمر: «سيكون قبري في موضع تؤرّجه ريح الشمال بشذى الورد كل ربيع». وقد أضاف نظامي عروضي أنه لما زار نيسابور سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥ - ١١٣٦م) وقد مرت أربع سنين على وفاة الخيام، ذهب لزيارة قبر أستاذه يوم الجمعة، فرأى قبره أسفل جدار بستان قد أطلّت منه أشجار الكمثرى والمشمش، وقد تناثر على القبر كثير من الزهر حتى غطاه(٣).

وفي شتاء سنة ٥٠٨هـ (١١١٤ - ١١١٥م) أرسل سنجر وهو بمرو رسولاً إلى وزيره صدر الدين محمد(٤) يقول له: «قل للإمام عمر (الخيام) يختار بضعة أيام لا يكون فيها ثلج ولا مطر حتى نخرج للصيد... فذهب الخيام وأعمل جهده يومين واختار وقتاً حسناً، ثم ذهب بنفسه وسار بصحبة السلطان، فلما ركب السلطان وسار في طريقه قليلاً تجمّعت السحب وهبت الريح وهطل الثلج وانتشر الضباب، وضحك الرّكب وهمّ السلطان بأن يعود. فقال عمر الخيام: «ليطمئن قلب السلطان! المطر سينقطع لساعته ولن تنزل هذه الأيام الخمسة قطرة منه. فسار السلطان وانقشعت السحب. ولم ينزل طلّ في هذه الأيام الخمسة، ولا رأى أحد سحاباً».

وعلى الرغم مما بلغه عمر الخيام من شأن في علم النجوم لم يعتقد في أحكامها قط، وربما كان ذلك لسيطرة العقيدة الدينية عليه، إذ ورد في الأثر الشريف «كذب المنجمون ولو صدقوا». وقد علق نظامي عروضي على أحكام النجوم بقوله: إنه برغم انتشارها لا يجوز

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩ - ٧٠.

(٣) اختلف المؤرخون في سنة وفاة عمر الخيام، فقيل سنة ٥١٧ هـ وقيل سنة ٥٢٦ هـ. ويظهر أن التاريخ الثاني أقرب إلى الصواب لأنه يتفق مع ما ذكره نظامي عروضي عن أستاذه الخيام حيث يقول: (ص ٦٩ - ٧٠) «فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسمائة وقد خلت أربع سنوات على إيداع هذا الرجل العظيم الثرى».

(٤) ابن فخر الملك أبي الفتح المظفر بن نظام الملك، وقد قتل سنجر أباه فخر الملك، وكان وزيره سنة ١١٠٦/٥٠٠، ثم أسند الوزارة إلى صدر الدين وقتله سنة ١١١٧/٥١١ بيد أحد المماليك. راجع ابن الأثير: الكامل في حوادث سنة ٥١٣ هـ.

الاعتماد عليها ولا ينبغي للمنجم أن يمعن فيها، بل عليه أن يحيل كل حكم يراه على القضاء[١]. وقد دلّل نظامي عروضي على رأيه الذي يتفق مع رأي أستاذه الخيام بقصة تتعلق بغزنوي كان قليل المعرفة بعلم النجوم، وكانت النساء يجتمعن حوله ليكتب لهن تعاويذ في الحب. وقد طلب السلطان من المنجمين أن يختاروا له طالعاً إذ عزم على حرب صدقة بن مزيد أمير الحلة حين ثار الخلاف بينهما. ولما يئس السلطان من عجز المنجمين على اختيار الطالع، تقدم هذا الغزنوي عن طريق أحد خدم السلطان ومثل بين يديه وأعد له الاختيار وشجعه على المسير على حرب صدقة.

ولما انتصر السلطان على صدقة عاب على عظماء المنجمين إخفاقهم في إعداد الاختيار، ولكنهم عابوا اختيار هذا المنجم الغزنوي ودبروا طريقة لكشف أمره. فأمر السلطان أحد ندمائه بأن يدعو المنجم الغزنوي ويشرب معه الخمر حتى تلعب بلبه ثم يسأله. فقام النديم بتنفيذ الأمر وسأل هذا المنجم فأجاب: «إني علمت أن هذا الأمر لا يعدو واحداً من اثنين: إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف، وإن حلت بهذا الهزيمة فمن ذا يبالي بي؟»[٢]. وهذا يدل على أن البعض يحترف التنجيم وهو غير عالم بأصوله، كما يدل كذلك على أن إخبار المنجمين غير صادق في بعض الأحيان.

ومن أشهر علماء النجوم في العصر السلجوقي أبو القاسم هبة الله المشهور بالبديع الأسْطُرْلابي[٣]. وكان كما يقول ابن خلكان[٤] «وحيد زمانه في علم الآلات الفلكية متقناً لهذه الصناعة» وقد اشتهر في عهد الخليفة المسترشد العباسي، ومات في سنة ٥٣٤هـ.

(ب) الفلك والنجوم في مصر والمغرب:

كان لعلم النجوم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم. فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسي للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو

---

(١) نظامي عروضي: ص ٧٠.

(٢) نظامي عروضي: جهار مقاله ص ٧١ ـ ٧٢.

(٣) نسبة إلى الاسطرلاب (بضم الهمزة وسكون السين وضم الطاء). وهي كلمة يونانية معناها ميزان الشمس، إذ كان الاسطرلاب آلة توزن بها أشعة الشمس في مواقيت مختلفة ويستعان بها في معرفة كثير من نتائج علم التنجيم القائم على أبراج الشمس وهي الحمل (بفتح الحاء والميم) والمريخ والسرطان وغيرها. وقيل إن أول من وضع الاسطرلاب هو بطليموس في المجسطي.

(٤) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٠١ ـ ١٠٢.

سهل بن نوبخت المنجم الذي أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها.

وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في هذه البلاد(١)، كما استعان جوهر الصقلي بالمنجمين ليختاروا له طالعاً سعيداً لوضع أساس مدينة القاهرة(٢)، واهتم الحاكم بعلم النجوم حتى إنه أنشأ بسفح المقطم في القاهرة رصداً أطلق عليه «الرصد الحاكمي».

وكان حكام المغرب يهتمون بعلم النجوم في عهد المرابطين السنيين، وفي عهد الموحدين الذين كان مذهبهم يميل نحو الاعتزال والتشيع. ففي عهد المرابطين نرى مالك بن وُهَيْب (بضم الواو وفتح الهاء وسكون الياء) رئيس العلماء قد أخذ بحظ وافر من علم النجوم: إذ كان حذاءً(٣) ينظر في النجوم. وكان الكهان(٤) يتحدثون بأن ملكاً من الملوك كائن بالمغرب لأمة من البربر، فقال مالك بن وهيب للسلطان علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ) محذراً إياه من ابن تومرت بأنه الرجل الذي يقصده الكهان: «احتفظ بالدولة من الرجل»(٥).

على أن مذهب الموحدين يرتكز على القرآن والسنة كما يقول الخليفة يعقوب المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ) في إحدى جلساته: «وليس لنا إلا هذا»، مشيراً إلى المصحف الشريف «أو هذا»، مشيراً إلى كتاب آخر من أمهات كتب الحديث.

ومع هذا فقد كان لعلم النجوم أهمية خاصة في نظر الموحدين، إذ كانوا يعتمدون في أعمالهم على الجفر(٦) (بفتح الجيم وسكون الفاء)، وفي طليعتهم المهدي محمد بن تومرت

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن (طبعة هنري كاسيل، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠.

(٢) ابن الجيعان: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٦ ص ٣٥. رموز وطلاسم مقلقة لا يدركها إلا العالمون بطرائقها. وظاهر القرآن الكريم يبطل زعم المؤمنين بهذه الجفور وما جاء بها من الغيبيات، إذ يقرر القرآن الكريم أن علم الغيب يختص بالله سبحانه وتعالى، كما ذكر ذلك في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى في سورة النمل (٢٧: ٦٥): ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾، وقوله تعالى في سورة هود (١١: ١٢٣). ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾.

انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٨٩ ـ ٩١.

(٣) أي متطلعاً ومتابعاً لرصد النجوم.

(٤) جمع كاهن وهو عالم من علماء الدين عند غير المسلمين، والمقصود به هنا علماء النجوم.

(٥) ابن خلدون: العبر (طبعة بيروت) جـ ٦ قسم ٢ ص ٤٦٩.

(٦) الجفور جمع جفر. والجفر من الأولاد الماعز ما بلغ أربعة أشهر. وكان القدماء يكتبون على جلود أولاد الماعز =

صاحب الدعوة الموحدية، حتى لقد قيل إنه أقر عبد المؤمن على الجيش بعد أن رأى ذلك في الجفر. ويظهر هذا الاعتقاد واضحاً في المذهب الموحدي، لأن صاحب الدعوة الموحدية ادعى المهدوية التي تعد أصلاً وهدفاً عند الشيعة الذين اعتمدوا في أخبارهم الغيبية على الجفور كما يتضح ذلك من خطبة المأمون الموحدي. وإن كان قد أنكر المبادىء الموحدية لم ينكر الأخذ بالتنجيم القائم على الجفور في أغلب الأحيان، لذلك نراه يقول في إحدى خطبه: «لا تظنوا أني أنا إدريس الذي تندرس دولتكم على يده. كلا إنه سيأتي بعدي إن شاء الله»، مشيراً بذلك إلى الإخبار بالغيب.

٣ ـ الرياضيات

ومن العناصر الأساسية في قيام الثقافة الكتابة والعدد لتيسير طرق التفاهم ووسائل التعاون بين الناس. وهما يعتبران عنصرين هامين كان لهما أثر كبير في الثقافة الأوروبية. وكان العرب وسطاء في تيسير الكتابة ونشرها في الغرب. فالحروف الأبجدية الحالية مأخوذة رسماً واسماً عن السامية، إما مباشرة أو عن طريق الفينيقيين. وقد عجز الخط اليوناني عن مجاراة الخط السامي وما طرأ عليه من تطور فني عظيم.

والغرب مدين للشرق بنظام العدد العربي. ونحن ندرك قيمة الأعداد العربية إذا ذكرنا العلوم الرياضية والميكانيكية والفلكية الحديثة عمليات في جمع أو طرح أو ضرب أو قسمة بحروف رومانية مثل CL XXXV.II وإننا لندرك صعوبة وضع هذا العدد على غلاف كتاب، كما كانت الحال قبل سنة ١٨٨٨. كما نرى أن استخدام الأعداد الرومانية مصدر أخطاء مطبعية جسيمة. والأعداد العربية المستعملة في الشرق العربي الآن هندية الأصل. أما الأعداد العربية الأصل فهي المستعملة بالمغرب العربي الآن، وقد اقتبسها الأوروبيون عن طريق الأندلس والمغرب. وكان العرب وسطاء في نقل هذه الأعداد إلى الأوروبيين بدليل كتابتها من اليسار إلى اليمين، بخلاف ما نراه في كتابة الحروف الأبجدية في معظم اللغات السامية، أي من اليمين إلى اليسار.

= ويسمون هذه الجلود جفور على سبيل التجوز. وقد زعمت الخطابية (وتنسب إلى أبي الخطاب محمد بن زينب الأسدي) أن جعفر الصادق الإمام السادس عند طائفة الإمامية الاثني عشرية أودعهم جفراً فيه علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، كما زعموا أنه لا يقرأ فيه إلا من كان منهم. ولما أعلن أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة (الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ١١، ١٥) وقال أتباعه بألوهيته (البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٣٨) تبرأ منه الإمام جعفر الصادق (الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ١٦) وانتهى الأمر بقتل أبي الخطاب على يد عيسى بن موسى في عهد أبي جعفر المنصور.

انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية ص ٨٩، ٩٠ ـ ٩١.

أما ترتيب كتابة الأعداد والصفر فهو من اختراع الهنود الذين أخذ الناس عنهم علم النجوم. ولم يعرف الأوروبيون الصفر الذي هو من اختراع الهنود أيضاً، فإن أوروبا لم تعرف شيئاً عنه قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، على حين تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه منذ زمن طويل، وكانوا يسمونه حلقة ومعناها لا شيء أو عدم وجود القيمة التي يعبر عنها المسلمون بالصفر الذي يضعه المشتغلون بعلم الحساب على العدد المعدوم. وأما لفظ Zero فهو العربي صفر بمعنى «خلا». وقد استخدم مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتي المعروف «صفر» للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا، فقال ما معناه إنهم يجلسون أمامه كالأصفار. واستخدام لفظ Zero للدلالة على لا شيء. ويعبر عن الصفر أحياناً بواسطة دائرة صغيرة، وأحياناً بواسطة نقطة.

وقد استخدم الصفر للمرة الأولى كوحدة حسابية، واستخدم لفظ صفر في الشعر الجاهلي للتعبير عن معنى «خلا» كما يتضح ذلك من هذا البيت:

تـرى أن مـا أهـلكـتُ لم يـك ضرّني وأنّ يـدي ممـا بـخلت بـه صـفـرُ

(أي خالية).

٤ ـ الفلسفة

(أ) أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥/١١١١):

تأثر مسيحيو الأندلس بدراسة القرآن والحديث، وكانوا يكتبون العربية ويتكلمون بها، كما أعجبوا بالدراسات الإسلامية وتأثروا بآراء الفلاسفة الإسلاميين. وقد أخذ الأوروبيون عن المسلمين حكم الفلاسفة بعد أن درسوا مؤلفات الكندي المتوفى سنة ٢٣٦هـ (٨٥٠م) فيلسوف العرب، وأبي نصر الفارابي (٣٣٩/٩٥٠) الذي لقب المعلم الثاني تمييزاً له عن أرسطو الذي لقب المعلم الأول. وكذلك أدخل مسيحيو الأندلس مؤلفات الرئيس أبي علي بن سينا(ت ١٠٣٧/٤٢٩) الذي نبغ في الفلسفة والطب وأحيا آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب وقصده المرضى من كل فج كما جذبه الأمراء إليهم.

كما درس الأوروبيون مؤلفات أبي بكر الرازي الذي يعرفونه باسم Phrazes، ومؤلفات حجة الإسلام الغزالي (ت ١١١١/٥٠٥) في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة.

وعن التصوف الإسلامي أخذ الأوروبيون نظام التصوف ونظام الدراويش. وتتفق الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى مع الفلسفة الإسلامية تماماً. والتصوف الأوروبي،

والألماني بوجه خاص، أقرب إلى التصوف الإسلامي والفارسي بصفة عامة، منه إلى تصوف العالم القديم. والراهب الغربي والدرويش في الشرق يتبعان في حياتهما نظاماً خاصاً وضعه مؤسس الطريقة التي يتبعها الراهب والدرويش، ولو أن هناك بعض التباين بين الخلوة والدير. وتعتبر مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦) أساس علم الاجتماع الذي أخذه الأوروبيون عن المسلمين في عصر النهضة الحديثة. وقد عالج في هذه المقدمة نواحي الاجتماع والعمران ونظم الحكم والمذاهب الدينية وغيرها. وابن خلدون أول من كتب في فلسفة التاريخ.

ويعد أبو حامد محمد الغزالي إمام عصره ووحيد زمانه في علوم الدين الإسلامي الحنيف ولا سيما في علم أصول الفقه وعلم الكلام، كما عرف بحجة الإسلام. وكان الغزالي مصلحاً دينياً واجتماعياً، فقد ثار على المجتمع وندد بما وصل إليه حال المسلمين في عصره من الانحراف عن أصول الدين القويم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله. فعمل على إيقاظ الفضيلة بين المسلمين ودعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامي إصلاحاً شاملاً لأنه لم يطمئن إلى ما وصل إليه العالم الإسلامي حينئذ من تفكك وانحلال، في الوقت الذي كان الصليبيون في أوروبا يتأهبون لاكتساح العالم الإسلامي.

ولد أبو حامد بطوس من أعمال فارس سنة ٤٥٠هـ، ثم قدم نيسابور، واختلف إلى دروس إمام الحرمين الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء)، وظهرت موهبته العلمية أثناء طلب العلم حتى نال إعجاب أستاذه الذي كان يفخر به ويثني عليه في مجالسه العلمية. وكان أبو حامد مقرباً إلى أستاذه حتى توفي، فخرج من نيسابور والتقى بنظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي الذي أعجب بمواهبه وأكرمه وقربه إليه. وقد لمع اسم الغزالي فعهد إليه الوزير بالتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ. وكانت هذه المدرسة تعد أعظم المعاهد العلمية العالية. وقد ظهر نبوغ الغزالي وعم به النفع عند تلاميذه وعلماء عصره.

ويبدو أن سعة اطلاع أبي حامد الغزالي وتبحره في العلم قد سما به نحو عالم الروح، حيث مال إلى حياة الزهد والتقشف والعزلة، فترك التدريس بالمدرسة النظامية وحج بيت الله ولما أدى مناسك الحج قصد دمشق حيث أخذ يدرس علوم الدين في زاوية المسجد. ثم انتقل إلى بيت المقدس وانصرف إلى العبادة وعاش عيشة المتصوفة، وأخذ يتردد على المشاهد والأماكن المقدسة. ثم قصد الغزالي مصر وأقام بالإسكندرية حيث التقى بالفقيه المشهور أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك، وكان الطرطوشي يقوم بالتدريس في هذه المدينة التي أقام بها حتى وفاته.

وقد ذكر ابن خلكان[١] أن أبا حامد الغزالي عزم على الرحيل إلى المغرب الأقصى لزيارة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي بعد انتصاره في موقعة الزلّاقة المشهورة على نصارى الأندلس، وكسب بهذا الانتصار مكانة أدبية في العالم الإسلامي، حتى إنه لما طلب إلى الخليفة العباسي إقراره على ملك المغرب والاعتراف له بلقب أمير المسلمين، جمع الخليفة مجلساً ضم العلماء برياسة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الذي أفتى باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب لما أحرزه من نصر مؤزر على مسيحيّي الأندلس.

وقد عزم أبو حامد الغزالي على ركوب البحر إلى المغرب، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن بلغه نبأ وفاة يوسف بن تاشفين(٥٠٠هـ)، فعاد إلى طوس وانصرف إلى الاشتغال بالعلم، ثم طلب إليه الوزير فخر الملك ابن نظام الملك بمهمة التدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور، فلبى الإمام الغزالي طلب الوزير بعد تردد، وظل يعمل بهذه المدرسة حتى عاد إلى مسقط رأسه طوس حيث وافته منيته (٥٠٥هـ)[٢].

وقد خلف لنا الغزالي آثاراً علمية خالدة. وقد قيل إنه وضع نحواً من مائتين وثمان وعشرين مؤلفاً أكثرها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ. ومن أهم آثار الغزالي العلمية:

(١) إحياء علوم الدين[٣] ويعد من أهم كتب الغزالي. وقد عم به النفع في البلاد الإسلامية وغيرها. وقد نعى الغزالي في مقدمته ما صار إليه الإسلام من افتقاد علمائه الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله «العلماء ورثة الأنبياء»، وهم الذين يقول فيهم الغزالي: «قد شغر منهم الزمان ولم يبق منهم إلا المترسمون (المقلدون). وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً به؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتى ظل عَلَم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً... فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً. ولما كان هذا ثَلْماً في الدين ملمّاً، فقد رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، إحياء لعلوم الدين وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف

(١) وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٥٣.
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.
(٣) أودعت من هذا الكتاب نسخ خطية بمكتبات فيينا وبرلين وليدن وباريس ولندن وأكسفورد، وهناك نسخة خطية بدار الكتب المصرية في القاهرة.

الصالحين»[١].

من هذا نرى أن الغزالي وضع كتابه ليلفت أنظار المسلمين إلى أصول دينهم القويم، ومشيراً إلى ما حل بالإسلام من انصراف أهله إلى شئون الدنيا وإهمالهم شعائرهم الدينية، وما نص عليه القرآن الكريم من مثل عليا وآداب اجتماعية عالية، وما انطوى عليه الحديث الشريف من قواعد دينية قويمة وحكم عالية رفيعة.

وقد نهج الغزالي في تقسيم كتابه نهجاً واضحاً، إذ قسمه إلى أربعة أقسام سماها ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات. وقد صُدِّرت جميع هذه الأرباع بكتاب العلم الذي يقول فيه الغزالي إنه غاية المهم؛ لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبّد الله على لسان رسول الله ﷺ الأعيان إذ قال رسول الله ﷺ: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»[٣] وأميِّز فيه العلم النافع من الضار؛ إذ قال ﷺ: «نعوذ بالله من علم لا ينفع» وأحقق ميل أهل العصر عن مشاكلة الصواب وانخداعهم بلامع السراب واقتناعهم من العلم بالقشر عن اللباب.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هي:

(١) كتاب العلم (٢) كتاب قواعد العقائد (٣) كتاب أسرار الطهارة (٤) كتاب أسرار الصلاة (٥) كتاب أسرار الزكاة (٦) كتاب أسرار الصيام (٧) كتاب أسرار الحج (٨) كتاب آداب تلاوة القرآن (٩) كتاب الأذكار والدعوات (١٠) كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وكذلك يشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هي:

(١) كتاب آداب الأكل (٢) كتاب آداب النكاح (٣) كتاب أحكام الكسب[٣] (٤) كتاب الحلال والحرام[٤] (٥) كتاب أدب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق (٦) كتاب العزلة (٧) كتاب آداب السفر (٨) كتاب السماع والوجد (٩) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٠) كتاب المعيشة وأخلاق النبوة.

كما يشتمل ربع المهلكات على عشرة أبواب هي:

(١) شرح عجائب القلب (٢) كتاب رياضة النفس (٣) كتاب آفات الشهوتين (شهوة البطن وشهوة الفرج) (٤) كتاب آفات اللسان (٥) كتاب آفات الغضب والحقد والحسد (٦)

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين (طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٨ هـ) جـ ١ ص ٣.
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣.
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٥٥ ـ ٦٥.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٧٩ ـ ٨٤.

كتاب ذم الدنيا (٧) كتاب ذم المال والبخل (٨) كتاب ذم الجاه والرياء (٩) كتاب ذم الكِبْر والعُجْب (١٠) كتاب ذم الغرور.

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب كذلك وهي:

(١) كتاب التوبة (٢) كتاب الصبر والشكر (٣) كتاب الخوف والرجاء (٤) كتاب الفقر والزهد (٥) كتاب التوحيد والتوكل (٦) كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا (٧) كتاب النية والصدق والإخلاص (٨) كتاب المراقبة والمحاسبة (٩) كتاب التفكّر (١٠) كتاب ذكر الموت[١].

(٢) كتاب المنقذ من الضلال

ويعد هذا الكتاب من أهم آثار الغزالي العلمية، ويعرض لمسائل علمية هي في جملتها من المسائل المتعلقة بالفلسفة، إذ يتناول موضوعات: الشك ـ انتقاد الفرق ـ النبوة والإصلاح الديني ـ مداخل السفْسطة وجحْد العلوم ـ علم الكلام ومقصوده وحاصله ـ الفلسفة وأصناف الفلاسفة ووصمة الكفر ـ الدهريون، الطبيعيون ـ الإلهيون ـ أقسام علوم الفلسفة (الرياضيات ـ المنطقيات ـ الطبيعيات) ـ الإلهيات ـ السياسيات ـ الخلقيات ـ آفتا الفلسفة (آفة الرد ـ آفة القبول) ـ مذهب التعليم وغائلته ـ طريق الصوفية ـ حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها ـ سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه[٢].

ويطول الكلام إذا حاولنا التعليق على جميع مؤلفات الغزالي، ونكتفي بطائفة من أسمائها مثل:

(١) آداب الصوفية[٣]، وقد طبع بمصر.

(٢) أيها الولد، وقد كتبه لبعض تلاميذه ويتضمن نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب.

(٣) بداية الهداية[٤].

(٤) تهذيب النفوس بالآداب الشرعية.

---

(١) المصدر نفسه جـ١ ص ٣ ـ ٤.

(٢) الغزالي: كتاب المنقذ من الضلال (مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٤) ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣) وقد طبع مع ترجمة ألمانية (فيينا١٨٣٨، ١٨٤١) كما طبع في مصر، ومنه نسخ خطية في مكتبات أوروبا ودار الكتب المصرية.

(٤) القاهرة، ومنه نسخ خطية بمكتبات باريس وبرلين ولندن والجزائر ولينينغراد.

(٥) جواهر القرآن ودرره[١].

(٦) خلاصة التصانيف. وقد ألفه الغزالي بالفارسية، وترجمه إلى العربية محمد أمين الكردي (ت ١٣٢٢هـ).

(٧) الرسائل القدسية في قواعد العقائد (الإسكندرية دون تاريخ).

(٨) فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، ويسمى المستظهري[٢].

(٩) أسرار الحج في الفقه الشافعي (القاهرة دون تاريخ).

(١٠) تهافت الفلاسفة[٣].

(١١) معيار العلم في المنطق (طبع في مصر سنة ١٣٢٩هـ)[٤].

وفي أواخر حياة الغزالي عاد إلى موطنه بطوس واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة الصوفية والتدريس حتى توفي سنة ٥٠٥هـ كما تقدم[٥].

وقد أحدثت مؤلفات الغزالي في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة أثرها البعيد في الشرق والغرب، وقام بترجمتها مسيحيو طليطلة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

(ب) ابن باجة (ت ١١٣٨/٣٣٥).

كانت الأندلس في نهاية القرن الخامس الهجري قد انقسمت إلى عدة ممالك صغيرة عرف حكامها بملوك الطوائف، وكان نصارى الشمال يهددون هذه الممالك حتى جاء المرابطون وقضوا على هؤلاء الملوك الذين انغمسوا في الترف، «ولاح إذ ذاك أن زمن الثقافة الرفيعة والبحث الحر قد انقضى» كما يقول دي بور[٦]، ولم يجرؤ على الظهور إلا رجال الدين ولا سيما رجال الحديث، أما الفلاسفة فقد كانوا عرضة للاضطهاد أو القتل، ويؤيد هذه الحقيقة إحراق كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي بأمر أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين.

---

(١) طبع بمكة وبمباي والقاهرة، ومنه نسخ خطية بمكتبة ليدن ومكتبة المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية.

(٢) وقد نشر جولدتسيهر قسماً كبيراً منه وقدم له بحثاً باللغة الألمانية (ليدن ١٩١٦).

(٣) وقد طبع في القاهرة غير مرة، كما طبع في بمباي (١٣٠٤ هـ) وترجم إلى العبرية.

(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال ص ٤ - ١٦.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٥٤.

(٦) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي ريدة (الطبعة الثانية) ص ٣٦٦.

على أنه برغم هذا نرى الأمير المرابطي أبا بكر بن إبراهيم (صهر السلطان علي بن يوسف المرابطي)، وكان يلي ولاية سرقسطة، يتخذ أبا بكر بن باجة السَّرَقُسْطي جليساً له ثم يقلده الوزارة. ولكن هذا قد أثار غضب الجند والفقهاء، وكان بين ابن باجة وبين الفتح بن خاقان عداوة راسخة، مما حمل ابن خاقان على هجاء ابن باجة في كتابه «قلائد العقيان»[١] فقد جعل ابن خاقان ترجمة ابن باجة آخر تراجم كتابه وقال فيه ما نصه:

«الأديب أبو بكر بن الصائغ هو رمدُ عين الدين وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً[٢]. فما يتشرَّع[٣] ولا يأخذ في غير الأضاليل، ولا يشرع. ناهيك من رجل ما تطهّر منْ جَنَابة ولا أظْهر مَخِيلةَ إنابة[٤] ولا استَنْجى من حَدَث، ولا أشْجى فؤاده بتَوارٍ في جَدَث[٥]، ولا أقرّ بباريه ومصوِّره، ولا قرّ بتباريه[٦] في ميدان تهوره[٧]. والإساءة إليه أجدى من الإحسان، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان. نظر في تلك التعاليم (يقصد الفلسفة) وفكّر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم، ونبذه وراء ظهره ثاني عطفه[٨] وأراد إبطالَ ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٩]. واقتصر على الهيئة[١٠]، وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فيئة[١١]، وحكم الكواكب بالتدبير واجترم على الله اللطيف الخبير، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد[١٢]، واستهزأ بقوله تعالى ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد﴾»[١٣].

وهذا يدل على مدى كراهية الفقهاء للفلاسفة وتشنيعهم بهم وتقبيحهم لآرائهم كما يدل أيضاً على مدى كراهية هذا العصر للفلاسفة واضطهادهم.

---

(١) طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ. انظر ص ٣٠٠ - ٣٠٦.
(٢) أي أنه هجر الشريعة الإسلامية وما تشتمل عليه من فروض وسنن.
(٣) أي لا يأخذ بالشريعة الغراء.
(٤) أي أنه ما أظهر ميلاً للإنابة أو التوبة إلى الله.
(٥) أشجى أي حزن والتواري الاختفاء والجدث القبر.
(٦) أي بتسابقه.
(٧) يعني أنه كان متهوراً في الدين ولم يعترف بتهوره.
(٨) يعني المتلوي سخرية من الناس وضيقاً بهم.
(٩) أي أنه يريد إبطال كتاب الله.
(١٠) أي أنه يؤمن بالطبيعة.
(١١) أي أنه رجع إلى الله.
(١٢) يعني يوم الحساب.
(١٣) المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٣٠ - ٢٣١.

لا يعرف الكثير عن حياة ابن باجة الأولى. قيل ولد سنة ٥١٣هـ (١١١٨م) حيث عاش بسرقسطة وألف فيها كثيراً من كتبه. ثم رحل إلى غرناطة وقدم على بلاط المرابطين في فاس حيث مات مسموماً بتدبير أحد حساده. ويذكر المقري[١] عن الأمير ركن الدين بيبرس في كتابه «زبدة الفكر في تاريخ الهجرة» أن ابن باجة «كان عالماً فاضلاً له تصانيف في الرياضيات والمنطق، وأنه وزر لأبي بكر الصحراوي (يعني المرابطي) صاحب سرقسطة، ووزر أيضاً ليحيى ابن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب، وأن سيرته كانت حسنة، فصلحت به الأحوال ونجحت على يديه الآمال، فحسده الأطباء والكتاب وغيرهم وكادوه فقتلوه مسموماً»[٢].

ويكاد ابن باجة يقتفي أثر فيلسوف المشرق الفارابي، فأحب العزلة مثله وضاق ذرعاً بالحياة، ولم يحاول كالفارابي أن يضع له مذهباً. ورسائله المبتكرة قليلة، ومعظمها شروح قصيرة لكتب أرسطو وغيرها من مصنفات الفلاسفة[٣] وبعضهم يرى أن ابن باجة من هواة الفلسفة لا من الفلاسفة. ويكاد ابن باجة يتفق مع الفارابي في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة. وكلاهما متأثر بآراء أرسطو (المعلم الأول). ومن أمثلة آراء ابن باجة الفلسفية «أن الموجودات قسمان» متحرك وغير متحرك. والمتحرك جسمي متناه. وهو متحرك حركة أزلية. وهذه الحركة لا يمكن القول بأنها من ذاته لأنه متناه. فلا بد في تعليل هذه الحركة التي لا تتناهى من أن نردها إلى قوة أو إلى موجـود أزكى (أعني إلى العقل)[٤].

كذلك أبدى ابن باجة رأيه في النفس والعقل فقال إن الهيولى لا يمكن أن توجد مجردة عن صورة ما. أما الصورة فقد توجد مجردة عن الهيولى، وإلا لما استطعنا أن نتصور إمكان أي تغير، لأن التغير إنما يكون ممكناً بتعاقب الصور الجوهرية... والإنسان بعروجه في درجات متتالية وترقيه من الجزئي والمحسوس وتصورهما، يكون مجموعة العقل، ويصل إلى ما هو فوق طور الإنسان وإلى ما هو إلهي. والذي يرشد الإنسان في هذا العروج هو الفلسفة»[٥].

وكذلك تعرض ابن باجة للإنسان المتوحد فقال إن الفرد لا يستطيع أن يعيش كما ينبغي. ولكي يستطيع أن يمضي في أعماله على أساس عقلي فإنه يجب عليه أن يعتزل المجتمع في بعض الأحيان. ويسمي ابن باجه كتابه في الأخلاق «تدبير المتوحد». وهو يطالب الإنسان بأن

---

(١) نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٤٠.
(٢) القفطي: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٦٣ - ٦٤. دي بور ص ٣٦٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) دي بور ص.٣٦٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٧٠.

يتولى تعليم نفسه. على أن الإنسان يستطيع بوجه عام أن ينتفع بمحاسن الحياة الاجتماعية دون أن يتأثر بمساوئها(١).

وقد اشتغل ابن باجة بالأدب ونبغ في الشعر. ومن شعره قوله يمدح الأمير أبا بكر بن إبراهيم:

هُمامٌ جوده يصف السواري وسطوتُه بغيرها البحير
وقلنا نحن كيف وراحتاه بحورٌ يلتطي(٢) فيها سرور(٣)

(حـ) ابن طفيل (ت ٥٧١/١١٧٥).

كانت الدولة المرابطية تسير على هدي الفقهاء الذين كان لهم رأي في إدارة شئون البلاد والإشراف على الحياة الفكرية. وقد ارتاب المرابطون في آراء الفلاسفة تمسكاً بمذهب السلف الصالح الذي لا يقبل أن يحيد عما جاء به القرآن والسنة، وظل الأمر على ذلك حتى قام المهدي محمد بن تومرت بدعوته التي قامت على مذهب التوحيد الكلامي المستمد من آراء علماء الكلام وفلاسفة المسلمين، وظهر فيها حرية الرأي لأول مرة في تاريخ المغرب. وكان من حسنات هذه الدولة ظهور طائفة من كبار الفلاسفة مثل ابن طفيل وابن رشد.

ولد أبو بكر محمد بن طفيل في مدينة قادس ببلاد الأندلس. وقد عاش بخلاف ابن باجة حياة هادئة وأقبل على دراسة الكتب وانقطع إلى العلم وأثر ذلك على الاختلاط بالناس. وشغف بالفلسفة وكلف بها، ولكنه لم يتخصص فيها، فقد كان يلم بآراء دون أن يتأثر بها ويؤثر فيها. لذلك كان ابن طفيل يميل إلى الاستمتاع بالتأمل أكثر من ميله إلى التأليف. كما كان يشغف بالأدب ويميل إلى الشعر، حتى نظم كثيراً من القصائد.

على أن أكبر همّ ابن طفيل أن يمزج الحكمة اليونانية بحكمة أهل المشرق ليخرج للناس رأياً جديداً في الكون. كما أثار اهتمام ابن طفيل أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع وذهب في ذلك إلى أبعد ما ذهب إليه ابن باجة، فبينما نرى ابن باجة يجعل المفكر المتوحد أو طائفة صغيرة من المفكرين المتوحدين يكونون دولة داخل الدولة كأنهم نموذج لحياة سعيدة، نرى ابن طفيل يرجع منشأ الجماعة إلى الفرد(٤).

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.
(٢) من قولهم لطى الرجل بالأرض أي لزق.
(٣) جـ ٩ ص ٢٣٢.
(٤) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

قصة حيّ بن يقظان

يتكون مسرح قصة حيّ من جزيرتين. يضع ابن طفيل في إحدى هاتين الجزيرتين المجتمع الإسلامي بما فيه من عُرف وتقاليد وعادات وأديان، ويضع في الثانية إنساناً ينشأ وينمو على الفطرة، وتسود ذلك المجتمع المشتمل على هاتين الجزيرتين نزعات دنيوية. وفي هذا العالم ملة، أو دين يُحاكي الفطرة ويدين أصحابها بها تديناً سطحياً، ثم يظهر في هذا العالم (أي في الجزيرتين) فتيان من أهل الفضل يسمى أحدهما سلامان (أو سلمان) والآخر آسال (أو أبسال) يسموان بعقلهما إلى المعرفة والتغلب على الشهوات. وأول هذين الفتيين ينزع بعقله نزعة عملية، فهو يساير دين العامة حتى يسوده. وثانيهما ينزع إلى النظر العقلي الفلسفي الصوفي، إذ يرتحل إلى الجزيرة المقابلة لجزيرته، ظناً منه أنها غير مسكونة. وفي هذه الجزيرة ينقطع هذا الفتى إلى الدرس والزهد.

وحي بن يقظان الذي نحن بصدده قد ترعرع في هذه الجزيرة حتى أصبح فيلسوفاً كاملاً؛ وربما قد جيء به إلى أرضها وهو طفل أو نشأ فيها بالتولد الطبيعي من العناصر الأرضية وأرضعته ظبية، ثم توصل إلى تحصيل حاجاته المادية بوسائله الخاصة، واستطاع بالملاحظة والتفكير أن يتوصل إلى معرفة الطبيعة والسماء ومعرفة الله ومعرفة نفسه. وقد توصل حي بن يقظان وهو في التاسعة والأربعين من عمره إلى الله، أي أنه بلغ ما يبلغه الصوفية من الشهود لله والفناء فيه.

عند ذلك لقي حي بن يقظان آسال (الذي سما إلى النظر العقلي والتصوف). ولم يكن حي يعرف اللغة، ولكنه استطاع أن يتفاهم مع آسال بعد جهده، حيث ظهر أن فلسفة حي وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة، ولكنها عند الأول أكثر وضوحاً منها عند الثاني.

ولما عرف حي أن في الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها ما تزال تتخبط في دياجير الخطأ صحت عزيمته على أن يذهب إلى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة. فعلمته التجربة عند هؤلاء القوم أن العامة لا قدرة لهم على إدراك الحقيقة مجردة، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان على صواب؛ إذ بين للناس الحقيقة بضرب الأمثال الحسية، ولم يكاشفهم بالنور الكامل (وهو نور الله سبحانه وتعالى).

وبعد أن انتهى حي بن يقظان إلى هذه النتيجة عاد مع صديقه آسال إلى جزيرتهما الأولى الخالية ليعبدا ربهما عبادة روحية خالصة ما بقي في حياتهما[1].

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام الترجمة العربية ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩.

وفي هذه القصة يصور ابن طفيل حياة الإنسان والأطوار التي يجب أن يتطور فيها حتى يصل إلى الكمال، غير أن ابن طفيل لا يرى أن الفرد يستطيع وحده (معتزلاً عن المجتمع) أن يبلغ الكمال وأن يسمو إلى الحقيقة. وإذا استطاع فرد بطريق التصوف والعزلة أن يسمو إلى معرفة الله، فإن ذلك لا يتأتى لكل البشر. ومن هنا بعث الله سبحانه وتعالى الرسل إلى الناس، وكانت رسالة محمد ﷺ التي بعث بها إلى الناس كافة.

وتتمثل في قصة حي بن يقظان الأطوار التي مر بها الدين، كما يتمثل تطور الحكمة الهندية والفارسية واليونانية.

وقد صور ابن سينا قبل ابن طفيل بقرنين الإنسان وتطوره، واعترف ابن طفيل بذلك ولكن ابن طفيل صور العقل الإنساني الطبيعي الذي يشرق عليه نور من العالم العلوي، على أن هذا العقل يجب ـ بحسب منطق ابن طفيل ـ أن يتفق مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام. وكان ابن طفيل في هذا سائراً في نفس الطريق الفلسفي الذي سار فيه مفكرو المشرق من أن الدين يجب أن يقصر على العامة، إذ لا قدرة لهم على المضي فيما وراءه؛ أما الفلاسفة فهم القادرون على ما وراء ظواهر الدين. وعلى هذا فكلام النبي ﷺ ينطوي على تأويلات لا يسمو إليها إلا المفكرون. ومن المؤكد أن التفكير لا يتسنى لأحد إلا بعد بلوغ سن معينة. ويعتبر الاشتغال بالأمور المادية كالصناعات والعلوم خطوة طبيعية للوصول إلى الكمال الروحي.

ويعنى ابن طفيل بنشاط حي بن يقظان الصوفي الذي يحل محل العبادات التي فرضتها الشريعة الإسلامية على الدهماء. فالرجل الصوفي أسمى من المتعبد العادي. ولعل في ذلك مسحة من الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية. وقد تبينت لحي الغاية التي يرمي إليها من التماس الواحد في كل شيء والاتصال به، وهو يرى أن الطبيعة جميعها تنجذب نحو الواحد وهو الله سبحانه وتعالى. والإنسان هو أسمى المخلوقات لأنه القادر على الفكر، وهو يأكل النباتات والفواكه الناضجة ولا يأكل من الحيوان إلا الضروري، وهذا ما التزمه حي بن يقظان لمطالب جسده المادية. أما روحه فهي مرتبطة بالعالم العلوي، وهو يتشبه بالعالم الذي يعيش فيه، فهو بذلك يفيد ويستفيد. كما يرى أنه يجب أن يحيى حياة بريئة من شوائب المادة وأن يتعهد النبات ويحمي الحيوان ملتزماً النظافة والعناية بملبسه، منسق الحركات ليماثل الأجرام السماوية المعتدلة. وهكذا يصبح حي بالتدريج قادراً على أن يسمو بنفسه فوق الأرض والسماء، حتى يصير حقّاً صرفاً. وهذه هي حالة الفناء التي يريدها المتصوفة(١).

---

(١) انظر دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام الترجمة ص ٣٧٩ ـ ٣٨٣.

(د) ابن رشد (ت ٥٩٥/١١٩٨م)

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس في سنة ٥٢٠ـ (١١٢٦م) ونشأ في بيت عريق في العلم والأدب، وذلك في أعقاب ملوك الطوائف الذين عرف عصرهم بالعصر الذهبي في الأندلس، ذلك العصر الذي بلغت فيه هذه البلاد أوج عزها الفكري والحضاري، كما بدأت حرية الفكر ببلاد المغرب بظهور المهدي محمد بن تومرت.

وقد ظهر ابن رشد في ميدان الفكر والفلسفة بعد أن زالت الدولة المرابطية التي كانت تناهض الفلسفة والفلاسفة. وقد قيل إن ابن طفيل هو الذي أخذ بيد ابن رشد ودفعه إلى الحياة العامة فقدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سنة ٥٤٨هـ. ولم يكن هذا الأمير الموحدي قد تولى الحكم قبل سنة ٥٥٨هـ. ولكن هذا الأمير كان مشغوفاً بمجالسة العلماء والفلاسفة.

ويقال إن هذا الأمير سأل ابن رشد عن اسمه واسم أبيه ونسبه، ثم بادره بقوله: ما رأي الفلاسفة في السماء؟ أقديمة هي أم حادثة؟ فاستولى الحياء وأخذ الخوف يستولي على ابن رشد وخشي أن يبطش به الأمير، وأخذ يتعلل وينكر اشتغاله بالفلسفة. ولكن الأمير ظل يتكلم في هذه المسألة مع ابن طفيل، فأعجب ابن رشد بغزارة علم الأمير ومعرفته بفلسفة أرسطو وأفلاطون والمتكلمين وفلاسفة المسلمين. عند ذلك ذهب الخوف عن ابن رشد وأخذ يتكلم دون خوف أو وجل من بطش الأمير، الذي أعجب به، فقربه منه، وكلفه بشرح مذهب أرسطو(١).

وقد قام ابن رشد بهذا العمل على أكمل وجه، «فأورث الإنسانية علم أرسطو كاملاً بريئاً من الشوائب».

وكان ابن رشد إلى جانب هذا فقيهاً وطبيباً، إذ تولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥هـ. وكان في سنة ٥٧٨هـ طبيباً للسلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ـ٥٨٠هـ)، ثم تقلد ابن رشد القضاء ثانية في قرطبة مسقط رأسه، وشغل المنصب الذي شغله أبوه وجده من قبله.

غير أن الأيام تنكرت لابن رشد حين حل السخط بالفلاسفة فصارت كتبهم يلقى بها في النار. فنرى أبا يوسف يعقوب المنصور (٥٥٨ ـ ٥٩٥/١١٨٤ ـ ١١٩٩) يأمر بإبعاد ابن رشد، وقد بلغ سن الشيخوخة، في بلدة قريبة من قرطبة تدعى أليسافة، ثم يستدعيه إلى مدينة

---

(١) راجع مادة ابن رشد في دائرة المعارف الإسلامية.
Ernest Revan, Averoès et L´Averoisme

مراكش حاضرة الموحدين، فتحين منيته في هذه المدينة سنة (٥٧٥ ـ ١١٩٨ م) وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره[١].

ابن رشد وأرسطو:

وقف ابن رشد حياته على دراسة أرسطو، فتناول كل ما استطاع أن يحصل عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف أو من شروحها بالدراسة العميقة والمقارنة الدقيقة، وقد اطلع على ما ترجم به من كتب اليونان التي ضاع أغلبها فيما بعد، أو وصل إلينا بعضها ناقصاً. وقد اتبع ابن رشد في شروحه الطريقة المبنية على التحليل الدقيق والنقد السليم، وهو في شرحه لفلسفة أرسطو يوجز حيناً ويطنب حيناً آخر، فنرى الشروح ملخصة أو مبسوطة، وقد أطلق عليه «دانتي» في كتابه «الكوميديا الإلهية» لقب الشارح، فكان ذلك اصطلاحاً جرى عليه الفلاسفة بعد دانتي.

وقد بلغ فلاسفة المسلمين شأواً بعيداً في فهم فلسفة أرسطو وتقريبها إلى الأذهان بفضل ابن رشد.

كان ابن رشد يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكمل والمفكر الأعظم الذي استطاع أن يكشف عن الحقيقة وأن الزمن لن يستطيع أن يغير من آراء فيلسوف اليونان العظيم.

وكان ابن رشد شديد الوطأة في نقد المعلم الثاني أبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ) والرئيس أبي علي بن سينا (ت ٤٢٩هـ). ونرى ابن رشد في نقده لأسلافه أقسى من أرسطو في نقده لأفلاطون، على حين نراه يبالغ في مدح أرسطو إذ يرى مذهب أرسطو ـ إذا فُهم على حقيقته ـ لا يتعارض مع أسمى معرفة يستطيع أن يبلغها إنسان. «بل كان يرى أن الإنسانية في مجرى تطورها الأزلي بلغت في شخص أرسطو درجة عالية يستحيل أن يسمو عليها أحد، وأن الذين جاءوا بعده تجشموا كثيراً من المشقة وإعمال الفكر لاستنباط آراء انكشفت بسهولة للمعلم الأول. وستتلاشى بالتدريج كل الشكوك والاعتراضات على مذهب أرسطو، لأن أرسطو إنسان فوق طور الإنسان، وكأن العناية الإلهية أرادت أن تبين فيه مدى قدرة الإنسان على الاقتراب من العقل الكلي. وابن رشد يعتبر أرسطو أسمى صورة تَمَثَّلَ فيها العقل الإنساني، حتى إنه ليميل إلى تسميته بالفيلسوف الإلهي»[٢].

---

(١) المراكشي ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢٨٦.

ويتضح إعجاب ابن رشد بأرسطو في كتابه تهافت التهافت وفي مقدمة كتابه الطبيعة.

وابن رشد من المتعصبين لمنطق أرسطو، فهو يرى أنه لا سعادة لأحد دونه، ويأسف لأن سقراط وأفلاطون لم يكونا على علم بمنطق أرسطو، وسعادة الإنسان تكون على قدر معرفته بهذا المنطق.

وكان ابن رشد يهتم في علم اللغة بما هو مشترك بين جميع اللغات متأسياً في ذلك بأرسطو الذي راعى هذا في كتاب «العبارة» وفي كتاب «الخطابة» إذ كان يضع نصب عينيه هذا العنصر المشترك بين لغات الخلق جميعاً.

يرى ابن رشد أن الحقيقة قد تضمنتها آراء أرسطو، ومن هنا نظر إلى علم الكلام عند المسلمين نظرة عابرة. نعم إن ابن رشد يؤمن بالإسلام على أنه حقيقة من نوع خاص[١]. ومع إيمان ابن رشد بالإسلام فإنه لا يؤمن بعلم الكلام؛ لأن هذا العلم يهدف إلى إثبات أشياء يعتذر إثباتها بمناهج أرسطو التي تقوم على المنطق، «ويذهب ابن رشد إلى ما ذهب إليه إسبينوزا من أن الوحي الذي جاء به القرآن لا يرمي إلى إعطاء الناس علماً، وإنما يرمي إلى إصلاحهم، وليس غرض الشارع في رأيه تلقين العلم، بل غرضه أخذ الناس بالطاعة، وبالأعمال الصالحة، لأن الشارع يعلم السعادة الإنسانية لا تتحقق إلا في مجتمع»[٢].

وأظهر ما يميز ابن رشد عن فلاسفة الإسلام ولا سيما ابن سينا، هو كيفية تصوره للعالم على أنه عملية تغيّر وحدوث منذ الأزل. والعالم في جملته وحدة أزلية ضرورية لا يجوز عليها العدم، ولا يمكن أن يقوم على ما هو عليه. وإذا كان التغير داخل نظام الكون أزلياً فإنه يستلزم حركة أزلية، وهذه تحتاج إلى محرك أزلي. ولو كان العالم حادثاً لتحتم علينا القول بوجود عالم آخر حادث نشأ منه، وهكذا إلى غير نهاية. ولذلك يذهب ابن رشد إلى أن القول بأن العالم كله متحرك منذ الأزل ضرورة، هو وحده الذي يضمن لنا إمكان الوصول إلى إثبات موجود مفارق للعالم محرك له منذ الأزل. وهذا الموجود بإيجاده تلك الحركة الدائمة وبإيجاده لنظام العالم البديع خليق بأن يسمى موجد العالم.

وكذلك يرى ابن رشد أن ماهية المحرك الأول أي الإله وماهية عقول الأفلاك هي أنها فكر تتجلى فيه الوحدة العقلية الوجودية.

والموجودات العقلية (أي الأفكار) تتجلى فيها الوحدة أو كمال الوجود، وكل العقول

---

(١) يقصد أن الدين قائم على الغيب وليس على المنطق في أغلب الأحيان، وهو يؤمن بغيبيات الدين. وهذا هو معنى قوله إن الدين حقيقة من نوع خاص.
(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨٩.

تعقل ذاتها ولكن في معرفتها بذاتها صلتها بالعلة الأولى. وابن رشد يجزم بأن تعلق النفس الإنسانية بجسدها كتعلق الصورة بالهيولى، فهو يقول بهذا جاداً غاية الجد، وهو يرفض المذهب القائل بعدم فناء النفوس الجزئية المتكثرة[١] رفضاً باتاً، مخالفاً في ذلك مذهب ابن سينا. ولا بقاء للنفس عنده إلا باعتبارها كمالاً لجسدها.

ويشتمل مذهب ابن رشد على ثلاثة آراء: إلحادية تجعله مخالفاً للديانات السماوية الثلاث وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام، وأولها قوله بقدم العالم المادي والعقول المحركة له[٢]، وثانيها قوله بارتباط حوادث الكون جميعها ارتباط علة بمعلول على وجه ضروري لا يترك مجالاً للعناية الإلهية أو للخوارق أو نحوها، وثالثها قوله بفناء جميع الجزئيات[٣]، وهو قول يجعل الخلود الفردي غير ممكن.

وعلى كل فابن رشد مفكر جريء منطقي لا اضطراب في فكره، وإنْ لم يكن مفكراً مبتدعاً. وعلى الرغم من تولّيه مناصب قضائية إسلامية فكثيراً ما هاجم المتكلمين وغيرهم من فقهاء المسلمين؛ فقد كان ابن رشد قاسياً على الذين يقولون إنّ الخير خيرٌ لأن الله أمر به، والشر شر لأن الله نهى عنه. ويقول إن العمل يكون خيراً أو شراً لذاته أو بحكم العقل، والعمل الخلقي هو الذي يصدر فيه الإنسان عن معرفة عقلية. وينبغي بالطبع ألا يكون مرجعنا الأخير إلى عقل الفرد بل إلى ما تمليه مصلحة الدولة.

وابن رشد ينظر إلى الدين أيضاً بعين النظر السياسي، فهو يعظم الدين لما يرمي إليه من غايات خلقية، ويقول إن الواجب يحتم على الناس أن يؤمنوا بما جاء به الكتاب كما هو؛ وما في الكتاب حقٌّ، وهو يروى في صورة قصص لأنه موجه إلى أطفال كبار، ومجاوزة العامة ذلك شرٌّ لهم.

على أن ابن رشد يرى أنه يجوز للفلاسفة أن يؤولوا آيات القرآن وهم إذ يفهمون مراميه على نور يكون في ذلك الحقيقة العليا[٤].

وقد أثرت مؤلفات ابن رشد في الأندلس وفي الفكر الأوروبي ولا سيما في إيطاليا حتى القرن السادس عشر الميلادي. «وكان لمذهبه أتباع من المسلمين والأوروبيين. وعلى الرغم من

(١) أي المتوالدة تناسليا.

(٢) بمعنى أنه لم يجعل الله سبحانه هو القديم وحده كما قالت بذلك الكتب السماوية بل إن العالم قديم كذلك.

(٣) وبهذا لا يمكن أن يكون هناك بعث.

(٤) انظر دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٩٤ ـ ٣٩٨.

أن جامعة باريس عملت على اضطهاد أتباعه، فقد عادت فطلبت من خريجيها ألا يعلموا تلاميذهم إلا المعلومات التي تتفق مع تعاليم أرسطو كما قررها ابن رشد.

(هـ) محيي الدين بن عربي[١] (ت ٦٣٨/١٢٤٠)

ويعتبر محيي الدين بن عربي من أشهر فلاسفة ومتصوفة الأندلس. ولد ابن عربي بِمُرْسية في شهر رمضان سنة ٥٦٠هـ ونشأ بها وتلقى العلم فيها حتى انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨هـ وأقام حتى سنة ٥٩٨هـ. ثم اختلف إلى كثير من بلاد المشرق كمصر والحجاز وبغداد والموصل وأخذ على كبار علمائه من أمثال الحافظ السّلفي وابن عساكر وأبي الفرج ابن الجوزي. ثم رحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة طويلة، ثم ذهب إلى دمشق وظل بها حتى مات.

وقد اشتهر ابن عربي بالتصوف وأخذ نفسه بالزهد والتقشف وحرمان النفس من ملذات الحياة ليخلص إلى الله سبحانه وتعالى. وكان ابن عربي يدين بعقائد المذهب الظاهري الذي أخذه عن ابن حزم الأندلسي، كما كان يجنح في تصوفه نحو مذاهب الشيعة. وكان ابن عربي «محصلاً بفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلحق به والتقدم الذي لا يسبق»[٢]. ولابن عربي مؤلفات قيمة في الفلسفة والتصوف نخص بالذكر منها:

(١) كتاب ضمنه مقامات رأى فيها النبي ﷺ ومنامات حدث بها عن النبي.

(٢) كتاب خيار مشايخ العرب وزهادهم.

(٣) كتاب الفتوحات المكية (ويقع في عدة أجزاء) ويشهد بطول باعه في التصوف والتأثر بالمذهب الشيعي، حتى إنه كتب كثيراً عن المهدي المنتظر، وأشراط الساعة بظهور المسيح الدجال ثم المسيح عليه السلام، والأئمة العلويين ولا سيما الأئمة الاثنا عشرية، حتى لقد وصفه المقري[٣] بقوله إنه كان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات[٤]. ويغلب على الظن أن البابية والبهائية في إيران قد تأثروا إلى حد بعيد بآراء محيي الدين بن عربي، ولكنهم غلوا في تشيعهم ومبادئهم. كما تأثر به كثير من متصوفي مصر، نخص بالذكر منهم الشيخ الشعراني[٥] والشيخ علي الخواص، والشيخ عبد الوهاب العفيفي وغيرهم من

---

(١) كان يعرف بالمغرب بابن العربي، واصطلح أهل الشرق على تسميته بابن عربي بدون الألف واللام.
(٢) المقري جـ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٣.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٦٣.
(٤) أي أنه أخذ عن الشيعة مذهب التأويل.
(٥) المقري جـ٢ ص ٣٧٨.

المتصوفة. ومن هذا نرى كيف سمى المؤرخون ابن عربي إمام المتصوفة في العالم العربي.

ولما صنف ابن عربي كتابه «الفتوحات المكيـة» كان يكتب كل يوم ثلاث كراسات(١).

(٤) تلقين المهتدي.

(٥) الأحكام الكبرى والوسطى والصغرى.

(٦) كتاب التهجد.

(٧) كتاب العافية.

(٨) كتاب المعارف الإلهية.

(٩) كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم.

(١٠) رسالة مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية.

(١١) كتاب فصوص الحكم(٢).

ومما قاله ابن عربي في كتابه هذا: «اعلم أن القلب (أعني قلب العارف بالله) هو من رحمة الله، وهو أوسع منها، فإنه وسع الحق جل جلاله ورحمته لا تسعه(٣). هذا لسان العموم من باب الإشارة، فإن الحق راحم ليس بمرحوم، فلا حكم للرحمة فيه(٤). وأما الإشارة من لسان الخصوص فإن الله وصف نفسه بالنفس وهو من التنفيس، وإن الأسماء الإلهية عين المسمى وليس إلا هو».

وقد قال ابن عربي في الفص الثالث والعشرين(٥) الذي عقده تحت عنوان «الحكمة الإحسانية»: موضوع هذا الفص الإحسان، وهو في اللغة فعل ما ينبغي أن يفعل الخير بالمال أو بالقول أو بالعمل. وفي الشرع أن تتوجه إلى الله في عبادتك بكليتك وتتمثله في محرابك، كما ورد في الحديث المشهورعندما سئل النبي عن الإحسان ما هو؟ فقال أن تعبد الله كأنك تراه، وهو (أي الإحسان) في عرف أصحاب وحدة الوجود شهود الحق(٦) في جميع المراتب الوجودية

---

(١) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٦٥.

(٢) نشره الدكتور أبو العلا عفيفي (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٩.

(٣) يعني أن قلب العارف بالله، أي قلوب المتصوفة، أكبر وأعظم من رحمة الله، لأن هذه القلوب وسعت الله جل شأنه، على حين أن رحمة الله لا تسعه، لأن الرحمة جزء صغير من فضل الله وصفاته جل شأنه، على حين أن القلب الله ذاتاً وصفاتاً.

(٤) يعني أن الرحمة فضل من الله وليس الله فضلاً منها لأنه سبحانه صانع الرحمة.

(٥) المصدر نفسه: تعليقات الدكتور أبو العلا عفيفي ص ٢٧٦.

(٦) يعرفه باصلاح أهل الباطن.

والتحقق من أنه متجل في كل شيء. وهذا الأخير[١] هو المعنى الذي يدور عليه هذا الفص (أي الباب). والذي يستخلصه المؤلف (يعني نفسه) من الآيات الواردة في حق لقمان في قوله تعالى ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[٢] ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾[٣]. فلقمان في هذا الفص لسان من ألسنة وحدة الوجود.

وقد زاد في شهرة ابن عربي تفوقه في الأدب ولا سيما الشعر، ومن شعره الصوفي قوله في الله جل شأنه:

يا مَنْ يراني ولا أراه ... كم ذا أراه ولا يراني

وقد سئل ابن عربي في قوله إنه يرى الله ولا يراه الله فقال مرتجلاً:

يا مَنْ يراني مجرما ... ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعًما ... ولا يراني لائذا

وهذا يؤكد أن ابن عربي كان يأخذ بمبدأ التأويل الذي سار عليه الشيعة وجمهرة المتصوفين، على حين أنه كان ظاهرياً في العبادات كالصوم والصلاة والزكاة والحج. من ذلك قوله في ضبط ليلة القدر التي اختلف الفقهاء في تحديدها:

وإنّا جميعاً إن نَصمْ يوم جُمعة ... ففي تاسع العشرين خذ ليلة القدرِ
وإنْ كان يوم السبت أول صومنا ... فحادي وعشرين اعتمده بلا عذر
وإن تَصُم الشهر في أحدٍ فخذْ ... ففي سابع العشرين ما شئتَ فاستَقْري
وإن هلّ بالاثنين فاعلمْ بأنه ... يواتيك نيل المجد في تاسع العَشْر
وفي يوم الثلاثاء إنْ بدا الشهر فاعتمد ... على خامس العشرين فاعمل بها تدري
وفي الأربعا إن هلّ يا من يرومها ... فدونك فاطلب وصلها سابع العَشْر
ويوم خميس إن بدا الشهر فاجتهدْ ... ففي ثالث العشرين تظفرُ بالنصر
وضابطها بالقول ليلةُ جُمْعةٍ ... توافيك بعد النصف في ليلة الوِتر[٤]

ويروي المقري عن الإمام الصيفي بن ظافر الأوزي قوله في ابن عربي[٥]: «وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية، ومنزلته

---

(١) يعني اصلاح أهل الباطن.
(٢) سورة لقمان ٣١: ١٣.
(٣) سورة لقمان ٣١: ١٦.
(٤) المقري جـ٢ ص ٣٦٨.
(٥) المقري: نفح الطيب جـ٢ ص ٣٨١.

شهيرة، وتصانيفه كثيرة، كأنْ غلب عليه التوحيد علماً وخُلُقاً وحالاً، لا يكترث بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً. وله علماء أتباع، أرباب مواجيد وتصانيف».

«ولو قيس ابن عربي بغيره من كبار مؤلفي الإسلام المتفلسفين أمثال ابن سينا والغزالي، لبذهم جميعاً في ميدان التأليف من ناحية الكم والكيف على السواء. أما من ناحية الكم فقد ألف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة على قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢هـ، أو خمسمائة كتاب ورسالة على حد قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب«نفحات الأندلس»، أو أربعمائة كتاب كما يقول الشعراني في اليواقيت والجواهر. وقد وصفه بروكلمان بأنه مؤلف من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً»[1].

(٥) التاريخ

(أ) مؤرخو المشرق الإسلامي:

وقد زخر أواخر العصر البويهي والعصر السلجوقي في الشرق ومصر والمغرب والأندلس بطائفة كبيرة من المؤرخين الذين أمدونا بمادة غزيرة تصور لنا ما وصلت إليه الدراسات التاريخية من نهضة مباركة في ميدان الثقافة الإسلامية.

وقد وضع أبو نصر العُتْبي (بضم العين وسكون التاء) (ت ٤٢٨هـ) كتابه عن حياة السلطان محمود الغزنوي وسماه «تاريخ اليميني» نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوي (القاهرة ١٢٨٦هـ) ويقع في جزأين.

وهناك ثلاثة من المؤرخين هم أبو الحسن مسكويه (ت ٤٢١هـ) وهلال الصابي (ت ٤٤٨هـ) وأبو شجاع (ت ٤٨٨هـ).

ويعتبر تاريخ مسكويه المسمى «تجارب الأمم» من أهم الكتب التاريخية، ويتناول جزء منه الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبري، وينتهي في سنة ٣٦٩هـ. ولا يكتفي مسكويه بذكر الحوادث التاريخية بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة. وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية. وقد تناول مسكويه بإسهاب تاريخ الصدر الأول من عصر بني بويه.

وقد نشر المستشرقان دي غويه ودي يونج جزءاً من كتاب تجارب الأمم، ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية التي وقعت من خلافة المأمون سنة ١٩٨هـ إلى أواخر خلافة المستعين

---

(١) فصوص الحكم، نشره أبو العلا عفيفي (القاهرة ١٩٤٦) ص ٥

(٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ) سنة ٢٥١هـ. وقد نشر المستشرقان دي غويه ودي يونج أيضاً الجزء الثالث من كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول، ويتناول الحوادث التاريخية من خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦هـ إلى نهاية خلافة المعتصم العباسي سنة ٢٢٧هـ. (ص ١ ـ ٤١٠) وذيلاه بهذا الجزء من كتاب تجارب الأمم لمسكويه (ص ٤١١ ـ ٥٨٣) (ليدن ١٨٦٩ ـ ١٨٧١).

وقد ذيل ظهير الدين محمد الحسين الدوذراوري وزير الخليفة العباسي المقتدي (٤٧٦ ـ ٤٨٧هـ) المعروف بأبي شجاع تاريخ مسكويه بتاريخه الذي تناول فيه الكلام على الحوادث التي وقعت بين سنتي ٣٦٩ و٣٨٩هـ. ثم تلاه هلال الصابي في تاريخه الذي ذيل به «أمدروز» كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣هـ، ونقله عنه «مرجليوث».

كما تناول هلال الصابي الكلام على الحوادث التي وقعت بين سنتي ٣٨٩هـ و٣٩٣هـ. وترجمها مرجليوث إلى الإنجليزية.

وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة في القاهرة سنتي ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤م.

ويعد كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ) بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابي. ويظهر أن ابن القلانسي اعتمد كثيراً على كتاب أبي شجاع وكتاب هلال. وكذلك يعد كتاب ابن القلانسي من كتب التاريخ العامة، لأنه يتناول فترة طويلة تتعلق بجزء كبير من أنحاء العالم الإسلامي تمتد بين سنتي ٣٦٠ و٥٥٥هـ، كما يعد هذا الكتاب ذا صفة محلية، لأنه يتناول الحوادث التي جرت في الشام والجزيرة ولا سيما ما يتعلق منها ببيت عماد الدين زنكي الذي كان معاصراً له، وكان شاهد عيان لما وقع بين زنكي وحكام دمشق من حروب وما أبرم من معاهدات وجرى من مفاوضات، ويمكن الاعتماد على المعلومات التي أوردها ابن القلانسي عن أسرة زنكي وعلاقتها بالصليبيين. على أنه يلاحظ على أسلوب ابن القلانسي كثرة السجع والتكرار اللذين يثيران الملل في نفس القارىء.

وتعتبر مؤلفات أبي الريحان البيروني الخوارزمي (ت ٤٤٠هـ) من أهم مصادر التاريخ والاجتماع. وقد قضى البيروني حياته تحت كنف مأمون بن مأمون أمير خوارزم، ثم زار حول سنة ٣٩٠هـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي اشتهر في طبرستان بتشجيع العلماء، وأهدى إليه البيروني تاريخه المشهور «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذي نشره إدوارد سخاو Sachau مع ترجمته الإنجليزية (لندن ١٨٧٩ وليبزج ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩). ويتناول هذا الكتاب القيم نظم الطوائف والجماعات المختلفة والاحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص.

ثم عاد البيروني إلى موطنه خوارزم حيث قضى بقية حياته في بلاط محمود الغزنوي صاحب الفتوح المشهورة في بلاد الهند التي غزاها اثنتي عشرة مرة ونشر الإسلام في كثير من ربوعها. وقد صاحب البيروني السلطان محمود الغزنوي في أغلب غزواته لبلاد الهند حيث لزم البيروني العلماء والفلاسفة وتعلم اللغة السَّنْسِكْرِيتية، واتسعت ثقافته بما أفاد من العلماء الهنود في التاريخ والرياضة والجغرافيا والعلوم الطبيعية.

وفي هذه الرحلات جمع البيروني علوم الهند ومذاهبهم وعاداتهم، وهي المعلومات التي ألف منها كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، ويعرف باسم «تاريخ الهند»(١). ومن هذا الكتاب يتضح أن البيروني كان ملماً باللغة السنسكريتية وبقليل من العبرية والسريانية، وأنه لم يكن يعرف اليونانية، بل استقى كثيراً من معلوماته عنها من التراجم العربية أو السريانية. وقد قيل إن مؤلفات البيروني أربت على المائة مؤلف.

وللبيروني أيضاً كتاب «تاريخ خوارزم». ويقال إنه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بوطنه وخاصة الوقائع التاريخية التي شاهدها بنفسه. وقد أورد أبو الفضل البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه «تاريخ المسعودي».

ومن مؤلفات البيروني كتاب «التفهيم في صناعة التنجيم» وهو في مقدمات علم الهيئة والهندسة والنجوم بطريق السؤال والجواب. وقد ألفه حول سنة ٤٢٠/١٠٢٩ (وقيل سنة ٤٢٥/١٠٣٣)، وقدمه لريحانة بنت الحسن الخوارزمية، وكتبه باللغتين العربية والفارسية، غير أنه جعل إحداهما ترجمة للآخر(٢).

ومن مصادر العصر السلجوقي كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد ابن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ). ولو لم يكن للخطيب البغدادي كما يقول ابن خلكان(٣) «سوى التاريخ لكفاه». وقد خلف الخطيب البغدادي نحو مائة كتاب. وكان فقيهاً يغلب عليه الحديث والتاريخ. وكان الخطيب البغدادي حافظ المشرق كما كان ابن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» حافظ المغرب. وقد ماتا في سنة واحدة.

وكتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام من أمهات الكتب التي يعتمد عليها في دراسة

---

(١) نشره إدوارد سخاو وطبعت نسخة هذا الكتاب العربية مع ترجمتها الإنكليزية على نفقة حكومة الهند (لندن ١٨٨٧).

(٢) ويوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة في مكتبات أوروبا. انظر كتاب جهار مقاله، تعليقات ميرزا محمد، الترجمة العربية ص ١٤٦ - ١٤٨.

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٦.

تاريخ الدولة العباسية من تأسيس مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف. ويشتمل هذا الكتاب على وصف مدينة بغداد وأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وغيرهم. ويقع هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً، ويتناول تاريخ الدولة العباسية في أزهى عصورها وفي أيام انحلالها.

ومن أشهر المؤرخين علي بن أحمد بن أبي الكرم بن الأثير (ت ١٢٣٢/٦٣٠) الجزري، وينسب إلى موطنه الأصلي جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل، ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل وأخذ العلم على بعض علمائها، ثم قدم بغداد مراراً بعد أن أدى فريضة الحج وسمع من شيوخها، ثم رحل إلى الشام وبيت المقدس وسمع بها، ثم عاد إلى الموصل مسقط رأسه وانصرف إلى العلم والتأليف، واشتهر بتبحره في علم الحديث والتاريخ وعلم الأنساب. وقد اختصر كتاب الأنساب للسمعاني واستدرك عليه في مواضع كثيرة وسماه كتاب «اللباب في معرفة الأنساب»، ويقع في ثلاثة مجلدات.

وقد لقي ابن الأثير شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١هـ) في مدينة حلب سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩ م) وتردد عليه كثيراً وانتفع بعلمه وأثنى على فضله وتواضعه وكرم أخلاقه. وفي السنة التالية رحل ابن الأثير إلى دمشق ثم عاد إلى حلب حيث انتفع ابن خلكان بعلمه، ثم عاد إلى الموصل.

ويعتبر كتاب «الكامل في التاريخ» من المصادر الأصيلة التي يعتمد عليها في دراسة التاريخ الإسلامي، وعلى الأخص ما يتعلق منه بالحوادث التي وقعت بعد سنة ٣٠٢هـ. وهي السنة التي انتهى إليها الطبري في تاريخه. والجزء الذي تناول فيه ابن الأثير الكلام على بني بويه من أهم ما كتب عن هذه الدولة. ولعل ابن الأثير استمد أكثر معلوماته عن بني بويه مما كتبه المسعودي عن صدر هذه الدولة في شيء من الإسهاب.

وكذلك يمكن الاعتماد على ما كتبه ابن الأثير عن السيرة النبوية حيث نجد معلومات هامة مركزة، وكذلك ما كتبه عن الفتوح الإسلامية في جزائر البحر الأبيض المتوسط، وعن غزوات المغول على يد جنكيزخان إلى سنة ٦٢٨هـ، أي إلى ما قبل وفاته بسنتين.

على أنه يلاحظ على كتاب الكامل لابن الأثير كثير من الجمود والغموض اللذين يدعوان إلى الملل والسأم ويبعدان عن التشويق في كثير من الأحيان.

وقد خلف لنا ابن الأثير كتابه عن تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل، ويسمى التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل). وقد تناول فيه الكلام على بيت زنكي منذ ولاية آق سنقر

والد عماد الدين زنكي إلى عهد السلطان مسعود (٤٧٧ ـ ٦٠٧هـ). وأسرة زنكي هذه هي الأسرة التي نشأت في كنفها أسرة ابن الأثير. وفي هذا الكتاب اعترف بفضل أسرة زنكي[١]. وقد عبر ابن الأثير عن وفائه لهذه الأسرة فخص أحد أحفاد زنكي وهو الملك القاهر (٦٠٧ ـ ٦١٥هـ) بكتابه «الباهر» الذي أهداه إليه.

ويعد كتاب «الباهر» مصدراً رئيساً لتاريخ أسرة زنكي، ويشتمل على معلومات قيمة عن سيرة عماد الدين زنكي. وقد نقل ابن الأثير هذه المعلومات المفصلة عن أبيه الذي عاش على كنفهم. كما يمدنا ابن الأثير بمعلومات هامة عن نظام الجيش وفرقه وأساليب القتال ونظام الاقطاع في عهد هذه الأسرة، وعن سياسة زنكي في الموصل وإربل وجزيرة ابن عمر ومناطق الأكراد.

أما المناطق الأخرى كبغداد والجزيرة ودمشق وحلب فقد اعتمد ابن الأثير في كتابه «الباهر» على ما دونه أسامة بن منقذ (ت ١١٨٨/٥٨٤) في كتابه «الاعتبار» أو «حياة أسامة». ويعد هذا الكتاب من المصادر الهامة لأن مؤلفه عاصر عماد الدين زنكي سنين عدة واتصل به اتصالاً وثيقاً ووقف على حياته السياسية والخاصة، وكان شاهد عيان لما جرى في عهده من أحداث وأمور.

كذلك اعتمد ابن الأثير في كتابه «الباهر» على يحيى بن أبي طي[٢] (١٢٣٢ ـ ١٢٣٣) والقاضي بهاء الدين بن شداد (ت ١٢٣٤/٦٣٢) في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ويتبع ابن الأثير في كتابه «الباهر» التسلسل الزمني للأحداث التاريخية اللهم إلا إذا استثنينا ما كتبه عن سيرة عماد الدين زنكي. ويتسم ابن الأثير في كتابه «الباهر» بالتحيز لعماد الدين زنكي والمغالاة في مدحه ويغفل أخطاءه ولعل مرد ذلك أنه قدم هذا الكتاب هدية لأحد أحفاد عماد الدين زنكي ونرى ابن الأثير أقل تحيزاً لزنكي في كتابه «الكامل في التاريخ».

---

(١) وقد نشر هذا الكتاب في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية أي في الجزء الثاني من المجموعة الشرقية.

(٢) وأصله من حلب. وقد اعتنق (كأبيه من قبله) العقائد الشيعية. ومن مؤلفاته كتاب «معجم شعراء الشيعة» و «رسالة في فضائل الأئمة الاثني عشرية». كما وضع ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي في متناول أيدينا عن طريق أبي شامة (ت ١٢٦٧/٦٥٥ ـ ١٢٦٨) وتقي الدين المقريزي (ت ١٤٤١/٨٤٥)، وله «شرح لامية العرب» للشنفرى (بكسر الشين وسكون النون وفتح الفاء والراء) الذي وضعه سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م). انظر مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) جـ ١ ص ٤٠٧ حاشية رقم ٣ مقدمة ب. ل. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٧ ـ ٥١٨.

ومن مؤلفات ابن الأثير كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ويقع في ستة أجزاء. وهناك كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» لشهاب الدين ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٣/١٤٤٩)[١].

ومما يؤخذ على ابن الأثير ركاكة عباراته وغموضها في كثير من الأحيان، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية مؤلفاته التي تتميز بغزارة المادة التاريخية وعمق الفكرة ودقة البحث.

ومن أشهر العلماء في هذا العصر الحافظ أبو سعد (ويقال أبو سعيد) عبد الكريم التميمي السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ. وقد ولد السمعاني بمدينة مرو حاضرة خراسان سنة ٥٠٦هـ، وتبحر في الفقه والحديث والأنساب، واختلف في سبيل طلب العلم إلى كثير من البلدان، إذ رحل إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان وإلى قومس والري وأصبهان وهمذان وبلاد الجبل والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد. ولقي في رحلاته كثيراً من العلماء الذين أخذ عنهم وروى عنهم حتى قيل إن عدد شيوخه قد نيف على الأربعة آلاف، ولو أن هذا الكلام يتسم بكثير من المبالغة.

وقد خلف لنا السمعاني كثيراً من الكتب نخص بالذكر منها: كتاب «تذييل تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ويقع في نحو خمسة عشر مجلداً. كما خلف «تاريخ مرو» الذي يزيد على عشرين مجلداً. ولعل أشهر كتب السمعاني كتاب «الأنساب» ويقع في ثمان مجلدات. وقد نشر في سلسلة ذكرى جب التذكارية رقم ٢٠ (١٩١٢). وقد لخص ابن الأثير كتاب الأنساب للسمعاني ويعرف باسم «اللباب في معرفة الأنساب».

وكان أبو سعد السمعاني من بيت علم ودين. فقد ظهر من هذا البيت كثير من العلماء والرؤساء، وكان أبوه محدثاً وفقيهاً[٢].

ومن شهر مؤرخي هذا العصر نجم الدين عمارة اليمني الذي نبغ في الشعر والفقه والتاريخ الذي تقدمت الإشارة إليه عند كلامنا على الشعر ونظم الحكم. وقد أقصاه إخلاصه للفاطميين عن عطف الأيوبيين وانتهت حياته الحافلة بشنقه في شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) لاتهامه بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين. وقد خلف لنا عمارة اليمني هذه المؤلفات التي تعد ذخيرة علمية وهي:

(١) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية (باريس ١٨٩٧).

---

(١) ويقع في ستة أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ) وقد قام سبرنجر على طبعه (كلكتا ١٨٥٦ - ١٨٧٣)، (١٢٨٠ هـ، ١٣٢٣ هـ).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٧٨ - ٣٨٠.

(٢) كما خلف لنا عمارة تاريخ حياته.

(٣) كتاب تاريخ اليمن، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون، ثم أخبار القرامطة باليمن تأليف القاضي البهاء الجندي (لندن ١٣٠٩هـ).

ومن أشهر علماء هذا العصر ومؤرخيه الحافظ جمال الدين عبد الرحمن بن جعفر بن الجوزي[١] الذي ينتسب إلى أبي بكر الصديق. وقد عاش ببغداد، وكان، كما وصفه ابن خلكان، علامة عصره وإمام وقته في الحديث والوعظ. وقد ألف في كثير من أنواع العلوم، ومن مؤلفاته:

(١) زاد المسير في علم التفسير ويقع في أربعة مجلدات.

(٢) الموضوعات ويتناول الأحاديث الموضوعة ويقع في أربعة مجلدات.

(٣) تلقيح فهوم الأثر وهو تعليق على كتاب المعارف لابن قتيبة.

(٤) لقط المنافع في الطب.

(٥) وربما كان أهم كتب أبي الفرج جميعاً كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»[٢].

وقد قيل إن الكراريس التي كتب أبو الفرج بن الجوزي كثيراً منها بخطه لو جمعت وقسمت على أيام حياته لكان له كل يوم تسعة كراريس. وهذه المبالغة إن دلت على شيء فإنما تدل على غزارة علمه وكثرة مؤلفاته. وقد توفي ابن الجوزي ببغداد سنة ٥٩٧هـ[٣].

ويعد كتاب «تاريخ جهان كشا» أو «تاريخ فاتح العالم» (أي جنكيزخان) الذي ألفه عطا ملك الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) من أهم المصادر التي يعتمد عليها في تاريخ المغول. ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء، يتناول الجزء الأول منها الكلام على أصل المغول وغزوات جنكيزخان، والثاني يبحث في تاريخ ملوك خوارزم المعروفين باسم «خوارزمشاه»، والثالث يتحدث عن الحشاشين أو إسماعيلية حصن ألموت وقهستان وحروب هولاكو معهم.

وقد نشر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ضمن سلسلة جب التذكارية وحققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزويني[٤].

---

(١) الجوزي نسبة إلى موضع يقال له فرضة الجوز.

(٢) يقع في خمسة أجزاء مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدرأباد الدكن بالهند (١٣٦٩ هـ).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

(٤) وقد اعتمد دوسون على هذا الكتاب كثيراً في تأليف كتابه تاريخ المغول: Histoire des Mongols
انظر براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية للدكتور الشواربي. جـ٢ ص ٥٩٩ ـ ٦٠٠.

ويعتبر كتاب «تاريخ دولة آل سلجوق» من أهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ السلاجقة. وقد ألف هذا الكتاب أنو شروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد العباسي (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ)، ثم ترجمه إلى العربية عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) الكاتب المشهور وصاحب كتاب «خريدة القصر وخريدة العصر»، ثم اختصر هذه الترجمة الفتح بن علي بن محمد البنداري (بضم الباء وسكون النون وكسر الراء) الأصفهاني في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م).

ويتناول مختصر البنداري في تاريخ آل سلجوق تراجم سلاطين السلاجقة وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين في عهدهم، كما يبحث نشأة دول الأتابكة، ويتناول الكلام على الوزراء وما قام به الإسماعيلية من الأعمال العدوانية ضد السنيين[1]. وقد لخص البنداري كتاب الشاهنامة للفردوسي بأسلوب نثري. على أنه يؤخذ على كتاب تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ركاكة الأسلوب وغموضه وتعقيد المعاني في كثير من الأحيان.

ومن المصادر التاريخية باللغة الفارسية كتاب «منهاج السراج» للجوزجاني[2]. وله أيضاً كتاب «طبقات ناصري». وقد ولد حول سنة ٥٩٠هـ (١١٩٣م) والتحق، كأبيه وجده، بخدمة ملوك الغور. وفي سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) خرج الجوزجاني إلى الهند والتحق بخدمة السلطان ناصر الدين قباجة (بضم القاف)، وظل الجوزجاني في خدمته حتى انهزم بعد سنة، فالتحق بخدمة شمس الدين إيلتمس الذي تغلب على قباجة، وأهدى كتابه منهاج السراج إلى ابنه ناصر الدين محمود.

ويشتمل كتاب «طبقاتي ناصري» على عشرين فصلاً تبدأ بالأنبياء والأولياء وتنتهي بغارة المغول التي تناول المؤلف الكلام عليها في شيء من التفصيل الذي لا نجده في المراجع الأخرى. وقد طبع الكاتب «تساوليز» جزءاً من هذا الكتاب ترجمه رافيرتي في سلسلة مكتبة الهند. ويتناول هذا الجزء المطبوع الدول المتصلة بالهند، ويغفل كل ما له صلة بأمراء الطاهريين والصفاريين والسامانيين والديلم والسلاجقة والخوارزميين وغيرهم من الحكام الذين كانت لدولهم أهمية خاصة لدى المعنيين بدراسة تاريخ إيران[3].

---

(١) نشر المستشرق هوتسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب.
راجع براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية ص ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

(٢) نسبة إلى جوزجان (بفتح الجيم والزاي وسكون الواو) بالقرب من بلخ.

(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية جـ٢ ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦.

ومن أشهر مؤرخي العصر السلجوقي الأخير جرجيس المكين[١] (ت ٦٨٠/١٢٧٣). وكتابه «المجموع المبارك»[٢] من أوائل الكتب الأصيلة التي طبعت في أوروبا. وقد نشر المستشرق الهولندي إربنيوس (Erpenius) كتاب المكين مع ترجمته اللاتينية بمدينة ليدن سنة ١٦٢٥. ثم ترجم برجاس (Prurches) هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية في السنة التالية. ثم ترجمه فاتيير Vatitrer إلى الفرنسية سنة ١٦٥٧[٣].

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر غريغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري (أي اليهودي) لأن أباه أهرون ترك ديانته اليهودية واعتنق المسيحية. ويعرف ابن العبري أيضاً باسم «جريجوريوس» أو غريغوريوس، وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) عندما تولى أسقفية جوباس.

ولد ابن العبري سنة ١٢٢٦م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى، وتعلم في صغره اليونانية والسريانية والعربية، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. فلما عم الفزع الناس من غارات المغول فرَّ به أبوه ـ وكان طبيباً ـ إلى مدينة أنطاكية في سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م).

وقد عاش ابن العبري عيشة الزهد والنسك وانفرد في مغارة بالبرية، ثم سار إلى مدينة طرابلس الشام حيث أتم دراسة البيان والطب ورقي وهو في العشرين من عمره إلى أسقفية جوباس من أعمال ملطية. وفي سنة ١٢٦٤م انتخب مفرياناً، ويعد هذا المنصب من أكبر المناصب بعد منصب البطريركية (وهو أشبه بكبير رؤساء الأساقفة)[٤] على جهات ما بين النهرين والعراق العجمي وكان يقيم أحياناً في الموصل وأحياناً أخرى في إقليم أذربيجان أي في تبريز والمراغة في الشمال الغربي من إيران، ومات في مدينة المراغة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م)[٥].

وقد ألف ابن العبري أكثر من ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها، نخص بالذكر منها كتابه المعروف «مختصر تاريخ الدول». وقد كتبه في الأصل باللغة السريانية، ولكن جماعة من كبار المسلمين طلبوا إليه أن ينقله إلى العربية، ففعل ذلك في السنوات الأخيرة من حياته، وطبع هذا الكتاب أكثر من مرة،

---

(١) أو عبد الله بن أبي الياسر بن أبي المكارم بن العميد، وهو مسيحي مصري.

(٢) أصبح كتاب «التاريخ المبارك» وكتاب «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفدا صاحب حماه أهم المصادر العربية التي ظلت في متناول المستشرقين الأوروبيين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي فترة طويلة.

(٣) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية جـ٢ ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧.

(٤) وهي كلمة فارسية معناها المثمر.

(٥) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول (طبعة بيروت) جـ ص: ح. د. هـ. و.

وترجم إلى اللاتينية والألمانية، وطبع في بيروت سنة ١٨٩٠م في ٦٣٠ صفحة.

وقد تناول ابن العبري في كتابه عشر دول هي:

(١) دولة الأولياء من آدم إلى «البرنساء» أي الناس.

(٢) دولة قضاة بني إسرائيل.

(٣) دولة ملوك بني إسرائيل.

(٤) دولة ملوك الكلدانيين.

(٥) دولة ملوك المجوس، أي ملوك إيران منذ الملك الأسطوري «كومرت» إلى «دارا» ومقتله على أيدي الإسكندر الأكبر.

(٦) دولة ملوك اليونانيين الوثنيين.

(٧) دولة ملوك الفرنج ويقصد بهم ملوك الرومانيين.

(٨) دولة ملوك اليونانيين المتنصرين أي البيزنطيين.

(٩) دولة ملوك العرب المسلمين.

(١٠) دولة ملوك المغول (إلى سنة ٦٨٣/١٢٨٤). وهي السنة التي تولى فيها «أرغون» الحكم[١].

وقد كتب شهاب الدين أحمد النسوي سيرة جلال الدين منكبرتي[٢] آخر سلاطين الدولة الخوارزمية، وقد تولى النسـوي ديوان الإنشاء في بلاط هذا السلطان ودون مذكراته عنه في كتاب أسماه «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي».

وقد دون هذا المؤلف مذكراته في سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م)، أي بعد وفاة هذا السلطان بنحو عشر سنوات. وكان النسوي شديد الصلة بهذا السلطان كما كان شاهد عيان للأحداث والمغامرات التي جرت في حياته. قال هوداس Houdas في مقدمته لسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (باريس ١٨٩١ ـ ١٨٩٥):

وفـي المدة الطويلة التي حكم فيها السلطان جلال الدين، لم يتركه النسوي إلا في فترات

(١) وقد كتب «نولدكة» مقالاً عن ابن العبري والعصر الذي عاش فيه نشره في كتابه «صور من التاريخ الشرقي»، وقد ترجم جون بلاك هذا الكتاب إلى الإنكليزية.
انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص (القاهرة ١٩٢٦) ص ١٠٧ هامش رقم (١). براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية جـ٢ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٥.

(٢) بفتح الميم وسكون النون وضم الكاف وكسر الباء.

قليلة نادرة كان يؤدي له فيها بعض المهام الخاصة. وكان النسوي إلى جواره ليلة هربه حين هم أحد الأكراد بقتله بخنجره. لذلك يمكن القول بأن كتاب «سيرة جلال الدين منكبرتي» من أصدق ما كتب عنه، إذ كان المؤلف ملازماً لهذه الأحداث، وكان يكشف عن أسبابها وعللها، كما استطاع أن يتحدث عن سيرته وما جرى في عهده من أحداث في صراحة تامة، إذ أنه كتب هذه السيرة بعد وفاة صاحبها بنحو عشر سنوات على الرغم من أنه كان متحفظاً بعض الشيء، لأنه كان بطبيعة الحال يحرص على ألا يمس بعض أصدقائه الذين عاصروا هذه الأحداث بسوء[١].

على أن التزام النسوي للسجع والمحسنات البديعية قد فوت عليه كتابة كثير من الأحداث التاريخية في دقة ووضوح، ومع ذلك فقد كان النسوي يجيد اللغتين التركية والفارسية، ولكنه كان ضعيف الكتابة باللغة العربية؛ لذلك لجأ إلى المحسنات البديعية ليستر بها هذا الضعف، وقد اعترف النسوي بأنه ليس من مؤرخي العصر البارزين أو من كتابه النابهين.

ولم يقتصر النسوي على سرد تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتي، فقد استهل كتابه بسرد حوادث المغول الأول وتتبع أحداثهم حتى حطوا رحالهم على حدود الشرق الإسلامي. ثم تكلم على تاريخ الدولة الخوارزمية في عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي يعد بحق أشهر سلاطين هذه الدولة، وعن صراعه مع المغول، ثم اهتم بتاريخ الدولة الخوارزمية في عهد آخر سلاطينها وهو جلال الدين منكبرتي[٢].

كتاب التراجم:

وقد حفل العصر السلجوقي بعدد من كتاب التراجم نذكر منهم القفطي (ت ٦٤٦ - ١٢٤٨) وابن أبي أصيبعة ومحمد عوفي وابن خلكان.

ولد جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي وزير حلب (ويعرف بالقاضي الأكرم) بمدينة قفط من أعمال صعيد مصر سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) حيث رحل إليها آباؤه من مدينة الكوفة، ويرجع نسب أمه إلى قبيلة قضاعة.

وقد أخذ القفطي العلم بمدينتي قوص والقاهرة حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره. ثم قلد صلاح الدين الأيوبي أباه يوسف القضاء بمدينة القدس حيث التحق علي بأسرته وأقام فيها حتى ذهب أبوه سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م) إلى حران، وكانت من أهم مراكز الدراسات الفلسفية

(١) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية جـ ٢ ص ٦٠١ - ٦٠٢.
(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي: نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي (القاهرة ١٩٥٣) ص ٢٤ - ٢٥.

اليونانية في آسيا حتى إنها سميت «هللينو بوليس». وقد تقلد يوسف أبو علي الوزارة للملك الأشرف الأيوبي وأدى فريضة الحج بمكة حيث مات سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)

انتقل علي بن يوسف المشهور بالقفطي إلى حلب حيث تقلد الخراج ولقب القاضي الأكرم، واشتهر بالكفاية والأمانة وولع بالاستزادة من العلم وتشجيع رجاله، ومن هؤلاء ياقوت الحموي (أو الرومي) الذي فر من خراسان إلى هذه المدينة أمام غارات المغول، فشمله القفطي بعطفه وأحاطه برعايته. ثم تولى القفطي الوزارة للملك العزيز الأيوبي، فظل فيها إلى أن مات سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م).

وقد ألف القفطي كثيراً من الكتب ذكر منها ياقوت الذي توفي قبله بنحو عشرين سنة، كتاب «تاريخ الحكماء» الذي يشتمل على معلومات ذات غناء استمد كثيراً منها من كتاب معجم الأدباء لياقوت. ويشتمل كتاب تاريخ الحكماء على ٤١٤ سيرة من سير الفلاسفة والأطباء والرياضيين والمنجمين الذين ظهروا في مختلف العصور حتى أيامه[١].

وهذا الكتاب الذي رتبه مؤلفه على الحروف الهجائية وليس وفقاً للترتيب الزمني هو مختصر من الكتاب الأصلي الذي وضعه القفطي. وقد أفاد منه كثير من أهل عصره ومن الكتاب المتأخرين، نخص بالذكر منهم ابن أبي أصيبعة وابن العبري وأبا الفداء، وقد نشر مرجليوث كتاب تاريخ الحكماء[٢] كما طبع هذا الكتاب في القاهرة.

أما ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٩/ ١٢٧٠) مؤلف كتاب «طبقات الحكماء» فقد ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) حيث درس الطب فيها وفي مدينة القاهرة وزاول كأبيه هذه المهنة واختص بطب العيون، واشتغل فترة من حياته بأحد المستشفيات التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في مدينة القاهرة.

وقد نشر مولر هذا الكتاب في مدينة كونجزبرج سنة ١٨٨٤م، كما نشر في القاهرة سنة ١٨٨٢، واعتمد وستنفلد اعتماداً كلياً على كتاب ابن أبي أصيبعة في كتابه الذي ألفه بالألمانية وعنوانه: «تاريخ الطب والنبات عند العرب» (جوتنجز ١٨٤٠)[٣].

ومن كتب التراجم كتاب «لباب الألباب» وكتاب «جوامع الحكايات ولوامع الروايات» لمحمد عوفي. ويرجع نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابي المشهور. وقد قضى عوفي معظم

(١) وقد طبع هذا الكتاب في لايبسك سنة ١٣٤٠/١٩٠٢.
(٢) راجع براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣.
(٣) انظر براون، المصدر نفسه جـ ٢ ص ٦٠٥.

طفولته في خراسان وبلاد ما وراء النهر ولا سيما في مدينة بخارى. ثم رحل إلى الهند والتحق بخدمة السلطان «ناصر الدين قباجة» (بضم القاف)، وأهدى إلى وزيره عين الملك حسين الأشعري معجمه الذي صنفه عن شعراء الفرس باسم «لباب الألباب». فلما اغتيل هذا السلطان سنة ٦٢٦/١٢٢٨ بقي عوفي في خدمة السلطان الذي قهره وهو شمس الدين إيلتتمش وأهدى إليه كتابه «جوامع الحكايات»، وهو عبارة عن مجموعة واسعة من الحكايات تنقسم أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على خمسة وعشرين باباً ويشتمل كل باب على مجموعة من الحكايات في أسلوب سهل بسيط.

أما كتاب «لباب الألباب» فهو مجموعة مقالات كتبها عوفي عن شعراء الفرس الأوائل. ويعتبر من أهم الكتب في الأدب الفارسي، ويشتمل على تراجم بعض الشعراء الذين كادت أخبارهم أن تندرس تماماً ولم يرد ذكرهم قبل ذلك؛ على الرغم من خلو هذا الكتاب من التواريخ الدقيقة أو التفاصيل الممتعة فضلاً عن مختاراته الرديئة عن أقوال الشعراء. ويلاحظ أن المؤلف أهمل جماعة من الشعراء المشهورين كناصر خسرو وعمر الخيام. وعلى الرغم من ذلك كله يعتبر هذا الكتاب، كما يقول براون، من الكتب القيمة، إذ أنه يشتمل على نحو ثلثمائة من تراجم شعراء الفرس الذين ظهروا قبل السعدي. وقد تم طبع الجزأين، وهما من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في دراسة شعراء الفرس.

وكتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان[1] (ت ٦٨١/١٢٨٢) من أهم المراجع التي لا غنى عنها لطلاب الدراسات الإسلامية. ولا ريبَ أنه يحتل المكانة الأولى بين كتب التراجم. وقد بدأ ابن خلكان في تصنيفه في القاهرة سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)، وانتهى منه في سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م).

وينتسب ابن خلكان إلى البرامكة، وولد في إربل سنة ٦٠٨/١٢١١. ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى حلب، ثم إلى دمشق، ثم إلى القاهرة، ثم إلى الإسكندرية حيث شغل كثيراً من المناصب في التعليم والقضاء.

وقد عني الكتاب بعد ابن خلكان بتذييل معجمه الكبير «وفيات الأعيان»[2]، فوصل فضل الله الصّقاعي كتاب وفيات الأعيان إلى سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٥م). ثم صنف ابن شاكر الكتبي

---

(١) بفتح الخاء وكسر اللام مع التشديد.

(٢) وقد نشره وستنفلد (١٨٣٥ ـ ١٨٤٣) وطبع أكثر من مرة، كما ترجمه دي سلان إلى الإنجليزية في أربعة مجلدات (١٨٤٢ ـ ١٨٤٨) وطبع أخيراً في القاهرة (١٣٦٧/١٩٤٨) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(ت ١٣٦٢/٧٦٤) كتابه «فوات الوفيات» وهو تتمة أيضاً لكتاب وفيات الأعيان.

التواريخ المحلية:

وهناك تواريخ محلية خاصة بالمدن والأقاليم، ومن هذه التواريخ ما يتعلق بتاريخ مكة أو المدينة أو الحجاز.

وممن ألف في تاريخ مكة الأزرقي (ت ٨٥٨/٢٤٤) والفاكهي (ت ٨٨٥/٢٧٢) ويعتبر كتاب «أخبار المدينة» لعمر بن شبَّة (بفتح الشين والباء مع التشديد) (ت ٢٦٢هـ) من أهم مصادر تاريخ المدينة المنورة. فقد عني بوصفها من الناحية التخطيطية (أو الطبوغرافية) معتمداً على مشاهداته الشخصية وما نقله عن كثير من الرواة، وتكلم عن آبارها ووديانها وأسواقها ومساجدها، وتناول الكلام عليها من الناحية الاجتماعية ولا سيما خطط المهاجرين وعشائرهم ودورهم وأخبارهم. ولابن شبّة كتب أخرى عن البصرة والكوفة ومكة. ويروي الطبري أخبار ابن شبَّة التي رواها عن المدائني وزاد عليها زيادات شاملة حتى أصبحت مرجعاً أساسياً لمن أتى بعده من المؤرخين.

وممن كتب عن المدينة الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ). ويعد كتابه «أخبار المدينة» من الكتب التي لعبت بها يد الدهر. وقد اعتمد البكري وياقوت الحموي على ما كتبه الزبير عن المدينة(١).

وهناك تواريخ محلية أخرى تتعلق بتاريخ فارس وخراسان وطبرستان والعراق ومصر والمغرب وغيرها.

ومن هذه التواريخ «تاريخ طبرستان» تأليف محمد بن الحسن بن إسفنديار. وقد اعتمد في وضع كتابه الفارسي على النسخة العربية من كتاب «تاريخ طبرستان» التي عثر عليها في مكتبة الملك «رستم بن شهريار» وقام بتأليفها اليزدادي في أيام قابوس بن وشمكير (٤٦٦ - ٥٠٣/٩٧٦ - ١٠١٢). وبعد ذلك عاد ابن إسفنديار إلى آمل ثم انتقل منها إلى مدينة خوارزم وقال عنها إنها مدينة عامرة برجال العلم والأدب، ووجد فيها كثيراً من المادة التي ساعدته على استكمال كتابه. ومن المرجح أن ابن إسفنديار مات على أيدي المغول في أثناء غارتهم على خوارزم في سنة ١٢٢٠/٦١٧.

وتشتمل الأجزاء الأولى من هذا الكتاب على كثير من الأمور المتصلة بالأساطير، فإذا

---

(١) صالح أحمد العلي: «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز» بحث مُسْتَلّ من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤) ص ١٥ - ٢٠.

وصل ابن إسفنديار إلى العصر الإسلامي أفاض في ذكر الحقائق التاريخية والجغرافية والإخبارية وخاصة التفاصيل التي تتعلق بسير المشهورين من الرجال المحليين سواء في طبرستان أم في خارجها ولا سيما سير الشعراء الذين نظموا أشعارهم باللهجة الطبرية المستعملة استعمالاً واسعاً في طبرستان.

وقد انتهى ابن إسفنديار من تاريخه حتى سنة وفاة رستم بن أردشير سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م)، ثم جاء مؤرخ آخر فاستكمل هذه الأحداث التاريخية إلى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م).

وقد ألف أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢هـ) «تاريخ مرو»، ويقع في أكثر من عشرين مجلداً كما تقدم.

وهناك تواريخ محلية أخرى كثيرة في الأدب الفارسي شبيهة بتاريخ ابن إسفنديار تتعلق بتاريخ بعض المدن الإيرانية مثل أصفهان، وشيراز، وقُمّ، وهراة، وسجستان، وشُشْتر، ومؤلفات أخرى وضعت عن طبرستان وحدها، ولا زال أغلب هذه المؤلفات مخطوطاً[1]. ومن هذه التواريخ المحلية كتاب «تاريخ خوارزم» لأبي الريحان البيروني، وقد أورد البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه «تاريخ المسعودي»[2]. ويعتبر هذا الكتاب مفقوداً.

ومن كتب التاريخ التي ألفت عن دولة معينة تاريخ العُتْبي «تاريخ اليميني» نسبة إلى السلطان يمين الدولة محمود الغزنوي، وقد كتب العتبي هذا الكتاب باللغة العربية، ثم ترجمه إلى الفارسية ناصح الجزباذقاني[3]، وقد طبعت هذه الترجمة على الحجر في طهران سنة ١٢٧٢هـ (١٨٢٥م). ثم نقلت إلى التركية والإنجليزية.

ومن كتب التاريخ الخاصة التي نقلت عن دولة معينة كتاب «تاريخ جهان كشا» أو «تاريخ فاتح العالم»[4] لمؤلفه عطا مَلِك الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء).

ومن الكتب المحلية التي ألفت بالعربية كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، وكتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي، وكتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» لتقي الدين المقريزي، وكتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري.

---

(١) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠٨ - ٦١٠.

(٢) انظر ما ذكرنا عن البيروني نقلاً عن كتاب جهار مقاله لنظامي عروضي السمرقندي، الترجمة العربية، الحواشي ص ١٤٦.

(٣) نسبة إلى جزباذقان، وهو مكان بين استراباذ وجرجان من نواحي طبرستان.

(٤) ويقصد بعبارة فاتح العالم «جنكيزخان».

(ب) مصادر العصر المغولي الأول

إن المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في استقصاء غزوات المغول وحصار بغداد على يد هولاكو وزوال الخلافة العباسية وما كان لذلك من أثر تكاد تكون فارسية في جملتها. فإن ابن الأثير (ت ٦٣٠/١٢٣٢) قد تناول غزوات المغول الأولى إلى سنة ٦٢٨هـ وهي آخر السنين التي تناول فيها الحوادث التاريخية في كتابه «الكامل في التاريخ».

وقد أمدنا بعض المؤرخين بمعلومات ذات غناء عن غزوات المغول من أمثال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦/١٢٢٩) في كتابه «معجم البلدان» وقد اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩/١٣٣٨)[1].

وممن كتب عن المغول أبو الفرج المالطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥/١٢٦٦) وقد طبع كتابه «تاريخ مختصر الدول» أكثر من مرة وترجم إلى اللاتينية والألمانية كما تقدم، وقد تناول في كتابه عشر دول، وتناول في الباب العاشر دولة المغول (إلى سنة ٦٨٣/١٢٨٤) وهي السنة التي تولى فيها أرغون إيلخان المغول في فارس الحكم.

ومن هؤلاء أيضاً ابن طباطبا (ت ٧٠٩/١٣٠٥)؛ فقد وصف في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» الذي انتهى من تأليفه في سنة ٧٠١هـ المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وبين كيف استولى عليه أصحابه من الجهال وما عرف عنه من سوء التدبير والانصراف إلى اللهو واستهتاره بقوة التتار وعدم أخذه الحيطة لمواجهة خطرهم.

وممن تناول غزوات المغول الأولى: ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨١) في كتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤/١٣٦٢) الذي يعتبر كتابه «فوات الوفيات» متمماً لكتاب ابن خلكان، وتاج الدين السبكي (٧٧١/١٣٧٠) في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»، وعماد الدين (إسماعيل بن عمر) بن كثير (٧٧٤/١٣٧٣) في كتابه «البداية والنهاية»، وابن بطوطة (٧٧٩/١٣٩٤)، وابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥) في كتابه المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، والقلقشندي (ت ٨٢١/١٤١٨) في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» والمقريزي (٨٤٥/١٤٤١) في كتابيه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» و«السلوك في معرفة دول الملوك».

(١) تاريخ «جهان كُشا»[2] — Taitikhi - Djihan - Kushai أو تاريخ «فاتح العالم»

(١) ويقع في أربعة أجزاء (طبعة جوينبل، لندن ١٨٥٣).

(٢) وقد نشر «شيفر» جزءاً من هذا الكتاب في الجزء الثاني من كتابه «مختارات فارسية» ج ٢ ص ١٠٦ - ١٦٩. =

(يقصد جنكيزخان) تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني وزير هولاكو. ويعد من أحسن الكتب المعاصرة ومن أقدم المراجع التي كتبت عن تاريخ المغول وانتصاراتهم، وقد تنقل «عطا ملك» بين ربوع منغوليا، فوصف ما شاهده وصفاً دقيقاً، وإليه وإلى «وليام روبروك» يرجع الفضل في وصف مباني المغول وكثير من رقائع جنكيز خان.

(٢) طبقاتي ناصري أو منهاجي سراج الجوزجاني (كلكتا ١٨٦٤) للجوزجاني الذي ألفه بعد سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) بسنتين. وكان الجوزجاني أحد المؤرخين المعاصريـن لهولاكو.

(٣) تاريخ المغول. ويعرف بجامع التواريخ (لندن ١٩١٠)[1]. وقد انتهى رشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨) من تأليفه سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م). وقد أفاض رشيد الدين في تاريخ إيلخانات المغـول في فارس، وخصص الجـزء الأول من هذا الكتـاب لحياة هـولاكو (ص ٨٥ ـ ٤٢٥). وقام كترمير بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية بعنوان Histoire des Mongols de la Perse: Rashid El Din.

ويمدنا هذا الكتاب بشيء كثير عن حصار بغداد على أيدي المغول. ويعد أوفى هذه المصادر وأهمها، وقد قامت وزارة الثقافة والإرشاد القومي (ج. ع. م) على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

(٤) وهناك مصدر آخر لا يقل أهمية عن المصادر السابقة هو كتاب تجزئة الأمصار أو «تاريخي وصاف» الذي كتبه بالفارسية عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة ومؤرخ حياة غازان (٦٩٤ ـ ٧٠٣/١٢٩٥ ـ ١٣٠٤)، أشهر إيلخانات المغول في فارس. وقد ولد ابن فضل الله سنة ٦٦٣هـ، أي بعد حصار بغداد بسبع سنين، ولا يبعد أن يكون قد أخذ من المؤرخين الذين شهدوا حصار مدينة بغداد على يد هولاكو[2].

وهناك مصادر أوروبية حديثة تمدنا بتفاصيل وافية عن تاريخ المغول نذكر منها ثلاثة تعتبر أحسنها وأدقها وهي:

(١) كتاب Histoire des Mongols (Termerlan) تأليف البارون «دوسون» ويتناول

= ويبدأ بغارة المغول على خوارزم وينتهي بغارتهم على نيسابور. ونشر «كترمير» جزءاً آخر مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٣٦ ويتناول أحوال هولاكو، ونشر «بريزين» (Berésine) جزءاً آخر من هذا الكتاب، وقد تم طبع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء.

(١) وقد طبع هذا الكتاب في سلسلة «جب» التذكارية.

(٢) راجع مقال الأستاذ براون عن هذا الكتاب في المجلة الآسيوية الملكية بانجلترا.
J. R. A. S., vol. XL, pp. 17 - 37.

هذا الكتاب تاريخ المغول من عهد جنكيزخان إلى عهد تيمورلنك. وقد طبع في أربعة أجزاء استقصى فيها المؤلف تاريخ المغول معتمداً على أحسن المصادر العربية والفارسية كما حدثنا في مقدمة الجزء الأول من كتابه[١].

ويقول «دوسون» إنه كان لغارات المغول آثار بعيدة، وإن حكومتهم كانت انتصاراً للفساد وانحطاط الخلق، وتاريخهم يتميز بطابع الوحشية والقوة والبطش واضطهاد الشعوب وابتزاز الأموال[٢].

(٢) كتاب History of the Mongols (تاريخ المغول)، تأليف سير هنري هوورث Sir Henry Howorth، وهو في ثلاثة أجزاء. يتألف الجزء الثاني منها على المجلدين الثاني والثالث، ويتناول الجزء الثالث (الذي يكوّن المجلد الرابع من الكتاب) الكلام على دولة المغول في فارس (لندن ١٨٧٦ - ١٨٨٨)[٣].

ويختلف رأي «هوورث» عن رأي «دوسون» في المغول، ويرى أنه لم يكن بد من القضاء على الترف والفساد اللذين سادا في ذلك العصر حتى يتكون جيل جديد يقوم على الفضيلة. ويشبّه هوورث المغول بالمعاول التي قوّضت هذا الفساد، ويقول إن الفتوحات المغولية قد أدت إلى اتصال أمم الشرق والغرب، وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوروبا بتأثير هذه الغارات.

(٣) والمصدر الثالث الذي يسترعي الانتباه وعلى الأخص من حيث تأثيره في تركيا ونشوء الحركة الطورانية (The Turanian Movement) فهو كتاب «مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول إلى سنة ١٤٠٥م» لمؤلفه «كـاهون»[٤].

ويذهب هذا المؤلف إلى أبعد مما ذهب إليه «هوورث» في إعجابه بالمغول وتمجيده لكل الشعوب التركية وإطرائه صفاتهم الحربية، وما أدوه من خدمات للإنسانية، وتضامنهم السياسي ووقوفهم في وجه آل ساسان من الفرس وفي وجه النفوذ الإسلامي في فارس. ويقول «كاهون» عن المغول إنهم قوم شجعان أقوياء كرماء، ويعجب بنظامهم الإداري الدقيق وانعدام روح التعصب الديني فيهم.

---

(١) دوسون ج ٢ ص ١٠ - ٦٨.
(٢) نفس المصدر ص ٧ - ٨.
(٣) Howorth, History of Mongols, vol: II, pp. 10 - 11.
(٤) Cahun, pp. 9, 79.

كذلك يقول «كاهون» إن الحركة الطورانية من الناحية الأدبية ترمي إلى تفضيل الكلمات والتعبيرات والاصطلاحات التركية على العربية والفارسية، على حين أنها تهدف من الناحية السياسية إلى مزج جميع الشعوب التركية التي تقطن شرقي بحر قزوين وغربيه (ويدخل في ذلك المغول والتتار) وانضواء هؤلاء جميعاً تحت لواء دولة واحدة، ثم إلى إقامة إمبراطورية تركية أو طورانية تشبه الإمبراطورية التي قامت على يد جنكيزخان. ولهذا نجد الأتراك في القرن العشرين يستمدون آراءهم من هذا الكتاب لدعم حركتهم الطورانية[١].

(٤) أضف إلى ذلك ما ورد عن المغول في المصادر الأخرى، نخص بالذكر منها ما كتبه سير توماس أرنولد Thomas W. Arnold في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»[٢] (لندن ١٩٣٥) عن انتشار الإسلام بين التتار والمغول في فارس والهند وأوروبا، وما كتبه إدوارد براون Edward E. Browne في كتابه تاريخ الأدب في إيران A Literary History of Persia, Vols. 11 and Ĩ11.

وهناك طائفة أخرى من المؤرخين كتبوا عن المغول في فارس وبخاصة في عصر تيمور من أمثال:

(١) شرف الدين علي يَزْدي الذي ألف كتابه «ظفر نامِه» (طبع في كلكتا[٣] في جزأين في مجموعة المكتبة الهندية) .Bibliotteca India (١٨٨٧ - ١٨٨٨) ويقع في نحو ١٥٦٠ صفحة.

وقد ألف شرف الدين علي يزدي كتابه بأسلوب منمق الألفاظ يمتاز بشيء كثير من الملق والرياء، ولا غرو فقد أسرف في مدح تيمور الذي وضع كتابه تحت رعايته. وقد ترجم Mercier de la Petit Croix هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية.

(٢) على أننا نرى من ناحية أخرى مؤرخاً وضع كتاباً في أخبار تيمور هو كتاب «عجائب المقدور في أخبار تيمور» لأحمد بن عربشاه الذي كتب كتابه في لهجة شديدة ووصف هذا الفاتح العظيم بعبارات مثل «هذا الخائن» و«هذا المجرم» و«هذا الكلب المجنون». ويقول الأستاذ براون (ج ٣ ص ١٨١): «ولكن لهجة التملق التي انتهجها شرف الدين علي يزدي أقل مغالاة من قذف ابن عربشاه، لأنه لم يستطع إنكار مذابح تيمور وأهرامه من الجماجم».

---

(١) المصدر نفسه ص ١١١ - ١١٨.

(٢) الترجمة العربية: لحسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل محمود النحراوي (الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧).

(٣) وليدن ١٨٣٦م، والقاهرة ١٨٢٥م.

(٣) وهناك كتاب تاريخ فارس تأليف ستانلي سير جون مالكولم[١] الذي يقول إن قائداً كتيمور أصبح معبود جنده.

وممن كتب في تاريخ المغول ستانلي لينبول في كتابه «الدول الإسلامية»، وفي كتابه «تاريخ أباطرة المغول في الهند»، وما كتبه عن أورانجب في كتابه «حكام الهند»، وما كتبه أيضاً لي سترينج في كتابه «بغداد في عصر الخلافة العباسية» وبارتولد في كتابه «هولاكو ـ بغداد» في دائرة المعارف الإسلامية.

وكتاب «مختصر تاريخ الهند» هو موجز «كتاب كيمبريدج في تاريخ الهند»، ويقع في ستة أجزاء، وهذه الكتب كلها بالإنجليزية كما سيتضح عند ذكرها في مصادر الكتاب.

ويتناول الجزء الثالث من هذا الكتاب الكلام على تاريخ الهند الإسلامية، ويتناول الجزء الرابع منه الكلام على إمبراطورية المغول في الهند.

وهناك كتاب ظهر حديثاً عن تاريخ المغول في الهند هو كتاب «الإمبراطورية المغولية في الهند»، وما كتبته السيدة «بيفريدج» عن حياة أكبر خان أعظم أباطرة المغول في الهند.

(ج) مصادر تاريخ الفاطميين والأيوبيين:

ومن الكتب التي ألفها ابن زولاق في تاريخ مصر سير كافور وجوهر والمعز والعزيز، بيد أن معظم تصانيف ابن زولاق قد تلاشت لسوء الحظ، ولا يعرف عنها شيء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده، وتصانيف ابن زولاق التي بقيت إلى اليوم هي:

١ ـ تاريخ مصر.

٢ ـ سيرة الإخشيد المسماة «العيون الدعج في حلى دولة بني طغج» التي نقلها ابن سعيد في كتاب «المغرب في حلى المغرب».

٣ ـ كتاب فضائل مصر (وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس). وهو مختصر لهذا السفر الكبير الذي ألفه صاحبه عن تاريخ مصر.

ومن مؤلفات العصر الفاطمي كتاب «الديارات» لأبي الحسن علي الشاشـي (ت ٣٨٨هـ) (برلين مخطوط فيهار رقم ١١٠٠). وهناك كتاب آخر هو كتاب «كنائس وأديرة مصر» لأبي صالح الأرمني المتوفى سنة ٦٠٥هـ. وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغـز هذه البلاد بقيادة شيركوه. وقد كتب أبو صالح جزءاً لا يستهان به من مؤلفه، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه بنفسه في زيارته

(١) History of Persia, pp. 482 - 483.

للكنائس والأديرة في القاهرة وضواحيها. والكتاب حافل بأمثله كثيرة عن الخيرات التي أغدقها الخلفاء الفاطميون وكبار الموظفين من المسلمين على القبط وهم مسيحيو مصر (طبعة وترجمة أ. ايفتس، اكسفورد ١٨٩٥).

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبِّحي (ت ٤٢٠هـ) الذي كتب عن مصر كتاباً مسهباً هو «تاريخ مصر» يقع في ستة وعشرين ألف صفحة، ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا. وهو واحد من جملة تصانيفه التي بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود اللهم إلا في هذه المقتبسات التي نجدها في المصادر الأخرى. وكان المسبحي رجل فضل وعلم، وكان على زي الأجناد: اتصل بخدمة الخليفة الفاطمي الحاكم (٣٨٦ ـ ٤١١هـ)، وتقلد في عهده القيس والبهنسا من أعمال الصعيد. ثم تقلد ديوان الترتيب، وهو المكان الذي تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقيها. وقد ذكر تصانيف المسبحي من جاء بعده من المؤرخين، كابن منجب، وابن ميسر، وابن خلكان، والمقريزي، وأبي المحاسن، والسيوطي.

ومما يأسف له أشد الأسف ضياع مؤلفات القضاعي (ت ٥٤٤/ ١٠٦٢م)، ومن بينها كتاب «عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف»، وهو مختصر كتاب «الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين». وهذا الكتاب مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس، وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصلي الذي لعبت به يد الضياع. أما مؤلفات القضاعي فقد عددها ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٨٥)، فذكر منها كتاب «مناقب الإمام الشافعي» وكتاب «تواريخ الخلفاء» وكتاب «خطط مصر» ويظهر أن المقريزي نقل هذا الكتاب برمته، وأودعه كتابه الذي يعرف باسم كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار».

والقضاعي حجة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين، وكان من كتاب البلاط، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائي يعهد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي يذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية، وتشمل هذه الكلمات: «الحمد لله شكراً لنعمته».

ومن مؤرخي العصر الفاطمي ابن أبي طيّ (ت ١٢٣٢/٦٣٠ ـ ١٢٣٣)، واسمه يحيى ابن حميدة (أو حافظ). ويرجع أصله إلى حلب، وقد طرده نور الدين محمود لخروجه في آرائه على الدين، وربما كان ذلك لاعتناقه العقائد الشيعية، وقد اعتنق ابن أبي طي هذه العقائد، يؤيد ذلك كتاباه «معجم شعراء الشيعة» و «رسالة في فضل الأئمة الاثنا عشرية»[1]. وقد وضع حاجي

(١) راجع حاجي خليفة رقم ١٩٦٤ ووستنفلد رقم ٣١٥.

خليفة ووستنفلد ترجمة ابن أبي طي لحياة صلاح الدين في متناول أيدينا. ومن مؤلفات ابن أبي طيّ «شرح لامية العرب» للشنفرى (بكسر الشين مع التشديد وسكون النون وفتح الفاء والراء).

ومن مؤرخي هذا العصر أيضاً: «أبو عبد الله القرطي»[1] ويرجع نسبه إلى عمار بن ياسر الصحابي، وكان مولعاً بالتاريخ وقد رحل إلى بلاد اليمن والهند، وصنف كتاب «تاريخ مصر» في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب في حوزته، وقيد منه بعض ما أودع كتابه «المغرب في حلى المغرب». والقرطي المؤرخ من أحفاد محمد بن جعفر القرطي وكان معاصراً للإخشيديين في مصر، وقد قلده مؤنس الحسبة في مصر، ثم قلده الخراج (ابن سعيد: المعجب ص ٨ ـ ٩)، ثم تقلد خراج مصر والشام في عهد ولاية تكين الثانية الذي ولي مصر ثلاث مرات (٣٠٢، ٣٠٧ ـ ٣٠٩، ٣١١ هـ). (انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٥١٧ ـ ٥١٨). وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» لأبي يعلى حمزة بن القلانسي (ت ٥٥٥ ـ ١١٦٠) (بيروت ١٩٠٨) مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقي وسبط ابن الجوزي والذهبي، ويعد بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابي، وهو ذو أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين. ويظهر أن ابن القلانسي نقل كتاب أبي شجاع وكتاب هلال.

ويجب أن نشير في هذا المقام إلى ما كتبه عمارة اليمني (ت ٥٦٩/١١٧٤) وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤/١١٨٨). فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع في مصر من الحوادث في أواخر أيام الفاطميين، والدور الذي قام به الشعراء في نشر الدعوة الفاطمية؛ ذلك أن عمارة كان شاعراً نابه الذكر بين شعراء البلاط في عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين، وقد أمدنا عمارة في ديوانه المسمى: «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» (باريس ١٨٩٧)، بمعلومات ذات غناء عن هذين الخليفتين وعن الوزراء وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة في بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم. ولا غرو فقد أتحفنا عمارة بمعلومات صحيحة عن الدور الذي لعبه الشعراء في نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية (نشر هذا الكتاب ديرانبور، باريس ١٩٠٩).

أما أسامة بن منقذ فقد كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم. وله تصانيف عدة في فنون الأدب. رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد

---

(١) راجع القاموس المحيط وكتاب الأنساب للسمعاني، وهذا اللفظ منسوب إلى القرط الذي يعلق في الأذن، أو إلى قروط ويطلق هذا الاسم على أفخاذ بني كلاب إخوة قرط وقريط. والقرطي المؤرخ مشتق اسمه من القرط الذي تأكله الدواب.

مصر، فأقام فيها مؤمراً إلى أيام الوزير الصالح بن رُزِّيك سنة ٥٤٩، ثم عاد إلى الشام. وأخبار أسامة جليلة الخطر، لأنه شاهد بنفسه حال مصر في زمنه وما وقع فيها من الحوادث التي تتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية. وقد ألف كتابه الاعتبار أو حياة أسامة (باريس ١٨٨٩).

ومن مؤرخي مصر الإسلامية ابن ميسر[1] (ت٦٧٧/١٢٧٨) الذي ألف كتابه «أخبار مصر»، ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا الجزء الثاني الذي تناول فيه الكلام على تاريخ مصر من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٥٣هـ.

ومن المصادر الحديثة كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» لحسن إبراهيم حسن (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٤) وكتاب كنوز الفاطميين لزكي محمد حسن (القاهرة ١٩٣٧) وكتاب «موجز تاريخ الخلافة الفاطمية» تأليف «دي ليسي أوليري» وكتاب De Sacy, Expose de la Religion Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).

ومن فلاسفة الإسماعيلية أولاد إسماعيل بن جعفر الذين ينتسب إليهم الفاطميون أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ)، ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم، وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الري، ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية في عهد إمامة عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين وخلافته. وقد لعب أبو حاتم دوراً عظيماً في الشئون السياسية في طبرستان والديلم، ولا سيما في أصفهان والري، حتى استجاب له جماعة من كبار رجال الدولة. وكان لجهود أبي حاتم أثر كبير في اتصال مرداويج بن زيار الديلمي بعبيد الله المهدي الفاطمي في المغرب. ومن مؤلفات أبي حاتم الرازي كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، نشره سامي النشار (القاهرة ١٩٣٩).

ومن فلاسفة الإسماعيلية أيضاً أبو عبد الله النسفي (ت ٣٣١هـ) الذي تقرب إلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني واستطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان، وعبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى حيث نجح نجاحاً عظيماً في تحويل كثير من كبار رجالها إلى المذهب الإسماعيلي، وقد رحب الأمير نصر بن أحمد الساماني بمبادىء الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي، ولكن قواد الأمير نصر من السنيين دبروا مؤامرة للتخلص منه لانضمامه إلى المذهب الإسماعيلي، فخلع نصر نفسه وتولى بعده ابنه نوح الذي عمل على مطاردة الإسماعيلية في بلاده بعد أن قتل النسفي.

وقد ذاعت شهرة النسفي في عالم الأدب وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي. ومن أشهر

---

(١) طبعة هنري ماسيه (القاهرة ١٩١٩).

مؤلفاته «كتاب المحصول» وكتاب «عنوان الدين» وكتاب «أصول الشرع» وكتاب «الدعوة المنجية».

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلي ودعاته: أبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١هـ)، وكان اليد اليمنى للداعي النسفي، وقام بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي ولأبي يعقوب السجزي مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي بوجه عام وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص. ومن أهم مؤلفاته كتاب «إثبات النبوة» وينقسم إلى سبع مقالات أو أبواب، وتنقسم كل مقالة إلى اثني عشر فصلاً، وكتاب «الينابيع» وهو في حوزة البهرة من الإسماعيلية في بمباي في الهند.

هؤلاء هم أشهر دعاة الإسماعيلية في بلاد المشرق، أما دعاتها في المغرب فنذكر منهم أبا حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣هـ)، ويسميه الإسماعيلية «سيدنا القاضي النعمان» ليميزوا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي المشهور. وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين في المغرب وعاصر عبيد الله المهدي والقائم والمنصور والمعز واتخذه المنصور والمعز قاضياً لهما، ويعد أبو حنيفة من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية. وقد أفادت هذه الدعوة من كثرة مؤلفات أبي حنيفة في الفقه الإسماعيلي، وقد ألف بضعة وأربعين كتاباً.

وأهم هذه الكتب كتاب «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام»، ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية، ويقع في مجلدين ضخمين، ويشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة، ويعتز به البهرة في اليمن والهند. وقد أطنب الدعاة المتأخرون في وصف هذا الكتاب، فذكره حميد الدين الكرماني داعي دعاة الخليفة الفاطمي الحاكم في فارس في كتابه: «راحة العقل» وأشاد به حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث.

وقد ترك أبو حنيفة النعمان المغربي في مؤلفاته الكثيرة ثروة ثمينة. وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته لا يزال أكثر ما بقي منها في حوزة البهرة في الهند. وقد أفاد الإسماعيلية كثيراً من هذه المؤلفات. ولنلق الآن نظرة على كتابي النعمان القيمين وهما:

١ ـ كتاب «المجالس والمسايرات»، ويعد أهم ما كتب في وصف حياة الخلفاء الفاطميين في الدور المغربي، فقد تناول أبو حنيفة في مؤلفه حياة الخلفاء الفاطميين الأربعة وهم: المهدي والقائم والمنصور والمعز خاصة. ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على حياة الخلفاء الخاصة وعلى وصف قصورهم وأوقات فراغهم. وقد أمدنا هذا الكتاب بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم في عهد المعز؛ فمن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة، إلى استقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر وجدهما علي بن أبي طالب إلى

غير ذلك. كما يتناول هذا الكتاب الكلام على علاقة المعز بالأمويين في الأندلس، وعلى الحملات البحرية التي شنها المعز على عبد الرحمن الثالث الناصر الأموي في الأندلس وحلفائه. وتعتبر الرسائل التي تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب في الأدب والمنطق، وتصور الصراع الذي قام بين الفاطميين والبيزنطيين تصويراً رائعاً. وصفوة القول أن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلي والعقائد الإسماعيلية، ولا يستغني عنه الباحثون في تاريخ الفاطميين في الدور المغربي بوجه عام وفي عهد المعز بوجه خاص.

٢ ـ أما كتاب «الهمة وفضل الأئمة» فيتكون من جزأين يشغل كل منها ستاً وأربعين صفحة، وقد قسم المؤلف القسم الأول إلى ثمانية فصول والقسم الثاني إلى أحد عشر فصلاً. وترجع أهمية هذا الكتاب الذي عثر عليه سنة ١٩٣٤ إلى أنه من أقدم المراجع التي تمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره الأولى أصدق تمثيل. كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التي وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة وتدريبهم على التفاني في الإخلاص لمبادئها.

ويتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية، ويهتم مؤلفه اهتماماً خاصاً بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين وهم الدعاة ونحو الأئمة، كما يعنى بشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض، ويرسم لهم الخطط التي يجب عليهم أن يسلكوها في حياتهم. ويعد كتاب الهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالي عند الإسماعيلية. وقد اهتم أبو حنيفة النعمان اهتماماً بالغاً بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبيهم من جهة وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى، فوضع الخطوط الرئيسية التي يجب على الدعاة أن يسلكوها في جذب الأشياع، وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف لكي يكون تأثيرهم في النفوس كبيراً، وبذلك يجعل الداعي من نفسه للمريدين أباً وأخاً ومعلماً وقاضياً نزيهاً يحكم بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم.

ومن دعاة الاسماعيلية جعفر بن منصور اليمن الذي اشتهر منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين. وقد قصد بلاد الغرب سنة ٣٢٢هـ وتمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية. وكان موضع تقدير القائم والمنصور، كما نال تقدير المعز، حتى اتخذه «باب أبوابه» في مصر، وهي أعلى من رتبة قاضي القضاة، ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم في التأويل الإسماعيلي وترك كثيراً من الآثار العلمية التي لا تزال عند البهرة إلى اليوم. ومن أهم كتبه كتاب «تأويل الزكاة» وهو بمكتبة الجامعة بليدن، ولجعفر بن منصور اليمن أيضاً كتاب «سرائر النطقاء» وكتاب «أسرار النطقاء» وكتاب «الشواهد والبيان» المحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

ويعد كتاب «أسرار النطقاء» من أقدم مصادر الإسماعيلية ومن أهم الكتب التي ألفت

للدفاع عن المذهب الإسماعيلي وأنصاره، كما يعد من أحسن الكتب التي تمثل الأدب الإسماعيلي القديم أصدق تمثيل. وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثاً دقيقاً. ولهذا يعد كتابه «أسرار النطقاء» من أحسن المراجع في تاريخ الأئمة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق. كما يتناول هذا الكتاب بعض المبادىء الشيعية، من ذلك نظرية «الغيبة» أي اختفاء الإمام؛ ونظرية «الإمام الصامت»، ويقصد بذلك أن لكل نبي عند الإسماعيلية إماماً يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته، ويسمونه الأساس، أي أساس النطق. ويتبع هذا الأساس ستة أئمة بالتوالي، يسمى كل منهم «الصامت». وعندهم أن علي بن أبي طالب أساس، ومن جاء بعده من الأئمة حتى جعفر الصادق أئمة صامتون. فعلي وزين العابدين وجعفر الصادق أئمة صامتون.

ومن فلاسفة الإسماعيلية حميد الدين الكرماني (ت ٤٠٨هـ)، وكان من دعاة الفاطميين في عهد الخليفة الحاكم، ويلقب بحجة العراقين، وكبير دعاة الإسماعيلية في العراق. وقد ألف الكرماني في الرد على الدرزية رسالة سميت «الرسالة الواعظة» يبرىء فيها الحاكم من ادعائه الألوهية. وقد ألف طائفة من المؤلفات عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى مما يشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه في العلم وتضلعه في فقه الدعوة.

ومن أشهر كتب الكرماني كتاب «راحة العقل» (نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمي)، و«الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله» (فصلة من مجلة كلية الآداب، المجلد الرابع عشر مايو ١٩٥٢، نشره الدكتور محمد كامل حسين).

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (ت ٤٧٠هـ). وقد انحدر من أسرة اتخذت التشيع لها مذهباً، فكان أبوه داعياً للمذهب الفاطمي بشيراز. وقد أرسله الخليفة الحاكم الفاطمي، واتصل بالسلطان أبي كاليجار البويهي وكسب عطفه واستطاع أن ينشر المذهب الإسماعيلي في شيراز. ودخل أبو كاليجار في الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلي. ثم رحل المؤيد إلى مصر سنة ٤٣٩هـ في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي وتقلد ديوان الإنشاء، وحث البساسيري على دخول بغداد وإقامة الدعوة الإسماعيلية للخليفة المستنصر الفاطمي. ولكن البساسيري لم يلبث أن تفرقت جموعه وطرده طغرلبك السلجوقي من بغداد سنة ٤٤٩هـ. بيد أن الخليفة الفاطمي قدر جهود المؤيد في الدين وأسند إليه رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعي

الدعاة سنة ٤٥١هـ.

وكان المؤيد بارعاً في الكتابة بالعربية والفارسية وخلف عدداً كبيراً من الكتب لا زالت تعد من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم. ومن المؤلفات التي تنسب إلى المؤيد كتاب «المجالس المؤيدية»، و«ديوان المؤيد» (نشره الدكتور محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩) ويصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً، و «السيرة المؤيدية» (مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦). ومن أهم آثار المؤيد التي تكشف عن تعمقه في فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب «المجالس المؤيدية»، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة شرح فيها عقائد المذهب الفاطمي.

وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للدكتور حسن ابراهيم حسن، ويقع في نحو سبعمائة وخمسين صفحة، ويتناول بحث تاريخ هذه الدولة في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤).

من المصادر التي يعتمد عليها في دراسة عصر الأيوبيين كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» لعبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩/١٢٣١). وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لابن شداد (ت ٦٣٢/١٢٣٤ هـ)[1]، وهو من أنفس ما كتب عن حياة صلاح الدين، وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (ت ٦٦٥/١٢٦٧هـ)[2]، ويتضمن أخبار مصر والشام في عهد نور الدين محمود صاحب دمشق وصلاح الدين الأيوبي سلطان مصر وقد استقى أبو شامة أخباره من الوثائق الرسمية في الكتب التي ألفها القاضي الفاضل (ت ٥٩٦/١١٩٩هـ) وعماد الدين الأصفهاني (ت٥٩٧/١٢٠١) وابن شداد (ت ٦٣٢/١٢٣٤) (القاهرة ١٢٨٧هـ).

ومن الكتب التي تناولت الكلام على هذا العصر كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» (في جزئين، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٧) لجمال الدين بن واصل (ت ٦٩٧هـ). وهذا الكتاب يمدنا بحقائق تاريخية عن الأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون في مصر، كما يعتمد عليه في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وعصر المماليك إلى سنة ٦٨١هـ.

(د) مصادر المغرب والأندلس:

١ ـ البكري (ت ٤٨٧/١٠٩٧): أبو عبيد.

---

(١) مجموعة تواريخ الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون، المجلد الثالث.

(٢) المصدر نفسه المجلد الثالث.

«كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (طبعة دي سلان باريس ١٩١١).

٢ ـ المراكشي (ت ٦٦٩/١٢٧٠): عبد الواحد بن علي.

يعتبر عبد الواحد بن علي المراكشي من أشهر المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب والأندلس من فتح الأندلس سنة ٩٢هـ إلى ما قبل نهاية عصر الموحدين (٦٦٩هـ) بسنتين. ويمتاز كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (القاهرة ١٩٤٩) بأنه جمع أخبار الشعراء وأعيان الكتاب والعلماء والفلاسفة الذين ظهروا في هذه البلاد في العصور التي تناولها المؤلف. كما يتميز كتاب المعجب بأسلوبه الرائق، فهو مؤرخ وأديب في آن واحد.

ولد عبد الواحد المراكشي بمدينة مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين أعظم أمراء المرابطين في شهر ربيع الثاني سنة ٥٨١هـ، وذلك في مستهل حكم أبي يوسف يعقوب (المنصور) بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي[١]. ولما بلغ عبد الواحد التاسعة من عمره رحل مع أبيه إلى مدينة فاس حيث قرأ القرآن وجوده. ولما أتم دراسته عاد إلى مدينة مراكش، وأخذ يتردد بينها وبين مدينة فاس.

وفي سنة ٥٩٥هـ التقى عبد الواحد المراكشي بالعالم المشهور أبي بكر بن زهر (بضم الزاي وسكون الواو) وبالفيلسوف ابن طفيل (بضم الطاء وفتح الفاء). ثم رحل إلى الأندلس وأخذ العلم عن كبار علمائه. ولما حل بمدينة إشبيلية قدمه صديق له يسمى محمد بن الفضل إلى صاحب المدينة الأمير إبراهيم بن أبي يعقوب المنصور أخي الخليفة الموحدي الناصر بن يعقوب المنصور، وأصبح عبد الواحد من خواصه المقربين، كما اتصل بكبار رجال الدولة في المغرب والأندلس[٢].

عاد عبد الواحد إلى مدينة مراكش سنة ٦١٠هـ، ولكنه لم يطب له المقام بالمغرب، فعبر البحر ثانية إلى الأندلس حيث أقام في كنف الأمير إبراهيم صاحب إشبيلية. وفي سنة ٦١٤هـ ترك عبد الواحد المغرب والأندلس ميمماً شطر المشرق، وكان إذ ذاك في الثانية والثلاثين من عمره. ولسنا ندري العوامل التي دفعته إلى ترك بلاده والمسير إلى مصر في غضون سنة ٦١٩هـ[٣]. وكانت حياته قلقة مضطربة كلها حنين وشكوى وضيق، إذ يقول في مقدمة كتابه المعجب[٤]: «. . . والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت[٥] على غاية الاختلال والتشتت وسبب ذلك هموم تزدحم على الخاطر وغموض تستغرق الفكر».

(١) المراكشي: المعجب (القاهرة ١٩٤٩) ص ٣٦٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣.
(٤) المصدر نفسه ص (٤).
(٥) يقصد الوقت الذي كان يؤلف فيه كتابه المعجب.

وقضى عبد الواحد بمصر سنين، ثم غادرها إلى الحجاز، ثم إلى الشام، ثم إلى بغداد. ثم بسم له الدهر فحظي بعطف وزير الخليفة الناصر العباسي. وقد عبّر عبد الواحد عن سروره مخاطباً الوزير العباسي بقوله: «أيها السيد الذي توالت عليّ نِعَمُه وأخذ بضَبْعي[1] من حضيضي الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه، وقضى إحسانه إليّ ومحبته التي جبلت عليها بأن ألتزم من بِرّه وطاعته ما أنا ملتزمه»[2].

وقد عهد ذلك الوزير إلى عبد الواحد المراكشي أن يؤلف كتاباً في أخبار المغرب وبيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه ولا سيما ملوك المصامدة (يعني الموحدين) بني عبد المؤمن من لَدُنْ ابتداء دولتهم. وقد لبّى عبد الواحد نداء الوزير، فألف كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب». وانتهى من تأليفه في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢١[3].

ومما هو جدير بالملاحظة أن عبد الواحد المراكشي انتهى من وضع كتابه «المعجب» حيث لم تنته دولة الموحدين إلا في سنة ٦٦٧ هـ (١٣٦٩م).

وكتاب «المعجب» من المصادر الأصيلة في تاريخ المغرب. وترجع أهميته إلى أن مؤلفه فوق سعة إطلاعه وعلو مكانته في الأدب قد عاصر الأحداث التي كتب عنها. أما ما كتبه عن أخبار المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدعوة الموحدية فقد اعتمد على ما نقله من مؤلفات كثيرة نوّه فيها بكتاب الحميري الذي لا نراه بين أيدينا الآن[4].

٣ ـ ابن سعيد (ت ٦٧٣/١٢٧٥): علي بن موسى الغرناطي.

كتاب «المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩) (القاهرة ١٩٥٣) نشره زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل كاشف.

٤ ـ ابن القاضي: أحمد بن محمد المكناسي.

«جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس».

مخطوط رقم ج ١٢٤٢ (الرباط).

٥ ـ المالكي؛ أبو بكر عبد الله

---

(١) بسكون ثانيه وبضمه الحيوان المعروف.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٦.

(٤) وقد نشره «دوزي» سنة ١٨٤٧م، ثم أعاد طبعه سنة ١٨٨١م وترجمه فانيان Fagnan إلى الفرنسية ونشرت ترجمته في الجزائر سنة ١٨٩٣، كما طبعه الأستاذ محمد سعيد العريان سنة ١٩٤٩.

«رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم» (القاهرة ١٩٥١).

٦ ـ ابن عذارى (ت في أواخر القرن السابع الهجري): أبو عبد الله محمد المراكشي.

«البيان المغرب في أخبار المغرب» ٣ أجزاء، نشره «دوزي» (ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٥١م) (باريس ١٩٣٠).

٧ ـ ابن سيده (١٠٦٥/٤٥٨): أبو الحسن علي الأندلسي.

«كتاب المخصص» ٢٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١هـ).

٨ ـ ابن بسّام (ت ١١٤٧/٥٤٢): أبو الحسن علي الشنتريني.

«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة». نشرت الأجزاء الأربعة منه (القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩/١٣٦٤ ـ ١٩٤٥).

٩ ـ الطرطوشي (ت ١١٢٦/٥٢٠): أبو بكر.

«سراج الملوك» (القاهرة ١٢٨٩ هـ).

١٠ ـ الخشني: أبو عبد الله محمد بن الحارث.

كتاب القضاة بقرطبة «نشره ربيرا» Ribera (مدريد ١٩١٤).

١١ ـ ابن بشكوال (ت ١١٨٢/٥٧٨) أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسي «كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وآبائهم» نشره عزت العطار (القاهرة ١٩٥٥/١٣٧٤).

١٢ ـ ابن الأبّار (ت ١٢٦١/٦٥٩) أبو عبد الله القضاعي.

«كتاب التكملة لكتاب الصلة» جزآن (مدريد ١٨٨٦) (القاهرة ١٩٥٦/١٣٧٥).

(٦) الجغرافيا

ظهر في العصر السلجوقي كثير من الجغرافيين والرحالين. ومن أشهرهم:

١ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشاري المقدسي (٩٩٧/٣٨٧). وكتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي نشره دي غويه في مجموعة المكتبة الجغرافية العربية (ليدن ١٨٧٧) ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية.

٢ ـ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ١٠٤٨/٤٤٠) وقد خلف لنا كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية». ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات في البلاد التي زارها وبخاصة طبرستان وخوارزم والهند. وقد ساعده اتصاله بعلماء البلاد التي اختلف إليها وإلمامه ببعض اللغات الأجنبية كالفارسية والعربية والسنسكريتية على التبحر في كثير من العلوم كعلم الهيئة والنجوم والرياضة والجغرافية والتاريخ والعلوم الطبيعية. وقد أفاد من رحلاته إلى الهند فجمع علومها ومذاهبها وعادات سكانها التي أودعها كتابه «تاريخ الهند».

٣ ـ ناصر خسرو (ت ١٠٠٨/٤٨١). وقد خلف لنا كتابه «سفر نامه» (أو زاد المسافر). ويتضمن كثيراً من مشاهداته في فارس والعراق والحجاز والشام وفي مصر التي زارها في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ) وظل فيها نحو سنتين (٧ صفر ٤٣٩ ـ ١٤ ذي الحجة ٤٤١هـ) ووصف ثروة البلاط الفاطمي وأبهته.

وكان ناصر خسرو وزيراً في بلاط خراسان ثم اعتزل السياسة فحج بيت الله وأصبح داعياً للإسماعيلية، فاعتبر القاهرة حاضرة الفاطميين المركز الرئيسي للمذهب الإسماعيلي الذي يدين بعقائده. واعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقاً. وقد ألف ناصر خسرو كتابه بالفارسية وترجمه شارل شيفر إلى الفرنسية سنة ١٨٨١م.

٤ ـ أبو عبيد محمد بن عبد العزيز البكري (ت ١٠٩٧/٤٨٧). وترجع نسبته إلى أبي بكر الصديق. وقد ألف كتابه «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»[١]، وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب المسالك والممالك. ولا غنى للطالب عن هذا الكتاب في دراسة تاريخ المغرب.

٥ ـ أبو الحسن محمد بن جبير (ت ١٢١٧/٦١٤). ولد في بلدة بلنسية[٢] بالأندلس سنة ٥٣٩هـ ثم استوطن غرناطة. وينتمي إلى معد بن عدنان. وقد تلقى ابن جبير العلم على أبيه وعلى ابن أبي العيش وكثير من علماء عصره، وأفاد من علمه كثير من علماء المغرب ومصر.

وكان ابن جبير على درجة كبيرة من الورع والدين. وقد عاصر الدولة الموحدية التي كانت تحكم بلاد المغرب والأندلس، ثم سافر إلى المشرق ثلاث مرات، حج في كل منها بيت الله بمكة. وقد بدأ رحلته الأولى في شهر شوال سنة ٥٧٨هـ، ثم عاد إلى غرناطة بعد سنتين. وقد صنف فيها ما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع. وهو كتاب ممتع يحبب المرء في زيارة هذه المعالم. ولما علم ابن جبير بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين

---

(١) طبعة دي سلان، باريس ١٩١١.

(٢) وقيل إنه ولد بشاطبة.

الأيوبي قوي عزمه على القيام برحلته الثانية إلى المشرق (٥٨٥هـ). ثم عاد إلى غرناطة سنة ٥٨٧هـ ثم رحل إلى سَبْتة بالمغرب الأقصى وانصرف إلى الحديث والتصوف.

ولما ماتت زوجة ابن جبير (وهي عاتكة بنت الوزير أبي جعفر) عظم وجده عليها ففكر في القيام برحلته الثالثة، فخرج من مدينة سبتة إلى مكة، فبقي فيها فترة طلب فيها العلم، ثم غادرها إلى بيت المقدس فالقاهرة ثم إلى الاسكندرية حيث قام بتدريس الحديث حتى وافاه أجله سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م)، ولم يترك لنا إلا حديثه عن الرحلة الأولى من هذه الرحلات الثلاث.

وكان ابن جبير أديباً شاعراً، مدح النبي ﷺ بقصائد طويلة تشهد بطول باعه في الشعر والنثر ولا سيما الصوفي منها. وقد أشاد الوزير(١) لسان الدين بن الخطيب بعلم ابن جبير وفضله وعلو باعه في الفقه والحديث(٢).

٦ ـ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦/١٢٢٩). وكان إغريقي المولد، ومن أجل ذلك سمي الرومي. أسر صغيراً وبيع لأحد تجار مدينة حماة؛ ومن أجل ذلك نسب إليها فسمي الحموي. وقام مولاه بتعليمه وأوفده في تجارته إلى الخليج العربي وغيره، فجرت بينه وبين مولاه كَتْبَة أدت إلى عتقه، فعاش من نسخ الكتب وبيعها؛ أي أنه احترف الوراقة كما كانت تسمى، وأفاد من وراء هذه الصناعة بما تركه لنا من مؤلفاته النفيسة.

وقد نال ياقوت حظاً وافراً من التعليم وجاب كثيراً من البلاد وأقام بمدينة مرو حاضرة خراسان وأفاد من مكتباتها الزاهرة حتى بدأت غزوات المغول فاضطر إلى الهرب إلى الموصل (٦٦٤/١٢٢٤) حيث أتم مؤلفه «معجم البلدان». ومن مؤلفات ياقوت:

١ ـ كتاب «معجم البلدان(٣)». ويعتبر من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في كل ما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربي آسيا.

٢ ـ كتاب «مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع». وقد اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩/١٣٣٨)(٤).

---

(١) انظر ما كتبه عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب في كتابه تاريخ غرناطة.

(٢) وقد نشر وليام رايت أسفار ابن جبير (ليدن ١٨٨٢) وتعرف هذه الأسفار باسم رحلة ابن جبير. وقد ترجمه برود هيرست إلى الإنجليزية (لندن ١٨٥٢).

(٣) نشره وستنفلد في ستة أجزاء (١٨٦٦ ـ ١٨٧١) وطبع في القاهرة في ثمانية أجزاء (١٣٢٣هـ).

(٤) طبعة جوينبول في أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣).

ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب[1].

٧ ـ عبد اللطيف موفق الدين أبو محمد الطبيب البغدادي (ت ٦٢٩/١٢٣١):

كان كما يقول السيوطي[2] عالماً بأصول الدين والنحو واللغة والطب والفلسفة والتاريخ. ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هـ. وقد خلف لنا كتبه:

«الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر». وقد ترجمه دي ساسي إلى الفرنسية.

ـ مختصر تاريخ مصر، طبعة ج. هوايت (أكسفورد ١٨٠٠).

ـ شرح مقامات الحريري.

الجامع الكبير في المنطق والطبيعي والإلهي، ويقع في عشرة مجلدات. وقد أقام بمصر وتوفي ببغداد في ١٢ المحرم سنة ٦٢٩هـ.

٨ ـ زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢/١٢٨٣)، ولد بمدينة قزوين في إيران سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) وأقام فترة من حياته بمدينة دمشق وتولى القضاء في عهد الخليفة المستعصم في واسط الحلة، وقد خلف لنا القزويني كتابيه «عجائب المخلوقات» و«آثار البلاد» اللذين قام وستنفلد على نشرهما في سنتي ١٨٤٨ و ١٨٤٩.

ويشتمل كتاب «عجائب المخلوقات» على بيان التقويم الشمسي والنجوم والأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات الخرافية المختلفة.

يشتمل كتاب «آثار البلاد» على كثير من المعلومات الجغرافية الهامة، كما يشتمل على كثير من الأخبار المتصلة بتراجم شعراء الفرس الذين اتصل بهم القزويني، كالفردوسي وناصر خسرو وعمر الخيام وعنصري ورشيد الدين الوطواط.

على أن المعلومات الجغرافية التي وردت في كتاب «آثار البلاد» لا ترقى إلى المستوى الذي بلغته المعلومات التي أوردها ياقوت الحموي وغيره من الجغرافيين المبكرين، ولو أنها تزخر بكثير من الأخبار الممتعة المسلية.

ومن الغريب أن هذا الكتاب لا يتعرض لذكر إنجلترا فيما دونه القزويني عن الإقليم السادس، ولو أنه تعرض لإيرلندة ووصف في إيجاز صيد الحيتان، كما وصف مدينة رومة في

---

(١) طبعة سلسلة ذكرى جب، ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١).

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

شيء من الإسهاب. ولما تناول القزويني الإقليم السابع، تحدث عن الطقوس التي يتبعها الفرنجة في الماء والنار والمعارك، كما تحدث عن السحر والسحرة وعن الخليج الفارنجي Varangian Fiord في أقصى الشمال. يقول براون: «وفي رأيي أنني لم أصادف بين الكتب العربية كتاباً ممتعاً جديراً بالقراءة مثل هذا الكتاب»[١].

٩ ـ محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسي (ت ١٢٥١/٦٤٩). وكان من أهل سبتة بالمغرب الأقصى. وقد بدأ رحلاته وهو في السادسة عشرة من عمره؛ فزار بلاد الأندلس وفرنسا وإنجلترا. ثم زارمعظم أرجاء شمالي إفريقيا، ثم رحل لحج بيت الله، فزار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان التي وصل إليها سنة ٥١١هـ.

ولم يكن الإدريسي رحالة فحسب، بل كان عالماً موفقاً عميقاً في بحثه. ولما لم يجد في الشرق ما كان يؤمله عاد إلى بلده وفي نفسه شيء من المرارة. وعاصر الدعوة الموحدية التي قام بنشرها المهدي محمد بن تومرت.

وقد اتصل بمسامع الملك رودجر الثاني النورمندي ما يمتاز بـه الإدريسي من سعة الاطلاع، فدعاه إلى بلاطه بصقلية سنة ٥٣٣هـ. فرحب الإدريسي بهذه الدعوة، وعهد إليه هذا الملك بوضع كتاب في جغرافية العالم، ووضع تحت إشرافه لجنة قامت بزيارة البلدان النائية. كما وضع تحت تصرفه ٠٠٠ ٤٥٠ رطل من الفضة الخالصة ليضع له كرة يرسم عليها المصورون مواقع البلدان وأسماءها. وقد شرح الإدريسي ما في هذه الخريطة والكرة في كتابه «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان» واستغرق هذا العمل خمس عشرة سنة.

وقد ألف الإدريسي كتابه نزهة المشتاق، وهو مختصر لكتابه نزهة المشتاق الذي طبع في روما سنة ١٥٩٢م. ورسم الإدريسي خريطة العالم. ويبين لنا هذا العمل الدقيق مدى معرفة العرب ببلاد العالم المختلفة، ومنه نعلم أن العرب لم يجهلوا ألمانيا والسويد والنرويج وغيرها من البلاد الواقعة شمالي القارة الأوروبية.

ولا يبعد أن تكون معلومات الإدريسي نتيجة اتصال المسلمين بأوروبا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية. وقد طبع كنراد ميللر خريطة الإدريسي طبعة أنيقة مزينة بالألوان سنة ١٩٢٦. وقام المجمع العلمي العراقي حديثاً بطبع هذه الخريطة التي حددت أجزاء العالم الإسلامي قبل غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي، كما عينت منابع النيل بدقة، وصورت بحر قزوين وصحراء فارس. ولولا خريطة الإدريسي لظلت هذه الناحية مجهولة لدينا.

---

(١) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦١٢ ـ ٦١٤.

وتمتاز خريطة الإدريسي بعدم المبالغة. وقد أشار في كتابه «نزهة المشتاق» إلى مقياس خريطته فذكر أن كل درجة ٢٥ فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال، فيكون طول الدرجة ٧٥ ميلاً. وجاءت خريطة الإدريسي مطابقة لمواقع البلدان. وكانت في الأصل ثلاثة أمتار ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً. ثم نقلها «ميللر» في مترين طولاً ومتر عرضاً. ولم يخطىء الإدريسي إلا في مواقع قليلة. مثال ذلك أنه وضع «كليهار» في السويد في درجة $\frac{1}{3}$ /٥٦ بدل $\frac{1}{2}$/٥٦؛ وأخطأ في تعيين موقع انجلترا والدانيمرك بنصف درجة. ولم يضع خطوط الطول لعدم استطاعته تحقيق مواضعها، وإنما أثبت خطوط العرض التي تبدأ أفقية من خط الاستواء إلى الشمال، ووضع ست درجات بين كل خط وخط. وقد قيل إن الادريسي أسرع في إنجاز خريطته بسبب مرض رودجر ملك صقلية.

وكان الإدريسي محدثاً لامعاً، ألف كتاب «المفيد في أخبار الصعيد». ومات بالقاهرة في شهرصفر سنة ٦٤٩هـ[١].

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨.

الباب الحادي عشر
الفن
تخطيط المدن

(أ) تقسيم المدن:

يمكن تقسيم المدن إلى مدن تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية ومدن تبنى بطريقة ابتكارية أو مبتدعة، وهذا النوع الثاني قد أولع به الفرنسيون سكان المدن. ويمكن أن ينطبق هذا النوع الأخير على المدن الإسلامية.

١ ـ فالمدن التي تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية هي التي بنيت لاستيطان الجاليات أول الأمر، ويكتفي سكانها بالاحتفاظ بمقومات هذه الأبنية التي تؤدي إلى تحقيق الأغراض التي بنيت من أجلها.

ذلك أن العرب لم يرغبوا في الإقامة بالمدن القديمة كأقلية معرضة لمقاومة أهالي البلاد الأصليين الذين ينظرون إليهم باعتبارهم أجانب عنهم. لذلك نرى المدن الأولى التي بناها العرب أشبه بمعسكرات حصينة (مثال ذلك الفسطاط أو مصر القديمة)، وأحياناً تكون المدن منعزلة انعزالاً نسبياً عن المراكز الأخرى المنافسة لها (مثل الكوفة والقيروان). وقد يدفع الموقف السياسي للدولة الجديدة الحكام على تأسيس مدينة جديدة لإخضاع مدينة أخرى قصد القضاء على مقاومتها (مثال ذلك مدينة المنصورية التي بناها بنو مرين في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، لتحل محل تلمسان التي احتلها بنو زيان، وتبعد عنها بنحو ميل ونصف وقد اتخذها المرينيون حاضرة لهم). كذلك اقترن قيام دولة الأدارسة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (القرن التاسع الميلادي) بتأسيس مدينة فاس سنة ١٩٢هـ. واقترن قيام الدولة المرابطية ببناء مدينة مراكش على يد يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م). وقد ينقل الحاكم مقر دولته من الحاضرة التقليدية كما فعل المعتصم العباسي الذي بنى مدينة سامرا (على بعد سبعين ميلاً شمالي بغداد) سنة ٢٢١هـ، وظلت حاضرة الخلفاء العباسيين نحو ستين سنة حتى نقل المعتضد حاضرة الخلافة العباسية إلى بغداد سنة ٢٧٩هـ. وينطبق هذا المثل أيضاً

على رقادة (بفتح القاف مع التشديد) التي اتخذها الأغالبة حاضرة لدولتهم (وتبعد عن القيروان بستة أميال) لتحل محل العباسية (وتبعد عنها بميلين ونصف ميل) سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م). كذلك نذكر مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر الأموي على بُعد أربعة أميال ونصف من قرطبة.

٢ ـ وقد تستخدم المدن التي تبنى بطريقة ابتكارية في تحصين الدولة عند الحد الذي يفصل بينها وبين الدولة المجاورة لها أو تبنى في قلب الدولة نفسها، وقد تنمو هذه الحصون وتصبح على مر الزمن مدناً حصينة. فمدينة الرباط، الحاضرة الإدارية الحالية للمملكة المغربية تحتفظ بطابعها الأصلي وهو رباط الحرب(١).

وسنرى الآن كيف تنطبق هذه القواعد على المدن الإسلامية، إذ إن الموحدين كانوا يرابطون فيها بجندهم وخيلهم وأسلحتهم في الكفاح الحربي مع المرابطين، ثم مع نصارى الأندلس، ثم في فتحهم مدينة المهدية وطردهم الروم من إفريقية.

وقد أولع السلطان ألب أرسلان السلجوقي بالبناء. وكان إذا أراد أن يبني بناء حرص على أن يكون شامخاً يقوى على تحمل الأحداث دالاً على عظمة الدولة. كما كان يحرص على اختيار المكان الذي يبنى فيه بحيث يكون بهيجاً مشرقاً. وكان يقول: «آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا»(٢).

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ) مغرماً بالعمائر، فحفر كثيراً من الأنهار وأحاط كثيراً من المدن بالأسوار، وأنشأ الربط والقناطر في المفاوز، وعمر جامع السلطان ببغداد (٤٨٥هـ) وزاد في دار السلطنة بها، وحفر الآبار في طريق مكة. وقد خرج من الكوفة لتوديع الحاج سنة ٤٨٠هـ، فصاد في طريقه وحشاً كثيراً، فبنى بالسبيعي منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في هذا الطريق. وكانت هذه المنارة تعرف بمنارة القرون. كما بنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر(٣).

ولنذكر الآن بعض المدن الشهيرة في العصر الذي خصصنا له هذا الجزء الرابع من كتابنا (٤٤٧ ـ ٦٥٦هـ):

---

(١) Grunebaum, Islam, pp. 144 - 145; E. Pauty, Villes Spontanées, etc.
(٢) البنداري؛ تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٩.

(ب) مدينة قرطبة:

كانت قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أكثر المدن الإسلامية حضارة في الأندلس بصفة خاصة والمدن الأوروبية بصفة عامة. وكان العجب يأخذ من قلوب الرحالة الذين زاروا هذه المدينة كل مأخذ حين يشاهدون بها سبعين داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور. وقد اعترف ابن حوقل الجغرافي، برغم تحامله على أمويي الأندلس، بعظمة قرطبة التي سماها بغداد الثانية، كما أعجب بجمال مدينة الزهراء المتاخمة لقرطبة وبثراء حي الرصافة وفخامته.

وقد تأثر الفن الأوروبي بالفن الإسلامي الذي أخذ عن الفن المصري القديم وعن فن الشرق الأدنى. فالأساطين الأيوبية في البناء الكلاسيكي شرقية الأصل. كما أخذ اليونان عن طريق الشرق الأدنى أهم عناصر الفن الهلليني الشرقي. وليست هذه الخطوط المنقوشة إلا باقات وسيقان البردى التي نشاهدها على الأعمدة المصرية القديمة، إذ إن بلاد بابل تعد موطن النقش على الأحجار الكريمة ، كما إن الأعمدة التي استخدمت كعنصر زخرفي في البناء مصرية الأصل، انتقلت إلى سورية وسائر بلاد الشرق الأدنى حول الألف الثاني قبل الميلاد، ثم إلى بلاد اليونان في القرن السابع الميلادي.

كذلك انتقل فن البناء العربي، ولا سيما القباب، إلى أوروبا محاكاة لمسجد عمر في بيت المقدس. وقد أثبت مؤرخو الفنون أن أهم عناصر الفن الروماني كانت متداولة في الشرق قبل أن تعرفها أوروبا بقرون، وأن العوامل التي أدت إلى وجود الفن القوطي شرقية الأصل.

وإنا لنرى التأثير العربي في أوروبا واضحاً في الفنون والصناعات المنزلية، فقد كانت دور الأغنياء في مملكة بيت المقدس على الطراز العربي. كذلك كانت الزخرفة والأثاث الداخلي والمصوغات الذهبية والحلى ولا سيما في إيطاليا وفي البندقية بوجه خاص. أضف إلى ذلك صناعة العاج والمينا والسجاجيد والأبسطة. وإن خزف مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر يثبت، كما يقول بروفنسال[1] بفنه وألوان تصويره ومناظره، أنه من أصل عراقي. أما الصناديق الصغيرة المصنوعة من العاج التي هي فخر مصانع الخليفة، فقد اتخذت موضوعاتها وصورها ومناظر الصيد والموسيقى عن الفن الآسيوي.

وعن الفن الإسلامي أخذ الأوروبيون كثيراً من فن النقش والزخرفة وصناعة السجاجيد. وعن عرب صقلية واسبانيا تأثرت الحضارة الأوروبية بالحضارة الإسلامية في

(١) الشرق الإسلامي والحضارة العربية ص ٣٣ ـ ٣٤.

الثقافة والفن، وفي نظم الحكم، وفي الحياة الاجتماعية وغيرها. وبذلك يظهر أثر التراث الإسلامي في الحضارة الأوروبية، وينمحي الرأي القديم الذي ذهب أصحابه إلى القول بأن الغرب أسبق من الشرق في تطور الفكر البشري ورقي الحضارة الإنسانية.

(ج) مدينة القاهرة:

ذكرنا من قبل أنه كان من أهم ما يرمي إليه الولاة في البلاد الإسلامية أن يؤسسوا قاعدة تسع جندهم وتأوي أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم، ثم يبنون مسجداً يقيمون فيه شعائرهم الدينية. وقد سن هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص، فأسس مدينة الفسطاط، وجاء بعده صالح بن علي فأسس هو وأبو عَوْن مدينة العسكر، وأسس أحمد ابن طولون مدينة القطائع. ثم جاء جوهر الصقلي فوضع أساس مدينة القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ بعد أن استولى على مدينة مصر (يعني الفسطاط وأطلال العسكر والقطائع). كما وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز لدين الله.

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة. وكانت حدودها الشرقية هي بنفسها حدود القاهرة الحالية، وأما من الجهة الغربية فلم تجاوز شارع الخليج.

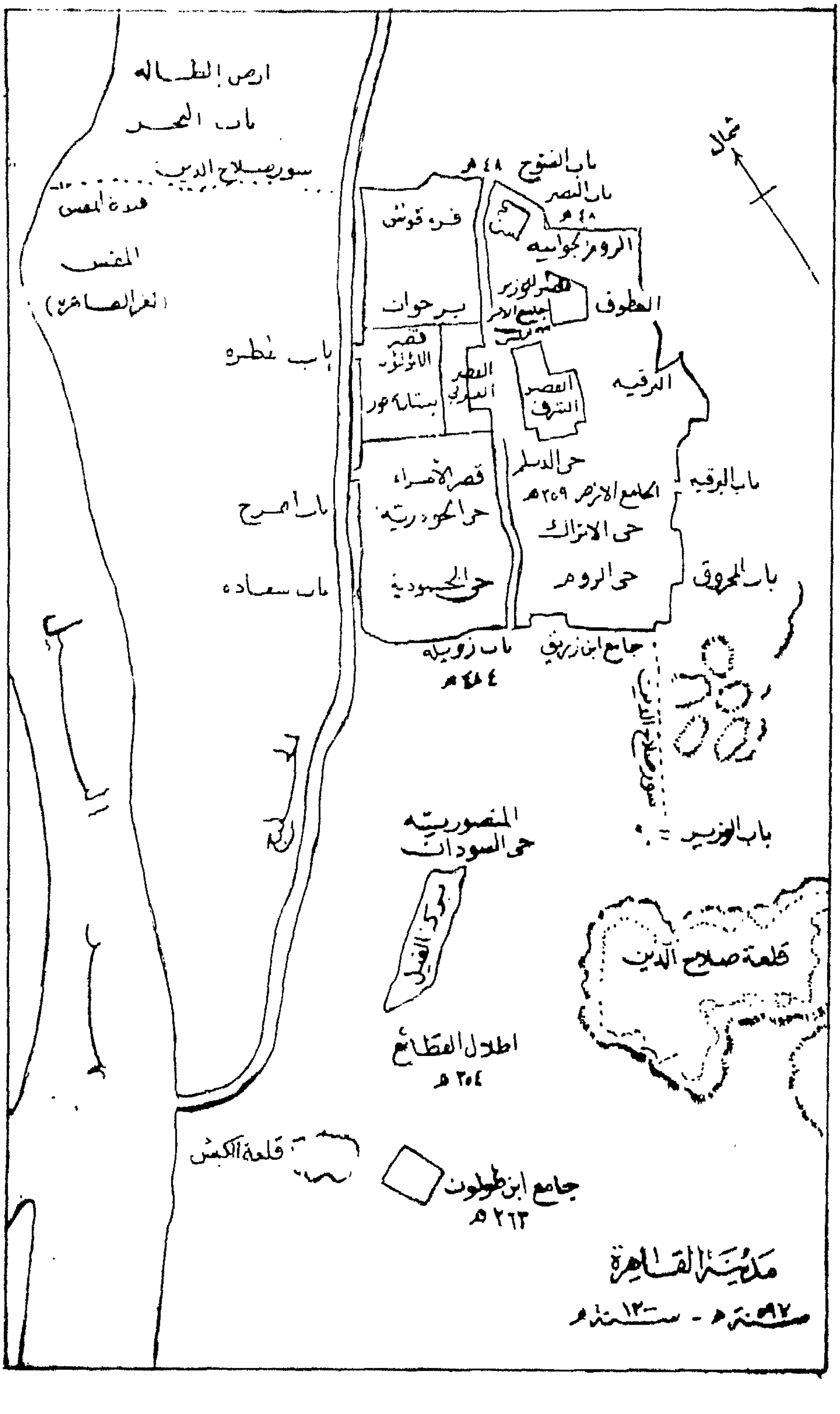
وقد ذكر علي مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب مدينة القاهرة كما أسسها جوهر كان يبلغ ألفاً ومائتي متر، ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فداناً كان القصر الخلافي يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فداناً. وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين فداناً، وخمسة وثلاثين فداناً للمكان المخصص لاستعراض الجند، والباقي وقدره مائتا فدان لسكنى الجند. وقد زاد السور الذي أقامه أمير الجيوش بدر الجمالي في مساحة المدينة ستين فداناً. وقد بني هذا السور من الحجر الكبير الحجم، وبه ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم[١].

وقد وصف ناصر خسرو الرحالة الفارسي تخطيط مدينة القاهرة التي زارها سنة ٤٤١هـ (سنة ١٠٤٩م) فقال إن قصر الخليفة يقع في وسط القاهرة، وأنه طلق الهواء من جميع الجهات، إذ لا يتصل به أي بناء وكل ما حوله فضاء... ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة.

وإذا كان جوهر قد فاته ما أشار به المعز لدين الله من اختيار منطقة الرصد واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية، فإن الخلفاء الفاطميين لم تفتهم مواطن الجمال في أطراف القاهرة

---

(١) راجع كتاب علي باشا: الخطط التوفيقية. ج ١ ص ٤ ـ ٢٢.


ارض الطبالة
باب البحر
سور صلاح الدين
المقس
باب الفتوح ٤٨٠ هـ
باب النصر ٤٨٠ هـ
شمال
برجوان
العطوف
القصر الغربي
القصر الشرقي
باب البرقية
حي الديلم
الجامع الازهر ٣٥٩ هـ
حي الاتراك
حي الروم
باب المحروق
باب القنطرة
باب سعادة
باب زويلة ٤٨٤ هـ
باب الوزير
المنصورية
حي السودان
بركة الفيل
قلعة صلاح الدين
اطلال القطائع
٢٥٤ هـ
قلعة الكبش
جامع ابن طولون
٢٦٣ هـ
مدينة القاهرة

والفسطاط والجزيرة، فانتفعوا بها وبشاطىء النيل وحافتي الخليج وشبرا، حيث الخضرة والماء، فأنشأوا المناظر والحدائق التي كانوا يقضبون فيها أوقات فراغهم. وكان لانتفاعهم بتلك المناطق أثر كبير في تعميرها بخاصتهم من الناس، فامتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة.

وفي سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) وسع الوزير بدر الجمالي رقعة مدينة القاهرة شمالاً وجنوباً وسمح بالسكنى فيها، فامتد عمرانها إلى أطرافها ثم إلى خارج أسوارها، وسميت الأبنية التي بداخل الأسوار باسم «داخل السور» كما سميت الأبنية التي في خارج الأسوار باسم «ظاهر القاهرة»، وأنشىء في هذا الفضاء الذي هو خارج السور خطط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين. هذا عدا الناحية الشرقية التي تقع بين السور والجبل، فإن الخليفة الفاطمي الحاكم أمر بأن تلقى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول المدينة، فتكونت تلك الأكوام التي تعرف بأكوام الترقية في نهاية شارع الدراسة.

وقد أحاط صلاح الدين الأيوبي القاهرة والفسطاط بسور واحد وبنى قلعة الجبل. وفي عصر المماليك امتد العمران وخاصة في عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى زادت رقعة القاهرة نحو النصف، وغدت هي والفسطاط مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة الحبش (أثر النبي) ومن النيل إلى المقطم(١).

وكان لتحول النيل في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أثر كبير في توسيع رقعة مصر والقاهرة. وقد وصفها ابن فضل الله العمري(٢) المؤرخ الجغرافي في القرن الرابع عشر الميلادي بقوله:

«ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، بعد حريق الفسطاط (في عهد وزارة شاور) سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) وانتقال أهلها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العالية والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار».

(د) مدينة مراكش:

إن بناء مدينة مراكش باعتبارها حاضرة للدولة المرابطية مع وجود مدينة «أغمات» الكبيرة، التي كانت مزدهرة قبل مراكش، والتي لا تبعد عنها بأكثر من ثلاثين كيلومتراً لم يكن مجرد صدفة أو ارتياد مكان لغرض غير معين.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٦٥.
(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٧٠.

ذلك أن أغمات المدينة البربرية الأصيلة التي يرجع تاريخ بنائها إلى العصور القديمة كانت تحفّ بها أشجار الزيتون في سفح جبال الأطلس[١] وتكثر بها البساتين والأنهار. ولم تكن هذه المدينة تلائم البيئة الصحراوية التي تعودها المرابطون فضلاً عن أنها ضاقت بسكانها الجدد من المرابطين.

وقد وصف اليعقوبي[٢] أغمات بأنها «بلد خصب فيه مراعٍ ومزارع في سهل وجبل، وأهله قوم من البربر»، وقد ذكر الإدريسي[٣] الذي عاصر المرابطين والموحدين أن أهل أغمات يتوفرون على ثروات ضخمة من تجارة النحاس والثياب الصوفية والعمائم والآلات الحديدية، وما منهم رجل يسافر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً موقرة[٤]. ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً.

عاد أبو بكر بن عمر إلى مدينة أغمات وكانت مدينة مشهورة بعلمها وحضارتها. وكانت عبارة عن مدينتين تسمى كل منهما أغمات، وتنسب إحداهما إلى قبيلة وريكة فيقال لها أغمات وريكة، والأخرى تنسب إلى قبيلة هيلانة فيقال لها أغمات هيلانة أو إيلان أو إيلانة (هيلانة). وما زال أهل مراكش حتى اليوم يسمون أحد أبواب مدينتهم «باب إيلان». وقد قامت منافسة شديدة بين هاتين المدينتين، حتى إن كل فريق منهما كان يصلي في الجامع منفرداً. وفي ذلك الوقت استقر أبو بكر بن عمر في هذه المدينة وتوافدت عليه الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت بالسكان فضج أهلها بالشكوى لما كانوا يجدونه من عناء بسبب مضايقة المرابطين لهم، فقال لهم أبو بكر: عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إن شاء الله. فأشاروا عليه في بادىء الأمر بمكان يقع على نهر تانْسفت[٥] (بسكون النون والفاء وكسر السين) شمالي مراكش. ولكن أبا بكر خاف من فيضان هذا النهر وقال لهم: إننا قوم صحراويون ولا نستطيع العيش بجوار الأنهار. وأخيراً أشاروا عليه بفحص[٦] مراكش وقالوا له: أيها الأمير قد نظرنا لك موضعاً صحراء رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك، يكون وادي نفيس (بفتح النون) جنانَها، وبلاد دُكالة[٧] (بضم الدال وفتح الكاف مع التشديد) فَدّانَها، وزمام جبال درن (بفتح الدال

---

(١) Terasse, tome I. p. 222.

(٢) كتاب البلدان ص ٢١ - ٢٢.

(٣) كتاب الأندلس وأرض السودان ص ٦٧.

(٤) أي مثقلة بالأحمال.

(٥) ويصب جنوبي مدينة آسفي.

(٦) بفتح الفاء وسكون الحاء كل موضع يسكن.

(٧) لا تتصل دكالة اليوم بمراكش، وكان اسمها قديماً يطلق حتى على القبائل التي تدعى عبدة اليوم بجوار=

والراء) (بالأطلس الكبير) بيد أميرها. أضف إلى ذلك وقوع مدينة مراكش في مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى.

عند ذلك ركب الأمير أبو بكر بن عمر في صحبة نفر من قومه من لمتونة وشيوخ المصامدة ووجوه الناس إلى فحص مراكش، وكان خاوياً موحشاً، لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا ينبت به إلا السدر والحنظل؛ فوجدوا بجواره مكاناً خصيباً فسيحاً ورأوا في هذا السهل من العشب لجمالهم ودوابهم ما سرهم[1].

٢ ـ تسمية مراكش:

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي[2] أن مراكش كانت في مبدأ أمرها غيضة لا عمران فيها، وكانت مأوى للصوص، وربما سميت مراكش باسم عبد أسود يدعى «مراكش»، استقر بها أو لأنها كانت بمكان موّحش مخيف. فكان المارة يقولون لرفقائهم: «مراكش»، ومعناها مرّ مسرعاً بلغة المصامدة، فعُرف المكان بهذا الاسم، وهو مراكش (بفتح الميم والراء مع التشديد وضم الكاف)[3]، وبعضهم ينطقها بفتح الكاف وضبطها بعضهم بضم الميم وكسر الكاف. ويطلق لفظ مراكش على المملكة المغربية كلها فيقال سلطنة مراكش ومملكة مراكش (Maroc بالفرنسية Morocco بالإنجليزية) وMarrakesh على المدينة.

٣ ـ تخطيط مراكش:

وقد بدأ الأمير أبو بكر بن عمر عملية التعمير والبناء ببناء قصره، وتبعه الناس في بناء الدور بغير أسوار[4]. ثم بنى معسكراً ومخازن للسلاح والأموال إلى جانب مسجد لإقامة الصلاة. وليس من شك في أن المدينة بدأت في غاية البساطة، حيث سكن الناس أولاً في خيام من الوبر، ومنهم رجال الدولة. واستمر هذا العمل نحواً من سنة، وقيل ثمانية أشهر.

= مدينة مراكش.

(١) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (لمؤلف مجهول). نشره علوش، ص ٥ ـ ٦.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٩٥ وما يليها.

(٣) انظر لفظ مراكش في معجم البلدان لياقوت.

(٤) كان المرابطون يكرهون أن تكون المدن مسورة، وذلك لطبيعة نشأتهم الصحراوية الطلقة، حتى إن يوسف بن تاشفين لما فتح مدينة فاس، خرب السور الذي يفصل بين عدوتيها (أي عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين) وقال: إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا. ولما فكر علي بن يوسف بن تاشفين في تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩هـ (١١٣٥م) استفتى الفقهاء في المغرب والأندلس في هذا العمل.

ولما نزل الأمير أبو بكر بن عمر بموضع مراكش وبدأ عملية التعمير والبناء، وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء يعلمه أن جدالة قد أغارت عليهم. فأقام أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين على حكم المغرب وسار نحو الصحراء لنجدة قومه [1].

وينسب بعض المؤرخين بناء مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ويحدد تاريخ بنائها بسنة ٤٤٤هـ (١٠٦٣م)، على أنه مما لا شك فيه أن يوسف بن تاشفين كان يشرف على البناء حين كان أبو بكر بن عمر مشغولاً بإخماد الفتنة التي قامت بين قبائل المرابطين قبل أن يعود إلى الصحراء ويقضي بقية حياته فيها. على أننا نرى أن المؤسس الحقيقي لمدينة مراكش هو أبو بكر ابن عمر، وأن يوسف بن تاشفين قد أتم ما بدأه أبو بكر بن عمر. ومراكش تشبه كثيراً من حيث جوها والحركة الدائبة فيها مدينة بغداد، كما تشبه مدينة فاس من حيث كثرة غياضها وأشجارها، وطقسها مدينة دمشق، وتزخر مدينة مراكش بالآثار والمعالم الحضارية.

ويذكر ابن خلدون[2] أن يوسف (بن تاشفين) جعل مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره ولمراقبة قبائل المصامدة التي كانت تقيم بجبال درن (بفتح الدال والراء) المتاخمة لمراكش. وهكذا يرجع تأسيس مدينة مراكش إلى عوامل أهمها:

(١) إيجاد مقر للحكومة ومعسكر يتسع لجند المرابطين.

(٢) اتخاذ حاضرة الدولة بقرب مواطن المصامدة الأصلية لدفع إغارتهم.

(٣) ارتياد مكان فسيح من حيث موقعه الملائم لطبيعة حياة المرابطين الصحراوية.

وقد اختط أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده مدينة مراكش في بسطة من الأرض حولها جبل إيجليز (ويسمى الآن جيليز) القريب من مراكش واقتطع منه الحجر وبنى منه داراً لحرمه، وقصراً يعرف بدار الحجر. ولا يعرف موقع هذا القصر على وجه التحقيق، أما المباني الأخرى فكانت من الطين والحجر.

وبعث يوسف بن تاشفين في طلب عبيد الله بن يونس الذي برع في الهندسة، فاستخرج الماء الذي جرى إلى المباني والبساتين والمتنزهات التي يسمونها البحائر[3]، حتى كثرت قصور

---

(١) عباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام (فاس ١٣٥٥/١٩٣٦) ج ١ ص ٦٣ وما يليها.

(٢) العبر ج ٦ ص ٣٧٨.

(٣) جمع بحيرة (بفتح الباء) والمراد بها الفدان الذي يحرث (أي حقل)، وهي ما يسمى اليوم أجدال (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الدال).

الأمراء والقواد وغيرهم. وقد أمد يوسف بن تاشفين مدينة مراكش بالماء، فحفر آباراً أطلق عليها «الخطاطير» وجلب إليها الماء من أغمات[١].

وقد اتفق المؤرخون على أن المرابطين لم يتخذوا فاس حاضرة لدولتهم، لبعدها عن موطنهم وعن مواطن المصامدة الذين كانت تعمر بهم جبال الأطلس.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي بنيت فيها مدينة مراكش، فيذكر ابن خلدون[٢] وابن أبي زرع[٣] أنها بنيت سنة ٤٥٤هـ.

٤ ـ اتساع مدينة مراكش:

وقد أجمع المؤرخون على أن بناء مدينة مراكش تم في ثمانية أشهر، وأن علياً بن يوسف هو الذي سورها وأنفق على بنائها سبعين ألف دينار مرابطية، وبنى بها مسجداً قام بترميمه المولى سليمان العلوي. كما بنى قنطرة تانسيفت واستعان بصناع الأندلس وغيرهم من مهرة المعماريين. ولكن سيول هذا النهر لم تلبث أن هدمت هذه القنطرة وأطاحت بها في النهر، ولم يبق منها إلا عقدها، فقام الموحدون بترميمها.

وقد ذكر المؤرخون أنه كان بمدينة مراكش سبعة عشر باباً، واشتهرت مراكش باتساع أروقتها ورحابة دورها وارتفاع مبانيها وزخرت أسواقها بالسلع.

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين سنة ٥٢٤هـ فتح عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ) أول خلفاء الموحدين مدينة مراكش[٤]. وقد عني هو ومن جاء بعده من الخلفاء بتشييد المباني، فبدأ ببناء جامع الكتبية الذي اشتهر بمنارته العظيمة التي تحاكي منارة «الخالدة» بإشبيلية. ثم أتمه ابنه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ). وجلب عبد المؤمن بن علي المياه من أودية جبال دَرَن وغرس في غربي المدينة بحيرة (بفتح الباء) عظيمة بلغت دائرتها ستة أميال وبنى فيها وفي خارجها صهريجين عظيمين، كما غرس ابنه أبو يعقوب يوسف بحائر أخرى جلب إليها الماء وبنى فيها صهريجاً ضخماً، كما بنى في جنوبي المدينة حصناً أتمه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ) وبنى بجوار مراكش مدينة أخرى تزخر بالبساتين والقصور والأسواق

---

(١) عباس بن إبراهيم: الأعلام ج ١ ص ٦٤.

(٢) العبر ج ٦ ص ١٨٤.

(٣) روض القرطاس ج ٢ ص ٣٩ ـ ٤١.

(٤) هدم الموحدون مسجد يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش ولم يبق من معالمها سوى سورها وخطاطيرها ودمرت المباني الأخرى وأقيم مكانها أبنية أخرى.

والفنادق، كما بنى بها جامعاً وقيسارية ذكر المؤرخون أنه لم يبن في المدن الإسلامية قيسارية أعظم منها[١].

وقد بلغت مدينة مراكش أوج ازدهارها في عهد الموحدين ثم في عهد بني مرين (٥٩١ - ٨٧٥/١١٩٥ - ١٤٧٠) ولا سيما في عهد المنصور الذهبي (٦٥٦ - ٦٨٥/١٢٥٨ - ١٢٨٦) حتى بلغت مساحتها أربعة فراسخ[٢] طولاً ومثلها عرضاً. وبلغت قصورها درجة عظيمة من الروعة والجمال[٣]، فاشتهرت ببساتينها وأعنابها وفواكهها وثمارها، وغرست فيها أشجار الزيتون ومعاصر الزيت ودهن الهرجان[٤]. وقد شيد يعقوب المنصور الموحدي ساقية تشق وسط المدينة ساق منها الماء إلى قصره، وجعل حولها سقايات يشرب منها الناس وتسقى منها الخيل والدواب، كما بنى في شرقي المدينة دار الفرج وهو مارستان المرضى الذي وصفه عبد الواحد المراكشي[٥] فقال: «ما أظن أن في الدنيا مثله».

وقد ظلت مدينة مراكش حاضرة للدولة المرابطية نحواً من ست وسبعين سنة حتى زالت هذه الدولة سنة ٥٤١هـ.

ولمدينة مراكش أهمية كبيرة من حيث موقعها الجغرافي: فهي تقع في وسط المغرب الأقصى بين الصحراء والسهول، وهي ملتقى الجبل والسهل ومجتمع العرب والبربر حتى أطلق عليها بعض أهلها خراسان المغرب، لأنه يسكنها أقوام من أجناس مختلفة يتكلمون لهجات متعددة. وهي سوق نافقة للتجارة بين العرب سكان الأراضي السهلية غرباً وشمالاً، كالرحامنة وحمير والسّراغنة ودكالة والشاوية، وبين البربر سكان الجبال شرقاً وجنوباً. فالخارج من مراكش من باب أغمات لا يسمع إلا اللغة البربرية من قبيلة مسفيوة شرقاً إلى ما وراء الأطلس الكبير ومنها جنوباً إلى بلاد السوس. وإذا خرج من باب الخميس لا يسمع إلا اللغة العربية من قبيلة الرحامة غرباً إلى سواحل المحيط الأطلسي، ومنها شمالاً إلى أقاصي قبيلة الشاوية، وكان يعبّر عن هذا الإقليم بالحور وحاضرته مراكش، ويقابله الغرب وحاضرته فاس.

ومن الجهات الجبلية البربرية تجلب إلى السهل الزيوت والفواكه والأخشاب والجلود المدبوغة وسائر منتجات الأراضي الجبلية، ويجلب من أراضي السهول إلى الأراضي الجبلية

---

(١) عباس بن إبراهيم: الأعلام ج ١ ص ٦٣.

(٢) والفرسخ أربعة أميال.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٣٦٠.

(٤) ويعرف بالأرجان اليوم، وهو شجر يستخرج الزيت من حبه.

(٥) المعجب ص ٣٦٠.

الماشية والسمن والصوف وغيرها من منتجات السهول، ومما ساعد على رواج التجارة إصلاح الطرق التي تخترق الجبال وبناء القناطر التي تخترقها قوافل السيارات ليلاً ونهاراً(١).

(هـ) مدينة الرباط:

لما ولي يعقوب المنصور رأى أنه من الصعب أن يرسل النجدات من مدينة مراكش إلى الأندلس، لبعد الشُّقة بينهما. لذلك فكر يعقوب المنصور وأبوه يوسف بن عبد المؤمن من قبله في بناء مدينة على ساحل البحر يستطيع أن يقضي فيها فصل الصيف مع جيوشه. وقد أشار عليه بعض رجال بلاطه بأن يتخذ مدينة سبتة معسكراً لجنده. ولكن يعقوب المنصور رأى أن إقليم سبتة يقصر عن تزويد جنده ورجال بلاطه وخدمه بما يحتاج إليه من أقوات مدة ثلاثة أو أربعة أشهر في السنة، لعدم خصوبة أرض هذا الإقليم، ولأنه لا يتسع لسكنى هؤلاء الجند والخدم ورجال البلاط. لذلك استقر الرأي على اختيار موقع الرباط. وقد بدأ يوسف البناء وأتمه ابنه يعقوب المنصور في بضعة أشهر، وذلك سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦ ـ ١١٩٧م) على أثر انتصاره في وقعة الأرك المشهورة. وقد بنيت في هذه المدينة المساجد والمدارس والقصور والدور والحوانيت.

وفي خارج سوق المدينة من ناحية الجنوب أقام يعقوب المنصور منارة تشبه منارة جامع الكتبية بمدينة مراكش، ولكنها أعظم منها، وجعل حياً خاصاً لكل جماعة من السكان، كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم. وسرعان ما ازدهرت مدينة الرباط وأصبحت من أغنى مدن القارة الإفريقية. وساعد على ذلك حسن موقعها ورواج تجارتها بسبب سكنى الجند والخدم ورجال البلاط، وكان يعقوب المنصور يقيم فيها بين شهري إبريل وسبتمبر.

على أنه يلاحظ أن ماء وادي (نهر) أبي الرقاق (بفتح الراء مع التشديد وفتح القاف) الذي يصب في البحر عند مدينة الرباط يتصف بملوحة مائه. لذلك فكر يعقوب المنصور في جلب الماء من مكان يبعد عن المدينة باثني عشر ميلاً بواسطة قنطرة حسنة البناء مقامة على أعمدة، تشبه القناطر التي كانت مستعملة في بلاد الدولة البيزنطية، ويخرج من هذه القنطرة فروع كثيرة تجلب الماء إلى جميع أحياء المدينة(٢).

ويقول المراكشي(٣) إن طول سورة مدينة الرباط (يشبه سور مدينة مراكش) بلغ في مبدأ

---

(١) أحمد بوستة: مجلة المغرب (ربيع الثاني ـ جمادى الأولى ١٣٥٥/يونيه ـ يوليه ١٩٣٦) ص ٢٣.
(٢) الحسن الوزان (ليو الإفريقي) «وصف إفريقية» (بالفرنسية) جـ ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٦.
(٣) المعجب ص ٢٦٦.

أمره نحواً من فرسخ وعرضه أقل من ذلك بكثير. وقد اتسعت رقعة المدينة، وألحقت بها أحياء كثيرة، مثل حي يعقوب المنصور وحي أجدال وغيرهما. وأصبحت الرباط حاضرة رسمية لبلاد المغرب الأقصى منذ سنة ١٩١٢.

(٢) المنشئات المعمارية

(أ) القصور:

بعد أن تم لجوهر فتح مصر ودخل مدينة الفسطاط سنة ٣٥٨هـ، عسكر في السهل الرملي الذي يقع إلى شماليها، ويحده من الشرق تلال المقطم ومن الغرب خليج أمير المؤمنين. وقد بني في هذا المكان القصر الشرقي الذي أعده جوهر لاستقبال مولاه المعز، واتخذ حول هذا القصر دوراً للجند والموظفين والأتباع. وموضع هذا القصر هو المكان الذي يقع فيه مسجد الحسين وخان الخليلي الآن. وقد بنى العزيز كثيراً من المنشئات التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده؛ فبنى «القصر الغربي» الذي يقع غربي القصر الشرقي. وكان القصر الغربي الذي بناه العزيز أصغر من قصر المعز، لذلك أطلق عليه «القصر الغربي الصغير» تمييزاً له عن «القصر الشرقي الكبير». وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريباً. وبين القصرين ميدان فسيح لعرض الجند أطلق عليه «بين القصرين».

وقد ذكر ابن دقماق أسماء أبواب القصر الشرقي الكبير: وهي باب الذهب، وتعلوه منظرة يشرف منها الخليفة في الأعياد، وباب البحر، وباب الريح، وباب الزمرد، وباب العيد، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجند في يومي العيدين وتعرف برحبة العيد وبجواره دار الضيافة، وتسمى بدار سعيد السعداء، وباب قصر الشوق، وباب الديلم، وموضعه الآن مسجد الحسين، ويقابله الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقي من القصر، وباب تربة الزعفران، وباب الزهومة؛ أعني الباب الذي يشم منه رائحة اللحم، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر[١].

وقد وصف ناصر خسرو حين زار مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٣٩ - ٤٤١هـ) القصر الخلافي، فذكر أنه كان به ثلاثون ألف جارية واثنا عشر بهواً وعشرة أبواب. وكان موضعه وسط القاهرة التي كان بها عشر حارات، وبلغ عدد الطبول والأبواق، وعزفت الصنوج وكون الحرس من أنفسهم دائرة، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس[٢]. كما وصف المقريزي هذا القصر، فذكر أنه كان به عشرة آلاف من الأشراف وثمانية آلاف من الخدم، كما

---

(١)ابن دقماق: الانتصار ج ٤ ص ٥٦ - ٥٧. (٢) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٢٨.

ذكر أنه كان بهذا القصر حين استولى عليه صلاح الدين الأيوبي اثنا عشر ألفاً كلهم من الإناث عدا الخليفة وأولاده، وأن هذا القصر قد جدده الخليفة الآمر في سنة ٥٢٢هـ. وكان يجلس في أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة خاصة، وألويتهم بين أيديهم، والشموع تضيء لهم. وكانت تقام لهم الموائد وعليها ما لذ وطاب من سائر أنواع الأطعمة[١].

وكان الخلفاء الفاطميون يبنون المناظر، فبنوا بالمقس ثلاثاً منها، إحداهما تقع بين باب الذهب وباب البحر، والثانية على قوس باب الذهب، والثالثة يقال لها الزاهرة والناضرة والفاخرة. وكان الخليفة يجلس في إحدى هذه المناظر يعرض العساكر يوم غدير خُمّ، ويقف الوزير في قوس باب الذهب[٢].

وقد أنشأ الفاطميون كثيراً من المنشئات العامة كالفنادق والحمامات، وكانت كلها ملكاً خاصاً للخليفة. كما كانت الدكاكين في القاهرة كذلك ملكاً خاصاً له، يتراوح إيجار كل منها بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر. وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا باللبن، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة[٣].

(ب) الحمامات:

ومن أهم مظاهر الحياة في المدينة الإسلامية الحمام. ففي القرآن والسنة نرى النظافة الشخصية والصحة العامة أمراً أساسياً لتطهير الجسم ونظافته، حتى لقد ورد في الأثر الشريف قول الرسول الكريم: «والنظافة من الإيمان». لذلك نرى الإسلام يهتم بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك، فالسنة الشريفة تقرر على المسلم أن يستحم مرة على الأقل في الأسبوع، وعلى الأخص في يوم الجمعة. وقد اعتاد الرسول الكريم نفسه أن يستحم في عيد الفطر والأضحى، كما أثر عنه أنه أوصى المسلمين بالاستحمام في مناسبات معينة: بعد الجنابة والجماع وفي يوم الجمعة وعند الحجامة وبعد غسل الميت. كما شجع العرب على السباحة برغم عدم وجود خزانات لمياه الشرب ببلادهم واعتمادهم على مياه السيول. وكان الاستحمام بالماء الحار[٤]

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٨٤ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٠٤.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٣٢.

(٤) الحمام والحميم والحمية جميعاً: الماء الحار (والحمية أيضاً المخض إذا سخن) والحمية هو الماء الحار لغة، وجمعها حمامات، والحميم العرق، واستحم الرجل: عرق. وقولهم لمن دخل الحمام: طاب حميمك يعنون بذلك العرق أي طاب عرقك، وإذا دعوا له بطيب العرق فقد دعوا له بالصحة لأن الصحيح يطيب عرقه.

شائعاً عند العرب في صدر الإسلام، وربما أخذوه عن أهالي البلاد التي فتحوها ولا سيما في سورية ومصر. وقد رحب المسلمون بهذه العادة لأنها جزء من الطهارة التي هي باب الصلاة وشرط لكثير من العبادات. على أن بعض المسلمين قد امتنعوا أول الأمر عن دخول الحمامات التي قامت في مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التي تنم عن الكبرياء والجبروت. ومع ذلك فقد بقيت هذه التماثيل عدة قرون.

ويشبه تصميم بناء الحمام عند العرب حمامات رومة إلى حد كبير؛ فنجد في داخل الحمام غرفة رطبة الجو بها مصاطب حجرية مغطاة بحشيات أو سجاجيد لجلوس صاحب الحمام (المعلم) خلف عارضة تعلوها أقداح القهوة، ثم تأتي غرفة ثانية مدفأة لخلع الثياب والاستراحة في الشتاء، وتتوسط الغرفة الباردة وغرفة «الحرارة» التي يتصبب فيها الإنسان عرقاً، وتحاط بغرف فرعية صغيرة يجد فيها المستحم الماء الحار والبارد، وتجد فيها موظفاً يقوم بتدليك وغسل المستحم بالصابون في «الحرارة» أي في إحدى الغرف الصغيرة، وعندما يمر المستحم بالغرفة المتوسطة يظل فيها للاستراحة في الشتاء. وإذا كان الفصل صيفاً ذهب المستحم رأساً إلى الغرفة الباردة (المسلخ). وقد أولع بعض السيدات باستئجار حمام خاص بعد الظهر حيث يقمن مع قريباتهن وصديقاتهن حفلات في مناسبات الزواج أو الأعياد. وقد يستأجر الرجل حمامات خاصة في مناسبات الزواج. أما الأغنياء فيبنون حمامات خاصة بدورهم[١].

ويستفاد مما كتبه يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٦م) أنه كانت هناك في العصر الفاطمي حمامات خاصة بالمسلمين وأخرى باليهود وثالثة بالنصارى، وأن الخليفة الحاكم الفاطمي حرم أن يدخل أحد الحمام بدون إزار؛ ثم عاد فحرم على النساء دخول الحمامات العامة[٢]. وكان تجار مصر في عهد الفاطميين يجلبون العطور التي توزع على الحمامات في كل يوم جمعة، كما يوزع الطيب على قصور الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة[٣]. كما كانوا يستوردون العطر والند والمسك والعود والعنبر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو والكافور من ساحل زنجبار[٤].

وقد ذكر المقريزي أنه كان بمدينة الفسطاط ١١٧٠ حماماً، وقد روى هذا المؤلف عن ابن عبد الظاهر أن حمامات مصر (يعني الفسطاط والمعسكر وأطلال القطائع) بلغت في سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) نحو ثمانين حماماً[٥]. وكان الخليفة الفاطمي يخرج في العيد من باب الساباط بالقصر

---

(١) ديمومبين: النظم الإسلامية، ترجمة ص ٢٢٧.
(٢) يحيى بن سعيد: صلة تاريخ أوتيخا ص ١٨٧ و٢٠٨.
(٣) المقريزي: خطط جـ١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.
(٤) ابن إياس: تاريخ مصر جـ١ ص ٦٣.
(٥) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٨٠.

الغربي الصغير إلى الميدان (وموضعه الآن الخرشنف، وينطقه العامة الخرنفش) إلى المنحر لينحر فيه الضحايا، ويعرف حمام الساباط إلى زمن المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) بحمام المارستان المنصوري، وقد خصص للنساء، ويعرف أيضاً بحمام الصنيعة. وقد بيعت في عهد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي للأمير عز الدين أيبك مع بعض الأراضي المجاورة سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) بمبلغ ١٢٠٠ دينار، ثم بيعت بعد ذلك بمبلغ ١٦٠٠ دينار[١]. وبلغ من شهرة حمامات دمياط أن وصفها المقدسي[٢] بقوله إن حماماتها كانت أجود حمامات مصر.

وذكر اليعقوبي[٣] أن حمامات بغداد بلغت ١٠,٠٠٠ وأن القسم الشرقي (الرصافة) كان به ٥,٠٠٠ حمام. وهذا القول لا يخلو من المبالغة. وقد وصف ابن جبير[٤] الذي عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حمامات بغداد في هذه العبارة فقال: «وأما حماماتها فلا تحصى عدة. ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل، وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب، ولقد انعقد. فسبحان خالق ما يشاء لا إله إلا سواه». ونقرأ في المقري[٥] شيخ مؤرخي الأندلس الإسلامية أنه كان بمدينة قرطبة ثلثمائة حمام. وبالمغرب الآن كثير من هذه الحمامات التي يعنى بها الأهالي ويؤمونها بصفة دائمة، إذ أن كثيراً من الناس لا يستحمون في منازلهم على ما هو شائع في مصر وهذه العادة ترجع إلى العصور القديمة.

(جـ) المدارس:

ولم تكن هناك مدارس خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام، بل كانوا يختلفون إلى المسجد. ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هي المدرسة البيهقيّة في نيسابور[٦]. ثم أنشأ نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي وصديق عمر الخيام المدارس النظامية المشهورة في بغداد سنة

(١) انظر ما ذكره المقريزي في الخطط جـ ٢ ص ٧٩ - ٨٦.
(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٠٢.
(٣) كتاب البلدان ص ٢٤٠ - ٢٤٩.
(٤) رحلة ابن جبير ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٩.
(٦) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٦٣.

٤٥٧هـ، ثم في نيسابور وغيرها. ثم اقتدى الناس بنظام الملك فأسسوا المدارس في العراق وخراسان وما وراء النهر وفي الجزيرة وديار بكر. وقد حذا السلطان نور الدين محمود بن زنكي حذو السلطان ملكشاه حيث قام في القرن السادس للهجرة ببناء عدة مدارس للشافعية والحنفية لنشر المذهب الحنفي في دمشق وحلب وغيرهما[١]، ثم نقل صلاح الدين الأيوبي هذا النظام إلى مصر.

وكانت عمارة المدارس التي أنشأها صلاح الدين في القاهرة فتحاً جديداً في عالم البناء، فكانت المساجد إلى هذا الوقت ذات شكل واحد هو شكل الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة.

وكان صلاح الدين يعمل على مقاومة الشيعة؛ لذلك عني عناية خاصة ببناء المدارس أو المساجد المدرسية بعبارة أدق لتعليم عقائد المذهب السني. ولهذا أنفق صلاح الدين على هذه المعاهد من بيت المال. وإن الأبنية التي يعرفها الناس باسم مساجد هي في الحقيقة مدارس أو معاهد علمية؛ وهي أفخم ما كان في القاهرة من عمائر، مثل: مساجد السلطان حسن، وبرقوق، وقلاوون والناصر محمد بن قلاوون، وهي تختلف تماماً عن المساجد في شكلها وفي الغرض الذي شيدت من أجله؛ ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة، بل كانت تبنى بناء مدرسياً لكي يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية والعربية وكان لهذا أثر بعيد في تشييد المسجد وفي شكل بنائه.

وكانت المدرسة في عصر الأيوبيين عبارة عن بناء متجه إلى القبلة وفي وسطه صحن كبير مربع، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب، ومن ثم لم تختلف هيئة المدارس في الجملة عن هذه المساجد، لأن المدرسة كان يقصد بها أول الأمر دراسة الدين في كل شيء، مما يدل على أن تصميم بناء المساجد قد أدخل عليه تطوير خاص بحيث أضحى عمارة مدرسية وليس عمارة خاصة بالمساجد كما كانت الحال من قبل[٢]. ويحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد. وأما الجناح الشرقي وهو أطولها فيخصص إيوانه للصلاة، وفيه المحراب والمنبر والميضأة وغيرها مما يحتاج إليه المصلون. وكانت الأروقة الأربعة تستقبل طلابها حسب المذهب: فأحدها للحنفية، والثاني للشافعية، والثالث للمالكية، والرابع للحنابلة، وكان الطلبة والعلماء يبيتون في أروقتهم الخاصة حسب توزيع

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٠٩.

(٢) ماكس هيرتز بك: لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية، تعريب علي بهجت بك ص ٣٦ - ٣٧.

مذاهب السنة. كما كانت هذه الأروقة تستعمل للدراسة والمكتبات وما إليها من شئون الدراسة[1].

وكانت السلطة في مصر أثناء غياب صلاح الدين توضع في يد ابنه أو أخيه، وكلاهما كان يرجع إلى رأي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني[2]. وبفضل تأثيره بدأ الطلاب يفدون إلى مدارس مصر من أقصى بلاد فارس وتركستان وغيرهما، واتصلوا بالعلماء الذين جاءوا من قرطبة وإشبيلية. ومن هؤلاء «ابن فرو» الذي استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة في المشرق فجاء إلى مصر من أقصى بلاد الأندلس. ولما جلس هذا الفقيه في حلقة الدرس التف حوله جمهور من المستمعين، فقربه إليه القاضي الفاضل، وأنزله في داره وواراه التراب بعد موته في مقبرته الخاصة[3].

وقد بنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من قبر الإمام الشافعي بالقرافة، كما بنى مدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) بجوار جامع عمر لتدريس المذهب الشافعي الذي كان يدين بعقائده، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكي عرفت باسم المدرسة القمحية[4]. وكذلك أنشأ صلاح الدين المدرسة السيفية التي ما تزال أطلالها باقية حتى اليوم في المكان المعروف بالسيوفية بحي الخليفة في القاهرة. وأسس القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠ هـ، وكان بها مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد [5].

وقد حذا خلفاء صلاح الدين حذوه في الاهتمام ببناء المدارس، حتى بلغ عدد المدارس التي شيدت في العصر الأيوبي ستاً وعشرين مدرسة، نذكر من بينها «دار الحديث» التي بناها السلطان الملك الكامل محمد بين القصرين، وتعرف بالمدرسة الكاملية. وبعد بضع سنين بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية. وقد أثر تأسيس هذه المدارس على الجامع الأزهر من ناحيتين:

---

(١) لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة المؤلف ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) وقد تقلد ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ)، وقلده صلاح الدين قضاء القضاة ثم اتخذه وزيراً له. وله طريقة كتابية معروفة في الأدب تعرف بطريقة القاضي الفاضل وهي مقتبسة من طريقة ابن العميد التي تقوم على السجع والمحسنات البديعية.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧١ - ١٧٣.

(٤) ذكر المقريزي (خطط جـ ٢ ص ٣٦٤) أن صلاح الدين وقف على هذه المدرسة قيسارية الوراقين وما يتبعها وضيعة في الفيوم. وعين بهذه المدرسة أربعة من المدرسين وزع عليهم وعلى الطلاب غلة هذه الضيعة من القمح، فعرفت هذه المدرسة بالقمحية.

(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٩. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٦.

الأولى: أنه كان من المتعذر أن يساير الأزهر النظم الجديدة، حتى لقد أصبح في المرتبة الثانية من الأهمية في عهد صلاح الدين وخلفائه وذلك لأن الأزهر كان أكبر معهد شيعي يعتمد عليه الفاطميون في نشر العقائد الشيعية أولاً وفي مقاومة أهل السنّة ثانياً، فكان طبيعياً أن تتخلف شهرته في عهد الأيوبيين السنيين، وكان طبيعياً كذلك أن تكون الصدارة للمدارس الأيوبية السنية.

الثانية: كانت المناهج الدراسية في الأزهر حين استعاد مكانته في عهد المماليك تشبه نظام المدارس الجديدة أكثر مما تشبه نظام الدراسة في العصر الفاطمي. على أن الأزهر نفسه لم يلبث أن ساير الحياة الجديدة حتى أضحى فيها بعد كعبة للمذاهب السنية الأربعة، كما تطور الآن وأضحى به جامعة حديثة إلى جانب طابعه التقليدي القديم.

وكانت هذه المدارس في العهد الأيوبي تعنى بتدريس العلوم النقلية والأدب كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب، كما كانت تعنى أيضاً بتدريس العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم النجوم والفلك والرياضيات. وكان بعض العلوم كعلم النجوم والتاريخ الطبيعي والرياضيات العالية تدرس لبعض الطلاب على أيدي أساتذة أخصائيين في منازلهم الخاصة. أما الطب فقد كان يدرس في المستشفيات (١).

(٣) المنشئات الحربية

(أ) أسوار القاهرة:

أحيطت القاهرة عند انشائها بسور كبير من اللّبِن يضم الخطط التي تكونت منها هذه المدينة. وكان هذا السور بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة، وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار، على حين كان الجزء الواقع بخارجها يعرف بظاهر القاهرة، وهو عبارة عن خطط وأحياء تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل (التي بناها فيها بعد صلاح الدين الأيوبي) وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل، وتعرف الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية(٢). وكان سور هذه المدينة الغربي يبعد عن خليج أمير المؤمنين بنحو ثلاثين متراً. وفي سنة ٤٨٦هـ هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر، وكان ذلك في عهد وزارة بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي.

(١) Dodge, Al - Azhar (Washington D. C. 1961). pp. 40 - 41.

(٢) المقريزي: خطط جـ ١ ص ١٠٩.

وفي سنة ٤٦٥هـ بنى بدر الجمالي باب زويلة الكبير، ونقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي به الآن. كما بنى باب الفتوح في مكان آخر غير المكان الذي بنى فيه جوهر بابه. وهذه الأبواب الثلاثة من عمل ثلاثة إخوة أصلهم من الرها[١].

وكانت المناظر التي تستخدم أماكن للنزهة تستخدم في الواقع في الأغراض العسكرية، بدليل أنها كانت تبنى على مشارف الحاضرة الفاطمية أو تلال المقطم المشرفة على ما وراء الجبل وعلى الحاضرة معاً، بدليل خروج الخلفاء إليها في حالة توديع الجيوش قبل سيرها للقتال أو استقبالها عند عودتها من ميادين القتال، ويدعونا هذا الزعم الى القول بأن فكرة إنشاء المناظر كانت فكرة حربية، بدليل أن أمير الجيوش بدر الجمالي أحس بالحاجة اليها حين فكر في إعادة تحصين مدينة القاهرة وتجديد أسوارها[٢].

وليس لأحد من الحكام الذين سبقوا صلاح الدين ما له من الآثار الخالدة، فإليه يرجع الفضل في اتساع مدينة القاهرة وتنسيق هندستها التي كانت تفخر بها إلى عهد قريب: فالقلعة وهي أبرز معالمها من إنشائه، والمدرسة التي بناها هي أكثر عمائرها ذيوعاً وشهرة، وكل هذه التطورات قد تمت بفضل توجيهاته، وكان بعض هذه الآثار من أجل الدفاع عن البلاط وبعضها من أجل الدين. فأما الأعمال الدفاعية فقد تجلت في إنشاء القلعة والسور وجسر النيل، وكلها من الأعمال الدفاعية، التي لم يُسبق إليها، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواح ملكية، كل يبعد عن سابقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، حتى إن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والموظفين.

أما صلاح الدين فكان أول من وضع تصميماً شاملاً لحاضرة عظيمة، إذ أنه بدلاً من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة لدولته كما فعل أسلافه، أخذ يوحّد جميع الأحياء الآهلة بالسكان ويحيطها بسور عظيم وقلعة منيعة. لذلك نرى صلاح الدين يجمع

(١) وقد ذكرنا في كتابنا تاريخ الدولة الفاطمية (ص ٥٣٤) أن جوهراً لما اختط مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب هي بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح ـ ويتكون بابا زويلة من بابين متجاورين، أحدهما القوس الذي كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام، ولهذا سمي باب القوس، وقد مر منه الخليفة الفاطمي المعز عند قدومه من بلاد المغرب، فكان الناس يمرون منه تبركاً، أما الباب الثاني فقد تشاءم منه الناس وهجروه (القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص٣٥٢. المقريزي: خطط جـ١ ص ٣٨١).

(٢) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.

شتات المباني المبعثرة في الأطراف ويضم ميناء المقس إلى مدينة القاهرة. وقد أراد صلاح الدين أن يكون السور من الحجارة وأن يكون امتداد سور بدر الدين الجمالي وزير المستنصر الفاطمي حتى ميناء المقس غرباً وجبل المقطم جنوباً، ومن هناك يمتد إلى النيل ليضم بقايا مدينة الفسطاط. غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط، لأن صلاح الدين كان منشغلاً بحروبه مع الصليبيين. وقد جمع أعوانه في القاهرة الأموال والرجال الذين يحتاج اليهم في حروبه والذين يقومون ببناء ما تقضي به الضرورة من المباني. وكل ما تم هو مد سور بدر الجمالي في الشمال من الخليج الى النيل حيث أقيمت أبراج المقس المحصنة؛ أما من الجهة الشرقية فقد مد السور الفاطمي جنوباً إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة. غير أن موت صلاح الدين حال دون إتمام هذا العمل الهندسي قبل أن يتم ضم الأسوار. أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدىء بعد في بنائها. ولا تزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن. ومن الممكن أن يقارن رجال الفن المعماري بين الأبراج الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما تشتمل عليه من أبراج ومنافذ للمراقبة.

ونلاحظ هذه المميزات المعمارية في السور الشرقي الذي يفصل مدينة القاهرة عن قرافة قايتباي، ثم يظهر مرة أخرى طراز جديد عند باب الوزير(١)، إذ أن جانباً من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية - بما في ذلك برج الظافر - يتوغل في الصحراء، مما يدل على أن المدينة قد انكمشت في هذا المكان إلى حدودها التي كانت عليها في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وفي الحق أن أسوار صلاح الدين لم تكن إلا امتداداً لأسوار بدر الجمالي(٢).

(ب) قلعة الجبل:

وقد عمل صلاح الدين الأيوبي على ضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة بعضها إلى بعض، وبنى قلعة الجبل، وشرع في بناء سور حول مدينتي القاهرة والفسطاط يبلغ طوله خمسة وعشرين كيلومتراً ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار، ويتراوح ارتفاعه بين تسعة أو عشرة أمتار. وقد بني وجه السور من الحجر المنحوت، تتخلله الأبراج في جهات مختلفة. وقد استدعى هذا العمل الإنشائي هدم الأماكن الواقعة بين مصر القديمة ومشهد السيدة نفيسة حيث غرست البساتين وأنشئت المنتزهات محلها.

(١) انظر مذكرات «فان برشم» (١٩١١) ص ٥٥، ٦٨ - ٧٠.
(٢) لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة المؤلف ص ١٥٩ - ١٦٠.

وربما كان بناء القلعة فكرة جديدة استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى في القصور الفاطمية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشيعة.

وقد بنى صلاح الدين هذه القلعة الحصينة على سفح جبل المقطم على ارتفاع مائتين وخمسين قدماً عن سفح البحر في المكان الذي كان يعرف في بقية الهواء التي بناها حاتم بن هرثمة في القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي). وقد عرفت هذه القلعة باسم قلعة صلاح الدين، وعرفت فيما بعد باسم قلعة الجبل تمييزاً لها عن الروضة. وفي سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) عهد صلاح الدين ببناء قلعة الجبل إلى بهاء الدين قراقوش[1]، لتكون مركزاً للحكومة وثكنات للجند، وتم بناؤها سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) في عهد الملك الكامل ابن الملك العادل الأيوبي.

ويحيط بهذه القلعة سور من الحجر له أبراج، ولها بابان: أحدهما مواجه لمدينة القاهرة ويسمى الباب المدرَّج، ويطلق على الباب الثاني باب القرافة. وبين هذين البابين مكان متسع يوصِّل إلى دهاليز، على يسرة الداخل منها باب يصل إلى جامع فسيح الأرجاء مرتفع البناء مبلط بالرخام، وسقوفه مبطنة بصفائح الذهب، وفي وسطه قبة تليها مقصورة يصلي فيها السلطان الجمعة والعيدين، وتحف الأروقة بصحن الجامع من جميع جهاته. وبصدر هذه الدهاليز مصطبة على جانبها ممر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير. وهو مرتفع البناء، به أقنية متسعة وعمد ضخمة. وبصدر هذا الباب سرير الملك، وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام، يجلس عليه السلطان في الأيام التي يستقبل فيها سفراء الملوك. وإلى يمين

---

(١) معنى قراقوش بالتركية «طائر أسود». وقد قام بإنشاء عدة أبنية عبرت معالم القاهرة، مثل قلعة الجبل وقناطر الجيزة وسور القاهرة، ولما فتح صلاح الدين عكا سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) عين بهاء الدين والياً عليها في السنة التالية. وقد أسر بهاء الدين حين استولى الفرنجة عليها سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م)، لكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير، ثم عاش في القاهرة حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م).

انظر عبد اللطيف البغدادي (طبعة دي ساسي ص ١٧١، ١٧٢، ٢٠٧، ٢١٣) وابن الأثير (طبعة القاهرة) ص ١٤٨، ١٤٩، وابن شداد: مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين جـ٣ ص ١٢٠، ١٣٥، ١٧٦، ١٨٣، ٢٣١، ٢٣٩، ٣٠٤، ٣١٧، ٣٥٥، ٣٥٦، وابن خلكان جـ١ ص ٥٤٣، ٥٤٤، جـ٢ ص ٥٠٢، ٥٢٦.

وينبغي ألا تخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمني الذي خدم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب. وكانت حياته عبارة عن سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤمرات ومذابح نهب وسلب. وبذلك ألقت أعماله في قلوب الناس الهلع الذي لا تزال ذكراه باقية إلى اليوم.

Derenbourg, Vie d'Ousama, p. 450, note 4.

هذا الإيوان ساحة كبيرة بها القصر الأبلق الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية. وقد بني بالحجر الأبيض والأسود، ولهذا سمي القصر الأبلق لأن لونه خليط من البياض والسواد. وفي هذا القصر إيوان يطل على الإصطبلات السلطانية.

وقد عني سلاطين المماليك بتربية مماليكهم وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب في طباق قلعة الجبل التي شاهدها تقي الدين المقريزي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م)، وهي عبارة عن ثكنات الجيش المملوكي. وقد بلغ عدد هذه الطباق اثنتي عشرة طبقة تشبه كل طبقة منها الحارة اليوم. وتشتمل على عدة مساكن، وتسع كل طبقة نحو ألف مملوك.

وقد أصبحت قلعة الجبل منذ بنائها مقراً لدور الحكومة. وهي حصينة، تشتمل على كثير من «الطباق» والقصور والميادين والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات والإصطبلات. وبها دار الوزارة وديوان الإنشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة، والدور السلطانية والجب والأبراج التي كان يحبس فيها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان.

وكان لقلعة الجبل حاكم يطلق عليه «نائب القلعة» أو «والي القلعة»، ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير الذي خصص لخروج الجند ودخولهم. ويتفقد نائب القلعة أسوارها ومنافذها ويعمل على إصلاح مبانيها. وكان يصدر بتعيينه مرسوم سلطاني أسوة بنواب قلاع دمشق وحلب وصفد (بفتح الصاد والفاء) والكرك (بفتح الكاف والراء) وغيرها من قلاع بلاد الشام وفلسطين التي كانت تابعة لمصر في ذلك العصر.

وقد أورد ابن فضل الله العمري المؤرخ المصري المشهور نص اليمين التي كانت تؤخذ على نائب القلعة عند تقليده أعباء منصبه. وإليك طرفاً من هذه الوثيقة التاريخية الهامة: «وإنني أجمع رجال القلعة على طاعة مولانا السلطان وخدمته في حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها والذب عنها والمدافعة عنها بكل أنواع ما فيها من الأقوات والأسلحة، وإنني لا أخرج شيئاً منها إلا في أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتعين فيها تفريق الأقوات والسلاح على قدر ما تدعو الحاجة إليها».

وكذلك اتخذ سلاطين المماليك قلعة الجبل مركزاً للبريد، وخاصة حمام الزاجل الذي يقوم مقام البريد الجوي اليوم. وكان لهذا النوع من البريد محطات في مصر والبلاد التابعة لها تتصل بالمركز الرئيسي في القلعة.

وعلى الرغم من ارتفاع قلعة الجبل حُفر بها بئر مملوءة بالماء العذب منقوبة في الحجر. وقد

حفرها بهاء الدين قراقوش. وهي من أعجب الآبار، وفي أسفلها سواق تنقل الماء إلى وسطها ثم إلى أعلاها(١).

وقد نقش على باب القلعة هذه العبارة التاريخية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، والمجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة(٢) التي جمعت نفعاً وتحصيناً واسعاً، على من التجأ إلى ظل ملكه، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المكي الناصري، في سنة تسع وسبعين وخمسمائة».

وقد زار الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م)، وشاهد العمل في بناء قلعة الجبل يجري على قدم وساق، فقال: «وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويمُدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة. والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته(٣) ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار، لعلوج الأسارى(٤) من الروم، وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم. وللسلطان أيضاً بمواضع أخر بنيان، والأعلاج يخدمون فيه، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مُرَفه(٥) عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد(٦)».

وقد أجريت بالقلعة تعديلات كثيرة، وعمل على توسيعها كثير من سلاطين المماليك، وقام محمد علي ببعض هذه التعديلات، حتى إنه لم يبق حينذاك من المساجد أو القصور التي بنيت في عصر صلاح الدين شيء، وبئر يوسف التي يعتقد الناس أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك. كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلي،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢. المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٠١ ـ ٢٠٤.

(٢) العرمة (بضم العين وسكون الراء) سواد مختلط ببياض. العرمة (بفتح العين والراء والميم) مجتمع الرمل وأرض صلبة.

(٣) يقصد الأعمال التي يقوم بها العمال والصناع.

(٤) في الأصل العلوج الأسارى ويقصد الآثار التي قام بها الأسارى من الروم.

(٥) في الأصل موفة بالواو وهو يقصد مرفه بالراء، أي أن المسلمين أعلى من أن يعملوا في هذه الأعمال الممتهنة.

(٦) رحلة ابن جبير (طبعة عبد الحميد أحمد صفي) ص ٤١ ـ ٤٢.

وقد بني الباب الذي يؤدي إلى الرملية في أواسط القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من ذلك كله، لم تزل هناك أجزاء البناء الأصلي بخلاف البئر المشهورة باسم بئر السبع سقايات التي حضرها قراقوش، يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدماً. وهناك أيضاً أجزاء من السور الذي بناه صلاح الدين. ويرجع تاريخ بناء بعض الممرات الداخلية إلى وقت بناء القلعة. ومما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التي تحمي جانباً من السور، وانعدام الممرات الداخلية، والحجرات والفتحات في الجزء الأسفل من الأسوار، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى، يكشف لنا عن أن هندسة البناء الأصلي أقرب إلى الطراز السوري العربي منه إلى الطراز البيزنطي(١).

(٣) جسر الجيزة:

وآخر الأعمال الإنسانية التي ترجع إلى عهد صلاح الدين جسر الجيزة الذي شيد على الضفة الغربية للنيل. وقد وصفه ابن جبير في هذه العبارة فقال: «من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين، القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر، وعلى مقدار سبعة أميال منها، بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، وهي نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسي القناطر. والقنطرة متصلة بالصحراء التي تفضي منها إلى الإسكندرية. له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة، إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع ملوك العساكر بسببه، فأعد ذلك مسلكاً في كل وقت إن احتيج إلى ذلك. والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور عنه. ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية. والله أعلم بغيبه ولا إله سواه»(٢).

وقد تناول المقريزي(٣) الكلام على قناطر الجيزة فقال: «إن القناطر الموجودة اليوم في الجيزة من الأبنية العجيبة ومن أعمال الجبارين. هي ونيف وأربعون قنطرة، عمرها الأمير قراقوش الأسدي، وكان على العمائر في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التي كانت بالجيزة وأخذ حجرها، فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل. وكان خصياً رومياً سامي الهمة، وهو صاحب الأحكام المشهورة

(١) لينبول: سيرة القاهرة (ترجمة)، ص ١٦٣.
(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٣.
(٣) خطط جـ ٢ ص ١٥١.

والحكايات المذكورة، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش في أحكام قراقوش. وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده، فسدها رجاء أن يحبس الماء، فقويت عليها جرية الماء، فزلزلت منها ثلاث قناطر، وانشقت، ومع ذلك فما روى ما رجا (أي ما يجب) أن يروى. وفي سنة ثمان وسبعمائة، رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها، فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها، فحصل النفع بها. وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفاً من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر[١]».

وليس هناك شك في أن الغرض من بناء الجسر، هو الدفاع عن البلاد، فلم ينس صلاح الدين قصة غزوات الفاطميين العديدة من ليبيا، حيث أنه لم يكن هناك ما يصدهم عن الوصول إلى النيل، ولهذا اتخذ الحيطة لدرء مثل هذا العدوان. ويذكر ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين.

ولما تقلد محمد علي ولاية مصر سنة ١٨٠٥م أصلح قلعة الجبل وبنى بها مسجده الذي يعرف باسم مسجد محمد علي، ويعد آية من آيات الفن، كما بنى بقلعة الجبل قصر الجوهرة وقصر العدل وثكنات الجند، وديوان النظار ودار سك النقود، واتخذها مقراً لولايته[٢].

(٤) المنشئات الدينية: المساجد

(أ) الجامع الأزهر:

لما تم لجوهر فتح مصر سنة ٣٥٨هـ لم ير أن يفاجىء السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمي حتى لا يثير كراهة المصريين. لذلك وضع جوهر أساس الجامع الأزهر في ١٤ رمضان سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، وتم بناؤه في سنتين تقريباً، وأقيمت الصلاة فيه في ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ[٣].

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً، عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها. أما المقصورة التي بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض في صفوف متوازية. وفي سنة ١١٦٧هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا أحد ولاة الأتراك العثمانيين مقصورة ثانية بها خمسون

---

(١) لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة المؤلف ص ١٦١ ـ ١٦٣.

(٢) Lane - Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 201, 309, 354.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٦٤. المقريزي خطط جـ٢ ص ٢٧٣.

عموداً من الرخام. وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بلغ عدد أعمدتها مائة وستة وعشرون عموداً. وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً. وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد. وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع، وهما متلاصقتان، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء.

وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف، مرصوف بالحجر، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين. ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل.

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن «القبلة القديمة»؛ ثم أقيمت فيه تسعة محاريب أخرى، ولم يبق منها سوى ستة محاريبَ أشهرها اثنان: أحدهما بالمقصورة القديمة والآخر بالمقصورة الجديدة، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي.

وللجامع الأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع. وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم.

وأنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم.

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي، ومهنته التنبيه على أوقات الصلاة. وكانت تعرف عن طريق المزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر، وكانت مساجد القاهرة تتبع مؤذني الأزهر.

وأهم خصائص الأزهر أنه وإن بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون. ففي سنة ٣٧٨هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية. وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة لطلاب العلم. وقد عمل العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن، مما يسهل عليهم طلب العلم. وقد بنى الخليفة العزيز بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر، وقد أجرى على هؤلاء الأرزاق وأغدق عليهم وزيره ابن كلس الصلات.

ثم زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا إليه الهبات الجليلة.

وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء، قيل إن عددهم بلغ خمسة وثلاثين كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر.

وقد نقل إلى جامعي راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلاً، خص الأزهر منها بتنورين وسبعة وعشرين قنديلاً، وكان في محراب الأزهر منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب جامع عمرو، فاقتلعهما صلاح الدين كما اقتلع غيرهما من المناطق في كافة المساجد (٥٦٩/١١٧٣)، بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين[١].

وقد تعاقبت الزيادات على بناء الأزهر، وزيد في العين الموقوفة عليه عاماً بعد عام، فتحول هذا الجامع من مسجد تقام فيه الصلوات إلى جامعة علمية تدرس فيها العلوم بصفة عامة والعلوم الدينية بصفة خاصة.

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز، فاستغنى بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف. وفي سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) بنى الخليفة الآمر في الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفراً[١].

وكان للأزهر في العصر الفاطمي موارد أخرى غير الأحباس تشمل الأعطيات ومال النجوى[٢] الذي يؤديه المستمعون للمحاضرات التي تلقى بمجالس الدعوة. وكان بعض هذا المال ينفق على الدعاة وبعضه الآخر يخصص للجامع الأزهر ليوزع على من يحتاجون إليه من الطلاب الذين كان لهم أيضاً نصيب من الصدقات النوعية والمالية التي يمنحها بعض الأمراء والكبراء لهم. ولم تنقطع هذه الموارد عن الأزهر طوال العصر الفاطمي، بل لقد توالت الأرزاق والأعطيات الثابتة لأساتذته وطلابه[٣].

ظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفاء الفاطميين، حتى تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة في عهد الخليفة العاضد، فوجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي مذهب الفاطميين، فأنشأ

---

(١) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

(٢) المقريزي: خطط جـ١ ص ٣٩٦.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧.

المدرسة الناصرية لتدريس المذهب الشافعي الذي كان صلاح الدين يدين بعقائده، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي.

وقد عزل صلاح الدين قضاة الشيعة، وأسند قضاء مصر إلى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي المذهب، فأناب قضاة من الشافعية في كل أنحاء البلاد، واستعاد المذهب السني بهذا قوته وأخذ المذهب الإسماعيلي في الضعف حتى زال ولم يبق له في مصر أنصار(١).

(ب) مساجد العصر الفاطمي الأخير:

ومن المساجد التي بنيت في العصر الفاطمي الأخير «الجامع الأقمر» الذي بناه الخليفة الآمر الفاطمي سنة ٥١٩هـ ووقف عليه الأوقاف ورتب له المؤذنين والخطباء. وقد جدده الأمير «يَلبغى» سنة ٧٩٩هـ (١٣٦٦ - ١٣٦٧م). ولعل أبدع ما في هذا المسجد واجهته الغنية بأنواع الزخرفة، كما أن بها حنايا تنتهي بطاقيات وعقود ومقرنصات، وقد بنيت العقود على الطراز الفارسي، وتقوم على عمد من الرخام، وسقف الجامع مغطى بقبوات صغيرة(٢).

ومن مساجد الفاطميين في هذا العصر جامع الصالح الذي بناه الصالح طلائع بن رزيك (بضم الراء وكسر الزاي مع التشديد). وقد أراد أن يتخذه مدفناً له، وبنى فيه صهريجاً كبيراً تملؤه ساقية. وقد أقيم على خليج القاهرة الذي يطلق عليه خليج أمير المؤمنين. وقد تهدم في الزلزال الذي حدث بمصر سنة ٧٠٢هـ، فعمره الأمير سيف الدين الجوكندار وأصلح ما تهدم منه. ولهذا الجامع أربع وجهات مشيدة بالحجر. وكانت أرضيته عند تأسيسه ترتفع عن مستوى الطريق الذي بجانبه. ويقع باب المسجد الرئيسي بواجهته الغربية، وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ويحمل عقوداً حليت حافاتها بالزخارف الجميلة. ولهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة إيوانات، وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار(٣).

ومن منشئات الفاطميين في إقليم أسوان مأذنة بدر الجمالي في إسنا، وترجع إلى سنة ٤٧٤/١٠٨١ - ١٠٨٢، وذلك في عهد الخليفة المستنصر. كما نجد مأذنة جامع الحجاج في الأقصر. وقد بني هذا الجامع على أرض تمثل ثلاث ديانات: الوثنية والمسيحية والإسلام. ففي أسفل هذه الأرض نجد معبداً وثنياً يرجع إلى العهد الفرعوني في الدولة الحديثة التي تنتظم

(١) انظر حسن إبراهيم حسن في كتاب سجل الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٧.
(٢) المقريزي خطط جـ٢ ص ٢٩٠. زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٦٤.
(٣) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٩٣. زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٦٥.

الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وقد تحول جزء من هذا المعبد بعد ظهور المسيحية إلى كنيسة. ويعلو جزءاً من البناء الفرعوني مسجد بني في أواخر العصر الفاطمي، هـو مسجد الحجاج الذي تزوج من سيدة مسيحية غنية أسلمت ووقفت جميع أملاكها على أعمال الخير.

كما نجد على مقربة من شلال أسوان منارة المسجد القبلي والمسجد البحري وعليهما نقوش كوفية، وهما مبنيان بالآجر. وتنسب هذه الأبنية إلى بدر الجمالي وزير المستنصر. وقد أمر بدر ببناء هذه الأبنية على أثر انتصاره على النوبيين. ونجد في ثكنات خفر السواحل بأسوان مأذنة قديمة ضاعت قبلتها، ويحيط بأعلى هذه المأذنة نقوش كوفية[١].

(جـ) جامع القرويين بفاس:

وصف الحسن الوزان مدينة فاس وصفاً شائقاً فقال إنها كانت في أيامه تشتمل على سبعمائة مسجد، منها خمسون مسجداً فخمة البناء عظيمة الزخرفة تحمل سقوفها على أعمدة من الرخام. وهذه المساجد مفروشة بحصر جميلة تغطي الأرض كلها، كما غطيت حيطانها بحصر بقدر ارتفاع قامة الرجل. وبكل مسجد منارة يصعد إليها المؤذن في أوقات الصلاة. ولكل مسجد من مساجد فاس صهريج من الرخام.

ومن هذه المساجد جامع القرويين، ومساحته نحو ميل ونصف باعتبار إضافة أبنية الطلاب الملحقة به وله ثلاثة عشر باباً[٢] ضخمة البناء. ويبلغ طول الجزء المسقوف من المسجد مائة وخمسون ذراعاً، ولا يقل عرضه عن ثمانين ذراعاً. ومنارة الجامع شاهقة وسقفه يحمل طولاً على ثمانية وثلاثين قوساً وعرضه على عشرين قوساً. وتحيط بالجامع من الشرق والغرب والشمال أروقة ذات أقواس، عرض كل منها ثلاثون ذراعاً وطوله أربعون ذراعاً، وفي أسفلها خزائن يودع فيها الزيت والمصابيح والحصر وغيرها. ويوقد في الجامع في كل ليلة تسعمائة مصباح، على كل قوس منها مصباح.

وفوق الأقواس التي تشق وسط الجامع قبالة المحراب مائة وخمسون مصباحاً. وهناك ثريات من النحاس تسع ألفاً وخمسمائة مصباح اتخذت من نواقيس نقلها بعض ملوك فاس من كنائس النصارى. وحول حيطان الجامع كراسي منصوبة مختلفة الأشكال يجلس عليها العلماء المدرسون الذين يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم، ويبدءون دروسهم قبل طلوع الشمس

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

(٢) ذكر الحسن الوزان (الترجمة الفرنسية) ٣١ باباً. وفي الواقع فإنه لا يوجد اليوم غير ١٤ باباً، مما يرجح أن رقم ٣١ هو مقلوب رقم ١٣. ويظهر أن عدد الأبواب قد زاد باباً واحداً بعد العصر الذي عاش فيه الوزان.

بساعة وينتهون في الساعة الواحدة بعد الزوال. وفي الصيف يبدءون في الساعة الثامنة مساء وينتهون في الساعة الواحدة والنصف صباحاً، ويقومون بتدريس العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية، ويتقاضون رواتب عالية فوق ما يصرف لهم من الكتب والشمع للقراءة ليلاً.

(د) مسجد الكُتْبية بمراكش:

امتاز الفن الموحدي على الفن المرابطي. وكان المهدي محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية يعتبر الفن نوعاً من اللهو. ومن هنا قاوم الموسيقى والغناء والنقش والزخرفة. وكان المغاربة يدركون مذهب الدولة الجديدة وميولها الدينية، حتى إن أهل مدينة فاس طمسوا معالم الأبنية الجميلة المزخرفة ليخفوها عن نظر عبد المؤمن وهو بمدينة فاس. على أن عبد المؤمن لم يلبث أن تجاوز عن زخرفة المنشئات في عهده. ولعل ذلك بعد مشاهدته معالم الحضارة والفن الأندلسي فمال إلى اقتباس هذه الحضارة الرفيعة بالمغرب. وقد زاد هذا الفن ازدهاراً في عهد ابنه أبي يعقوب يوسف الذي اشتهر بالأدب. وكان يتطلع إلى بلاد الأندلس ويعطف عليها، لأنه قضى فيها شطراً من حياته نائباً لأبيه قبل أن يلي الخلافة[1].

على أن الفن الموحدي قد بلغ غايته في عهد يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن. وإن ما نشاهده من آثار الموحدين ليدل دلالة واضحة على ما بلغه الموحدون من رقي فني وحضاري رفيع ولا سيما في عهد يعقوب المنصور. والطابع الفني العام الذي يتسم به فن الهندسة المعمارية في عهد الموحدين لا يرتكز في أساسه على الفسيفساء والزخرفة الدقيقة والخطوط الهندسية الجميلة التي امتاز بها الفن في عهد المرينيين، ذلك الفن الذي يمثل أجمل وأرقّ ما بلغه الذوق المغربي الذي اقتبس من الفن الأندلسي. على أن سمة الموحدين لم تكن في فنهم بقدر ما كانت في رقي أدبهم وقوة جيشهم وضخامة أسطولهم وشموخ أبنيتهم.

وكانت الأبنية الموحدية تعتمد كثيراً على الجير الذي يكوّن ثلث مواد البناء والذي هو نتيجة لميلهم إلى اللون الأبيض. ومما يمتاز به الفن الموحدي بناء الحصون والأبراج، يدل على ذلك أنهم بنوا في مدينة الرباط وحدها أربعة وسبعين برجاً. ويمتاز الفن المعماري الموحدي بإدخال عناصر «الميكانيكا» أو علم الحيل كما سماه المغاربة. ولعل ذلك هو السبب الذي جعل هذه الآثار تحتفظ بمناعتها وتثبت على صروف الحدثان أكثر من ثمانية قرون.

وقد ظهرت في هذا العصر في جميع أنحاء المغرب حضارة مزدهرة مؤتلفة القسمات أثرت في الدولة المرينية التي أعقبت الموحدين بالمغرب الأقصى؛ واستعمل الموحدون أساليب قائمة على

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ٢ ص ١٧٦.

علم الحيل أو الهندسة المعمارية التي تعتمد على الدراسة[١].

ومما هو جدير بالملاحظة أن الموحدين اقتبسوا فنهم من الأندلس ومن القيروان، ذلك الفن الذي يمثل الفن المشرقي الذي تأثر في العصور السالفة بحضارة العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة.

ويتميز جامع الكتبية[٢] بمراكش بأساطينه وصحونه وأقواسه المقرنصة وبجمال قبابه وارتفاع سقوفه وامتداد أروقته[٣]. وقد اقتبست هندسة بناء جامع الكتبية من الفن الأندلسي، كما يلاحظ هذا في أساطينه وفي الأعمدة الأربعة التي يعلوها قوس المحراب.

أما منبر الجامع فقد بلغ حداً كبيراً من الإبداع. ويرجع بناء هذا الجامع إلى عهد عبد المؤمن[٤] ويرى تيراس Terrasse|أن هذا المنبر أجمل منبر في المغرب بل إنه أروع منبر في العالم الإسلامي كافة. وما برح هذا المنبر التاريخي ماثلاً للعيان؛ بيد أن بعض أطرافه قد بدا عليها القدم. ويعتبر جامع الكتبية الثاني من نوعه في عهد الموحدين، أما الكتبية الأولى فقد أسست في إشبيلية في عهد يوسف بن عبد المؤمن، ثم أتم بناءها ابنه يعقوب المنصور، وما زال هذا الجامع إلى الآن من أهم آثار المسلمين في الأندلس.

وتعتبر منارة جامع الكتبية التي بناها يعقوب المنصور من أجمل الآثار التي خلفها الموحدون. وتتألف هذه المنارة من طبقات من الغرف المقوسة السقوف أو الحنايا، يصل بينها درج (بفتح الدال والراء) لا مرقاة بها. ويلاحظ هذا الأسلوب في البناء في مرصد «الخالدة» في إشبيلية وفي منارة حسان بالرباط. وجدران هذه المنارة مطلي بالجص الأصفر. وهذا النوع منتشر في أبنية مدينة مراكش إلى اليوم، ويوصّل هذا الدرج إلى الجزء الأعلى من منارة جامع الكتبية. وهذه النقوش الدقيقة قد صممت على شكل الأزهار وسعف النخل. وتعلو القاعة السادسة قبة مثمنة الشكل ذات أضلاع ومقرنصات تكون مجموعة هندسية بديعة.

وقد أكد «نبراس» وباسي Bassé أن الكتبية أروع مسجد بناه الموحدون في المغرب وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة.

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله: مجلة البينة (الرباط) العدد التاسع ص ٧٤.

(٢) وقد قيل إنه سمي الكتبية لأن باعة الكتب كانوا يحيطون به عند تأسيسه أو لأن الموحدين أنشئوا به مكتبة حوت كثيراً من الكتب في مختلف العلوم والفنون.

(٣) La Pensée| (Rabat), No. 51 Mars, 1963, p. 31.

(٤) نفس الحاشية.

(هـ) مسجد ومنارة حسان:

يقع مسجد حسان في الشمال الشرقي من مدينة الرباط على أرض منحدرة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين متراً عن سطح البحر. وقد يكون اسم هذا المسجد مستمداً من قبيلة تسمى بهذا الاسم تقيم بإقليم الرباط (وهم بنو حسان). ويرى ابن أبي زرع أن يعقوب المنصور الموحدي فرغ من بناء مسجد حسان سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧م). وقد قيل إن سبعمائة من أسرى الحرب المسيحيين عملوا في بناء منارة المسجد.

وتعد هذه المنارة من أروع كبريات المنارات الموحدية. وقد بنيت بعد منارة الكتبية بمراكش ومنارة «الخالدة» بإشبيلية. وقد تناول الحسن الوزان (ليو الإفريقي)(١) الكلام على هذه المنارة فقال: إنها جديدة عريضة بحيث يستطيع ثلاثة من الفرسان الصعود إليها جنباً إلى جنب. ومن فوق هذه المنارة يستطيع المرء أن يشاهد السفن على بعد عشرين فرسخاً(٢) (أي ثمانين ميلاً). ولم يكن الغرض الذي بنيت هذه المنارة من أجله دينياً فحسب بل إن ذلك كان راجعاً إلى أغراض حربية، بحيث يستطاع مراقبة السفن التي قد تهاجم مدينة الرباط أو سلا (بفتح السين) بوساطة هذه المنارة التي يبلغ ارتفاعها أربعة وستين متراً، والتي يتجلى فيها الفن المغربي بصورة عامة والفن الموحدي بصفة خاصة.

وفي السنة التي انتصر فيها يعقوب المنصور على نصارى الأندلس في موقعة «الأرك» المشهورة، أكمل بناء الجامع الأعظم بمدينة إشبيلية، وشيد به منارة عظيمة قيل إنه ليس في بلاد الإسلام منارة أعظم منها. ولما أتم يعقوب المنصور جامع إشبيلية ومنارته أمر ببناء حصن البرج على وادي إشبيلية.

ويذكر ابن صاحب الصلاة(٣) أن جامع إشبيلية بني في عهد يوسف بن عبد المؤمن، وأن ابنه يعقوب المنصور أتم بناءه وأقام فيه الصلاة، ثم أتم بناء منارة جامع حسان التي تعرف الآن باسم صومعة حسان، «فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف (يعقوب المنصور) أمر العامل الذي ولي بإشبيلية... محمد بن أبي مروان الغرناطي ببناء الصومعة المذكورة، وإمضاء أمر أبيه في بنائها والجد في عملها. فابتدأ في بنائها (حيث) بناها «العريف» بالحجر المسمى بالطجون(٤) العادي المنقول من سور قصر ابن عباد».

---

(١) Description de L'Afrique, tome 1, pp. 164 - 195.

(٢) La Pensée No 4 pp.71,93.

(٣) كتاب المن بالإمامة، مخطوط بخزانة الرباط رقم ٣٣٧ ورقة ١.

(٤) الطجن (بفتح الطاء مع التشديد وإسكان الجيم) القلو. والإناء الذي يقلى فيه يسمى الطاجن. ومن هنا كانت حجارة الطجن هي الطوب المحروق المعروف بالآجر. ويسمى طجنا في لغة الأندلسيين=

الباب الثاني عشر
الحالة الاجتماعية

١ - طبقات الشعب

(أ) في عهد العباسيين:

يتألف المجتمع الإسلامي عادة من الخاصة، وهم أصحاب الخليفة من ذوي قرباه، ومن رجال الدولة البارزين كالأشراف والوزراء والقواد والكتاب والقضاة والعلماء والأدباء، وكان لهؤلاء باب خاص يدخلون منه لمقابلة الخليفة أطلق عليه «باب الخاصة». كما جعل لهم مطابخ خاصة وإسطبلات خاصة.

ويقابل الخاصة: العامة، وهم السواد الأعظم من الناس ولهم مرافق خاصة بهم كباب العامة ومطابخ العامة. وتنتظم هذه الطبقة أهل الحرف والصنائع والتجار والفلاحين والجند والرقيق. ويقال لهم العامة والدهماء والغوغاء. وهم في العادة أقل ثقافة ودراية بأمور دينهم حتى ولو كانوا من ذوي اليسار كطبقة التجار.

وقد ذكر ابن الجوزي[١] أن عامة بغداد كانوا يؤلفون خليطاً من العرب والفرس والترك والنبط والأرمن والجركس والأكراد والكرج والبربر، ولو أن تسمية هؤلاء جميعاً بالعرب قد غلبت عليهم لانصهارهم في بوتقة الشعب العربي وسيادة اللغة العربية التي كانت هي اللغة الأصلية للوطن العباسي.

وقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول كان يتألف من العرب، ومن الفرس، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية، وقد قويت شوكتهم في عهد المأمون لأن أمه كانت منهم. كما كان هذا المجتمع يتألف من الأتراك، وخاصة في عهد المعتصم الذي كانت أمه تركية. وقد اتخذ الترك حرساً له

= والمغاربة القدماء.

(١) المنتظم جـ ٩ ص ٢٢٨.

وأسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس، وأصبح هؤلاء الأتراك فيما بعد خطراً على حياة الخلفاء الذين استعانوا بالمغاربة والفراعنة (ويقصد بهم المصريون) وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين استعانت بهم الدولة في عهد الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ). ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين ينتسب إليهم بنو بويه.

وقد أصبح الحنابلة السنيون قوة يخشى بأسها، ولم تنقطع المنازعات بين السنيين والشيعيين. ويذكر لنا المؤرخون أن الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة عملوا على إحلال الوئام بين أبناء الطائفتين. وقد ذكر ابن الأثير[١] أن السلطان محمد بن ملكشاه الثاني السلجوقي (٤٩٨ ـ ٥١١هـ) لما قتل صدقة بن مَزْيد أمير الحلة، وكان يدين بعقائد المذهب الشيعي، ساورت الشيعيين المخاوف من ناحية السنيين وكادت تقع الفتن بينهم. وقد اتفق أن احتفل السنيون في شهر رمضان سنة ٥٠٢هـ بزيارة قبر مصعب بن الزبير، فلم يعترضهم الشيعيون الذين خرجوا ليلة النصف من شعبان لزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم، فلم يعترضهم السنيون، وهكذا أدخل الله سبحانه وتعالى السكينة إلى قلوب هؤلاء وأولئك.

ومن طبقات المجتمع الرقيق الذين كانوا يكونون طبقة كبيرة من أسرى الحروب، ومنهم الرقيق الصقلي والرومي والزنجي والتركي، ولهم ببغداد شارع خاص أطلق عليه شارع دار الرقيق[٢]، وموضع آخر سمي باب النخاسين. وكان الخدم والرقيق رجالاً ونساء يقومون بخدمة الخليفة وحاشيته في دار الخلافة ويقومون بخدمة الناس. ولم يترك لنا المؤرخون شيئاً ذا غناء عن الخدم الأحرار. وكان الرقيق يؤلفون الأغلبية الساحقة من طبقة الخدم، وهم الجواري والرقيق والخصيان.

وقد جلب أغلب الرقيق في العصر السلجوقي من بلاد ما وراء النهر على أيدي النخاسين الذين اتخذوا من تجارة الرقيق صناعة لهم[٣]. وكانت مصر وشمالي إفريقيا وشمالي بلاد العرب من أهم أسواق الرقيق. كما جلب إلى العراق كثير من الزنجيات ومن الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور.

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان، بدليل أن أغلبهم من أمهات أولاد[٤]. وكان بعض الخلفاء من أم رومية أو أرمنية أو تركية، وكان بعضهم يشتري الجارية لجمال منظرها أو لعذوبة صوتها أو علو ذكائها وجودة شعرها. ومن أصناف الجواري، الهنديات

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ١٧٧.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ٤.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة أبي ريدة.
(٤) وكان بعض الخلفاء من أبناء العربيات.

والسنديات والمكيات والمدنيات والطائفيات والنوبيات والزنجيات والحبشيات والتركيات والديلميات والأرمنيات والعراقيات.

وقد شاع استخدام الخصيان في المجتمع العراقي لحماية الحريم، ولذلك راجت تجارتهم وارتفعت أثمانهم[١].

ومن طبقات المجتمع أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، وكانوا يتمتعون بكثير من سياسة التسامح الديني ويقيمون شعائرهم في أمن وطمأنينة. وكان كثير من الخلفاء يحضرون مواكبهم ويشتركون في الاحتفال بأعيادهم ويزورون أديرتهم في مناسبات معينة ويغدقون عليهم الهبات والعطايا. وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب «ملك»، ويطلق على رئيس اليهود ببغداد «رأس الجالوت».

كما كان المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الثاني يتألف من المغاربة والفراعنة (ويقصد بهم المصريون كما تقدم) والأكراد. وتتمثل هذه العناصر في أجناس الجند حيث نرى بينهم العربي والكردي والخراساني والتركي أو السلجوقي (ويؤلفون أغلبية الجند) والديلمي والرومي والأرمني والعراقي.

(ب) في عهد الفاطميين والأيوبيين:

وكان المجتمع المصري في عهد الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧هـ) يتألف من السنيين الذين كانوا يؤلفون الأغلبية الساحقة من المصريين، ومن الشيعيين وخاصة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب أولاً، ثم في مصر والشام والحجاز، إذ كانوا يؤلفون الجيش الفاطمي. ولم تخمد جذوة العداء بين السنيين والشيعيين طوال العصر الفاطمي.

والطبقة الثالثة هي طبقة أهل الذمة، وهم النصارى واليهود. وقد دفعت رغبة كثير منهم في المناصب والهبات إلى اعتناق الإسلام والدخول في المذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين. وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية، فشغلوا كثيراً من المناصب المالية في الدولة، بل تقلدوا الوزارة وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني، وسمح لهم ببناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه.

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية وظهر أمرهم في مصر في عهد الخليفة الحاكم الفاطمي.

---

(١) انظر بدري محمد فهد: العامة في بغداد، رسالة ماجستير ص ٣ وما يليها.

والطبقة الخامسة هي طبقة السودانيين الذين كثر عددهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيدي وظهر أمرهم منذ أيام الخليفة الحاكم الذي استعان بهم على الأتراك، ثم ظهر أمرهم من جديد في عهد الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية. وقد تفاقم خطر الجند السودانيين في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي حتى بلغ عددهم خمسين ألفاً. وقد طاردهم الأتراك إلى صعيد مصر، وأثار الفالة منهم الرعب في قلوب الأهلين وحالوا دون زراعة الأراضي، واكتسحوا دلتا النيل حتى وصلوا إلى الإسكندرية، ولكنهم ظلوا يكونون طبقة هامة من طبقات المجتمع الفاطمي. ثم جاء الأيوبيون فأكثروا من المماليك، فقد أثر عن السلطان نجم الدين أيوب أن عدد الرقيق بلغ في عهده اثني عشر ألفاً كانوا نواة دولة المماليك البحرية، واشتهر كثير منهم بالفروسية والفقه وتقلدوا المناصب العالية[١].

ولننتقل الآن إلى الكلام على المجتمع الإسلامي في المغرب.

(جـ) في المغرب:

كان المغاربة في عهد المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ) يدينون بالإسلام في بساطته وسماحته، وكان مجتمعهم في أيام يوسف بن تاشفين ومن جاء بعده من المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين يتألف من عنصري البربر والعرب. وكان هذا المجتمع في عهد الموحدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧هـ) يتألف من جماعات مختلفة وأجناس متباينة. فهناك قبائل العرب من زغبة وهلال ورياح تنحدر إلى المغرب ثم تمتزج بالمغاربة امتزاجاً قوياً، ولا سيما في عهد عبد المؤمن وأبي يعقوب المنصور. ثم انضوت هذه القبائل العربية تحت لواء الجيش الموحدي وقاتلت إلى جانب المغاربة نصارى الأندلس وغيرهم، وقد ساعد وفود هذه القبائل العربية النازحة، ولا سيما بني هلال وبني سُلَيْم، على بلاد المغرب عن طريق مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على تعريب قبائل البربر[٢].

وهناك عناصر الأكراد والجراكسة الذين بعث بهم صلاح الدين الأيوبي لقتال يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ ـ ٥٩٥)، الذي استطاع أن يستميلهم إليه ويستخدمهم في الجيش الموحدي.

وكان لهذا التمازج البربري العربي أثر بعيد في نشر المذهب الموحدي المهدوي وفيما أحرزه المسلمون من انتصارات، كما كان له أثر بعيد في الحياة المغربية.

---

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢١ ـ ٦٢٦ وكتابي النظم الإسلامية ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) يقال إن هذه القبائل وزعت على الجهات المختلفة بسبب إغاراتهم وتعدياتهم.

وكان بالمغرب طبقة تمثل أهل الحرف والصناعات، وهي تعطينا صورة واضحة عما كان عليه المجتمع المغربي في العصر الوسيط. ويتمثل ذلك في وصف الحسن الوزان عند كلامه على مدينة فاس حيث يقول إنه كان يسوق الحقائب أمين خاص يختار من مهرة هذه الحرفة. وكان صانعو الحقائب يجمعون ما يحصلون عليه من نقود في صندوق له مفاتيح عدة، يحتفظ كل رئيس فرقة بالمفتاح الخاص بفرقته. وإذا انتهى الأسبوع اقتسم العمال النقود التي جمعوها، وقد كونوا بذلك جمعية تعاونية. وإذا مات أحد العمال تعهد رفاقه بالإنفاق على زوجته وولده الصغير، وزوجوا أرملته إذا شاءت، وتولوا تنشئة الأطفال حتى يبلغوا السن التي تسمح لهم بممارسة المهنة. وإذا تزوج أحد الصناع أو ولد له ولد، دعا جميع زملائه إلى وليمة وقدم له كل منهم هدية. وقد أعفى الملوك صناع الجلود من أداء أية ضريبة، كما كانوا لا يؤدون أية نقود لأصحاب الأفران عن صنع خبزهم. وكان لهم لباس قصير في وقت العمل، وإذا فرغوا من أعمالهم ارتدوا ما شاءوا من الملابس، وكانوا على جانب عظيم من الاستقامة وحسن الخلق[١].

(د) في الأندلس:

وفي بلاد الأندلس أصبح المجتمع الإسلامي يتألف من عدة طبقات تتفاوت في الحقوق والاعتبار. وكان هذا المجتمع يتألف من العرب الذين قاموا بدور هام في تاريخ هذه البلاد. ولكن قيام العصبية بينهم قد أتاح الفرصة لمسيحيي الشمال لشن غاراتهم على المسلمين حتى استردوا بلادهم نهائياً في سنة ١٤٩٢، وفر من نجا من المسلمين إلى شمالي القارة الإفريقية.

ومن العناصر التي تألف منها المجتمع الإسلامي في الأندلس: البربر الذين تحملوا أكثر أعباء الفتح ولكنهم خرجوا على أمرائهم واحتلوا الأماكن الهامة في البلاد. ومن هؤلاء أسرة ذي النون بطليطلة التي أسست لها دولة بالأندلس[٢]. وحذا حذوهم ملوك الطوائف كابن عباد في إشبيلية وابن الأفطس في بطليوس وابن أبي عامر في بلنسية وابن هود في سرقسطة ومجاهد العامري بدانية الجزائر.

وكان مسيحيو الأندلس فريقين: فريق تمسك بدينه القديم، وفريق عرف باسم المستعربين، وقد تمتعوا بقسط وافر من التسامح الديني. وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى «الكونت»، ولهم ممثلون في البلاط، وقاض ومحكمة استئنافية برياسة الكونت. وكان كثير منهم يعينون في أرقى المناصب المدنية والحربية، وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر.

---

(١) الحسن الوزان: وصف أفريقيا جـ ١ ص ١٩٥.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٣٣.

كذلك سمح العرب لليهود الذين رزحوا تحت حكم القوط بمزاولة التجارة وبحرية الملكية، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة(١). كما تمتعوا بكثير من التسامح الديني، وأسند إليهم كثير من مناصب الدولة، وأضحت قرطبة مركزاً للدراسات العبرية. وقد ذكر الإدريسي(٢) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة كان أهلها أكثر غنى من بني جلدتهم في سائر البلاد الإسلامية.

وقد نال الرقيق كثيراً من الحقوق المدنية فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج للدولة.

ومن أهم طبقات المجتمع في الأندلس: الصقالبة، وكانوا يجلبون من أسرى الحروب أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوروبية أو من سواحل البحر الأبيض المغربية. وقد ذكر المقري(٣) أن عدد الصقالبة بقصر الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بلغ ٣,٧٥٠، واستخدم المنصور بن أبي عامر الحاجب الصقالبة في جيشه.

ولا ننسى طبقة الفقهاء الذين اشتد نفوذهم بالأندلس منذ أيام الدولة الأموية، ولكن نفوذهم قد اشتد في عهد المرابطين الذين يرجع الفضل في تأسيس دولتهم إلى الفقيه المالكي عبدالله بن ياسين. وها هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني(٤) يقول عن الفقهاء في عهده:

أهلَ الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقسمتمو الأموال بابن القاسم

٢ ـ مجالس الغناء والطرب

كان للغناء قواعد متبعة ومدارس معروفة، حتى لقد وضعت مؤلفات كثيرة في الغناء والموسيقى. وحسبنا أن نُنَوّه بكتاب الأغاني الذي وضعه أبو الفرج الأصفهاني في المغنين والمغنيات، وتبع ذلك التعرض للأدب والأدباء(٥). وكان العامة يحفلون بهذه المجالس

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١. سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٢١٦.

(٢) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥.

(٣) نفح الطيب جـ١ ص ٢٩٦.

(٤) من أدباء مدينة جيان بالأندلس.

(٥) فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة حسين نصار (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

ويطربون لها للترويح عن مشاغل الحياة ومتاعبها[١].

ويبدو أن الموسيقى لم تلق إقبال الناس في العصر العباسي الثاني. ويعلل «فارمر»[٢] ذلك إلى مناهضة فقهاء الحنابلة لأسباب اللهو واللعب عامة، ومن بينها الموسيقى. وقد تبع ذلك إهمال المؤلفين لتدوين الموسيقى والغناء، فلم نجد مؤلفين للموسيقى كأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، حتى تصل إلينا أخبار المغنين والمغنيات في هذا العصر الذي سيطر عليه الفقهاء ولا سيما العلماء الحنابلة.

ومما يدل على عدم تقدير هذا الفن في هذا الزمن أن بعض الفقهاء كانوا لا يقبلون شهادة المغني والرقاص. غير أن بعض العلماء أجاز لنفسه حضور مجالس الغناء، كما كانت العامة تحضر في العادة مجالس الغناء والتسلية بما يجري في مجالسه من رقص وتمثيليات يُقصد بها الفكاهة.

والرقص كالغناء من حيث أصالته في المجتمع العراقي. وقد اخترعت له آلات خاصة مثل «الكرْج» وهي تماثيل خيل مُسرجة من الخيش معلقة بأطراف أقبية تلبسها الجواري، ويركبن بها الخيل، فيحدثن أصواتاً عند الكر والفر. وكان الراقصون والراقصات يعرضون فنونهم أمام الجماهير في الولائم والأعياد وأوقات الفراغ ومجالس اللهو. وقد انتقلت هذه العادات من بغداد إلى غيرها من المدن والقرى[٣].

وهناك نوع آخر من الفن ظهر في كنف الغناء والرقص وهو العزف. ولم يكن العازفون من الرجال فقط، بل اشتركت فيه النساء كذلك. وكان العازف يلقب باسم آلته، فيقال: الطبال والصناج والعواد، والزامر والطنبوري[٤]. وكانت الآلات الموسيقية المعروفة حينئذ هي: الدف والناي والعود والطبل والطنبور، ومنه الطنبور الميزاني والبغدادي. وهنالك أيضاً المعزفة والمزمار والشهروز والرباب والجرافة والجنك والقضيب والسرناي.

ويبدو أن الرذيلة قد تفشت في العراق في القرن الخامس الهجري لضعف الحكم، فانتشر شرب الخمر وكثرت المواخير والحانات وظهرت موجة انحلال خلقي بين المغنيات في عهد

---

(١) ومن هذه المؤلفات أيضاً كتاب الأدوار في معرفة النغم والأدوار لصفي الدين عبد المؤمن (ت ٦٩٣/١٢٩٤).

(٢) تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة ص ٢٤٩ - ٢٦٠.

(٣) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦١) ص ٧٦٦.

(٤) الأزدي: حكاية أبي القاسم البغدادي (هيدلبرج ١٩٠٢) ص ٥٠. الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ١٣٦.

الخليفة القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ)، وقام بعض الصالحين في وجه محاربة هذا التيار، وأنكروا تفشي الخمور، ويذكر ابن الأثير(١) أن شخصاً أتلف آلة الغناء التي تستعملها إحدى المغنيات كانت تصطحب جندياً من السلاجقة الأتراك، فاجتمعت العامة بزعامة علماء الدين واستغاثوا بالخليفة القائم طالبين إليه أن يأمر بهدم المواخير والحانات وتعطيلها. ويظهر أن الخليفة الذي لم يعد له من الأمر شيء اكتفى بأن وعد بعرض الأمر على السلطان السلجوقي.

وقد ذكر ابن الأثير(٢) أن الخليفة المقتدي (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ) أمر بنفي المغنيات والمفسدات من النساء من بغداد، وخرب أبراج الحمام ومنع اللعب بها صيانة لحرم الناس؛ كما منع دخول الناس الحمامات إلا إذا لبسوا مئزراً، ومنع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين، مما جعل الناس يمتدحونه ويطرون خلافته ويعدونه من أحسن الخلفاء العباسيين.

ذكرالمقريزي(٣) أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ و٤٠١هـ قوانين تحرم اجتماعات اللهو والطرب على شواطىء خليج القاهرة، كما حرم فتح الأبواب والنوافذ التي تطل على هذه الشواطىء. وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات. ويقول ابن خلكان(٤) إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولي الخلافة الظاهر ابن الحاكم سنة ٤١١هـ. وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر العراق نحواً من سنة، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين:

يا بَني العباسَ صُدُّوا مَلَكَ الأمرَ مَعَدُّ
مُلكُكُم كان مُعارًا والعواري تُسْتَرَدُّ

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً بمدينة القاهرة لا تزال إلى اليوم تعرف باسم أرض الطبالة.

وقد ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن تأثير زرياب على المجتمع القرطبي كان عميقاً في الموسيقى والغناء وفي الطعام وآداب المائدة، فقد علم زرياب أهل قرطبة أرقى أنواع الطهي البغدادي، وأذاع فيهم أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة، فكانوا يبدءون بالحساء، ثم يقدمون اللحوم والطيور وينتهون بالحلوى، واستبدل زرياب مفارش المائدة من الكتان بأخرى مصنوعة من الجلد الرقيق، وأظهر لهم أن الكؤوس المصنوعة من الزجاج الثمين أكثر انسجاماً

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٣٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٨٥ ـ ٨٦.
(٣) خطط جـ ٢ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٧.

مع منظر المائدة من الأكواب الذهبية أو الفضية.

ومن مآثر زرياب أنه فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل، واستعمل معجون الأسنان، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعورهم في وسط الرأس بدلاً من أن يتركوا خصلات الشعر تتدلى فوق جبينهم وتغطي أصداغهم، كما كانوا يعقصونه (يلوونه) حول شعورهم، وأن يظهروا الحاجبين والأذنين، ويلبسوا ملابس بيضاء من أول يونيه إلى نهاية سبتمبر. كما علمهم زرياب أن الربيع هو موسم الملابس الحريرية الخفيفة، والقمصان ذات الألوان الزاهية، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة.

وبتأثير زرياب تغير البلاط الأموي والمجتمع القرطبي بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسي، حتى في أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم[١].

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة

لم تنل دور العامة في البلاد الإسلامية عناية المؤرخين والرحالة بل إنهم اقتصروا على وصف قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة. وقد اقتصرت دور العامة على سكنى أصحابها غالباً، وكانوا يؤجرونها كلها أو بعضها. وكان الزهاد والمتصوفة يتخذون من المساجد مساكن أو يلجئون إلى سكنى الأكواخ[٢]. وكانت دور العامة تبنى غالباً من طابق واحد، وقد تبنى من طابقين[٣].

أما مواد البناء فكانت الجص والآجر والكِلْس والنورة (الجير). وكانت السقوف تتخذ من جذوع النخل أو أغصان الأشجار[٤].

وللدار مرافق صحية كالحمام والبئر وغيرهما. وللأغنياء مرافق صحية خاصة لا يستعملها الخدم. ونرى عادة في بيت العامة رحى للطحين وتنوراً للطبخ وشجرة أمام المنزل وكلباً للحراسة.

وكان بعض العامة يزينون دورهم ويؤثثونها بأثاث يتمشى مع حالتهم الاجتماعية، ويفرشون الأرض بالحصير الشائع الاستعمال بالعراق. ويفرش أهل اليسار الزرابي ويستعملون

---

(١) ليفي بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية عن مخطوط المؤرخ الأندلسي أحمد بن محمد الرازي ـ منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية ص ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ٢٨٦.

(٣) ابن الجوزي: الأذكياء ص ٦٠.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٥٥.

الوسائد والستائر، ويضيئون دورهم بالمسارج والقناديل أو الشموع. وهذا يعلل لنا إغلاق الحوانيت بعد مغيب الشمس، فتنقطع الحركة التجارية في الشوارع والطرقات.

وكانت قاعة الذهب التي ينعقد فيها مجلس الملك في عهد الفاطميين مؤثثة أثاثاً فخماً، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب، وفي صدر هذه القاعة حَشِيَّة عليها عرش الخليفة المحجوب بستور، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس رفعت الستور.

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذي بناه الخليفة الآمر في جزيرة الروضة[1] لزوجته الطائية، وقد بنى لها الخليفة هذا القصر بطريقة لا تجعلها تشعر بالانتقال من حياة البادية، وكان له حديقة رحبة ممتدة على شاطىء النيل[2].

وكان الوزراء يعيشون عيشة قوامها الترف والإسراف وحب الظهور كما يعيش الخلفاء. فقد وجد في قصر الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الذي أطلق عليه «دار الملك» ٦,٤٠٠,٠٠٠ ديناراً من الذهب، وسبعمائة طبق من الفضة والذهب، وكثير من الصحاف والأباريق والأواني المستعملة في اللبن (الزبادي). وهناك أيضاً كثير من البرَاني[3] الصيني الكبيرة المملوءة بالجواهر[4].

وقد وصف ابن مُيَسَّر[5] مجلس شراب الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي فقال إنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات، منهن أربعة بيض مصنوعة من الكافور، وأربعة أخرى سود مصنوعة من العنبر. وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى، ويمسكن بأيديهن أثمن الأحجار الكريمة.

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس نكست تلك التماثيل رؤوسها إجلالاً له، فإذا أخذ مكانه في صدر المجلس استوت قائمة. ويظهر أن هذه التماثيل كانت تتحرك بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه[6].

وقد ذكر ابن الأثير[7] أن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب بعد أن استولى على

---

(١) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ١٠٩، ١١٤، ١١٦.
(٢) المقريزي خطط جـ ١ ص ٤٨٥.
(٣) جمع برنية وتسمى المحلبية وهي إناء مدور من الخزف.
(٤) ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٠٠.
(٥) تاريخ مصر ص ٥٧.
(٦) انظر كتابي: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧.
(٧) الكامل جـ ١٠ ص ٥٧.

غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين (بضم الباء واللام وكسر الكاف مع التشديد) وأخرجه منها رأى في قصوره من الأموال والذخائر ما لم يملكه ملك قبله بالأندلس. ومما وجد عنده سبحة فيها أربعمائة جوهرة قومت كل جوهرة منها بمائة دينار، إلى غير ذلك من النفائس الثمينة والثياب وغيرها.

٤ ـ الطعام:

اهتم العباسيون بالطعام وتفننوا في طهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على موائدهم. وقد عني العباسيون بوضع المؤلفات التي تصف الطعام وطريقة تقديمه. وممن ألف في هذا الباب: محمد بن الحسن بن عبد الكريم الكاتب البغدادي الذي ألف كتابه «الطبيخ» في سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م). ويصف لنا هذا الكتاب الطعام في عصر المؤلف وفيما سبقه من العصور العباسية.

وقد قسم هذا المؤلف الطعام على أساس طبقات المجتمع في عصره، فذكر طعام طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء[١] والطعام الشعبي.

ويتألف طعام الأغنياء من الدجاج، وكانت الدجاجة تسلق وتقطّع ثم تُعَرّق بالشيرج[٢] المضاف إليه الكزبرة والمستكة والدار الصيني. ويعتبر الدجاج أساس المائدة؛ ولذلك كان سعره مرتفعاً. ولهم في طهي الدجاج طرائق مختلفة حسب رغبة الآكلين[٣].

ومن ألوان الطعام المضيرة[٤]، فيقطع اللحم السمين مع الإلية ويوضع في قدر ثم يضاف إليه ماء وملح، ثم يغلى. فإذا قارب النضج أضيف البصل والكراث والكمون والمستكة والدار صيني، فإذا نضج وجف ماؤه ولم يبق سوى الدهن غرف في إناء، وأضيف إليه اللبن والليمون والنعناع، ثم ترك على النار حتى يغلي قليلاً، وأضيف إليه التوابل، ثم مسح جوانب القدر وترك وغطي حتى يهدأ.

ومن ألوان الطعام أيضاً: السكباج[٥]. وطريقة طهيه أن يقطع اللحم السمين ويوضع في قدر، ثم يضاف إليه الكزبرة الخضراء والدار صيني والملح، ويظل على النار حتى يغلي. ثم

---

(١) ويدخل في هذه الطبقة طبقة المتصوفة والزهاد الذين يكتفون بالقليل من الطعام ولا سيما من الخبز الجاف والملح أو الأدم القليل.

(٢) وهو زيت السمسم.

(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ١٠٠.

(٤) بفتح الميم وكسر الضاد بعدها ياء. انظر البغدادي: كتاب الطبيخ ص ٢٣.

(٥) بكسر السين المشددة.

يضاف إليه الكزبرة اليابسة وتنحى الكزبرة الخضراء من القدر، ثم يضاف إليه البصل والكراث والجزر أو الباذنجان.

وهناك ألوان أخرى من أطعمة الأغنياء، نذكر من بينها المشهيات كالسلاطة والحصرمية والسكسكية والعدسية والمهلبية.

وتتألف الأطعمة الشعبية من اللحم والخبز والدبس والخل والسمك، ومنه المشوي والمقلي والمطبوخ. وكان المحتسب يشرف على باعة السمك بصفة خاصة لئلا يخلطوا السمك الطازج بالسمك الفاسد.

وقد اعتاد أهل العراق عدم شرب الماء بعد أكل السمك كما كانوا لا يشربون اللبن بعده ولا يأكلون البيض أو اللحم إذ يعتبرون ذلك ضاراً بالصحة.

ومن الأكلات الشعبية الباقلاء، والهريسة وهي نوع من الحلوى تباع في الأسواق في الصباح. وهي من الأنواع القديمة بالعراق، فتطبخ في البيوت أو تباع في الأسواق. ومن الأكلات الشعبية أيضاً العصيدة والثريد، وتعمل العصيدة من التمر ويضاف إليه السكر والعسل[١]. ويعمل الثريد من المرق واللحم وقد يضاف إليه الحمص، ويؤكل في الغداء والعشاء. ومن الأكلات الشعبية أيضاً الأرز، ويؤكل مع اللبن أو السمن، والسكر ويقدم مع غيره من الأطعمة.

ومن الأكلات الشعبية الكباب وهو اللحم المقطع إلى شرائح، وتشوى الآن من اللحم المفروم. والكباب من الأكلات المتوفرة والرخيصة إلى اليوم، وهو من الأكلات المفضلة عند الشعب العراقي. كذلك يذكر من بين الأكلات الشعبية الرؤوس والأكارع، وتباع في الأسواق مطبوخة ونيئة[٢]. ويزيد في قيمة الطعام ما يضاف إليه من المسك والعنبر والعود والزعفران والقرنفل والكبابة (الصيني) والفواكه اليابسة كالجوز واللوز والفستق والبندق والعنب والزبيب والتمر والتفاح والرمان والموز وغيرها[٣].

وكان السلطان ألب أرسلان السلجوقي باراً بالناس يطبخ بمطبخه كل يوم خمسون رأساً من الغنم للفقراء، ما عدا المال الذي خصص لسماط الخاصة والعامة والعسكر والأمراء وغيرهم[٤].

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٣٩٥.

(٢) ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين ص ٣٤.

(٣) بدري محمد بدر: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ـ رسالة ماجستير مخطوطة ص ٨٣ وما يليها.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥.

وقد ذكر المؤرخون والرحالة أن الفاطميين والأيوبيين في مصر اهتموا بتربية الحيوانات وخاصة البقر وبتربية الجاموس وتفريخ الدجاج وتربيته. وكانت مصر في رغد من العيش، فزرعت فيها الحنطة والذرة والأرز والقمح والشعير والفول والحمص والعدس والبصل والثوم واللفت والسلجم (وهو نوع من اللفت) والقلقاس والباذنجان واللوبيا والكراويا. كما غمرت الأسواق بالفواكه على اختلافها كالكروم والتين والتفاح والخوخ والمشمش والموز والتمور والتوت واللوز. وكانت هذه الأسواق تزخر بالأطعمة كالدجاج والأوز والزبيب والسمك والحمام وسائر اللحوم[١]. وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية، ويستقبل الشعب المصري هذه المواسم بمظاهر البهجة إلا يوم عاشوراء الذي كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر حيث يرتلون الأناشيد الحزينة في رثاء الإمام الحسين[٢].

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفراج وزاد في الأطعمة لوناً أطلقوا عليه «النقايا»، ويصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب، ولوناً من التقلية أطلقوا عليه تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في مرق كثير الأفاويه والتوابل. كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد). وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه.

ويتميز المغرب بألوان خاصة من الطعام «كالكفتة» التي تطهى بالزيت ويضاف إليها كمية كبيرة من التوابل وتصنع على شكل كور كبيرة الحجم، وتصنع من لحم البقر الخالي من الشحم. وقد ذكر الحسن الوزان أنه كان بمدينة فاس سوق يباع فيه الخبز المقلي بالزيت، ويشبه الخبز الصغير، ويحلى بالعسل، ويتناول الناس هذا الخبز مع طعام الإفطار ولا سيما في أيام الأعياد، وتؤكل هذه الفطائر مع اللحم المشوي أو مع العسل أو مع الحريرة. ويلاحظ أن أهل فاس لا يزالون حتى اليوم يحتفظون بهذه العادة ويتناولون هذه الفطائر في الصباح ولا سيما مع رؤوس الغنم المشوية. وللأديب الأزموري الفاسي المولد والنشأة قصيدة طويلة في الأطعمة يذكر فيها رؤوس الغنم المشوية.

---

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٨ ـ ٣٨٩.
(٢) نفس المصدر ص ٢٤٢.

وطريقة طهي الحريرة هي أن يدق اللحم ثم يطبخ ثم يدق من جديد، ويدخل في صنع الحريرة وتضاف إليها كمية من التوابل والمرق والبقول، وفي فاس وغيرها من المدن المغربية يشوى اللحم في السفافيد، ويبنى كانونان أحدهما فوق الآخر، وتوقد النار في الكانون الأسفل، وعندما يحمى الكانون العلوي يوضع الحمل كاملاً من فوهة في أعلا الكانون حتى لا تحترق الأيدي. وهكذا يتم شواء اللحم ويأخذ لوناً جميلاً ونكهة لطيفة، لأن الدخان لا يصل إلى اللحم وإنما يصل إليه اللهب المشتعل، ويستمر شوي اللحم على نار ضعيفة طول الليل، وفي الصباح يبدأ بيع هذا اللحم في الأسواق، حيث يباع فيها كذلك اللحم المقلي والسمك المقلي، وهناك حوانيت الأكارع.

أما سوق الجزارين فقد كانت المواشي قبل أن تحمل إلى الحوانيت تعرض على أمين الجزارين لفحص اللحم والتأكد من سلامته من الأمراض، ثم تسلم لحاملها ورقة يحدد فيها ثمن البيع بحيث يستطيع كل شخص أن يراها ويقرأ الثمن الذي يباع به اللحم. وهكذا سبق المسلمون بالمغرب غيرهم من الأمم إلى تحديد أسعار السلع، ثم نقل عنهم الأوروبيون هذا النوع من المعاملات.

وفي سوق الأسماك يبيع الصيادون أنفسهم ما يصطادونه من السمك بأسعار بخسة. وكان من عاداتهم أن يصطادوا سمكاً ممتازاً هو «الشابل» الكبير الجيد الطري، ويسمى «لاكا» بالإيطالية وبالفرنسية «لالوز»، ويبدأ صيده من الأنهار خلال فصل الربيع. وقد ذكره المقري في رسالة المفاخرة بين سلا ومالقة فقال عند كلامه على مدينة سلا: «وكفى بالشابل لحماً طرياً».

وكان لأهل المدن المغربية ولا سيما أهل فاس ولع بتربية الدجاج، وكانوا يعنون بنظافة دورهم ويحفظون الدجاج في أقفاص كبيرة.

ويزخر سوق الزياتين بزيت الزيتون والزبد والعسل والجبن الطازج والليمون والجزر واللفت والفول الطري وغيرها، ويشرف المحتسب وأعوانه على جميع السلع المستهلكة.

٥ ـ الملابس:

كان للخاصة في العصر العباسي الثاني ملابس رسمية تميزهم، أما ملابس العامة فكانت تختلف باختلاف حياتهم الاجتماعية، فكان أغنياؤهم يعنون بملابسهم أكثر من فقرائهم. ويعرف الزهاد والمتصوفة بملابسهم الصوفية الخشنة.

والملابس ثلاثة أنواع: ملابس للرأس، وملابس للبدن، وملابس للأرجل والقدمين بالإضافة إلى الحلي.

فملابس الرأس هي العمامة التي تميز الرجل. وقد أخذ العرب العمامة عن آبائهم منذ أيام الجاهلية وورثها المجتمع العراقي في القرن الخامس الهجري، فكان لا يجوز خلع العمامة وكشف الرأس إلا في مناسك الحج. وكانت العمامة السوداء تلبس في الاحتفالات والمواسم وعند مقابلة الخليفة لأن السواد كان شعار العباسيين الرسمي.

أما ملابس البدن فكانت تختلف باختلاف طبقات الناس، فالزهاد يلبسون الملابس الخشنة أو الممزقة، والفقراء يلبسون المدرعة (بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء)، وهي نوع من الجباب وتكون عادة من الصوف. وكان عمال الحمامات يلبسون التبان (بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وهي سراويل صغيرة تستر العورة. ويلبس الفلاحون الملابس الغليظة المصنوعة من القطن. ويلبس الأغنياء الملابس الحريرية والإبريسمية وهي نوع من الحرير. وكان الناس يلبسون في أرجلهم الجوارب وفي أقدامهم النعال(١).

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز النسيج. وقد بلغ نظام الطراز الذي يصنع بدار الكسوة مبلغاً عظيماً من الرقي كما تقدم. كما اشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية. وكان يصنع بدار الكسوة كسى مختلفة يصلح كل منها في مناسبة معينة، كالاحتفال بآخر رمضان وبالعيدين، والجلوس إلى السماط في أول أيام العيد. وكانت هذه الملابس موشاة بخيوط الذهب والفضة، حتى لقد بلغ ثمن بعض الكسي خمسمائة دينار وثمن المنديل خمسة دنانير. كما كانت الحلل المزركشة بالذهب تقدم إلى الوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة في أول رمضان وفي الاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه، وفي عيد الفطر والأضحى وفي الاحتفال بوفاء النيل وغيرها يمنحون في هذه المناسبة حللاً حريرية أو مزركشة بالذهب(٢).

٦ ـ المرأة:

كانت المرأة في العصر العباسي لا تختلط بالرجال الغرباء، فإذا أقيمت الحفلات لجأت إلى غرفة خاصة بالنساء أو طلعت فوق سطح منزلها لرؤية الحفل وحدها أو مع بعض زميلاتها. وكان المجتمع البغدادي لا يسمح للرجل بأن ينظر إلى جيرانه من نافذة، ومن تعمد كشف

---

(١) بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (رسالة مخطوطة) ص ١١٧ وما يليها.
(٢) المقريزي: خطط جـ١ ص ٤٠٩ ـ ٤١١.

عورات الناس كان جزاؤه من السلطات الحاكمة الجزاء الصارم. وكان المحتسب لا يسمح باختلاط الرجل بالمرأة في الطرقات العامة ولو كانا زوجين[١]. وعلى ذلك فقد كانت المرأة تحضر مجالس الوعظ في المساجد[٢]. وهذا يدل على مشاركتها للرجل في إقامة الشعائر الدينية وفي ميدان العلم والثقافة. على أن هذا لم يمنع من اختلاط الرجل بالمرأة في الأسواق وعلى شواطىء الأنهار وفي زيارة القبور وفي قضاء المصالح بالدواوين الحكومية[٣].

وقد تمتعت المرأة في العصر السلجوقي بقسط وافر من الحرية. وكان لبعض نساء هذا العصر تأثير عظيم على الخلفاء والسلاطين، حتى إنهن تدخلن في شئون الدولة. ونذكر على سبيل المثال «تركان خاتون» زوجة السلطان ملكشاه التي اشتهرت بذكائها ودهائها، واتسع نفوذها حتى إنها استطاعت تحت تأثير طموحها الشخصي أن تحمل الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧) على تقليد ابنها الصغير محمود السلطنة. ولم يكن بد من أن يلبي الخليفة طلبها بمعاضدة وزيرها تاج الملك وتأييد جعفر ابن الخليفة وابن «ماه مالك» أخت السلطان ملكشاه وغيره من رجال الدولة. وبذلك تحقق طموح تركان خاتون وتقلد ابنها محمود دون أخيه الأكبر بركياروق ابن زبيدة[٤]. وقد أدى هذا العمل إلى انقسام البيت السلجوقي على نفسه، فدبرت المؤامرات واشتعلت الحروب وطمع بعض أعضاء البيت السلجوقي في السلطنة[٥].

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد، فقد كانت أم المأمون فارسية وأم المعتصم تركية، وكانت شجاع أم المتوكل رومية (أو خوارزمية)، والسيدة أم المقتدر رومية، وأم المطيع صقلية، وأم الظاهر الفاطمي سودانية.

وكان للمرأة شأن عظيم في عهد الدولة الفاطمية، فكانت تتدخل في شئون الدولة. واشتهر كثير من النساء بالثراء والبذخ؛ فقد تمتعت ست الملك أخت الخليفة الحاكم بالحزم ورجاحة العقل واشتهرت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الديني. ومن نساء العصر الفاطمي الأخير زوجة الظاهر وأم المستنصر، وكانت سودانية، على ما تقدم، وقد اشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين الذين كثر عددهم، وبلغ جندهم خمسين ألفاً. ومن نساء هذا العصر زوجة الخليفة الآمر الطائية البدوية التي شغف بجمالها ومواهبها. ولم يظهر بين طبقة العامة في

(١) الماوردي: ص ٢٥٧.
(٢) الخطيب البغدادي جـ ١٢ ص ٧٦.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ٢٧٨.
(٤) كانت زبيدة ابنة ياقوتي بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه.
(٥) انظر الباب الثاني من هذا الكتاب ص ٣٧.

ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة.

وقد تمتعت شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب بنفوذ عظيم في الدولة الأيوبية حتى لقد تقلدت سلطنة مصر ردحاً من الزمن، وقد تقربت من أمراء الدولة ومنحتهم الإقطاعات وخفضت الضرائب عن الأهالي واستطاعت بمهارتها أن ترد الصليبيين على أعقابهم بعد أن حلت بهم الهزيمة في موقعة المنصورة سنة ١٢٤٩ م.

وقد اشتهر بعض نساء المغرب برجاحة العقل وتدخلهن في شئون الدولة. ومن هؤلاء زينب النفزاوية التي اشتهرت بجمالها ورجاحة عقلها وظرفها. وقد تزوجها أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي عينه عبد المؤمن بن علي أميراً على بلاد المغرب. وقد ذكر ابن الأثير(١) في حوادث سنة ٥٠٠هـ أن ثلاثة أشخاص اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يفخر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الثالث زوجة يوسف بن تاشفين. ولما بلغ ابن تاشفين هذا الخبر، أحضر هؤلاء الثلاثة وأعطى الأول ما تمناه من المال وهو ألف دينار، وقلد الآخر عملاً من الأعمال، وقال للشخص الذي تمنى زوجته: «يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟» ثم أرسله إلى زوجته، فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً. ثم أحضرته وقالت له: «ما أكلت هذه الأيام؟» قال «طعاماً واحداً» فقالت: «كل النساء شيء واحد» وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته.

وقد تطور نفوذ المرأة في عهد علي بن يوسف بن علي بن تاشفين، فتدخلن في شئون الدولة تدخلاً أضر بالملك في عهده، «واستولى النساء على الأموال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومَسُّوفة مشتملة على كل مُفْسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيّد تغافله»(٢).

وفي الأندلس كثر زواج المسلمين بالمسيحيات، وغدا المسلمون يؤثرون اتخاذ أمهات أولادهم من السبايا اللاتي كن يؤتى بهن من شمالي أسبانيا(٣).

ولم يكن شراء الجارية في الأندلس من الأمور الهينة، بل كان شراؤها يتم بحضور كاتب العقود، فتوضح الأسباب التي تطلب الجارية من أجلها بكل دقة، وقد تمتعت المرأة في عهد

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ١٥٦.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٧٧.

(٣) ترنْد: تراث الإسلام، الترجمة العربية (القاهرة ١٩٣٦) جـ ١ ص ١٢ ـ ١٣.

الأمويين في الأندلس بنصيب كبير من الحرية وحظ وافر من الاعتبار، وإن نقص صفاء الجنس العربي كان نتيجة التزاوج من الأسبانيات على الرغم من أن ذريتهن أصبحت تحمل أسماء الآباء.

٧ ـ الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(أ) الأعياد والمواسم والمواكب:

كان العامة في المشرق الإسلامي يحتفلون بالأعياد الدينية كشهر رمضان ثم يحيون لياليه بتلاوة القرآن الكريم وصلاة التراويح. كما كانوا يحتفلون بعيدي الفطر والأضحى، فيخرج الناس صبيحة يوم العيد بملابسهم الجديدة إلى المساجد لأداء فريضة العيد وتوزيع الفطرة على الفقراء والمساكين، وكانت الدولة العباسية تحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة مرتدياً أفخر الملابس وبصحبته كبار رجال دولته. وكان العامة يقفون على جانبي الطريق لتحية الخليفة وهو في طريقه إلى المسجد وهم ينادون: السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام.

وكانت بغداد تزين بالأعلام والأقمشة الحريرية ذات الألوان الزاهية، وتضرب الطبول وتدق الأبواب. كما كانوا يحتفلون بموسم الحج؛ فإذا حل اليوم العاشر من شهر ذي الحجة احتفل الناس بعيد الأضحى وذبحت الأضاحي ووزع منها على الفقراء. وكان الصناع ينتهزون حلول العيد ليصنعوا تماثيل حيوانية للأطفال[١].

ومن الأعياد الدينية عيد الغدير عند الشيعة. وكان معز الدولة بن بويه أول من احتفل بهذا العيد في سنة ٣٥٢هـ. كما كان العامة يحتفلون بعيد النوروز، وبأعياد النصارى في الأديرة القريبة من بغداد، ويحتفلون بالانتصارات الحربية كما حدث في سنة ٤٦٣هـ حيث احتفل السلطان ألب أرسلان بانتصاره على البيزنطيين في موقعة ملازكرت الشهيرة.

وفي العصر الفاطمي في مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية في أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع والعيدين، أيام دينية أخرى. وكانت الأسمطة تقام ابتهاجاً بهذه الأعياد في قصور الخلفاء وتوزع الإنعامات بمقادير وافية. وفيما يلي بيان بأسماء الأعياد التي كان يحتفل بها الفاطميون:

(١) رأس السنة (٢) أول العام (٣) يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين) (٤) مولد

---

(١) انظر بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (نسخة مخطوطة) ص ١٦٠ وما يليها.

النبي ﷺ (١٢ ربيع الأول) (٥) مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٦) مولد الحسن عليه السلام (٧) مولد الحسين عليه السلام (٨) مولد السيدة فاطمة الزهراء (٩) مولد الخليفة الجالس على العرش (١٠) ليلة أول رجب (١١) ليلة نصف رجب (١٢) ليلة أول شعبان (١٣) ليلة نصف شعبان(١) (١٤) موسم ليلة رمضان (١٥) غرة رمضان (١٦) وفاء النيل (١٧) يوم النوروز (١٨) يوم الغطاس (١٩) يوم الميلاد (٢٠) عيد النصر(٢) (٢١) خميس العهد(٣).

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون في مناسبات متعددة، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام؛ وهي موكب أول العام، وأول رمضان، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيد الفطر والأضحى، ووفاء النيل(٤). أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة(٥).

(ب) الخطبة في الأزهر:

كان الرسول ﷺ يؤم الناس في الصلاة باعتباره زعيماً للمسلمين. وقد ندب وهو في مرضه الأخير أبا بكر ليصلي بالناس بدلاً منه. وكانت إمامة المسلمين في الصلاة من أهم الأدلة التي استند إليها السنيون في أحقية أبي بكر بالخلافة بعد الرسول الكريم. ولفظ إمام تتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الإمامة في الصلاة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين، بل إنها تعتبر ثاني أركان الدين بعد الشهادتين، ويعدها بعضهم الركن الأول، لأن الشهادتين تذكران في سائر الأركان. ولذلك نرى الشيعة يستعملون لفظ إمام، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوي قوة إلهية مقدسة، كما ورد لفظ إمام في القرآن الكريم بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس، فقال تعالى في سورة الأنبياء (٢١ : ٧٣): ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات

---

(١) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود.

(٢) كان الاحتفال بهذا العيد في ١٦ المحرم وهو اليوم الذي أطلق فيه سراح الخليفة الحافظ وجعل في عزلة عن الناس منذ شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م). (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥).

(٣) هو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام. وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى في شعورهم الديني. ولفظ عهد استبدلت خطأ بلفظ عدس، وسماه أهل الشام خميس الأرز أو خميس البيض؛ واستمر ذلك إلى اليوم (المقريزي، خطط جـ ١ ص ٤٩٥).

(٤) القلقشندي جـ ٣ ص ٥٠٣ ـ ٥٢٠.

(٥) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥٢١.

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾[١]. كذلك نرى الخلفاء يحافظون على وظيفة الإمامة في الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة، حتى لقد أصبحت الإمامة في الصلاة من أهم أعمال الخلفاء وولاتهم في الأمصار الإسلامية. وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين في الصلاة بأنفسهم.

وقد عني الفاطميون بتنظيم الإشراف على الأزهر، فعينوا له فقيهاً يتولى الخطابة في صلاة الجمعة والحفلات الدينية بين يدي الخليفة أو نائبه، كما نظموا شئون المسجد بصفة عامة. وفي أواخر العصر الفاطمي كانت الخطابة تسند إلى رجال الدين ومنهم داعي الدعاة. أما الشئون الخاصة بالدراسة والأساتذة والطلاب فكان يرجع فيها إلى الخلفاء ونوابهم كبار رجال الدولة الفاطمية.

وقد أصبح الأزهر منذ إنشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمي، فكانت تقام فيه صلاة الجمعة وعيد الفطر والأضحى، وكان الخليفة يؤم الناس بنفسه. وقد ركب الخليفة المعز الفاطمي إلى الجامع الأزهر وأم الناس في الصلاة، وألقى خطبة رائعة كان لها تأثير بالغ في نفوس المصلين. وكانت هذه أول صلاة يقيمها الخليفة الفاطمي في الأزهر. وقد ظل المعز يخطب في هذا الجامع بنفسه في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان وفي الأعياد حتى تم إنشاء جامع الحاكم بأمر الله، فأقيمت فيه صلاة الجمعة في شهر رمضان سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م) حيث أم الخليفة الحاكم الناس في الصلاة، وأصبحت صلاة الجمعة تقام من حين إلى آخر في بعض المساجد الأخرى، مثل جامعي راشدة والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله.

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالي لصلاة الجمعة، ويستريح الخليفة في هذا الشهر جمعة، تسمى «جمعة الراحة».

وكان صاحب بيت المال يشرف بنفسه في صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذي يصلي فيه الخليفة الجمعة، فيوضع في مقصورة الجامع ثلاث طنافس دبيقية[٢] أو سامانية، بعضها فوق بعض. وتعلوا هذه الطنافس الحصيرة التي يقال إنها كانت لجعفر الصادق الإمام السادس عند الشيعة الاثني عشرية، وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) في عهد الخليفة الحاكم[٣].

---

(١) حسن ابراهيم حسن: كتاب النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٢) ص ٤ ـ ٥.

(٢) الدبيقية نسبة إلى دبيق (قرية بمصر) اشتهرت بالنسيج الفاخر.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (طبعة جوينبول) مجلد ٣ جـ ١ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

وكان ينصب على جانبي المنبر ستران، يكتب على الستر الأيمن منهما البسملة والفاتحة وسورة الجمعة، وعلى الأيسر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين(١).

وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضي القضاة يحمل بيده مبخرة، يبخر بها المنبر والقبة التي يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة التي كان يقوم بوضعها أحد كتاب البلاط في ديوان الإنشاء. ويبدأ موكب الخليفة من باب الذهب بالقصر الخليفي وعلى رأسه المظلة، والطيلسان، وهو كساء مدور، ويرتدي الخليفة ثوباً من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق، ويحمل قضيب الملك بيده، ويحف به عدد كبير من القراء ومن حرس الخليفة الخاص ومن الجنود والأشراف، ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة المعز كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة، ممتطين الخيل، وعليهم الخوذات والدروع، ويتبعهم فيلان. وذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الآمر (٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ) كان يحف به في موكب صلاة الجمعة الفيلة والأسود وهي مزينة بفاخر الكسى، وعليها الأسلحة اللامعة. وكان يسلم لكل واحد من مقدمي الركاب في الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق (بكسر الراء، أي الفضة)، سوى الرسوم المقررة والهبات والصدقات التي تمنح للناس على طول الطريق. وقد زينت الحوانيت المملوءة بأواني الذهب والفضة.

وكان الخليفة الفاطمي يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وتلاوة القرآن بنغمات شجية حتى يصل إلى الجامع. ثم يطلق البخور وتغلق أبواب الجامع ويقف عندها الحجاب والبوابون، فلا يدخل إلا من كان معروفاً من الخواص والأعيان. ثم يأخذ الخليفة طريقه إلى قاعة الخطابة المخصصة لاستقباله، ويقوم بحراستها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة الذي يظل في هذه القاعة حتى ينتهي الأذان.

عندئذ يدخل قاضي القضاة ويقول: «السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله!» فيخرج الخليفة يحف به الأستاذون المحنكون، ويتبعه وزيره الأول، وجماعة من حرسه المدججين بالسلاح، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر. ويستمر الخليفة في مسيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر. ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة، فإذا أومأ إليه صعد وقبّل يدي الخليفة، وزرّ السترين عليه. وبذلك يكون المنبر والقبة أشبه بالهودج، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر(٢).

---

(١) رقم ٤٣. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٥١١.

(٢) ذكر المقريزي أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف، بمعنى أنه يجمع في يده كافة السلطات المدنية =

ويرجع السبب في استعمال الستور إلى أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبتهم التي كانت تعد لهذا الغرض في ديوان الإنشاء. كما يرجع السبب في كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة على سترين يوضعان على جانبي الخليفة، أحدهما عن يمينه ليقرأ ما فيه في الركعة الأولى، والآخر عن يساره ليقرأ ما فيه في الركعة الثانية، إلى ما قد يتعرض له الخليفة من النسيان أو التلعثم حال إقامة الصلاة. فقد أثر عن الخليفة الفاطمي الحاكم أنه برغم شغفه بأن تكون مواكبه في غاية الأبهة، رأى أن ينيب وزيره في صلاة الجمعة، لأنه كان يرتج عليه في الخطبة أحياناً.

وكانت الخطبة التي يلقيها الخليفة الفاطمي قصيرة وتشتمل على آية من القرآن. وكان الخليفة يذكر نفسه وأهل بيته بعبارة موجزة، ويتلو قوله تعالى في سورة النمل (٢٧ : ٢٩) ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾. ثم يدعو الخليفة لأبيه وجده، ولمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، ولعلي كرم الله وجهه، ولأسلافه الخلفاء، وأخيراً، يدعو لنفسه فيقول: اللهم أنا عبدك وابن عبدك، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مَسَّنيَ السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ (سورة الأعراف ٧/١٨٨).

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين. فإذا فرغ من خطبته قال: اذكروا الله يذكركم. ثم يصعد الوزير فيحل السترين، ويظل هو وقاضي القضاة على الباب، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة.

بعد ذلك يبدأ الخليفة الصلاة، فيبلغ عنه الوزير، ثم قاضي القضاة ثم المؤذنون. فإذا انتهت الصلاة خلا الجامع من الناس، وخرج الخليفة، والوزير عن يمينه وقاضي القضاة وداعي الدعاة[1] عن يساره، ويحيط به حرسه الخاص، ويعود بموكبه على النحو الذي سار عليه في ذهابه إلى الجامع[2].

فإذا انتهت الصلاة استراح الخليفة في الجامع بقدر ما توزع الهبات. فكان يعطى للنائب في الخطابة ثلاثة دنانير، وللنائب في الصلوات الخمس ثلاثة دنانير، وللمؤذنين أربعة دنانير، وللمشرف على خزانة الفرش وفراشها ومتوليها لكل منهم ثلاثة دنانير، ولصبيان بيت المال

= والعسكرية والقضائية، قام قاضي القضاة برر السترين.

(١) كان داعي الدعاة يتبع قاضي القضاة.

(٢) القلقشندي: جـ٣ ص ٥٠٩ ـ ٥١٢.

ديناران. وقد خصصت رسوم للقراء، وتعم الصدقات الناس من وقت خروج الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود(١).

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بإقامة صلاة العيدين، فقد ذكر المؤرخون أن الخليفة المعز ركب إلى «مُصلّى القاهرة» الذي بناه جوهر خارج باب النصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م). وهنا أقام الصلاة على الطريقة الإسماعيلية، فقرأ في الركعة الأولى الفاتحة فسورة الغاشية (سورة رقم ٨٨)، ثم كبر وأطال الركوع والسجود، فسبح في كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة(٢). وكان القاضي محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير.

ثم قرأ الخليفة المعز في الركعة الثانية الفاتحة فسورة الضحى (سورة رقم ٩٣)، ثم كبر وفعل ما فعله في الركعة الأولى، وجهر بالبسملة، مقتدياً بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ولما فرغ الخليفة من الصلاة، صعد المنبر وسلم على الناس يميناً وشمالاً فقال: «السلام عليكم ورحمة الله!». وكان في أعلى المنبر وسادة من ديباج مُثْقَل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين. وكان يصحب الخليفة على المنبر: جوهر الصقلي وابن عمار من رؤساء قبيلة كتامة المغربية، وشفيع حامل المظلة.

وبعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر مرتين. وقد ألقى الخليفة المعز الخطبة في خشوع وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين.

ولما فرغ الخليفة من الخطبة والصلاة انصرف في عساكره، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ، ممتطين الخيل وهم في أحسن زي، يحف بهم فيلان؛ فلما وصل الخليفة إلى القصر سمح للناس بالدخول، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون(٣).

(جـ) الحج:

وكان المسلمون يقيمون الاحتفالات ابتهاجاً بحلول موسم الحج، إذ يتوافد الناس من أمهات مدن العراق كواسط والبصرة والكوفة، بل من المناطق الواقعة شرقي العراق كفارس وخراسان، فيجتمعون في بغداد ويقيمون هناك في خيام. وكانت الدولة تهتم باستقبال هذه

---

(١) أبو المحاسن: (طبعة القاهرة) جـ٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) التسبيح في الصلاة هو أن يقال في الركوع: «سبحان ربي العظيم» مرة أو أكثر، كما يقال في السجود: «سبحان ربي الأعلى» مرة أو أكثر كذلك.

(٣) المقريزي: «خطط جـ١ ص ٤٥١، ٤٨٤، وجـ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٩٢.

الوفود، فتعين لهم مواضع لشرب الماء وتقدم لهم الأطعمة وتوفر لهم وسائل الراحة في هذا الموسم. وكان عدد الحجاج يبلغ عدة آلاف. وقد قدر ابن الجوزي[١] هذا العدد بعشرين ألف حاج في سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م).

وكانت شوارع بغداد تزخر بالعامة على اختلاف أعمارهم وأجناسهم لمشاهدة مواكب الحاج من البلاد المختلفة، مرتدين الملابس الزاهية.

وكانت الدولة العباسية تعين أمير الحاج، ويختار عادة من الأشراف الطالبيين، وتقيم لذلك احتفالاً رسمياً يحضره السلطان والأشراف وقاضي القضاة والقضاة والفقهاء، ويقام هذا الاحتفال في دار الخلافة حيث تخلع الخلع على أمير الحج. ومن هؤلاء الذين تقلدوا إمارة الحج: أبو الحسين بن موسى الموسوي سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م)، والشريف المرتضى سنة ٤٠٦هـ (١٠١٥م). ويرجع الاحتفال بتنصيب أمير الحج إلى عهد الخلفاء الراشدين[٢].

وقد أمدنا الخزرجي[٣] (ت ٨١٢/١٤٠٩) بمعلومات قيمة عن التقاليد والحفلات التي كانت تقام ببغداد في موسم الحج. وقد اشتملت هذه المعلومات على بيان الهدايا التي تقدم والخلع التي تخلع على الناس، فذكر في حوادث سنة ٦٥٦هـ أن أم الخليفة المستعصم عزمت على أداء فريضة الحج، فعين الخليفة أيبك الخاص الدويدار الصغير أميراً للحج، فحمل معه نفقات الحج، وهي خمسون ألف دينار، ومعها الكسوة الشريفة وكسوة حجرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وصدقة فقراء الحرمين، ومقدرات الكعبة، ثم أخرجت باقي السُّبُل[٤]، وهي سبيل الخاص، ويشتمل على مائتي جمل، وسبيل المستنصر بالله ويشتمل على مائة وخمسين جملاً، وسبيل الناصر لدين الله ويشتمل على مائة جمل، وسبيل أم الخليفة الناصر ويشتمل على ثمانين جملاً، وسبيل الخلاطية زوجة الخليفة الناصر.

وفي هذه السنة نفسها عزمت أم الخليفة المستعصم على الحج. ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال خرجت المحفتان[٥] والشمسة[٦]، وقد ألبست إحداهما في باب

---

(١) المنتظم جـ ٨ ص ٤٤.

(٢) انظر واجبات أمير الحج في كتابي تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة ١٩٦٤) ص ٤٤٠ - ٤٤١.

(٣) العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، مخطوطة مصورة بمكتبة المجمع العلمي العراقي رقم ٥٥، ٣ أجزاء، ورقة ١٦١.

(٤) جمع سبيل، ويراد بذلك أن ينيب شخص آخر ليحج عنه نظير أجر معين، والسبيل أيضاً السقاية.

(٥) وتشبه الهودج: سميت بذلك لأن الجند كانوا يحفون بالخليفة وهو راكب في المناسبات المختلفة.

(٦) الشمسة المحفة كالهودج، والشمسة هي المظلة، وهي عبارة عن قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب تحمل على رأس الخليفة أو السلطان في العيدين. راجع صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨. والشمسة هي =

الحجرة، وبين يديها أستاذ الدار ووكيل الخليفة وجماعة من الخدم، وحاشية دار الخلافة مشاة. ثم خرجت جمال باب الحجرة، وهي تربو على ألف جمل تحمل مختلف المواد من بغداد إلى مكة، وقد خصص لكل مادة من المواد التي نقلت معهم عدد معين من هذه الجمال نقل عليها صناديق التشريفات والخيم والسرادقات والملابس المعدة للصدقة، والكسوة والأطعمة والأشربة والحلوى والأبلوج[١] وجرار الخزف والأواني الزجاجية والمخابز وحوائج المطبخ وآلة الحلاويين والقصابين والخبازين وقرب الماء العذب وعلف الجمال.

ومما ذكره المقريزي نرى أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي ١٢٠,٠٠٠ دينار منها ثمن طيب وحلواء وشمع ١٠,٠٠٠ دينار، ونفقة الذين يرافقون الكسوة ٤٠,٠٠٠ دينار، وما يدفع لحماية القافلة وأجر الجمال وحفر الآبار في طريق قافلة الحج ٦٠,٠٠٠ دينار. وقد ذكر المقريزي أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة اليازوري ٢٠٠,٠٠٠ دينار[٢].

(د) الحفلات: الزواج

اقترنت حفلات الزواج بالبذخ والإسراف وحب الظهور، فإن السلطان طغرلبك الذي تقدمت به السن خطب بعد موت زوجته سنة ٤٥٤هـ (١٠٦١ - ١٠٦٢م) ابنة الخليفة العباسي القائم (وقيل أخته)، ومع أن هذا الطلب لم يلق قبولاً من الخليفة أول الأمر لم يسعه إلا القبول، وعقد الزواج في مدينة تبريز على صداق قدره ثلثمائة ألف دينار، بالإضافة إلى خراج واسط وأعمالها. ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل (جنوبي بحر الخزر)، فوصل إلى الري ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون التي تزوج منها الخليفة، فمرض السلطان وهو في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥هـ[٣].

وقد وصف ابن الأثير[٤] عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٠هـ زواج ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي إلى الخليفة العباسي المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) والحفلات التي أقيمت

= الستور التي تكسى بها الكعبة. وهي أيضاً نافذة مربعة في أعلى الحيطان، تترك مفتوحة عادة أو تزين بالزجاج لمرور الهواء أو الضوء فقط. انظر ما ذكرته عن هذا اللفظ في كتابي تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ص ٥٤١ - ٥٤٢) هامش رقم (٤).

(١) بضم الألف المهموزة، ويسميه الناس سكر النبات.

(٢) خطط جـ١ ص ٤٥٠. انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٦٥.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨ - ٢١. ابن الأثير: الكامل جـ١٠ ص ٧، ٩ - ١٠.

(٤) الكامل جـ١٠ ص ٥٩ - ٦٠.

بمناسبة هذا الزواج. ففي شهر المحرم من هذه السنة نقل جهاز ابنة السلطان إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وأربعة وسبعين بغلاً مجللة (مكسوة) بأنواع الديباج، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة لا يقدر ما تحويه من الجواهر والحلي بثمن، كما اشتمل الجهاز على مهد عظيم مزين بطبقة سميكة من الذهب. وقد أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه (وكان قد خرج عن بغداد للصيد)، يحمل التحف والمشاعل ومحفة بلغت غاية الحسن. وقال الوزير لتركان خاتون إن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يذكرنا بقوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[1]، وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره، فأجابت بالسمع والطاعة، وحضر الوزير نظام الملك ومن معه من أعيان الدولة، ومع كل منهم عدد كبير من الشمع والمشاعل وجاء نساء الأمراء ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وبين أيديهن الشمع والمشاعل يحملها الفرسان. ثم جاءت «الخاتون» ابنة السلطان في محفة مزينة بالذهب والجواهر، وقد أحاط بها مائتا جارية من الأتراك في المراكب الجميلة التي سارت إلى دار الخلافة. وكانت ليلة مشهورة لم يُر ببغداد مثلها، فلما كان الغد دعا الخليفة أمراء السلطان إلى السماط، وخلع عليهم وعلى كبار القواد، وأرسل الخلع إلى زوجة السلطان وإلى سائر الأميرات.

وفي سنة ٥٠٢هـ تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢م) أخت السلطان محمد بن ملكشاه بأصبهان على صداق قدره ١٠٠,٠٠٠ دينار، وتولى كتابة العقد القاضي أبو العلاء صاعد النيسابوري، وكان الوزير أحمد بن نظام الملك وكيلاً عن الخليفة. ونثرت الجواهر والدنانير على الحاضرين[2].

وفي سنة ٥٣١هـ خطب الخليفة المقتفي (٥٣٠ - ٥٥٥هـ) فاطمة ابنة محمد بن ملكشاه. وكان الوزير أبو القاسم الزينبي وكيلاً عن الخليفة في عقد الزواج. وحضر العقد أيضاً أخوها السلطان مسعود. وقد زفت فاطمة إلى الخليفة في سنة ٥٣٤هـ. ويذكر ابن خلكان[3] أن فاطمة اشتهرت بحسن التدبير، ولكنها لم تعمر طويلاً مع الخليفة، إذ توفيت في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٤٢هـ.

---

(١) مقتبسة من سورة النحل.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ١٧٨ و١٨٣.

(٣) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٥.

وقد أمدنا الخزرجي (ت ٨١٢)[١] بمعلومات قيمة عن زواج مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصري. ففي ليلة زفاف مجاهد الدين، أرسل إلى داره كثير من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر يزيد ثمنها على ثلثمائة ألف دينار. وقد عرضت الهدايا والتحف على الأمير مجاهد الدين، وكانت تتألف من مماليك الترك والخدم والأحباش والثياب والطيب والخيل وغيرها مما قدمه الزعماء وكبار رجال الدولة، كما أرسل إليه الخليفة المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ) ثلثمائة ألف دينار عيناً.

٨ ـ أوقات الفراغ

كان الناس يقضون أوقات فراغهم في الاستماع إلى الغناء أو الموسيقى أو في حضور مجالس الوعظ ومجالس القصص أو مشاهدة حفلات سباق الخيل أو اللعب بالطيور وغير ذلك.

ومجالس الوعظ كالمدارس الشعبية. وقد ظلت المساجد تؤدي مهمة الوعظ حتى أنشئت المدارس، كالمدرسة النظامية التي أسست في سنة ١٠٦٤/٤٥٧، ومدرسة أبي حنيفة (١٠٦٦/٤٥٩). وتمتاز مجالس الوعظ عن مجالس الثقافة بحضور الناس فيها دون شرط أو قيد. وهي تعالج مسائل الدين والدنيا. ولا شك أنه كان لمجالس الوعظ أثر ملحوظ في حفظ بعض التراث الإسلامي ولا سيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الإسلامية العليا.

ومجالس القصص تستهوي العامة عادة، فهي تعقد في الطرقات وفي المنازل وفي المساجد. ويختلف القاص عن الواعظ في أنه يقص حكايات الأقدمين وما تنطوي عليه من شجاعة أو صفات عالية كالنجدة والكرم والوفاء ونحوها. وعمل الواعظ ينطوي على تخويف الناس من عذاب الله ويحض على التمسك بأحكام الدين. ومجالس القصص هي تراث شعبي أصيل، ورثه العرب عن آبائهم الأقدمين؛ لذلك فإن مادة القصص تقوم على ذكر أيام العرب وأخبار الأمم المجاورة.

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة «قَصَص» في مواضع كثيرة[٢]. وهذا دليل واضح على مدى شيوع القصص عند العرب.

وقد تمتع رجال القصص الديني باحترام العامة ورجال الحكم، على حين وقف الفقهاء من القصاصين العامين موقفاً عدائياً ورموهم بالجهل وتضليل العامة.

(١) كتاب العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، انظر ناجي معروف كتاب المجالس الشرابية ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) انظر سورة القصص ٢٨: ٢٥، وسورة الأعراف ٧: ١٠١، وسورة يوسف ١٢: ٣.

وقد ذكر نظامي عروضي[١] أن الأمير طغانشاه بن ألب أرسلان حاكم هراة في عهد أبيه كان ذات يوم يلعب النرد[٢] مع البديهي الشاعر، وكان اللعب على عشرة آلاف دينار، ولما أوشك اللعب على الانتهاء «كان عند الأمير حجران في «بيت الشيش»[٣] ولأحمد البديهي حجران[٤] في بيت «اليك» واللعب للأمير. فاحتاط كثيراً، ثم رمى ليأتي «بالدش» فجاء الزهر «هبيك». فغضب الأمير غضباً شديداً وخرج عن طبعه، واشتد به الغضب، فكان يمسك السيف في كل لحظة، وارتعدت فرائص الندماء، فقد كان أميراً حدثاً ومقموراً[٥] محرجاً[٦]. فنهض أبو بكر الأزرقي واقترب من المطربين وأنشد هذا الدوبيت[٧]:

إذا طلب الدوش يأتي الهبيك
حتى لا تظن أن الزهر لا يعدل
فإن هذه «الضربة» التي ضربها هي مقصد الملك
جاءت على الخدمة ساجدة على الأرض[٨].

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي مولعاً بلعب الجوكان ولعبة البولو. وكان كثيراً ما يخرج للصيد[٩]؛ اصطاد ذات مرة طيراً كثيراً، فأمر بعده، فكان، كما قيل، عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار، وقال إنني أخاف من الله كيف أزهقت أرواح هذه الحيوانات دون سبب يدعو لاستعمالها في الطعام، وفرق كثيراً من الثياب والأموال بين أصحابه. وكان كلما صاد شيئاً من الطير أو الحيوان تصدق بعدده دنانير[١٠]. وقدضرب المثل بمهارة ملكشاه في الصيد، حتى قيل إنه كان يحتفل ببناء المآذن من جماجم وقرون الحيوانات التي اصطادها. وقد بلغ من ولعه بالصيد أنه أمر بأن يحتفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده في كل مرة، حتى قيل إن ما صاده

---

(١) جهار مقاله، ترجمة ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) وتسمى هذه اللعبة عند جمهور المصريين «الضمنة».
(٣) يعني إحدى خانات لوحة هذه اللعبة.
(٤) هو حجر من أحجار النرد عليه علامتان.
(٥) أي أنه يلعب القمار.
(٦) أناني يحب أن يحرج زميله.
(٧) نوع من أوزان الشعر يجري على خلاف بحور الشعر التي أقرها العرب وهي ثمانية عشر بحراً.
(٨) يقصد أن الدش قد جاء كما أراد الأمير، إلا أنه احتراماً للأمير قد وضع وجهه على الأرض فظهر الهبيك. وهذا يدل على مبلغ استهتار الأمراء بالشعوب وأنانيتهم وحبهم للسيطرة.
(٩) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٥٨.
(١٠) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٧٩.

بلغ سبعين غزالاً في اليوم. وقد رأى مؤلف كتاب «راحة الصدور» نفسه أحد هذه السجلات بخط الشاعر أبي طاهر الخاتوني الذي نظم ديواناً يعد من أقدم دواوين الشعر الفارسي، عنوانه «مناقب الشعراء»(١). وليس لهذا الديوان وجود الآن.

وقد سارت مهارة السلطان ملكشاه في الصيد على كل لسان، حتى إنه في السبعيني بطريق مكة منارة من جماجم الحيوانات التي اصطادها بنفسه، كما بنى منارة أخرى مماثلة ببلاد ما وراء النهر(٢).

ومن أنواع التسلية اللعب بالطيور ويقصد بها الحمام، وتربيته هواية محببة إلى كثير من الناس(٣). ولم يكن اللعب بالطيور مقصوراً على العامة، فقد شاركتهم في ذلك الطبقات الأخرى على اختلاف مستوياتها الاجتماعية، واستمر اللعب بالطيور والاهتمام بها طوال العصر العباسي الثاني. ولكن أكثر الناس كلفاً بها هم الخصيان. وقد عني الخلفاء بالطيور فاستخدموها في المراسلة، فاقتنوا أجودها وحسنوا سلالتها(٤).

وقد عملت بعض الحكومات على محاربة هذه الهواية، لأن بعض الشبان اتخذوها وسيلة للنظر إلى نساء الجيران وإقلاق راحة الناس وما يستتبع ذلك من الصياح ورمي الأحجار وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة(٥).

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة. وقد أباح الفقهاء هذه الرياضة على ألا تكون وسيلة للحصول على المال، لما فيها من إعداد الجند لركوب الخيل عند نشوب الحرب. وقد بلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولي في بعض الأحيان على الحصان المسبوق(٦).

وسباق الخيل هواية قديمة في بلاد العراق، وكان الخلفاء يحرصون على مشاهدة هذه الرياضة. ومن الخلفاء الذين عنوا بها المقتدر (ت ٣٢٠هـ) كما كان العامة يحرصون على مشاهدة سباق الخيل ويبادرون إلى تهنئة الفائز، وكانت الفروسية، شأنها في كل زمان،

---

(١) Browne, II, 183 - 184.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٧٩.

(٣) الدميري: حياة الحيوان الكبرى جـ ١٠ ص ٣٢٧.

(٤) الغزولي: مطالع البدور في منازل السرور جـ ٢ ص ٢٦٠.

(٥) الدميري جـ ١ ص ٣٢٧، ٣٣٣.

(٦) متز: الحضارة الإسلامية: ترجمة جـ ٢ ص ٢١٥.

تستهوي نفوس الشباب، وأصبح من الشائع التدريب على الرمي[١].

وقد وصف الفقيه القضاعي (ت ٤٥٤هـ) عرض الخيل فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة، وهي هذا العرض ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد. وقد أضاف هذا الفقيه المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة والجمعة ببغداد[٢].

وكانت حلبة السباق بمثابة الأعياد لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة. وفي هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق، كما جرت عادتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد.

وقد عني الخلفاء الفاطميون بعرض الخيل قبل سيرها في الموكب، فيجلس الخليفة على مرتبة عالية في الشباك[٣]. .

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٩ ص ٤٩.

(٢) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) وهو بناء مغلق من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التي قد يوضع فيها حاجز من الحديد. المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٧٧.

مصادر الكتاب

أولاً ـ المصادر العربية والفارسية

ابن الأثير (ت ١٢٣٢/٦٣٠): علي بن أحمد
١ ـ الكامل في التاريخ، ١٢ جزءاً (القاهرة ١٢٩٠هـ).
٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، ج ٣ من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون. الإدريسي (ت ١٢٥١/٦٤٩): الشريف محمد بن عبد العزيز
٣ ـ نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان (رومة ١٥٩٢)
٤ ـ المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٩٤)
خريطة الإدريسي (طبعها كنراد ميلر ١٩٢٦) والمجمع العلمي العراقي.
الأدفوي (ت ١٣٤٧/٧٤٨)
٥ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٩١٤/١٣٣٣) ابن اسفنديار (ت ١٢٢٠/٦١٧)؛ محمد بن الحسن.
٦ ـ تاريخ طبرستان، انتهى من تاريخه سنة ٦٠٦هـ، ثم أكمله مؤرخ آخر إلى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م). حققه عباس إقبال (القاهرة ١٣٢٠هـ).
ابن إياس (ت ١٥٢٣/٩٣٠) محمد بن أحمد
٧ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، ويعرف بتاريخ مصر.
٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ ـ ١٣١٢هـ)
ابن بسام (ت ١١٤٧/٥٤٢): أبو الحسن علي
٨ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٣٦٣م)
ابن بطوطة (ت ١٣٧٨/٧٧٩) أبو عبد الله محمد
٩ ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار، ٤ أجزاء، طبعه وترجمه إلى الفرنسية ديفريميري وسانجونيتي (باريس١٨٦٩ ـ ١٨٧٩)، والقاهرة، جزآن (١٩٢٨/١٣٤٦).
البغدادي (ت ١٠٧٠/٤٦٣): الحافظ أبو بكر الخطيب
١٠ ـ تاريخ بغداد، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩)
البكري (ت ١٠٩٧/٤٨٧): عبيد الله الأندلسي
١١ ـ كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة دي سلان والطبعة الثانية (الجزائر ١٩١١).

دي بور: ت. ج.
١٢ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام (الترجمة بالانجليزية، لندن ١٩٣٣)، ترجمة أبي ريدة (الطبعة الثانية، القاهرة)
البيروني (ت ٤٤٠/١٠٤٨): أبو الريحان محمد
١٣ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة أ. سخاو (لندن ١٨٧٩)
وليبزج (١٨٧٨ ـ ١٨٧٩).
١٤ ـ تاريخ الهند (ليبزج ١٩٢٥) ترجمه إلى الإنجليزية أ. سخاو (لندن ١٨٨٧).
التطيلي (ت ٥٦٩/١١٧٣) بنيامين النباري الأندلسي.
١٥ ـ رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٤٥).
جب: سير هاملتون
١٦ ـ دراسات في حضارة الإسلام، ترجمه عن الانجليزية إحسان عباس، ومحمد نجم، ومحمود زايد (بيروت ١٩٦٤).
ابن جبير (ت ٦١٤/١٢١٧): أبو الحسن محمد
١٧ ـ رحلة ابن جبير، طبعة و. رايت (ليدن ١٨٥٢)، ترجمها إلى الانجليزية برود هيرست (لندن ١٨٥٢).
جرجيس المكين (ت ٦٨٠/١٢٧٣) عبد الله.
١٨ ـ المجموع المبارك، نشره المستشرق أربنيوس مع ترجمته اللاتينية (ليدن ١٦٢٦) وترجمه فاتيير إلى الفرنسية (١٦٥٧).
الزنجاني: أبو الحسن علي
١٩ ـ زهرة الآس في بناء مدينة فاس (تلمسان ١٩٢٢)، (فاس ١٩٢٢)
الجعدي: عمر بن علي (ألفه سنة ٥٨٦هـ)
٢٠ ـ طبقات فقهاء اليمن، حققه فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٧).
الجوزجاني
٢١ ـ كتاب طبقاتي ناصري، طبعه نساو ليز، وترجمه رافيرتي في سلسلة مكتبة الهند، ويتناول الدول المتصلة بالهند، ألفه بعد فتح بغداد (٦٥٦هـ) بسنتين.
ابن الجوزي (ت ٥٩٧ ـ ١٢٠٠ ـ ١٢٠١): أبو الفرج عبد الرحمن.
٢٢ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (الهند ١٣٥٨هـ).
الجويني (ت ٦٨١/١٢٨٣): علاء الدين عطا ملك
٢٣ ـ تاريخ جهان كشا (أو تاريخ فاتح العالم) ٣ أجزاء سلسلة مجموعة جب التذكارية حققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزويني، نشر المستشرق هونسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب.

شلبي: أحمد
٢٤ ـ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٤).
٢٥ ـ المجتمع الإسلامي (القاهرة ١٩٦٣).

حاجي خليفة (ت ١٠٦٧/١٦٥٧): مصطفى
٢٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة فلوجل، ٧ أجزاء (ليبزج وليدن ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨).

ابن حزم (ت ٤٥٦/١٠٦٤) أبو محمد علي
٢٧ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧هـ).

حسين أمين
٢٨ ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد ١٣٨٥/١٩٦٥).

ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥): عبد الرحمن بن محمد
٢٩ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٧٤هـ، بيروت ١٨٨٦م).
٣٠ ـ مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠)، وترجمها إلى الفرنسية دي سلان وإلى الانجليزية روزنتال.

ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨١): شمس الدين أحمد
٣١ ـ وفيات الأعيان، مجلدان (القاهرة ١٣١٠هـ). ٦ مجلدات (القاهرة ١٩٤٨). ترجمه إلى الإنجليزية البارون دي سلان.

الدباغ (ت ٦٩٦/١٢٩٦): عبد الرحمن.
٣٢ ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ٤ أجزاء (تونس ١٣٢٠هـ).

ابن دقماق (ت ٨٠٩/١٤٠٦): إبراهيم بن محمد المصري.
٣٣ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤، ٥ (القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣).

ابن أبي دينار (ت ١١١٠/١٦٩٨): محمد بن أبي القاسم القيرواني.
٣٤ ـ المؤنس في ذكر بلاد إفريقية وتونس (تونس ١٢٨٦هـ).

الدوري: عبد العزيز
٣٥ ـ النظم الإسلامية (بغداد ١٩٥٠)
٢٦ ـ دراسات في العصور الإسلامية المتأخرة (بغداد ١٩٤٥)

رشيد الدين: (ت ٧١٨/١٣١٨): فضل الله الهمداني
٣٧ ـ جامع التواريخ ويتناول تاريخ المغول، سلسلة جب التذكارية (لندن ١٩١٠) ترجمه إلى الفرنسية «كترمير».

الحريري (ت ٥١٥/١١٢١) أبو محمد القاسم البصري
٣٨ ـ مقامات الحريري (المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة)

ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤): أبو محمد علي
٣٩ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧هـ).
٤٠ ـ جمهرة أنساب العرب، طبعة عبد السلام هارون، دار المعارف (القاهرة ١٩٦٢)
حسن إبراهيم حسن
٤١ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي طـ ٧ جزء أول (القاهرة ١٩٦٤)، جزء ثان (القاهرة ١٩٦٤)، جزء ثالث (القاهرة ١٩٦٥) ترجم إلى الفارسية والأردية.
٤٢ ـ تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤).
٤٣ ـ النظم الإسلامية بالاشتراك، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٢)
٤٤ ـ **اليمن البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨)**
٤٥ ـ انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).
الراوندي (ت ٥٩٩/١٢٠٣): محمد بن علي
٤٦ ـ واحة الصدور وآية السرور، ترجمه إبراهيم أمين، ونشر النص محمد إقبال، سلسلة جب التذكارية (لندن ١٩٢١).
زامباور: إدوارد فون
٤٧ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، أخرجه الدكتور زكي محمد حسن، وحسن أحمد محمود، جزآن (القاهرة ١٩٥١).
ابن أبي زرع (ت ٧٢٦/١٣٢٦): أبو الحسن علي
٤٨ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس(الرباط ١٩٣٦).
زهير (ت ٦٥٦/١٢٥٨): أبو الفضل البهاء
٤٩ ـ البهاء زهير (تأليف الشيخ مصطفى عبد الرازق) القاهرة ١٣٤٨/١٩٣٠.
زيادة: نيقولا.
٥٠ ـ الحسبة والمحتسب في الإسلام (بيروت ١٩٦٢).
زيدان: جرجي
٥١ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، ٥ أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥).
زيدان: عبد الرحمن
٥٢ ـ إتحاف أعلام الناس بجمال مدينة مكناس، ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩).
٥٣ ـ العز والصولة في معالم الرتبة (الرباط ١٣٨١/١٩٦١).
السبكي (ت ٧٧١/١٣٦٩): عبد الوهاب تاج الدين
٥٤ ـ طبقات الشافعية، ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٢٤هـ)
سترينج: جي لي
٥٥ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس، مطبعة الرابطة (بغداد

(١٣٧٣/١٩٥٤).
٥٦ ـ بلدان الخلافة الشرقية، مطبعة الرابطة (بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤).
السخاوي (ت ٩٠٢/١٤٩٦): أبو الحسن علي.
٥٧ ـ تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات (القاهرة ١٣٥٦/١٩٣٧).
ابن سعيد (ت ٦٧٣/١٢٧٥): علي بن موسى الأندلسي
٥٨ ـ كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق (ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩).
السلاوي: أبو العباس أحمد.
٥٩ ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٤ مجلدات (القاهرة ١٩١٠ ـ ١٩١٢)، ١٠ مجلدات (الدار البيضاء ١٩٥٤).
السمرقندي: أحمد بن عمر نظامي عروضي
٦٠ ـ جهار مقاله (ليدن ١٣٢٧هـ) ترجمه إلى الانجليزية إدوارد براون، وإلى العربية عزام والخشاب، مع تعليقات ميرزا محمد.
السمعاني (ت ٥٦٢/١١٦٦ ـ ١١٦٧): القاضي أبو سعيد عبد الكريم.
٦١ ـ كتاب الأنساب، سلسلة جب التذكارية، ج/٢٠ (لندن ١٩١٢).
ابن سيدة (ت ٤٥٨/١٠٦٥): أبو الحسن علي الأندلسي
٦٢ ـ كتاب المخصص، ٢٠ جزءاً (القاهرة ١٣٢١هـ).
السيوطي (ت ٩١١/١٥٠٥): جلال الدين عبد الرحمن
٦٣ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزآن (القاهرة ١٣٢٧هـ)، ترجمه إلى الانجليزية هـ. جاريت (كلكتا ١٨٨١).
٦٤ ـ تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٥١هـ).
أبو شامة (ت ٦٦٥/١٢٦٧).
٦٥ ـ الروضتين في أخبار الدولتين، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون، المجلد الثالث، (القاهرة ١٢٨٧هـ).
أبو شجاع (ت ٤٨٨/١٠٩٥): محمد بن الحسين الروذراوردي
٦٦ ـ ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه، طبعة أمدروز، ترجمه إلى الانجليزية أمدروز، (أكسفورد ١٩٢١).
ابن شداد (ت ٦٣٢/١٢٣٤).
٦٧ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون، المجلد الثالث، (القاهرة ١٣١٧).
الشيزري (ت ـ حول ٥٨٩ ـ ١١٩٣): عبد الرحمن بن نصر.
٦٨ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، طبعة السيد الباز العريني (القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦).

أبو صالح (ت ١٢٠٨/٦٠٥): الأرمني.
٦٩ ـ كتاب كنائس وأديرة مصر، طبعة ب. إفيتس (اكسفورد ١٨٩٥).
الطرطوشي (ت ١١٢٦/٥٢٠): أبو بكر محمد.
٧٠ ـ سراج الملوك (القاهرة ١٢٨٩هـ).
ابن طباطبا (ت ١٣٠٩/٧٠٩): محمد بن علي ويعرف بابن الطقطقي.
٧١ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٩٢٧/١٣٤٥)، ترجمه إلى الإنجليزية هويتنج (لندن ١٩٤٧).
الطوسي (ت ١٠٦٧/٤٦٠): محمد بن الحسن
٧٢ ـ فهرست الشيعة (كلكتا ١٨٥٥). النجف (١٩٦١/١٣٨٠).
ابن أبي طي (ت ١٢٣٢/٦٣٠): يحيى ابن حميدة.
٧٣ ـ شرح لامية العرب للشنفرى
ابن عبد الحق (ت ١٣٣٨/٧٣٩).
٧٤ ـ مراصد الاطلاع، أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣).
العماد الأصفهاني (ت ١٢٠٠/٥٩٧ ـ ١٢٠١): أبو عبد الله محمد
٧٥ ـ زبدة النصرة ونخبة العصرة، طبعة هوتسما (ليدن ١٨٨٦).
عبد اللطيف (ت ١٢٣١/٦٢٩): موفق الدين البغدادي
٧٦ ـ الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، نشره وترجمه دي ساسي (باريس ١٨١٠).
٧٧ ـ مختصر تاريخ مصر، ترجمة ج. هوايت (اكسفورد ١٨٠٠).
عبد النعيم حسنين
٧٨ ـ سلاحقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩).
العتبي (ت ١٠٣٧/٤٢٨): أبو نصر
٧٩ ـ حياة السلطان محمود الغزنوي المسمى تاريخ اليميني. جزآن (القاهرة ١٢٨٦هـ)
ابن عذارى (ت القرن السابع الهجري): أبو عبد الله محمد المراكشي.
٨٠ ـ البيان المغرب في أخبار المغرب، ٣ أجزاء، طبعة دوزي (ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٥١)
ابن عربي (ت ١٢٤٠/٦٣٨): محيي الدين
٨١ ـ كتاب فصوص الحكم (نشره الدكتور أبو العلا عفيفي: القاهرة ١٩٤٦).
الغزولي (ت ١٤١٢/٨١٥): علاء الدين الدمشقي
٨٢ ـ مطالع البدور في منازل السرور (القاهرة ١٣٠٠هـ)
علام: عبد الله
٨٣ ـ الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤)

العلي: صالح أحمد
٨٤ ـ المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (بحث مستل من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤).
عمارة اليمني (ت ٥٦٩/١١٧٤).
٨٥ ـ تاريخ اليمن (طبعة هنري كاسيل، لندن ١٨٩٢).
الغزالي (ت ٥٠٥/١١١١): الإمام أبو حامد
٨٦ ـ إحياء علوم الدين، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٨هـ)
٨٧ ـ المنقذ من الضلال (دمشق ١٣٥٣/١٩٣٤)
٨٨ ـ بداية النهاية، ومنه نسخ خطية بمكتبات باريس وبرلين والجزائر.
٨٩ ـ فضائح الباطنية، النص العربي والترجمة الألمانية (طبعة ا. جولدسيهر) ليدن ١٩١٦.
٩٠ ـ التجريد في علم التوحيد، مخطوط بمكتبة الاسكوريال
٩١ ـ تهافت الفلاسفة، طبع في القاهرة غير مرة (بمباي ١٣٠٤هـ)
أبو الفدا (ت ٧٣٢/١٣٣١): اسماعيل عماد الدين
٩٢ ـ المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦هـ) وجزآن (القاهرة ١٣٥١هـ)
أبو الفرج (ت ٦٨٥/١٢٨٦): غريغورس أبو الفرج المعروف بابن العبري.
٩٣ ـ مختصر تاريخ الدول، طبع أكثر من مرة (بيروت ١٨٩٠)
ابن الفوطي (ت ٧٢٣/١٣٢٣) عبد الرزاق أحمد الصابوني
٩٤ ـ الحوادث الجامعة
ابن القاضي: أحمد بن محمد المكناسي
٩٥ ـ جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، مخطوط رقم ١٢٤٢ (الرباط).
القزويني (ت ٦٨٢/١٢٨٣): أبو عبد الله زكريا
٩٦ ـ عجائب المخلوقات (لايبسك ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩).
ابن القلانسي (ت ٥٥٥/١١٦٠): أبو يعلى حمزة
٩٧ ـ ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)
الكتبي (ت ٧٦٤/١٣٦٢) محمد بن شاكر الحلبي.
٩٨ ـ فوات الوفيات، مجلدان (القاهرة ١٩٥١)
ابن كثير (ت ٧٧٤ ـ ١٣٧٢): عماد الدين اسماعيل الدمشقي
٩٩ ـ البداية والنهاية، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٢)
ماجد: عبد المنعم
١٠٠ ـ نظم الفاطميين ورسومهم جزآن (القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٥).
الماوردي (ت ٤٥٠/١٠٥٧): أبو الحسن علي البصري

١٠١ ـ الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨هـ) وترجمه إلى الإنجليزية ك.ا.ج. هويتنج (لندن ١٩٤٧).
١٠٢ ـ أدب الوزير، ويعرف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (القاهرة ١٣٤٨/١٩٢٩)
١٠٣ ـ متز: آدم
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمه عن الألمانية والانجليزية محمد عبد الهادي أبو ريدة، جزآن (القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١)
المراكشي (ت ٦٦٩/١٢٧٠): عبد الواحد
١٠٤ ـ كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، طبعة دوزي (ليدن ١٨٨١)، وترجمه إلى الفرنسية فافيان (الجزائر ١٨٩٣)، (القاهرة ١٩٤٩).
المقدسي (ت ٣٨٧/٩٩٧) شمس الدين أبو عبد الله
١٠٥ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ١٨٧٧).
المقري (ت ١٠٤١/١٦٣٣): أحمد بن محمد التلمساني
١٠٦ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٤ أجزاء (القاهرة ١٢٧٩/١٨٦٢)، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٦٩/١٩٤٩)
١٠٧ ـ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٣٦٠).
المقريزي (ت.٨٤٥/١٤٤١): تقي الدين أحمد.
١٠٨ ـ للمواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جزآن (القاهرة ١٢٧٠هـ).
١٠٩ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا (الفاطميين) (بيت المقدس ١٩٠٨)، (القاهرة ١٣٦٧/١٩٤٨).
ابن القلانسي (ت ٥٥٥/١١٦٠) أبو يعلى حمزة
١١٠ ـ ذيل كتاب تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)
أبو المحاسن (ت ٨٧٤/١٤٦٩): جمال الدين بن تغري بردي
١١١ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٢٨ ـ ١٣٧٥).
ابن مماتي (ت ٦٠٦/١٢٠٩): شرف الدين
١١٢ ـ كتاب قوانين الدواوين طبعة عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣).
المؤيد في الدين (ت ٤٧٠/١٠٧٧): الداعي علم الإسلام هبة الله
١١٣ ـ ديوان المؤيد، نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩)
١١٤ ـ السيرة المؤيدية، (القاهرة ١٩٤٩)
١١٥ ـ كتاب المجالس المستنصرية، نشره محمد كامل حسين
١١٦ ـ نبذ تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى كتاب «مفاخر البربر» لمؤلف مجهول الاسم ألفه سنة ٧١٢/١٣١٢: نشره بروفنسال (الرباط ١٩٤٣).

النسوي (ت قرن ١٣م) شهاب الدين محمد.
١١٧ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي: نشره وحققه حافظ أحمد حمدي (القاهرة ١٩٥٣).
النووي (ت ٦٧٦/١٢٧٧): أبو زكريا بن شرف
١١٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات، جزآن (القاهرة بدون تاريخ)
هلال الصابي (ت ٤٤٨/١٠٥٦): أبو الحسن بن المحسن
١١٩ ـ تاريخ ج ٨ (٣٨٩ ـ ٣٩٣هـ). ذيل لكتاب تجارب الأمم لمسكويه، وترجمه مرجليوث
١٢٠ ـ تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، طبعة امدروز.
الهني: محمد بن أحمد
١٢١ ـ المورد الهني، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط
ابن واصل ـ (ت ٦٩٧ ـ ١٢٩٧): جمال الدين
١٢٢ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. طبعه جمال الشيال، جزآن (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧)
وصاف الحضرة (ولد ٦٦٣هـ): عبد الله بن فضل الله مؤرخ حياة غازان
١٢٣ ـ تجزئة الأمصار أو «تاريخي وصاف»
ياقوت (ت ٦٢٦/١٢٢٩): شهاب الدين الرومي
١٢٤ ـ معجم البلدان، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦)
١٢٥ ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ويعرف باسم معجم الأدباء طبعة سلسلة جب التذكارية، ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١).

ثانياً - المصادر الإفرنجية

Amari, M.
1 - Storia dei Musulmani di Sicilia (Firenze, 1854 - 72).
Amedroz, H.F.
2 - The Office of the cadi in the Ahkam Sultaniyya of Mawardi (J.R.A.S.,), July, 1911.
3 - The Mazalim jurisdiction in the Ahkam Sultaniyya of Mawardi (J.R.A.S., July 1911).
4 - The Hisba jurisdiction (J.R.A.S., 1916)
Arnold, Sir T.W.
5 - The Preaching of Islam, a history of the Propagation of the muslim Faith, 3 rd ed. by Reynold Nicholson (London, 1935).
6 - The Caliphates, Oxford at the Clarendon Press (1924).
7 - The Legacy of Islam (edited by T.W. Arnold and A. Guillaume) (Oxford, 1931).
Barker, E.
8 - The Crusades (London, 1925).
Brockelmann. Carl.
9 - Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898 - 1902).
Browne: E.
10 - Literary History of Persia.
1. From the Earlies Times until Firdawsi (London, 1909).
2. From Firdawsi to Sa'di (London, 1906).
3. Persian Literature under Tartar Dominion (1265 - 1502 A.D.).
4. Modern Times (1500 - 1924). (Cambridge, 1930).
11 - An Account of a Rare manuscript History of the Seljuks (London, 1906).
Cahun
12 - Pan Turanian Movement.

مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول إلى سنة ١٤٠٥م

Darmester, James
13 - Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'a nos jours (Paris, 1885).
Dozy, R.
14 - Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'a la conquete de l'Andalusie par les Almoravides (711 - 1110 A.D.), 4 vols. (Leyden, 1861). Translated into English under the title Spanish Islam by F.G. Stokes (London, 1913).
15 - Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).
16 - Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).
Fage, J.D.

17 - An Introduction to the History of West Africa (Cambridge at the University Press, 1955).

Fagnan, E.H.

18 - Additions aux dictionnaires arabes (Algier, 1923).

19 - L'Afique Septentrionale au XII siècle de notre ère (Constantine, 1900).

Fayzee, Asaf A.A.

20 - Outlines of Muhammadan Law (Oxford University Press, 1955).

Finlay, George.

21 - History of the Byzantine Empire (716 - 1500), (London, 1856).

Fischel, Walter J.

22 - The Origin of Banking in Mediaeval Islam: A Contribution to the Economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century (J.R.A.S., April, 1933).

23 - Jews in the Economic and political life of mediaeval Islam (London, 1937).

Friedlaender, Isräel.

24 - The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm, Journal of the American Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).

Gardet.

·25 - La cité musulmane (Paris, 1954).

Gobineau, De.

26 - Religion et Philosphie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).

Goldziher, I.

27 - Mohammed anishe Studien (Halle, 1888 - 90).

28 - Le Aogme et la Loi de l'Islam, trans by Felix Aren (Paris, 1920).

Grunebaum, G.E. von.

29 - Medieval Islam. A Study in the Cultural Orientation. 2nd ed. The University of Chicago Press (Chicago, Illinois, 1953).

30 - Islam, Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition, Rutledge and - Kegan Paul Ltd., London (Chicago, 1955).

Guyard, S.

31 - Unity and Variety in Muslim Civilization : ed. by, The University of Chicago Press (Chicago, 1955).

Guyard, S.

32 - Haagmenis relatifs`a la doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).

Haines.

33 - Africa today . ed by (Baltimore, 1955).

Hamdani, H.

34 - Some Unknown Ismaïli Authors (J.R.A.S), 1933.

Heyd. W.

35 - Histoire du Commerce du Levant au Moyen Ages, 2 vols (Leipsiz, 1923).
Hitti, Philip K.
36 - History of the Arabs (5th ed. London, 1953).
37 - The Origin of the Islamic State (New York, 1916).
Houtsma.
38 - Recueil de textes relatifs à l'Histoire des Seldjoucides (Leyden, 1889).
Howorth, Sir Henry.
39 - history of the Mongols, 3 vols in 4 parts. (London, 1876 - 1888).
Huart, C. L.
40 - Histoire des Arabes, 2 vols (Paris 1912).
Hughes. Thomas Patrick.
41 - A Dictionary of Islam (London, 1885).
Kremer, Von A.
42 - Orient Under the Caliphs translated by Khuda Bukhsh (Calcutta. 1920 - 1927).
Lane, Edward W.
43 - Arabian Society in the Middle Ages, ed by Stanley Lane - Poole, (London, 1883).
44 - Arabic. English Lexicon, 8 parts (London, 1863 - 1893).
Lane - Poole, Stanley.
45 - The Story of Cairo (London, 1912).
ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين إلى العربية بعنوان سيرة القاهرة.
46 - History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901).
47 - Coins and Medals (London, 1892).
48 - Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, 1893).
49 - The Muhammadan Dynasties (Paris, 1925).
50 - The Moors in Spain (London, 1887).
51 - Catalogue of the Collection of Arabia Coins Preserved in the Khediviel Library at Cairo (London, 1897).
52 - Coinage of Egypt A.H. 358 - 922 Collection of the British Museum, Oriental Coins (1892).
Lavoix, H.
53 - Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Decoxoi.
Léon l'Africain, Jean.
54 - Description de l'Afrique, trans by A. Epaulard, 2 vols. (Paris, 1955). English translation under the title: The History and Description of Africa by J. Pory, 3 vols. (London, 1846).
Levy, Reuben.
55 - A Baghdad Chronicale (Cambridge, 1929).

56 - The Social Structure of Islam, 2nd ed. (Cambridge at the University Press, 1957).

Lewis, Bernard.

57 - The Origins of Ismailism (Cambridge, 1940).

Isma'ili Notes Reprinted from the B.S.O.F.S. (University of London), vol. XII, Parts 3 and 4 (1948).

58 - The Arabs in History, Hutchison's University Library History (Oxford, 1950).

59 - The Fatimids and the Route to India, Extrait de la Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université D'Istanbul, 11e année, No. 1 - 4 (Istanbul, 1952).

Mann, J.

60 - The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs 2 vols. (Oxford, 1920, 1922).

Migeon. G.

61 - Manuel d'Art Musulman, 2 vols, (Paris, 1927).

Nasir Khosrau (d. 481/1088).

62 - Rélation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881).

Nicholson, Reynold A.

63 - Literary History of the Arabs (Cambridge, 1930).

Nizam al - Mulk (d. 485/ 1092), Hassan al - Tusi.

64 - Siasset Naméh, French translation from Persian by C.Schefer, 3 vols. (Paris, 1891 - 97), English translation by Robert Darke (The Book of Government or Rules of Kings) (London, 1960).

O'Leary. De Lacve.

65 - A Short History of the Fatimid Kaliphates (London, 1923).

Pauty. E.

66 - Villes spontanées et Villes creées en Islam, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Université d'Alger, IX (1951).

Provencal, Levi.

67 - L'Espagne musulmane au xe siècle, Institutions et vie sociale (Paris, 1932).

68 - La Civilisation arabe en Espagne (Paris, 1948).

69 - Histoire de l'Espagne musulmane, Tome III C L'Espagne du califat de Cordow (Paris Editions G.P. maisonneuve v Co., 1957).

الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية (تطوان ١٩٥١)

De Renaud, M.

70 - De l'Art militaire chez les Arabes au Moyen Age, IX/12 (Journal Asiatique, 1848).

71 - Relations Politiques et commerciales de l'Empire romain avec l'Asie Orientale (Journal Asiatique, 1863).

Ross, D.

72 - The Empire of the Seljuk Turks (The Universal History of the World, Vol. V)

De Sacy, Silvestre.

73 - Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols, (Paris, 1838).

Sanaullah, M. F.

74 - The Decline of the Seljukid Empire (Calcutta, 1938).

De Slane, M.

75 - Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanesde l'Afrique Septentrionale, Introduction (Algiers, 1852).

Steingass: F.

76 - Persian - English Dictionary (London, 1930).

Stern, G.H.

77 - The Succession to the Fatimid imam al - Amir, the claims of the later Fatimids to the imamate, and the rise of the tayyibi Ismailism, in Oriens, vol.4, No. 2 (December, 1951). pp. 193 - 255.

78 - Marriage in Early Islam (London, 1939).

De Sacy, Silvestre.

79 - Crestomathie Arabe, 3 vols., 2nd, ed (Paris, 1826 - 1827).

Vasiliev, Alexander A.

80 - History of the Byzantine Empire (324 - 1453), (Wisconsin, 1952).

Whishaw, Bernard.

81 - arabic Spain (London, 1912).

Wiet, Gaston.

82 - Précis d'Histoire musulmane d'Egypte, 4 vols, (Le Caire - Rome, 1932 - 35), ed by G, Wiet.

83 - Histoire de la Nation Egyptiènne, 7 vols. (Paris, 1931 - 40) vol. IV (1939): L'Egypte Arabe, par G.Wiet (ed. by Hanoutau) Wustenfeld, F.

84 - Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und familion (Gottingen, 1852 - 3).

85 - Geschichte der Fatimiden Chalifen (Gottingen, 1881).

86 - Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882)

Sacy, Silvestre de

87 - Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols (Paris, 1838).

الفهارس العامة

* فهرس الأعلام والقبائل والجماعات والأمم والشعوب
* فهرس الأماكن والبلدان
* محتويات الكتاب

فهرس الأعلام والقبائل والجماعات والأمم والشعوب

ـ أ ـ

ـ ت ـ

- ح -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ص -

ـ ظ ـ

ـ ع ـ

- غ -

ـ ق ـ

ـ ك ـ

- ل -

- م -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

- ي -

فهرس الأماكن والبلدان

ـ ب ـ

- ت -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

ـ ط ـ

ـ ع ـ

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ن ـ

- هـ -

- و -

- ي -

محتويات الكتاب

الباب الأول

العصر السلجوقي الأول
من ظهور طغرلبك إلى وفاة ملكشاه
٤٣٩ - ٤٨٥/١٠٣٨ - ١٠٩٢

الباب الثاني

عصر سنجر وإخوته
٤٨٥ - ٥٥٢/١٠٩٢ - ١١٥٧

الباب الثالث

الدولة المستقلة التابعة للخلافة العباسية

الباب الرابع

غزوات المغول ـ سقوط بغداد

الباب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة غير التابعة لحكم العباسيين

الباب السادس

العلاقات الخارجية

الباب السابع

الحركات السياسية والدينية

الباب الثامن

نظم الحكم

الباب التاسع

الحالة الاقتصادية

الباب العاشر

الثقافة

(أ) العلوم النقلية

(ب) العلو العقلية

الباب الحادي عشر

الفن

الباب الثاني عشر

الحالة الاجتماعية